بيان الهدى من الضلال

في الرد على صاحب الاغلال

تأليف

العلامة المحقق فضيلة الشيخ

ابراهيم بن عبد العزيز السويح النجدي

قاضي المقاطعة الشمالية

الجزء الثاني

١٣٦٩

المطبعة السلفية ومكتبتها

٢١ شارع الفتح ء بجزيرة الروضة (القاهرة)



الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبينا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين

الكلام على المبحث السادس
نواميس الطبيعة

عنوانه فى كتابه :

(هل فى سنن الله محاباة)
(الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم)
(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ومقصوده بهذا العنوان تقرير ما ذكره وكرّره مرارا فى أن التقدم كله منوط بالأسباب المادية فقط ، أى ليس لمشيئة الله تعالى وإرادته أثر فى الأسباب والمسببات والوسائل والنتائج البتة ، بل هذه الحوادث كلها على اختلاف أنواعها هى نتائج تفاعل الطبيعة المستمرّ ، وقد تذرَّع بحثه العميق الى إبطال خصائص الإيمان والتقوى والعمل الصالح بتسمية ذلك (محاباة) ، فجعل تفضل الله على من شاء من عباده وجزاءه على الإيمان والتقوى محاباة وتشويشا وفوضى واضطرابا ، ورفض جميع ما علم بالضرورة من دين الاسلام من أنه سبحانه وتعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ويختص برحمته من يشاء ويعزّ من يشاء ويذل من يشاء ، وأنه يدافع عن الذين آمنوا ، وأنه مع المؤمنين ومع المتقين ومع المحسنين ، وأنه برئ من المشركين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور ، والآيات فى اثبات هذه الأصول كثيرة معلومة يأتى الكلام عليها

واعلم أن المحاباة يراد بها أمور : أحدها الاختصاص الذى يختص الله به من يشاء من عباده من التوفيق والهداية والنصر والإعانة وغير ذلك ، وهذه ثابتة بالشرع والعقل والضرورة ، وإنكارها مكابرة للمعقول وقدح فى الأديان ، وكل أحد من الناس مضطر الى الإقرار بها ، فإن تفاوت الناس - بل المخلوقات - فى الخصائص والخصال المتنوّعة - كالقوة والضعف ، والعلم والجهل ، والعقل والبصيرة ، والبلادة والذكاء ، والغنى والفقر ، والجمال والقبح وأمثال ذلك - أمر معلوم بالحس لا يقبل الجدال ، ولقد كان كثير من المشركين يلجأون الى هذه الشبهة - أى إنكار الاختصاص - عند ما تخنقهم الحجج ولو بالمكابرة ، كما قال تعالى ﴿ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء ﴾ وقال تعالى حاكيا عنهم ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذن لخاسرون ﴾ وقال تعالى مخبرا عنهم إنهم قالوا لرسلهم ﴿ إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴾ وقال تعالى ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ وقال تعالى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وقال تعالى ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ فبعض المشركين كانوا ينكرون هذا الاختصاص لانه عندهم محاباة ، فخلف من بعدهم ورثتهم من الملاحدة والمنافقين فسموا فضل الله تعالى بالاعانة والتأييد (محاباة) توسلا منهم الى نفى أصل الدين ، فانه اذا انتفى هذا بطل الدعاء وبطلت العبادة بأنواعها ، ويكون حينئذ ولى الله كعدوه سواء ، فقد علمت أن هذا الأمر فى الاختصاص الذى يسميه هو وأمثاله (محاباة) ثابت شرعا وعقلا وحسا ، وهناك أمر آخر قد يسميه بعضهم محاباة وهو إكرام من لا يستحق الكرامة فى الحكمة الالهية ، بل يكرمه الله مراعاة لكريم عليه ، فهذه المحاباة - بحسب اصطلاحهم على هذه التسمية - باطلة ، فالله

سبحانه لا يكرم أحدا الا بعمله أو بما شرعه من الامور التي يستحق عليها الإكرام ، فلا يكرم أبدا من يستحق العقوبة المحتومة مراعاة لكريم عليه من خلقه كائنا من كان ، فلا يكرمه مخالفة لسنته في إهانة العاصي وإكرام المطيع ، ولا يشفع عنده أحد الا باذنه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام لفاطمة رضي الله عنها « يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أملك لك من الله شيئا » وقال لعمه أبي طالب « يا عم ، قل لا اله الا الله ، كلمة أحاجّ لك بها عند الله » ومع ذلك فلم يقلها ومات على دينه . وكان خليل الرحمن ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد حرص كل الحرص على إسلام أبيه فنصحه ودعاه الى التوحيد بل واستغفر له ، ومع ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد قال تعالى ﴿ انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ فهذه المحاباة ـ على حسب هذا الاصطلاح ـ منفية عن الله تعالى ، وليست من شرعه . وقد روى الامام أحمد والحاكم وصححه عن أبي بكر مرفوعا من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر أحدا محاباة فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » وعن ابن عباس مرفوعا « من استعمل رجلا على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » رواه الحاكم وصححه ، ففي هذا بيان أن المحاباة وهي إعطاء الانسان مالا يستحقه كتولية من ليس فيه كفاءة للولاية لا ساءته ، أما اذا كان محسنا وكان كفؤا للولاية فتوليته ليست محاباة [1] . ومن يقول إن المسيء كالمحسن وإن الإحسان والاساءة لا أثر لها فقد قال بالمحاباة باللزوم ، فان إعطاء المسيء ما ليس يستحقه وحرمان المحسن ما هو حق له محاباة صريحة . فهذا الملحد وأضرابه هم القائلون بمقتضى أصولهم بالمحاباة كما هو ظاهر ، وقد أكثر هذا المغرور من

---

(١) اذ لو كانت محاباة لانسد باب الولاية مطلقا ، فان الناس بالنسبة الى الخلق والعنصر سواء .

التعبير بمثل هذه الألفاظ المشتبهة المجملة فى كثير من كلامه ، ولا سيما فى المضايق الخبيثة ، وغرضه من ذلك جعلها قابلة لتأويله وتحريفه متى احتاج الى التخلص مما يرد عليه من الألفاظ التى ظاهرها الكفر والالحاد ، وهو هنا توسل بنفى المحاباة بجملة لقصد ما أشرنا اليه فى الامر الأول من التخصيص الذى ثبت بالشرع ، فانه أطال فى انكار تدخل العبادات أو آثارها وسخط الله ورضاه فى شيء من الأسباب والنتائج أو التقدم أو التأخر كما سيأتى . قال المغرور

(هل فى سنن الله محاباة) ، (الجهل بنواميس الحياة مانع من التقدم)

(كيف يجب أن تفهم قوانين الطبيعة)

ينشيء رجل مسلم متجراً أو مصنعا فى مكان ما ، ويعرض فيه أنواعا من أنواع المصنوعات ، فيقضى له سوء تفكيره وتقديره بالكساد ، فيظل يموت جزءا جزءا حتى يودع آخر أنفاسه ، أو يبقى عاجزا عن الموت وعن الحياة بدون أن يحاول فى الأكثر الغالب العلاج أو الخلاص ، فاذا ما زرته أو عدته قبل نهايته أو فطنت لحالته وقلت له : لماذا أنت هكذا ، ولماذا خصصت بالكساد دون الآخرين ، ولماذا تصبر على هذا الموت البطيء المحقق ، ولماذا لا تحاول الخروج من هذا المأزق ، ولماذا لا تغير المكان أو النوع أو طريقة العرض . ومن المعلوم أن الاسباب الطبيعية للكساد الصناعى أو التجارى ثلاثة أمور : مكان العرض ، فقد يكون اختيار المكان خطأ . ونوع المعروض ، فقد يكون النوع المعروض غير مطلوب ، وطريقة العرض والمعاملة وتقدير القيم والأسعار فقد تكون الطريقة سقيمة منفرة . اذا ما وجهت هذه الاسئلة أو بعضها الى ذلك الجاهل بسنن الحياة ونظام الكون ، الجاهل بالله ، قال لك وكله ثقة وايمان بما قال : ان الرزق والنجاح ليسا بالشطارة ولا بالجدارة ولا بالبراعة ولا بالمكان ولا بالأسلوب ولا بالمعروض والعرض ، انما ذلك كله بالحظ وبالقضاء والقدر ، والمقضىّ المكتوب لك سيأتيك ولو اشتددت هربا منه ،

جل ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه ، فلا معنى إذن للتغيير والتبديل » ولا معنى للنقلة والارتحال ، ثم يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضاً عينيه عما حوله وعن الوجود السائر الدائر فتطويه كما طوت الملايين قبله ، وكما ستطوى الملايين بعده [١] » .

فيقال : قد صدّر هذا المبحث بهذه الجملة المنكرة المشتملة على هذا التهور والفساد الذى لا يخفى على أدنى عاقل ، ولا ندرى ماذا يقصد من هذه الجملة ، أهو يريد أن كل رجل من المسلمين يعمل هذا العمل ، أم يريد أن هذا قد يفعله بعضهم ، أم يريد شيئا قدّره بذهنه أنه كان أو سيكون ، ثم فرّع عليه ما شاء ، أم يريد أمرا وراء هذا كله . فان أراد أن أكثر المسلمين على هذه الحالة التى ذكرها فقد جاهر بالكذب والزور ، فان الناس مختلفون فى هذه الأمور اختلافا لا يمكن بحال من الأحوال ضبطه ، ولو فرض وجود مثل هذا فى بعض العامة فهل يسوغ فى العقل والدين أن يذكره ويجعله قاعدة عامة ينبنى عليها كل ما لديه من زيغ وضلال فى القدح فى الاسلام وأهله ، وانما يفيده هذا التشنيع لو أقام البراهين ونقل من عقائد المسلمين المجمع على العمل بها ما يصدق دعواه ، أما أنه يتخيل شيئا أو توسوس به نفسه أو يحلم به فى نومة الضحى أو فى وقت آخر ثم يسجله وينسبه الى المسلمين ويعده قدحا وعيبا فيهم ثم يأخذ فى التشنيع والرد عليهم به ، فهذا سخف وسفاهة ظاهرة

ومن عجيب كذبه فى هذه الجملة دعواه بأنهم يقولون « والمقضى المكتوب لك يأتيك » الى قوله « ولو حاولت بكل الوسائل رده وإقصاءه » مع قوله « ينشىء رجل مسلم متجراً » الى آخره . فلم ذا أنشأ هذا المتجر وتعب فى جلب

---

(١) وقد طوت أيضا من عرف سنن الطبيعة طيا أشنع من غيره فى الأكثرين ، وستطوى أمثالهم أيضا ، فالطى هذا سنة عامة شاملة

هـذه الأشياء واستعمل البيع والشراء واجتهـد فى تحصيل ذلك اذا كان يرى ذلك الرأى ويقول ذلك القول، بل المقصود من احتجاج بعض الناس بالقدر على الوجه المعروف أن إهلاك النفس بالهم والغم والحسرات بعد بذل الجهد وعمل السبب سفه وعذاب ، فان الرزق مقدر بقضاء وقدر ، فالانسان مأمور بفعل السبب وكل ميسر لما خلق له ، فاذا فعله فتحصيل النتيجة عـلى الوجه المطلوب من عند الله تعالى ، كما قال تعالى ﴿الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ فمن أنكر أن تكون الأرزاق بمشيئة الله وقدره وقضائه فقد صادم النصوص الشرعية مصادمة ظاهرة ، وجعل أرزاق العباد بيد الطبيعة ونواميسها ، قال تعالى ﴿وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كل فى كتاب مبين﴾ فما قدر الله تعالى للانسان من الرزق فانه سيأتيه، لكنه سبحانه سيدفعه الى أسبابه ويهيء له طرقه ويزين ذلك فى قلبـه ويهوّن طريقه عليه فلا يجعله يهرب منه ويحاول رده ، بل يجعله يطلبه ويحرص عليه وهو تعالى يدل عليه . ثم دعواه بأنه يستسلم لسنة الحياة الصارمة الباطشة مغمضا عينيه الى آخره هل يريد أن يصادم هـذه السنة وهو يدعى أن من عارض هـذه السنن هلك ولا محالة ومن سار معها بلا اصطدام نال ما يبغى ، فهذا تناقض منه . أم يريد أن يعاكس هذه السنة ويغالبها ويجعلها على هواه ، فهذا غير ممكن ، فمن هو الذى قدر على ذلك من جميع الخلق

فصل

ثم قال: ومن الطرائف المخزية فى هذا الموضوع أنى عاملت مرة إنسانا من هؤلاء ، فوجدت معاملته للناس شاذة قاسية ، فقلت له : كأنك لست حريصا على أن يعاملوك ، وكأنك لا تريد النجاح ولا الفوز ، فان هـذه المعاملة مما يبعد الذين ذاقوها ورأوها وشهدوها عنك . فتعجب من قولى ورآه جـد باطل، بل رآنى بهذا قد كفرت أو كدت، لأنى اعتقدت ان الأرزاق والنجاح

بالأسباب والمعامـــلات لا بالاقدار والأقضية ، وأخذ يسرد عليّ روايات وفصولا يزعم أنه فعلها بالناس ، وذكر لى فيما ذكر أنه مرة ضرب إنسانا كبيرا جدا عامله وطرده من حانوته وسبه أقذع السب ووجه اليه ضروب الإهانات على مسمع من الجماهير وعلى قارعة الطريق ثم قال لى : ما تظن أن هذا الانسان الكبير قد صنع بعد هذا الهوان المرير . قلت أظنه ذهب ثم لم يرجع . قال انه بعد هذه الحادثة بثلاثة أيام جاء اليّ متلطفا متخضعا طالبا الغفران والنسيان كأنه المجرم الآثم وكأنى المظلوم المغبون . ثم أردف معلقا : أرأيت أن الرزق ليس بالمعاملة ولا بالحسنى ولا بالأسباب ولا بشيء مما تدّعى وتحكى . فغمرنى بجهـــله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكراً فى عاقبة الجهـل والضلال ، ومتعجبا من استمداد الانسان لأن يكون أضل من الانعام »

والجواب أن يقال : ذكره لهذه الحكاية أسخف مما ذكره فى الجملة السابقة ، فانه لا يخلو من أحد أمرين إمّا أن يكون هذا الانسان الذى حاوره عالما أو يكون جاهلا ، فان كان عالما فما الذى منعه من أن يتم البحث معه وينهى المناظرة حتى يعرف ظهور الحجة إما له وإما عليه ، فيذكر حجته وإجابته ، فان مقاطعة الحديث وخروجه من عنده قبـل استماع آخر الحجة دليل واضح عـلى طيشه وحمقه ، وأنه يريد من الناس كلهم أن يتابعوه ولو خالف الحق والواقع . وهذا الرجل انمـا تكلم بشيء قد عرفه من نفسه فوقع له وشاهـده ومارسه وباشره ، فكان من الواجب على هذا المغرور أن يطلب منه الدليل على ما أخـبر به إن كان شاكا فى صدقه أو يتحقق ذلك ، وإما أن يجيب على كلامه بكلام صحيح معقول ويكمل البحث ، وهو لم يفعل شيئا من هذا على مقتضى كلامـــه ، بل اشمأزّ ونفر كما تنفر الحمر المستنفرة وأخذته العزّة بالاثم ، لما أسند هذا الرجل رزقه الى ربه قاطعه الحـديث وخرج غير مكترث بالدين والعقل والأدب ، وهذا غاية الجهل والحمق والضلال والاستعداد لان يكون أضل من الأنعـام .

وان كان ذلك الرجل المخاطب جاهلا فما هو الذى حمله على محاورة الجهلاء أولا ، ثم ما الذى سوّغ له أن يذكر محاورته فى أغلاله ويجعلها قاعدة لبحث مستقل ثم يحتج بها على المسلمين ثم يأخذ فى التشنيع عليهم ، فهذا هو غاية ما قدر عليه فى تشويه سمعة الاسلام فيما يتعلق برأى المسلمين فى القضاء والقدر فى معاملة البيع والشراء ، فسبحان من أخزاه

ثم قوله « بل رآنى بهذا قد كفرت » يقال : ان كان رآك بهذا قد كفرت فقد أصاب ، فانه لا يشك مسلم فى أن من جعل الأرزاق ليست بمشيئة الله وارادته وإنما هى بالطبيعة وبقدرة الانسان فقط ، فهو كافر خارج عن حظيرة الاسلام ، بل الرزق بالاسباب التى أعطى الله عباده ومكنهم من استعمالها ، فهو مسبب الأسباب الذى يرزق بها ويتصرف فيها بما شاء وأراد ، وأما الأسباب بنفسها فهى من جماد وغيره ناقص خاضع لإرادة الله غير مستقل باعطاء شىء أو منعه أو وصل شىء أو قطعه . وهذا الرجل الذى ذكره ـ إن صدق فى دعواه ـ رجل عاقل بين له أولا أنه فعل ما أمكنه ، فلما لم يقتنع بين له الشىء الذى باشره وشاهده ، فلما كذبه وجحد مالم يحط به علما وحصر الرزق فى الأسباب بدون تعلق قضاء الله وقدره بها علم أنه زنديق ملحد خبيث الطوية فلا مانع من تكفيره ، والمسلمون مجمعون على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، فما شاء من رزق فلا بد أن يكون ، وما لم يشأ فلن يكون أبدا

ومن العجب أنه ذكر محاورته لهذا الانسان ، وقد عجز غاية العجز عن الرد عليه ، وإنما أخذ فى التهكم والاستهزاء فقط . ومعلوم أن هذا ليس بحجة ، وهذا الذى ذكره هذا الانسان ليس من المحال ، فان غاية ما انتقده فيه أنه عامل انسانا معاملة سيئة ثم رجع ذلك الذى أسىء اليه واعتذر منه ، وهذا يقع كثيرا فليس مستغربا ، بل هذا المغرور نفسه قد وقع منه ما هو أشنع من هذا ، فانه قد كان أولا بينه وبين كثير من معطلة الجهمية وعباد القبور عداوة

ومشاحنات وسباب واتهام كثير ، وبينه وبين السلفيين ائتلاف وصداقة حسبما يتظاهر به ، ثم بعد هذا كله انقلب على وجهه وعمل مع أعدائه الذين عاملوه باشنع المعاملات القاسية ما لو تمنوه وبذلوا كثيرا من أموالهم فيه لم يحصلوا عليه ، ولقد أقر فى كتبه السابقة[1] أن هؤلاء المستعمرين قد أرهقوا العرب وظلموهم واستعمروهم وسلبوهم كل شىء وأطال فى ذمهم ، ثم رجع عن هذا كله وأثنى عليهم فى هذه الأغلال ولا سيما فى المبحث العاشر ، وقد التجأ أخيرا الى كل أعدائه المعروفين الذين رماهم قبل ذلك بالزندقة والإلحاد وسقط تحت أقدامهم ، كما قاطع أصدقاءه الذين نفعوه وقاموا معه فى أحرج الأوقات فأضاف الى هؤلاء أقذع السب والاتهام والتجهيل وغير ذلك ، فكيف يستغرب هذا وهو قد وقع فيما هو نظيره بل أشنع منه ، مع أن هذه هى سجية كل لئيم ـ وما أكثر اللئام ـ فان اللئيم لا بد أن يعادى من صنع اليه إحسانا وأن يصاحب ويوالى من عامله بالسوء ، ونحن قد شاهدنا كما شاهد غيرنا أناسا كثيرين جدا قد عملوا مع من أحسن اليهم أعمالا شنيعة فظيعة ، وعملوا مع من أساء اليهم أعمالا طيبة حسنة ، ولو ذهبنا نسرد ما اطلعنا عليه من ذلك وشاهدناه وذكره غيرنا ممن يعتبر قوله لطال الكتاب ، فان هذا أمر معروف ، وحسبك أن تعلم أن هذا الرب العظيم الكريم الرءوف الرحيم الذى أفاض على كل الخليقة خيره ورحمته ونعمه المتنوعة قد كفر به وعاداه أكثر الخلق ، فبدلوا نعمته كفرا ، وعبدوا الشيطان الذى هو أعدى عدو لهم ، وقد قال تعالى ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾ وقال تعالى ﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا ﴾

ومن عجيب أمر هذا المغرور أنه ذكر فى هذا المبحث نفسه حكاية شنيعة مضحكة ، وهى تبطل معارضته لهذا الانسان فى هذه الجملة التى ذكرها من

---

(١) انظر مقدمة الجزء الثانى من (الصراع)

أصلها فقال ص ٢٠٨ : وقد كنت أعرف شيخا يكاد يعد من الناحية العلمية فى غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية والأدبية والسلوكية فى زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو فى كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع ـ أو لا يكاد يستطيع ـ أن ينجو منها ويفلت من عقدها ونفثها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، إنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان ، أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد ، وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، انه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدى الغاسلين لا يتحرك منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا فى حضرته خشوع الصالحين العابدين فى صلواتهم أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، ألزمهم أن يضعوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرض الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه التى زوّرتها يداه [١] ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وأن يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا [٢] وقد امتثلوا هذا كله [٣] ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فما سر هذه القوة فى هذا المخلوق ، إنها أسرار عديدة وإن أقواها أو من أقواها ما فى نظراته وعينيه من سحر خبيث ، انتهى

---

(١) ليس هو بأشنع من أغلالك هذه ، ولا طلبه من الناس بأشنع من طلبك لنفسك منهم

(٢) وهكذا صنعت أنت . فادعيت أنه لا يستغنى عن أغلالك مسلم

(٣) لعل هذا هو الذى جرأك على هذا الفعل الشنيع ، إذ ظننت أن الناس سيكونون معك مثل أولئك مع أستاذهم

فبالله عليك أيها المنصف ، وازن بين ما ادعاه هـذا المغرور هنا فى هـذا الشيخ وبين ما انتقده على ذلك الرجل الذى حاوره فيما فصل ترى العجب من التناقض . ولو أن قائلا قال له لعل هذا الرجل الذى حاورته فيه سرّ دقيق من هذه الأسرار العديدة التى ادعيتها فى هذا الشيخ إما فى نظراته أو عينيه وأنها فيه بكل حال لألقمه الحجر ، وهذا شأن هـذا المسكين يأتى الى أشياء واضحة معقولة فينكرها ولا يقبل فيها أدنى دليل ، ويأتى الى أمور مستحيلة فيدّعيها ويوجب على الناس تصديقه فيها وقبولها وحدها والعمل بها ، فما ذكره من الانتقاد على ذلك الانسان انتقاد ساقط سقوطا بينا

وقوله « فغمرنى بجهله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، فقطعت عليه الحديث وخرجت من عنده مفكرا فى عاقبة الجهل والضلال » فيقال : فعلك هذا وقولك دليل على نقص عقلك وسوء أدبك ، بل خنقك بالحجة وألجمك بالدليل ، فانه أخبرك بشىء واقع شاهده وباشره بنفسه فأنكرت عليه وكذبته بمجرد كونه لم يوافق رأيك ، ونسبته الى ما اتصفت به من الجهل والضلال ، ولو ساغ لكل من تقوم عليه الحجة أن يقول فى جوابه فلان غمرنى بجهله العميم لكان من السهل لكل من تقام عليه الحجة أن يقول ذلك ويكون جوابا كافيا فى ردها ، فكيف يفتخر هذا المغرور بهذا الفعل الذى هو نقص فيه وحجة عليه . قال بعض الأدباء فى وصف المغرور : هو الذى لا يرى إلا ما يراه ، ولا يعتقد إلا ما يعتقده ، ويظن أن الدنيا كلها تصدقه وتعجب به وتطريه . وهكذا كانت (الشمس التى فى غير برجها)

فصل

ثم قال « وليست هذه الحكاية فريدة فى هـذا الموضوع ، بل سمعنا وسمع القراء المئات والألوف من أمثالها : يقولون كما يقول هذا الرجل ، ويرون كما يرى ، ويفكرون فيما فكر ، ويعاملون معاملته »

فيقال أولا : قد بينا أنك ادعيت من جنسها مما هو أشنع منها فيما ذكرته عن ذلك الشيخ الذى يعامل أصحابه بالاهانة وهم يعبدونه مع ذلك ، فان كان في كلام هذا الرجل وعمله بعد أو استحالة فقد ادعيت ما هو أبعد فى العقل منه ، وان لم يكن بعيدا بطل اعتراضك

ويقال ثانيا : ان عنيت أن القراء سمعوا أمثال هذه الحكاية أى طبقها فى كل شيء فكذب وبهت ، فلم يسمع من واحد من الناس ممن يعتد بقوله فضلا عن المئات أو الآلاف ، وأنت لم تنقل إلا عن واحد فقط مع أنك أكذب من سجاح [1] ، فلو أن القراء سمعوا مثلها أى طبقها لذكروه ونشروه ، وإن عنيت أن الناس أو القراء يسمعون مثلها فيما يتعلق بالقضاء والقدر خاصة أى يدعون ويرون أن الرزق بقضاء الله وقدره ومشيئته وعلمه ، وأنه هو مسبب الأسباب وموصل نتائجها ، وأن الأسباب غير مستقلة عنه تعالى بالرزق ، فهذا صحيح وهو اعتقاد المسلمين ، ولكن أنت خالفت هذا الصحيح وذهبت الى الأول ، لأنك انتقدت عليه لما ذكر القضاء والقدر ، مع أنك قد رأيته قد فعل السبب حيث جلب بضاعته وعرضها واستعمل البيع والشراء ولم يعتكف فى مسجده أو يجلس فى بيته ينتظر الرزق . ولا شك أن القراء من المسلمين ينكرون استقلال الأسباب من دون الله بالأرزاق وغيرها

وأما قولك هذا رأى الجاهل بالحياة وهذا عمله ، يقال بل هذا رأى الرجل العاقل العالم بالحياة ، لأنه فعل السبب واعتقد أن الرزق بيد الله يؤتيه من يشاء ، وأنه تعالى يرزق عبده بالأسباب ، فانه اشترى بضاعة وعرضها فى دكانه ففعل السبب واعتمد على الله فى ايصال نتائجه ، وهذا هو مقتضى الشرع والعقل . وأما هذا المغرور فانه اعتقد اعتقاد الاطفال الجهلاء الذين يرون أن الأسباب

---

(١) سجاح اسم امرأة مسيلمة التى ادعت النبوة معه

هى التى تفعل بذاتها بدون قوة غيبية تدبرها وتسيطر عليها ، ولهـــذا فانهم يعتمدون على الأسباب المادية اعتمادا كليا لجهلهم بقدرة الله تعالى وعلمه وحكمته

ثم قال « وأما الرجل الآخر الذى عرف سنن الحيـــاة فانه اذا ما أنشأ مصنعا أو متجرا أو قام بعمل من الأعمال فلم يجر أمره على ما يريد ويؤمـل فانه يعلم كيف يتلافى أمره ، وكيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ولا يمكن أن يستسلم للدمار والضياع قائلا ان المسألة مسألة حظ وقضاء وقدر ، ثم لا يلبث أن يخرج منتصرا ، وأن ينجو مما ظنه خطرا مبيدا »

فيقال : هذا كلام مجمل غير مسلم بهـــذا الاطلاق ، فان أردت أن هذا الرجل الآخر وهو الذى يكفر بالقضاءوالقدر ويعتمد على نفسه ـ كما هو ظاهر كلامك ومقتضى أصلك ـ لا بد أن ينتصر وأن ينجو فهذا كذب ظاهر مخالف لما عـــلم بالحس والواقع ، فان كثيرا من النـاس يجتهدون ومعهم من الدهاء والمعرفة بهذه الامور ما لم يعرفه كثير ممن نجحوا ومع هذا فلم يحصلوا على ما ذكرته ، وهل هؤلاء الذين سقطوا فى هذه الحروب وغيرها قصروا فى معرفة هذه الأمور ، بل هم أعرف الناس بالعلوم المادية والسنن الطبيعية ، وقد عـلم أيضا أن كثيرا من الناس يعرفون طرق التجارة وقد أهلكوا انفسهم فى طلبها وما نالوا اكثر مما ناله من هم دونهم فى المعرفة . وإن أردت أن الواجب على الانسان أن يفعـل الأسباب التى تقيه من الخطر ويستعمل الوسائل التى تروج سلعته أو غيرها مع اعتقاده أنه لا نجاة له مما قدر الله تعالى وقضاه وأن الرزق بيد الله ولـكن الله أمره أن يطلب الرزق بالأسباب التى شرعها ، فهـــذا هو اعتقاد المسلمين فلا حاجة الى التشنيع عليهم فى أمر يرونه ويعتقدونه ويعملون به ـ ولـكن ليس هذا هو مرادك ـ والدليل عـلى أن هـذا هو معتقدهم أنهم يعملون مافى وسعهم من الحيل والدهـاء مقلبين أسبابهم عـلى كل الوجوه التى يرونها نافعة ، فهذه الاعلانات الـكثيرة فى الجرائد والمجـــلات والأسواق

والدعايات الواسعة كلها تدل أعظم دلالة على أنهم مجتهدون غاية الاجتهاد فى تحصيل التجارة وغيرها ، ولكنهم يختلفون فى ذلك كما يختلفون فى أفكارهم وقواهم وعلومهم وصورهم وغيرها ، فلا يمكن أن يكون الناس أمة واحدة متساوين فى كل شىء من الأشياء ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾ فلا بد من وجود الاختلاف الذى هو من سنن الله الكونية فى خلقه

ثم قال « واذا تصوّرنا هذا المثل صحيحا وفكرنا فيما يمكن أن تكون نهاية الرجلين اللذين ضربناهما مثلا لم يعسر علينا كثيرا أن نفهم لماذا كان الرجل الأول فقيرا متأخرا ضعيفا صغيرا فى كل أمر يتعاطاه ، ولا لماذا كان الرجل الآخر غنيا قويا كبيرا فى كل شىء يتناوله »

فيقال : كل هذا مبنى على أصلك الفاسد ، وهو أن الانسان بطبعه واستعداده فى امكانه أن يتغلب على كل شىء فيكون تاجرا ماهرا فى التجارة ، وغنيا بقدرته الذاتية ، وفى إمكانه أن لا يخسر ولا يفتقر أبدا ، بل فى إمكانه أن يكون سلطانا وأن يقضى على كل شقاء وبؤس ، فليس لمشيئة الله تعالى تدخل فى أمره فى رفع وخفض وإحاطة وحفظ ، ولا غير ذلك . وقد مرّ فساد هذا الأصل وأنه باطل ، وكل هذه الأصول الآتية فى إبطاله ، لانه دائر على إنكار تصرّف الله فى خلقه ، وأن الأسباب الطبيعية مستقلة بتدبير أمر الكون ، وهذا هو اعتقاد الالحاد المحض

فصل

ثم قال :

« يعطى ويمنع لا عقلا ولا سفها   لكنها خطرات من وساوسه

وقال آخر فى آخر :

ما زال يعبث بالمكارم جاهدا   حتى ظننا أنه مجنون

يريد قائل هذا الشعر أن ذلك الانسان الذى عناه بشعره يتصرف فيما يملك تصرفا ليس دائنا لقانون ولا قائما على حكمة ولا على استحقاق ، فيعطى من يعطى ويمنع من يمنع ويعز من يعز ويذل من يذل ويكرم من يكرم ويهين من يهين ، يفعل ذلك لا لأن أحدا من هؤلاء خليق بما صنع ، ولا لأنه أتى من الأعمال أو الأسباب ما يستحق عليه ما ناله ، ولكن لأن مشيئته العليا المطلقة رأت أن تفعل ذلك ، ولأن إرادته المجردة من كل عقل و نظام أحبت أن تصنع ما صنعت ، ولأنه قادر ، وماذا يمنع القادر السفيه من أن يتصرف مثل هذا التصرف الذى قيل فيه حتى ظننا أنه مجنون ، وقيل لانها خطرات من وساوسه . وهؤلاء الجاهلون بالله وبحكمته يرون فى أفعاله وفى تصرفه فى خليقته مثل رأى هؤلاء الشعراء فيمن عنوا بشعرهم ، فيرون أنه تعالى لم يضع نظاما دقيقا لا فرار منه يلقى كل جزاءه على مقتضاه ، ويأخذ كل على حسب ما يعطى ، ويحصد كل انسان ما زرع ، وينجح كل اذا درس وفهم ، ويسقط اذا هو لم يفهم ذلك ، ويرون أن هذا العالم فى يد الله كلعبة فى يد صبى يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بلا تفكير ولا تدبير .

والجواب أن يقال : أنت من أخبث هؤلاء الجاهلين بالله وبحكمته الذين يرون هذا الرأى الممقوت ، فانك أسندت تدبير العالم الى نواميس الطبيعة ، وصرحت تصريحا لا مرية فيه بأن هذه الموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، وأن النواميس هى التى تحكم هذه الكائنات الحية وهى موروثة من أصلها الذى هو المادة ، وهذا غاية التصريح فى أنك جعلت تدبير هذه الكائنات الحية منوطا بنواميس الطبيعة أى تفاعلها ، فكان هذا العالم بمقتضى صريح كلامك موكولا الى الطبيعة ونواميسها ، ومعلوم أن الطبيعة ليس لها عقل ولا علم ولا حكمة ، بل تعطى وتمنع لا عقلا ولا سفها ،

بل بمجرد المصادفات ، كالخطرات التى توسوس فى صدر من لا عقل له ، فهذا الكون العظيم عندك كالكرة فى يد السفيه الذى يقذف بها ذات اليمين وذات الشمال بصريح كلامك ، لأن الصبى كالطبيعة إن لم يكن أحسن حالا منها ، لأنه لا عقل له ولا رأى ولا علم ولا تفكير ، وهكذا الطبيعة بهذه الصفة ، وكل من الصبى والطبيعة يجــــرى فعله بحسب المصادفة والدوافع الاضطرارية لا الاختيارية ، فكما أن الصبى لا يفرق بين المحسن والمسىء والمفسد والمصلح والمتقين والفجار فكذلك الطبيعة لا تفرق بين هؤلاء وانما يفرق العدل الحكيم العليم الرحيم اللطيف الخبير ، وهذا التفريق انما يعتقده من يؤمن بالله بصفات كماله ونعوت جلاله ، لا من كفر بالله وقدره وقضائه ومشيئته العامة ورحمته فاعتقد أن العالم متروك فوضى ومحكوم بالفوضى ، وكما أن المجنون لا يفرق بين من يطيعه ومن يعصيه والموافق والمخالف ، ولا يحب ولا يبغض ولا ينتقم ولا يثيب على ذلك بل أموره كلهـــا تجرى على حسب المصادفات وحسب الدوافع الاضطرارية فهكذا الطبيعة وأسبابها ، فـــكل ملحد أو زنديق فانه معتقد الفوضى فى العالم والكون ، وأما من اعتقد أنه يجرى بمشيئة الله العليم الحكيم الرءوف الرحيم ﴿ما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها ولا حبة فى ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين ﴾ وكل عامل يجازى بقدر عمله ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ فلا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ، ولا يجعل المتقين كالفجار ابدا ، فلا بد أن يعتقد أن العالم محكوم بأعظم نظام وأكمله وأحسنه وأفضله . فهذا المغرور لم تطب نفسه بالحكم الالهى ولا بالنظام الالهى ، بل كرهه ومقته وجعله فوضى وسفها ، فجعل من دعا الله وعبده لم يحصل له الا الخيبة والشر والتعب والنصب ، وجعل من اتبع أفكاره هو وآراءه فلا بد أن ينهض وأن يتقدم ، ومن خالفه فلا بد أن يهوى ، فجعل أفكاره هى النظام الموصل الى النتيجة ، وأما شرع الله ونظامه فبذل جهده واستعمل فكره ومكره

فى إزالته وتشويهه ورفضه ومحاربته ، وهذا عين المحادّة والمشاقة الظاهرة لله تعالى ولأديانه والدائنين بها من جميع العالمين

ثم قال : « فعندهم أن الانسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو شروط الصحة اللازمة لأن يكون إنسانا محترما ناجحا فى الحياة ، ثم لا يدرك شيئا منها ، بل عندهم ما هو أقبح مما ذكر ، وذلك أنهم يرون أن القاعد العاجز قد يبلغ كل ما يؤمله من الفوز والنجاح ، بينما يهوى الجاد الحازم »

فيقال : قف ، هكذا الامر عندك (على نفسها تجنى براقش) ، فانك صرحت باعتقاد هذا الأمر الذى أنكرته فجعلت العقل من أسباب الفقر ، والجهل من أسباب الرئاسة ، بل ذكرت أن الانسان كلما ازداد فى الجهل والكفر ازداد فى النعيم والغبطة والجاه ، والعكس بالعكس ، وذكرت أن هذا أمر واقع لا ريب فيه ، فمن ذلك ما ذكرته فى قصيدتك الركيكة التى أولها :

لو أنصفوا كنتُ المقدم فى الأمر ولم يطلبوا غيرى لدى الحادث النكر

فقلت فيها :

ورغبنى فى الجهل أنى رأيتنا يسود لدينا كل من لم يكن يدرى
نوائب دهر تترك الحرّ حائرا وليس بمظلوم لديه سوى الحر

فقد اسندت هذا الأمر الى نوائب الدهر وجعلتها لا تظلم سوى الحر ، وصادمت حديث « لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر » فان الله هو الذى يصرفه وهو الذى يصرف الليل والنهار وما فيهما . ثم قلت :

يرى الجاهل المأفون فيه منعما له الفلك المسعود يجرى بما يجرى
له الناس والدنيا جميعا خوادم فهذا له عبد وهذا له مطرى

فالناس كلهم خوادم للجاهل المأفون ، بل وكذلك الدنيا تخدم من يكون بهذه الصفة كما هو صريح كلامك . ثم قلت :

يزاد نعيما كلما زاد جوره ويكبر شأنا كلما زاد من كفر
أطاعت له الأيام حتى لو انه تأبى طلوع الشمس ماطلعت تجرى

هكذا يكون الجاهل المأفون عندك يزداد فى النعيم ويكبر فى الشأن كلما زاد فى الكفر ، ولعلك ماكفرت وازددت فى الكفر الا ليكبر شأنك وتزداد نعيما وتخدمك الناس والدنيا جميعا وتطيعك الأيام ، بل الشمس لا تطلع لو منعها هذا الذى يزداد فى الكفر والجهل ، فانها لا تطلع أبدا ويكون الليل سرمدا الى يوم القيمة ، ولكن قد تنوب عنها الشمس التى فى غير برجها والدر الذى فى لجج البحر بلمعانه وضيائه ان أمكن ذلك . ثم قلت :

متى شئت ان تلق جهولا مرأسا وجدت كثيرا ذا جلال وذا يسر

وهذا صريح فى أن الجهل من أعظم الأسباب لنيل الرئاسة واليسر ، وأن العلم بالعكس وإلا لم يكن ثم فارق . الى أن قال :

اذا ماسألت الدهر حقى يقول لى تنحَّ فما للحر حق لدى الدهر
وان قلت سالمنى على الجور قال لى غلطت فما سالمت مذ كنت من حرّ

وهذا كالذى قبله صريح فى سبّ الدهر ، ثم قال :

وان قلت سالمنى على الجور والغنى يقل لى بنكران الفضائل والحجر
تشك الى ما منه أشكو ومفزع الى ظالمى كيف الخلاص من الأمر (١)
اذا ما نظرت الناس والرزق بينهم تيقنت أن العقل ضرب من الفقر

فالعقل ضرب من الفقر ، فيجب أن ينفر منه ويعادى كما يعادى الفقر لأنه ضرب منه ، وينصاع الانسان الى الجنون فالجنون والجهل هما من أسباب

(١) تأمل هذا البيت الخبيث ، وخليق من هذه حالته مع الله أن تكون هذه عاقبته . هذا مع أنه قال فى معرض هذه القصيدة :

بلغت بعلمى ما يرام من العلى فما ضرنى فقد الصوارم والسمر

فلم إذن هذا التشكى

الغنى . وهـذه الابيات صريحة جـدا فى أنه يرى أن الانسان قد يستوفى كل شروط الغنى أو الشروط اللازمـة لان يكون انسانا محـترما ناجحا ولـكن لا ينال إلا عكس ما اقتضته هذه الشروط ، وأن الجـادّ الحازم الحر يهوى بجده وحزمه ، وان الجاهل ولا سيما اذا كان كافراً فانه ينال الغنى والعز والسيادة . وهذه حقيقة الفوضى ، بل الفوضى أحسن ، فان لم يكن هذا الرأى الذى رآه فوضى ودعاية صريحـــة الى الفوضى فلا نـدرى ما هى الفوضى والدعاية الى الفوضى ، ولا سـيما وهو هنا أسند ذلك الى الدهر ونوائبه وهو يعـلم أن الله نهى عن سب الدهر لأن الدهر لا فعل له البتة وانما الفعل للذى يتصرف فيه ويقلبه وهو الله تعالى الذى يقلب الليل والنهار ، انه يدعى أنه يحامى عن الدين ويدافع عنه ويدعو الى أخلاقه ، فما ذكره هنـا من تشويه رأى المسلمين من كونهم يرون أن الجاد الحـازم يهوى وأن الذى يفعل الأسباب الموصـلة الى النجاح لا ينجح كذب على هـذا الاطلاق ، وانما هو رأيه وعقيدته ، وهـذا شأنه يحمل كل ما فيه وفى إخوانه من الملاحدة من خصلة قبيحة على المسلمين ، ويصف نفسه بالخصال الحميدة الموجودة فيهم

ولا يصح اعتذاره بأن المقصود به المبالغة أو نحو ذلك ، فان مثـل هـذه الإطلاقات فى سبّ الدهر والتسخط والمجـازفة محرم شرعا ، ثم هو قد ناقش المسلمين وشنع عليهم بأبيات الزمخشرى وابن أبى الحـديد والرازى والآمـدى وابن زريق وكعب بن زهـير ، مع أنه ليس فى أبياتهم شىء ينكر ، وقد بنى عليها أمورا عظيمة ألزم المسلمين بها مع بعد دلالتها عما ادعاه ، بل قد ناقشهم بقول ابن هانىء الاندلسى والبحترى مع علمه أنهم لا يجيزون مثل تلك الأقاويل التى نقلها عنهم ، ثم ان هذه الأبيات التى ادعاها هى متضمنة لما ورد فى أغلاله ، فان الجميع يدور على أن مناط التقدم والتأخر إنما هى نواميس الطبيعة حيث قرر فيما يأتى أن نواميس الطبيعة هى التى تحكم العالم ، ومعلوم أنها ليست باكثر من المصادفات القسرية الاضطرارية ، وهـــذا هو عين الفوضى ، فان كل فعل

يصدر عن غير عدل حكيم مختار فلا بد أن يكون مشتملا على فوضى وفساد ، وحركات الطبيعة لذاتها هى كذلك

فصل

قال : « ولقد زعم هؤلاء حينما توالت انتصارات ألمانيا فى بداءة هذه الحرب أن هذه الانتصارات إنما حصلت لأن الله يريد أن يهزم أعداء ألمانيا ، لا أن لديها من الأسلحة والجنود وخطط الهجوم ما ليس عند أعدائها . ثم لما أن تغير مجرى الحرب وأخذت الهزائم الألمانية تتلاحق ثم هزمت فى الخاتمة الهزيمة النهائية رجعوا يزعمون أن المسألة راجعة الى مجرى القضاء والقدر والمشيئة الإلهية لا إلى تغيير الأسباب واختلافها ، وقد ألقيت فى هذا الخطب والمحاضرات وكتبت المقالات ، وهكذا يحكمون فى كل قضية »

والجواب أن يقال : وهذا أيضا مما يدل على أنه لا يرى لمشيئة الله سبحانه تدخلا فى تدبير العالم ، ولا فى النصر والهزيمة ، بل كل ذلك منوط عنده بالأسباب المادية فقط ، ولهذا أنكر غاية الانكار على هؤلاء الذين اعترفوا بأن المشيئة لها تدخل فى هزيمة ألمانيا وانتصارها ، فكما أن الاصنام لا تدخل لها فى هذه الهزائم ولا هذه الانتصارات فكذلك الرب العظيم تعالى وتقدس لا تدخل له فى ذلك على رأيه ، وهذه هى قاعدته فى كل أغلاله . ومعلوم أن المسلمين الذين تكلموا فى هذه الانتصارات وألقوا الخطب والمحاضرات ليس فيهم من يقول ان وجود هذه الأسباب وعدمها سواء ، ولم يقولوا انها هزمت من غير أسباب ، ولا يوجد عنهم فى ذلك كلمة واحدة ، وقد بينا أن مذهب جماهير المسلمين أن الله سبحانه يفعل بالأسباب فى النصر والهزيمة ، فهو يهزم بها وينصر بها ، فان شاء أضعفها بأن أدخل عليها أسبابا أقوى منها تعارضها ، أو أضعفها بذاتها ، وان شاء قوّاها كما قال تعالى ﴿قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم﴾ وقال تعالى ﴿ولو شاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو

بعضكم ببعض ﴾ فأخبر سبحانه أنه يعذّب هؤلاء بهؤلاء ، فهو سبحانه أمر بفعل الأسباب ، وأمر بأن يدعى ويستعان به ، لأن الأسباب مفعولة له خاضعة لارادته فلا تستقل بنصر ولا هزيمة ، وهو سبحانه ينصر بها ويخذله بها . وكون ألمانيا انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا ليس فيه كبير أمر فأكثر الحروب هكذا ، فليس هذا خاصا بهذه الحرب وحدها حتى يجعل ذلك برهانا على استقلال الأسباب بالتدبير ، وقد ذكر تعالى فى وقعة أحد النصر أولا والهزيمة أخيرا ، وقد أسند ذلك كله الى مشيئته وقدرته ، مع كون ذلك له أسباب مادية ودينية ، فانه لما حصل مقتضى النصر حصل النصر ولما حصل ما يوجب الهزيمة حصل موجبها كما قال تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بإذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ فقوله تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ يعنى بالنصر فان المسلمين هزموا المشركين هزيمة ظاهرة كما تواترت بذلك الروايات الصحيحة ﴿ اذ تحسونهم باذنه ﴾ أى بمشيئته ، وهذا صريح فى أن النصر حصل بالمشيئة ، مع أن هناك أسبابا مادية ، وقوله تعالى ﴿ حتى اذا فشلتم وتنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ﴾ فهذا كله دليل على أن هذا الصرف أى الفشل وقع بالمشيئة ، وأن لذلك اسبابا معنوية ومادية ، فانهم لما عصوا وتنازعوا وتركوا بعض الأمر الذى أمروا به حصل ما حصل من الفشل ، وقد أسند صرفهم اليه تعالى صريحا ، لإن ذلك وقع بارادته ، كما أن النصر وقع بارادته ، وقد جعل لذلك أسبابا مادية ومعنوية ، فكل نصر وهزيمة فلا بد له من أسباب مادية ومعنوية ، ومشيئة الرب تعالى هى التى تصرف هذه الأسباب ، فيجب على الانسان أن يستعينه ويلتجىء اليه ويعمل ما أمر به من الأسباب ، وهذا هو المطلوب فى حق كل أحد ، ولم يحصل قط فشل الا بحصول خلل فى

أحد هذين الأمرين أو فيهما جميعا ، وهـــذا المغرور صفق وطقطق وجعل حصول النصر ثم الهزيمة فى ألمانيا برهانا على كون الأسباب مستقلة بالتدبير ، ونسى أن الله سبحانه هو الذى يصرّف الأسباب كيف يشاء ، وأنه لا يجرى فى ملكه مالا يريد ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ فانه تعالى لما أراد هزيمتها صرف قلوب زعمائها وآراءهم حتى وقعوا فى تلك الاغلاط التى قضت عليهم بالهزيمة ، وزين فى قلوب أعدائها دخولهم فى الحرب للقضاء عليها . وكونها انتصرت أولا ثم هزمت أخيرا فيه حكم كثيرة ، فان وقوع هذه الحرب عقوبة محضة وانتقام ظاهر ، فلو هزمت فى أول الأمر إلى النهاية لم تدخل ايطاليا ولا روسيا الحرب ، ولم يحصل ذلك الشقاء الطويل والعذاب المهين على تلك الصفة ، ولو حصل النصر لها لـكان فى ضمن ذلك حصول النصر لايطاليـــا واشتداد الحـرب فى الشرق الأوسط ولتحكمت ايطاليا فيه ، وفى ذلك من المفاسد العظيمة ما لا يخفى ، ولـكن وقع على الوجه الذى يحصل به اشد الانتقام ، فكان تكرر النصر ثم الهزيمة حينا بعد حين كالمد والجزر يتضمن أشنع العقوبة وافظع العذاب عـلى هـذه المواضع الالحادية ، لأنه تعالى صبّ قوّتها على رأسها ، وفى ذلك أيضا مضاعفة الحقد والبغضاء بين المتحاربين ، وطول الحسرات والعذاب بهذه الأسباب التى عصوا الله بها كما قال تعالى ﴿ فلا تعجبك أموالهم وأولادهم ، انما يريد الله أن يعذّبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

وبالجملة فلا حجة له فى هذا البتة ، فلا معنى للتبجح وجعل هذا من الحقائق الأزلية ، فليس فى هذا أكثر من كونه حصل تقدم لهـــا ثم حصل تأخر ، وأكثر الحروب يقع على هذه الصفة ، فالله سبحانه هو الذى خلق الأسباب وخلق مصادرها من الآراء والتفكير وتقليب القلوب ، فخلقهـا وخلق العاملين بها ولها ، وهذا كله يرجع مصدره إلى القدرة الربانية والمشيئة الإلهية ، كما تقدم تقرير هذا فى البحث الأول وفى غيره

فصل

قال « ومن الأمثلة للجهل بسنة الحياة أو بسنة الله فى الحياة أن الناس يريدون ـ وهم يعتقدون أنهم سيصلون الى ما يريدون ـ أن يبلغوا جميع أغراضهم المادية والمعنوية بغير وسائلها الطبيعية ، فهم يريدون أن ينالوا الثراء الوفير والأولاد والصحة والقوة وأن تخصب أرضهم ويزكو زرعهم وتنمو أنعامهم وأن يحصلوا المعارف الغزيرة وأن ينجحوا فى الامتحان وأن ينصروا على الأعداء وعلى أسلحتهم وجيوشهم وأموالهم وعلومهم وأن يدركوا كل ما يبغونه ، بماذا ، إنهم يريدون أن يدركوا ذلك كله بالدعاء المجرّد تارة وبالبكاء والضراعة تارة وبالصلاة تارات وبالصيام أخريات وبالايمان جينا بلا عمل وبالتقوى أحيانا وبقراءة القرآن أو بترتيب الاذكار والأوراد والاحزاب ، ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة ، والدين والقرآن بريئان مما يزعمون »

والجواب أن يقال : هذا من المواضع التى نبهنا عليها فى الملاحظة الثالثة ، وغرضه من هذا الهراء أن الذى منع الناس من التقدم اشتغالهم بالأخلاق الدينية ، وهو يعلم حقيقة العلم أن أكثر الناس قد أضاعوا هذه الأخلاق وتركوها واشتغلوا عن هذه الأعمال وغيرها بالأمور المحرمة التى تصدّ عن الدين والدنيا ، وهذا الملحد له حظ وافر من أخلاق اليهود فى المكابرة والبهت ، ولهذا فانه صرح هنا مكابرة على رءوس الأشهاد بأن المسلمين يطلبون الأولاد بمجرد الدعاء ونحوه من العبادات بدون تزويج ، فانه صرح بأنهم يطلبون الأولاد بهذه الأمور المجردة بدون الأسباب الطبيعية ، وليس وراء هذا البهت والمكابرة بهت ومكابرة ، ونحن اذ نعرض هذا على كل مسلم غيور يعز عليه مبدأه ودينه نستغنى عن الاسهاب فى ابطاله والتعليق عليه ، ولو أن يهوديا ادعى على المسلمين مجاهرة بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة ونحو ذلك بمجرد

العبادات من دون فعل أسبابها الطبيعية لنعرف كيف يجيبه المسلمون على هذا الادعاء العاطل المفضوح . وقد نبهنا فيما سبق على أن هذا الرجل يكذب ويبهت ويحرف ثم يأخذ من كذبه وبهتانه وتحريفه براهين وحججاً له يحتج بها على المسلمين فى ذمهم وذم دينهم ، فهو كما ترى لا يكتفى بأن يأتى الى الأمم الاسلامية فيدعى عليهم بأنهم يكرهون العلم بل يحرمونه ويدعون أنه حجاب ، وأن التعليم خروج من الملة وشرك فى الربوبية ، وأن العلم كذلك منازعة لله فى ملكه ، حتى يركب على ذلك بأن يدعى عليهم بأنهم يطلبون الأولاد والزراعة وأمثال ذلك بالأخلاق الدينية فقط ، وغرضه من هذا الجنون والهراء والخبال الساقط تركيز بعض الأخلاق الدينية فى نفوس المسلمين ولو بالبهت والمكابرة ، وقد ضرب صفحا وتعامى بل وباهت فيما علم بالضرورة والحس من التزويج والزراعات والمعارف والقتال والثورات وغير ذلك ، وصورهم عاكفين فى المساجد زاهدين فى الدنيا قد نبذوها ورفضوها فلا بيع لديهم ولا شراء ولا تزويج ولا صناعة ولا زراعة ولا مدارس ولا كتب ولا علم ولا تعليم ولا نزاع ولا قتال ولا شىء من ذلك كله ، دع الامور الكفرية والفواحش والمحرمات والتهالك على الدنيا والتكالب عليها ونحو ذلك ، بل جعل كل واحد منهم صائما الليل قائما النهار يقرأ القرآن ويدعو ربه ويتضرع اليه ويبكى طمعا فى الجنة وخوفا من النار وقد رفض الدنيا كلها . لقد سئمنا وأيم الحق من تطويل الاستدلال على فساد هذه الرعونات وتفنيد ادعاء هذه الوصمات ، فوالله انه لم يتجاسر كثير من المبشرين واليهود واكثر الكفار المعادين للاسلام أن يتفوهوا بهذه الامور وينسبوها الى المسلمين ، لان مثل هذا الادعاء خروج عن العقل والحياء ، ومكابرة واضحة

لقد بلغت القحة والاستهتار والتلاعب بدين الاسلام وأهله بهذا الزنديق مبلغا لم يصل اليه أكفر ملحد ولا شر كافر يحارب الاسلام ، أما كان له سمع يسمع به وبصر يبصر به هذه الكتب التى يدعى أنها كالجبال وهذه المجلات

والجرائد وغيرها فى التزويج ووجوبه ، وهذه الأعمال كلها وشروطها ، وهذه كتب الفقه التى يدعى أنها تموج موجا كلها فى الأحكام التى هى أعمال المسلمين فى معاملاتهم وأنكحتهم وزراعاتهم وصناعاتهم وجهادهم وتعليمهم وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، وأكبر من هذه وأطم قوله « ثم يزعمون أن القرآن والدين قد دلاهم على هذه الحقيقة »

فيابلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذى زعم أن الدين والقرآن دلا على أن الولد يطلب بالدعاء أو بهذه العبادات المجردة من غير سببه الطبيعى ، فانك صرحت بأنهم يطلبون ذلك بدون أسبابها الطبيعية [١] . قاتلك الله ما أرخص الكذب عندك وأخفه على لسانك ، لقد وجدت جوا خاليا فأصفرته فيه بكل ما خطر على بالك ، وقد كان من الواجب عليك أن تبين مستند ادعائك عليهم واستدلالهم بالقرآن والدين الذى ادعيته ثم ترد ذلك بالبرهان ولا تكتفى بالادعاء فقط ثم الرد عليهم بقولك والدين والقرآن براء من ذلك ، فكل هذا هذيان وترهات مركب بعضها على بعض

ثم انه لشدة شغفه بحب المعاكسة وتأييد خباثته حاول تصديق ادعائه هذا بعبارة نقلها ـ حسبما زعم ـ عن الغزالى فى كتابه (منهاج العارفين) ذكر فى هذه العبارة أن المؤمن يعيش بعبادة الله من غير طعام ولا شراب ، ثم ذكر أنه السيوطى قال فى بعض كتبه ان الصوفية يلهمون معرفة الطب ، وهذا غاية ما قدر عليه وهذا مع كونه ليس من الحجة فى شىء البتة وانه قد ردّه بنفسه حيث

---

(١) والمسلمون وان قالوا ان الطاعات وامتثال أمر الله تعالى لها سبب عظيم فى حصول البركات ودفع الشرور كما دلت على ذلك النصوص ، لكن لا يقولون انه حصول ذلك بترك الأسباب الطبيعية التى شرعها الله وأمر بها ، بل اتباع أوامره فى الاخذ بالاسباب هو من الطاعات التى هى من أسباب الخيرات كما وضحنا ذلك مرارا

ادّعى أنه ليس المسلم بالذى يتتبع أخطاء المخطئين واغلاط الغالطين ليقاوم بها وحى الله ، فهو أيضا لا يفيد ما ادعاه ، فليس فى كلام الغزالى ولا السيوطى ان الولد يطلب بمجرد الدعاء وأن المعارف والزراعات تطلب بالاخلاق الدينية المجردة من دون أسبابها الطبيعية ، فان هذا الادعاء بهت للغزالى والسيوطى وكذب عليهما ، وكتبهما فى الفقه والاحكام مشهورة كلها تردّ هذا ردا صريحا ، وهما وان كانا من المغالين فى التصوف لكنهما لا يدعيان مثل هذا الهذيان المنكر ، وقد تقدم قول هذا المغرور فى صراعه [1] ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم الخ ، فكيف جاز له أن يحتج بما ليس حجة

فصل

قال « ومن أشنع الأوهام أننا سمعنا وسمع كثير من القراء بلا شك خطبة تتلى فى المساجد حينما انطلقت الغارات الجوية على مصر منذ سنوات يندد فيها بجهل من يلجئون حين الغارات الى المخابىء مزعوما فيها أن المخابىء والملاجىء لا تعصم من الموت ، وأن الفرار اليها نقص فى اليقين وجرح فى الايمان بالله ، لان الذى يعصم من ذلك هو ذكر الله ودعاؤه والتوبة اليه والخلاص من الذنوب »

فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله فى أنه لا يرى للمشيئة العليا تدخلا فى أمور العالم ، فلا يرى للعبادة والذكر والتوبة والخلاص من الذنوب أثرا فى الوقاية ، فمن ذكر الله تعالى ودعاه وتاب إليه كمن لم يذكره ولا يدعوه ولا يتوب اليه فى العصمة من الهلاك وأسبابه ، وهذه هى قاعدته ، ولهذا أنكر على هؤلاء الذين يرون للمشيئة العليا تدخلا فى الوقاية وعدمها ، هذا مع أنه تناقض فى هذه الدعوى فزعم فيما تقدم أن من يلجأ الى الفرار من هذه الغارات والقنابل وغيرها من الظواهر فهو جاهل ممعن فى الغباء والجهل حيث قال فى الصحيفة

---

(١) ص ٣١٨ ج ٢

١١٠ ، ومن حاول أن ينجو من خطر الفيضان الذى ترمى به الأنهار ومن خطر الامطار التى تجود بها السماء بالهرب والبعد عن المنطقة كان ممعنا فى الجهل والغباء ، وهو كمن حاول أن ينجو من مخازن البارود والقنابل وسائر المتفجرات بالفرار من المدن التى توجد فيها هذه المخازن ، والشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد وسيلة للنجاة مما تخاف وترهب من ظواهر هذا الكون : من البروق والرعود والعواصف والقواصف والأعداء المغيرين[1] ومن اللصوص وغيرهم ومن اختلاط النساء بالرجال ، لا تجد حيلة سوى هذا ، أما الشعوب والافراد المتعلمون فانهم لا يفرون أمام شيء من هذا ، بل يقفون له ويروضونه ويصرفونه وفق المصلحة والفائدة ، انتهى

فكيف يشنع هنا على الذين ينهون عن الهروب ويرشدون الى طاعة الله تعالى ، ويشنع هنا لك على الذين يهربون من هـــذه الظواهر التى منها إغارة الأعداء والقنابل وسائر المتفجرات ويتقونها وينهى عن ذلك ، مع أنه شنع على الذين ينهون عن ذلك ، وأبشع من هذا وأشد نكارة دعواه أن المتعلمين يقفون أمام هذه الظواهر من البروق والرعود والعواصف والقواصف لا يفرون منها بل يروضونها ويصرفونها على وفق المصلحة والفائدة ، وليته استطرد فبين كيفية تصريف البروق والرعود والصواعق والقواصف ، وكيفية الوقوف أمامها والاستفادة من مصالحها لينتفع الناس بذلك . وأعجب من ذلك أنه خلط هذه الأمور باختلاط الرجال بالنساء ، فعلى عقله العفاء والسلام

كلام أكثر من ترى ومنظره مما يشق على الآذان والحدق

ثم ذكر أن من أظهر وأكبر أعمال النبى ﷺ التاريخية أنه حينما اضطر الى الخروج بدينه من مكة وخاف مطاردة أعدائه المشركين لجأ الى غار ثور التاريخى المشهور هو وصاحبه الصديق

---

(١) هنا الشاهد

فيقال : هـــذا يبطل دعواك السابقة التى نقلناها فى قولك ان الشعوب والأفراد البدائية الجاهلة لا تجد سبيلا الى النجاة مما تخاف وترهب الا بالهرب، الى قولك ومن الاعـداء المغيرين ، فجعلت النبي ﷺ وصاحبه رضى الله عنه من الافراد البدائية الجاهلة لانك جعلت الذين يهربون من الأعداء المغيرين ـ سواء كانوا أفرادا أو شعوبا ـ بدائيين جاهلين ، ومعلوم أنهما لم يقفا لاغارة الاعداء ويصرفاها فى المصلحة والفائدة بل خرجا حتى لجـآ الى غار ثور واخذا فى الدعاء والتوكل على الله ، فكيف تستدل بهذا وهو حجة عليك ، ثم ادّعى أن النبي ﷺ لم يأخذ هو وصاحبه فى الدعاء بل أخذا فى سنة الحياة

فيقال : هـذه دعوى كاذبة بل المتواتر فى الصحاح والمسانيد وغيرها أنه دعا الله تعالى وأكثر من ذلك حتى انه دعا على ذلك المشرك الذى لحقه عـلى فرس حتى رسخت قوائمها فى الارض، فهو ﷺ اعتصم بالدعاء الذى هو رأس الوسائل الدينية كما أنه فعل مافى وسعه من الأسباب الطبيعية وهو الدخول فى الغار ونحوه ، ولولا إحاطة الله تعـالى له بالوسائل الدينية لم تنفعه الأسباب المادية ، فان غار ثور صغير جدا ، ومع ذلك وصل اليه المشركون حتى وقفوا على فم الغار وصرف الله أبصارهم وبصائرهم عن دخوله أو النظر فيه ، وهذه معجزة ظاهرة خارقة للأسباب العادية ودليل ظاهر عـلى أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب المادية وأعظم منها ، بل الأسباب المادية تابعة لها ، فانه لو كان مجرد دخول الغار والوصول اليه مفيدا فى النجاة لرآهما كفار قريش ، فانه من البعيد جدا إن لم يكن من المستحيل فى العادة أن يصل الأعـداء المغيرون العارفون بطرق النجاة يلتمسون من هو أعدى عدوّ لهم وقد حرصوا نهـاية الحرص عليه ثم يقفون على هذا الغار البسيط ويعجز أحـــدهم أن ينظر فيه ليلتمسه فيه ولا سيما مع قلة الملاجىء هنالك . ثم ان مقتضى كلامه فيما سبق أنه يجب أن يقف ولا يلجأ الى الغار ولا غيره ليصرف هـذه الاغارة ويروضهـا على ما تقتضيه المصلحة والفائدة كما تقدم تصريحه بذلك

ثم ادعى بعد هذا أنه عليه السلام فعل ذلك هو وخلفاؤه وأصحابه فى حياتهم ولهذا نجحوا ، قال « ولو انهم كانوا يذهبون مذاهب هؤلاء لأخفقوا ولم يبلغوا من أمرهم شيئا »

فيقال : هذا بهت صريح فانه قد كان من المعلوم الذى لا جدال فيه أنه عليه السلام وأصحابه من أعظم الخلق اعتمادا على الأسباب الدينية ، فهم أعظم الخلق دعاء وتضرعا وصلاة وصياما ، وانه تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ، فهو أتقى الخلق ، وهم أتقى الخلق بعد الأنبياء ، هذا أمر لا يشك فيه مسلم كما لا يشك مسلم أنهم لم يعتمدوا على الأسباب الطبيعية بل استعملوا مافى امكانهم واعتمدوا على الله وحده فى الفوز والنجاح . ثم ان هذا الكلام تناقض منه كما تقدم ، فانه تارة ينكر على من لم يقف للاعداء وتارة ينكر على من ينكر عليهم ، وهؤلاء الخطباء لم يدعوا إلا الحق ، فانهم أرشدوا الى الدعاء الذى هو من أعظم الأسباب والى الاخلاص والى التوبة من الذنوب فان الذنوب هى البلاء وهى اسباب المصائب كلها فبزوال السبب يزول المسبب وبفعل الوسيلة تحصل النتيجة ، وليس فى الدنيا كلها أعظم وسيلة ـ للنجاة والحياة والخلاص من كل شرّ ـ من طاعة الله تعالى وتقواه والالتجاء اليه والتوكل عليه ، فمن عمل بطاعة الله تعالى فلا بد أن يوفق للأخذ بالأسباب المادية وتيسر له الامور ، ومن عاكس الله ورفض أسبابه الدينية وذهب يطلب مراده من الاسباب المادية وحدها لم يستحصل ذلك غالبا ولو حصل له شيء فى النادر فلا بد أن يعذب به وتصيبه النكبة فيه ويذوق وبال أمره كما وقع ذلك بالعيان على ما تقدم تقريره

فصل

ثم أخذ يتكلم فى الأرواح ، وذكر أن الناس يظنون أن السحاب إنما تسوقه الملئكة ، وأن النبات إنما ينبت بقوتها ، وأن البرق والرعد عملان من أعمال

الملئكة ، وأطال من هذا الكلام وأكثر فيه من التهكم والاستهزاء ، ولقد كان من واجبه أن يذكر أن هــــذه الأمور من عقائدهم التى لا بد منها ، ويذكر كلامهم فيها من العقائد ، ويذكر أدلتهم ثم يبطلها ، وهو لم يفعل من ذلك شيئا بل أخذ فى التهكم والاستهزاء ، وهذا ليس من الحجة فى شىء فنكتفى بمنع الدعوى

ثم ذكر الشياطين والجن ، وأطال فى انكار دخول الشياطين أو الجان بدن الانسان ، وذكر أن ملايين المسلمين يزعمون وقوع ذلك ، ثم ذكر أنه جرى بينه وبين أناس محاورات فى هذه الأمور ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، فعليه أن يبين كيفية اعتقاداتهم من عقائدهم المعتمدة ثم يذكر دليلهم ثم ينقضه بحجج معقولة ، وحيث انه لم يفعل شيئا من ذلك فلا حاجة الى الاطالة فى هـــذه الامور ، لأن الكلام فيها مشهور فى كتب العلماء ، وكلامـه يدور عـلى انكار وجود الملئكة والشياطين ليتسنى له القول بان الحوادث كلها من تفاعل الطبيعة وتطوراتها اعتمادا على هذا الاصل الخبيث . وليس انكاره للملئكة والشياطين باقبح من انـكاره للقضاء والقدر وكون الدعاء وسيلة ، ومعـــاداته للصلوات والخطب والمساجد وامثال ذلك فان من اعتقد الالحاد فلا بدان يرى هذا الرأى

ثم ذكر مسئلة إحضار الارواح المشهورة ، وذكر أن فى صحتها خــــلافا ، وادعى أن فريقا من المحققين ـ ولا ندرى من هؤلاء المحققون عنده ـ ينكرون إحضارها ، ثم ذكر حكايات عن شيخ مجهول لم يذكر اسمه فى هـذا الموضوع . هكذا تكون حججه فى القدح فى أصول الدين ، مع أنه يقـدح فى الروايات التى فى صحيح البخارى اذا لم توافق رأيه . وحيث ان كلامه كله فى هذه الأمور تهـكم واستهزاء وحـكايات من عند نفسه فنكتفى فى رده بالمنع . ثم بعد أن أسرف فى انكار هذه الأمور لف ودار الى الخداع فادعى أنه مؤمن بالملـئكة (إنها كلمة هو قائلها) فهى كافية باقناع خميرة فاى مضرة عليه بالاتيان بها وهى تمنعه عندهم من الاضلال والتكفير

فصل

قال «ومما يتصل بمسألة الأرواح المعتدية مسألة الاصابة بالعين أو بالنظرة أو ما يسمى عند العامة بالحسد ، فان الحاسد عندهم إنما يصيب بروحه الخبيثة . ومسألة الاصابة بالعين مسألة ذات ذيول طويلة وحواش ضافية ، ولاعتقادها أثر جسيم فى حياة الكثيرين وفى عقولهم وأفكارهم وتصرفهم العام » . ثم أخذ يسرد أشياء من اعتقادات العامة فى الاصابة بالعين ، ثم ذكر أنهم ينسبون أشياء من هذه الخرافات الى الدين ، وذكر حديث : أكثر من يموت من أمتى بعد قضاء الله وقدره بالعين ، ونصف ما يحفر لامتى من القبور بالعين ، والعين تدخل الرجل القبر والجمل القدر ، وذكر أشياء من هذا القبيل على عادته فى تتبع مهازل العامة والمخرّفين والآثار الساقطة ليجعل من ذلك سلاحا للطعن فى صميم الدين وأهله ، فهو يتناول ما تيسر مما شاء من حكاية أو أثر مهما كان فى الضعف والسقوط ، ثم يكبر ذلك ويعظمه ويزيده بما شاء ، ثم ينسبه الى الاسلام وأهله ويصول فى رده ويجول . وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا ، على أن دعواه هنا أن لذلك أثرا فى حياة الكثيرين وفى عقولهم الخ دعوى مردودة ، فاننا نقول نحن لا نثبت الا ما كان حقا وله حقيقة فقط ، وما كان محققا فانكاره مكابرة وجحود للحقائق ، فانكاره أعظم أثرا فى إفساد العقول والحياة من نفيه ، فان العقول اذا تمرّنت على المكابرة وجحد الحقائق فسدت . هذا فى غير الامور الشرعية . أما فيها فهو تكذيب للنصوص الدينية وجحد لها وهذا ينافى الاسلام . وأيضا أنت قررت بأن الانسان يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، وليس فى الدنيا أضر على الحياة وعلى العقل من هذا الاعتقاد ، فان الانسان اذا اعتقد أن عدوه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء أثر ذلك فى عقله وروحه وحياته فى الفساد والرعونة والوهن وسوء العمل ، وسيأتى كلامه بأنه يوجد فى الناس من يستطيع أن يخضع من حوله ويستعبدهم

ويصيرون كالأموات بين يديه بمجرد نظرة يرسلها اليهم ، ومعلوم أن اعتقاد هذا أكبر ضررا وأسوأ عاقبة فى حياة الكثيرين وعقولهم وتفكيرهم وتصرفهم العـــام . ثم ذكر أنهم يعلقون التمائم والاحجبة المتنوعة من طلاسم وألغاز وحروف مقطعة ويحملون النجاسات وقاية عن العين ، وكل هذا كذب ظاهر إن أراد أن أئمة المسلمين يرونه ويأمرون به ، وإن أراد أن بعض جهـــلاء العامة يفعلون هذا فهم يفعلون أشياء أعظم ضررا منه كالأمور الشركية وغيرها ، وأئمة المسلمين ينهونهم عن هذا وهذا ، وليس الكلام فى أفعال بعض العامـة . وهذا المغرور يعلم حقيقة العلم أن كتب الأصول والفقه مملوءة بالنهى عن هذا ما عدا التمائم التى من القرآن والسنة ففيها خـلاف . وأما حمل النجاسات فهم مجمعون على تحريم ذلك وأنه يبطل الصلاة ما عـدا حالات ضرورية فنى ذلك نزاع . وأكثر من أدخل هذه الأمور عـلى الاسلام هم أسلافه من ملاحـدة الجهمية ومن نحا نحوهم ، فان أكثر ما توجد هذه الأمور فى كتب الطب ، وقد أثنى عـلى هؤلاء الفلاسفة الذين أدخـلوا هذه الأمور كالحسن بن الهيـــثم والكندى وأبى بكر الرازى وأمثالهم ، ثم مجرد وجودهـا منقولة فى بعض الكتب ليس فيه حجة ، فانها لا تنقل فى العقائد المعتبرة وانما توجد فى الكتب التى يوجد فيها تحريف الصفات والالحاد فى معانيها والدعوة الى الشرك . ولهذا لا توجد فى الكتب الصحيحة النقيـة ككتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وكتب السلف وأتباعهم ، وقد تقدم كلام هـذا الزائغ أنه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، وأن الكتب يوجد فيها أخطاء كثيرة ، ولو كان لهذا المغرور أدنى غـيرة على الاسلام وأهله لم يحتجّ ببعض أفعال جهـلة العامة وأمثالهم على المسلمين وينشر ذلك بين أمم فى غاية العداوة للاسلام وأهله تشترى كل ما تجد فيه أدنى شبهة فى تشويهه واشانته وإشانة أهله باغـلى ثمن . وقد علم أن كتب الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة المعتمدة تحرّم ذلك ما عدا التمائم المشتملة على النصوص الشرعية فعلى التفصيل الذى ذكرناه.

ثم قال « نعم جاء فى الأحاديث التى رواها المحدثون الثقات أن العين حق ، وأنه لو كان شيء سابقا لسبقته العين ، ولكن هل هذه الاحاديث فى سبيل من جهل هؤلاء الجاهلين ، وفى صدد مما قالوا . كلا فان كلام النبوة أضخم وأسمن معنى وهدفا وغاية مما يتوهمون »

فيقال : ولم لا يصير كلام النبوة أضخم وأسمن معنى وهدفا وغاية مما قلته أنت وتوهمته ، ولا سيما مع شهادتك على نفسك بانك جاهل وأنك أسفه من كل سفيه [1] وأما علماء الدين فان الله تعالى ألزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها وأهلها ، ومن كلمة التقوى فهم النصوص الشرعية وتطبيقها على مدلولاتها ، ومعلوم أن ما فهموه فكله مخالف لما ادعيته ولم يقل بقولك هذا أحد من علماء المسلمين

فقولك بعد هذا « فالعين حق ، فان الانسان الشرير يرى بعينه فيحقد ، ويحسد بقلبه ثم يصيب بأعماله » قول ساقط فليس هذا معنى الحديث ولا هدفه ولا غايته ، بل أسمن وأضخم من ذلك ، فالرسول ﷺ لم يقل العمل حق بل قال « العين حق » الحديث . فلو كان المراد العمل لم يكن للعين اختصاص ، فان الانسان قد يسمع أيضا فيحقد ويحسد ثم يصيب بأعماله ، والشم واللمس كذلك ، ولم يكن أحد يشك فى أن الانسان ينظر أو يسمع ثم يحسد ثم يعمل ، ولو أن رجلا رأى امرأة جميلة ثم راودها عن نفسها حتى عجز عنها ثم قتلها حسدا لم يصح أن يقال إنه أصابها بالعين ، وكذا لو رأى مالا لعدوه فحسده فعمل على اتلافه لا يقال انه أصابه بعينه ، بل الاصابه بالعين على الوجه المعروف عند الناس أمر قد كان موجودا فى زمن النبى ﷺ وقبله ، ولهذا

---

(١) كما تقدم ـ وكما سيأتى ـ فى ادعائه بأن أسفه السفه دعوى كون الانسان يقدر على كل شيء

قال المفسرون عند قوله تعالى ﴿ وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم ﴾ أن المراد به الاصابة بالعين ، وكذا قالوا عند قوله تعالى عن يعقوب عليه الصلاة والسلام انه قال ﴿ يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ﴾ الآية انه خاف عليهم من العين أى انه خاف عليهم ان يصيبهم أحد بعينه لا أنه ينظر اليهم أحد ثم يحسدهم ثم يكيدهم فيضربهم أو يقتلهم ، ولا يقال لاحد رأى أحدا فأعجبه ثم حسده فذهب يسرقه أو يضربه أو يقتله انه أصابه بالعين والاصابة بالعين فى كلام أهل اللغة كلهم والمفسرين وغيرهم ليس هذا معناها ، بل كان معناها هو هذا الذى يعرفه الناس ، ولهذا كان لكثرة وقوعه ومعرفة الناس به وكونه قضية مفروغا منها لم يختلف العلماء فى تفسير معناه ، فلما جاء هذا الملحد لخالفهم فى الاعتقاد اضطر الى مخالفتهم فى المعنى فحرف الحديث وحمله على مقتضى اعتقاده ، وهذا مكابرة وجحود للحقائق الثابتة بالحس والضرورة والشرع والعقل ، وقد أوضحت الأحاديث الكثيرة معنى هذا الحديث وأنه على مقتضى ما يفهمه الناس ، فمن ذلك ما رواه مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن النبى ﷺ قال « العين حق ، واذا استغسلتم فاغسلوا » فهذا الحديث نص صريح فى الدلالة على خلاف ما ذهب اليه ، فالاستغسال لا يجرى فى الاصابة بالعمل وانما يجرى على الوجه الذى يفهمه الناس من الإصابة بالعين . وعن ابى أمامة أسعد بن سهل بن حنيف قال مرّ عامر بن ربيعة بسهل بن حنيف وهو يغتسل ، فقال : لم أر كاليوم ولا جلد مخبَّأة ، فما لبث أن لبط به ، فأتى به رسول الله ﷺ فقيل له أدرك سهلا صريعا ، فقال : من تتهمون به ، قالوا : عامر بن ربيعة ، قال : علام يقتل أحدكم أخاه ، اذا رأى احدكم من أخيه ما يعجبه فليدعُ له بالبركة . ثم دعا بماء فأمر عامرا ان يتوضأ فيغسل وجهه ويديه الى المرفقين وركبتيه وداخلة إزاره ، وأمره أن يصب عليه . قال سفيان قال معمر عن الزهرى : وأمر أن يكفأ الاناء من خلفه . رواه النسائى وابن ماجه باسناد صحيح . وهو نص صريح فى المسألة . والأحاديث فى هذا

كثيرة مشهورة ، وهو أمر معروف قد شاهدنا وقوعه كما شاهده غيرنا فانكاره جحود للحقائق الثابتة بالشرع والعقل والحس ، ثم هو لم يأت بحجة على إنكاره ، واذا كان هو لا يعلم ذلك فليس عدم علمه علما بالعدم والمثبت مقدم على النافي . قال العلامة ابن القيم [1] أبطلت طائفة ممن قل نصيبهم من السمع والعقل أمر العين وقالوا انما ذلك أوهام لاحقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ومن أعظمهم حجابا وأكثفهم طباعا وأبعدهم عن معرفة الأرواح والنفوس وصفاتها وأفعالها وتأثيراتها . ثم ذكر كلاما طويلا رد به على من أنكر ذلك ، فليراجعه من أراده

فصل

ثم قال « والعين حق ، فان في كثير من العيون قوة آمرة ناهية بل قاتلة آسرة ، وان الرجل الموهوب هذه القوة لينظر أحيانا الى من حوله فيخضعهم بمجرد النظر ، ويسلس لنظرته وعينيه أشمس خلق وأعصى طبع ، ويبلغ من أنفسهم أقصى ما يريد وأبعد مــا يرجو ، فيصبحون طوع مشيئته ورهن إشارته ، فيصبح بينهم الآمر الناهي المتصرّف ، ويصير فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكيره والهوى هواه والدنيا دنياه [2] اننا أحيانا ليأخذنا العجب من استعباد شخص لأمة فنذهب نلتمس الأسباب والعلل بعيدا أو قريبا ، مع أن الأسباب قد تكون في عين ذلك الشخص المعبود ونظراته ، وقد تكون في مظهره ، وقد تكون في صوته ونغمته ، انها

---

(١) في زاد المعاد ص ١١٧ ج ٣ طبعة المصري

(٢) لو قلت بل هو المقدم في الامر لقاربت الصدق ، فان عمليتك لهذه الأغلال كليا دليل على أنك تريد أن تصل الى هذه المنزلة كما ادعيت ذلك لنفسك ؛ ولكن هيهات دون ذلك خرط القتاد

فيه على كل حال ، وان سلطانه معه فى ذاته ، فطوبى لمن رزقوا هذه النظرات ، وهذه العيون الآسرات القاهرات ، وهنيئا لهم السيادة الظاهرة والباطنة »

فيقال : وهنيئا لك أيضا معرفة هذه الترهات ، ونشر هذه المخــازى المضحكات ـ لو أن الغزالى أو السيوطى أو غيرهما من علماء المسلمين ذكـروا هذا الذى ادعيته لنسبتهم الى كل سخف وجهل وضلال . ومن العجب ـ وكل أمره عجائب ـ أنه ينكر تأثير الدعاء والصلاة وسائر العبادات ثم مع هذا يدعى أن بعض الناس فى إمكانه أن يبلغ من نفوس الناس الذين حوله بأن يعبدوه فيكون فيهم الزعيم المعبود أو الشيخ المعبود ، القول قوله والتفكير تفكـــيره بمجرد نظراته ، الى آخر هـذيانه . وقوله « فطوبى لمن رزقوا هـذه النظرات وهذه العيون » فنقول : وطوبى لك لو أرشدتنا الى عشرة أشخاص من جنس هذا الشخص لنكوّن منهم أعظم جيش للدفاع عن المسلمين . بشرى لـكم أيها المسلمون لا تخافوا ولا تحزنوا ، هذا عالم الشرق الأوسط ، هذا نابغة الزمان ، هذا الدر الذى فى لجج البحر ، هذا الشمس التى فى غير برجها ، هذا الذى بلغ ما يريد من العلى كما يقول قد وجد لـكم ما هو أعظم من الطاقه الذرية وأعظم من كل سلاح مادّى ، فما هى الطاقة الذرية بل وما هى الأسلحة كلهـــا وأين أمريكا وأين أوربا وأين علماء الطبيعة والمادة وأمثالهم فى جانب هؤلاء الذين وهبوا هذا السرّ الغيبى ، السر الذى لا يعلم كيفيته الذاتية الا الله تعالى ، هـذا من كنوز الحقائق الأزلية الأبدية ، فقد عرف صاحبها أناسا يستطيعون أن يفعلوا بنظراتهم أو غير نظراتهم من الخواص التى هى فيهم ، هى فيهم بكل حال ـ إما بنظراتهم وإما بغيرها من الخصائص النفسية والمواهب الذاتية ـ إخضاع من حولهم من الناس بمجرد النظر أو غيره وأن يبلغوا من نفوسهم أقصى مـا يريدون وأبعد ما يرجون فيصبحوا طوع مشيئتهم ورهن إشارتهم . لقد نجح العرب بل نجح المسلمون بهذا السلاح البسيط بجيش النظر أو بجيش النغمة أو

كالصوت ، هم ناجحون بكل حال ، وها هو ذا قد أخبرنا بشيخ واحد يعرفه من هؤلاء الشيوخ الذين هم بهذه الصفة فقال :

« وكنت أعرف شيخا يكاد يعد من الناحية العلمية فى غمرة الجاهلين ، ومن الناحية الذوقية الادبية السلوكية فى زمرة السفهاء المتوقحين ، وهكذا هو فى كل ناحية من نواحيه وجانب من جوانبه ، ولكن كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أولا يكاد يستطيع أن ينجو منها أو يفلت من عقدها ونفثها انسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، انه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد ، انه فرض عليهم أن يكونوا بين يديه كالأموات بين أيدى الغاسلين لا يتحرك من أحد منهم عضو حتى يحركهم هو وحتى يريد منهم هو ، وفرض عليهم أن يخشعوا فى حضرته خشوع الصالحين العابدين فى صلواتهم ، أو ذلة المشركين أمام أصنامهم ، وألزمهم أن يدخل بينهم وبين الله فى أقرب موقف يقفونه منه تعالى ، ألزمهم أن يجعلوا خياله وصورته بينهم وبين الله وبين القبلة حين الصلاة ، وفرض عليهم أكثر مما فرضه الله على عباده ، ثم كتب لهم هذه الفروض فى كتاب من كتبه التى زورتها يداه ، ثم أمرهم أن يتعلموا هذه الفرائض وان يستذكروها حفظا من أجل أن يعملوا بها أينما كانوا ، وقد امتثلوا هذا كله ثم قالوا هل من مزيد من هذه العبادات والفروض . فما سر هذه القوة فى هذا المخلوق [1] انها أسرار عديدة ، وان أقواها ما فى نظراته وعينيه من سحر خبيث » انتهى ما ذكره عن هذا الشيخ المجهول ، وليته تفضل على العرب والمسلمين ليبصروا طريق العقل

---

(١) لو صح شىء من هذا فليس السر فيه هو ، بل السر فيهم هم ، لانهم ابتلوا بما ابتليت به من الطبع على القلب والعمى فى البصيرة ، فليس تعظيمهم لهذا الشيخ بدون تعظيمك للاحدة الطبائعيين وأمثالهم

فصرح باسمه وبين مكانه ، فان ذكر مثل هذا والتعريف به من أفضل ما يفعله المرء فيحل عقدة من هذه العقد المضروبة علـــى قومه ولا سيما فى مثل هذا المقام الذى يحث فيه على التقدم ، اللهم إلا أن يكون هـذا من الأسرار التى لا يباح بها فى هذا الموضوع ، بل يخبر بها أناس دون أناس بطرق سرية

ثم الكلام عليها من وجوه : أحدها أنها حكاية عن مجهول عـــلى صورة بعيدة ان لم تكن مستحيلة فلا تقبل فى مقام الجدال والاحتجاج

الثانى أنه لو فرض على وجه الجدل وجودها فهى حجة عليه ، لأنها تناقض ما ذكره فى صحيفة ١٩٢ من أغـــلاله فى محاورته مع ذلك الرجل الذى أشار عليه فيما يزعم بالرفق فى معاملة الناس فى البيع والشراء ، ثم احتج عليه الرجـل بالقضاء والقدر ، وبين له ما وقع له من ذلك أنه عامل إنسانا بالإهانة ولم تمنعه تلك الاهانة من الابتعاد عنه فلما احتج عليه ذلك الرجل بما عمله بنفسه ورآه وشاهده قال هذا المغرور « فغمرنى بجهـــله العميم ، وأفحمنى بسخفه ، حتى خرجت من عنده مفكرا » الخ . فكيف يشنع على ذلك الرجل فيما ادعاه مما هو معقول ، وهنا يثبت ما هو أقرب فى الاستحالة ممـــا انتقده ومع ذلك يرمى المخبر المباشر بالسخف والجهل فيكون هو على هذا من أجهل الخلق وأسخفهم رأيـا

الثالث أنه لو ثبت ما ادعاه فهو ينقض كل ما ادعاه ويجتثه من أصـله من الغلو فى الأسباب المادية وانكار تأثير الأرواح ونحوها

الرابع أن يقال : والعين حق أيضا فى إصابتها على الوجه المعروف عنـد الناس بتكييف نظراتها الخبيثة ، وهذه النظرة أقرب الى أدنى عقل سليم ممـا ذكره ، فمن صدق بدعواه هـــذه مع بعدها أو استحالتها فهو بتصديق وقوع الإصابة بالعين على ما يفهمه الناس أقرب ، ومن أنكر ذلك فهو لما يدعيه أشد إنكارا

الخامس أننا بينا فيما تقدم أن ما يخشى من الخوف من تأثير الأوهام فى اعتقاد العين هو أسهل مما ذكره من وقوع هذه الأمور الفظيعة ، فان القائلين باصابة العين لا يقولون انها تسحر الانسان وتفعل به هذا الفعل ، غاية ما فى ذلك أنها تؤثر ألما فى الجسم أو ضررا فى المال ونحوه ، أما أن تصل الى افساد العقل والدين والتفكير وتوقع فى الشرك وعبادة غير الله وتغل الانسان وتقيده وتصفده ـ على ما زعم ـ فهذا لم يقل به أحد ممن يعتدّ به ولا يوجد فى كتب المسلمين المعتمدة ، هذا مع أنهم يقولون أن إصابتها لا يمكن أن تجرى إلا بالقضاء والقدر ، وأن فى إمكان الانسان غالبا أن يتقى هذا بالاستعاذة بالله والدعاء والتوكل والعمل الصالح ، وبذلك يزول الضرر المخشى من الوهم الذى تدعيه ، فكان ما ذكرته أشد ضررا وأوخم عاقبة ، هذا لو قدر وقوعه ، فكيف وهو سخف وهذيان لا يخفى إلا على أشباه الانعام

ثم قال « والعين حق أيضا ، فان الانسان ينظر بعينيه فيشتهى بقلبه فيهلك بعمله وسعيه ان لم يمسك بزمام نفسه إمساك قوى غالب ، ولهذا جاء فى حديث نبوى : النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، وليس هناك أحق من تلك العيون التى يحمل ضعفها أعظم قوة استبدت بالانسان وسخرته وأذلت كبرياءه وساقته الى الخير حينا والى الشر أحيانا وظلت ذات النفوذ الذى لا يقاوم والسلطان الذى لا ينازع ولا ينزع »

فيقال : وهذا من جنس ما قبله ، والجواب عنه كالجواب عما قبله ، وما المانع من أن يقال والاصابة بالعين على الوجه المعروف عند الناس حق فعلها هنا أثر من آثار هذه القوة التى ادعيتها فيها ، فان أبيت الا العناد والمكابرة فلخصمك أن يمنع ما ذكرته استنباطا من هذا الحديث ، لان الاصابة بها على الوجه المعروف عند الناس هو موضوع الحديث كما اتفق على ذلك جميع أهل اللغة والتفسير والشروح وغيرهم من علماء الدين ، ولم يخالف فى ذلك سوى

بعض ملاحدة الفلاسفة ، ولهذا قال «ولو كان شيء سابقا القدر لسبقته العين» ومعلوم أن هذا اختصاص عن العمل الحسي وعن نظرة الحب ، لانها لشدة مفعولها في الضرر وسرعته تكاد تسبق القدر ، ولكن القدر قوة ربانية لا يسبقه شيء ، والناس يعبرون بهذا التعبير الشرعي فيقولون فلان أصيب بالعين وأصابته العين ، فهو شيء معروف متواتر معناه ، وقد تقدمت النصوص الدالة على ذلك ، بخلاف نظرة الحب ونحوها فان ذلك غير خاص بالعين بل الصوت والنغمة تعمل من جنس عمل النظرة ، كما أن هذا أمر آخر لم ينكره منكر والنصوص دلت على خلافه فان حديث أبي امامة نص في المسألة لا يقبل التأويل بحال كما تقدم

فصل

قال «وها هنا مسألة كبرى نشأت أيضا من الجهل بسنة الله وسنة الحياة وبان العالم ليس محكوما بالنواميس والقوانين ، ذلك أن الناس ظلوا مئات السنين يعتقدون أن المسلمين لن يغلبوا لأن دينهم حق والحق يجب أن يكون أهله منتصرين أبدا وإن قصروا وأهملوا ونسوا انفسهم»

فيقال : هذه الدعوى كذب ظاهر وبهت عظيم ، فليس في المسلمين من يدعي أنهم اذا قصروا ونسوا أنفسهم ينصرون أبدا ، ولا يوجد في كتاب من كتب المسلمين المعتمدة انهم لابد أن ينصروا ولو قصروا وأهملوا أنفسهم ، فهذه الدعوى بهت واضح ، وأما اعتقادهم بأنهم لن يغلبوا لان دينهم حق وأصحاب الحق هم الغالبون فهذا صحيح لكن اذا قصروا ونسوا أنفسهم لا يكونون أصحاب حق فلا يكونون غالبين . وهذا المغرور نفسه قد ادّعى بأن المسلمين على دين محرف ، وأن الدين الصحيح لا يكاد يوجد ، فقولهم انهم لن يغلبوا لأن دينهم حق صحيح ولم يأت ما ينقضه ، لكن الشأن في كونهم لم يقصروا ولم ينسوا انفسهم ، ومعلوم أن غربة الاسلام اليوم وعدم العمل

بنصوصه أمر ظاهر فى الأكثرين

وقوله بعد هذا عنهم « وان الاسلام لن يهزم أمام الأديان الأخرى » صحيح ، فهل جاء ما ينقض هذا ، لا شك أنه لم يأت ما ينقضه ، وهذا المغرور نفسه معترف بأن الناس على غير دين صحيح ، بل على دين محرف لا يمكن البقاء عليه ، وجميع أئمة الاسلام يقولون ان تقدم المسلمين وانتصارهم بقدر محافظتهم على العمل بدينهم ، فان تمسكوا به وحافظوا عليه عزّوا وتقدموا ، وان فرّطوا وقصروا نالهم من التأخر والتقهقر بقدر ما قصروا فيه . وكلامهم فى هذا كثير جداً كما نبه عليه صاحب المنار فى التفسير والوحى المحمدى وغيره . ومن المعلوم أنه كلما تغير الدين وبعد الناس منه وتطرفوا فيه تأخروا وانحطوا بقدر بعدهم وتطرفهم منه ، وهذا أمر معروف بالضرورة والمشاهدة ، لأن الأصل الذى قامت عليه الامم الاسلامية والعربية هو الدين ، فبقدر ما يختل الأصل يختل ما قام عليه ، وهذا بخلاف الاديان الباطلة فانها نقائص لم يقم أهلها على حق حتى يقال انها غيرت دينها وتقدمت كما يأتى توضيحه قريبا . وأكثر الناس فى هذه السنين الأخيرة نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كانهم لا يعلمون ، واتبعوا التقاليد الافرنجية ونحوها وعشقوها وشغفوا بها ، واعتقد كثير منهم بأنهم أهدى من الذين آمنوا سبيلا ، فان كثيرا من الأنظمة الموجودة الآن التى يعمل بها ويتحاكم اليها فى بعض الأمصار مأخوذة من النظام الافرنسى وهو مأخوذ من النظام الرومانى ، ومعلوم أن الرومان أمة منكسة مقهورة ، ومع ذلك فهذا النظام الذى قلدوه وتقلدوه قديم جداً وموضوع فى ظروف ليس لها أدنى علاقة بهذه الظروف الحاضرة ، ومع هذا اختاروه على نظام الله ، هذا مع ادّعائهم أنهم مجددون وأنهم يكرهون القديم وأن الأخذ بالقديم رجوع الى الوراء وان الذين يأخذون بالقديم هم الرجعيون ، فكانوا هم الرجعيين حقا بمقتضى قولهم وفعلهم ، فكيف يبدل نظام رب العالمين وأرحم الراحمين وأحكم الحاكمين بآراء قوم ضالين ظالمين منحطين

ثم مع ذلك يرجى منه تعالى أن ينصر ويؤيد من هذا فعله مع عدله وحكمته . قال بعض العلماء ان الله أغير على نفسه من أن يسعد قوما يزدرونه ويتخذونه وراءهم ظهريا فيستكبرون عن اتباع كلامه وكلام رسله ، ويخضعون لكلام أعدائه ويعظمون آراءهم الخبيثة وينقادون لها غاية الانقياد . ولقد فشا هذا الوباء العضال والداء الخبيث المنذر بوقوع آثاره ونتائجه الوبيلة الماحقة التى لا بد منها ان لم يتدارك بالأخذ بالأسباب الدينية الحكيمة والاعتصام بها ، ولكن محبة الدنيا والاغراق فى عبادة الاهواء أعمت عن ذلك . وخليق بمن بدل نعمة الله كفرا وأحل قومه دار البوار أن يبدل الله عزه ذلا وتقدمه تأخرا وأن يضرب بالذلة والمسكنة حيث أخذ بأسباب الذلة والمسكنة وأن يعاقب بالهوان كما اختار أسباب الهوان حتى يغير ما بنفسه وعقيدته المقلوبة ، لانه فى الحقيقة إنما يعاند الله ويحارب الله ويسب الله لأنه لم يثق بالله ولا بدينه ولا بكتابه ولا بطاعته بل احتقر ذلك وازدراه وكذب على الله بانه متبع دينه مستحق لاعانته ، وكيف يعاند الله ويريد مع هذا أن ينصره على عدوه

ولهذا لما استيقظ كثير من المسلمين فى هذه الأوقات الاخيرة وقام جماعات دينية ينشرون الدين الصحيح فى الكتب والمجلات وغيرها صارت تتقشع عنهم هذه الظلمات شيئا فشيئا ، ولكن أبت النفوس المظلمة الظالمة الا أن تسعى حثيثا فى إطفاء نور الله وإخفائه بانواع الحيل والخبث والمكر ﴿ ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله ، والله لا يهدى كيد الخائنين ﴾

فصل

ثم ذكر أنه انتشر فى الأعوام الأخيرة القليلة جمعيات وهيئات دينية كثيرة ينادون بالأخذ بالاخلاق الدينية الأولى ، ثم أخذ يهجن رأيهم هذا ويشنع عليهم فيه بنحو كلامه السابق فى المبحث الاول ، وقد مر بطلانه . ثم قال فى هؤلاء : ولا يجب أن نعجب اذا وجدنا نحوا لا يهذى ويمنى بالمستحيلات

قد نجح وأخذ برقاب الآلاف والملايين من هذه القطعان البشرية يقودها حيث شاء ، فانه قد هاجم أضعف جانب فيهم وهو جانب الرجاء والأمل فانتصر عليهم بدون عناء »

فيقال هذا كلامك الأول بعينه [1] وقد تقدم الجواب عنه ، وبينا أن هذا هو حقيقة حالك ، فانك صرحت بأن تأخرنا ليس من أجل اختلاف فى الرأى ولا لفساد فى الاخلاق وانما هو لأجل شيء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها . ثم فسرت هذا فى الموضع الآخر بان تعليم المرأة هو الذى يضمن التقدم ، فادعيت أن علينا أن نعلم المرأة علم الشطرنج والموسيق ودقائق الفلسفة ثم لا نخشى شيئا بعد ذلك ، لانك فسرت العلم بهذا فكان النجاح كله فى هذا الشيء البسيط الذى ذكرته ، ثم رجعت الى هذا فنقضته وجعلت السبب الوحيد للتقدم هو الاعتقاد بان الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وأن الله لا يغير فى الأسباب ولا يتصرف فيها فيجعلها ان شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، فان ذلك هو الفوضى . ثم رجعت الى هذا فنقضته وادعيت أن التقدم كله مربوط بشيء واحد هو التمسك بأفكارك فمن تركها هوى ومن أخذ بها نهض . ثم رجعت الى هذا فنقضته حينما أصابتك الحيرة فادعيت أن حاصل ما ادعيته فى هذه الاغلال مشكلة لم تحل الى اليوم . وهكذا تبنى وتنقض (لا عقلا ولا خجلا) فما أوقعك فى هذا الخبال والهذيان الذى سجلته على نفسك إلا ظنك بأنك اذا وعدت المسلمين بهذه المستحيلات ولوحت لهم بهذه الخيالات يحصل لك النجاح فتأخذ برقاب الآلاف أو الملايين من هذه القطعان البشرية ، وما حملك على هذه الدعوى المرذولة إلا اعتقادك بأن جانب الرجاء والامل كان ضعيفا فيهم فأردت — بخيالك هذا أو غيره — ان تنتصر عليهم بدون عناء ، وان تأخذ

---

(١) اى فى قوله « يقال ان الدعاة الدينيين ينجحون كثيرا » الخ

برقابهم فتقودهم كيفما شئت (إن الأمانى والأحلام تضليل) ولولا أن هذا هو اعتقادك وأنه قد رسخ فى ذهنك حتى غلب على شعورك لما كتبت على أغلالك ما ذكرناه بانه « سيقول مؤرخو الفكر العربى انه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » فهذا صريح فى أنك كنت ترى الأمم العربية فى طور الحيوانية البهيمية أو هم كالحيوانات التى تتبع قائدها بالتلويح بدون عناء، إذ أنها لا تبصر طريق العقل ، فالأمم العربية من جنسها بنص كلامك حتى تغلّ بهذه الأغلال ، فاذا غلت بها فانها تقفز من هذا الطور الحيوانى الى طور الانسانية ، وحينئذ ـ حينئذ تبصر طريق العقل ، ولهذا حكمت فيما تقدم أن من تركه هوى ومن أخذ به نهض . ولا شك أن من لم يبصر طريق العقل من بنى آدم فانه يهوى ، فلا نجاة له إلا بأن يلتمس الطريق المنير الذى يبصر به طريق العقل ، وقد حصرته فى سبيل هذه الأغلال ، فعليه أن يقدمك فى الأمر ، ويتضرع اليك فيطلب رغبته ونجاته عند الحادث النكر منك كما ادعيت ، وليس العجب منك فى التجاسر على هذه الترهات والفضائح الواضحة ، فانك ما قصرت فى إظهار خبالك وكفرك ونفاقك وخبث سريرتك وعداوتك للعرب والمسلمين وتلاعبك بعقول الغوغاء والمغفلين ، انما العجب كل العجب ممن أوضحت له هذا كله فأبى الا المعاندة والمكابرة فى أمرك واتهامك بخلاف ما جاهرت به وصرحت به ، وأعظم من هذا وأطم أن فظائعك هذه لم تصغر فى أعين البعض من الناس إلا من حيث أسرفت فيها وعظمتها وكبرتها ، لأنك حينما فعلت هذه الفحشاء وارتكبت هذه الحالة النكراء لم تقتصر على نسبة ما فعلته الى شخص دون شخص أو أمة دون أمة أو مذهب دون مذهب ، بل وجهت هذا الشتم والسب والاتهام والبهت الى جميع الأديان السماوية والى كل الدائنين بها جميعا من الأنبياء والخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وسائر الطبقات من الخواص والعوام ، حتى صرحت على رءوس الأشهاد بأنه قد « عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم

عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » ، وهذا واضح جلى فى أن أهل الأديان منحطون ، وان الرسل وأتباعهم لم ينفعوا البشر بشىء ، ولا أخرجوهم من الظلمات الى النور ، بل عاقوهم عن التقدم ، وحالوا بينهم وبين الحياة الصحيحة ، ولهذا صرحت بان الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها . فأى شىء أصرح من هذا فى القدح فى الأديان وأهلها والثناء على الالحاد وأهله ، فعلى قولك ان الزنوج وأهل مجاهل افريقيا وغيرهم من الأمم التى لا تعرف عن الأديان شيئا أرقى وأعلم من المسلمين والمسيحيين واليهود ممن لهم أصل عريق فى الديانات ، وهذا هو اللائق بعقلك المنكوس . ولقد أكدت هذه الإطلاقات الخبيثة تأكيدا بعد تأكيد فقلت « عجز المتدينون » فأطلقت هذا اللفظ الشامل للمتدينين كلهم ، ثم أكدته تاكيدا صريحا بأنك تقصدهم كلهم لا أحدا دون أحد فقلت « على اختلاف ديارهم » ثم أكدت تاكيدا ثانيا لئلا يظن ظان أنك تريد أهل زمن دون زمن فيكون هذا غير كاف فى التأكيد فقلت « وأزمانهم » ثم أكدت تأكيدا ثالثا خوفا من أن يظن بك أنك لا تريد أهل الدين كلهم فيكون هذا غير كاف فى التصريح فقلت « وأنبيائهم » فصرحت بأن الأنبياء داخلون فى ذلك دفعا لما تخشاه من أن أحدا يستبعد منك أنك لا تريد الانبياء وأنهم لا يدخلون فى هذا الاطلاق ، لانك تعلم أنه يوجد حمير تذهب بهم الأوهام الى حسن الظن بك فيستبعدون جدا أنك لا تريد الأنبياء فى هذا الاطلاق فنفيت هذا الوهم الخاطىء ، ولم تكتف بذلك حتى عطفت على هذا التأكيد الرابع بتأكيد خامس فقلت « وأمزجتهم » دفعا لما يظنه من طبع الله على قلبه حتى كان أبلد من الحمار ، فربما يظن أنك تريد قوما دون آخرين من هذه الأجناس المختلفة أمزجتها فنفيت هذا وأعقبته بتأكيد سادس فقلت « وأجناسهم » لئلا يكون هنا ذو خيال سخيف يظن أنك تريد جنسا دون جنس ، وهنا وصلت السكين الى العظم ، فليس هناك

تأكيد يمكن الإتيان به حتى تأتى به ، وليس وراء هـذا النص والتصريح نص أوضح منه فى تعميم أهل الأديان بهـذا السب والشتم الصريح ، لأنه ليس فى الدنيا أصرح من هذا التعبير فى إرادة العموم ونفى التخصيص ، فقد أطلقت ثم أكدت الاطلاقات بأقصى ما يوجـد من التأكيـدات التى تنفى إرادة التخصيص ، لأن فائده التأكيدات هى نفى الاحتمالات ، وإلا لم يكن لها فائدة ولا معنى . لقد بلغت حـــدا لم يصل اليه غيرك من الكفر والزندقة وشتم الأديان ومـدح ضدها ، ولـكننا ـ والحق يقـال ـ إذا لاحظنا قولك هـذا وقرناه بقولك « إنه بهذا الكتاب قد بدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل» علمنا واستنتجنا انك ما أطلقت هـذه الاطلاقات ثم ذهبت تراوغ عنهـا بعد ذلك إلا فى أمة قد تصورتها على هذه الصورة التى ذكرتها فاعتقدت أنهـــا لم تبصر طريق العقل الصحيح ، وإلا فلو أبصرته لم تسمع لدعى غبى ساقط يشتمها ويشتم دينها وقومهـا على رءوس الأشهـاد فتغضى عنه وتتساهل فى أمره ولا توقع به أقصى العقوبات وتنكل به اقسى التنكيل

فصل

قال « أعلن منذ سنة ونصف تقريبا فى الصحف عن خطاب سيلقيه أحـد الخطباء فى إحدى الجمعيات الـكبرى المحترمـة ، وكان عنوان المحاضرة (الثقة بالله) ، فذهبت الى تلك الجمعيـة فى اليوم الموعود فوجدت الحشود هائلة ، فقام الخطيب يلقى خطابه ، فكانت خـلاصته أن فى أيدى المسلمين أمرا سهلا قريبا يستطيعون أن يدركوا به كل ما فاتهم وأن يجـدوا به جميع ما فقدوا ، وهو أمر لا يكلفهم شيئا ، هذا الأمر السهل القريب هو أن يدعوا الله موقنين بالاجابة ، فانهم اذا دعوا الله وأيقنوا أنه يجيبهم لا محالة فسيجيبهم وسيعطيهم ما سألوا بدون عناء وبدون عمل [1] . ثم ألقى عـــلى نفسه اعتراضا مشهودا

(١) قوله « وبدون عمل » كذب وزيادة من كيسه

مشهورا وهو أن المسلمين ما زالوا يدعون الله تعالى ويسألونه النصر والقوة والاستقلال وإهلاك الأعداء ويسألونه كل خير ، ومع هذا كله فانهم لم يظفروا بواحد من هذه الأمور ، فأجاب عن هذا الاعتراض قائلا انهم دعوا الله ولم يوقنوا بالاجابة ، ومن ثمة منعوا وحرموا ، ثم قال هذا الملحد معترضا على ما ذكره هذا الخطيب تهكما واستهزاء : « فليجمعوا بين الأمرين ، ثم لينظروا كيف يصنع الله لهم وبهم ، انه حينئذ سيهبهم كل شيء ، وسيهلك لهم أعداءهم ، وسيقدم لهم صك الاستقلال ملفوفا بحرير مصنوع فى السماء تحت اشراف الملائكة » . هكذا قال مستهزئا بدعاء الله واجابته . ثم قال « ثم أخذ – يعنى الخطيب – فى تلاوة تلك الآيات والأحاديث التى زعمها مصدّقة لظنه » ثم قال « هذا مجمل تلك المحاضرة التى ألقيت فى تلك الجمعية المحترمة ، وقد كان رئيس الجمعية وهو انسان ذكى خير حاضراً فسمع المحاضرة كلها ، وقد لاحظت أن الموجودين كلهم استحسنوا ما سمعوا ، واستولت على كثير منهم حمى السرور وهزة الاعجاب ، وحسبوا الخطيب قد ارتفع بهم الى احد الكنوز السماوية فلم يبق إلا أن يأخذوا ما شاءوا »

والجواب أن يقال : قد سبق غير مرة أن لهذا الملحد حظا وافرا من الخصال اليهودية فى البهت والتحريف ، فهو يخترع ما شاء لنفسه بنفسه ويجيب نفسه بنفسه . فقد تصور بفكره المعكوس أن المسلمين والعرب أمم برابرة همجية لا يعلمون من الحقائق شيئا ، ولهذا فانه أضاف اليهم ما شاء وأجابهم بما شاء بدون أدنى مبالاة . ونحن نجيبه عن هذا الكلام من وجوه :

أحدها أن هذه الجمعية – على تقدير ثبوتها [1] – جمعية محترمة لها شأن

---

(١) الظاهر من سياق هذه الدعوى أنها مخترعة لا أصل لها ، ويكفيك ما تراه فى تضاعيف هذا الكتاب من الأكاذيب التى جاءت بهتا مكشوفا لا أساس له من الصحة مطلقا . وكيف يقوم خطيب ويدعو الناس الى ترك العمل وأن يقتصروا على الدعاء ويوافقونه كلهم على ذلك

كبير ، فيكون الكلام الملق فيها له شأن كبير أيضا ، ولا سيما وهو معترف بأنه جميع الحاضرين قد رضوها وسرّوا بها ، فلا بد إذن من ذكر الكلام الملق فيها بحروفه فلا يكتفى بذكر خلاصته ، لانه لم يذكر أنه موجود فى كتاب أو مجلة أو جريدة حتى يمكن مراجعته عند الشك فى نقله وحكايته ، فتحليله ونقده لا يمكن والحال هذه إلا بالوقوف على صورته ، ولا سيما وهو العدو المبين المتهم الظنين للخطيب وللمستمعين جميعهم ، فانه تهكم واستهزأ بهم ونسبهم الى ضعف العقل مع أنه عجز عن أن يرد عليهم ، بل اقتصر على السخرية والتشنيع فقط ، وهذا ليس بشىء ، فلا بد من نقل الكلام الملق فى المحاضرة ، وذكر موضع النقد ، والاجابة عليه . ثم ما المانع له من نقلها بحروفها لينظر فيها وتدرس ويحاط بمراميها ، وهو قد أسهب وأطنب فى مسبة وزارة التموين المصرية بثرثرة طويلة لا طائل تحتها بمجرد أنها لم تسرع فى اجابة طلبه فى بيع ورق ، فلا داعى اذن لذكر خلاصة هذه الخطبة التى أعلن عنها وحضرها جمع غفير - على ما يزعم - وترك نصها الذى هو موضوع المناقشة ، هذا مع أنه هو بنفسه لا يرضى بمثل هذا وينكره غاية الانكار ، مع أنه يفعله دائما فى معارضاته فى الكتب والرسائل كفعله فى معارضته للدجوى فى (البروق) وكفعله فى (الصراع) فلا جرم أنه يريد أن يكون المقدم فى كل أمر

الجواب الثانى أن يقال لهذا المتبجح المتميز فخرا واختيالا : قد وقعت فى مثل ما ذكرته عن هذا الخطيب فى الأسباب المادية ، فانك ادعيت فى أغلالك هذه أن فعل الأسباب المادية واعتقاد كونها فاعلة لذاتها حتما يوجب النجاح قطعا ، ثم أجبت عن الأسباب الكثيرة التى تفعل ولا ينجح أهلها قائلا إن اهلها فعلوها شاكين فى حصول النجاح فيها ، وإلا فلو فعلوها معتمدين عليها جازمين بالنجاح فيها لنجحوا وتقدموا قطعا ، وقد أكثرت من تكرار هذا الاصل ، فهذا الذى ادعيته هو من جنس ما ادعاه الخطيب فى دعاء رب العالمين ،

انما الفرق بينك وبينه أنه أسند حصول النتيجة الى الرب العظيم القادر جل جلاله وجعل الدعاء من أقوى الأسباب ، وأنت أسندت ذلك الى الأسباب المخلوقة وجعلت ذلك منوطا بها فكان كل منكما تكلم بمقتضى اعتقاده ، فانه لما كان مؤمنا بالله وحده وأنه المتصرف فى خلقه المدبر للأمر كله جاءت محاضرته التى ألقاها على مقتضى اعتقاده . وأنت لما كنت وثنيا ملحدا معتمدا على الأسباب وحدها معاكسا له فى اعتقاده كل المعاكسة جاءت دعايتك على مقتضى اعتقادك ، فجعلت مناط التقدم عكس ما جعله أصله ومناطه ، فأسندت ذلك الى المخلوق كما أسنده هو الى الخالق ، وحينئذ يقول لك المعارض عن الخطيب : فما دمت تعتقد أن النجاح منوط بالأسباب المادية ، وأن فعلها والاعتماد عليها يوجب النجاح ، فليجمعوا بين الأمرين ثم لينظروا كيف يصنع لهم الشيطان أو تصنع لهم الطبيعة . انهم سيتحصلون على صك يتضمن الحصول على كل شيء والتغلب على كل شيء والعلم بكل شيء ملفوفا بديباج من ديباج المادة تحت إشراف الشياطين ، فلا أسهل من كون الانسان يعمل ويجزم بان فيه الكفاية أو فى أسبابه المادية الكفاية . ولعل هزيمة ألمانيا وإيطاليا وأمثالها وعدم حصولهم على هذا الصك من أجل أنهم لم يعملوا جازمين بالنجاح شاكين فى أنفسهم وفى أسبابهم لأن أكثر هؤلاء لا يعرفون الدعاء ولا يعملون بالعبادات الدينية الصحيحة . وأدنى عاقل يعرف أن هذه الدول التى سقطت فى ميادين أسبابها بل وكثير من الأفراد الذين سقطوا ما حاربوا وقاوموا وقاتلوا إلا لأنهم جازمون بحصول النجاح وأن جزمهم ليس بدون جزم إخوانهم الذين هزموهم فلم يحصل لهم ما أرادوا ، بل أكثرهم حصل له ضد ما طلب بخلاف الداعين فانه لا يحصل لهم من نفس الدعاء ضد أبدا ، فما باله لم يشنع على هؤلاء الوثنيين الماديين كما شنع على أعدائه المؤمنين فمدح أولئك على فعلهم بل برره ودعا اليه ، وذم هؤلاء الموحدين على طاعتهم ووجه اليهم غاية اللوم والذم ، وكل ما يجاب عنه من الموانع والعوارض فى

الأسباب المادية يجاب عنه فى الدعاء كما تقدم ، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أكل الحرام مانع من إجابة الدعاء [١] فكيف بالشرك وتحريف الصفات وترك الصلوات وإضاعة أوامر الله تعالى

الجواب الثالث أن دعواه أن الله لم يجب هؤلاء الداعين ولم يعطهم شيئا مما طلبوا دعوى لا يخفى ما فيها من الكذب والفجور والجرأة على الله تعالى والهجوم على الغيب بل والمكابرة في الحسيات ، فمن الذى أعطاهم هذه الخيرات المتواصلة والنعم الضافية ودفع عنهم الشرور العظيمة مع ماهم فيه من المعاصى ، بينما أن كثيرا ممن هم أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا وعدة وعددا لم ينالوا مثل ما نالوا ، وكل عاقل يعلم أن حالة أكثر الأمم الاسلامية قد تحسنت تحسنا بينا ، ولقد صرف الله عنهم شرورا كثيرة فى هذه الحروب الأخيرة ، وزادهم الله خيرا الى خير بدون حول منهم ولا قوة . ويعرف هذا الفضل متى تصور الانسان حالتهم قبل الحرب وبعدها على ما مع الناس من الموانع والعوارض والذنوب التى لا تعد ولا تحصى والتقصير الذى لا شك فيه

الجواب الرابع أن مجرد وجود خطيب واحد يلقى خطبة واحدة فى مجتمع واحد أو فى مجامع لا يسوغ لعاقل أن يحتج بفعله على كل المسلمين ، ولا يفعل هذا إلا مفرط فى الجهل والهوى ، فان مثل هذا لا يدل على أن المسلمين كلهم كذلك ، بل هم يعتقدون أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام ، وليس كل خطبة يجب اعتقاد ما فيها باجماع المسلمين ، وقد تقدم قول هذا المغرور انه ليس كل ما كتب يكون حجة على المسلم ، هذا لو قدر أن فيها خطأ فكيف وهى حق لا ريب فيه

---

(١) وذلك لأن خبث الحرام يؤثر فى الروح والجسم المغذى به . والدعاء الصاعد من ذلك الجسم لا بد أن يكون ملوثا بالخبث ، والله طيب لا يقبل إلا طيبا ولا يصعد اليه إلا طيب

الجواب الخامس أن المصائب نوعان أحدهما مالا قدرة لأحد على دفعه واتقائه وتلافيه عادة من الأسباب التى فى طاقة البشر كالحوادث السماوية ، والثانى ما كان فى قدرة البشر اتقاؤه ودفعه مما جعل الله للانسان قدرة على استحصاله أو دونه . فالنوع الأول يعالج بالدعاء والتضرع والتوبة والخلاص من الذنوب ، ولا بد أن يفيد ذلك ما لم تستحكم موجباته ، والنوع الثانى يكون الواجب فيه فعل ما فى النوع الاول من الدعاء والاستعانة بالله ، ويجب فيه أيضا بذل الجهد فى عمل الأسباب المادية المشروعة لجلبه أو دفعه ، فالعمل تستمد فيه القوة من الله تعالى بالدعاء ونحو ذلك من العبادات ، فلا بد من وجود السبب الدينى مع السبب الطبيعى ، لأن السبب الدينى هو الأصل والطبيعى فرع عنه ، فان الله إن لم يشأ حصوله لم يحصل أبدا ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، قال تعالى ﴿ ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ﴾ وفى الحديث « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » الحديث . وقال تعالى ﴿ ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ فأخبر أن الكنوز المخبوءة فى الارض هو الذى يخرجها أى بالأسباب التى هى طوع ارادته ، وقرن إخراجها بعبادته تعالى كما قرن السر والعلن والاخراج والخبء لانها أمور مرتبطة بعضها ببعض ، فان من لم يعبد الله بها ويصرفها فى طاعة الله وعبادته لم ينتفع بذلك انتفاعا صحيحا بل قد تكون ضررا ونكبة عليه ، فجميع مافى السموات والأرض من المنافع إنما خلق لعبادة الله وطاعته ، فالعبادة هى الاصل فى جلب الخيرات كلها وهى مادة الخيرات كلها كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ وقال تعالى ﴿ وأن لو استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ﴾ فحصول الانتفاع الصحيح بالخيرات المخبوءة

والظاهرة إنما هو بالطاعة والعمل الصالح . ويجب أن يعلم الفرق بين الاستحصال وبين الانتفاع ، فكم من مستحصل شيئا لم ينتفع به بل قد يكون ضررا عليه ، فالانتفاع ثمرة الاستحصال ، ولا يظن ظان أن خطيبا مسلما من عقلاء المسلمين يلقى محاضرة فى مثل هذه المجامع المحترمة فينهى الناس فيها عن العمل فيحثهم على الدعاء وعلى ترك العمل ويستحسن المجتمع كلامه ، فان مثل هذا الكلام لو نقله الينا مستور الحال لم نصدقه ، فكيف اذا كان الناقل أكفر زنديق ومرتد وأعدى عدو للاسلام وللاديان كلها ، وهو مع ذلك لم يذكر الكلام بنصه ، والواقع والعادة يكذّبانه أظهر تكذيب

الجواب السادس أن قول القائل ان المسلمين ما زالوا يدعون ويسألون النصر والاستقلال ونحو ذلك ، ولم يحصل لهم شيء من هذا ، دعوى فى نهاية السقوط ، فهى مع كونها جرأة على الله ومجازفة واضحة ، هى كقول القائل ان المسلمين بل وغير المسلمين من الأمم المستعمرة ما زالوا يبذلون أسبابا مادية لا تعد ولا تحصى من الثورات والمنازعات والمعارضات والمفاوضات والنضال والكفاح الشديد ومع ذلك لم يستحصلوا على شيء من هذه الأمور التى أرادوها . وكل عاقل لا يرتاب فى أن ما يبذلونه من الأسباب المادية أعظم وأكبر وأضخم مما يبذلونه من الأسباب الدينية من كل وجه ، فكم من ثورات قاموا بها وكم من محاولات لا تحصى فعلوها فما نجح من ذلك شيء ، فلو أن قائلا قال ان الثورات والمنازعات والمعارضات وجميع الأسباب المادية لا تنفع لأن هؤلاء جرّبوها فما نفعتهم ، لم يكن قوله أولى بالبطلان من قول القائل انهم يدعون فلا يحصل لهم شيء مما طلبوا ، لأن الدعاء لم ياتوا به ويجتهدوا فى مقتضاه عشر معشار اجتهادهم فى هذه الأسباب المادية ، ولا ياتون به على وجهه فى الصدق والاخلاص وحفظه عن مضاده من الشرك وتحريف الصفات والشك والريب فيه كما يأتون بالأسباب المادية مستقيمة مكبرة معظمة وضخمة محترمة قد بذلت فيها الأموال الطائلة والمهج الغالية ، فأين هذا من هذا ، فما بال

هـذا الأحمق المنكود شديد العداء والمضادة لدعاء الله تعالى وطاعته وتقواه ، شديد الغلوّ فى الأسباب المادية واحترامها مع وضوح حبوطها كثيرا واعترافه بذلك . ولـكن غرضه الأكبر من هذا كله هو محاربة رب العالمين وتشويه سمعة دينه وعبادته لاغراضه الخبيثة ، ولهذا فانه جعل هدف إسبابه واتهامـه دعاء الله ، لأنه يعرف أنه روح العبادة ولبها كما قرر ذلك ، وقد تقدم الكلام عن مثل هذا مرارا تبعا لتكرار سبه وهجومه على هذا الأصل العظيم

فصل

ثم ذكر عن شيخ من العلماء ولم يسمه أنه ذكر أن النصارى لا يدخـلون دمشق ، وأنه استدل على ذلك بأنهـا معقل الاسلام عند الملاحم ، وأن فى الحـديث « اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » ، ثم ادعى أن الواقع قد أكذب هـذا الشيخ ، فذكر أن جيوش فرنسا والانجلـيز دخلته ، ثم ذكر أن أسباب هذا هو الجهل بنواميس الطبيعة ، وأطال من هذا الهذيان ، فجعل خطأ هـذا الشيخ ـ لو ثبت ـ حجة على المسلمين ، فهو لم يذكر هـذا الشيخ باسمه [1] ، ولم يذكر كلامه ولا فى أى موضع وجده ، بل اقتصر على أنه محدّث ، وكأنه يرى أن كل محدّث معصوم عند المسلمين ، وقد نسى قوله الصريح فيما تقدم أن الشيخ الـكبير قد يغلط ، ثم اذا ثبت هذا فهو دليل على أن أسباب هـذا هو

---

(١) لعله يشير الى الحافظ ابن كثير ، فان كان هو المقصود بهذا الانتقاد فليعلم أن ابن كثير ذكر فى تاريخه ص ١٨٤ ج ١٢ سنة ٥٩٣ أن الافرنج ملكوا مدينة حلب ، قال « وفيها سارت الفرنج الى مدينة حلب ففتحوها عنوة وملكوها » الخ . فان كان ذكر ما نقله الملحد فلعل ابن كثير أراد أنها لا تكون لهم وطنا ولاتستقر لهم مستعمرة اذ من المستبعد أن ينكر ما ذكره وقرره ، وانما أراد ما ذكرنا . وهـذا لم يقع فلا حجة لهذا الملحد فيه ، فانها الآن مستقلة ، وهى وطن عربى ، واستيلاء العدو عليها برهة عقوبة لا ينافى الحديث أصلا

الجهل بدين الله وطاعته ، لأن هؤلاء الذين استولوا على دمشق وغيرها انما قدروا على ذلك لما ضعف أمر الدين هنالك ، وفرّط الناس فى اتباع سلفهم الصالح ، فانه من المعلوم عند المسلمين أن من فرط فى دينه واستكبر عن أمر ربه لا بد أن يكون عرضة للعدو ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وقال « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » ، وهذا يدل على عموم الكفر فى الشام وغيره ، وليس فى حديث « اذا هلك قيصر فلا قيصر بعده » ما يدل على أن دمشق لا يدخلها الكفار حتى تقوم الساعة ، بل قد ثبت أن يأجوج ومأجوج يبلغ شبه جزيرة العرب وما حولها ، وهم أعدى من اليهود وأمثالهم ، وقد استولى النصارى على بيت المقدس فى وقت صلاح الدين الأيوبى ، وانما المراد من الحديث أنه ما دام الاسلام قائما هناك باستقامة أهله فانه لن يرجع اليهم قيصر ، أما اذا انحرفوا وغيروا فقد بين الله سنته فى الأولين أنه لا بد أن يعاقب من غير دينه ، ويسلط عليه عدوّه ، كما تقدم شرح هذا مرارا

فصل

قال المغرور « قال أحد القواد العبقريين الذى عركتهم الحروب وعركوها : اذا احترب فريقان كان الله مع أقواهما . وهذه قولة إذا نظرنا اليها بشق واحد من عقولنا [1] ولكنها فى الواقع عميقة [2] منبئة عن حقيقة كبرى فى حكمة الله ، واذا استمعنا الى قول الله فى كتابه ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ﴾ استطعنا أن ندرك مافى قول هذا القائل من حق وصدق ، فان هذه الآية قد

---

(1) قد يكون هذا الشق هو الذى كنت تنظر به أولا فى كتبك السابقة ، ولكنه أصابه الفالج الذى أصاب الثانى

(2) نعم عميقة فى الكفر والالحاد

جعلت نصر الله لنا إنمـــا يأتى بعد نصرنا له ، ونصرنا له تعالى هو نصرنا لأنفسنا ، وإذن فالله لا ينصرنا إلا اذا نصرنا أنفسنا ، ولا يمكن أن ننصر أنفسنا إلا اذا كنا أقوياء [1] ، وإذن فالله مع الناصر لنفسه ، والناصر لنفسه هو الأقوى وإذن فالله مع أقواهما .

والجواب أن يقال : أنت قد قررت أن اليهود أقوى منا فاذن فالله تعالى مـع اليهود لا مع المسلمين ، ومع الروس والانجليز والامريكان وليس مـع المسلمين ولا مع المتقين والمحسنين ، لانهم بلا شك أقوى منهم ، فالله تعالى وتقدس مع هذه الامم الباغية والطاغية ـ على نص كلامه ـ فلا يجوز لنا بحال من الأحوال أن نحاربهم ، بل يجب علينا أن نواليهم ونحبهم ونكرمهم ، ولا سيما اليهود فانك أطلت فى تعظيم قوتهم وأنهم أقوى منا بلا شك ، فمحاربتنا لهم كفر وخطأ واضح ، لاننا إنما نحارب الله اذا حاربناهم وحاولنا معارضتهم ، فاذا نازعنا هؤلاء فقد آذنا بحرب من الله ورسوله ، فالله جل وعلا ـ على صريح كلام هذا الزنديق ـ مع الكافرين والملحدين ، لا مع المتقين والمؤمنين . فقبحه الله وقبح من جادل عنه . وقد قرر أن المتدينين متأخرون فى الحياة دون من سواهم ، فالله إذن لا يكون معهم ، وانما يكون مع أعدائهم فلا يكون الا مـع من حاربه . ولا شك أن الصنم خير من اله هذا شأنه ، ولم نعلم أحدا من جميع الكفار من أولهم الى آخرهم تجاسر على أن يجعل رب العـالمين بهذه الصفة . ولا شك أن الأصنام غاية ما فيها فى الدنيا أنهـا لا تنفع ولا تضر وأما هـذا الاله الذى هذه صفته فانه يضر المتقين والمؤمنين اذا كانوا ضعفاء فينحاز الى

---

(١) لكنك تقول : لا نكون أقوياء الا اذا اعتقدنا أن دعاء الله ملهاة ومصرفة خبيث ، وأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة ، فهذا هو نصرنا لانفسنا عندك

الكفار الأقوياء ، ولا شك أن هذا شر من الأصنام . فلعنة الله على هــذا الزنديق ما أجرأه ، وكيف استطاع أن يتجاسر على هذا الرب الكريم العظيم ويسبه هذا السب الذى لم يسبق له نظير فــيما نعلم . فان الملاحدة المصرحين بالالحاد لا يقولون بهذا ، والمتدينون يكفّـرون من يقول به . ولكنه لعظم كفره وعمق زندقته أراد أن يخلط الحق بالباطل ، وأن يلبس على من طبع الله على قلبه فذهب يروج هـذه الدعوى باعانة الله أهل القوة فسب الله تعالى ودينه أقبح سب وأشنعه

دسائس لا تدرى اليهود بعشرها دعاه اليها الخبث والسوء والمكر

وأكثر العقلاء يعرفون مغزاه ومرماه من هذه الدسائس الكفرية بأنه يجب موالاة هؤلاء وأن لا ينازعوا ولا يطالبوا ، بل يوالون ويحبون ، فهذه اعانة ودعاية لأوليائه بان الله معهم لا مع المسلمين . ولم يكفه هذا الزعاف حتى استدل على هذه الدعوى المرذولة بالآية الكريمة المقدسة وهى قوله ﴿ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ وجعلها دليلا له ، فكابر بالبهت ، وقلب الآية واستدل بها على ضد مدلولها ، ففسر نصرنا الله بنصر أنفسنا ، ومعلوم أن الله لم يقل إن تنصروا أنفسكم ينصركم الله أو إن تنصروا نواميس الطبيعة ينصركم الله ، بل قال ﴿ يا أيهــا الذين آمنو ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ ، ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فالآيتان المتسقتان نص صريح فى ردّ دعواه ، فانهما نص فى أن الله مع المؤمنـين إذا نصروه ، فالخطاب موجه اليهم . ثم قال فى الكافرين ﴿ والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم ﴾ فهم ضد أولئك ، فانه تعالى لا ينصرهم ولا يثبت أقدامهم ، بل حظهم التعاسة أى العثرة التى هى ضد ثبوت القدم ، والضلال الذى هو سبب الهلاك المضاد للنصر والتأييد على المؤمنين ، فقرن تعالى بين المؤمنين والكافرين فى الذكر ، وبين حالة كل من هؤلاء وهؤلاء ، وقد بين سبحانه وتعـالى لنـا كيفية نصرنا له الذى هو نتيجة نصره لنـا بيانـا أوضح من الشمس فى نصف

النهار فقال تعالى ﴿ ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ﴾ فبين تعالى نصرنا له بأنه الاتيان بهذه الاخلاق الدينية الظاهرة لأنها هى الاصل ، فتى صحت واستقامت تفرع عنها كل موجباتها من النشاط والقوة المتواصلة على العمل . وهذا الملحد عاكس هذه الاخلاق التى هى نصرنا لله ، فادعى أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، بل جعل الدعاء الذى هو روح الأخلاق الدينية لا فائده فيه ، وجعل المساجد التى تؤدّى فيها الصلاة ونحوها أدّت شر ما يؤدّى . وهذا عين المعاندة للآية ولنصر الله ، فكابر هذا الملحد وباهت فعكسها وطبقها على ضد مدلولها وعلى مقتضى إلحاده ، مع كونها تقطع ظهره بالبرهان الصريح ، وكما أنه صادمها فقد صادم أصل الدين كله فان الله مع المؤمنين دون الكافرين فى جميع الأديان السماوية ، كما قال تعالى ﴿ ان الله مع المتقين ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، إن الله برىء من المشركين ، إن الله لا يحب الكافرين ، والله لا يحب الظالمين ، فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ فاخبر أنه ينتقم من المجرمين وأنه ينصر المؤمنين ، والمؤمنون الصادقون هم الذين يعظمون دينه ونظامه ويحكمونه فى كل أمورهم دون ما سواه ، وكيف يسوغ فى العقل أن يكون الرب الكريم الرحيم العليم الحكيم مع أعدائه مع أنه أعدّ لهم جهنم وساءت مصيرا ، فقبح الله من يروج عليه هذا الكفر ﴿ كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ﴾

ان هى الا دسيسة خبيثة يراد من ورائها تثبيط المسلمين عن طلب النهوض والاستقلال ، فان من أكبر الذنوب أن نحارب الله ونتقوى عليه لأنه — على ما زعم — مع هؤلاء الأقوياء الذين استولوا على هؤلاء الضعفاء . ولهذا صرح بعد أن قرر أن اليهود أقوى من المسلمين بأن المسلمين والعرب ضالون فى الدفاع عن فلسطين ومقاومة اليهود ، لأنهم أقوى منهم كما يأتى . ولا ندرى

كيف يقول هذا الزنديق فيما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « انما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » وقد كان ﷺ يستسقى بصعاليك الصحابة أخرجاه فى الصحيحين[1] وذلك لأن رحمة أرحم الراحمين أقرب الى الضعفاء الأتقياء لما يقوم بقلوبهم من الخشية والخشوع والتعبد الخالص ، بخلاف الفاجر القوى المختال المستكبر فان الله لا يحبه بل يبغضه ، فهو قمين بالطرد واللعن والابعاد كما قال تعالى ﴿ إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾ وقد قال تعالى ﴿ والله لا يحب الظالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ فأخبر انه معه هو وصاحبه دون الكفار ، ومعلوم أنهم أقوى منهما أسبابا مادية كما قال تعالى لموسى وهرون ﴿ اننى معكما أسمع وأرى ﴾ ومعلوم أن فرعون وقومه أقوى من موسى وهرون فى الأسباب المادية ، وهذا مما علم بالضرورة من دين الاسلام بأن الله سبحانه لا يكون إلا مع المؤمنين فلا يكون مع الكفار أبدا

وليت هذا الزنديق اقتصر على النظر بالشق الواحد الذى نظر به من عقله - كما يقول - ولم ينظر بالشق الآخر الذى أصابه الفالج والموت من قديم ، فلهذا سرى الى شقه الآخر ، نسال الله العافية بمنه وكرمه

ثم قال « فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك بهما فلا ناصر له »

هكذا قال ، فعنده أن من هلك بمقاومة هؤلاء المستعمرين الأقوياء مطالبا باستقلال بلاده والدفاع عنها فانما هلك بالحق والعدل ، فجميع قتلى

---

(١) هذا وأمثاله مما يدل على كرم الله وجوده ورأفته ورحمته ، وأن الضعفاء الاتقياء يدفع الله بهم بلاء وشرورا كثيرة ، وأنهم ليسوا كما يتوهم الزنادقة أنهم بلاء ومحنة ، بل هم خير من الفجار الأقوياء ؛ وإن كان الأتقياء الاقوياء خيرا منهم ، كما قال عليه السلام « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير »

فلسطين وثوار مصر والعراق وسوريا وأمثالهم قتلوا بالحق والعدل ، والذين قتلوهم من الانجليز والفرنسيين وغيرهم إنما قتلوهم بالحق والعدل ، فهم محقون فى ذلك عادلون لم يتجاوزوا الحق والعدل ، لأن هؤلاء الثائرين لحقهم وأوطانهم ضعفاء بالنسبة اليهم ، وهم أقوياء ، والله مع الأقوياء ، ولهذا أكده بقوله « فهذا هو القانون الشامل ، فمن هلك به فقد هلك بالحق والعدل ، ومن هلك به فلا ناصر له » فسبحان الله كيف تذهب العقول ، وأين الغيرة على الدين أو الجنس أو الوطن ، إنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور

فصل

ثم شرع يذكر قضية فلسطين ، وادعى إفكا وزورا على المسلمين أنهم يزعمون أنه لن يكون لليهود صولة ولا دولة ولا ملك ولا وطن خاص أبدا ولو فرط المسلمون فى دينهم وأضاعوه . وقد أطال فى تعظيم أمر اليهود وتحقير شأن المسلمين . فقال :

« هـذا ما كان يقوله المسلمون فى العصور الخالية فى سيادة النصارى وانتصارهم عليهم(١) أما اليوم فقد حل محل هذا الوهم وهم آخر ، وصاروا يقولون هذا القول ويعمون هـذا الوهم فى خطر اليهود وفى ملكهم ومحاولتهم اعادة وطن قومى لهم ، فقد أكثروا من الادعاء بأن اليهود لا خطر ذاتى لهم وأنهم لا يخشى منهم منفردين على المسلمين ولا على الأوطان الاسلامية ، لا على فلسطين ولا على غيرها . ثم زعموا كما زعموا منذ خمسمائة سنة بأن الله قد دفع اليهم بعهد مكتوب بأن اليهود لن يكون لهم ملك وان يكون لهم وطن خاص . ثم اتهموا كتاب الله بوجود هذا العهد فيه وراحوا يتلون الآيات منزليها فى غير موضعها »

(١) يعنى ما ادعاه عليهم زورا فيما تقدم أنهم يقولون لن يغلبوا ولو قصروا ونسوا أنفسهم

فيقال : عن هذا أجوبة . أحدها أن قد تقدم الجواب عما ذكرته عن المسلمين فى رأيهم فى النصارى ، وبينا أن تلك الدعوى كذب ظاهر وبهتان لا أصل له

الجواب الثانى أن دعواك أنهم بدلوا هذا الوهم بوهم آخر حل محله كذب ظاهر مركب على الزور الذى قبله ، وقد تقدم فساده

الجواب الثالث أن هذا الذى حكيته عن المسلمين فى أمر اليهود على هذا الوضع ليس بصحيح ، ولا يخفى بطلانه على عاقل . فان كنت تريد أن علماء المسلمين المعتبرين ـ كما هو ظاهر كلامك ـ يدّعون هذه الدعوى فهذا بهت واضح ، ولا يمكنك إثباته . وان كنت تريد أن بعض العامة يدعى ذلك فمعلوم أن هذا ليس من الحجة فى شىء . وان كنت تريد أن بعض من ينتسب الى العلم ادعى هذا فقد تقدم قولك أن الشيخ الكبير قد يقول مالا علم له به ، وأنه يقلّ أن يسلم عالم من أن يغلط ، وأنت إنما أردت الأول لأنك قلت هذا ما كان يقوله المسلمون بهذا الاطلاق

الجواب الرابع أن الفرق ثابت بين اليهود والنصارى شرعا وعقلا فى أنهم ليسوا سواء فى الوسائل والأخلاق التى تكون أسبابا للتقدم والتأخر ، وأنت جعلتهما سواء ، والله قد فرق بينهما . قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودّة للذين آمنو الذين قالوا انا نصارى ، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون ﴾ وهذا التفريق الثابت يقتضى التباين العظيم الذى لا بد من وجود أثره . وقال تعالى ﴿ وإذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيمة ﴾ الآية . وقال تعالى فى اليهود ﴿ ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ﴾ الى غير ذلك من الآيات . وليس فى القرآن أو السنة ما ينفى

تملك النصارى وقيام دول لهم وانتصارهم على الكفار أو من ضيع دينه أو احتقره وقصر فيه ، فانهم كانوا فى وقت النبي ﷺ وخلفائه وقبلهم وبعدهم الى هذا الوقت لهم حكومات ودول قائمة . وقد عرفت سيرتهم مع المسلمين فى تلك العصور ، وقد استولوا فى القرون الوسطى سنين معلومة على القدس وفيه سكان مسلمون فعاشوا معهم ، وهذا بخلاف اليهود ، فانه منذ زمن داود النبي عليه السلام وبنيه الى هذا الوقت لم يثبت لهم ملك ولا حكم ولا دولة مستقلة استقلالا تاما كاستقلال غيرهم ، وذلك لما انطووا عليه من الخبث والمكر وسقوط الاخلاق ، فانهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه ، ويكفرون بآيات الله ، وهم سماعون للكذب أكالون للسحت . ومعلوم أن من اتصف بهذه الأخلاق المسخطة لا يمكن أن يتقدم . والنصارى لم يذكر عنهم فى النصوص ولا فى التاريخ المتواتر ما ذكر عن اليهود ، فالفرق بينهما ثابت حسا وشرعا وعقلا ، فقياس أحدهما على الآخر قياس فى غاية البطلان لوجود الفروق التى هى فى غاية الوضوح

الجواب السادس أن المسلمين لم يتهموا كتاب الله تعالى بوجود هذا العهد الذى يدعيه ، بل هم يقولون ان الله تعالى قد ضرب على اليهود الذلة والمسكنة كما ورد ، ولا يمكن أن يتقدموا على المسلمين المحافظين على دينهم أبدا ، أما اذا أضيع الدين ونبذ أهله نصوص الكتاب والسنة واستعاضوا عنها تقاليد اليهود وأمثال اليهود من الرومان وغيرهم ، فمن الجائز أن يعاقبوا وأن تبدل حالتهم الحسنة بحالة سيئة ، حيث بدلوا نعمة الله كفرا واستعاضوا عن نوره ورحمته ظلمة وشرا ، بأن يسلط عليهم اليهود أو غير اليهود ممن يتولاهم ويستولى عليهم ، فأى وطن من الاوطان يشتم فيه الدين على رءوس الأشهاد ولا يتمعر فيه وجه أحد ، وان تلك البلاد يوجد فيها أكثرية تنظر الى الأديان السماوية والى أهلها نظرة المحتقر المزدرى المتهكم ، ولا يوجد فيها إلا ما ندر من يغار ويغضب لله ولدينه وشرعه ، حرىّ أن يعاقبوا باستيلاء العدوّ عليهم

ولا سيما اذا انضم الى ذلك ضعف سلاحهم المادى ، فاذا انتفى السلاح الدينى والسلاح المادى فأى مانع لمن هذه حالته من أن يكون عرضة لطمع الطامعين واعتداء المعتدين ، وسواء كانت هذه البلاد التى هذه حالها فى مشارق الأرض أو مغاربها . وقد ثبت فى الصحيح أن يأجوج ومأجوج - وهم أمة من بنى آدم كفار أكفر من اليهود - سيظهرون ويتغلبون على أكثر هذه الأقطار زمنا قليلا ، فاذا كان هؤلاء مع كونهم كفارا ملاحدة سيتغلبون على هذه الأقطار على حين مزاولة العمل بالشرائع الدينية فيها فكيف لا يكون من الجائز أن تتغلب اليهود على بلاد قد فرط أهلها فى دينهم ولم يعملوا بشرائعه ، لان العاصم من ذلك هو الدين الصحيح ، فمتى زال زال مقتضاه . أما اذا وجد على الوجه الصحيح فلن تقدر اليهود ولا غير اليهود من الكفار على الحصول عليه وجعله وطنا خاصا لهم أبدا . ثم لو فرض وجود إقامة ملك لهم فى وطن قومى مهما كانت العوامل فهذا لا ينفى ضرب الذلة والمسكنة عليهم ، فان هناك حكومات لأقوام لهم أوطان قومية وهم على غاية من الذلة والمسكنة لأمور أخرى ، ولا يمكن أن يقوم لهم ملك أو دولة إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، فاذا لم يحصل شىء من هذا فمن المحال أن يستحصلوا على شىء من ذلك ، كما أنه من المحال أن يستحصلوا على وطن تقام فيه شعائر الإسلام إقامة صحيحة . فاذا تمسك المسلمون بدينهم الحقيقى ولم يغيروه وأخذوا بما أمر به ووصى به من الاسباب الدينية والدنيوية فلن يتقدم عليهم اليهود ولن يتغلبوا عليهم ، كما أنهم لم يتقدموا عليهم فى تلك القرون الماضية بل قهروهم غاية القهر ، اما اذا أخذ المسلمون قوانين اليهود بل أغلال اليهود التى أعظمها قولهم للكفار ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ [1] وحرفوا الكلم

---

(١) وسواء قالوا ذلك بلسان النطق أو بلسان الحال فان اختيار قوانينهم واحترامها دون نظام الله وشرعه دليل على أنهم يرون أنها أهدى سبيلا من غيرها

عن مواضعه كتحريف الصفات والحدود وغيرها وانماعوا فى أكل السحت والتسمع للكذب وعصوا الله وتمردوا عن اتباع كتابه واستكبروا عن الأخذ به وشمخوا بأنوفهم عن العمل به ورأوا أنه ليس فى اتباعه كفاية وأن التقوى والصلاح خمول وانحطاط وأمثال ذلك ، نقول ان الذى يأخذ أغلال اليهود فى نبذ النصوص وتحريف الكلم عن مواضعه والخيانة فى أكل السحت والفوضى بالتسمع للكذب فيجعل هذه الأغلال فى عنقه ويديه ثم يريد مع ذلك أن يقهر اليهود وأن يكافح اليهود وينتصر عليهم وقد صفد نفسه بأغلالهم فقد رجا مالا يستحقه لأنه إذن مثلهم بل دونهم ، لانه انتسب الى دين وناقضه وأفسده بتخلقه بأخلاق أعداء ذلك الدين ، بخلاف الكافر الأصلى . ومن هذه حاله فلا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، وبقدر ما يأخذ الفرد أو الجماعة من خصال اليهود يكون له من الذلة والمسكنة نصيب غير منقوص

والحاصل أن قيام دولة لليهود برهة من الزمان على هذا الوضع الراهن ، وعلى هذه الصفة الموجودة الآن ، لا ينافى ما دلت عليه النصوص ، فالنصوص ليس فيها تعرض لقيام دولة كهذه ، وانما دلت على ضرب الذلة عليهم وعلى من فعل فعلهم . وهذه الدولة المزعومة إنما قامت على أغراض وأهواء متناقضة متعاكسة ، ففرضت فرضا بالقوة والإرهاب والقهر ، لا بالعدل والنظر الصحيح كالشأن فى الدول الكثيرة الاخرى ، والذين فرضوها إنما فرضوها لأغراضهم الخاصة لا لمنفعتها هى ، وهى إنما رضيت بذلك من أجل ما لقيته من الإهانات المتلاحقة والاضطهاد المرير . ثم هى مع هذا إنما قامت لما ضعف أمر الدين فى نفوس الأكثرين وأصبح الدين لا قيمة له فى قلوب أكثر الناس ، بل سحروا بحب المادة والشهوات البهيمية ، فكانت نوعا من أنواع العقوبات . فأمة هذا شأنها وهذا موقفها كيف يصح أن ينفى عنها ضربه الذلة والمسكنة ، بل نفس قيامها بهذا الوضع دليل على صدق هذه النصوص ،

فانها لو لم ينلها هذا الذل والمسكنة لما احتاجت الى أن تقف هذا الموقف الخطير ، ولكانت كغيرها ممن لم ينله ما نالها

ان المشكلة الكبرى بل المصيبة العظمى التى أعمت بصائر الأكثرين أنك تنظر الى بعض الشعوب فتجد الشعب كله ـ إلا من شاء الله ـ منغمسا فى أخلاق اليهود وفى أخلاق المنافقين فى تحريف النصوص وإخراج معانيها عن ظاهرها ، ثم رفض العمل بها ، ثم رؤيتها بعين الاستصغار والاحتقار ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب مصابا ببلاء فوق هذا أفظع وأشنع ، ذلك أنه يعتقد أو يرى أن السياسة قسيمة الدين السماوى ، بل قد يرى أنها هى الاصل والعمدة ، فيجعلها أول كل شىء وفوق كل شىء ، فما وافقها من نص عمل به ـ لانه وافقها ، لا لأنه تنزيل من حكيم حميد ـ وإن خالفها رفض رفضا باتا ، إما بدعوى أنه مشتبه أو بدعوى استحالة العمل به لمصادمته فيما يظن للسياسة ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله إلا من شاء الله مبتلى بوباء آخر فوق هذا وهو وباء حب المادة والتهالك عليها وعبادتها حبا يغلب على كل معانى الحياة فيه ، وذلك هو أكل السحت ، ثم مع هذا تجد هذا الشعب كله مضروبا ببلاء آخر هو المحنة باتباع الهوى فهو يصدق ويستمع لكل ما يريده ويهواه ، وان خالف الحقائق وكان كذبا لا ريب فيه ، ويرد ويبغض كل ما يكره ويخالف هواه وان كان صدقا وحقيقة لا شك فيها ، فيمدح للحب ويذم للبغض لأى شىء لأجل هواه فى كل ما يسمع ويرى ، فهو سماع للكذب فى غاية الصمم عن الصدق لما به من الانانية المستحكمة على مسالك شعوره ، ثم لا يكتفى هذا الشعب كله بهذه القيود والأغلال اليهودية التى ضربها على نفسه حتى يضم اليها أصفادا وأغلالا أخرى ، فتجده فى مجلسه وملبسه ومأكله ومشربه وفى ذهابه وإيابه وفى كل عاداته مقتديا باليهود وأمثال اليهود فى كل ذلك ، ثم لا يكتفى هذا الشعب بذلك كله حتى يذهب الى أمر أمرّ فيرتمى به عقله المعكوس وقلبه

المطموس الى أن يتهم الله تعالى ودينه فيكذب على الله فيدعى أنه مؤمن مسلم مستحق لما يستحقه المؤمنون من النصر والتأييد والعز والمجد والسيادة والاعانة والتوفيق ، بل ربما يتهم دين الله ويظن أنه إنما اتته المصيبة من أجل اتباعه الدين وطاعته لرب العالمين

ان الله جلت عظمته أجل وأعظم من ان يتلاعب بدينه المتلاعبون أو أن يخدعه المخدوعون ، فهو أغير على نفسه من ذلك[1] . قال أيوب السختيانى يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، ولو أتوا الامر عيانا كان أهون . ان الله تعالى وتقدس قد أنزل شريعة كافية كافلة لمن أخذ بها واعتمدها ، فجعلها نورا وبصائر وهدى ورحمة ، وحكم حكما صارما بأن من اتبع هداه فلا يضل ولا يشقى ، وأن من أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنكا وسيحشره يوم القيمة أعمى ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم

أعجب ما يعجب منه المسلم أن يرى إنسانا يكره قوما ويبغضهم ويلعنهم ويمقتهم ثم يختار آراءهم وأخلاقهم على كلام الله ونظامه ورحمته ، وعلى أخلاق سلفه السادة الأقوياء الطيبين الطاهرين ، مع دعواه محبة هؤلاء والاقتداء بهم ، فيتعاكس حبه وانقياده وبغضه ومخالفته ، ثم يريد أن يكون مستقيما فى كل أحواله وأعماله ، مستحصلا على أغراضه وآماله ، فيالله العجب كيف يحارب قوما ولا يحارب آراءهم واخلاقهم قبل صورهم وأجسامهم ، كيف يصاحب أخلاقهم ويحارب صورهم ، أخلاقهم المضادة لأخلاق الدين لا أخلاق القوة والعمل ، فان هذه هو الأحق بها وأهلها . كيف يدعى محبة الله

---

(١) أغير على نفسه من أن يجعل دينه وكتابه ونوره وهداه تبعا لسياسة الناس وأهوائهم فما وافقهم قبلوه وما خالفهم ردوه ثم يغين من فعل ذلك ويوفقه ويحميه ويتولاه

ويحارب نظامه ، وكيف يحترم أسلافه ويدعى تعظيمهم والاقتداء بهم وقد ضرب بأخلاقهم الدينية عرض الحائط وأساء الظن بها واحتقرها . فهؤلاء إنما يعادون صورهم وأجسامهم فقط ، وأما أخلاقهم وآراؤهم المضادة للدين فهى لديهم مكرمة مرفوعة محترمة

ومن العجب أن هؤلاء الذين يتسللون من الأديان ويمرقون منها جماعات وأفرادا ـ مؤملين الوصول الى أهدافهم ، طامعين فى الحصول على اللحاق باخوانهم ممن عشقوا مبادئهم وقلدوهم فيها وغبطوهم عليها ـ لم ينالوا إلا عكس ما قصدوا ونقيض ما أرادوا ، وكلما حاولوا الخروج من هذه الوهاد زلت أقدامهم وهبطوا فى دركاتهم ، وكلما ارادوا أن يتخلصوا من غم أعيدوا فيه

فالحقائق السافرة والوقائع الصادقة تناديهم بلسان حالها : قد جربتم وعملتم كل ما قدرتم عليه من احتقار الأديان وأهلها وكراهتها وكراهة أهلها واحترام ما يناقضها من القوانين أو الآراء واحترام أهلها وإكرامها واكرام أهلها وما نلتم مما رمتم شيئا بل كانت عاقبة امركم البلاء والوبال وكان بعدكم عما أردتموه مقدار بعدكم مما عاديتموه واحتقرتموه ـ وهم أمام هذا النداء الصريح والبيان الصحيح جاعلون أصابعهم فى آذانهم قد لجوا فى طغيانهم يعمهون

فالعبر لا تنظر ، والمواعظ لا تنفع ، والقوارع لا تسمع ، وكل برهان يأتى يذهب سدى ويمر كما جاء ، ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ـ وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ـ وما يؤمن أحدهم بالله إلا وهم مشركون ـ أفأمنوا أن تاتيهم غاشية من عذاب أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴾

* * *

وهنا أمر يجب التنبيه عليه وهو أن أئمة الدين قالوا : ان المسلمين إنما تأخروا لما ضعف أمر الدين فيهم ، فانهم لما بعدوا عن دينهم الصحيح وغيروه

تأخروا . وهذه قاعدة وأصل معروف عندهم . وهو قول صحيح لا ريب فى صحته

وقد أورد بعض الزنادقة وضعفاء البصائر على هذا القول اعتراضا باطلا فقالوا : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا الاعتراض قد أورده هذا المغرور فى نبذته العجفاء (كيف ذل المسلمون[1]) ثم ادعى أنه اعتراض صحيح ظاهر بلا شك .

ونحن نقول له : بل هو اعتراض ساقط مرذول ليس بشىء ، ويدل على بطلانه وجوه :

أحدها أن قول أئمة المسلمين إن ضعف الدين يوجب التأخر ، وأنهم لم يتأخروا إلا بسبب ضعف دينهم لا يفهم منه أنه لا يتقدم أحد غيرهم من الكفار على من هو مثله أبدا ، بل مقصودهم أن الله تعالى قد أعز أهل هذا الدين بما أنزل عليهم من النور والهدى والبينات والبصائر ، فكثرهم بعد القلة وأعزهم بعد الذلة وقواهم بعد الضعف وقدمهم بعد التأخر ، فلما أن غيروا دينهم هذا بالبدع المتنوعة واستصغره بعضهم وحرفه واختلفوا وتخالفوا بغيا بينهم ، فضعف هذا السبب الذى به حصل لهم هذا التقدم وهذا العز وهذا المجد ضعفوا . ومعلوم بالضرورة أن ضعف السبب يوجب ضعف المسبب ، فان كل من تقوى بمادة أو بسلاح وانتصر به وتحصن به فلا بد أن تضعف قوته التى قامت على تلك المادة أو ذلك السلاح بضعفه ، فضعف النتيجة لازم

---

(١) ذكره فى ص ١١٤ منها وهذا لفظه : « وبعض الناس يجمل هذه الأسباب فى عبارة موجزة قليلة فيقول : ان المسلمين تأخروا لأنهم بعدوا عن دينهم وأهملوه . ولكن يبقى على هذا سؤال : لماذا تأخر المسلمون حين أهملوا دينهم وتركوا العمل به ولم يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك بدينهم . وهذا سؤال ولا شك صحيح ظاهر ، لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والنفوس »

لضعف الوسيلة بلا ريب ، وهذه كلها حقائق معقولة لا يمكن المماراة فيها ، فان من اعتقد أن عز العرب والمسلمين إنما قام أساسه على هذا الدين فلا بد له من الاعتراف بأن ضعفهم تابع لضعف دينهم طرداً لهذه القاعدة مع قطع النظر عن تقدم ضدهم فان ذلك له شأن آخر

الوجه الثانى أن قولك ولِمَ لمْ يتأخر غيرهم لما فعلوا ذلك قول باطل ، فهل تريد ذلك قبل ظهور فجر الاسلام أم بعده . فان أردت الأول - ولا نظنك تريده - فغير مسلم ، بل كل الأمم التى قام تقدمها ومجدها على أديان سماوية كبنى إسرائيل وغيرهم تضعضعت وتأخرت لما أن ضعف دينها كالأمم الاسلامية سواء كما أثبت ذلك حملة التاريخ المتواتر . وان أردت الثانى وهو مرادك فهو ممنوع ، فليس هناك دين صحيح غير الاسلام ، فلما أن تأخر وخلعه أهله تقدموا على المسلمين ، أما تقدمهم على من هو مثلهم فهو عبارة عن تقدم مبدأ على جنسه أى تقدم كفر على مثله ، وهذا غير وارد على السؤال ، فان تقدم الكفر على جنسه أو نفسه لا ينازع فيه أحد لأن حقيقته أنه يهدم بعضه بعضا والله سبحانه وتعالى قد ذكر أنه يولى بعض الظالمين بعضا ، وهذا يقتضى استيلاء بعضه على بعض

الوجه الثالث أن هذا الاعتراض مبنى على مقدمة باطلة ، وهو قياس دين الاسلام على غيره من الأديان الماضية المنسوخة ، وحقيقة هذا أنه قياس الاسلام على الكفر ، ومعلوم أن هذا من قياس الشىء على ضده وهو بديهى البطلان ، فاذا كانت هذه المقدمة المبنىّ عليها هذا الاعتراض باطلة بطلت نتيجتها ، لان قول القائل ولِمَ لم يتأخر غيرهم لما بعدوا عن دينهم وغيروه يوهم أن دينهم الذى بعدوا عنه وغيروه مثل الاسلام ، وكلاهما سواء ، وهذا لا يخفى فساده ، لانه يقال فى جوابه : ان هؤلاء بعدوا عن دين باطل الى دين باطل وغيروا دينا باطلا بدين باطل ، وأما المسلمون فانهم بعدوا عن الدين

الصحيح الى دين باطل واستبدل أكثرهم دينا صحيحا بدين باطل ، وبعضهم قصر فى دينه الصحيح ، فأين هذا من هذا . وهذه فروق فى غاية الصحة والوضوح ، فلا بد من ظهور أثرها . فقياس بعضها على بعض مع ظهور التضاد قياس فى نهاية السقوط

ووجه آخر وهو أنه تعالى امتنّ على هذه الامة العربية ببعث هذا النبي الكريم الذى هو خاتم الأنبياء وأفضلهم منهم ، وجعل شريعته أكمل الشرائع وأعظمها بعد أن كانوا على اشنع الحالات وأحطها ، فأخرجهم من الظلمات الى النور ومن الموت الى الحياة ومن الذلة الى العز ، كما قال تعالى ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ فأعطاهم هذه النعمة العظمى وبوأهم هذه القمة العليا وتفضل عليهم بهذا السلاح الجبار الذى أدركوا به كل غايتهم لما استعملوه على وجهه . فاذا جحدوا هذه النعمة واستصغروها واحتقروها وعبثوا بهذا السلاح ورجعوا القهقرى وانحرفوا الى ورى كان معنى هذا أنهم لم يقبلوا ما آتاهم الله من الهدى والنور والروح والقوة بل استبدلوا بذلك ما يضاده وينافيه من قوانين أعداء الله وأعدائهم من اليهود والرومان وأمثالهم ورجعوا الى عبادة الأوثان كالتعلق على الأسباب الطبيعية بأىّ مظهر كان من مظاهرها ، لا شك أنهم إذا فعلوا ذلك أو فعله أكثرهم أنهم يكونون أولى باستحقاق العقوبة من غيرهم وأولى بالتأخر من غيرهم كما قال موسى لقومه لما اختاروا الثوم والبصل على المن والسلوى ﴿ أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرا ﴾ الى قوله ﴿ وضربت عليهم الذلة والمسكنة ﴾ الآية . فاذا كانت هذه عقوبة من هذا فعله فكيف بمن اختار الظلمة على النور والموت على الحياة والكفر على الإيمان . وكذلك المسلمون الذين أقروا بدين الاسلام فى الجملة والتزموا حكم الشهادتين ولم يعملوا بمقتضاهما ، بل اتخذوا دينهم لهوا

ولعبا وحرفوا الكلم عن مواضعه فى الصفات وغيرها وعملوا بما يضاد الدين من القوانين ورأوا ان ذلك هو طريق المجـــد وأنه هو الذى يلائم السياسة والدهاء والحكمة ، لاشك أن من عمل ذلك فلا بد أن يعاقب بعكس ما قصده ، وتكون عقوبته أولى من عقوبة من جاهر بالكفر ، أو كان مستمسكا بدين فاسد قبل الاسلام ولم يعترف بالدين ظاهرا ويخالفه باطنا ، ويكون نصيبه من الذل والتأخر بقدر نصيبه من النفاق واحتقار الدين والإعراض عنه ، وهذا ظاهر لا خفاء به . وبهذه الفروق يعرف أن عقوبة من خالف الدين الصحيح أو فرط فيه بعد ما عقله أولى من عقوبة غيره

الوجه الرابع أن نسبة الدين الصحيح الى الدين البـاطل أو الاسلام الى الكفر كنسبة النور الى الظلمة والصحة أو العافية الى المرض أو الموت أو الهدى الى الضلال أو الضياء الى الظلام ، فهما ضدان متقابلان تقابل السلب والايجاب ، فزيادة أحدهما نقص فى الثانى وارتفاع أحدهما هبوط فى الآخر ككفتى الميزان اذا هبطت إحداهما فلا بد أن ترتفع الأخرى ، وضعف أحدهما بلا ريب يوجب قوة مضادة ، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه فهو كقولنا انهم لما بعدوا عن النور دخلوا فى الظلمة وبقدر بعدهم عن النور يكون دخولهم فى الظلمة ، ولما انحرفوا عن الهدى وقعوا فى الضلال ، ولما أن اختلت صحتهم وقعوا فى الأمراض ، ونسبة شعب الكفر فى التفاوت والدركات كنسبة دركات الضلال والظلام وأنواع الأمراض . ومعلوم أن من ضعفت صحته فلا بد أن يكون مريضا فان النفس وكذا الجسم لا بد لأحدهما من أحد الأمرين فى هذه الدنيا ، فاذا قلنا ان المسلمين تأخروا لما ضعف دينهم وبعدوا عنه كقولنا وهنوا ومرضوا لما ضعفت صحتهم ، أو ضلوا لما انحرفوا عن طريق هداهم ونحو ذلك . وحينئذ لا يصح أن يقال لِمَ لم يضل غيرهم لما ضلوا ويمرض غيرهم لما مرضوا ونحو ذلك ، إذ حقيقة الدعوى

أن تغير غيرهم عن حالته كانتقال مريض من مرض الى مرض آخر أو من ضلالة الى ضلالة أو من ظلام الى ظلام ، فان علة القياس منتفية فالاعتراض به باطل بطلانا ظاهرا ، فأين من انتقل من نور الى ظلمة ممن انتقل من ظلمة الى ظلمة أو من ضلال الى ضلال

الوجه الخامس أن الله تعالى بين الدين الصحيح وبين حكم من اتبعه وتمسك به كما بين حكم من خالفه وأعرض عنه فى الدنيا والآخرة بيانا واضحا كالشمس ، قال تعالى ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا . فاما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما ﴾ وقال تعالى ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيمة أعمى ﴾ وقال تعالى ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى فلنحيينه حياة طيبة ﴾ الآية . وقال تعالى ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ فتأمل قوله فى الحياة الدنيا تجد الآية نصا صريحا فى أن الايمان والعمل الصالح ينفع فى الدنيا كما ينفع فى الآخرة ، وأن نتيجته الطيبة فى النصر وغيره لا بد أن تظهر فى الدنيا مع ثواب الآخرة ، وهذا يبطل قول الملاحدة ومنهم هذا المغرور فى أن الايمان والعمل الصالح لا ينفع فى الدنيا كما صرح بذلك فى مواضع ولا سيما فى مقدمته (كيف ذل المسلمون) وكذا قوله تعالى ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ نص قاطع على عدم تساوى المسيء والمحسن والمؤمن والمجرم فى الدنيا والآخرة ، وقال تعالى ﴿ للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ﴾ الى أمثال ذلك . وهذه براهين صريحة تنص على أن أهل الدين الصحيح لا بد أن يتقدموا فى الدنيا وأن ينصروا على أعدائهم ، فكل من تمسك بالدين والايمان الصحيح ـ لا الايمان الكاذب الملوث بالنفاق

واحتقار الأديان وجعل السياسات قسيمة لها ـ فلا بدّ أن ينصر حتما كما وعد الله بذلك ، فان الله لا بد أن يسدّد أهله ويوفقهم ويهديهم الى الأسباب القوية ويفتح لهم السبل التى بها يتحقق ما وعدهم به ، فان الدين بتعاليمه القوية يدفع الى العمل القوى النافع الصحيح ، وحينئذ فالاعتراض على ذلك السؤال إنما هو اعتراض على النصوص الصريحة التى ذكرنا فى هذا الأصل ، واعتراض على ما دلت عليه . فان كان المعارض ممن يدعى الاسلام فقد تناقض وسقط اعتراضه ، وان كان مجاهرا بالالحاد كافرا بالأديان انتقل النزاع معه حينئذ الى أمر وراء ذلك ، وهو فى أصل الأديان وصحتها وفساد ضدها ، وهذا مسلك آخر فالاعتراض ساقط على كل احتمال .

الوجه السادس أن مسألة التقدم من أجل الدين فى الدنيا ليست هى الثمرة المقصودة والنتيجة المطلوبة من الدخول فيه ، بل ذلك أمر آخر تابع للنتيجة وللغاية غالبا فى الجملة ، وحينئذ نقول : إما أن يكون الانسان داخلا فى الإسلام راغبا فيه حبا وإخلاصا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة ، لا لأجل أن يتقدم فى الدنيا وينال منها مالا أو جاها ، بل هـذا يرجوه تبعا لرضى الله لا غاية ومقصودا ، فالمسلم بهذا المعنى لا يمكنه أن يغير التقدم والتأخر عقيدته ، ولا يكون تأخره حجة عليه ، بل غايته أن يفعل ما أمر به من فعل الطاعات وأخذ بالأسباب المأمور بها شرعا من الجهاد وما يتعلق به ، فيأخذ بالأسباب الدينية والدنيوية ويسأل الله الاعانة والتوفيق ، فان وفق فذاك ، وإلا فلن يضيع له أجرا حسنا أبدا . واما إن كان لم يدخل الدين الا لقصد التقدم فى الدنيا ونيل الثراء والحياة ونحو ذلك فيدخل الدين لهذه الغاية أو لهذه وللآخرة ويجعل الآخرة تبعا ويجعلها مقصودة مع الدنيا سواء فان حصل له شيء من الدنيا والا فان يرضى أو يكون معه شك أو ريب ، فهذا فى الحقيقة ليس بمسلم بل هو منافق ، فلا يكون مسلما صحيحا إسلامه حتى يدخل الدين راضيا به

مبتغيا وجه الله لا مقدما عليه ما سواه كما فى الحديث الصحيح « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا » وفيه أيضا « لا يؤمن احدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » وقال تعالى ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف، فان أصابه خير اطمأن به، وان أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين ﴾ وقال تعالى ﴿ من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا ﴾ فكل من لم يدخل الاسلام مستسلما لله مخلصا صادقا فى إسلامه مبتغيا وجه الله والدار الآخرة مبغضا الكفر كارها له كما يكره أن يلقى فى النار فليس بمسلم إسلاما صحيحا

وعلى كلا الأمرين فلا يرد السؤال المذكور ، لأنه مبنى على أن التقدم فى الدنيا غاية لا بد منها على كل حال لكل مسلم وان كان إسلامه مدخولا . ومعلوم أن أئمة الدين لا يرون هذا ، فان الله تعالى جعل الابتلاء فى الدنيا أحيانا لا بد منه لخلقه ، إذ لو كان أهل الدين مطلقا يتقدمون دائما ولو قصروا وبعدوا عن دينهم لدخل الدين أناس كثيرون جدا لقصد الدنيا، ولخفى كثير من الزنادقة والمنافقين، ولفاتت العبودية والصدق والاخلاص المطلوب من الدخول فى الدين ، بل هو الثمرة المقصودة منه ، ولصار المقصود من الدين هو الدنيا فقط لا رضاء الله والرغبة فيما عنده . وهذا يتنافى مع الغاية المطلوبة من الدين ، ولكن الابتلاء والامتحان أحيانا ـ لا سيما فى الأمم المدخولة بالمنافقين ومن فى قلوبهم مرض ـ أمر لا بد منه، فانه يمحص هؤلاء فيميز الكاذب من الصادق والمخلص من الغاش والخبيث من الطيب كما قال تعالى ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ وقال تعالى ﴿ وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ وامثالها من الآيات . ولولا هذا الابتلاء والامتحان لم يقل المنافقون للمؤمنين ﴿ غرّ هؤلاء دينهم ﴾ ، ولم يستهزئوا بهم ويظهروا ما يكنونه من البغض والاحتقار ،

ولما استبان صدق المخلصين فى إيمانهم وصبرهم ومصابرتهم فى السراء والضراء فان الاسلام والدين مبناه على العبودية والصدق والاخلاص ، ولا يظهر هذا إلا فى السراء والضراء ، وفى ذلك ايضا ما يوقظ غفلتهم ويبين غلطتهم فيعرفون كيف يتلافون أخطاءهم وأغلاطهم التى ارتكبوها ويعرفون كيف يعالجون الأمراض التى وقعوا فيها ، فكم فى التأخر أحيانا ـ ابتلاء وامتحانا ـ من فوائد لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون

الوجه السابع أننا بينا أن الفرق واضح بين المسلمين وغيرهم ، فالتأخر وإن أصاب بعض المسلمين أحيانا فلا بد أن تكون العاقبة الحميدة لهم ، بخلاف أعدائهم فانهم وان تقدموا أحيانا فلا بد من الدمار المحتوم كما اخبر الله بذلك وعلم بالاستقراء التام ، فأين هؤلاء من هؤلاء ، والله سبحانه وتعالى قد فصل فى كتابه العزيز كيف تكون حالة هؤلاء وكيف تكون حالة أولئك ، فبين أنه قد يقع التأخر فى المؤمنين أحيانا قليلة امتحانا وأن العاقبة الحسنة لهم ، وبين أن الكافرين قد يتقدمون أحيانا فى الدنيا وتكون عاقبة السوء لهم فيهلكون ويدمرون وتحل بهم المصيبة القاضية عليهم ، وكفى بهذه الآيات حكما فاصلا فيهم وهى قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ وقوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون ﴾ فقد بين الله فى هذه الآيات الكريمة حالة الأمم المخالفة للرسل فى الدنيا ومآلهم فيها ، وهكذا كان الواقع ، فان الله تعالى لما بين لهم الحق جعل يقلب عليهم الآيات والعبر فيمتحنهم أولا بالبأساء

والضراء - أى المصائب المتنوعة - لأنها تمحص ما فى القلوب من الحياة والموت ، فالحياة لا بد أن تظهر معها والموت لا يفيد معه شيء ﴿ لعلهم يضرعون ﴾ أى يرجعون الى الله تعالى ويقلعون عما كانوا فيه من التعلق بغيره من المخلوقات ، فلما لم يحصل ذلك منهم بل قست قلوبهم فلم تؤثر فيها مواعظ الرسل وآياتهم وهذه العبر من البأساء والضراء المتتابعة عليهم بدل الله لهم مكان تلك السيئة أى الابتلاء والامتحان بالبأساء والضراء الحسنة أى النعمة والترف والرفاهية لتقوم عليهم الحجة باكمال النعمة كما قامت عليهم الحجة بابلاغ الرسالة فتكون الحجة قائمة عليهم من كل وجه ﴿ حتى عفوا ﴾ أى انغمسوا فى النعم وغفلوا عن وقوع ما يزيلها وينزعها عنهم ﴿ وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء ﴾ أى قالوا إن حصول الشر تارة والخير تارة وتعاقبهما ليس هو من فعل الله بل هى سنة أو نواميس من نواميس الحياة أو الطبيعة تارة خيرا وتارة شرا ، وهذا قد حصل لآبائنا الأولين فليست هى عبرا ولا آيات فلا دخل للأمور الدينية فيها ، قد مس آباءنا الضراء والسراء فهى عادة الدهر المستمرة فليس لما جاء به الرسل تأثير فى ذلك ولا لما فعلنا من مخالفة الرسل تأثير فى ذلك فليس لفساد الاخلاق تأثير فى ذلك قال تعالى ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء ﴾ وهذا صريح جلى فى أن الكفار قد يتقدم بعضهم فى الدنيا ويحصل على ثراء وخير كثير وقوة عظيمة ، ولكن كل ذلك عند ما يقرب زواله وانقلابه عليهم ﴿ حتى اذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون ﴾ أى انقلب مآلهم وانعكس قصدهم وتقطعت بهم الأسباب التى اعتمدوها واتخذوها آلهة من دون الله ﴿ وحيل بينهم بين ما يشتهون ﴾ فدمرهم الله وكانت عاقبتهم شر عاقبة

وهنا بخلاف أهل الدين فانه لا توجد أبدا أمة متدينة بدين صحيح أهلكها الله أو أصابها بما يصيب به الأمم الكافرة كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك

ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وكل الفترات التى حصل للإسلام فيها شيء من التأخر هى بالنسبة الى ما حصل لغيرهم من التأخر والعذاب والتدمير فى السنين السابقة منذ طلع فجر الاسلام لا يعد شيئا مذكورا ، فان الاسلام تقدم قرونا طويلة ، وكان على غاية من العزّ وضخامة الشأن ، بخلاف هذه الأمم فان تقدمها هذا جاء طفرة واحدة ، وكثير منهم طاش برهة وسقط سقوطا فظيعا مدمرا ، وأكثرهم قد تخلل تقدمه القصير نكبات ومحن عظيمة ، وهذا المستقبل المظلم ينذر بشر أدهى وأمرّ

الوجه الثامن أن الله تعالى قد أنعم على عباده بما أنزله اليهم من الهدى والبينات ، وكفل لهم السعادة والسيادة متى اعتصموا بهداه وحافظوا عليه ، وأخبرهم أن من أعرض عنه فقد دخل فى أسباب الشقاء والهلاك ، وقد صدق هذا الذى وعد به بالاستقراء الجلى الطويل ، ولم يذكر قط أن الكافر لا يقدّم على مثله أولا يتقدم أحيانا على من فرط فى دينه ، فهو تعالى أعطى عباده هذا الدواء الناجح وبين أن من استعمله فقد استحصل على الصحة والسلامة ومن أعرض عنه فقد تعرض للهلاك والعطب ، ولو أن طبيبا عظيما مخلصا صادقا ماهرا أعطى إنسانا دواء وأخبره أن شفاءه فيه وأنه ان تركه فقد تعرض للعطب وأكد عليه بأن يجتهد فى استعماله على وجه مخصوص وحذره عن الوقوع فى أشياء بينها له غاية البيان فأخذ هذا الانسان هذا الدواء بوهن وكسل وبغير همة واستعمله على غير وجهه وتناول ما نهى عنه أو كثيرا منه فضعفت لذلك صحته وازداد به المرض حتى أصبح ضعيفا مستضعفا ، فلو أن لائما لامه على صنيعه هذا وتفريطه فى أمره باستعمال هذا الدواء فاعترض عليه هذا الضعيف أو غيره مدعيا أن بعض الناس قد عوفى من غير أن يستعمل هذا الدواء وأنه استعمل أشياء مما نهى عنها وقد حصل له الشفاء والعافية لعد

هذا المعارض من أحمق الناس وأجهلهم ولكانت معارضته هذه معارضة باطلة بلا شك عند جميع العقلاء

وكذا لو أن انسانا وصف له طريق واحد وبين له الواصف الناصح غاية البيان أن سلامته ووصوله الى المطلوب مضمون فى سلوك هذه الطريق وحدها وكان هنالك طرق كثيرة غيرها فخالف وسلك طريقا غيرها فتلف أو مرض فلو لامه لائم فعارضه بأنه قد وجد من خالف هذه الطريق فسلم لكانت هذه المعارضة باطلة بلا ريب

فشُعَب الكفر وطرائقه كثيرة جدا ، والقليل النادر منها قد يحصل فيه شيء من التقدم برهة من الزمن امتحانا وابتلاء وعقوبة على آخرين ، وليس هذا التقدم معلوما فى طريقة واحدة معينة ولا فى طرائق معدودة ، لأن التقدم الذى قد يوجد فى شيء منها ليس تقدماً بأصالته وانما هو تقدم عارض لأمور تعرض لأهله أو تعرض لمقابليهم . وأما الدين الصحيح فهو طريقة واحدة ، وتقدمه بالاصالة ، وهو - أى التقدم - من لوازمه الثابتة فيه ، فلا بد من حصولها ما لم يمنع من ذلك مانع كوقوع التقصير ودخول النفاق ونحوه ، فان الله سبحانه وعد من آمن به وعمل صالحا بذلك فى الجملة كما قال تعالى ﴿ وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيئا [1] ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ وهذه خاصة فى الدين لازمة له فلا بد من وجودها ما لم يمنع من ذلك مانع ، فان كان هذا المانع ضعيفا فلا بد من زواله فيزول موجبه ، وان كان قويا

---

(١) يلاحظ هذا الشرط العظيم وهو قوله تعالى ﴿ يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾ فهذا شرط فى استخلافهم وتمكينهم وإبدال خوفهم أمنا

وازداد زال اسم الدين فلا يبقى هنالك موضع لقبول التقدم بل يحل محله ضده وقد بينا حكم ضده ، وهذا ظاهر . وأصل هذا أن قياس الاسلام على غيره من باب قياس الشيء على مضاده فالاعتراض بما يحصل فى ضده على ما يحصل فيه مبنى على هـذا القياس وهو باطل عند جميع من أقر بالدين ، وأمـا من لم يقرّ به فالكلام معه فى أصل الأديان لا فيما يلزم منها ومن ضدها ، فالاعتراض ساقط سقوطا بينا على كل تقدير

ومن أخبث الخبث قوله بعد إيراد هـذا الاعتراض « لأن التقدم لا يلزم أن يكون قائما على الدين والتقوى » فهذه الدعوى التى ادعاها قائمة على وهمين : أحدهما أن الأخذ بالأسباب ليس من الدين ، وظن أن الدين والتقوى شيء وأن الأخذ بالأسباب المادية شيء آخر لا يتفق معه ، فيكفى فى دحره أن يقال له : ليس من الدين والتقوى رفض الأسباب المادية مطلقا ، ولا يمكنك أن تثبت أن أحـدا من علمـاء المسلمين المعتبرين ادعى وجود الدين والتقوى فى أمة بدون أخذ بالأسباب المادية التى أمر الله بمباشرتها واستعمالها والعمل بها . وأما الوهم الثانى فهو اعتقاده أن التقدم قائم على الأخذ بالأسباب المادية فقط ، فمن أخذ بها تقدم بدون دين وتقوى ، ومن لم يأخذ بها تأخر ، أى أن التقدم منوط بها على كل حال . ومعلوم أن هذا باطل يعرف بطلانه مما سبق ، فان الله تعالى قد بين غاية البيـان أن من أعرض عن ذكره فان له معيشة ضنـكا ، وأن عاقبته الدمار وإن تقدم برهة استدراجا وامتحانا ، والله سبحانه قد أخبر أن من تمسك بدينه فلا بد أن يتقدم وينصر فى الجملة كما تقدمت الشواهد على ذلك من القرآن العزيز كقوله تعالى ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم اليه صراطا مستقيما . ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولـكن المنافقين لا يعلمون . من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة . فمن اتبع هـداى فلا يضل ولا يشقى . ان تتقوا الله يجعل لـكم فرقانا ويكفر

عنكم من سيئاتكم ﴾ وأمثال ذلك كثير . أما استدلاله بان بعض الانبياء والصلحاء قتل فسيأتى جوابه آخر الكتاب فى المشكلة التى لم تحل ، وكذلك ما ذكره من تقدم معاوية على علىّ . وأما ما ذكره بأن أوربا استطاعت أن تتغلب على الشرق مع أن الشرق أقرب الى الله من الغرب وأكثر إيمانا به فهذا من عجائبه فى التناقض ، فهو هنا أثبت أن الشرق أقرب الى الله ، ومعلوم أنه يريد المسلمين ، فاذا كان الأمر كما يقول فكيف يدعى أن المسلمين أضل أهل الارض ، وهاك عبارته فى ص ١٤٠ [١] : « انه لا يوجد عند أهل ملة فى الأرض من الخرافات والجهالات المنسوبة الى الدين مثل ما عند هؤلاء الذين يزعمون أنهم مسلمون ، فلا يوجد عند النصارى ولا عند اليهود بل ولا عند الوثنيين العابدين للأوثان والأصنام من هذه الخرافات كالذى عند المسلمين ، بل لم يكن عند المشركين الأولين الذين جاءهم الاسلام لانقاذهم من شركهم مثل ما عند هؤلاء المسلمين . ووجه ذلك أن هؤلاء المشركين الضالين كلهم انما ضلوا فى ناحية واحدة من نواحيهم أو فى نواح عدة ، أما المسلمون فانهم قد ضلوا وجهلوا وجمعوا جميع الخرافات وسائر صنوف الجهالات ، وما من قبح وفساد وشرك وغى كان عند أهل ملة من أهل الملل الضالين إلا وهو عند هؤلاء المسلمين بأقبح صوره ومعانيه ومظاهره » [٢] ثم أطال الكلام والسب

(١) أى مقدمته كيف ذل المسلمين

(٢) كل ما ذكره من الخرافات التى يدعى وجودها فى المسلمين إنما جاءت من الملاحدة والمنافقين الذين يمدحهم ويثنى عليهم ، فالبدع والخرافات كلها وليدة الالحاد ورفض الأديان ، فلا يمكنه أن يثنى على الأصل ويذم الفرع ، وكل ما ذكره من ذم الخرافات وتأثيرها فى العقول وغيرها موجود فى الالحاد والزندقة ، فان الالحاد هو أعظم الكفر ومحادة الله ، واذا كان ذمه لها لا من أجل الكفر وعداوة الله لم تكن دعايته دعاية دينية إسلامية بل دعاية إلحادية فتكون مناقضة لما يدعى ويقول ، فيقع فيما نهى عنه ، ويسقط كلامه من أصله اذ تكون دعايته ملتوية مغشوشة ليست على وجهها

وجعلهم شراً من جميع أهل الأرض ، فكيف يقول هذا القول ويدعى هذه الدعوى ويزعم قائلا « انهم أقرب الى الله من أهل الغرب وأكثر إيمانا به وأنأى عن ركوب معاصيه واقتحام محارمه » وهذا لا ريب فيه ، وهذه هى عادته فى الخبائث والتناقض وإلقاء الدعاوى مجازفة بدون تقدير وحساب ، والاسترسال معه فى كل خبائثه التى يبثها فى كتبه أمر يطول ويضيع الوقت بدون فائدة كبرى ، بل حسبنا أن ننبه على أصول كلامه وبخاصة ما يتعلق بأصل الدين ، فان هذا المجنون المأفون قد ذهب به غروره الى حد لم يصل اليه أحد مثله ، ويكفيك ما ذكرناه من جعله كتابه بمنزلة القرآن العزيز فى الوصف على ما أوضحناه ، ولم يرد الله أن أطلع على هذه المقدمة الملوثة بهذه النجاسات قبل أن أطلع على أغلاله الخبيثة والا لبينا له جنونه وغروره فيها نصب عينه

ولقد كان ظهور مقدمته هذه وإعراض كثير من الناس عنها وسكوت الآخرين عما جاء فيها من الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب على هذا الصنيع الفظيع ، اذ ظن أن خداعه فيه سيقبل كما قبل خداعه فيها ونفاقه ، وهو انما وضعها تجربة لهذا الكتاب ومقدمة له ، إذ من أبطل الباطل أن تجعل مقدمة للصراع الذى هو رد على الرافضى ، فانه لا مناسبة بينها وبينه مطلقا ، ولم يتكلم على الرافضة فيها بشىء ، ومن تدبرها علم يقينا أنها مقدمة لهذه الأغلال ، وقد أعجب بها كعادته فى نبذه الأولى حتى ذهب يكتب تحت عنوانها ما نصه « وأنا أرجو كل مصاب بمرض الضعف أو مرض اليأس أو مرض الركود والجمود وكل من ليس معدا للسير معنا فى هذه السبيل الشاقة أن لا يكلف نفسه قراءتها » هكذا ادعى هذا الاحمق . يكتب ما يكتب فى شتم الاسلام وسبه ويفعل ما يفعل ويحكم على كل من يخالفه أنه جاهل جامد مريض ، فهو لم يترك نبذة واحدة كتبها من أن ينبه القارىء على مدى غروره

فيها ، وقد بينا فيما سبق ما كتبه على نبذه الأولى ، فهو لا يكتفى بعرض نظره وتحكيم عقول العقلاء فيه ، بل يفرض قبول قوله وكتابه قبل قراءته والاطلاع عليه

العلم للرجل اللبيب زيادة ونقيصة للأحمق الطياش
مثل النهار يزيد أبصار الورى نورا ويعمى اعين الخفاش

فصل

ثم قال « والآيات التى استدلوا بها والتى يمكن أن يستدلوا بها هى قوله فى سورة البقرة ﴿وضربت عليهم الذلة والمسكنة﴾ ثم قوله من آل عمران ﴿ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة﴾ ثم قوله من سورة المائدة ﴿كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله﴾ ثم قوله فى الأعراف ﴿واذ تأذن ربك ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم ، وقطعناهم فى الارض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ انتهى

هكذا ساق هذه الآيات مدعيا أن المسلمين يحتجون بها على ما ذكره . ثم أخذ يحرفها كعادته فقال :

« وقد حسبوا أن هذه الآيات قواطع فى أن اليهود لن تقوم لهم دولة ولن تكون لهم صولة »

فيقال : قد كذب فى دعواه على المسلمين بأنهم حسبوا أن هذه الآيات تفيد بأنه لن يكون لهم صولة ، فان الصولة لا تنافى الذلة والمسكنة ، فقد يصول الفرد أو الشعب لما هو فيه من الذلة والمسكنة فيكون ذلك سببا فى ضعفه أو فى ارتكاسه فى شقائه وذلته ومسكنته ، فادخال الصولة هنا بهت ظاهر

أما الدولة فان أراد أنهم يدّعون أنه لن يكون لهم دولة متحدة مربوطة بحبل من الناس غير مستولية على دولة غيرها فهذا لم يدعه المسلمون ، والآيات ليست نصا فى نفيه بالدلالة القطعية ، فان الله يقول ﴿ إلا بحبل من الله وحبل من الناس [١] ﴾ واما أن يريد أنهم يدعون أنه لن يكون لهم دولة مستقلة استقلالا تاما على أساس صحيح كغيرها من الدول الحقيقية بدون حبل من الناس فهذا حق ولم يأت ما ينقضه ، ولم يقل أحد من المسلمين ممن يعتد بقوله ان الناس اذا فرطوا فى دينهم واحتقروه لا يمكن أن يتقدم عليهم اليهود ولن يقاتلوهم على أوطانهم حتى يكون لهم دولة ، فان هذا مخالف لسنة الله التى قد خلت فى عباده

ثم قال « ولكن هذا غير صحيح ، لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله . أما سنة الله فانها قد علمتنا بأن من أخذ بأسباب الملك ناله ، واليهود من أعمل الناس اليوم لهذا الغرض ومن آخذهم بالاسباب ، أما قلتهم فليست بمانعة من ذلك ، فان هنالك شعوبا أقل منهم عديدا ومع قلتهم ملكوا واستعمروا شعوبا كبيرة ، والمستقبل فى هذا العصر ليس للعدد وانما هو للعلم ، فان الحروب اليوم وغيرها ، من الوسائل التى يستولى بها على الحياة ، علمية »

قلت : قوله « لا بالنظر الى سنة الله ، ولا بالنظر الى كتاب الله » يفهم منه أنه ليس بينهما تلازم ، وهذا خطأ تقدم الكلام عليه . ثم يقال له : ان

---

(١) ولا شك أن هـــذه الجرثومة المزعومة مربوطة بحبال متوترة من الناس ، ولولا هذه الحبال لم تستقم ساعة واحدة ، ولا بد أن تتقطع هذه الحبال يوما من الأيام . فليفرض الانسان أن هذه الدول الطاغية الظالمة نقلت حيوانات غير انسانية كالقرود مثلا وفرضتها حكومة بالقوة والضغط والقهر لصالحها الخاصة ، فهل تخرج هذه الحيوانات عن حقيقتها ومنزلتها وطبيعتها فى نفس الأمر ، وهل يغير هذا الفعل ما حكم به على هذه الحيوانات طبعا وشرعا وقدرا

كانت سنة الله علمتك هذا فلا نسلم بأن اليهود آخذون بهذه السنة ، فان معهم من الخصال الخبيثة الممقوتة ما يقضى على ما معهم من الأعمال الأخرى المادية ؛ ومعلوم أن الأخـــلاق هى الأصل ، ولم تنل حكومة قط تقدما إلا بقدر أخلاقها القوية وانسجامها مع أسبابها المادية . أما إذا فسدت الاخلاق فلا بد من انهيارها ، واليهود ليس معهم من الأسباب غير الثراء المادى ، وهذا السبب لم يزل معهم من قديم ولم ينـالوا به ما طلبوا منذ قرون طويلة ، فلو كان كافيا لحصلوا به ما اجتهدوا فى طلبه من قديم . ثم إن سنة الله فى كل من تخلق بخلق اليهود أنه لا بد أن يضرب بالذلة والمسكنة ، فانك لا تكاد تجـــد أكثر فى الخبث والشر والظلم والانانية والحقد والحسد والتهالك على الدنيـا من اليهود ، وسنة الله فيمن هذا طبعه أن يضرب بالذلة والمسكـنة ، وأكـثر النفاق والخبث والمـكر والزندقة وأمثال ذلك مستمد منهم ، ولهذا شاركهم فى ذلهم واضطهادهم كل من شاركهم فى خصالهم ، فان الحكم يدور مع علته ، وهذه العلل هى علل البلاء والشقاء منذ كانت الدنيا ، وأكـثر النـاس يعرف الفرق بين اليهودى والمسيحى فى الطبع والخلق ، وقد استطاع كـثير من المسلمين ان يعيشوا مـع النصارى ، بخلاف اليهود فلا يمكن أن يعيش تحت سيطرتهم من فيه أدنى حياة معنوية ، الا أن يكون قد أصابه من البلاء مثل ما أصابهم ، ولهذا لما حصل لهم أدنى شىء مما أرادوا فعلوا من الوحشية والفظائع والنذالة مالم تفعله أخبث أمة على وجه الأرض ، فكيف لو وجدوا لهم متنفسا وفضاء واسعا ينفثون فيه سمومهم وخباثتهم المضغوطة من قديم

وأما قلتهم فنعم هى من أعظم الموانع ، ليست هى المانع كله[1] . وقولك « فان هناك شعوبا أقل منهم عديدا ، ومع قلتهم ملـــكوا ، بل واستعمروا

---

(١) وأنت إنما احتججت على انهزام ألمانيا بقلتها وقلة قوتها عن غيرها

شعوبا كثيرة » يقال أولا : هذا نادر جدا ، وفيمن ليسوا على دين صحيح ، وانما يوجد مثل هذا غالبا فيمن كانوا على دين صحيح كالعرب فى أول الاسلام وبنى اسرائيل حين هلاك فرعون ، وأمثال هؤلاء وهؤلاء انما يتقدمون بالاخلاق الدينية الصحيحة لا بغيرها

ويقال ثانيا : ان هذه الدول التى وجدت بهذه الصفة ليس فيها دولة واحدة متخلقة بأخلاق اليهود ولا بالالحاد المحض ، فلا يوجد دولة صغيرة استولت على شعوب كبيرة وتلك الدولة ملحدة إلحادا صريحا أو كانت يهودية ، وتلك الشعوب متدينة ولو بأديان فاسدة

ويقال ثالثا : من المعلوم أن هذه الدول الصغيرة التى توجد فى النادر قد استعمرت شعوبا كبيرة هى (اى هذه الدول) فى أمورها الصناعية والتجارية دون اليهود فى ذلك (كهولاندة) ومع ذلك فقد استحصلت على هذا التقدم مع أن اليهود أعرف منهم بهذه الأسباب منذ آلاف السنين ، وقد بذلوا أقصى ما لديهم ولم يستحصلوا على شىء من ذلك ، وكلما أرادوا أن يخرجوا من غم أعيدوا فيه . فعلم بهذا أن سنة الله التى ينال بها سعة الملك والاستقلال التام والتقدم لم تأخذ بها اليهود ، وإنما اعجبوك وملأوا عينك لأنك شابهتهم فى أخلاقهم الخبيثة ، وفى المثل شبيه الشىء منجذب اليه

واما قولك « والمستقبل فى هذا العصر ليس للعدد وانما هو للعلم »

يقال : لكن الشأن فى تحقيق هذا . فقد بينا اننا لا نسلم أن ما معهم من العلم الصحيح النافع هو ما به يحصل التقدم والاستقلال التام ، بل الذى معهم من العلم مغمور بما معهم من الجهل والظلم والخبث وغير ذلك من الأخلاق الوبيلة

ثم قال « وأما كتاب الله فان هذه الآيات ليست صريحة فى صدق هذه الدعوى : أما ﴿ ضربت عليهم الذلة ﴾ فى الآيات كلها فان الذلة عند أكثر

المفسرين هى الجزية ، فيكون تفسير هذه اللفظة أن الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات ، بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم »

قلت : دعواه أن الذلة هى الجزية عند أكثر المفسرين دعوى غير صحيحة ، بل ذلك عند بعض المفسرين ، والأكثرون على خلاف ذلك ، وهو قول مرجوح ، فأكثر المفسرين على أن المراد بذلك الذل والهوان كما رجحه البغوى ، أى أن الذل والهوان مضروب عليهم . قال البغوى : وضربت عليهم جعلت عليهم وألزموا الذلة والهوان . وقيل الجزية . انتهى . ومن فسرها بالجزية فلا ينافى تفسيره ما ذكر البغوى ، لان السلف كثيرا ما يفسرون الشيء بلازمه أو ببعض لوازمه ، وانتفاء بعض اللوازم لا ينفى وجود الملزوم . وأيضا فلو كان المراد بذلك الجزية لم يختص بها اليهود ، وهى مقرونة بقتل الأنبياء الصادر من اليهود ، كما أنها فى سياق الكلام فيهم ، فان النصارى والمجوس تؤخذ منهم الجزية ولم يذكر عنهم قتل الأنبياء ، كما أنه لم يذكر عنهم كل ما ذكر عن اليهود من الأخلاق الأخرى ، وهى التحريف وأكل السحت والتسمع للكذب وأمثال ذلك ، ومن العجب قوله « ان الجزية قد فرضت وقت نزول القرآن على اليهود ، وفرضها عليهم فى وقت من الأوقات لا يلزمه أن تكون مفروضة عليهم كل الأوقات بدليل أنها الآن مرفوعة عنهم مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم »

فما أكثر التلبيس فى هذه الجملة ، فانه عبر عن الضرب بالفرض أول الجملة ثم قال آخرها مع صدق القرآن بأنها قد ضربت عليهم ، والمقام يقتضى التعبير إما بالضرب وإما بالفرض فى هذه المواضع ، فلو قال مع صدق القرآن بأنها قد فرضت عليهم لطابق التعبير الأول ، ولكنه قصد المغالطة وتعمية الحق .

ثم انه ذكر أنه لا يلزم من فرضها وقت نزول القرآن أن تكون مفروضة عليهم دائما ، فجعل فرض الجزية ليس دائما عليهم ، وهذا مصادم للنص والاجماع . واذا كان يريد أن أخذها اليوم لم يوجد فهذا أقبح وأشنع ، فانه حينئذ يكون معنى الضرب هو معنى الفرض ، ثم يكون معنى الفرض هو معنى الأخـــذ ، فيكون ضرب الذلة قد ارتفع عنهم لارتفاع الأخذ ، وهو انما يقصد هذا لكن هابه المجاهرة به دون تلبيس . ثم انه جعل عدم الأخذ يغير الفرض ويغير حكم الله فتكون اليهود على هـذا فى هذا الوقت غير مضروب عليهم ذلة ولا مسكنة وحكم الله هنا قد بطل ، وهذا من دسائسه الخبيثة

قد تجـاهل ما قد كان يعلمه عمدا وباح بسرّ كان يكتمه

ولو طولب هذا الملحد ببيان الذلة والمسكنة ما هى وما حـــدّها ليخرج اليهود منها لم يقدر على ذلك إلا بأن يلجأ الى هذا التلبيس والمراوغة المنكرة ، وهل أظهر من ضرب الذلة والمسكنة على اليهود شيء ، وهل طلبوا الاستقلال وإنشاء وطن قوى لهم ، وبذلوا دماءهم وأموالهم من أجل ذلك إلا بما لا قوه وكابدوه من الاضطهاد الشديد وسوء العذاب فى سائر بقاع الأرض ، وقد علم ما عملته حكومات أوربا فى السنين المـاضية بل منذ أزمـان معهم من التقتيل والطرد والعذاب المتنوّع مع كونهم لا يأخـذون منهم الجزية على الوجـــه المعروف ، فعلم أن عدم أخذها لا ينافى ضربها ، كما أن فرضها ليس هو نفس ضرب الذلة فانها مضروبة عليهم منذ آلاف السنين حتى قبل الاسلام ، ولفظ الذلة مبالغة فى الذل ، فان الذلة شدة الذل والهوان ، والمسكنة زيادة استكانة وذل أيضا وهوان على وجـه أعظم ، ومن ضربه الله بهذا كيف يقال فيه ان معنى ذلك هو أخذ الجزية وأنها الآن مرفوعة عنهم ومع ذلك يقول مع صدق القرآن بانها قد ضربت عليهم . نعم صدق القرآن هو على ما هو عليه ، وهـل خالطتهم وعرفت ما هم عليه حتى تنفى عنهم شيئا لم تعلمه . ثم لو قدر أن أحـدا

شاركهم فى شىء من أخلاقهم فضربت عليه الذلة والمسكنة فإن ذلك لا ينافى ما حكم الله به عليهم ، فليس مساواتهم لمن ساواهم فى اخلاقهم رافعا عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، كما أنه لو قدر أن أناسا مضروبون بأنواع من الأمراض والأسقام ، وشاركهم فى هذه الأمراض أناس آخرون قلوا أو كثروا ، فان وجود هذه المشاركة لا يكون رافعا عنهم ما بهم من ذلك البلاء الذى اصيبوا به بما قدمت أيديهم ، فصدقُ القرآن هو على ما هو عليه ، ولو تقدموا زمنا أو فترة قصيرة على وجه الامتحان والاختبار لم يكن ذلك نافيا لضرب الذلة والمسكنة عند كل ذى عقل سليم . وهل أبين من ضرب الذلة والمسكنة عليهم آلاف السنين وهم مشردون مبددون فى كل مكان ، وقد عجزوا غاية العجز طوال هذه المدة فلم يستحصلوا على وجود أرض تقوم بحالهم ويستقيمون بها ويستقلون فيها استقلالا تاما هادئا كغيرهم على ما معهم من المعرفة والبراعه فى التجارة والصناعة والتفوق فى كثير من وسائل الحياة المادية ، وهذه خاصة لم توجد فى غيرهم من سائر البشر ، وكيف تعادل هذه اللحظة القليلة المضطربة آلاف السنين التى ذاقوا فيها أنواع العذاب والبلاء والشقاء ، ولكن القلوب السخيفة ضعيفة التصور سريعة الانقلاب لضعف إيمانها وإدراكها

ثم قال « واذا قدّر أن المراد بالذلة فى الآيات هو المعنى الأول السّابق الى الأفهام لم يلزم منه صدق هذا الوهم ، وذلك لأن إخبار القرآن بأن اليهود أذلة فى وقت نزوله لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين كذلك »

فيقال : هذا بهت وكذب على القرآن ، فانه لم يخبر بأنهم أذلة فى وقت نزوله ، بل أخبر بأن الذلة والمسكنة مضروبة على اليهود ، وهذا بمثابة الحكم عليهم بالذلة والمسكنة الدائمة ، فهذا الاطلاق الصريح لا يجوز تقييده بوقت نزوله ، وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الله ، وليس فى النصوص أن هذا خاص بوقت دون وقت ، وقد قال هذا المغرور فيما تقدم انه لا يجوز تقييد ما أطلقه

الله ، ثم هنا قيده بوقت نزول القرآن ونفى استمرار ضرب الذلة والمسكنة ، وهذه محاماة صريحـــة عنهم حشره الله تحت أقدامهم . ومعلوم أن قضاء الله الكونى لا يبدل ولا يغير ، فانه من سنته التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وهذا هو الواقع ، والله سبحانه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة بسبب أخلاقهم التى حذر عنها ، وأخبر مع ذلك بحلول الغضب عليهم حيث قال ﴿ وباءوا بغضب من الله ﴾ فما دامت تلك الأخلاق ملازمة لهم وغضبه تعالى ملازم لهم فلا شك أن ضرب الذلة والمسكنة ملازم لهم ، فلا يمكن دعوى رفع هذه الصفات عنهم ما داموا على يهوديتهم وأخلاقهم ، كما لا يمكن دعوى رفع الغضب عنهم وهم كذلك ، لأن هذه كلها من آثار ذلك الغضب الذى سببه هذه الاخلاق فهذا الأثر تابع لذلك المؤثر ، بل كلما اشتدت هذه الخصال واستحكمت فيهم ازدادت مقتضياتها ، وهم قد ازدادوا فى الإيغال فى تلك الأخلاق ، بل سلك كثير منهم مسلك الملاحدة زيادة على ما فيهم من تلك الخصال الخبيثة ، فكيف يقال انه لا يقتضى أن يبقوا أبد الآبدين أذلة ، فهل هذا إلا معاكسة للنصوص

ثم يقال لهذا المغرور : لماذا خصصت وقت نزول القرآن بالذلة دون غيره ، ونفيت استمرارها عليهم أبد الآبدين ، ومعلوم أنهم مستمرون على يهوديتهم ، بل وقد ضموا اليها أخبث منها من خصال النفاق والإلحاد ، فهل ترى إلحادهم وزيادة النفاق الخبيث يرفع عنهم ضرب الذلة والمسكنة ، أم تريد أنهم فى وقت نزوله أعظم فى الكفر من هذا الزمان ، أم تريد غير ذلك ، فلابد من بيان العلة النافية لعدم تابيد الذلة والمسكنة ، وانما خفيت الذلة والمسكنة فيهم فى هذه السنوات الأخيرة عند بعض الناس لأن هؤلاء لم يعرفوا معنى الذلة والمسكنة الحقيق ، ولأنهم لما كان لهم صولة على بعض من فرط فى دينه تمحيصا وامتحانا ، وحصل ما حصل من تأييد بعض الحكومات الكبرى لهم لأغراض سياسية قد دفع اليهود ثمنها نقدا وهم مهددون بعواقبها الوخيمة ظن

بعض الناس أن ذلك ينفى أو يخفف عنهم ضرب الذلة والمسكنة وليس الأمر كذلك ، فمن سبر حالتهم وتحقق أمرهم وعلم ما أصابهم فى كل الأزمنة المتتابعة ثم رأى حبوط أعمالهم وآمالهم وفشلها علم معنى الذلة والمسكنة التى ضربت عليهم وألزموها . وقد كتب العلماء على اختلاف مذاهبهم فى أمر اليهود كلاما كثيرا ، وبينوا كيف كانت معاملة الشعوب الأوربية والأمريكية وغيرها لهم واحتقارهم واضطهادهم قديما وحديثا بما لا يتسع هذا الموضع لنقله[1]

ثم قال : « وما من أمة إلا وقد مرّت بها عصور ذلة وضعف ، مهما كانت اليوم عزيزة منيعة »

فيقال : لكن هذه الامم التى بهذه الصفة أى التى تقدمت بعد تأخرها أو كانت عزيزة بعد ذلها وضعفها ليس فيها أمة واحدة أخبرنا الله عنها بأنه ضرب عليها الذلة والمسكنة حتى يصح القياس ، فان هذا النص فارق بينها وبين غيرها ، فلا بد من ظهور أثره وصدق دلالته

ثم قال : وفى الكتاب ﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ﴾

فيقال : هذا من مهازل الاحتجاج ، فان هذا الاحتجاج عكس صريح للحجة ومدلولها ، فان الله تعالى أخبر أنه نصر هؤلاء بعد أن كانوا أذلة ، فأخبر أنه أعطاهم نصرا بعد ذل ، فأين هذا ممن أخبر الله عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنه سيبعث عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، فهو سبحانه أخبر عن نصر وقع بعد ذل فقد زال الذل وحصل العز ، وهذا بخلاف من أخبر عنهم بأنه ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وأنهم

---

(١) نقل الهلال عدد ١٠٣ شعبان سنة ١٣٦٧ مقالا طويلا عميقا لبعض الباحثين المطلعين ، وبين فيه كيف كانت معاملة سائر الدول لهم ، تلك المعاملة السيئة الى اليوم . وأمثال هذا كثير جدا

باءوا بغضب من الله ، وأنهم كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، فمن قاس هذا على هذا فهو مصاب فى دينه وعقله ، كما أن من قاس اليهود على الصحابة فهو كذلك

ثم قال : « وكل الناس يعلمون اليوم أن الذلة [1] مضروبة على المسلمين على أوسع نطاق وأحكمه ، ولكن لا يمكن الزعم بانهم سيبقون أذلة أبدا »

فيقال : عن هذا أجوبة أحدها أن قولك « وكل الناس يعلمون » كذب واضح ، فهذا لا يعلمه من الناس إلا أنت أو من هو على رأيك ، وكيف يعلم عاقل أن المسلمين الذين يستحقون أن يكونوا مسلمين مثل اليهود فى ضرب الذلة والمسكنة ، فدعواك أن المسلمين مضروبة عليهم الذلة دعوى مضروب بها وجهك ، لأن ذلك مكابرة فى الحسيات ومباهتة فى الضروريات . أين أمة مشرّدة مبددة فى العالم قد خسرت دماءها وأموالها منذ مئات السنين فى الاستحصال على أقل موضع تثبت فيه أقدامها وتلجأ اليه من بلائها وشقائها فلم تحصل على ذلك على ما أرادت وتمنت ، بعد أن تعلقت بحبال طويلة مختلفة من الناس ـ من حكومات عظيمة ذات سيادة وجاه خطير ومكان مرموق وممالك قائمة على أسسها القوية ومستقل أكثرها استقلالا تاما ، وعدم وجود استقلال تام فى بعض حكوماتها لا يقتضى أن يطلق عليها ضرب الذلة والمسكنة ، فما هى الدول التى لم تحالف دولا أخرى وتضطر الى مساعدتها ماديا ومعنويا ، فقياس اليهود على المسلمين قياس فى نهاية السقوط

---

(١) لا ندرى لم اقتصر على الذلة دون المسكنة ، ولا ندرى كيف عبر عن الضعف فى كل هذا البحث بالذلة ، فهو لا يفرق بين الضعف والذلة ، فكل ضعيف عنده مضروب بالذلة بناء على اعتقاده فى أن المادة هى أساس القوة بل هى القوة كلها ، والا فكل عاقل يعرف أنه ليس كل ضعف ذلة ، فالذلة شىء والضعف شىء آخر ، فكم من قوى مضروب بالذلة وكم من ضعيف على غاية من العزة

الجواب الثانى أن دعوى المدعى أن الذلة والمسكنة مضروبة على المسلمين بأوسع نطاق وأحكمه دعوى يستحق قائلها أن يحاكم ويطالب بتحقيق هذه الدعوى وبيان الأمور التى بها ساووا اليهود حتى استحقوا أن يوصفوا جميعا بما وصف الله به اليهود ، بل هذا القائل جعلهم أدنى حالا من اليهود فى ضربه الذلة ، لأنه ادعى أن ذلك على أوسع نطاق وأحكمه ، ولم نعلم أحدا من الزنادقة قبل هذا ادعى أن المسلمين كاليهود قد ضربت عليهم الذلة ، ولو كان لهذا مسكة من عقل أو حياء لم يتكلم بهذا الهراء الذى لا يخفى فساده إلا على أشباه الانعام

الجواب الثالث أن ما يوجد فى بعض البلاد التى تدعى الاسلام من الاضطهاد وضغط العدو ليس موجودا فى كل بلدان المسلمين ، فكيف ساغ له أن يطلق على المسلمين الحكم بضرب الذلة عليهم بأوسع نطاق وأحكمه مع شناعة هذا الاطلاق وفيهم حكومات مستقلة استقلالا حقيقيا من جميع الوجوه ولها من السيادة والعز والتقدم ما ساوت به كثيرا من الحكومات الأخرى التى يمدحها ويثنى عليها ويسبح بحمدها بكل تعظيم واحترام

الجواب الرابع أن ما وجد فى بعض البلدان من بعض الضعف والهوان فان ذلك لما فى أهلها من الخصال اليهودية ، وبمقدار ما يوجد فى كل حكومة وأمة من الخصال اليهودية - التى هى تحريف الكلم عن مواضعه كتحريف نصوص الصفات عن ظواهرها والخيانة وأكل السحت وفساد الرابطة التى هى من أعظمها التسمع للكذب والكفر بآيات الله بعدم التزام الايمان بها كالتحاكم الى الطاغوت ورفض النصوص الشرعية - يكون ضرب الذلة والمسكنة ، ولهذا كانت الرافضة وعباد القبور والجهمية محرفة الصفات أكثر الناس نصيبا من الذلة والمسكنة لأنهم أكثرهم نصيبا من الخصال اليهودية ، ومن كان أبعد منهم من هذه الخصال كان أبعد عن مقتضياتها ، وهذا ظاهر لمن

تأمله ، وذلك لان الله سبحانه لم يضرب على اليهود الذلة والمسكنة من أجل عنصرهم ونسبهم ، تعالى الله وتقدس عن ذلك ، فانهم هم وغيرهم من حيث التكاليف الشرعية عند الله سواء ، كما قال تعالى ﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ﴾ وانما ضرب عليهم الذلة والمسكنة من أجل ما اختصوا به من الخصائص التى اعتادوها وتغلغلت فى طباعهم وطال عليهم الأمد حتى لزمتهم والتزموها ، فكانت هذه الطباع السيئة التى ذكرها الله عنهم كما أشرنا اليها هى السبب فى ضرب الذلة والمسكنة وقد حذرنا الله من ذلك وبين أنه فعل بهم ذلك عقوبة لهم على هذه الخصال كما قال فى آخر الآية ﴿ ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الانبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴾ وأمثالها من الآيات . فمن شاركهم فى خصالهم هــذه وزاحمهم فيها أصيب بالداء الذى أصيبوا به بقدر مشاركته لهم ، ومن باينهم وتباعد من خصالهم حصل له الوقاية من آثارها ومعلولاتها التى منها الذلة والمسكنة ، ولهذا قال جل وعلا ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأخبر تعالى أن من آمن منهم وعمل صالحا فهو كغيره من الناس ممن آمن وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فهو سبحانه العدل القائم على كل نفس بما كسبت يجازى كل عامل بعمله لا يظلم مثقال ذرة وان تكن حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما

ثم قال : « واما المسكنة عند أشهر المفسرين فهى الفقر ، والمراد هنا الفقر القلبي لشدة حبهم المال ، وقد قال الشاعر :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

وذلك لان الغرض من الغنى هو أن يسعد صاحبه لا أن يشقيه ، فاذا لم يسعده كان كالفقر المشق . وقيل ان المسكنة هى ضرب الجزية ، وقيل الخراج ، وكل هذه التفسيرات لا تنافى أن يكون لهم ملك وأن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا ،

ونحن نقول : وهذه التفسيرات التى ذكرتها لا تنافى ضرب الذلة والمسكنة التى هى الذل والهوان ، لأن هذه من لوازم ذلك ، ولا ينافى ذلك أن يكونوا يوما ما خطرا مرهوبا على من رفض دين الله أو قصر فيه واستكبر عن اتباع شرعه ورأى قوانين الذين كفروا أهدى من نصوص الدين سبيلا ، فمن فعل ذلك فقد تعرض لغضب الله ومقته وعقوبته بأن يسلط عليه من عشق قوانينه ويوليه ما تولى وأن يضرب بالذلة والمسكنة لانه اختار ذلك لنفسه باتباع هواه وانقياده لجهله وعماه ، وأما من حافظ على دين الله واعتمد على ربه وبذل ما فى وسعه من الأسباب فلن يكون اليهود يوما ما خطرا عليه ابدا بل يكون فى حصن حصين عنهم وعن غيرهم ، ﴿ ان الله يدافع عن الذين آمنوا ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فمن اتقى واصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا ﴾

ثم قال ، اما قوله ﴿ كلما اوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ﴾ فالمراد أن دسائسهم ومكايدهم التى حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول وعلى دعوته قد أخذها الفشل من كل جانب ، وأنهم هزموا فى كل حروبهم التى شبوها مريدين القضاء على الاسلام ، وهذا لا ينافى أن يكونوا خطرا فى المستقبل ،

فيقال : أولا من المعلوم أن مكايدهم الأولى التى حاكوها باحكام واستمرار للقضاء على الرسول ﷺ وعلى دعوته إنما مزقت وذهبت كلها أدراج الرياح بالأخلاق الدينية ، فمكايدهم هى فيهم والأخلاق الدينية هى هى ،

فانها حقائق لا تتغير فى ذاتها وإن تغيرت العوارض الطارئة عليها [1] فهى لم تتغير فى نفسها ، فمن حافظ على هذه الأخلاق الدينية قضى على كل مكايدهم ، فان الحق فى ذاته يقهر الباطل فى ذاته ، سنة لا تبديل لها ولا تحويل ، ومن أضاع هذه الأخلاق أو قصر فيها أو لوثها بامور غريبة خبيثة لا تلائمها فقد أضاع سلاحه أو أفسده أو قصر فى استعماله ، ومن فعل ذلك فقد جرّد نفسه من القوّة التى بها ظفر على عدوه ، وحينئذ فقد جعل نفسه عرضة لاستيلاء عدوه عليه وقهره وتحكمه فيه

ثانيا : هذه الدعوى حجة عليك ، فان اليهود ما فعلوا هـــذه المكايد وحاكوها باستمرار وإحكام إلا لأنهم رأوا كما رأيت أن الأخلاق الدينية لا أثر لها أمام الأسباب المادية ، بل لها نتائج أخرى ، ورأوا أن فيهم الكفاءة الذاتية للقضاء على كل قوة حتى قوة الدين ، ولهذا فانهم بذلوا غاية جهدهم فى استعمال أسبابهم وقواهم فيما قصدوه من القضاء على هذا الدين ، غير مكترثين بالرسول ولا بما معه من الأسباب الدينية من الإيمان والتقوى ، ومع ذلك كانت النتيجة عكس ما ظنوه واعتقدوه ، فقضى عليهم جانب الدين والتقوى قضاء حاسما ، وما أغنى عنهم كيدهم شيئا وباءوا بالخيبة والخسران

ويقال ثالثا : هذه الدعوى كالتى قبلها حاصلها أنك تريد أن تجعل جميع ما ورد فى اليهود إنما هو فى وقت خاص ، أى فى وقت نزول القرآن فقط ، وأما بعد ذلك فلن تتناوله هذه الآيات ، وهذا يقتضى إبطال القرآن كله ، فان هذا يفتح الباب لكل زنديق فيدعى فى كل حجة شرعية ترد عليه أن ذلك خاص بوقت نزول القرآن ، وهذا مسلك قد سلكه كثير من زنادقة هذا العصر ،

---

(١) لأن الحق فى نفسه حق ، والباطل فى نفسه باطل ، وإنما تختلف طرقه ، وإلا فهما ضدان متقابلان دائما

وهذا إبطال للدين من أصله . ثم إن مثل هذا التفسير باطل بالبداهة ، فإنه تعالى يقول ﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ وهذا يفيد الاستمرار ، قال الشاعر :

أو كلما وردت عكاظ قبيلة   بعثوا الىّ عريفهم يتوسم

مع أن الواقع المتواتر يصدّق هذا ، أما كون هذا لا ينفي أن يكون لهم خطر فى المستقبل فقد بينا أن هذا صحيح ، لكن إذا فرط الناس فى دينهم ، واستعاضوا عنه قوانين الغربيين ، ورأوا أنها أصلح وأحسن من شريعة رب العالمين ، وانهمكوا مع ذلك فى الفواحش والمنكرات واتباع الشهوات ، واستحبوا الحياة الدنيا على الآخرة

ثم قال « وأما بعث الله عليهم من يعذّبهم الى يوم القيمة فإنه لا ينافى الملك أيضا ، لأنه اذا كانت لهم دولة وبقيت الحروب بينهم وبين الآخرين مستمرة فان فى هذا أشد أنواع العذاب وأشد سوم لهم بالعذاب ، ولا ريب أن المتحاربين كل منهم يسوم الآخر ويصليه العذاب »

فيقال : اذن فالصحابة ومن بعدهم من المسلمين ممن حاربوا الكفار حربا متواصلا قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيمة ، فلا فرق بينهم إذن وبين اليهود ، فليس لليهود فى هذا ذم ولا اختصاص ، وهذه قرمطة ظاهرة ، فان هذا المغرور يحاول بأقصى جهده أن يطبق خصال اليهود وما ذموا به على المسلمين . وانظر الى دقة خبثه فى حذف سياق الآية وعدم إيرادها بلفظها كما أورد الآيات التى قبلها لظهور منافاتها لما ادعاه فى تفسيرها ، والآية صريحة فى أن هذا العذاب الذى وعدوا به سيبقى مستمرا عليهم الى يوم القيمة وكذلك من شابههم ، كما أنها صريحة فى هدم جميع ما أوله فى حمل الآيات التى قبلها على زمن الرسول ﷺ خاصة ، وكل مسلم يعلم أن الحروب لم تزل بين الناس فى مشارق الأرض ومغاربها من المسلمين والكافرين وغيرهم ، ولم يدّع

أحد أن كل دولة من هذه الدول سيبعث الله عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب ، بل هذا الذى ادعاه يقتضى أن البشر كلهم من مسلم وكافر قد بعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب الى يوم القيمة ، لأن الدنيا لا تنفك عن القتال بين الناس ، ولم تزل الحروب متواصلة حلقاتها فى أنحاء الارض ، وهذا كله قرمطة صريحة فى القرآن ، ولهذا أجمع المفسرون على أن المراد بذلك اليهود كما دل عليه سياق الآية ونصها ، قال ابن عباس : تأذن قال ربك . وقال عطاء : حكم ربك . ليبعثن عليهم الى يوم القيمة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب وانه لغفور رحيم . قال ابن كثير : « وكان (يعنى موسى) أول من ضرب عليهم الخراج ، ثم كانوا فى قهر الملوك من اليونانيين والكلدانيين ، ثم صاروا الى قهر النصارى واذلالهم إياهم وأخذهم منهم الجزية والخراج ، ثم جاء الإسلام ومحمد ﷺ فكانوا تحت قهره وذمته يؤدون الخراج والجزية » انتهى . ولكن لما تأخر الاسلام فى السنين الأخيرة وكثرت عبادة القبور وتحريف الصفات وسلوك مذهب الجهمية واستبدل كثير من الناس قوانين النصارى سلط الله عليهم من اختاروا قوانينهم حتى أرهقوهم وأفسدوا أخلاقهم وأذلوهم عقوبة لهم لينتبهوا ويرجعوا الى أصل دينهم ويعضوا عليه بالنواجذ ، فان الدول الاسلامية ولا سيما الأمم العربية لم يقم عزها ومجدها إلا على أساس هذا الدين ، فهو أصلها وقوتها وروحها ، فمتى ضعف ضعفت ومتى قوى قويت ، وهذا بخلاف الأمم الكافرة فانها أمم قامت على أصول أخرى وروح أخرى ، وقد حل بها من العقوبات والكوارث والنكبات ما هو معروف ، فلا خلاص ولا نجاة إلا بالتمسك بهذا الحبل المتين والسير على ضوء هذا الضياء المستبين

ثم قال « وهذا أيضا لا ينافى أن يكون لهم وطن وأن يجتمعوا وأن يكونوا خطرا على من ربطوا عقولهم بالأوهام ، وأطبقوا أجفانهم على الأحلام »

فيقال : لا شك أنهم هم وغيرهم خطر عظيم على من نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، واحتقروه ورأوا أنه ليس فيه كفاية وأن التقوى والصلاح خمول وضعف ، وأن التمرد على الدين والزندقة والالحاد وتحكيم قوانين أعداء الله رقى وتقدم ودهاء وسياسة ، فمن ربط نفسه بهذه الأغلال فقد استحق المقت والغضب والنكال ، ولا شك أن من أخذ أغلال اليهود وأمثال اليهود وجعلها فى عنقه ويديه ومكن نفسه من عدوه باحتقاره نصوص الدين وطاعة رب العالمين لا شك أنه قد اختار لنفسه البلاء والشقاء والعناء ﴿ ومن يهن الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء ﴾

فصل

قال « فالقرآن لم يقدم لنا صكا فيه الضمان والأمان من خطر هذا الشعب الذكى الغنى الماكر ، بل قدم لنا الأوامر الصارمة الصريحة بأن نحذر ونتيقظ ونقف »

فيقال : لكن أنت لم تقبل الأوامر التى قدمها لنا القرآن ، بل جعلتها آلة ضعف وانحطاط ، وجعلت نتائجها غير نتائج الجد ، بل جعلتها ملهاة وشرا وضلالا وظلاما ، والله سبحانه لم يخلقنا عبثا ولم يتركنا سدى ، بل بين لنا غاية البيان الطريق النير الواضح الذى يؤدى الى السلامة والعز والتقدم والسيادة العظيمة فأبى أكثر الناس إلا كفورا ، أنزل الينا هذا الكتاب وقال لنا ﴿ اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون ﴾ وقال ﴿ فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ﴾ وقال ﴿ يا بنى آدم إمّا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون [1] والذين

---

(١) وأى ضمان أظهر من هذا الضمان أو أوثق منه ، ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

كذّبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ فقد بين الله سبحانه طريق النجاة وطريق القوة والسيادة بأوضح بيان ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ أبى الناس ان يقبلوا صك القرآن قبولا تاما صادقا مخلصا ، بل أكثرهم كذّب وبعضهم شك وارتاب وقليل صدقوا وعملوا صالحا قال تعالى ﴿ وقليل من عبادى الشكور ﴾

لقـــد أكثر الله من الحض على التمسك بكتابه المبين والوصية بتقواه ، وضمن لمن فعل ذلك بأن ينصره وأن يؤيده ، ولينصرنّ الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . الذين إن مكناهم فى الارض أقاموا الصـــلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ فهل أوضح من هذا البيان بيان ، وهل أظهر من هذا البرهان برهان . فكل هذه الأمور لم تقبلها بل جعلت النهوض كله والتقدم كله فى تعليم المرأة أو فى معرفة نواميس الطبيعة ، وجعلت الأخلاق الدينية لا دخل لها فى التقدم أصلا

فالصك الذى قدمه لنا القرآن لم تقبله ولم تطب به نفسك ، وإنما قبلت ما صك الله به وجهك وطمس به بصيرتك من الإلحاد والأفكار التى قررها الملاحدة وأولياء الشيطان من الكفر بالله ومحاربة أديانه والدائنين بها

ثم قال « وجاءت الأحاديث الصحاح بأن حروبا عظيمة ستضطرم بين المسلمين واليهود ، وقد يكون فى هـذا ما يعطى بأن اليهود قد تكون لهم دولة وجيوش يحاربون بها ودفاعا عنها [1] »

فيقال : وقد يكون فى هذا أيضا ما يعطى بأنه قد يكثر فى هذه الأمة آخر الزمان زنادقة وملاحدة يفسدون الأديان ويعادون أهلها ويدّعون الاسلام نفاقا وخداعا حتى تضعف فى الأمـــة قوة الدين وتدخلهم الذلة فتطمع فيهم

(١) كذا بالاصل

اليهود فتقع الحرب بينهم وبين المسلمين كما جاء فى الحـــديث الصحيح « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ » وقال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حَذْوَ القذَّة بالقذَّة ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » ومعلوم أن قوة اليهود فى البلاد الشرقية وطمعهم فيها إنما يكون بمقدار ما يحدث من تأخر المسلمين والعرب وضعفهم ، وهذا إنما يقع بقدر ضعفهم بالتمسك بالأخلاق الدينية كما علم ذلك بالاستقراء التام والنصوص الصحيحة المتواترة ، فلا حجة فى هـــذه الدعوى بوجه من الوجوه . ثم الاحاديث الواردة فى وقوع القتال بينهم لا تدل إلا على وقوع القتال ، ومعلوم أن القتال يقع بدون وجود دولة بل يقع بين العصابات والأفراد والأحزاب وغيرها .

ثم قال « وإن أشد ما يفزعنا وأشد ما حملنا على أن كتبنا هذا الذى كتبنا فى هذه المسألة هو أننا نخاف أن نبقى متوهمين أنفسنا وبلادنا بمنجاة من هذا الخطر المخيف الفاغر فاه اليوم كما كنا نظن أننا بمنجاة من الخطر المسيحى حتى قضى القضاء ، وحينئذ لا يجدى الندم كما لم يجد فيما فرغ منه . وقد لاحظنا أن هذا الغرور ـ وهو خليق بان يسمى غرورا ـ مستول عـــلى تفكير إخواننا المقصودين بهذا الخطر الذين يكاد يحاط بهم [١] فهم يرون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود ـ جامعة اليهود ما جمعت من الأموال والقوات ومن العلم والمكر والدهاء ـ لكانت الغلبة لهم وان فقدوا هم كل شىء من هذه الامور التى من ملكها فهو المنتصر ومن فاتته فلا شىء له »

فيقـال : أنت فى الحقيقة لم تكتب شيئا ينفع لا فى هـــذه المسألة ولا غيرها ، وأكثر ما ادعيته هنا تشنيع ومحاماة عن اليهود فقط ، فقـد زدت

---

(١) كذا بالاصل

الطين بلة ، لأن كلامك هذا تخذيل للمسلمين ، وتعظيم لشأن اليهود ، وتطبيق للنصوص الواردة فيهم على من تقدم منهم فى وقت نزول القرآن فقط ، فكأن هؤلاء عندك ليسوا من اليهود ، ولو أنك تريد تنبيه المسلمين وحثهم على العمل الذى يصدّ مكايد اليهود عنهم لعرفت الطريق أين هو ، ولم تتجاهل وتكتب ما كتبته ، فكل من له عقل يعرف أن ليس فى كلامك هذا أدنى فائدة ، بل هو ضرر محض ، فحاصله بيان كون المسلمين ضعفاء جهلاء مخدوعين مضللين فى مقاومة اليهود ومنازعتهم ، لأنهم مجردون من كل قوة ، قد ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأن اليهود أهل العلم والمكر والدهاء والبراعة الفائقه فى كل وسائل الحياة . فأى نفع فى هذا ؟ ثم انك مع هذا عمدت الى الآيات التى فى اليهود وحرفتها عن ظاهرها ومدلولها حتى لم تجعل فيها أدنى ذم لهم

فكان حاصل كلامك أن المسلمين أخطأوا غاية الخطأ فى منازعة اليهود وقتالهم ، لأنه ليس معهم ما يعتمدون عليه لا شرعا ولا عقلا فى مقاومة اليهود ، أما الشرع فقد ادعيت أنه لا دليل لهم على ذلك فى هذه الآيات بل هم الذين ضربت عليهم الذلة بأوسع نطاق وأحكمه ، وأما العقل فصرحت بأنهم أقوى من المسلمين فى جميع وسائل القوة كما يأتى نص كلامك ، فأى تخذيل وإرجاف أظهر من هذا . ثم تشبيهك اليهود بالنصارى ضلال آخر قد تقدم الكلام عليه

ودعواك بأن المسلمين يعتقدون أنه لو خلى بينهم وبين اليهود لكانت الغلبة عليهم بكل حال ـولو لم يعمل المسلمونـ فجور فوق فجور لا يستريب فيه عاقل فان كنت تريد بالمسلمين بعض العامة فهذا تلبيس ولا حجة لك فيه وان كنت تريد به العلماء وأئمة الدين ومن يعتد بقوله فهذا بهت ظاهر لا يخفى إلا على أشباه الأنعام

ثم قال : « ومما يجب الالتفات اليه ههنا أنه لا يحسن منا أن نحكم بأن

القرآن قد جهر بأن اليهود لن يكون لهم ملك فى عصر من العصور ، فاننا لو حكمنا هذا الحكم ثم أبطلت الأيام حكمنا هذا لخشينا أن يكون فى ذلك شيء من توجيه الاتهام الى القرآن ونصوصه وقضاياه »

فيقال : يا مسكين إننا لو حكمنا هذا الحكم الذى تدعيه لم يكن هذا حكما من القرآن ، فان القرآن لم يحكم به نصا ، وما كان ربك نسيًّا ، بل إنما يكون هذا - لو حكمنا به - حكما بما يفهمه بعضنا من القرآن لا أنه نص صريح منه ، فان النص هو ضرب الذلة والمسكنة عليهم إلا بحبل من الله وحبل من الناس الى آخر الآيات المتقدّمة ، وهذه النصوص هى على ما هى عليه ، ومدلولها واضح كالشمس ، فاذا قدر أن أحدا شارك اليهود فى خصالهم فأنكر صفات الرب وحرفها وسماها حوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث وسماها أغراضا وأعراضا وقال هو منزّه عن الأعراض والأغراض فتحيل على نفيها بقلب أسمائها ، وتحاكم الى الطاغوت وادعى أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلا واستكبر عن عبادة الله وطاعته ورآها ضعفا وأغلالا ، وأمثال ذلك من خصالهم الخبيثة - فمن شاركهم فى هذه الخصال أو أكثرها فتقدموا عليه أو انتصروا عليه فانما ذلك لمشاركته ومزاحمته لهم فى أخلاقهم وأغلالهم التى استحقوا من أجلها ضرب الذلة عليهم والمسكنة ، فلا بد حينئذ أن يصيبه ما أصابهم فيضرب بالذلة والمسكنة كما تقدم تقرير هذا ، فانه تعالى أخبرنا بأفعالهم ، ثم أخبرنا بما عاقبهم به من أجل هذه الأفعال ، لئلا نحتذى حذوهم ونتشبه بهم ، فاذا قدر أن بعضا ممن يدعى الاسلام قد ضربت عليه ذلة ومسكنة فذلك من جراء أفعاله التى هى من مقتضيات الذلة والمسكنة ، وفى حديث ثوبان عن النبي ﷺ قال « يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تتداعى الأكلة الى قصعتها . فقال قائل : فمن قلة نحن يومئذ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ،

وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قال قائل : وما الوهن . قال : حبُّ الدنيا وكراهة الموت [١] » . وفى الصحيحين عن النبى ﷺ أنه قال « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه . قالوا : يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » . فدل هذا الحديث على أن بعضاً ممن يدّعى الاسلام سيتبع سنن اليهود فيحل به ما حل بهم كما سبق تقريره

ثم لو قدر أن الله سبحانه حكم فى القرآن بأنه لن يكون لهم دولة ، فلن يكون لهم دولة أبدا ، فان حكم القرآن لا تغيره الأيام ، لأنه حق ، والحق ثابت لا يتغير ، بل لابد أن تصدّقه الأيام حتما ، أما وجود هذه الجرثومة الخبيثة المزعومة فانه لا يصح أن يطلق عليها « دولة » بالمعنى الصحيح لأمور كثيرة ، فانها آلة صنعها غيرها لنفسه لأغراضه هو ، ولم تصنع هى نفسها على أساس ثابت مستقر ، وقد ربطت استقرارها بحبال متماسكة متخالفة من الناس ، فوجود الاضطراب فى متعلق هذه الحبال . ولو أن الذى فعل معها هذا الفعل فعله مع حيوانات أخرى بهذه القوة نفسها لكانت مثلها ، لأنها لم يكن وضعها وضعا أساسيا عادلا كسائر الدول الأخرى ، بل هى وسيلة موضوعة لغيرها ، وستدفع الثمن المطلوب منها مضاعفا عند الحاجة اليه . وينبغى أن يعلم أن وجود مثلها فى بعض الأزمنة القليلة فى ظروف خاصة لا يعد شيئا معتبراً يبنى عليه فى مثل هذه الأمور ، ولا يعد تقدما إلا عند الأغبياء ومن لا يعرف من الحقائق شيئا ، فلا يوجه الاتهام الى القرآن إلا زنديق شاك فيه ، أو من فى قلبه مرض ، وأما من آمن به إيمانا صادقا مخلصا فلا يمكن أن يتهمه ، بل يتهم نفسه وفهمه ، فالقرآن حق وبرهان لا بد من وجود صدقه ، لكن الزنديق والمنافق يقدر أشياء بفكره وذهنه ويلزم بها القرآن

---

(١) أخرجه أبو داود والبيهقى وغيرهما ، فتأمل هذا الحديث العظيم وطبقه على حالة الناس تجده هو عين الواقع

فيظن أنها هي مدلوله ومعناه ، ثم يبني على هذا الظن أمورا ليس لها علاقة بالقرآن ، فاذا جاء الأمر على خلاف ما ظن حصل له ريبة وشك لضعف إيمانه كما قال تعالى ﴿ يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ، وما يضل به الا الفاسقين ﴾ وهذا الضرب من الناس هم ممن قال الله فيهم ﴿ وهو عليهم عمى وأولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وإلا فالمؤمن الصحيح الايمان الصادق المخلص يعلم حقيقة العلم أن ما أخبر به القرآن والرسول فهو حق على حقيقته ومدلول الحق حق بلا ريب ، فيجب الايمان بذلك وإن لم نفهمه او نعقله فى بعض الاحيان ، لأننا قد صدقنا وآمنا واعتقدنا بأنه صدق وبرهان ، فاذا رددناه أو شككنا فيه فقد تناقضنا وكذّبنا عقولنا التي صدقت به وآمنت به ، إذ من فساد العقل أن نصدق به ثم نكذب مدلوله أو نشك فيه فان هذا تناقض . فهؤلاء الذين بقوا مذبذبين بين التصديق به تارة والشك فيه لأخرى ولم يتهموا أفهامهم التي قد علموا خطأها كثيرا هم قوم لم يؤمنوا حقيقة الايمان ، بل آمنوا إيمانا مريضا مبنيا على الشك والريب ، ومن آمن هذا الايمان المريض المبنى على الشك فهو كافر لانه مرتاب فى إيمانه فلا يعد إيمانا معتبرا كما قال تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا ﴾ وقال تعالى ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وحينئذ فلا معنى للاعتذار الذى ادعاه

ويقال أيضا : كلامك على هذه النصوص إن كان تفسيرا صحيحا حقيقيا فيما ترى وتعتقد فلا حاجة الى هذا الاعتذار ، فانه يفهم منه أنك فسرت الآيات على خلاف ظاهرها وما يفهم منها ، وإن كان تفسيرك هذا لها تحريفا أو تأويلا بعيداً لقصد إبعاد التهمة فهذا لا ينفعك شيئا ، لأن ذلك جرأة على الله وكتابه وهو ضرر محض ، والقرآن حق فى نفس الأمر وليس هو محتاجا الى أن يصرف عن ظاهره ونصه محاماة عنه ، فانه فى الواقع صدق حق وان لم يؤمن

به أحد من البشر ، والله غنى عن العالمين كلهم وعن إيمانهم وعبادتهم ، ولو كفروا كلهم لم يضروه شيئا

فالمحاماة عن القرآن هى إقامة البراهين على ايضاح دلالته ودفع الشبهات الباطلة التى ترد عليه ، أما تحريفه وتغيير معناه فهذا إفساد له لا محاماة عنه ، فما فعلته اذن هنا فهو ذنب مستقل ، فلا تدفع التهمة بجريمة أقبح منها ، ولكن سجيتك دائما سجية من قيل فيها :

كمطعمة الأيتام من كدّ فرجها   لك الويل لا تزنى ولا تتصدق

هـذا هو المناسب لقاعدتك ، فانك بخلت على والدتك الشفيقة الضعيفة المتلهفة على رؤيتك أو كلامك برسالة تتضمن السلام عليها فقط ، وادعيت أنك مكثت سنين فى معالجة هذه الأفكار التى سجلتها فى هـذه الأغلال لقصد ارشاد المسلمين لاكتساب المجد القومى ، فارتكبت العقوق الذى هو من أكبر الكبائر وعملت هذه الفضائح التى لا تستر لقصد الشهرة والسمعة ، فما حصلت على ما قصدته ، ولم تسلم من ذنب ما ارتكبته

فصل

ثم أخذ يتكلم فى خطر اليهود وأطال فى تعظيم أمرهم وأن لديهم من العلم والمكر والدهاء والتجارة والصناعة ما ليس عند المسلمين ، وأطال من هـذا الهذيان ، ولا غرابة فهم اولياؤه كما قال تعالى فى إخوانه ﴿ فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه فلا تخافوهم وخافونى إن كنتم مؤمنين ﴾ قال المفسرون يخوّف أولياءه أى يخوفكم أولياءه ، فاليهود هم أولياء المنافقين فى قديم الدهر وحديثه ، ولهذا شاركوهم فى ضرب الذلة والمسكنة ، بل كانوا أحط حالا منهم ، وهذا الملحد نفسه قام بهذا الدور لتمثيل أخلاق أسلافه الأولين فى كل هـذه الميادين الخبيثة فى

التخذيل والإرجاف والاعتماد على الأسباب المادية والنفور من الأخلاق الدينية وأهلها ومعاداتها ومعاداة أهلها وما كيد الكافرين إلا فى ضلال

ثم قال وهو حاصل ما أطـــال فيه : « نؤمل اليوم ان تحمينا بريطانيا وأمريكا من هذا الغزو المحيط الماحق مع أنهما هما الخصمان ، إننا نخدع أنفسنا ونضللها حينما نظن أن فى حولنا ـ لو تخلت هاتان الدولتان ـ أن نحمى أنفسنا بقوانا الخاصة من غزو الصهيونية وأخطارها ، فالصهيونيون مسلحون اليوم بأعظم وأحدث القوى العلمية والصناعية والمالية والفكرية والدوليه ، أما نحن فنكاد نكون مجردين من كل ذلك » انتهى كلامه قطع لسانه

فاذن لا حاجة الى منازعة الصهيونية ، لان ذلك ضرب من العبث ، فانهم سيظفرون بما أرادوا لا محالة ، ما داموا كذلك ونحن بهذه الحالة ، ولا سيما وهو قد جعل النصر منوطا بالأسباب المادية ، وهذا صريح فى أنهم سيهزموننا ويتغلبون علينا بلا شك ، إلا إذا تمسكنا واحتفظنا ببقاء الانجليز والامريكان للحماية منهم ، أما إذا تمسكنا بالمحافظة على ديننا وكتاب ربنا فان ذلك لا ينفعنا ، بل له نتائج أخرى هى الملهاة والمصرف الخبيث . وهذا مع كونه معلوم الفساد فهو ينم عن خبث عميق لا يخفى على فطن

فهذه حقيقة حال هذا الذى يدعى أنه يحث على العمل ، فسبحان واهب العقول

وقد تقدم ما علقه السيد قطب على هذه الجملة من كونه يريد أن نحافظ على بقاء هاتين الدولتين حتى نستعد لليهود ، ثم متى نستعد ما داموا هم بهذه الحالة ونحن بالحالة التى وصفها من الضعف والانحطاط

ثم أخذ يتكهن بماذا تفعله بريطانيا فى فلسطين إزاء اليهود فقال : « يحسن أن نستطرد هنا ونتنبأ بما سوف تصنعه وتختاره بريطانيا فى هذه القضية ـ قضية فلسطين والصهيونية : يخيل إلى أن هذه الدولة لن تسمح بحال من

الأحوال بفتح أبواب هذا البلد العربي إطلاقا لليهود لأمرين اثنين : أحدهما خشيتها من اليهود فى المستقبل »

ثم أطال فى التخرص بما قد أبطلته وكذبته الأيام . وذكر الأمر الثانى وهو كالأول ، وحاصله أن انجلــترا تخشى أن اليهود تقوى فى فلسطين حتى تكون خطرا عليهم هم ، فلأجل هذا فهم لا يسمحون باطلاق فلسطين لليهود . ثم قال فى حاصل كلامه « من أجل ما ذكر ، ومن أجل غيره أيضا ، فاننا نرجح أن السياسة الانجليزية ستختار الوقوف من الوطن اليهودى فى فلسطين موقف المانع المعارض على رغم ما يبدو من مناوراتها ومداوراتها » انتهى

قلت : قد أسفرت الأيام عن غير ما تنبأ به تمامــــا ، فانه لم يتنبأ بأن الانجليز ستلغى انتدابها وتنسحب عن فلسطين وتترك حبلها على غاربها تأييدا لليهود لامساعدة للعرب ، فقد أخلف الله ظنه وأبطل ما تنبأ به ، ولو جاء الأمر على وفق ما تنبأ به لطقطق وصفق زهوا وإعجابا وطار فرحا وعد ذلك من معجزات حقائقه الأزلية الأبدية

إذا تبين لك ما ذكره فى مسألة فلسطين وأنه لم يأت بتحقيق مقبول بل أتى بسخف وهذيان مرذول ، فليس لنا حاجة فى الإطناب فى تحليل هـذه المسألة لان الكلام فيها كثير قد تناولته أقلام العلماء والكتاب وأحاط به القراء على اختلاف أصنافهم ، وإنما الذى يهمنا هنا هو ما يتعلق بأصل المسألة من الناحية الدينية ، وبالأخص ما يتعلق بالآيات التى حرفها ونفى عن اليهود الذم الشديد فيها وبالغ فى تعظيم أمرهم كما بالغ فى تحقير المسلمين وتحقير شأنهم ومـــا فى تضاعيف ذلك من الدسائس الخبيثة . وقد تقدم الكلام فى التنبيه على وجوب الأخـذ بالأسباب القوية الدينية والدنيوية وأخذ الحيطة التامـة والاستعداد لمكافحة اليهود . وان الذى يجب اعتقاده فى هذه القضية وهو السبيل الوحيـدة التى لا سبيل سواها للنصر والعز والتقدم وإخفاق مكايد العـــدو هو التمسك

بأصل الدين والتمسك بالأخلاق الدينية السلفية القوية وهي بتعاليها ومقتضياتها تجر للأخذ بالأسباب المادية ، فإن الله سبحانه وعد من آمن به واتقاه النصر والتمكين والعز والتوفيق فى الدنيا والآخرة ، وتوعد من خالف أمره واستكبر عن طاعته بالذل والشقاء والخذلان وسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة وما حصل الذى حصل من هذه الفتنة اليهودية فى هذا الوطن العربى إلا بعد أن ضعف أمر الدين فى ذلك الوطن وفى غيره ، ورغب الناس عن العمل بالكتاب العزيز والسنة المطهرة ، وافتتن أكثرهم بالتقاليـــد الغربية التى لا تمت إلى الاسلام بصلة وسحروا بها وظنوا أنها ستوصلهم إلى آمالهم المطلوبة فأراهم الله كيف كانت آثارها وعواقبها تأديبا لهم ليعتبروا وينتهوا عمـــا هم فيه ، وإلا فمعلوم أن هؤلاء الدخلاء الخبثاء الذين لفظتهم الأرض من كل جوانبها ما دخلوا عليهم وأفسدوا ما أفسدوا إلا بعد أن حرصوا هم وأعوانهم على أن يدخلوا على عقولهم وأفكارهم وعقائدهم ما يفسدها ويميت حياتها المعنوية فما حلت أجسامهم وصورهم الخبيثة بهذا الوطن إلا بعد أن تبوأت أفكارهم وأخلاقهم وأنظمتهم مكانها فى ربوعه ، فتجب مجاهدة أفكارهم وأخلاقهم المعنوية كما تجب مجاهدة صورهم وأجسامهم المادية ، فليس ضرر أخلاقهم بأقل من ضرر أجسامهم ، أما من يريد أن يفرق بين الأخلاق والأجسام فقد طلب مالا يكون ، وطمع فيما هو مستحيل الحصول

فصل

ثم عاد فأخذ فى تكرار أصله الخبيث الذى يدور عليه فى نواميس الطبيعة وقوانينها ، وجعل ذلك هو مناط جميع الحوادث العالمية ، وقد اجترأ على المقام الاقدس فجعله تعالى متخليا عن خليقته قد وكلهم إلى هذه الطبيعة تحكمهم على أساس التسوية بين المسىء والمحسن بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم كما

تقدم كلامه ، ومعلوم عند كل مسلم أن من وكل الناس الى الطبيعة المخـلوقة العاجزة ، وجعل تقدمهم وتأخرهم محصورا فى استخدامها والتوجه اليها والاعتماد عليها فقد وكلهم الى أوثان يعبدونها ويطلبون منها العز والنصر والجاه والحياة والرزق وغيره ، وهذا كله مصادم غاية المصادمة لدين الرسل كلهم ، فانه تعالى أسند الإعطاء والمنع والخفض والرفع والعز والذل والنجاة والهلاك إليه وحده ، وأمر باتخاذ الأسباب المادية دون الاعتماد عليها ، بل جعل الاعتماد والتوجه والوثوق اليه تعالى دون خلقه كما قال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ وقال تعالى ﴿ وابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ وقال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله ، فقل أفلا تتقون ﴾ والآيات فى ذلك كثيرة جدا فهو سبحانه الذى يدبر جميع أمور الخلق بالأسباب التى وضعها لهم ، فالأسباب طوع إرادته ، وقد أمر باستعمالها ، وهو يفعل بها ، وهو قادر على ان يفعل بغيرها ، لكن هى بكل نتائجها طوع إرادته ومشيئته ، فليس لها من الحق ما يوجب الالتفات اليها ، وإنما تعتبر لأنها أسباب مقصودة نتائجها ، وهى مقهورة تحت القدرة الكاملة الربانية

وقد توسل هذا المغرور الى ابطال هذا الأصل العظيم - الذى تدور عليه الأديان من التفريق بين المسلم والكافر والمحسن والمسيء ، وأنه سبحانه يجازى المحسن بالإحسان والمسيء بالسوء ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت - بأن سمى هذا الاصل (محاباة) وقد قدمنا تفسير المحاباة فى أول هذا المبحث ، وأن المحاباة المنكرة الممنوعة شرعا هى إعطاء الخير لمن لا يستحقه دينا من أجل

إرضاء شخص آخر . ولا شك أن الله سبحانه منزه عن ذلك ، فهو سبحانه غنيّ عن خلقه . أما مكافأة الانسان على عمله المحسن بالاحسان والمسيء بالسوء فهذا ليس من المحاباة فى شيء ولا يسمى محاباة إلا أن يكون ذلك فى لغة الزنادقة الذين يريدون إبطال الشرائع ، وإلا فان هذا شرعا فضل الله يؤتيه من يشاء ، كما قال تعالى ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ ولو كان الخلق كلهم سواء فى كل شيء لم يتبين قدر الضر من النفع والخير من الشر وتظهر آثار الأسماء الحسنى كالعفو والمغفرة والرحمة ونحو ذلك ، ولم يعرف الكفر من الإيمان والنور من الظلمة والعلم من الجهل ، ولم تظهر هذه المخلوقات العظيمة المتفاوتة من حيوان ونبات وجماد ، ولم تظهر الأخلاق المتفاوتة وآثارها كالصناعات المختلفة وتفاوت العلم فيها ، الى غير ذلك مما لا يعدّ ولا يحصى ، وتفضيل الله بعض الناس على بعض أمر محسوس بالشرع والحس والضرورة ، وانكاره مكابرة فى الحسيات ، فان الناس فيهم القوى والضعيف والغنى والفقير والمؤمن والكافر والظالم والعادل والذكى والبليد والحسن والقبيح ، وهذه فروق ظاهرة محسوسة يمتنع أن تكون مستندة الى الطبيعة ، فان أصول الكائنات وحقائقها هى هى لا تختلف فى ذاتها ، فلو كانت النتائج المتمخضة عنها هى مغلولة لها وهى علة كاملة لكانت سواء كالدراهم الخارجة من مصنع واحد فانها لا تختلف لاتحاد المصدر الذى انطبعت فيه ، بخلاف الإخوة ونحوهم الخارجين من رحم واحد وصلب واحد فلا بد من وجود الاختلاف بينهم فى الصورة والخلق وتجد الآلاف من البشر لا يتفق منهم اثنان فى صورة واحدة وخلق واحد بحيث لا يمكن التمييز بينهم فى شيء من ذلك ، فقد جعل الله لكل مخلوق ميزة عن غيره فى صورته وفى فعله أيضا [1] ثم إننا نرى أناسا

---

(١) لقد جعل الله لكل جنس ميزة على غيره من أجناس المخلوقات ، ولكل فرد ميزة عن غيره فى كل الافراد

كثيرين فيهم بلادة وغباوة عظيمة ويعملون أعمالا دون أعمال الأذكياء ، ومع ذلك فقد نالوا أكثر مما ناله الأذكياء . ومن العجب أنك تجد الانسان فى غاية الفطنة والذكاء والدهاء والعقل ثم تجده مع ذلك مطبوعا على قلبه أبلد من الحمار فيما يختص بدينه وتجد آخر دون ذلك فى المعرفة والذكاء والفطنة ولكنه على غاية من المعرفة والذكاء فى أمر دينه ، وتجد آخر ذكيا للغاية فى أشياء خفية بليدا للغاية فى أشياء ظاهرة ، وتجد آخر عكسه ، وتجد آخرين أغبياء فى أكثر الأمور وآخرين عكسهم فكل مخلوق لا بد أن يناله نصيبه من النقص الطبيعى ، ويكون له نصيب من فيض الرحمة العامة إما فى دينه وإما فى دنياه ، وإما فى شىء أو أشياء دون أشياء أخرى . وهذا أمر ظاهر لا يخفى فهمه على كثير من الناس ، فاذا كان الاختصاص ظاهرا موجودا بلا ريب فى هذه الصور والمظاهر العامة فى الأجسام والعقول وآثارها من المعارف والصناعات وغيرها ، فكيف ينكر وجوده فى التقدم فى الرزق والجاه والنصر والتوفيق وسائر ميادين الحياة

ثم إن هذا المغرور لشدة حرصه على لبس الحق بالباطل خلط المحاباة بالنسب ، وادعى أنه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين خلقه ، وهو يعلم أنه ليس فى المسلمين من يدعى أن بين الله وبين أحد من خلقه نسبا حتى يتكلف لهذه الدعوى ، وانما قصد الايهام بان المحاباة التى يحاول نفيها من جنس النسب فى الشناعة ، فيجب نفيها ، وهو يريد بذلك اختصاص المسلم بالاعانة دون الكافر كما تقدم

قال « والذى نريد أن نقوله هنا انه لا محاباة ولا نسب بين الله وبين أحد من خلقه ، وقد وضع نواميس وسننا وقوانين تحكم هذا العالم على وفق حكمته العليا وعدله الشامل ، فمن وفق لاستخدام هذه النواميس والسنن والقوانين وسار معها بلا اصطدام ولا خروج فقد نال ما يبغى ، ومن عارضها وحاول

الخروج عنها فقد هلك ولا محالة ، ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلي ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه .

قلت : هذا هو الذى يريد أن يقول ، ولكن الذى نريد أن نقوله نحن قبل نقض ما ادعاه : ان الله سبحانه هو المنفرد بالتصرف فى خلقه ، المنفرد بتدبير ملكه فى كل أمور السموات والأرض ، وبيده ملكوت كل شىء ، وقد وضع شريعة كاملة كافية كافلة لمن اتبعها وأخذ بها أن لا يضل ولا يشقى ، وخلق هذا العالم على أتقن نظام وأحكمه ، ثم ربط نظامه الكونى بنظامه الدينى وجعل الكونى يدور على مقتضى الدينى ، فهما كنظام واحد ، فمن سار على نظامه الدينى استثمر منافع النظام الكونى ، ووفق اليه والى العمل به ، ونال ما يبغى مما يمكن فى حقه ، واستحصل على النجاة والنجاح والحياة الصحيحة المستمرة . ومن تمرّد وشمخ بأنفه وأبى إلا المعاكسة والمشاكسة ، فأراد أن يفرق بين نظام الله الدينى ونظامه الكونى ، فيؤمن ببعض ويكفر ببعض ، ويأتى الأمر مقلوبا معكوسا ، ويصادم السنة الربانية لم ينل الا الخيبة وانعكاس القصد إما عاجلا أو آجلا ، وإلا تمتع قليلا تمتعا منغصا منكدا وحل به البلاء والدمار ولا بد كما هو الواقع

وقد أدخل هذا المغرور فى هذه الجملة من الخبث والكفر الفظيع ما لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فقد صرح هنا بأن الله تعالى ليس هو الذى يحكم هذا العالم وإنما يحكمه الإنسان باستخدام نواميس الطبيعة ، فهو يدبره على مقدار ما معه من المعرفة والملكة ، ولهذا جعل مناط عزه وتقدمه ونيله ما يبغى بهذا الاستخدام ، وجعل عكس ذلك بيده بهذا الاستخدام نفسه ، فأين فعل الله اذن ، وأين مشيئته وإرادته . وهذا صريح الالحاد . وقد سبق ما نقلناه من تصريحه بأن المادة المولودة عن الطبيعة هى التى تحكم هذه الكائنات الحية ، وهنا صرح بأن النواميس هى التى تحكم العالم باستخدام

الانسان لها لا بتدبير الله لها ، ولم يستطع أن يقول ان الله هو الذى يحكم العالم بمشيئته وتصرفه فيه وتدبيره لهذا النظام الكونى ، بل جعل ذلك بيد الانسان الذى يستخدم هذه النواميس ، ومعلوم أن النواميس هى حركات الكون ، فهو جعلها تسير وتستحصل ثمراتها بمقدرة الانسان ، والله سبحانه قد أخبر بأنه هو الذى يدبر أمر خلقه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وان الخير كله بيده ، وان الناس لا يشاءون إلا أن يشاء هو ، وهذا المغرور جعل هذا العالم فى غاية الفوضى ، فانه اذا كان تحصيل منافعه ومضاره بمجرد استخدام الانسان ، فقد صار عرضة ونهبة بين المخلوقات ، فمن عرف نواميس الطبيعة واستخدمها فى أغراضه فانه يحصل على ما يريد ، ومن عبد الله تعالى وصلى وصام وكان على غاية من التقوى والصلاح لم يحصل له إلا الخيبة فى هذه الدنيا ، لأن الاخلاق الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى . ثم من هو الذى يحيط بمعرفة أمور هذا الكون ويقدر على تصريفه على ما يشاء حتى ينال ما يبغى . ومعلوم أن دولا عظيمة من أعرف الناس بالسنن وهم أخسرهم الآن فى هذه الحياة . ولا شك أن من اعتقد هذا أو اغتر به فهو لا يعرف دين الاسلام ، فان هذا القول كله مداره على الالحاد المحض ، وأن الله تعالى وتقدس ـ على هذا الزعم ـ كالوثن بلا فرق ، لأن الأوثان لا تنفع من أطاعها ولا تضر من عصاها ولا تدبر شيئا من أمر هذا الكون . فانظر ما تحت هذه العبارات من الالحاد الصريح والكفر الذى لا نهاية له

وقوله «فمن وفق لاستخدام هذه النواميس» الى قوله «نال ما يبغى» صريح فى أن استخدام الطبيعة والسير معها ملازم لادراك الغاية ، سواء فى ذلك المحسن والمسىء . وهذا مع كونه كفرا واضحا فهو كذب ، فلم يحصل لأحد من بنى آدم لا من أفرادهم ولا من شعوبهم ، فمن هو الذى استخدم نواميس الكون ونال ما يبغى واستمر على ذلك

وقوله « ومن عاند هذه النواميس » الى قوله « هلك ولا محالة » تأكيد لما قبله فى إناطة الحوادث بالطبيعة وتفاعلها . وقد علمت أن هذا الملحد عاند النواميس والسنن الدينية معاندة لم يسبق لها نظير ولم يخف الهلاك ، فجعل عبادة الله لا فائدة فيها ، والمساجد أدت شر ما يؤدى ، فصار الخروج عن هذه السنن عنده أمراً لا بد منه ، بل هو الواجب المحتوم ، لانه جعله معوقا للبشر كما تقدم . وأما معاندة نواميس الطبيعة عنده والخروج عليها فهو الهلاك لا محالة ، فعلى هذا يجب على الناس أن يعبدوا هذه النواميس ويكفروا بما وراءها ، لأنه علق النجاة بالسير معها والهلاك بمخالفتها ، ولهذا صرح فيما يأتى بأن اوربا لم تصعد بالحياة إلا لما جعلت صناعتها هى آلهتها التى وجدتها وأبت الاشتراك بها ، ولهذا أكد هذا المغزى الخبيث بقوله « ولن ينفعه أن يقول انه مسلم وانه يصلى ويصوم ويكثر من ذكر الله بلسانه » فهذا تأكيد فوق تأكيد بأن طاعة الله وعبادته لا خير فيها فيجب رفضها والانصراف الى معرفة نواميس الطبيعة التى هى مناط العز والذل ، كما ادعى فيما تقدم أن تأخرنا يعود الى شيء واحد هو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل هذه الفروع الطويلة الكثيرة المتدلية منحدرة عن أصل الإلحاد المحض والزندقة التى لا ريب فيها

ثم انه لعظم شقائه اراد أن يؤيد هذه الدعوى الشنيعة بدعوى سخيفة مضحكة وهى قوله « كما أن هذه الأقوال والدعاوى لن تجدى من ذهب يتحدى سنة الله فترك الطعام والشراب والمحافظة على الصحة والحياة زاعما أنه مسلم وأن المسلم معصوم محفوظ منظور من قبل العناية الربانية »

فيقال : هذا التشبيه غير صحيح ، بل هو حجة عليه ، فان من ترك الطعام والشراب فقد خالف سنة الله الدينية والكونية ، لأنه فعل فعلا غير مشروع فى الدين ، بل ارتكب ذنبا مستقلا ، فيكون مستحقا للهلاك والعقوبة بسبب مخالفة هذه السنة ، فاذا ترك الانسان الأكل والشرب فلا يكون بهذا متبعا

للسنن الدينية ، على أن هناك أمرا آخر ، وهو أن الله جعل هـذه الأسباب المادية التى منها الأكل والشرب سببا فى حيـاة الجسم المادى ، وجعل ما أنزله من البينات والهدى والرحمة والبصائر سببا لحياة القلوب والنفوس واستقامتها ، فنسبة هذه الأمور الغذائية للأجسام المادية كنسبة هــذه النفحات الروحية الربانية المعنوية للنفوس والقلوب الزكية ، فانه لا خلاف بين أهل البصائر أن القلوب والنفوس تستمد حياتها وقوتها من الأمور المعنوية كما تتغذى الأجسام بالمواد الغذائية . فاذا كانت الأجسام لا يمكن أن تحيا بدون غذائهـا المادى فكذلك القلوب لا يمكن أن تحيا حياة صحيحة إلا بوجود ما يلائم فطرتهـا الأولى من المواد الالهية الربانية ، وهـذا أمر يعرفه كل ذى عقل وبصيرة ، فان المؤمن يشتاق ويرتاح ويأنس بالطاعة ويجد بها من التغذيه والحـلاوة فى قلبه أعظم مما يجد لجسمه من اللذة والحلاوة فى تناول غذائه المادى [١] . ولهذا كانت النفوس مضطرة الى أن تتغذى بالأمور المعنوية ، فهى أن لم تتغــذ بالطـاعات والأمور الدينية فلا بد أن تتغذى بالمعاصى واتباع الشهوات والموسيقى ومزاولة مظـاهر الشرور والخبث وتلتذ بها وتتداوى بهـا (كما يتداوى شارب الخمر بالخمر) فتكون عاقبتها الهلاك ولا بد ، لأنها أمور عارضة خبيثة مظلمة منحطة بخلاف الآثار السماوية وتأثيرها فى النفوس والارواح . وقد بينا فيما سبق أنه سبحانه ربط سننه الدينية بالسنن الكونيـة فمن سار على السنن الدينية فلا بد حتما أن يوفق الى ما به يحيـا حياة سعيدة ، كما قال تعالى ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ فاى حجة

---

(١) لا شك أن المؤمن تتعطش روحـه وتتلهف على حصول الطاعات ، ويجـد لفقدها أعظم مما يجد لفقد الطعام والشراب . فالطاعات قرة عينه وروحه ، ولهذا قال النبى ﷺ « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » أى لما فيهـا من الفيض الالهى ، والاتصال بمصادر الرحمة والهدى والكمال والبصائر

لهذا المغرور فى هذا الهذيان حتى يدعيه ، فان من هلك بترك الأكل والشرب فهو كمن هلك بترك تغذية روحه من الطاعات وفيض الآثار الربانية ، فان الانسان ليس ببهيمة أو حشرة غير مكلفة بأمور دينية بل مقصورة حياتها الروحية والجسمية على الغذاء المادى فقط ، والله سبحانه وتعالى أمر الانسان بأن لا يلق بنفسه الى التهلكة ، وحرم عليه أن يقتل نفسه ، فاذا عاند وخالف أمر الله كان من الهالكين

وقوله « زاعما أن المؤمن معصوم . . الخ » كذب وفجور لا يخفى إلا على من أعمى الله قلبه ، فان المسلمين لا يعتقدون أن كل مسلم معصوم ، بل بينهم خلاف فى عصمة الأنبياء فى غير ما يبلغونه عن الله ، فكيف بالمسلم ، ولكن ما حمله على الالتجاء الى هذه الخصلة اليهودية الا لما خنقته الحجة الظاهرة ، وقد علم أن النبى ﷺ كان يحرس حتى نزل عليه قوله تعالى ﴿ والله يعصمك من الناس ﴾ فدل على أنه ليس أحد من بنى آدم معصوم من شر الحوادث الطبيعية إلا من ورد فيه نص خاص وقد قال تعالى ﴿ لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾

فهذه الدعوى فى عصمة المسلم كذب وفرية ظاهرة ، ولولا هذه الحرفة اليهودية التى يلجأ اليها دائما عند الحاجة لما استطاع أن يكتب صحيفة واحدة قائمة على شىء من الصدق والحقيقة ، ولكنه جعلها هى عمدته ونفقه الذى يلجأ إليه

فصل

قال « اخرج الى السماء (١) فى ليلة صافية ، ثم انظر الى تلك المخـــلوقات المتلألئة التى تمـلأ الفضاء ، والتى تواجهك أينما توجهت ، والتى تـكاد تتشابك وتتصادم وتتهاوى ، ولـكن شيئا من ذلك لا يحـدث ، والتى تكاد تزخرف بساطا من حبات اللؤلؤ ذات الاشعاع المتوهج المتوقد الدائم الحركة الضوئية ، ثم استسلم الى عقلك وعلمك وخيالك قائلا : كم يمكن ان يكون قد مرّ بهـذه المخلوقات الجميلة من الاحقاب وهى محافظة على نظامها وسيرها ومداراتهـا بلا اضطراب ولا اختلال ولا فوضى ولا تصادم ، ثم سل ما الذى يمسكها هكذا كل هذه الدهور ـ تجب بأن الذى أمسكها ويمسكها هو النظام الالهى المفروض عليها (٢) . ثم سل ثانيـا قائلا : أرأيت لو أن الجن والانس والملئكة وكل الخـلائق أولين وآخرين وقفوا فى صعيد واحـد ثم سألوا الله جاهدين أن يفسد هذا النظام أو أن يغيره أو أن يتخلى عنه ، أكان من الممكن أن يجيب الله هؤلاء الداعين أو يقبل هذا الدعاء »

فيقال : كل هـذا هراء مرذول ، وثرثرة فارغة يقصد من ورائهـا إبطال تأثير الدعاء والعبادة . وتقدم امثاله مرارا . وهذا المثل لا تعلق له بخضراء ولا غبراء ، ولا مناسبة فيه للبحث أصلا

أما أولا فقد قدمنا أن من سأل الله تعالى وتعدّى فى سؤاله فقـد صادم أوامره الدينية فلا يحصل على طائل ، ولا شك أن من سأله خراب العالم فانه معتد فى سؤاله . ولو أن قائلا عارضه وقال : أنت تمدح الاسباب المادية ، بل تدعو الى ما يتضمن عبادتهـا ، فهل تظن أن الخلق كلهم لو اجتمعوا يقدرون

---

(١) تامل هذه وأمثالها كثير جدا ، ولسنا بصدد المناقشة فى مثل هذا

(٢) هذا السؤال جعله تمهيدا للثانى ، ولهذا نافق فيه

على تغيير العالم كله بأسبابهم التى غلوت فيها ودعوت الى ما يتضمن عبادتها ، فاذا كان مناط عدم النفع هو عدم تغيير العالم وتخريبه فالأسباب الدينية والمادية فى ذلك سواء ، بل ربما كانت الأسباب الدينية أقوى كما ورد فى أن الساعة تقوم إذا خلت الارض من ذكر الله وعبادته

وأيضا لقائل أن يعارض من وجه آخر فيقول فهل الجن والانس والملئكة وكل الخلائق يقدرون بذاتهم أو سوا لهم أن يغيروا شريعة الله ويبدلوا كلامه ، وهل يمكن أن يجاب دعاء من دعا الله وطلب ذلك ، فالقول فى السنن الدينية هنا كالقول فى السنن الكونية ، فان الله تعالى نهانا ان ندعوه بما لا مصلحة لنا فيه ، وهذا الدعاء الذى ذكره ونحوه مما لم يذكره اعتداء محض وجرأة على مقام الربوبية ولا مصلحة للداعي فيه . ولو أن رجلا طلب من ملكه أن يفسد حكومته ويدمرها ويعبث فيها بلا ضرورة ولا حكمة لعد من أحمق الناس وكان معتديا فى هذا السؤال ، فخليق بأن يعاقب ويجازى بالطرد والحرمان دون قبول سؤاله ، واذا كان قبح هذا مستقرا فى العقول عند ملوك الدنيا وسوقتهم ـ ولله المثل الاعلى ـ فكيف يجوز ذلك بالنسبة الى الرب تعالى

وأما ثانيا فهذا الذى ادعاه تقدير مفروض ، وهو لا يخلو من أمرين إما أن يكون هذا الدعاء مشروعا أو غير مشروع ، فان كان مشروعا فما المانع من إجابة الداعي به اذ من المحال أن يشرع الله شيئا ويأمر به عباده وهم لا طاقة لهم به ولا يمكن حصوله . وان كان غير مشروع وهو محرم فالله سبحانه قد نزه ملئكته ومؤمنى خلقه عن مثل هذا فلا معنى للاتيان به فكيف يسوغ لمؤمن أن يدعو الله أن يفسد نظامه ويتخلى عن ملكه ، هذه جرأة عليه وكفر ظاهر ، فكيف يستجاب لمن فعله ، وهو كمن دعاه أن لا يبعث رسلا أو لا يفرض على خلقه عبادة ولا دعاء ولا يخلق جنة ولا نارا وأمثال ذلك ، فمن عاند السنن الدينية حبط عمله ولم يحصل على طائل

فلا حجة لهذا المغرور فى هذا الهذيان الفارغ ، ويكتفى معارضه بأن يقول له قولا أقرب مما تقدم وهو : أرأيت لو أن الجن والانس وما شئت من المخلوقات بمن فيهم من علماء الطبيعة ونواميسها أجمعوا أمرهم وبذلوا كل ما فى وسعهم ، هل فى إمكانهم أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة تنبت أو يقلبوها الى ذرة أو حبة أخرى بجميع ما لديهم من الأسباب والقوى ، فاذا كانوا عاجزين عن هذا الشيء الصغير الحقير بجميع أسبابهم ، فلم تغلو فيها وتحارب الدعاء بمجرد أنك فرضت شيئا بذهنك وادعيت أنه لا يؤثر فيه ، وهل هذا إلا تحامل عظيم على دعاء الله وعبادته ، ودعوة الى الوثنية المحضة وهى عبـــادة الطبيعة وأسبابها

فصل

قال « ويجب أن يعلم أن الخلاف الذى قام بين الأنبياء والمصلحين وبين جميع أصناف المخالفين هو فى أمر واحد تحته أمور كثيرة ، هـذا الأمر هو أن الأنبياء والمصلحين كافة إنما جاءوا بالنظام وبالدعوة الى النظام ، والنظام فى كل شيء : فى الاتصال بالخالق ، والاتصال بالمخلوق ، والاتصال بكل شيء ، والى الايمان بهذا النظام »

ونحن نقول : وكذلك الخلاف الذى قام بيننا وبينك هو من أجل هـذا النظام ، فانك لم تقبل النظام الذى جاء به الانبياء وقام به المصلحون ، بل ورثت خصوم الانبياء ـ وبخاصة المنافقين منهم ـ فذهبت الى اعتقاد أخبث ضروب الفوضى فى هذا العـــالم اذ صرحت على رءوس الأشهاد بأن هـذه الكائنات الموصوفة بالحية محكومة بالنواميس المولودة من المـادة ، وقررت بأن من استخدم هـذه النواميس نال ما يبغى ، فصار العـالم محكومـاً بالنواميس التى يستخدمها الانسان ، وحصول النتائج موقوف على استخدام المستخدمين على اختلاف أفكارهم وآرائهم وعقولهم ، وهذا عين الفوضى ، ولهذا صرحت بان

المساجد أدت شر ما يؤدي ، وأن إنكار منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين وتربية خبيثة ، وأضفت الى هذا ان رضا الله وسخطه لا دخل لها فى الأسباب ومسبباتها ، فساويت بينه تعالى ـ لو كنت مقرا بوجوده ـ وبين الأصنام ، فكان حاصل كلامك أن العالم يحكم نفسه بنفسه فتحكمه الطبيعة التى لا تعلم ولا ترحم ولا تغضب ولا ترضى ، فتجرى حوادثها على مقتضى طبعها لا عقلا ولا سفها بل مصادفة واضطرارا . أما نحن فاننا دعونا الى نظام الله الدينى المطابق لنظامه الكونى الذى أنزله من فوق عرشه مع أفضل ملئكته على أفضل نفس بشرية ، وعلمنا أن نظامه الدينى مربوط بنظامه الكونى ربطا وثيقا ، فاتبعناه ودعونا اليه ، وعلمنا واعتقدنا أن الذى يدبر أمر الكون هو الله وحده لا شريك له ، هو ربه الذى خلقه ، فهو المتصرف فيه بمقتضى علمه ورحمته وعدله وحكمته ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . هذا هو اعتقادنا وهو النظام الذى جاء به الانبياء ، فقد عاديته وحاربته وجعلته أغلالا وأصفادا ، والله سبحانه قد بين رأس هذا النظام بأنه عبادته وحده لا شريك له ، وبين رسوله ﷺ بأن الدعاء هو العبادة وأنه مخها ، وقال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فقد كانت دعوة كل نبى لأمته أن يعبدوا الله ويجتنبوا الطاغوت ، والطاغوت هو كل ما يعبد من دون الله ، مأخوذ من الطغيان وهو مجاوزة الحد[1] فمن عبد غير الله فقد جاوز به حده ، وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليه انه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ وهذا صريح فى أن الدعاء أشرف أنواع العبادة بل هو مخها

(١) قد قرر هذا الملحد كما يأتى بأن أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن وحدت تجارتها وصناعتها وأبت الاشراك بها ، فجعل عبادة الصناعة والتجارة هى سبب التقدم ، فالوثنية هى أسباب التقدم وهذا عكس ظاهر لدعوة جميع الانبياء

وروحها ، لأنه يتأتى فى كل أنواعها ، فقد كبر على المشركين ومن حذا حذوهم من الملحدين والمنافقين اتباع هذا النظام الجبار والأخذ به كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ ولا تزال هذه الفكرة الخبيثة الممقوته المنذرة بشر العواقب موجودة حتى الآن بشيوع مدهش وانتشار هائل فى كل نفس ضيقة نجسة ، فتجد هـــذه النفس المصابة بهذا البلاء تنكمش وتستكبر وتنفر ويحصل لها انزعاج واشمئزار وتضايق متى خوطبت بأنها خلقت لعبادة الله وحده لا شريك له وقصده والتوجه اليه والاعتماد الكلى عليه . تجد هـذه النفس المظلمة تستعظم هذا الأمر السماوى ويكبر عليها القيام الصادق به ، بل ترى أن هذا خمول وانحطاط ورجوع الى الوراء ، ولـكنها مع ذلك لا تأنف — فى اتباع أهوائها — من مباشرة أحط الأخـلاق وأقذرها وأسقطها ، كما لا تستنكف عن أن تخضع أشنع الخضوع وأن تكون على غاية من الذله والهوان والدخول تحت أقدام شر خلق الله وأقذرهم . وقد أثبت التاريخ أنه لا يوجـد فرد أو شعب استكبر وابتعد عن عبادة الله إلا عوقب بعبادة أخبث المخلوقات وأسقطها ، إما فى رؤسائه بحيث يعبد بعضهم بعضا ، وإما بعبادة شهواته وأهوائه وأغراضه التى تقذف به فى أعماق الجحيم ، وفى عبادة أقذر شخص . وقد تقدم تعريف العبادة التى ندعو اليها فى مقدمة هذا الـكتاب

لقد كبر على المشركين اتباع هذا النظام الجبار الالهى ، واستعمال هـــذا السلاح القوى الذى لا يغلب ولا يقهر من أول الدنيا الى آخرها ، فالاستكبار عن طاعة الله وتقواه والتمرد عن ذلك هو خلق جميع الأولـــين المعارضين للرسل ، فالمتبعون لهم هم الرجعيون الذين استمسكوا بخيوط هـذا القـديم المرذول الذى حاربه الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم ، والرجعيون هم هؤلاء الذين اتبعوا أسلافهم فى هذه الأخلاق القديمة المشئومة واسترسلوا فى الانقياد

لها . كبر على المشركين ومن سار خلفهم ما دعاهم اليه المرسلون من عبادة الله تعالى وإقامة الوجه له والاعتصام بحبله والاعتماد عليه ، ولكن صغر عليهم اتباع قوانين أكفر خلق الله وأجرمهم وأقبحهم والتعبد بها وجعلها أغلالا فى أعناقهم وقيودا فى أرجلهم . صغر ذلك عليهم لان نفوسهم المنحطة انحطت الى هذا الدرك السحيق فهان عليها الهبوط والقنوط بعد أن كبر عليها النجاح والنجاة . فعبادة الله تعالى وحده والاعتماد عليه واتباع نظامه هو أساس كل لذة فرح وحياة فى الدنيا والآخرة

وهذا المغرور لما كان من أعظم المشاكسين لهذا النظام الالهى حرص كل الحرص وبذل جهده فى إحياء آثار المشركين الأولين وتحسين أخلاقهم فى رفض الأديان والتخلص منها فهو رجعى خبيث صريح الى حدّ بعيد ، فلهذا حرج صدره من هذه العبادات التى أمرت الشرائع الإلهيه بها ، ولا سيما روحها وأصلها وهو الدعاء الذى دعت اليه جميع الرسل ، وسفه رأى من فعله ومن جاء به . ضاق صدره بذلك وتضايق منه حتى ادعى مجاهرة بأنه ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأنه مصرف خبيث ، بعد أن قـــرر أنه أشرف أنواع العبادة ، وأن كونه عبادة مما لا خلاف فيه ، ولا يقبل فيه جدال ، فقد ضاق صدره وكبر عليه ما دعت اليه الرسل من اتباع ذلك النظام العظيم فلهذا سخطه ومقته وكرهه أعظم الكراهة والسخط والمقت ، فقام الخلاف بيننا وبينه فى ذلك أعظم القيام ، فما أشبه حاله بمن قال الله فيهم ﴿ ان الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم ذلك بانهم قالوا للذين كرهوا ما أنزل الله سنطيعكم فى بعض الامر والله يعلم أسرارهم فكيف إذا توفتهم الملئكة يضربون وجوههم وأدبارهم ذلك بأنهم ابتغوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ، أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ﴾ فان هذا المغرور ارتد وكره ما أنزل الله

وعاداه وحاربه وصدّ عنه واتبع ما أسخط الله من الإلحاد والنفاق وكره رضوانه من الدين والإيمان ، وقد حبط عمله الذى سعى فيه وأخرج ضغينته فى بغض الاسلام ومقت أهله ، فكانت دعايته معاكسة لدعاية جميع المرسلين وأتباعهم من المصلحين ، ثم هو مع هذا فى غاية الطاعة العمياء والخضوع المرذول للملاحدة واليهود ومن سلك سبيلهم من المنافقين الذين يرون الحوادث كلها منوطة بنواميس الطبيعة ، وأن مشيئة الله وإرادته تعالى لا دخل لها فى شىء من ذلك ، ولهذا فانه هجر المشيئة العليا هجرا قبيحا فلم يسند اليها شيئا من الحوادث الخيرية مطلقا ، ولم يذكرها إلا فى معرض الذم فى أغلاله كلها

وبالجملة فجميع ما قرره هو عين ما جادل به خصوم الأنبياء والمصلحين ، وانه هو الذى تبعهم واقتفى آثارهم ، ولكل قوم وارث

فصل

قال « فالناس بل الخلائق كلها فى حكم هذه السنن والأوامر والأحكام والعدل والقضاء سواء ، لا محاباة ولا وساطة ولا شفاعة تنفع لديها »

فيقال هذا كلام مجمل قد عرّفنا مغزاه فيما شرحناه قريبا ، ومقتضى هذا أن بنى آدم والكلاب والحمير والحشرات وغيرها سواء فى هذه الأحكام ، لانه عمم الخلائق كلها بصريح كلامه ، وقد سبق الكلام فى معنى المحاباة ، وأما الوساطة فهو لم يبين مراده بها ، فانها تطلق على ما يقصده المشركون من عبادة الأوثان والقبور والصالحين ، فان عنى هذا فهو حجة عليه ، لان خصومه لا يجوّزون هذا ، وهو قد ذهب اليه حينما فارق الاسلام ، لأنه جوّز التوكل والاعتماد على الأسباب المادية ودعا الى ذلك وادعى أن كل ما فى الوجود هو من هذه الأسباب المادية كما يأتى ، ولأنه ادعى فيما سبق بأننا إذا أردنا أن نعظم الله فعلينا أن نعظم مخلوقاته وتعظيمها تعظيم له ، ولأن المشركين ما عبدوا هذه الأسباب المادية إلا لأنهم رأوا فيها مثل رأى هذا فيها بأنها أسباب توصل الى

نتائجها فتوكلوا عليها وعلقوا عليها كل آمالهم إما باعتقاد وساطتها أو لذاتها ، فهم توجهوا اليها واعتمدوا عليها وهذا هو روح عبادتها . وان عنى أنه لاوساطة بين الخلق والخالق فى الرسالة والتبليغ فليصرح به ولا يخادع أحيانا فى نفيه ، وحينئذ يعرف جوابه . وأما الشفاعة فقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة المتواترة شفاعة النبي ﷺ يوم القيمة فى الموقف العظيم ، وكذلك قد صح فى الأخبار أن الانبياء والمؤمنين يشفعون لأهل التوحيد ، وكذلك ثبت شفاعة الأطفال ، وبالجملة فجميع ما يفعله المشركون من خرافات ـ كالاعتماد على الأسباب المادية على اختلاف أنواعها من حيوانات وجمادات ، والتوجه اليها ، وتعليق التمائم والطلاسم ونحو ذلك ـ فانه عين ما يدعو اليه ، ولهذا ادعى فيما يأتى فى بحث التوكل أن معناه أى التوكل شرعا هو الاعتماد على الأسباب وطلب العز والمجد من مواهبها واستعدادها ، ومعلوم أن المشركين الذين يلجأون الى المخلوقات ويعبدونها لم يفعلوا ذلك عبثا فانهم قاتلوا عنها وأراقوا دماءهم وأتلفوا أموالهم من أجلها ، وانما فعلوا ما فعلوه من الاعتماد عليها وعبادتها من أجل اعتقادهم فى مواهبها واستعداداتها وأن بها قوى ومواهب توصل الى النتائج المطلوبة منها ، إما لذاتها وإما بوساطتها كما تقدم ، وسيأتى قوله بان « كل ما فى هذا الوجود هو من أسباب الله ، والشاكون فيها هم فى الحقيقة شاكون فى الله الخ » فصارت هذه الطلاسم والتمائم وغيرها من الأسباب ، ومن شك فيها فقد شك فى الله على ما يقول ، ولا سيما فان هؤلاء الذين يستعملون هــــذه الأمور يدعون أنهم قد جربوها وعرفوا فائدتها ومنفعتها ، فكان اعتمادهم مبنيا على التجارب الطبيعية لا على الدين ، وهكذا كل أفعال الملاحدة فى الأسباب المادية هو مبنى على التجارب ، والانسان مجبول على التوجه والطلب من غيره ، إما إلى خالق وإما الى مخلوق ، لضرورة افتقاره . والمخلوق بلا ريب مفتقر مثله ، فلا بد من الانتهاء الى الخالق الغنى عن كل ما سواه ، فالمتوجه الى الخالق هو الموحد والمتوجه الى المخلوق هو المشرك والملحد ومن فى معناه ، فانه

الملحد وثنى لانه عبد الأسباب الطبيعية وكل هذا يضاد جميع ما دعت اليه الرسل من أولهم الى آخرهم فى قولهم لقومهم ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾ وأمثالها من الآيات

فصل

قال « وقد نص الكتاب على هذه المسألة نصا قطع كل خلاف حيث قال من سورة فاطر ﴿ فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ نفى أن تبدل السنة ، فأمكن أن يقول قائل انها وان كانت لا تبدل ـ والتبديل هو التغيير ـ إلا أنها تحول عن طريقها ، والتحويل هو الصرف عن القصد والجهة ، فنفى هذه أيضا فهى لا تتغير بل تجرى على وتيرة واحدة أزلا وأبدا ، ولا تصرف عن سبيلها بل تمضى فيها غير مبالية بمن هلك ولا بمن نجا »

فيقال : هذا حجة عليك أيضا ، لأنك لم ترض بسنة الله هذه التى لن تبدل ولن تحول ، ولم تطلب نفسك بهذه السنة ولم تقطع خلافك ، بل بذلت كل ما فى وسعك فى الحصول على تبديلها وتحويلها ، ولكن لن تجد لسنة الله تبديلا وان تجد لسنة الله تحويلا ، فان الكتاب العزيز قد نص على هذه المسألة نصا قطع لسان كل معاند ومعاكس للدين ، ولكنك أبيت أن تقبل ذلك فأثرت غبار الجدل والعناد والمشاكسة والمعاكسة فى تبديلها وتحويلها ، فان سنة الله التى قد خلت فى عباده أنه تعالى لا يجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ولا يجعل المتقين كالفجار ، وأنت عاكست هذه السنة التى هى أوضح من الشمس ، فادعيت جهارا أن عدل الله هو التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وأن حل نتائج هذا الكون يستوى فيه المسلم والكافر ، وأنه كالمسألة الرياضية ، وأنه اذا تحارب اثنان فالله مع أقواهما ، ومن سنة الله التى خلت فى عباده أن التقوى والعمل الصالح سبب فى نيل العز والمجد والتقدم والنصر والسيادة كما قال تعالى ﴿ ولو

أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ وقال تعالى ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ وقال تعالى ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ ولكن أبيت أن تقبل ذلك فأردت تبديل هذه السنة وتحويلها ، وادعيت أن الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد وأنها ليست سببا فى التقدم فى الدنيا بل هى ضعف وانحطاط ، ومن سنة الله التى لا تبدل ولا تحول أن الدعاء وعبادة الله والمحافظة على الصلوات فى المساجد وذكره تعالى كل ذلك له أعظم الأثر فى الحصول على خيرات الدنيا والآخرة ، فكرهت ذلك ومقته وسخطته وضاقت به نفسك فادعيت أن الدعاء ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن المساجد والمنابر أدت شر ما يؤدى ، وأن رضاء الله وسخطه لا دخل لهما فى الأسباب والمسببات أصلا ، إلى غير ذلك من المعاندة لسنة الله التى لن تبدل ولن تحول

وينبغى أن يعلم أنه ليس المراد بهذه الآية وأمثالها فى السنن التى لا تبدل أنها الأسباب الطبيعية المادية ، فان تحويل هذه وتبديلها أمر معلوم بالشرع والعقل والحس والضرورة ، فما التطور والزيادة والنقص وانقلاب العناصر الى عناصر أخرى إلا تحول فى الأسباب ، وحديث تأبير النخل صريح واضح فى أن علاقه الأسباب بمسبباتها ليست سنة حتمية بل من الجائز أن تبدل وأن تحول ، ولهذا قال عليه السلام « ما أظن ذلك يغنى شيئا » فتركوا التلقيح ، فدل هذا على أن هذه الأسباب ليست من السنن التى لا تبديل لها ولا تحويل ، بل إن وقوع ذلك جائز لا محتم ، إذ من المحال أن يخفى على النبى ﷺ حكم هذه السنة بأنها لا تبديل لها ثم يجوّز تبديلها وتحويلها ويوافقه هؤلاء الصحابة ، ثم لما ظهر الأمر بخلاف الظن لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار ، بل دل ذلك على أن وقوع هذا جائز لا واجب ، والجائز يمكن وجوده وعدمه ، فلهذا وقع أحد الطرفين وهو عدم التخلف ، ووقوع أحد الطرفين لا يقتضى استحالة وقوع

الطرف الآخر ، فعلة الترجيح ليست حتمية ، فكثير من الأشجار لا يؤثر فيه التلقيح ، بل يوجد فى النخل نفسه مالا يؤثر فيه التلقيح أصلا كما شاهدناه ، فالوقوع دل على الجواز فقط ، ولكن الذى يجب أن يعلم هو أن المراد بالسنن التى لا تبديل لها ولا تحويل هو أصل نظامه الدينى وما يترتب عليه من النظام الكونى ككون العقوبات لا بد أن تحل بأهل الكفر والمعاصى ، وأن العواقب الحميدة لأهل الدين والتقوى ومجازاة المحسن بالإحسان والمسىء بالسوء ، وأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليسوا كالمفسدين فى الأرض ، وأن المتقين ليسوا كالفجار لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، بل لا بد أن يظهر جزاء هؤلاء وهؤلاء فى الدنيا كما يظهر جزاؤهم فى الآخرة ، وهذا ظاهر جدا من سياق هذه الآية ونظائرها ، فان الله تعالى يذكر هذه السنن بعد ذكره لعقوبة العاصى واثابة المطيع كما قال تعالى فى سورة فاطر فى هذه الآية ﴿ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء إلا باهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴾ فتأمل هذا السياق فانه تعالى بين أن هؤلاء المكذبين للرسول عليه السلام استكبروا عن اتباعه بعد أن أقسموا أيمانا مؤكدة إن جاءهم نذير ليتبعونه وينقادون له انقيادا تاما ، فلما أن حصل لهم ما أقسموا عليه نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى الدين ونفروا واستكبروا وعملوا ضده مكرا سيئا ، ولكن عاد مكرهم عليهم لأنهم فعلوا كما فعل أسلافهم من أعداء الرسل فى الاستكبار والنفور والمكر ، كما قال تعالى ﴿ ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾ ولكن هؤلاء ما ينظرون بعد هذا المكر الذى يريدون به إزالة الحق واطفاء نوره إلا سنة الأولين وهى حلول النقمة بالمكذبين ، وان المكر السيء لا يحيق إلا بأهله فينقلب عليهم مكرهم ، وان هذه السنة فى الأولين ستجرى فى الآخرين الى يوم القيمة لأنها سنة لا تبديل لها ولا

تحويل . وكذلك قال فى سورة غافر ﴿ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾ فتأمل هذا السياق فانه تعالى أخبر أن خصوم الرسل لما جاءتهم رسلهم بالبينات أى البراهين الظاهرة على صدق رسالتهم استكبروا عن اتباعهم وعن قبول البينات التى جاءوا بها . لماذا . لأنهم عرفوا شيئا من أمور الدنيا فاعجبوا بهذا العلم والمعرفة التى حصلوا عليها وظنوا أن مواهبهم وأسبابهم المادية ستوصلهم الى كل ما يريدون . وردوا بينات الرسل لأنهم رأوها تتعارض مع ما عندهم من العلم ، وأنها لا توصلهم الى آمالهم ، وهذا عين ما عليه ملاحدة اليوم وفروخهم ونظراؤهم الذين أعجبوا بهم وبآرائهم المخالفة للأديان معتقدين أنها أكبر وأعظم وأقوى من علوم الدين ، والآية صريحة جدا فى أن أعداء الرسل معهم شىء من العلم وأنهم مع هذا ليسوا علماء بل يطلق عليهم القول بأنهم لا يعلمون كما أطلقه الله ورسوله وأولو العلم من خلقه ، ولهذا بين أن علمهم هذا لم ينفعهم بل هو كالجهل بل أضر ، وقد قيد الله هذا العلم باضافته اليهم ، فقوله « بما عندهم من العلم » بمنزلة فرحوا بعلمهم أى بهذه المعرفة التى عندهم ، وهى علوم دنيوية محضة ، وفى هذا أيضا دليل على أن من العلم ما هو ضرر [1] وأنه ليس كل علم نافعا ، بل العلم شىء والانتفاع به شىء آخر ، وقوله تعالى ﴿ وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ برهان قاطع على أن أعداء الانبياء كانوا يحتقرون الأمور الدينية وأهلها ويستهزئون بها ويضحكون منها ويرون أنها خمول وضعف وأن أهلها ضعفاء عقول وآراء وأفكار ، وهذا عين ما يفعله زنادقة هذا العصر

(١) وهو يبطل ما ادعاه فيما سبق مراراً من أنه لا يوجد علم ضار بل كل علم نافع كما تقدم

وملاحدتهم الذين شمخوا بأنوفهم المرغمة عن التعاليم السماوية واحتقروها ورأوا أنها ليس فيها كفاية للقيام بجميع المصالح الدينية والدنيوية ، ولهذا حاق بالمستهزئين بالدين ما كانوا به يستهزئون ، كما حاق بأسلافهم استهزاؤهم الويل .

وقوله تعالى ﴿ فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ الى آخر الآية فيه دليل واضح على أن هؤلاء الذين خالفوا الرسول لم يؤمنوا بالله وحده إيمانا صادقا خالصا ، بل آمنوا بمخلوقات معه ـ من أسباب مادية وغير مادية ـ فاعتمدوا عليها وتوجهوا اليها وتحاكموا اليها ، وهذه كقوله تعالى ﴿ واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا . فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله ان أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ﴾ فهؤلاء لما أصابتهم المصيبة الماحقة بما قدمت أيديهم من التحاكم الى الطاغوت وعدم الإيمان بالله وحده ـ إذ الايمان به وحده يستلزم تحكيم شرعه وحده ـ قالوا حينما مسهم العذاب ورأوا أن القوة لله جميعا متنصلين من علمهم واستهزائهم ﴿ آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ﴾ أى تبرأنا من هذا الإشراك به والاستهزاء الذى صدر منا لأنهم علموا أن ذلك العلم الذى كان عندهم هو الذى حملهم على عدم الايمان بالله وحده ، وحملهم على الاستهزاء بدينه وشرعه ، لأنهم كانوا معجبين به ظانين أن فيه الكفاية ، وأنه حقائق لا بد من التمسك بها . قال تعالى ﴿ فلم يك ينفعهم إيمانهم ﴾ هذا لأنه فات وقته ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده ﴾ أى هذا الذى أصاب هؤلاء من الانتقام بسبب الاستهزاء وعدم قبول الايمان بعد حلول العذاب سنة الله التى فرضها على عباده ، فلا تبديل لها ولا تحويل. ﴿ وخسر هنالك الكافرون ﴾ فكان ذلك العلم الذى فرحوا به وظنو أن فيه التقدم والعز والرقى والمجد ما حصل منه سوى نقيض ما ظنوه فيه فكان موجبة للخسارة السرمدية والعذاب المقيم

وقال تعالى فى سورة الاحزاب ﴿ان الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله فى الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذابا أليما . والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا . يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما . لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا . ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فتأمل هذه الآيات حق التأمل من أولها لآخرها تجدها فى النظام الدينى ، وهى الأخبار بأنه تعالى لا بد أن ينتقم من المنافقين والزنادقة الذين يحادون الله ورسوله ويؤذون المؤمنين بانواع الأذى ويرجفون بهم ويخذلونهم ، فهولاء المنافقون الذين على هذه الحالة قد حكم الله عليهم بأنهم ملعونون أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا . وان هذه اللعنة وهذا العقاب الذى حكم به على هؤلاء المنافقين الذين يؤذون المؤمنين بأنواع الأذى ـ كالاستهزاء والسخرية والبهت والتزوير وغير ذلك ـ سنة الله المطردة فى الذين خلوا من قبل فلا بد أن تتناول هؤلاء لأنها سنة ماضية لا تبدل ولا تحول ، وأثر هذه السنة القاهرة ظاهر يعرفه كل ذى بصيرة من دينه فلا تجد منافقا ـ ونعنى بالنفاق هنا النفاق الدينى الاعتقادى [1] ـ إلا ظهرت عليه آثار هذه اللعنة

---

(١) ان النفاق الاعتقادى هو الذى نذمه فى هذا الكتاب كما هنا ، فأصل الشر والفساد هو المنافق مع الله ، كأن يتظاهر الانسان بالاسلام ولكنه يزدرى تعاليم الدين وأهلها ، ويرى أنها ليس فيها كفاءة ، وأن من أخذ بها كان ناقصا ضعيفا ، وأن التحاكم الى القوانين المضادة للدين أقرب الى السياسة وأحسن للمجتمع ، وأمثال هذا ، فهذا شر النفاق لأنه اتهام لله ودينه ، ومحادة ظاهرة لما أنزله وأمر باتباعه ، وهو ضد الصدق والاخلاص فى معاملة الله تعالى ومحبته ومحبة دينه وما يقرب اليه

فتجده قد قمه الله وأحبط آماله وأعماله وطمع فيه أعـدى عدو له ، فتجده يلتمس وليـا ونصيرا فلا يجد وليـا ولا نصيرا لانه أساء الظن بالله وسبه غاية السب ، اذ جعل ظاهر كلامه لا يفيد اليقين ، وحرف صفاته التى وصف بهـا نفسه ، وسماها حوادث وأعراضا ، فتحيل عليها بقلب أسمائها من الصفات الى الحوادث ثم قال هو منزه عن الحوادث أى مـنزه عن الصفات ، فنفى كلامـه وعلوه على عرشه وحكمته ورحمته وغضبه وغير ذلك ، ثم أساء الظن به فذهب يعبد معه غيره ، فلم ير أنه أرحم الراحمين : أرحم من الوالدة بولدهـا ، بل ذهب يدعو غـيره ويستغيث به فى الشدائد التى لا يقدر عليها إلا هو ، ويلجأ الى مخلوقاته فى إغاثة اللهفات وسد الحـاجات ، ثم ازدرى كتابه الذى جعله نورا وروحا وهـــدى ورحمة وبصائر واحتقره فرآه ظلمة وخمولا وضعفا وضلالا بحيث لو اتبعه وانقاد له لكان ضعيفا خامـلا متأخرا منحطا لا يمكن أن يبلغ المجـد . لا شك أن من هـذه حاله فهو كالجسم الذى أصيب بأنواع الأمراض والقروح والجروح وسائر الأسقام المستعصية ، فجسم هـذه حاله كيف يستطيع أن يدفع عن نفسه عدوه ، وكيف ينال القوة . وهذه الأسقام قد وقفت فى وجه القوة . جسم هذه حاله أنى له الحياة وأنى له النجاة ، لأن هذه الأمراض كلها بأسباب الأخـلاط والطوارىء الغريبة التى لا تلائم ذلك الجسم الذى نبت على تلك الروح الطاهرة التى لا يغذى جسمها ويقويه إلا مـا يناسب تلك الروح التى نبت عليها ذلك الجسم ، فهؤلاء المنافقون الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا لا بد أن يسلط الله عليهم من هو أقوى منهم وأقدر فيستضعفهم ويؤذيهم ويضع لهم العراقيل فى كل مطالبهم وآمالهم فلا يستحصلون الا عـلى ضد ما قصدوه ، وقال تعالى ﴿ قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾ وقد بين سبحانه أن سنته فى الأولين هى هلاك كل من خالف الرسل واستكبر عن طاعة الله تعالى كما قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم

بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ فأخبر أن النصر لا بد أن يستصحب المؤمنين ، وأن الهزيمة لا بد أن تكون للكافرين ، وأن هذه سنة الله التى قد خلت من قبل وأنها لا تبدل ولا تغير ، ولكن الشأن فى تحقيق الايمان وتخليصه من شوائب النفاق وشعب الكفر التى انغمس فيها أكثر الناس ، فالآية صريحة فى عدم مساواة المؤمنين والكافرين ، وأن النصر لا بد أن يكون مع الدين والتقوى كما قال ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فتأمل هذه الآيات كلها وما فى معناها هل فيها ما يدل على مسألة الأسباب المادية وأنها لا تبدل ولا تغير حتى يستدل بها على مقصوده ، وانما هى كلها حجة عليه كما هو ظاهر ، ولكن هذه هى عادته فى قلب الحقائق والخداع والتمويه فى الاستدلال بها ، وهيهات أنى يتفق الايمان والكفر

شتان بين الحالتين فمن يرد جمعا فما الضدان يجتمعان

فصل

ثم ذكر الكسوف وقوله ﷺ « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » ثم قال بعد سياق الحديث : « وهذا رد صريح قوى للقول بأن حوادث هذا الوجود معللة بما يصيب اهل الارض من خير وشر ، وبما يحدث لهم وبما يحدثون هم »

فنقول : هذا ممنوع بل باطل ، فان النبى ﷺ لم ينف فى الحديث إلا التعليل بالموت والحياة فقط ، وليس الموت والحياة كالكفر والمعاصى ، فلا يصح قياس أحدهما على الآخر ، وانت عممت الدعوى فجعلت الحوادث كلها لا أثر لحوادث الخلق فيها من خير وشر ، وهذا كذب على الحديث ورد

لنصوص السنة الكثيرة ، قال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وقال تعالى ﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون ﴾ ومعلوم بالضرورة فى دين الاسلام أن العقوبات التى حلت بالأمم التى أخبر الله عنها أنها بأسباب ذنوبهم كما قال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وذلك كالعقوبات التى أصابت قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم ممن ذكر الله فى كتابه ، فان تلك العقوبات كلها حوادث كونية سببها مخالفة الأسباب الدينية وعدم الأخذ بها . وقال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ الى غير ذلك من النصوص التى لا تحصى . وكذلك الطاعات لها أثر كبير فى البركات وحصول الخيرات كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾ وأمثال ذلك من النصوص الكثيرة . وقد شرع الله صلاة الاستسقاء سببا لنزول المطر ، ولا يزال أثرها ظاهرا عند كل من لم تعم الشكوك والشبهات قلبه . وكذلك شرع الدعاء والصدقة والصلاة وغيرها وجعلها أسبابا لخيرات كثيرة . ولا يرتاب فى ذلك إلا من يرتاب فى دينه

ولعل وجه ضلال هذا المسكين هنا هو أنه ظن أن معرفة سبب الكسوف على الوجه المعروف فى علم الهيئة ينفى أن يكون معللا بذنوب ونحوها ، وما علم المغرور أن معرفة سبب حدوث الشىء لا يمنع أن يكون حدوث ذلك الشىء منذرا بوقوع بلاء ، فان المطر يعرف أنه مخلوق فى السحاب وقد تعرفه مادة السحاب التى يخلق منها ، ومع هذا فقد يقع عقوبة ، لكن من أين يعرفه

مقدار ذلك السحاب وكيفية نزوله وكيفية الحوادث المترتبة عليه ، فلا يمتنع من أن يكون حدوث الحوادث المهلكة بسبب الذنوب ، لأن غاية ما لدى من ينكر هذا هو ادعاؤه معرفة المادة التي خلق منها فقط ، لكن من أين يعرف سبب المادة وسبب سببها بالاحاطة التامة ، فان هذا غير ممكن . وعقوبات المعاصى أنواع ، منها ما يقع بغتة ، ومنها ما يكون لوقوعه علامات وأمارات ظاهرة أو خفية ، وهذا يشمل أنواعا كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، وقد نص النبي ﷺ فى هذا الحديث الذى فى الكسوف بأنه من المظاهر التى يخوف الله بها عباده فقال عليه السلام « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فافزعوا الى الصلاة » وقال فيه « يخوف الله بهما عباده » ثم قال : انه لا أحد أغير من الله أيزنى عبده أو تزنى أمته . يا أمة محمد ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا . . الحديث . وهذا صريح فى أن للكسوف أثرا فى الحوادث ، اذ لو لم يكن له علاقة بعقوبة ونحوها لم يكن للتخويف هنا والوعظ والأمر بالتوبة والفزع الى الصلاة والذكر والدعاء معنى . وقد ذكر العلماء كلهم من جميع المذاهب أن ذلك مظهر من مظاهر التخويف التى تنذر بحلول عقوبة . وذكر بعض المحققين أن ذكر الزنا فى هذا الحديث لخاصة فيه وهو أنه يكسف نور البصيرة . ويكون سببا لظلمة القلب ، وهذا صحيح بالاستقراء ، ويعرف صدق هذا من كراهة صاحب الزنا لمهابط الوحى وسماع القرآن ونفوره من مجالس الطاعات والأمور الدينية كالصلاة والذكر والتسبيح والتحميد ، لأن هذه هى مصادر الأنوار والقوة الروحية ، فظلمة القلب تضادها ، قال تعالى ﴿ ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾ ولهذا تجد صاحب هذه الفاحشة شديد الميل الى حب الملاهى والمنكرات والفواحش فهو يأنس بها ويرتاح اليها ويجد فيها سروره وشفاءه وراحة ضميره ، فنور الأمور الدينية لا يتفق مع ظلمة هذه الذنوب وظلمة

قلب صاحبها . فهذا المغرور اقتصر على ذكر الموت والحياة فى ذكر الحديث وترك ذكر التخويف وذكر الزنا وما بعده ، لانه يناقض مقصوده ، وهذه هى عادته كما سبق مرارا

والمقصود أن معرفة سبب حدوث شيء من الأمور الكونية لا ينفى أن يكون حدوث ذلك الشيء عقوبة أو رحمة كما تقدم فى السحاب وهو يقع رحمة وقد يقع عقوبة وسببه الذى يتكون منه واحد ، وكذلك الريح وغير ذلك ، بل أكثر الأسباب المادية مشتملة على الخير والشر ، ولا يخفى على مسلم أن غرضه من هذا كله هو جعل الحوادث كلها مستندة الى الطبيعة لا دخل للمشيئة الربانية فيها كما تقدم

ثم قال « وقد اذكرنى هذا الموقف النبوى الخالد بصديق تقى يحمل شهادة عالية سمعته يزعم أن البراكين والزلازل التى تحدث فى بعض البلاد إنما تحدث من فساد الناس وفسقهم ، قال هذا بمناسبة زلزال شديد أصاب بعض البلاد الاسلامية . فقلت له : هذا يشبه الزعم أن جدب بعض البلاد وشدة الحر والبرد فى جهات أخرى وغير ذلك من الفياضانات والصواعق والأمطار الضارة معللة هذا التعليل ومقصود بها هذا الغرض »

فيقال : لكن لم تذكر ما أجابك به هذا الصديق التقى ـ إن صدقت ـ ولم تذكر أنه سكت ، ولعله لما علم أنك زنديق أحمق وأن هذه المعارضة التى ذكرتها هراء لا قيمة له خطر على باله قول القائل :

ما كل نطق له جواب جواب ما يكره السكوت

ففضل جانب السكوت لهذا المعنى ، وإلا ففى إمكانه أن يلقمك الحجر ويقول لك على وجه المعارضة : وزعمك أنت أيضا هذا يشبه الزعم بأن الريح العقيم التى أصابت قوم هود والغرق الذى أصاب قوم نوح ، والصيحة التى أصابت قوم صالح ، والخسف الذى أصاب قوم لوط ، وقارون وماله ،

والغرق الذى هلك به فرعون وقومه ، والسجيل الذى أصاب أصحاب الفيل ، وأمثال ذلك ليس هو بسبب كفرهم وفسقهم ومعصية رسلهم ، وان المعاصى لا أثر لها فى ذلك ، وانما هى حوادث طبيعية ، فان كذبت بوقوع هذه الحوادث الكبرى الشهيرة كابرت وكفرت جهرا وخسرت النفاق والخداع والزندقة وهى بضاعتك التى تعيش بها وتلجأ اليها ، وانقطعت حجتك فى ادعائك الاسلام ، وإن أقررت بصدق وقوعها بطل اعتراضك والقمت الحجر وهو أحسن شىء تلقم به

وفى إمكانه أيضا أن يدحرك ويبطل اعتراضك على وجه النقض فيقول : تشبيهك الزلازل بالجدب باطل ، كما أن تشبيهك الزلازل والجدب بالكسوف أبطل منه ، وأبطل من الجميع تشبيهك هذه الأمور بالحر والبرد فى بعض المواضع ، فكل هذا سخف وهذيان بارد ، ولو كان سفيها مثله لأمكنه أيضا أن يغرقه بسخف وهذيان أكثر منه ، لأن مثل هذا القول لا يعجز عنه كل سفيه ترك العقل جانبا ، فان الزلازل والجدب والصواعق ونحوها حوادث لا تنضبط أوقاتها وآثارها الناتجه عنها ، وهى تصيب مباشرة ، بخلاف الكسوف ، وأما حصول الحر والبرد فى أماكنها الطبيعية فلا يقال لها حوادث كبرى إلا اذا وجد شىء من ذلك بخلاف العادة المطردة فتكون حوادث نسبية ، فان الأقاليم الباردة وكذلك المناطق الحارة كالمناطق التى يطول فيها الليل ويقصر فيها النهار على سنة مطردة أو تكون معدومة الثبات لأسباب طبيعية معروفة فمن جعل حوادث الكون سواء فهو مصاب فى عقله

وأما الجدب والزلازل الحادثة وإصابة الصواعق ونحو ذلك فهذه مع كونها حوادث تقع غالبا من غير أن يشعر بقرب وقتها أحد فتهلك أمما وأناسا كثيرا ممن فسقوا وطغوا ، وقد علم ذلك علما قطعيا لا ريب فيه ، إذ لو كانت هذه الحوادث مما تعلم أوقات حدوثها لهرب الناس من مواضعها ولم

تقع غالبا فجأة . وقد نص القرآن على أن الله قد أوقع هذه الأمور عقوبة على المعاصى كما قال تعالى ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴾ وقال تعالى ﴿ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال ﴾ وقال تعالى ﴿ فخسفنا به وبداره الأرض ﴾ ، ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ وهذه نصوص واضحة

ولعل ضلاله هنا كضلاله السابق ، وهو أنه ظن أن الزلازل اذا كانت لها أسباب معروفة كانحصار الابخرة النارية فى الارض فهذا يمنع من أن تكون سببا من أسباب المعاصى ، وهذا مما يدل على طمس قلبه ، وقد قدمنا الجواب عن مثل هذا ، فان أكثر المصائب والعقوبات لها أسباب معروفة بالمشاهدة ، ولكن الله يعاقب بالأسباب ويعاقب بمسبباتها فيخلق المصيبة بأسبابها ويعذب بها من يشاء[1] ومعلوم أن الدول التى تصاب بالتدمير والتقتيل والجوع والعرى من أعدائها هى معاقبة بسبب ذنوبها التى منها افتتانهم بهذه الأسباب التى عذبوا بها [2] ولا يقال ولم لم تصب الدول الكافرة التى عذبت غيرها من جنس ما أصيبت به المعذبة ، فانا نقول هذا السؤال يفضى الى أن يقال ولم لا يقطع الله

---

(١) كما أن الموت يحدث بوجود قطع الحلقوم ، أو إفساد الجسم ، فيحدث بذلك فراق الروح ، وهذا لا يمنع أن يكون هذا الموت مقدرا من الله ، وأن لهذا القتل أسبابا خلقية هى أسبابها الاولية ، فان الانسان قد يعصى الله فيسلط عليه من يعذبه أو يقتله ويسلبه ماله ونحو ذلك . ووجود هذا السبب المادى لا يمنع أن يكون مسببا عن معصية ، فان المعاصى أشر جميع الشرور فى الدنيا

(٢) كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك اموالهم وأولادهم انما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

الكفر من الأرض ويفنيه منها ، وهذا سؤال باطل ، فان وجود الكفر أمر لا بد منه ، وقد قال تعالى ﴿ وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ﴾ وقال ﴿ وان الظالمين بعضهم أولياء بعض ﴾ فلا بد من وقوع تصديق هذه الآيات ولأن معاقبة المنحرف باستيلاء الكافر عليه أعظم وأشنع ، لأن فى ذلك تعذيبا له بجنس الأسباب التى فتن بها عن دينه ، فان أكثر الكفار إنما كفروا بسبب الأسباب التى أخذوها عن هؤلاء الكفار الذين عذبوا بهم فان أكثرهم قدموا آراءهم وأفكارهم على دين الله ونظامه وأطاعوهم واتبعوا أمرهم وعصوا الله وخالفوا أمره ، ولان استيلاءهم عليهم أعظم شناعة من استيلاء المؤمنين لكونهم أبعد عن الرحمة والعدل فيهم ولان ذلك مما يجلب البغضاء والعداوة والإحن الطويلة كما قال تعالى ﴿ فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيمة ﴾ وقد أخبر الله سبحانه أنه سلط بخت نصر على بنى إسرائيل لما أفسدوا فى الأرض وأنه سبحانه هو الذى بعثه عليهم بسبب فسقهم مع كونه من أكفر الكفار عقوبة لهم ، وهو سبحانه وإن سلط بعض الكافرين على بعض فلا بد أن ينقم منهم جميعا وكثيرا ما يديل الأمر عليهم فيجعل الغالب مغلوبا ويذيق بعضهم بأس بعض . وبالجملة فالعقوبات بأنواعها لا يحيط بعلمها الا الله تعالى ، كما أن شعب الكفر والفسوق كذلك متنوعة أنواعا لا تنضبط ، فمن أين لهذا الزائغ أن الأبخرة المنحصرة التى قد يحدث منها بعض الزلازل أن الله تعالى لم يخلقها ليعذب بها من شاء ، ومن أين له أنه سبحانه اذا شاء حبسها عن قوم وأطلقها على آخرين ، وإن شاء خففها وإن شاء جعلها نقمة على قوم بأن يهلك بها عدوهم ويجعلها نقمة على آخرين ، فغاية ما لديه أن بعض الناس يعرف سببها المادى فقط ، فأى شىء فيها ، فالقتل والحروب تعرف أسبابها المادية ، وكذلك الجوع وكثير من المصائب ، فمعرفة السبب شىء ومعرفة كونها قد تقع عقوبة شىء آخر ، ولو أن انسانا ظلم إنسانا آخر فدعا عليه المظلوم فسلط الله على الظالم من يعذبه ويقتله بافعال صدرت منه لم يكن علم هذا

السبب نافيا لأن يكون ما حل بهذا الظالم عقوبة له ، وقد علم بالضرورة والتاريخ الصادق أن الله تعالى لم يعذب أمة صالحة تقية قط ، ولم يعرف ذلك على كثرة المصائب والقرون الطويلة ، لا بزلزال ولا غيره كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾ وهذا بخلاف الأمم الكافرة فان المصائب متتابعة عليهم من أول الدنيا الى آخرها فلا يخرجون من عقوبة الا ليدخلوا فى عقوبة ، لأنهم لا يخرجون من ظلمة من ظلمات الكفر إلا دخلوا فى ظلمة كفر آخر ، فهم فى ريبهم وكفرهم يترددون

فما ذكره هذا المغرور فى هذا الاعتراض الأهوج على هذا الصديق التقى — كما يقول — إيراد ساقط ، ولو كان عاقلا لتأدب مع صديقه هذا ولم يقابله بهذه القحة والبذاءة ، مع أنه لم يقل إلا الحق مستندا إلى نصوص شرعية ، فهو لم يطلب منه الدليل بل عارضه بهذا الهذيان المنكر ، فهو مبتلى بالمشاكسة والمعاكسة ولا سيما مع أصدقائه ، وأما أعداؤه فهو أطوع لهم من الكلب المعلم . وكل هذه الدعاوى مبنية على أصله الخبيث من أن الطاعات والمعاصى لا أثر لها فى الحوادث كلها ، وهو مبنى على أصل الالحاد ، وقد تقدم الكلام على مثل هذا مرارا ويأتى الكلام على بقية ما يتعلق به

فصل

قال ومن اللفتات اللطيفة الصريحة الى هذه النواميس قصة تلقيح النخل ، وذلك أن الرسول لما قدم المدينة ورأى الناس يلقحون النخل قال « ما أظن ذلك يغنى شيئا » فتركوا التلقيح ففسد الثمر ، فأخبر ، فأمرهم بالرجوع الى ما كانوا يفعلون . ولو كان من الممكن الخروج عن السنن لخرج النخل عنها ولو هذه المرة ليكون ظن الرسول صدقا ، ولئلا يوجه اليه الخطأ فى مسئلة كهذه »

والجواب أن يقال : قد ذكر هذا المغرور قصة تلقيح النخل فى كتابه فى عدة مواضع ، وغرضه من ذلك الحث على رفض ما جاء به النبى ﷺ ، إذ ظن بعقله الفاسد أن هذا الحديث يفيد أنه عليه السلام لا يعرف سنن الله فى خلقه . وهذا الحديث من أبلغ الحجج عليه ، ولو سكت عنه لكان أستر له ، وذلك من وجوه :

أحدها أن هذا المغرور قرر فيما يأتى فى صحيفة ٢٧٩ من أغلاله أن الشاك فى أسباب الله هو فى الحقيقة شاك فى الله ، فقال وهذا لفظه « والشاكون فى أسباب الله – وكل مافى هذه الدنيا هو من أسباب الله – هم فى الحقيقة شاكون فى الله ، فان هذا الشك معناه الشك فى قدرته تعالى أن يجعلها أسبابا موصلة مبلغة » انتهى . فهذا تصريح جلى منه بأن من شك فى سبب من هذه الأسباب الموجودة فى هذا الوجود فقد شك فى الله ، ولا شك أن الشك فى الله كفر وخروج عن حظيرة الاسلام ، وحينئذ يقال لهذا الملحد : إما أن يكون الرسول ﷺ عارفا بسنة الله فى خلقه فى مثل هذا وأن التلقيح سبب فى صلاح الثمرة أو لا يكون عارفا بذلك ، فان كان عارفا بأن هذا سبب وسنة من سنن الله فقد جوّز كون السبب المادى يتخلف عن نتيجته ، وأن هذا ليس هو من سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ، فهو يرى تغيير هذا السبب جائزا فى سنة الله ، وأن الأسباب الطبيعية ليست هى سنن الله التى لا تبديل لها ولا تحويل ، وحينئذ فلا حجة لك فى كون الأسباب مربوطة بنتائجها ربطا حتميا يستحيل انقطاعه . وان كان يرى أن ذلك واجب وأنه لا يجوز الاعتقاد بأن الأسباب قد تتخلف عن نتائجها وأن الشك فى ذلك شك فى الله فقد طعنت فى الرسول عليه السلام وأصحابه الذين وافقوه وجعلتهم شاكين فى الله ، ولا ريب أن هذا كفر ظاهر . ثم هو لم يأمرهم بالتوبة والاستغفار لما وقع الأمر على خلاف ما ظنوا ، بل الحديث صريح فى أن الشك فى الأسباب المادية ليس

فيه شيء أصلا بل هو مباح فى مثل هذا . ومن أعجب العجب وأكفر الكفر أن يأتى هذا الملحد الى أكبر سبب فى الدنيا ـ وهو الدعاء وعبادة الله ـ فينفى سببيته وفائدته ، فلا يكتفى بالشك بل يجزم بعدم السببية ، ثم يعمد الى الأسباب المادية بجملتها ويجعل الشك فى شيء منها شكا فى الله وقدرته . فيابلعام زمانه هل تظن أن الرسول عليه السلام شاك فى ربه وقدرته تعالى وتقدس حتى قال لا أظن أن ذلك يغنى شيئا . واذا قيل انه يجهل ذلك قيل اذن هو جاهل فى الله وقدرته والجهل أعظم من الشك ، ثم اذا كان مثله يجهله فكيف يشنع على غيره وينسبهم الى الضلال وفساد العقل . واذا قيل قد وقع الأمر على خلاف ظنه قيل هذا حجة عليك لان وقوعه دليل على أن ذلك من الجائز الذى يمكن وقوعه ويمكن عدم وقوعه ، فان الظن أكثر ما يتأتى فى الجائز ، إذ لو وقع على ما ظن لعد ذلك معجزة فلا يكون ذلك ممكنا إلا بطريق المعجزة ، فعلمنا أن عدم وقوعه مع ظن الرسول عليه السلام فى حيز الامكان لا فى حيز الواجب ولا المستحيل ، وهذا ظاهر لاخفاء به كما تقدم التنبيه عليه

الوجه الثانى أنك قررت فيما مضى أن ضعف المسلمين وتأخرهم راجع الى شيء واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فاذا كان هذا هو علة التأخر عندك فعلى كلامك هذا أن الرسول وأصحابه جهلوا نواميس الطبيعة فى هذا الشيء الظاهر فى تلقيح النخل ، فكيف بما هو أدق منه . وقد علم أنه هو وأصحابه لم يتأخروا بل تقدموا على من سواهم ممن هم أعلم منهم فى بعض هذه الأمور الطبيعية والمادية فيكون الحديث حجة عليك لان الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ليس هو علة التأخر

الوجه الثالث أن الحديث نص صريح قاطع فى أن الرسول عليه السلام كان يرى أن الأسباب الطبيعية كلها تحت المشيئة والقدرة ، وأن النتيجة ليست لازمة للوسيلة لزوما حتميا ولا أن السبب لازم لسببه لزوما حتميا يستحيل

تخلفه ، اذ لو كان يرى رأى بعض مـلاحدة الطبائعيين الذين يرون أن ربط الأسباب بمسبباتها لازما ليس فى الامكان تخلفه وانفكاكه لم يظن هذا الظن إذ هو صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يظن بربه ما هو محال فى حقه تعـالى ، فلو كان دخول المشيئة العليا بين السبب ومسببه محـالا لم يخف عـلى الرسول عليه السلام ذلك فيظن بالله مالا يليق به ، وكون ذلك خالف ظنه دليل واضح على الجواز لان مثل الظن انما يقع على الجائز فوقوعه على خلاف ما ظن مما يبرهن على جوازه وهو المطلوب كما تقدم بيانه

الوجه الرابع أن الرسول ﷺ لم يأمرهم أمرا قطعيا ، إذ لو أمرهم بذلك أمرا شرعيا لوقع الأمر على ما أمر ، فانه لا يوجد فى الشريعة أنه أمرهم أمرا قطعيا فعملوا به واستقر فكانت النتيجة على خلاف ما أمرهم ، بخلاف الظن أو الرأى الذى ينص على أنه ظن أو رأى منه كما فى قصة الصلح الذى أراد أن يعقده فى وقعة الاحزاب فقال : انه رأى منى . وفرق ظاهر بين الأمر وبين الظن ، فان كلا منهما له حكم يترتب عليه أثره

الوجه الخامس أن الذين رووا هذا الحديث هم من الذين رووا أحاديث كثير من المعجزات وخوارق العـادات كانشقاق القمر وحنين الجـذع ونبع المـاء بين أصابع النبى ﷺ حتى أروى الجموع الـكثيرة من إناء واحد ونحو ذلك من الروايات الـكثيرة الصحيحة مما فيه تغير الأسباب العادية وقطعها عن مسبباتها ، وكذلك رووا حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » فمن أراد أن يكفر ببعض هـذه الروايات تبعا لهواه ويؤمن بما شاء منهـا انقيادا لغرضه وشهوته فلا شك أنه متلاعب بالدين ، وأنه يريد أن يكون شرع الله عـــلى وفق أغراضه وهواه ، وأن يكون هو المقدم فى الأمر دون الشارع الحـكيم ، ومثل هذا لا تقبل دعواه ولا يلتفت اليها مطلقا

وينبغى أن يعلم هـا هنا أن كثيرا من الزنادقة حينما يحـاولون التملص من

نظام الشرع وتحكيمه فى الأمور الدينية التى وردت فيها النصوص يجعلون هذا الحديث عـذرا لهم فى التخلص منها فيقول قائلهم حينما تخنقه الحجة الشرعية ويتضايق من مدلولها بالنص : قد ورد فى الحديث أن النبى ﷺ قال « أنتم أعلم بأمر دنياكم » وهذا الاحتجاج من جنس من يحتج على جواز تزويج المعتدة وغيرها ممن يحرم تزويجها بقوله تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء ﴾ ويعرض عن النصوص الأخرى ، ومثل من يحتج على أكل الربا بقوله تعالى ﴿ وأحل الله البيع ﴾ ويقول هذا بيع ، ومثل من يحتج على تعذيب بعض الحيوانات المستضعفة والعبث بها مما تشمئز منه النفوس وتنكره الفطرة بأنه قد أبيح قتلها [1] ويعرض كل من هؤلاء عن النصوص الأخرى التى تنص على تحريم تزويج المحرمات وعلى تحريم الربا وعلى تعذيب الحيوان بغير ما شرع فى النصوص الدينية

فقول النبى ﷺ « أنتم أعلم بأمر دنياكم » مقصود به الشىء الذى ليس فيه نص ، فان النص لا ينقض النص ، بل يجب العمل بالنصين جميعا مهما وجدنا لذلك سبيلا ، ففى هـذا الحديث بيان أصل كبير وهو أن الأمور الدنيوية

---

(١) ان من أعظم البلاء ما يفعله كثير من الجهلاء فى تعذيب الحيوانات سواء كانت صغيرة أو كبيرة من المواشى أو الطيور أو غـيرها فى أغراضهم وشهواتهم المطلقة ، فان الله سبحانه لم يبح قتل حيوان ولا استعماله إلا على وجه مخصوص ، لا على ما يشتهى الانسان ويريد ، فمن تجاوز ما أمر به فقد تعدى حدود الله ، ومن يتعد حـدود الله فأولئك هم الظالمون . ومن أعظم مظاهر الوحشية والهمجية وضعف الشعور والاحساس أن يتسلط الانسان على ذى روح محترم مستضعف بغير ما أمر الله به ، وفى الحديث الصحيح « من قتل عصفورا من غير حاجة عج الى الله تعالى وقال : يا رب سل هذا لم قتلنى » وفيه أيضا أن امرأة دخلت النار فى هرة ربطتها ، لا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض ، وقال : رأيتها وهى تعذب فى النار

الأصل فيها الاباحة والعدل المطلق ، هذا هو مفاد الحديث ، لئلا يقول قائل فى كل أمر دنيوي لا بد من دليل على جوازه ، فهذا الحديث نص على أن الأصل فى ذلك الإباحة ، لكن ما وردت فيه النصوص الخاصة يجب العمل بها ، اذ لو كان الحديث يفيد عموم أمور الدنيا كلها لصار هذا الحديث ناسخا لنصوص القرآن والسنة فى كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، وهذا خلاف ما علم بالضرورة من دين الاسلام ، وخلاف ما أجمعت عليه الامة . وعن المقدام بن معد يكرب الكندى أن رسول الله ﷺ قال « يوشك الرجل متكئا على أريكته يحدث بحديث من حديثى فيقول بيننا وبينكم كتاب الله عز وجل فما وجدنا فيه من حلال استحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . ألا وان ما حرم رسول الله ﷺ مثل ما حرم الله » أخرجه الترمذى وابن ماجه ، ويا ليت هؤلاء الذين يحتجون بهذا الحديث أحيانا مقصودهم الانقياد لمدلوله والعمل به ، ولكنهم إنما يحتجون به تخلصا واعتذارا ومخادعة لله فى نفس الأمر ، وأكبر برهان على هذا أنهم اذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى ما جاء عن الرسول بما هو أصح من هذا الحديث ومما يقيد مطلق هذا الحديث أعرضوا عن ذلك وشمخوا بأنوفهم وأبوا أن يقبلوا هذا الذى يدعون اليه ، وهؤلاء فى الحقيقة هم من جنس أولئك الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم اذا فريق منهم معرضون ، وان يكن لهم الحق يأتوا اليه مذعنين . وقال تعالى ﴿ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ﴾ وقال تعالى ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وقال تعالى ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ قال الامام أحمد : عجبت لقوم عرفوا الاسناد وصحته يذهبون الى رأى سفيان ، والله يقول ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة ﴾ ، أتدرى ما الفتنة ، الفتنة هى الشرك ، لعله اذا رد قوله يقع فى

قلبه شيء من الزيغ فيهلك . وقال ابن عباس : يوشك أن تقع عليكم حجارة من السماء ، أقول « قال رسول الله » وتقولون « قال أبو بكر وعمر »

فهذا قول ابن عباس والامام احمد فيمن أخذ بقول ابى بكر وعمر وسفيان ونحوهم وترك النص ، فكيف بمن أخذ بقوانين الرومان والأفرنج الذين قد أخبرنا الله عنهم بأنه غضب عليهم ولعنهم وأنهم أعداؤه ، وترك نصوص الدين ، ثم ادعى مع ذلك أنه مستحق لأن ينصر وأن يؤيد من العناية الربانية ، ويستنكر المصائب التى أحاطت به من كل جانب ، واذا خفيت العلة وعظمت فكيف العلاج والصحة وكيف الحياة والنجاة

وقوله « ولئلا يوجه اليه الخطأ فى مسألة كهذه »

يقال : هذا مما يدل على ضعف عقلك ، فان الرسول ﷺ قد ثبتت رسالته بالبراهين التى هى أوضح من الشمس ، فكل من آمن به إيمانا صادقا فانه لا يمكن أن يوجه اليه شيئا من الخطأ لا فى مثل هذه المسألة ولا غيرها ، فان توجيه الخطأ اليه يتنافى مع الايمان بالرسالة ، وليس فى هذه المسألة خطأ أصلا كما شرحناه ، فانه لم يأمر بترك التلقيح ، بل قال « أظن » ، والظن غير الأمر ، ولأن الظن إنما يتأتى فيما يجوز وقوعه وعدمه ، فلو قدر أنه وجد فى مثل هذا خطأ لم يكن من الأمور التى أمر بفعلها ولا التى استقرت فى الشريعة ، فتوجيه الخطأ اليه فى هذا هو الذى يتنافى مع التصديق برسالته وكونه رسولا ، ولهذا فان أصحابه الذين سمعوا منه هذا وكذا غيرهم ممن اتصلت اليهم هذه الرواية وكانوا مؤمنين به حقا لم يؤثر هذا فى إيمانهم شيئا ، وأما من كان فى قلبه مرض من الريب والشك فقد يكون وقوع مثل هذا فى حقه فتنة وامتحانا ، وقد قال تعالى ﴿ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ فمن أثر وقوع مثل هذا الأمر فى قلبه فلا شك أن قلبه مريض بالزندقة والنفاق ، فلم يك منقادا لكل

ما جاء به الرسول ﷺ ، بل قد يحمله زيغه وضلاله على أن يوجه اليه الخطأ في هـــذه المسألة ، ولا بد إذن أن يوجه اليه الخطأ فى غيرها ، فان الشكوك والشبهات الواردة على القلوب المقفلة لا حـد لها ، والايمـان فى القلب مثل الصحة فى الجسم ، فمتى كان الجسم عليلا عسر علاج الجروح التى فيه ، فاذا كان صحيحا قويا قابلا للشفاء صار ما يصادفه من جروح تافهة قابلة للعلاج الصحيح فينفعها وتشتفى به ، فالشبهـات القوية الواردة عـــلى القلب كالعوارض والامراض التى تعرض للجسم من العدوى ونحوها ، فاذا كان قويا مؤمنا إيمانا صادقا خالصا لم تعلق فيه الشبهات بل يقاومها وتزول عنه ويبرأ مما علق به منها سريعا اذا عالجها بالمواد الروحية القوية ، واذا كان الايمـان ضعيفا فى القلب أثرت فيه الشبهات تأثيرا بليغا بقدر ما فيه من الضعف والقوة ، فان كان ضعيفا جدا فلا بد أن تستولى عليه حتى تهلكه وتذهب قواه المقاومة لها . وقد علم أن الانسان متى كان معه شك وتردد فى شيء من الأشياء الواضحة فانه إما أن يكون قلقـا مضطربا ، وإما أن يقع فى الوسواس أو الخبل ، وحينئذ تعظم المصيبة فينسلخ إمـا من العقل أو من الدين أو كليهما ، فالشك فى القطعيات فساد فى العقل ، كما أن عـدم استقامة الحواس فساد فى الجسم وكلاهما مآله الهـلاك غالبا

فصل

قال « ولن يتصور حساب أدق ولا أعـدل من قوله تعـالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ والفوضى فى الحساب أعظم مخذل لقوى الانسان ، وأعظم واقف فى سبيله »

فيقال : اذا كان الحال كما ذكرت فلم جعلت المسيء كالمحسن ، والذين آمنوا وعمـــلوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ، حيث ذكرت أن عدل الله هو التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وجعلت

المساجد أدت شر ما يؤدى ، وان من دعا الله لا يحصل له فائدة من دعائه ، ومعلوم أنه لن يتصور حساب أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزي كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وانت عمدت الى هذه الأصول التى اشتملت عليها هذه الآيات فبذلت جهدك فى هدمها ونقضها ، فجعلت الاخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج الجد ، ومعلوم أن الله يقول ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ فجعلت من يعمل مثقال جبل أو أكبر من ذلك من الدعاء والتقوى والأعمال الصالحة وغيرها من الأخلاق الدينية لا يحصل له غير الخيبة ، وهذا عين المناقضة للأديان وكيف يستطيع الانسان أن يتصور أن فى إسناد الحوادث الى الطبيعة ونواميسها شيئا من العدل ، بل إنما يتصور ذلك اذا كانت الأمور كلها تجرى بارادة الحى القيوم العليم الحكيم الرحيم الكريم القائم على كل نفس بما كسبت ، هذا هو العدل والحكمة ، وكيف يستطيع الزارع أن يزرع والصانع أن يصنع والتاجر أن يسعى فى تجارته والمتعلم أن يوالى درسه وهو يعلم أن ناصيته ومصيره عند الطبيعة العاتية ونواميسها ، فان هذا هو الفوضى والشر والظلم الذى لا ريب فيه

ان كل مسلم على بينة من أمره يعلم أن هذا الاستشهاد والاستدلال نفاق مكشوف وخداع مفضوح فلا يعجز كل من أراد أن يفسد دين الاسلام أن يقول الكفر ويفعل الكفر ثم يخادع من جنس هذا الخداع اذا كان يتصور أن المسلمين ليس لهم قلوب يفقهون بها وأعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها وانهم كالانعام ، وإلا فرجل يجاهر بالكفر وسب الأديان ، وأن رضا الله وسخطه لا دخل لها فى الأسباب ومسبباتها ، وأن نواميس الطبيعة تحكم العالم باستخدام الانسان لها ، وأمثال ذلك مما أوضحناه ثم يدعى مع ذلك أنه

لا أدق ولا أعدل من قوله تعالى ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره﴾ الى آخر الآية ، لا شك أنه رجل ماجن مستهتر متلاعب لم يتصور فى الناس من يعرف الحق من الباطل ، ولا من يميز الصدق من النفاق ، والنصح من المكر والخداع . وقد سبق الكلام عن مثل هذا مرارا

ثم ذكر أن أكثر الناس صاروا يرون أن الجزاء والمكافئة ليست على قدر الكفاية وانما يرجع ذلك الى الوساطات والشفاعات والقرابات والى أمور أخرى ، وذكر أن سبب هذا هو الايمان بالفوضى

ونحن نقول له : نعم سبب هذا هو الايمان بالفوضى التى تدعو اليها ، والإعراض عن الاخلاق الدينية الطاهرة . والبرهان على ذلك أن أكثر هؤلاء الذين يقعون فى هذه الأمور لا يتخرجون من معاهد دينية نزيهة ، بل أكثرهم يتخرجون من كليات ومعاهد قد تأثرت بهذا الوباء الذى تدعو اليه من فساد الأخلاق كالغلو فى حب المادة وكراهة الأخلاق الدينية المحض [1] وكتلقينهم ان مستند التقدم والرقى أمر يرجع الى الطبيعة ونواميسها لا على حسب أعمال الخير والشر ومعاملة الله تعالى بالصدق والاخلاص ، وأن الأمور كلها تحت مشيئته وارادته ، وأنه يجازى كل عامل بعمله ، ولهذا تجد أعظم المجتمعات فسادا أكثرها زندقة وإلحادا ، وأقواها وأشدها تماسكا أقربها الى الأخلاق الدينية كالصدق والعفاف والفطنة والذكاء والأمانة القوية ونحو ذلك

---

(١) فانهم لما اعتقدوا أن الصلاح والتقوى وخشية الله والاستقامة فى الدين خمول وضعف وانحطاط ، وأن الفجور والخبث والمكر دهاء وسياسة ولا يؤثر فى التأخر شيئا عملوا بمقتضى هذا الاعتقاد ، فكانوا خبثاء فجارا متهالكين على المادة لانهم رأوا اكثر الناس يعبدونها

ثم أخذ يستطرد فى أن أصل فسادنا هو إيماننا بالفوضى ، وقد بينا لك أن معنى الفوضى عنده هو الايمان بمشيئة الله وارادته ، وأن العالم يجرى كله على مقتضى علمه وحكمته ورحمته ، وبينا لك أن العدل عنده هو كونه يجرى بمقتضى الطبيعة ونواميسها باستخدام الانسان لها ، فلاحظ هذا ليزول عنك كثير من خداعه ونفاقه الذى موه به على ضعفاء البصائر والعقول . ولهذا فانه أوضح هنا الفوضى التى يريدها وبين أن الاعتقاد بأن القضاء والقدر وأن ارادة الله أو رضاه وغضبه وحبه وبغضه له دخل فى الأسباب والمسببات أو الوسائل والنتائج يوقع فى الفوضى ، فمتى اعتقد الانسان هـذا الاعتقاد فقد اعتقد الفوضى ، أما اذا اعتقد فى الله تعالى أنه ليس لغضبه ولا لرضاه ولا لحبه ولا لبغضه تدخل فى الأسباب ومسبباتها وكذا الوسائل ونتائجها فانه يكون معتقدا العدالة المطلقة ، ولهذا قال وهذا لفظه :

« فالذين يرون أن القضاء والقدر ، أو أن الحظ ، أو أن الشفاعة والوساطة ، أو أن الارادة المطلقة أو أن رضا الله وغضبه وحبه وبغضه : ان شيئا من هذا القبيل يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه وبين الوسيلة والنتيجة ـ أى يرون أن هذه الأشياء تدخل فى مصير الانسان وتحول بينه وبين النتيجة التى يجب أن يوصله اليها عمله ـ هم قوم لن يجدوا فى أنفسهم ما يعينهم على الاندفاع الى الأعمال الصالحة ، وعلى الانطلاق فى سبيل الحياة القوية » انتهى

فقد رأيت معنى الفوضى عنده ، فمن آمن بأن القضاء والقدر أو إرادة الله المطلقة أو غضبه ورضاه وحبه وبغضه يدخل بين المرء وعمله وبين السبب ومسببه أو بين الوسيلة والنتيجة فقد آمن بالفوضى وصار من الذين لا يجدون ما يعينهم على العمل ، فالله لا يعينهم اذا آمنوا بأن إرادته أو غضبه أو حبه وبغضه يدخل بين المرء وعمله ، وانما يعانون اذا كفروا بهذا الاعتقاد ، فاذا

كفروا به واعتقدوا أن رضاه وغضبه وارادته وحبه وبغضه وجوده وعدمه سواء ، ولهذا قال فيما تقدم اننا لا نحتاج أن نلتمس مهمازا يندفع به الانسان بل مهمازه فيه وفى طبعه . وقد جرى على عادته فى هذه الجملة فى التلبيس ، فأدخل الوساطة والشفاعة مع الحب والبغض ، وجعل الحكم واحدا [١] ، وهذا من المسائل التى نبهنا عليها فى الملاحظه الثالثة فى أول الكتاب ، فتأمل هذه المواضع تعلم حقيقه نفاقه العميق وخبثه الذى لا حد له فى تلبيسه فى دعوى الفوضى التى طالما رمى أعداءه بها . ولهذا أدخل الأعمال الصالحة ومراده المادية ، لأن الأعمال الصالحة الدينية قد تقدم قوله فيها بأن لها نتائج أخرى ، ولأنها هى التى لا يدفعها سوى الاعتقاد بأن غضب الله ورضاه وحبه وبغضه له تدخل فى ذلك

أما النظام والعدالة التى يدعو اليها فهو عكس ما ذكره هنا ، وهو الكفر بالتفريق بين الأيمان والكفر وبين غضب الله ورضاه وحبه وبغضه والكفر بكونه يغدق على من أحبه وينتقم ممن سخط عليه ، ولهذا فانه أخرج هذا الخبث والكفر الغليظ فى قالب العدل فقال وهذا لفظه :

« فالمجتمع الذى يرتجى له التبريز فى ميدان الأعمال هو الذى يؤمن بالعدالة المطلقة ، فى السماء وفى الأرض ، وبالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة التى لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد ولا بالاغداق للحب » انتهى

فهذا هو النظام عنده ، فهو أن يؤمن الانسان بالعدالة المطلقة ، وقد تقدم تفسيره لها بأنها التسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فالأديان لا دخل لها فى تقدم ولا تأخر ، فالذين آمنوا وعملوا

---

(١) كما أدخل الدعاء مع السباب والأتهام كما سبق

الصالحات كالمفسدين فى الأرض فلا فرق بينهم فى الجزاء فى الدنيا ، فمتى آمن الانسان بان غضب الله ورضاه وحبه وبغضه لا دخل له فى الأسباب ومسبباتها ولم يعترف بالتفريق بين الحب والبغض والرضا والغضب فلا ينتقم من أحد لغضبه عليه ولا يرفع أحدا لرضاه عليه فلا يغدق على أحد خيراً من أجل حبه له كالمؤمنين مثلا ولا ينتقم من أحد من أجل غضبه أو بغضه له كالمفسدين مثلا ، متى آمن الانسان بهذا فقد آمن بالنظام والعدالة . وحاصل هذا أنه اذا ساوى بين الله وبين الأصنام فى عدم الافضال والانتقام فقد آمن بالنظام ، أما اذا اعترف بالتفريق بين المسيء والمحسن والمطيع والعاصى وأن الله فرق بينهما فيجازى المحسن بالاحسان فى الدنيا والآخرة فيغدق على المؤمن لايمانه وينتقم من الظالم لظلمه فى الدنيا والآخرة فقد كفر بهذا النظام ، وهذا هو روح دعايته الملتوية الخبيثة ، ولا ريب أن حقيقتها هى الدعوة الى الالحاد المحض وإنكار جميع مظاهر الربوبية . وقد حرص كعادته فى مثل هذه المضايق على لبس الحق بالباطل

وقوله « فى السماء وفى الارض » كلام ساقط لا محل له هنا ، فأى علاقة للعدالة فى السماء هنا ، والكلام هو فى الأسباب المادية ، ولهذا قال صريحا فى بيان العدالة بأن يؤمن الانسان « بالجزاء القائم على القوانين العادلة العامة » ، ثم بينها بقوله « التى لا تعترف بالتفريق ولا بالوساطات ولا بالشفاعات ولا بالانتقام للحقد » يعنى الغضب سماه حقدا تشويها لمسماه (١) « ولا بالاغداق للحب » ، وكأنه لم يجد عبارة تنوب عن عبارة الحب أحيانا ليبدلها بها كما بدل لفظ الغضب بالحقد ، فقد عرفت أن القوانين العادلة العامة التى طالما دعا اليها

---

(١) وليس غضب الله كغضب أحد من خلقه حتى يبدل الغضب بالحقد ، فالله تعالى ليس كمثله شيء لا فى غضبه ورضاه ولا فى حبه وبغضه ، هذا اعتقاد المسلمين

هى عدم الاعـــتراف بالتفريق ، أى الكفر بالتفريق ، ومعلوم أنه يريد بالتفريق هنا بين الأديان والمبـادىء والمذاهب كما فسره فى الموضع الآخـر الذى ذكرناه بقوله فى العدل هو التسوية بين الآخـذين بالأسباب بدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، وهنا بين التفريق الذى يريد عدم الاعتراف به وهو الـكفر باعتقاد كونه تعالى ينتقم للغضب [1] أو يغدق للحب ، فكما أنه بين أن الفوضى هى اعتقاد أن رضى الله وغضبه وحبه وبغضه لا تدخل فى الأسباب والمسببات والوسائل والنتـائج فقد بين أن اعتقاد ضد هذا هو النظام ، وهو التفريق المذكور بين موجبات الغضب والرضا والحب والبغض [2] ولهـــذا ذكر الحقد فى مقابلة الغضب وترك الحب بلفظه ، وبين أنه لا بد من نفى هذا التفريق الذى يوجب الانتقام والاغداق ، فانه اذا انتفى التفريق انتفى اعتقاد الاغداق والانتقام ، واذا نفينا هذا حصل الايمان بان هـذه الصفات التى هى الحب والبغض والرضا والغضب لا تدخل بين الأسباب والمسببات [3] وهو صريح فى غاية الوضوح فى أنه ينكر كون الله يغدق عـلى من أحبه وينتقم ممن غضب عليه . ثم انه لخبثه وشدة حرصه على لبس الحق بالباطل أدخل العدالة فى السماء وأدخل الوساطة والشفاعة هنا ولا محل لذلك ، أما الوساطة والشفاعة فقد تقدم الكلام عليها ، وأما السماء فلا مناسبة لادخالها هنا البتة كما سبق

---

(١) وعبر عنه بالحقد

(٢) وقد سبق ادعاؤه بأن فساد الأخلاق لا دخل له فى تأخرنا ، لأن غضب الله المرتب عليه لا أثر له

(٣) وحينئذ يكون مستند الحوادث هى نواميس الطبيعة التى لا تفرق بين المحسن والمسىء ، وليس لها غضب ولا رضا ولا حب ولا بغض ، بل هى تفاعل قسرى مستمر نتائجه للمصادفة والاضطرار بحسب تصريف الانسان له

والحاصل أن هذا الزنديق شبه الله تعالى بالأصنام العاجزة التى لا تتدخل فى أعمال الناس ، لا بارادة ولا قضاء ولا قدر ، فلا تنفع ولا تضر ولا تغدق ولا تنتقم . وهذه القاعدة المنكرة لها نظائر كثيرة جدا ، وهى فى أغـــلاله كالأصول والقواعد التى يدور عليها ، ولهـذا أنكر المحاباة لزعمـه أن الإثابة والانتقام محاباة ، وهجم على الأخلاق الدينية كلها ولم يستثن منها خلقا واحدا ، لأنه لما اعتقد أنه لا ثواب لها فلا إغداق لمن أحبه الله ولا أثر لسخطه ورضاه ، فأى فائدة فيها ، ولهذا جعلها ملهاة وتعويقا ونحو ذلك ، وقد تقدم قوله بأن من استخدم هـذه النواميس أى نواميس الطبيعة وسار معهـا بلا اصطدام نال ما يبغى فصار النفع والضر وتصريف الأمور كلها تجرى بالطبع ، فالانسان هو الذى يستخدم هذا النواميس وهى تجرى باستخدامه ، فينال منها مقدار ما فى ملـكته من الاقتدار على الاستخدام ، لا عـــلى ما يريده الله ويقضيه ويقدره له بمقتضى علمه وحكمته ورحمته وبما يقوم به الانسان من الايمان والدين واتباع أمر الله وأخذه بالأسباب الدينية والمادية التى أمر الله بها . ويجب أن يعلم أن هـذا الأصل الذى ادعاه واجتهـد فى تقريره هو من أعظم أصول الـكفر ، وأكثر ملاحدة العصر توسلوا به الى هدم الأديان ، وهو مناقض لجميع الأديـان السماوية ، ومصادم أعظم المصادمة للنصوص التى لا تعدّ ولا تحصى ، قال تعالى ﴿ ولقـد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعـالى ﴿ وكأين من قرية عتت عن أمر ربهـا ورسله فحاسبناهـا حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا فذاقت وبال أمرهـا وكان عاقبة أمرها خسرا ﴾ وقال تعـالى ﴿ ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلـا آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وقال تعالى ﴿ فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق ﴾ وقال تعالى ﴿ فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم

من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾ وكذلك قال فى صالح وقومه وشعيب وقومه ، وقال تعالى ﴿ ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئسما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ وقال تعالى ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ وقال تعالى ﴿ ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴾ والآيات فى هذا أكثر من أن تحصر ، فمن جحد هذا الأصل فقد ساوى بينه تعالى وبين المخلوقات العاجزة بل المعدومات ، فأى ربوبية لمن لا تدخل لارادته فى مخلوقاته ولا أثر لحبه وبغضه ورضاه وسخطه ، وجميع الأمم الذين قص الله علينا ما فعل بهم انما عاقبهم الله لأجل غضبه عليهم ، وكذلك الأمم التى نصرها الله وأيدها وأنجاها من الهلاك إنما فعل بها ذلك لأجل رضاه تعالى عنها . وانما قص علينا قصصهم لنعتبر بهم ، وقد كان من المعلوم أن فرعون لم يهلك ويحل به الدمار إلا من أجل معصيته وغضب الله عليه ، وأن موسى لم ينتصر هو وقومه ويكونوا خلفاء الأرض من بعد فرعون وقومه إلا من أجل طاعة الله تعالى ورضاه ومحبته . وكذلك جميع الرسل مع أممهم ، وقد قال تعالى ﴿ انا أرسلنا اليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا الى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذا وبيلا ﴾ فبين تعالى أنه أرسل الينا رسولا فان آمنا به واتبعناه كنا كمن أطاع هذا الرسول الذى أرسل الى فرعون وقومه ففاز من أطاعه ونصر وحصل له التأييد

والتمكين والنجاح ، وان عصيناه كنا كمن عصى ذلك الرسول فلا بد من العقوبة ، ولهذا كان عاقبة هؤلاء الذين عصوا هذا الرسول وادعوا اتباعه كعاقبة الذين عصوا موسى وادعوا اتباعه بأن سلط على كل من هؤلاء وهؤلاء أعداءهم كلا على قدر معصيته ، وفى الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه . قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ » متفق عليه

فالايمان بعدم التفريق بين ما يوجب محبة الله ورضاه وما يوجب غضبه وسخطه فى التقدم والتأخر يصادم نصوص الدين أعظم المصادمة ويقضى بابطال الربوبية وهو كفر أعظم من كفر مشركى الجاهلية ، فانهم مقرون باسناد الخلق والتدبير لله تعالى لوضوح ذلك ، وإنما كفروا لأنهم اعتمدوا على بعض المخلوقات وتوكلوا عليها معتقدين أن فيها مواهب واستعدادات تستطيع بها إيصال النفع والضر اليهم إما بذاتها وإما بواسطتها كما أوضحناه ، ومجرد الاقرار بأن الله خالق العالمين لا يدخل فى الاسلام كما اعترف بذلك هو فى نبذته فى (الفصل الحاسم[1]) وغيرها

ولا شك أن أعظم مفسد للعقل ومثبط للقوى وواقف فى سبيلها هو الاعتقاد بان المسيء كالمحسن والظالم كالعادل والمفسد كالمصلح فى استحصال النتائج ، وأن ذلك كله منوط باستخدام الانسان لنواميس الطبيعة لا باعماله التى يلقى عليها جزاءه إن خيرا فخير وان شرا فشر ، فتى علم أن فساد الأخلاق وصلاحها لا تأثير له البتة فى تقدم ولا تأخر فكيف يعمل الاحسان وينتهى عن عمل السوء ، بل أكثر من يعتقد هذا الاعتقاد يكون مائعا فى اتباع الشهوات ، منهمكا فى الغى والبطالة مغتنما هذا العمر القصير لأنه هو رأس ماله

(١) ذكره فى ص ١٠١ منها

في رأيه فلا حساب ولا عقاب وليس مكلفا — بدافع ضميره — أن يبذل قواه في مصالح غيره ، وهذا بخلاف من يعتقد أنه إنما يعمل لنفسه وامتثالا لأمر ربه الكريم الرحيم العليم الحكيم القائم على كل نفس بما كسبت الذي له الكمال المطلق من كل وجه ، وأنه هو الذي يعز ويذل ويعين من أطاعه ويؤيده وينصره ، ويخذل من عانده واستكبر عن طاعته ، فيعمل بهـذا الاعتقاد ، ان مات مات شهيدا حميدا ، وإن عاش عاش سعيدا حميدا ، وكل خطوة وكل وقت يعمل فيه لله فهو مكتوب له حسنات ويمحو عنه سيئات فلا يذهب عمره سدى ولا عمله هباء ، والانسان في هذه الدنيا إنما أعطى هـذا العمر القصير عارية ولا بد أن تؤخذ منه طوعا أو كرها وانما له منه ما استفاده وربحه في استعمال هـذا العمر فمن استعمله فيما ينفعه بقي معه هـذا الربح وهو رأس ماله الذي فيه سعادته ومن استعمله فيما يضره أخذت منه العـارية وكان ما استفاده من هذه العارية وبالا عليه ونكبة وغلا في عنقه لا ينفك عنه أبدا ، قال تعالى ﴿ وكل انسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ الى آخر الخمس الآيات

فصل

ثم ذكر ما جرى بينه وبين وزارة التموين المصرية التي ذكر أنه كان يتولى الاشراف عليها طه السباعي باشا وزملاؤه حينما أراد منها شراء ورق لطبع أغلاله ، فحصل منهـا تلكؤ وأناة في اجابة طلبه الأهوج ، وقد أطنب في الاقذاع في سبها واتهامها حتى نسبها الى ما يتضمن الكفر والخروج من الملة ، وغرضه من هذه القحة الزائدة شفاء غيظه منها وتخويف غيرها من لسانه اذا

لم تحصل له مطالبه ، والعجب أنه ادعى أن هذه الوزارة من المسلمين ثم مع ذلك أطنب وأسهب فى ذمها والقدح فيها حتى نسب اليها ما يتضمن كفرها ، ثم ذكر أنه تولى بعدها رئيس مسيحى فأنجز طلبه فمدحه وأطال فى الثناء عليه . وهذا مما يبين لك أن دينه فى الدرهم والدينار وأنهما قد استعبداه ، فقد سولت لهذا المغرور نفسه وزين له شيطانه ودفعه زهوه واختياله الى فرض طاعته وقضاء طلبه على كل أحد وعلى كل حال ، وهذا مما يفسر قوله :

لو أنصفوا كنت المقدم فى الأمر . . الى آخره

فقال « ونثبت هنا شيئا يعده النـــاس مخزاة خلقية ، ونحن نعده مخزاة اعتقادية فكرية ، لأن إثباتها هنا مما يتصل بموضوع هذا الكتاب ، ولأن شرحه مما يكشف الغرض الذى نرمى اليه ، ذلك أننا تقدمنا فى أوائل شهر أكتوبر سنة ١٩٤٥ تقريبا الى وزارة التموين نطالب اليها أن تبيع لنا ورقا لطبع هذا الكتاب ، وقد ابتدأ هذا الطلب خط سيره هكذا : مرّ بالسكرتير العام ثم بالوزير ثم بالوكيل ثم ولج غرفة كل موظف له أدنى اختصاص بهذه المسألة — مسألة الورق — ثم بعد أن انتهى الى آخر مطاف يمكن أن ينتهى اليه كرّ راجعا الى حيث ابتدأ أولا متخذا الطريق نفسه نازلا من أعلى الى أسفل أو صاعدا من أسفل الى أعلى سالكا خطا وهميا دائريا ... وقد ضل فى هذا الخط وعجز عن أن يجد له نهاية ينتهى عندها أو بداية يصدر عنها . ... ولقد أعيانا أن نجد لهذه المسألة حلا بعد أن جربنا كل وسيلة وحيلة ورقيناها بكل رقية »

قلت : أما أولا فقد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن هذا المغرور لا يقبل قوله فى مثل هذا الادعاء المجرد ، فانه تكلم بعد ما أقر (١) بمقتضى تحامله — بأنه عدو لهذه الوزارة وأنها مسألة شخصية له حظ فيها فالدعوى ساقطة لا يلتفت اليها

---

(١) نعم لكنها فيك لا فى خصمك لو شعرت بذلك (ربما مريدضره ضر نفسه)

ثانيا ليس فيما ادعاه وانتقده على هذه الوزارة كبير أمر حتى يسوغ له أن يبدى ما أبدى ويجن جنونه ، غاية ما فى ذلك أن إجابة طلبه تأخرت قليلا ، ومعلوم أن مثل هذا يقع كثيرا اذا كان الطلب مشتبها أو كان هناك عوارض من ريب أو شك أو غير ذلك ، وكونها لم تبين له وجه عدم انجاز طلبه لا يدل على أن هذا مماطلة ، فقد يكون لعوارض لا يسوغ بيانها لمثله ، ومعلوم أنه ليس بواجب على كل دائرة أن تبين لكل طالب سبب تأخر طلبه ، ولا يخفى على فطن أن هذا المغرور كان مزهوا وفخورا الى أقصى حد . فلا يستبعد منه أن يكون قد أبدى من التطاول ما أخر طلبه ريثما يتحقق أمره ، واذا دار الأمر بين اتهامه بالتطاول وبين اتهام الوزارة بالمماطلة ونحوها فلا شك أن اتهامه أولى وأرجح ، فان القائم بأعمال هذه الوزارة ورجاله لم يصلوا الى هذه الرتبة إلا نتيجة لحصولهم على شهادات وثقة أمتهم بهم ، ولما هم عليه من مقدرة وكفاية وأهلية للعمل ، وأما هو فهو زنديق مرتد معروف بما يحققه عند كل من له بصيرة

ثالثا يقال : لا حاجة الى أن تتعب فى التماس حل مشكلتك هذه ، فان فعلك هذا وطلبك وقصدك كل ذلك فعل وقصد لكتاب خبيث والله تعالى يقول ﴿ والذى خبث لا يخرج إلا نكدا ﴾ فلا ينبغى لك أن تستغرب هذا العمل من هذه الوزارة وانت بنفسك قد اعترفت بأنك مكثت ست سنين فى مكابدة هذا البلاء الذى ارفض عنه صدرك ، مع أن حاصله مشكلة لم تحل ، فأنت باعترافك هذا لم تستطع أن تحل هذه الوسيلة ولا هذه النتيجة ، فكما أن هذه الخبائث المعقدة المستعصية لم تخرج من صدرك الا نكدا فكذلك لا يمكن ان تخرج فى عالم الطباعة إلا نكدة أيضا ، ولا بد أن يتناولها هذا الناموس الشامل . ولهذا لما خرج بعد طبعه سرت رائحته الخبيثة فسرّت به نفوس قذرة طبعت على حب الخبائث وتهافتت عليه تهافت آكلات الجيف على

الجيف ، بخلاف الأرواح الطيبة فانها تتأذى من رائحته وأغراضه المنتنة . ولقد أتاح لنا فرصة لا بأس بها فى معرفة حشرات كانت مجهولة حالها وكانت كامنة مختفية فى جحورها المظلمة القصية

ثم قال « وقد أعيا رجال وزارة التموين أن يتبينوا وجه الحق فيها فيتبعوه إما رفضا واما اجابة . وقد شبهت الوزارة ورجالها وهم يدورون ويتحركون فى المسألة بآلة طباعة تدور وتتحرك كما تدور وتتحرك سائر المطابع ، ولكنها بدل أن تخرج لنا ورقا مطبوعا عليه كلام مفهوم له فائدة ومعنى تخرج ورقا مخرقا ممزقا أو مطموسا بالسواد الذى لا يستبان له وجه ولا غرض »

فيقال : هذا التشبيه منعكس عليك ، فان آلة الطباعة إنما تطبع ما جعل فيها على وفق طبعها ونظامها الذى ركبت عليه ، وحيث أن طلبك الذى قدمته اليها كان فاسدا أهوج لا يستبان له وجه صحيح ، فهو كالورق الفاسد الملوث بالسواد وغيره فلا بد أن تعمل فيه ما تعمل الآلة على مقتضى ما يتحمله ويستحقه ، فمثل هذا الورق الردىء الفاسد الملوث لا بد اذا دخل الآلة – مهما كانت فى الجودة والاستقامة – أن يخرج مخرقا ممزقا مطموسا بالسواد وغيره ، فلا لوم على آلة الطباعة اذن ، فان النظام الذى ركبت عليه يقتضى هذا ولو كانت فى غاية الاعتدال والصحة ، وانما اللوم على الذى أدخل فيها هذا الورق الفاسد وطلب منها خلاف نظامها الصحيح ، فانه بطلبه وادخاله يعد أحمق جاهلا لا يعرف الطريق التى بها يستحصل على غرضه ناجحا ، بل يريد من آلة الطباعة أن تجرى على هواه فتخرج له ما يريده ويشتهيه ولو كان مخالفا لنظامها الذى صنعت له

ثم أطال فى كلامه على هذه الوزارة فادعى بأن الذى حملها على هذا هو إيمانها بالفوضى ، ولكن الحقيقة هى أن الذى يريد منها خلاف نظامها هو الذى يؤمن بالفوضى . وأطال فى ذلك ، ثم أخذ يلتمس العلة ، ثم ادعى أنه

وجد ذلك بعد أن ادعى أنه لم يجد لها حلا فقال :

« قد يظن أنه ليس فى الوزارة ورق ، أو أن رجال الوزارة لا يحبون أنفسهم ، ثم أجاب بأن الورق موجود فيها ، وأن رجال الوزارة يحبون أنفسهم ، وأن هذه ليست هى العقدة ثم قال :

« ولكن العقدة أو الفرق العظيم بين الفريقين (يعنى الأجانب والمسلمين[1]) هو أن قومنا ومنهم وزارة التموين بما فيها من رجال وأعمال[2] لا يؤمنون بأن بين الحوادث تلازما طبيعيا ، وأن بين الوسيلة والنتيجة ارتباطا حقيقيا ، وأن بين الأسباب والمسببات تماسكا أزليا أبديا ، فلا يؤمنون بأن عمل السوء يؤدى لا محاله الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير سوف يؤدى بلا ريب الى نتيجة سارة ، وأن المراوغة فى هذه المسألة والمطاولة والكذب وسلوك غير الطريق سيهبط بهم فى النهاية على الفضيحة والخزى والعار والسمعة القاحمة ، وأن ذلك كله يؤدى بهم بدوره الى الخيبة والى العقاب الصارم وهو حرمانهم من التقدم والنجاح والفوز بالآمال . انهم لا يؤمنون بهذه النتائج لهــذه الأعمال ، ولو أنهم آمنوا بذلك لكان فيه أعظم زاجر لهم وأقوى مصلح مؤدب ، لأنهم ليسوا فقراء من حب النفس والذات ولكن فقرهم هو فقر المعرفة بما يجلب الخير وبما يجلب الشر[3] ، ولكن لماذا لا يؤمنون هذا

---

(١) وذلك أنه ذكر أن الوزاره تغيرت وأنه جاء فيها وزير مسيحى فساعده على بيع ورق وأعطاه طلبه

(٢) انظر كيف عممهم بالمسبة مع أنه قد يكون بعضهم لا حيلة له فى تقديم ولا تأخــير فى طلبه

(٣) ولكنهم أغنى منك دينا ودنيا . واذا كنت تعتقد هذا الاعتقاد فــاذا نفعك . ومعلوم أن كثيرا من الملاحدة يعتقدون هـذا الاعتقاد وقد ماتوا فقرا وجوعا وعريا

الايمان . إنهم لا يؤمنون كذلك لأنهم يؤمنون بأن المشيئة المطلقة العليا [1] أو الأحداث الكونية الغالبة هى المهيمنة على كل شىء : على الوسائل والنتائج ، وعلى الأسباب والمسببات ، هيمنة عمياء باطشة ، فهى لا تسير سيرا حرا طبيعيا فى طريقها ، ولا تدع تلازمها وتماسكها أمرا مضمونا محققا ، ويرون أن الايمان بذلك هو الايمان بكمال الله وبحرية تصرفه » انتهى

وإنما نقلنا كلامه هنا وان كان قليل الفائدة لتعلم أن هذا الرجل قد بلغ به الغرور والفجور الى أقصى حده ، فهو لا يكتفى بسبة كل من لم يوافقه على هواه ، بل يتجاوز الى أن يجعل الذنب كله إنما جاء بسبب الدين واعتقاد تصرف الله المطلق ، ولا ندرى كيف سكت عنه رجال هذه الوزارة فلم يطلبوا محاكمته على ما نسبه اليهم من أنهم لا يؤمنون بأن عمل السوء لا يؤدى الى نتيجة ضارة ، وأن عمل الخير لا يؤدى الى نتيجة سارة ، وكيف لا يطالبونه باثبات ما نسبه اليهم من أنهم يعتقدون أن المشيئة العليا أو الأحداث الكونية الغالبة على كل شىء هى المهيمنة على كل شىء هيمنة عمياء باطشة . ومن المعلوم أن المسلمين كلهم ليس فيهم من يعتقد أن مشيئة الله مشيئة عمياء باطشة ، فقبح الله من نسب ذلك اليهم بل هم يعتقدون أن من اعتقد ذلك فهو كافر بالله خارج من الملة ، فكيف يدعى أن هذا هو اعتقادهم . ثم أى علاقة بين اجابة طلبه فورا فى بيع الورق وبين هذا الاعتقاد ، بل ظاهر الحال يكذبه ، فانهم لو كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد الذى ذكره لم يتعلموا فى المدارس ويدأبوا جهدهم فى ذلك ثم يحملون شهادات معهم ثم ينخرطون فى سلك الموظفين ، فانهم لم يعملوا هذه الأعمال إلا لعلمهم بأنها وسائل ضرورية طبيعية لا بد أن تكون نتائجها طيبة ، وأن العلم يؤدى الى نتيجة حسنة ، كل ذلك تحت

---

(١) هذا دأبه ، يجعل كل مصيبة فى الدنيا هو الايمان بمشيئة الله تعالى

مشيئة الله وارادته ، بل نفس معاملتهم لهذا المغرور هذه المعاملة الحسنة النزيهة دليل على أنهم يؤمنون بالعدل والحكمة ويكفرون بالفوضى ، لأن طلبه الأهوج كان جورا وظلما مع أنهم يعرفون وقاحته وقباحته وقذارة لسانه ، فلو كانوا قوما فوضويين ماديين لأجابوا طلبه خوفا من لسانه ومداهنة معه وتركوا نظام العدل والأمانة الذى يقضى برفض طلبه حيث انه لم يكن له وجه مقبول

ثم ان هذا الادعاء قدح فيه ، لأنه اذا كان يعلم بأنها تؤمن هذا الايمان فما الذى حمله على طلب الورق منها ثم على مسبتها لما لم تجب طلبه فورا ، فاذا كان عالما بأن هذا معتقدها فقد دخل معها على بصيرة فيما ستفعله به ، لأنها ستعامله بمقتضى اعتقادها — كما يقول — فيجب عليه اذن أن يصبر على ما تعامله به ولا يلومها لأنها اتبعت ما تعتقده واتباع العقائد من النظام المتبوع ، ولا يصح له أن يدعى أنه لم يعلم بذلك الا بعد أن طلب منها لأنه ذكر فيما سيأتى قريبا أن هذا الاعتقاد يشاركهم فيه جميع رجال الامة

ويقال أيضا : ان هذا الايمان الذى ادعاه وهذه الفوضى التى يدعيها هى معتقده بلا ريب . وقد تقدمت الأدلة على ذلك فى مواضع كثيرة ، مع أن هذه دعوى لا مستند لها ، ومعلوم أنه لا يعسر على من قل حياؤه وأبغض شخصا أو دائرة لم يحصل منها مقصوده أن يدعى بمثل هذه الدعوى وبمثل هذا الهذيان

ثم قال : وقد يحتجون لهذا بمثل قوله تعالى ﴿ كل يوم هو فى شأن ﴾

فيقال : نعم هم يحتجون بهذا وأمثاله ، ونعم الحجة . وأما أنت فتحتج بقول غوستاف لوبون وأمثاله ، أو تحرف القرآن ولا تلتزم بقول أحد من المفسرين كائنا من كان ، ولهذا ادعيت فى نفس هذه الصحيفة أن طوائف الأمة تشارك هذه الوزارة فى هذا المعتقد فيكونون إذن هم أعداءك ، فكل من

أسند حوادث الكون ونتائجه الى مشيئة الله تعالى فهو معتقد الفوضى عندك ، أما اذا أسندها الى نواميس الطبيعة باستخدام الانسان لها فقد اعتقد النظام ، وحقيقة هذا أن الكفر هو النظام والدين والاسلام هو الفوضى ، ولو أنك جاهرت بالالحاد وخلعت عنك أغلال الخداع والنفاق لأرحت ضميرك من هذا البلاء المضغوط فيه ، فلا خوف عليك مما تحذره ، فهذا زمانك وأوانك

يا لك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى

ولما أن فرغ ونفث ما فى صدره من غل وعلة على هذه الوزارة المصرية قال « نتمنى أن لو منحنا الله سلطانه وجبروته القاهر ساعة من الزمان لننتقم منهم أو نصلحهم اذا كان فى الامكان إصلاحهم »

فيقال : اخسأ يا عدو الله ، ان الله لا يولى الفأر ملكا أبدا ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ، وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، فلطالما تأوهت وتحسرت وسال لعابك على أى رتبة أو لقب لتنال به شيئا من الرياسة ، ولكن خاب أملك وحبط عملك وساءت عقباك فغلك الله عنها بهذه الأغلال وقيدك بقيود أخرى فلم تصل الى شيء من ذلك ، وهو سبحانه العليم بذات الصدور

ثم انه أراد أن يهون على هذه الوزارة ما نسبه اليها بأن شارك معها جميع رجال الامة فقال :

« وما شكوناه من هذه الطائفة تشاركها فيه جميع رجال الأمة » ، هكذا ادعى ، لجميع رجال الأمة من جنس وزارة التموين المصرية يعتقدون ما ذكره عنها فى المشيئة ، ويرون أن عمل السوء لا يؤدى الى نتيجة ضارة وأن عمل الخير لا يؤدى الى نتيجة سارة ، وانه ليس بين الأسباب ومسبباتها ترابط الى آخر الهذيان ، وهذا كله كذب على طوائف الأمة وكلامهم فى الاسباب وترابطها بمسبباتها معروف ، وليس فيهم من يقول ان العالم محكوم بالفوضى ،

بل جمـــاهير أهل العلم على أن بين الأسباب ومسبباتها ترابطا وثيقا ، وإن السبب مربوط بنتيجة تحت المشيئة والقدرة ليس خارجا عنها ، فمن ادعى أن مشيئة الله قد قهرتها الأسباب ومسبباتها فقد جاهر بالكفر وعزل الله عن ملكه ، ومن نفى تأثير الأسباب فهو يكفر من يدعى الفوضى ويذهب اليها .

قال الامام العلامة ابن القيم فى (شفاء العليل) : انه سبحانه ربط الأسباب بمسبباتها شرعا وقدرا ، وجعل الأسباب محل حكمته فى أمره الدينى والشرعى وأمره الكونى القدرى ومحل ملكه وتصرفه، فانكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات وقدح فى العقول والفطر ومكابرة للحس وجحد للشرع والجزاء ، فقد جعل سبحانه مصالح العباد فى معاشهم ومعادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهى والحل والحرمة كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها ، بل العبد نفسه وصفاته وأفعاله سبب لما يصدر عنه ، بل الموجودات كلها أسباب ومسببات ، والمقادير أسباب ومسببات ، والقدر جار عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر ، والقرآن مملوء من اثبات الأسباب كقوله تعالى ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ ، ﴿ بما كنتم تكسبون ﴾ ، ﴿ ذلك بما قدمت يداك ﴾ ، ﴿ بما كسبت أيديكم ﴾ وسرد آيات كثيرة الى أن قال : وهـــذا أكثر من أن يستوعب ، وكل موضع تضمن الشرط والجزاء أفاد سببية الشرط والجزاء ، وهو أكثر من أن يستوعب كقوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ﴾ وقوله ﴿ لئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ وكل موضع رتب فيه الحكم على ما قبله بحرف أفاد التسبب وقد تقدم ، وكل موضع ذكرت فيه الباء تعليلا لما قبلها بما بعدها أفاد التسبب ، وكل موضع صرح فيه بان كذا جزاء لكذا أفاد التسبب ، فان العلة الغائية علة للعلل الفاعلية ، ولو تتبعنا ما يفيد إثبات الأسباب من القرآن والسنة لزاد على عشرة آلاف موضع ، ولم نقل ذلك مبالغة بل حقيقة ، ويكفى

شهادة الحس والعقل والفطر ، ولهذا قال من قال من اهل العلم : تكلم قوم فى إنكار الأسباب فأضحكوا ذوى العقول عـــلى عقولهم وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فشابهوا المعطلة الذين أنكروا صفات الرب ونعوت كماله وعلوّه على خلقه واستواءه على عرشه وتكلمه بكتبه وتكليمه لملائكته وعباده ، وظنوا أنهم بذلك ينصرون التوحيد فما أفادهم إلا تكذيب الله ورسله وتنزيهه عن كل كمال ووصفه بصفات المعدوم والمستحيل ، ونظير من نزه الله فى أفعاله وأن يقوم به فعل البتة وظن أنه ينصر بذلك حدوث العالم وكونه مخلوقا بعد أن لم يكن ، وقد أنكر أصل الفعل والخلق جملة . ثم من أعظم الجناية على الشرائع والنبوات والتوحيد إيهام الناس أن التوحيد لا يتم إلا بانكار الأسباب فاذا رأى العقلاء أنه لا يمكن إثبات توحيد الرب سبحانه إلا بابطال الأسباب ساءت ظنونهم بالتوحيد وبمن جاء به ، وأنت لا تجد كتابا من الكتب أعظم إثباتا للاسباب من القرآن . ويالله العجب اذا كان الله خالق السبب والمسبب ، وهو الذى جعل هذا سببا لهذا ، والأسباب والمسببات طوع مشيئته وقدرته ، منقادة لحكمه ان شاء أن يبطل سببية الشيء أبطلها كما أبطل إحراق النار عن خليله ابراهيم وإغراق الماء على كليمه وقومه ، وان شاء أقام لتلك الأسباب موانع تمنع تأثيرها مع بقاء قواها ، وان شاء خلى بينها وبين اقتضائه لآثارها ، فهو سبحانه يفعل هذا وهذا وهذا ، فأى قدح يوجب ذلك فى التوحيد ، وأى شرك يترتب على ذلك بوجه من الوجوه ، ولكن ضعفاء العقول اذا سمعوا أن النار لا تحرق والماء لا يغرق والخبز لا يشبع والسيف لا يقطع ولا تأثير لشيء من ذلك البتة ولا هو سبب لهذا الأثر وليس فيه قوة ، وانما الخالق المختار يشاء حصول كل أثر من هذه الآثار عند ملاقاة كذا لكذا ، قالت هذا هو التوحيد وإفراد الرب بالخلق والتأثير ، ولم يدر هذا القائل أن هذا إساءة ظن بالتوحيد وتسليط لأعداء الرسل على ما جاءوا به كما تراه عيانا فى كتبهم ينفرون به الناس عن الايمان ، ولا ريب أن الصديق الجاهل قد يضر مالا

يحضره العدو العاقل ، قال تعالى عن ذى القرنين ﴿ وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ ثم ذكر تفسير الآية . انتهى ما نقله عنه الآلوسى فى غاية الامانى ص ٣٤١ ج ٢

وأصل بلاء هؤلاء المنافقين أنهم ظنوا أن الاقرار بالمشيئة العليا والقضاء والقدر ينافى تأثير الأسباب ، ولو عقلوا حقيقة الأمر لعلموا أن ما فروا منه قد وقعوا فيما هو شر منه ، فانهم فروا من الاقرار بالمشيئة ظانين أنه يلزم من ذلك القول بالجبر ونفى تأثير الأسباب والقوى الذى هو فى غاية الظهور ، وقد وقعوا فى القول بالجبر ونفى قوى الانسان واختياره من حيث جعلوا الانسان مسيرا بدافع قوى الطبيعة ونواميسها المختلفة اضطرارا ، ولهذا تجدهم دائما إذا ما حزبهم الامر فى معرفة سبب الشيء جعلوا ذلك من فلتات الطبيعة وقواها التى لا ترد[1] . وقد هدى الذين آمنوا لما اختلف هؤلاء فيه فاعتقدوا أن الله سبحانه خالق فى الانسان قوة وقدرة على العمل فهو قادر مختار بالقوة والقدرة التى خلقها الله فيه ولا ينافى هذا كون فعله واقعا بمشيئة الله تعالى وقضائه وقدره ، فانه هو وما فيه من قوة وقدرة وعمله أيضا مخلوق لله فلا يشاء شيئا والله لم يشأ فعله أبدا فلا يمكن أن يوقع فعلا قهرا على الله أو لا يشاؤه الله ، وهو سبحانه يفعل بالاسباب كما يأتى توضيح ذلك فى بحث القضاء والقدر والأسباب مفصلا

(١) من أعجب أمور هؤلاء أنهم اذا خفى عليهم سبب شيء جعلوا وقوعه إما مصادفة وإما من فلتات الطبيعة ، مع ادعائهم أنهم اهل العلم ، ومعلوم أن اعترافه الانسان بالعجز كهذه الدعوى سواء

الكلام على المبحث السابع
القضاء والقدر

عنوانه فى أغلاله :

(كيف فهما وكيف يجب أن يفهما)
(وكيف قررا مصاير الشعوب)

يعنى بهما القضاء والقدر ، وحقيقة ما قرره فى هذا المبحث هو حاصل ما ذكره فى تلك المباحث السابقة من الحث على قطع العلائق الدينية المتصلة بين الله تعالى وبين عباده ، فلا مشيئة ولا إرادة ولا قدر ولا قضاء ، وإنما العالم محكوم بقوى الطبيعة ونواميسها ، وكل تقدم أو تأخر فهو راجع الى قوة استخدام الانسان لهذه القوى أو ضعفه ، فالعالم يجرى على هذا الناموس الذى ذكره ، ولا علاقة لمشيئة الله به ، فالدعاء والاستعانة وسائر العبادات لا أثر لها البتة ، لأنه إنما يكون لها أثر اذا كان العالم إنما يجرى بمشيئة الله وقدرته وارادته وتصرفه فيه بمقتضى نظامه الدينى الشرعى الذى من اتبعه تقدم ونجح لا محالة ، ومن خالفه عوقب ودمر ولا محالة ، وقد تقدم ادعاؤه أنه ليس لارادة الله ولا لقدره وقضائه وحبه وبغضه ورضاه وسخطه تدخل فى الأسباب ومسبباتها الخ وهذا عين الالحاد الذى لا شك فيه ، وتقدم قوله أيضا اننا لا نحتاج الى مهماز ندفع به الانسان ، بل مهمازه فيه وفى طبعه ، وهــــذا صريح فى أن الله لا يعين من استعان به ولا يؤيده ولا ينفع أحدا من خلقه فى هذه الدنيا بطاعته وامتثال أمره

وقد أسهب وأطنب كعادته فى اختراع البهت والفجور فى تشويه سمعة الاسلام ، فذكر أكاذيب ونسبها الى المسلمين وادعى انها هى اعتقادهم فى القضاء

والقدر ، ثم أخذ يرد عليها ، ثم علق عليها بأنها هى سبب التأخر ، فهو لا يكتفى بالكذب على المسلمين ثم الرد عليهم لذلك ، بل لا بد أن يجعل كل مصيبة انما جاءت بسبب اعتقادهم كون الله يدبر ملكه ويتصرف فيه . وهذا الملحد لما كان يعتقد الالحاد ولا يستطيع أن يجاهر به بدون خداع أضاف كل شر وكل بلاء فيما ينافيه من التوحيد ليجعل ذلك ذريعة الى كراهته ليحصل مضاده . وسيأتى الكلام مفصلا ان شاء الله تعالى عما ادعاه على المسلمين من اعتقاد الجبر ، وأنهم تركوا الأعمال اعتمادا على القضاء والقدر .

قال المغرور :

« كيف فهما ، وكيف يجب أن يفهما ، وكيف قررا مصاير الشعوب »

والسعى للرزق والأرزاقُ قد قسمت بغىٌ . ألا إن بغى المرء يصرعه
(ابن زريق)

جرى قلم القضاء بما يكون فسيان التحرك والسكون
(أحدهم)

لو كنت أعجب من شىء لأعجبنى سعى الفتى وهو مخبوء له القدر
(منسوب لكعب بن زهير)

فيقال فى جوابه : ليفهم المسلمون هـذا ، وليعرفوا أن ابن زريق و (أحدهم) وكعب بن زهير هم أئمتهم فى أصول الدين كعقيدة القضاء والقدر ، فان هذا المغرور جاء بأبياتهم هذه وجعلها قاعدة يعتمد عليها فيما نسبه اليهم فى اعتقاد القضاء والقدر اللذين هما من أصول الدين ، أمـا عقائد المسلمين الكثيرة المعتمدة فانه ضرب عنها صفحا وتجاهلها وكذلك كتبهم الشهيرة تركها لانه يعلم أنها تكذبه فيما ادعاه ، فلهذا اضطر الى الاحتجاج بهذه الأبيات وجعلها هى عمدته ، حتى قال بعدها :

« هكذا فهموا القضاء والقدر ، وهكذا اعتقدوا فى أنفسهم أنهم لا يعدون أن يكونوا مخلوقات جامدة لا تتحرك وانما تحرك ولا تتصرف وانما يتصرف فيها ، وليس عليها أن تحاول العمل ولكن عليها ان تنتظر حتى تكون محلا وظرفا لأعمال الآخرين ، وهكذا فقدوا كل ثقة فى أنفسهم وكل أمل بأن يكون لهم حول أو سطوة ذاتية »

فيقال : قد رأيت أيها المنصف أنه صور المسلمين بهذه الصورة التى ذكرها معتمدا فى هذه الدعوى العريضة على تلك الأبيات الثلاثة التى نقلها عن ابن زريق وأحـــدهم (أى مجهول) وكعب بن زهير فادعى على المسلمين بأنهم يعتقدون أنهم مخلوقات جامدة لا تتحرك وانما تحرك ، الى قوله : وانها محـل وظرف لأعمال الآخرين . هكذا جاهر وكابر على أمة قد ملأت الكتب على اختلاف أصنافها بالحث على العلم النافع بأنواعه والعمل النافع بأنواعه ، وقد عملت بما علمته من دنياها فى كل ناحية وفى كل شأن

تجاهل هذا المغرور كل هذه المعارف وكل هذه الثورات وكل هـــذه الأسواق المزدحمة بكل من انواع التجارات والصناعات وغيرها ، كل ذلك لم يعبأ به ولم يرفع به رأسا ، بل غمض عينيه ولم يفتحها الا أمام ثلاثة أبيات لثلاثة من الشعراء ، ولا نظن أن أكفر يهودى يحاول الطعن فى الاسلام يستطيع أن يصل الى هذا الحد فى البهت والعداوة للاسلام وأهله

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجـــرح بميت إيلام

ثم قال « ليس من الممكن أن يقدم الانسان عـلى العمل إقداما يمكنه من الأخـذ بناصيته ومن قهره لارادته حتى يعـلم علما ليس بالظن أنه قادر عليه كقوله ، وأن له قدرة تتركز فى ذاته يفعل بها متى شاء ويترك اذا شاء »

فيقال : هذا رمى فى الهواء وتحصيل حاصل ، فان المسلمين كلهم يعتقدون أن الله تعالى جعل فى الانسان قدرة على فعله ، فكل أحد يأكل ويشرب ويلبس

وينام ويقوم ويقعد ويمشى ويتكلم ويعلم أن فيه قدرة على أفعاله ، وما رأينا أحدا ولا سمعنا عن أحد منهم أنه ترك الأكل والشرب والقيام والقعود وجميع أفعاله الاختيارية مدعيا أنه ليس فيه قدرة على الفعل والترك ، فما ذكره سفسطة وهذيان بارد وهراء لا يقوله إلا معاند

ثم قال « وحتى يعلم علما ليس بالظن أيضا أنه ليس هناك قوة خفية (١) مسلطة على منعه مكلفة بان تضع العقبات فى طريقه تتحكم فيه تحكم القوى الجاهل فى الضعيف العاجز دائبة على معاندته كلما حاول أن يقدم وكلما هم أن يحجم منتظرته أحيانا حتى يحرث ويزرع ، فاذا ما أوشك أن يجنى ويحصد عصفت بما حرث وزرع وبما كاد يظفر بجناه ، وتركته محسورا متبورا »

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بل هو كلام ساقط مرذول خبيث لا محل له البتة ، يقصد من ورائه بغض مشيئة الله وإرادته وتصرفه فى خلقه ، وابطال رحمته واحسانه وعفوه وافضاله ، حيث صور المشيئة الربانية عدوة الانسان ، ولم يفرق بين الفاجر والتقى والمحسن والمسيء ، وقد كذب وافترى لعنه الله على مشيئة رب العالمين وأرحم الراحمين ، فهو يريد أن يجعل كل مصيبة أصابت الناس بمجرد إيمانهم بربهم تعالى ، ويريد أن يجعل المصائب فيما يرون — على ما يدعى — صادرة عن القدرة والمشيئة فقط ، ومعلوم أن الشر ليس الى الله تعالى بل الشر سببه الذنوب التى هى عدم امتثال أوامر الله تعالى والاعتصام بنوره وطاعته والتحصن بها من كل سوء ، فكل مصيبة فى الدنيا يصاب بها الانسان ما هى إلا نتيجة بعده عن مهابط الرحمة والنور والهدى والبصائر ، وتفريطه فيما أمر به ، فالشر ليس الى الله ، والخير كله بيديه ،

---

(١) يعنى رب العالمين بمشيئته وإرادته ولو قال « وحتى يكفر بالقضاء » لكان أخصر وأريح لضميره

والمعاصى كلهـــا سلوب ونقائص يصاب بها الانسان من حيث فساد فطرته وبعده عما يلائمها من مصادر الحياة والصحة التى هى طاعته لله تعالى واستمداد السعادة منه

يا بلعام زمانه ومطية شيطانه من هو الذى يعتقد هـذا الاعتقاد الخبيث الذى ذكرته ، وأنه هو اعتقاد القضاء والقدر ، فأشر لنا عن عقيدة واحدة معتبرة من عقائد المسلمين ذكرت هذا عنهم أو أشارت اليه ، وحاصل هـذه الدعوى الخبيثة أن بين الانسان وبين الله تعالى عداوة ، وأنه يتحكم فيه تحكم القوى الجاهل فى الضعيف العاجز مطلقا . قاتلك الله ، أين وجدت أنه تعالى قوى جاهل ، وأن قدرته دائبة على معاندة الانسان كلما أراد أن يعمل شيئا وقفت فى سبيله . . الخ . ألا قاتلك الله ما أعظمّ جرأتك على مقـام الربوبية العظيم . وهذا القول لا يمكن أن يصدر ممن يؤمن بالله أبدا ، وكل عاقل يعلم أن أكثر الناس قد عبثوا بدين ربهم وضربوا به عرض الحائط وقابلوه فى كل لحظة وكل فترة بالفجور والمعاصى والسب والقدح ، ثم هو يدعوهم الى التوبة والى الاستغفار ، ويتحبب اليهم بالنعم ، ويفيض عليهم الخيرات التى يعصونه بها ، ويمهلهم ، ويقيم عليها الحجة ، ويبين لهم الطريق ، وهو مع هذا غنى عنهم وعن عبادتهم ، ولو شاء لا نتقم منهم جميعا فى لحظة ، ولـكنه لا ينتقم إلا من بعد أن يقيم الحجة ، وقد قال تعالى﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون الى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ فهؤلاء قد ادعوا عليه أعظم الفرية حتى ساووا بينه وبين عبدين من عباده ، ثم هو يدعوهم الى التوبة والاستغفار ، وعن أبى موسى الأشعرى قال : قال رسول الله ﷺ « ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله : يدعون له الولد ثم يعافيهم ويرزقهم » رواه البخارى . وكل عاقـل يعرف أنه لو طبقت نعم الله وآلاؤه

الموجودة اليوم على أعمال الناس ومعاصيهم وعبثهم بسياج الشرائع وإفسادها واتباع أهوائهم وفسقهم لتبين أن الناس انما عاشوا فى ظل عفو الله ورحمته بعباده ، وإلا فهم لا يستحقون إلا الهلاك والانتقام العاجل ، ان كل مؤمن يعتقد من صميم فؤاده أن ربه عليم حكيم رءوف رحيم ، وقد شمل حلمه من عانده وسبه وحرّف صفاته ، بل وأنكر وجوده ، فكيف بمن أطاعه واتبع رضاه ، وقد بين على لسان رسوله ﷺ أنه اذا تقرب اليه العبد شبرا تقرب ذراعا ، وان أتاه يمشى أتى اليه هرولة ، واذا استعان به أعانه ، وأنه مع المتقين ومع المحسنين ومع الصادقين ولا يحب الظالمين ولا يحب كل مختال فخور ، وقال تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ﴾ فكيف يضع العقبات فى سبيل من أحسن عملا ، واذا قدر أنه يبتلى بعض عباده بشىء من مصائب الدنيا فان هذا لا ينافى رحمته به ، فان نسبة ابتلائه فى جانب اللذة والفرح والحياة والسعادة التى قد حصلت له وستحصل له كلا شىء ، واذا ما نظر الى هذا البلاء ونسبته الى ما جاءه من العافية فى عمره كله فى نفسه وأعضائه وعيشه وغير ذلك صار هذا الابتلاء ضئيلا جدا ، فكيف اذا كانت عاقبة ذلك البلاء السعادة الكبرى التى لا يعادلها شىء ، ثم ان النقص أمر طبيعى لا بد للانسان منه ، وكونه يناله شىء من البلاء الطفيف فى قليل من ماله أو حالة أسهل من أن يناله فى دينه أو عقله أو نفسه ، وعقله ونفسه أهون من دينه ، وفى الابتلاء من ذل العبودية والافتقار ومعرفة قدر النعمة والعافية من الفوائد مالا يعد ولا يحصى لمن قدر ذلك وعرفه ، ومعلوم أن أعظم الناس حنانا على ولده وأرحمهم وأشفقهم به لا بد أن يؤدبه ويربيه ليحصل بذلك ما فيه نفع له يتضاءل فى جانبه ضرر ذلك التأديب ، ولا يعد هذا عداوة ومضارة فكيف بالخالق العليم الحكيم الرءوف الرحيم ، ولولا الابتلاء والامتحان لم تظهر

أكثر مظاهر السعادة واللذات والفرح وامثال ذلك

لعل عتبك محمود عواقبه   وربما صحت الاجساد بالعلل

فصل

ثم قال «وليس من المستطاع الجمع بين اعتقاد المرء فى نفسه أنه عاجز عجزا ذاتيا لازما عن إتيان العمل وعن إتمام ما يبدأ به من الأعمال ، وبين نجاحه فى الحياة وإتيانه بالأعمال باهرة . وإن الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه ، ولكنه يقتحم بيسر وسهولة ما اعتقد أنه قادر عليه»

فيقال : كل هذا هراء منه ورمى فى الهواء ، فليس فى المؤمنين بل ولا فى عقلاء المتدينين من يعتقد أنه عاجز عجزا ذاتيا لازما عن العمل الخ . وهل رأيته أو رأى أحد من الناس أن أناسا من المسلمين ترك الأكل والشرب وسائر الأعمال الضرورية من أجل اعتقاد القضاء والقدر حتى الغلاة فى القضاء والقدر كالجهمية لم يتركوا شيئا من الأعمال التى يستطيع أن يعملها غيرهم من جنسهم ، بل أكثر الناس الذين يعتقدون القضاء والقدر قد تجاوزوا الى فعل المعاصى ، بل هلك كثير منهم بسبب الحرص وتحمل ما فوق طاقته من الأعمال فالدعوى ساقطة لا محل لها البتة

وكثير من هؤلاء الذين يعملون فى الأمور الصناعية أو المادية أو الاقتصادية أو التجارية من المسلمين يعتقدون القضاء والقدر ، وربما تكون الدائرة الصناعية أو غيرها فيها جهمى واشعرى ومعتزلى وغيرهم ولا يوجد بينهم فرق فى العمل من ناحية الاعتقاد ، والمسلمون وإن اعتقدوا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فهم يعلمون أن الله قد أمر عباده بالعمل ، وجعل فيهم قوة وقدرة واختيارا على أعمالهم ، وأن كلا ميسر لما خلق له . ويكفى فى

بطلان هذه الدعوى الواقع والمشاهدة ، فان الناس كلهم استطاعوا أن يعملوا وفيهم من أهلك نفسه من الحرص على العمل مع اعتقادهم القضاء والقدر . وهذا برهان قاطع على أنهم يرون أنفسهم غير عاجزين عن الأعمال التى فى طاقتهم اتيانها ، وأن الايمان بها لا يقتضى اعتقاد العجز ، بل بالعكس فان المسلم يرى أن الله أمره بالعمل والاستعانة به ، ووعده بأن يعينه متى أخلص فى عمله وصدق فى معاملته ، ومعلوم أن الله لم يأمره بما هو عاجز عنه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ وهذا واضح جلى ، فما ادعاه فهو غير وارد ، لأنه ادعاء فى غاية الفساد

وقوله « وان الحيوان الأعجم نفسه ليأبى أن يقتحم ما يرى أنه عاجز عن اقتحامه الخ » فهذا كالذى قبله ، بل هو حجة عليه ، فان الحيوان يقتحم ما يرى أن فيه قدرة على اقتحامه وقد يأبى أن يقتحم ما فيه قدرة على اقتحامه لمانع أو عارض ، كالحيوانات الجافلة التى تتخيل الشىء ضارا وهو غير ضار وقد يقتحم الشىء الذى فيه تلفه وهلاكه لقصور نظره وشهوته ، وأما الأشياء الواضحة التى يرى الحيوان أنه عاجز عنها وأن فيها تلفه لو جازف فيها فانه لا يقتحمها كالتردى من شاهق ونحوه ، وبهذا يكون أحسن حالا من الملحد الذى يرى أن فى امكانه أن يصل الى كل شىء ويتغلب على كل شىء ، فحال الحيوان لا يحتج به فى مثل هذا الأصل فان مسألة القضاء والقدر من أصول الدين التى مناطها التكليف الشرعى فلا محل لهذا الاستدلال ، وقد بينا أن المسلم يرى أن الاقدام على كل أمر ممكن غير ممنوع أصلا ما لم تكن مضرته راجحة على منفعته

فصل

قال « وأصول التربية الحديثة الموضوعة بارشاد النفس والاستقراء التام الطويل قائمة اليوم على تعظيم شأن الايحاء الذاتى ، وعلى العمل به ، أى على إفهام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمله ، وعلى أنه يستطيع

أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل انه لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الانسانية ، وعلى أن معين قدرته لا يمكن أن ينضب ، وعلى أن سلطان هذه القدرة لا حدود له . وعلى أن ما يمكن أن يبدعه من الأعمال — اذا أحسن استخدام مواهبه وأحسن شحذها — لا يقف عند غاية ، ولا يعجز عن بلوغ نهاية . وعلى إفهامه أنه خلق معدًّا مهيئًا لأن يتغلب على كل شيء ، وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه ، وأن يسمو حتى يلاحق الخيال ، لا بل حتى يسبق الخيال ، وعلى إفهامه الاستقلال فى العمل ، وعلى أنه واجب عليه أن يصنع كل ما هو محتاج اليه وحده دون عون[١] ودون رعاية ، وأن قدرته صالحة لذلك جديرة به أهل له ... وهذا ما يسمونه التربية الاستقلالية وهذه التربية هى اعظم تربية[٢] والأمة التى تصل اليها وتقدر عليها تضحى أقوى أمة وأعظم أمة »

والجواب أن يقال : هذا الكلام الذى ذكره فى هذه الجملة هو من أعظم أصوله التى يدعو اليها ويدور عليها كلامه ، وقد تقدم كثير من معانيها فى المبحث الأول ، ومتى فهمها المؤمن وأحاط بها علما ثم فكر فيمن عمل بها وكيف كانت عاقبته وما حل به من الكوارث والنكبات التى لم يسبق لها نظير علم أنها أخبث تربية وأقذرها ، والأمة التى تأخذ بها لا بد أن تصبح امة

(١) هذا تصريح ظاهر بأنه غير محتاج الى اعانة الله ، فلا يقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ لأنه غير محتاج الى ذلك ، فيكون هذا القول ملهاة وتعويقا لافائدة فيه

(٢) أى انها أعظم من تربية القرآن الذى أرشد الى الطلب من الله الاعانة والتوفيق ، وأن الانسان ضعيف وعاجز ما لم يوفقه الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ، ومن يهد الله فما له من مضل ﴾

مضروبا عليها نطاق الذل والقهر والصغار والنكال ، ولا بد أن يريها الله قوتها واستكبارها وتمردها حتى يضعها تحت أعدى عدو لها ، وحقيقة هـذه التربية الملعونة هى إفهام الانسان الكفر بقضاء الله وقدره ومشيئته العامـــة وانه مستغن عن الله غير محتاج الى اعانته ورعايته وتوفيقه وهدايته ، فلا حاجة لأن يعبده ويدعوه ويتضرع اليه ، وخليق بمن نشأ على هذه التربية أن تحل به اللعنة الماحقة والغضب العاجل ، وأن يضع الله أنفه الذى شمخ به عن طاعـة ربه وخالقه تحت قدم أخبث خلقه ، ليعرّفه كيف قدرته الذاتية وكيف غناه عنه . وقد أرى الله سبحانه كثيرا ممن نشأوا على هذه التربية أو أكثرها كيف دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها . وهذه التربية الجنونية هى التى طاشت بايطاليـا وأمثالها حتى أدخلتهم المجازر والآلام والشقاء والعذاب الطويل

ثم الكلام على هذه التربية من وجوه :

أولا انها تربية مخالفة لتربية القرآن بالنص ، فان تربية القرآن تنص على وجوب الاعتماد على الله والتوكل عليه والاستعانة والاستغاثة به والتضرع اليه ، وأن العبد فقير اليه كما قال تعالى ﴿ يا أيهـا الناس أنتم الفقراء الى الله ، والله هو الغنى الحميد ﴾ وفى الفاتحة المفروضة قراءتها فى الصلوات الخمس ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ فالعبد مفتقر فى كل لحظة الى استمرار الاستمداد من مصادر الكمال والنور والرحمة ، فقطع هذه الاستمدادات عنه وقذفه فى ظلمات الطبيعة يوجب له الهلاك لا محالة ، فقطب الدين وروح العبادة هو الاستمداد من الله الاعانة والتوفيق والهداية والانابة ، فاذا انقطع مدده من هـذا فأى حياة تبقى له ، وحينئذ يقال له : ان أصل كلامنا معك فى هـذا الموضوع فى بيان كون هذه التربية ليست من الدين ، وأنها مضادة له من كل وجه . وأما نفعها وضررها فذاك شىء آخر ، ولو أنك أدعيت أنها أولى من تربية القرآن بالتصريح الظاهر أو ادعيت أنها مخالفة للدين وهى نافعة مـــع ذلك مجاهرة

بدون خداع لـكان لنا معك شأن آخر ، انمـا البلية أنك أخذت تربية أكفر موجود على وجه الأرض ودعوت اليها وذكرت أنك وفقت بين روح الدين وروح العمـل وأنك أنت الذى فهمت الدين الصحيح ، فان كنت تدعى أن هذه التربية مطابقة لتربية القرآن كابرت جهارا وصار معنى هـــذا أن الدول الملحدة التى أخـذت بهـا اتبعت القرآن وأنها عـلى الدين وأن المسلمين الذين استعانوا بالله وادعوا أنهم كانوا محتاجين اليه مخطئون فى ذلك ، وقد ادعيت قريبا فيما يأتى أن هذه الدول المتحاربة قد أخذتها واعتمدتها ونحن تركناها ، فتكون هى التى على الدين والمسلمون عـلى خلافهم ، وان ادعيت أنهـا مخالفة لتربية القرآن ولـكنها نافعة — وهذا هو فى الحقيقة مرادك — فقد اخترتهـا على تربية القرآن وعظمتها ودعوت اليها ورفضت تربية القرآن واستصغرتهـا وادعيت مع ذلك أنك مؤمن بالله واليوم الآخر فتكون بهذا زنديقا منافقا لا ريب فيك ، لانك كفرت بالله وكتبه باطنا ، ورايت بادعاء الايمان ظاهرا ، ثم لو تنزلنا معك وفرضنا جدلا أنهـا نفعت مرتين أو ثلاثا أو مرات كثيرة — وهى خلاف القرآن وخلاف الدين — فهل يسوغ لنا بصفتنا مسلمين أن نأخذ بها ونرفض ديننا . وما أشبه حال هـذا الملحد بمن قال الله فيهم ﴿ ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الـكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا ﴾ فهذا وأمثاله ممن أوتوا نصيبا من الـكتاب وان كان قليلا بمعنى أنهم عرفوا دعوته وأقروا باتباعه ، ولـكنهم فى الحقيقة استنكفوا واستكبروا عنه وعن العمل به ، وآمنوا بالتعاليم المضادة له التى هى من الجبت والطاغوت ، ولا خلاف بأن كل من آمن بما يخـالف الدين فقد آمن بالجبت والطاغوت . ثم ان هذا الملحد ادعى بأن هـــذه التربية الملعونة ونظـائرها التى تتضمن الايمان بالجبت والطاغوت وأهلهـا أهـدى من الذين آمنوا سبيلا

ويقال ثانيا : كل ذى عقل سليم يعلم أن هذه التربية تربية ساقطة مرذولة بالمرة شرعا وعقلا ، فانها مبنية على الطيش والجنون والمجازفة بدون حساب ، والتهور والتصديق بالمحال والمغالطة فى الحقائق . وكل من تنطبع فى نفسه هذه الأمور لا بد أن يكون مدفوعا الى مالا قدرة له عليه فلا بد أن يقع فى الحروب والمنازعات والاشتباكات ، وان كان لا قبل له بها ، وهذا يؤدى بلا ريب الى دماره

ويقال ثالثا : قولك « انها قائمة على إفهام كل انسان بأنه قوى قادر على ما يراد منه أن يعمله » الى قولك « وعلى إفهامه أنه خلق معدا مهيئا لان يتغلب على كل شىء ، وأن يصارع كل ما يقف فى طريقه » الى قولك « وهذه التربية أعظم تربية » كل هذا صريح واضح بأن الانسان قوى قادر على كل شىء وعلى أن يتغلب على كل شىء . فهذا مع كونه كفرا صريحا فهو هذيان وهراء ومكابرة للحس والضرورة ، ها هو ذا أنت قد ادعيت أنك المستحق لأن تكون أنت المقدم فى الأمر ، وأنك المستحق لأن تفرد بالطلب والرغبة ، وأن الدهر يؤمن على كل ما تقول ، وقد بلغت ما يرام من العلا ، فاذا كان الأمر كله كما قلت فأصلح عينك الأخرى فقط ، فان هذا أشد محنة فى الدنيا عليك لما بك من الاستكبار والغطرسة وحب المظاهر ، فقد وسمك بهذه السمة المضادة لما تدعيه ، وما كان ينبغى لك أن تدعى هذه الدعوى العريضة مع وضوح ذلك فيك ، وكيف ساغ لك أن تنتقد خصمك الألديوسف الدجوى فيما تقدم فيما نقلناه ، إذ قلت فيه « زعم أن البشر قادرون على كل شىء حتى على أن يقلبوه فرسا أو سبعا أو ما شاء من المخلوقات » . وهاك عبارته [1] : « على أن لنا أن نقول ان كل شىء مقدور للبشر بالدعاء فما لا يقدر عليه البشر بالذات

---

(١) أى الدجوى

يستطيعه بالدعاء » . فلما أن قال هذه الكلمات ألزمته بأن يدعى أن البشر قادرون على كل شيء ، ثم ألزمته هو بأنه قادر على كل شيء ، مع أنه لم يدع كدعواك ولم يدع لنفسه ما ادعيته لنفسك ، ثم سخرت منه واستهزأت به غاية السخرية والاستهزاء اذ قلت بعد سياق عبارته هذه : الله أكبر ، هل رأيتم أعجب من ذلك ، هل رأيتم أعجب من قوله ان البشر على كل شيء قادرون ، نعوذ بالله ، أليست هذه صفة الرب الخالق القاهر ، ألا تظنون الشيخ ممن يتألهون ، أهو يستطيع أن يقلب السماء أرضا والأرض سمـــاء ـ الى آخر هذيانك الطويل المرذول . فعلى هذا يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، يكون الدجوى قادرا على أن يقلبك فرسا أو خنزيرا ، لأن ذلك أحسن عندك وأطيب ، لأنك اخترت لنفسك منزلته فى النفور من الطيبات والسقوط على الخبائث . ثم مع ذلك ادعيت فى صحيفة ١١٦ من نبذتك (الفصل الحاسم) أن أسفه السفه هو ادعاء الانسان بأن البشر على كل شيء مقتدرون ، بل جعلت هذا سفها ليس فوقه سفه فقلت « أو ليس السفه الذى ليس فوقه سفه الادعاء بأن البشر على كل شيء مقتدرون » هذا كلامك بحروفه ، فقد شهدت على نفسك بأنك أسفه من كل سفيه ، وهكذا كان الواقع

ومن العجب أن كل خصلة انتقدها هذا الملحد على خصومه الأولين ورماهم بها قد اقترفها وزاد عليها كخصال الرافضة والجهمية وغيرهم ، وفى الحديث « من عير أخاه بذنب لم يمت حتى يفعله » وهذا مما يدل على أن أكثر مجادلاته فى تلك النبذ ليست مبنية على إخلاص دينى متين ، بل الغرض الأكبر منها تشفٍّ ولاغراض نفسية ، ولهذا فانه قدح فى زكى مبارك قدحا طويلا فى مقدمته [1] ومدح فيها جستاف لوبون الذى قدح فى النبى ﷺ وادعى أن

---

(١) أى (كيف ذل المسلمون)

الايمـان بالله وحده كان نكبة على البشر ووصفه بالبراعـة الفائقة كما يظهر من كلامه [١] فلأى شيء تشدق بتعظيم شأن هذا الملحد وقدح فى زكى مبارك اذا كان قدحه فيه من أجل الدين ، وإنما هى سريرة هوى يظنها لا تعلم

ويقال رابعا : قولك « وعلى أنه يستطيع أن يأتى من الأعمال بالمعجزات والخوارق ، بل لا معجزات أمام قوته الذاتية وإرادته الانسانية الخ » قول فى غاية المعاندة للأديان ، فهو تكذيب صريح للمعجزات وأنهـا ليست بخوارق إلهية يختص الله بها من يشاء بمحض الإفضال لا بمحض الا كتساب والصناعات المقدورة للبشر ، ففى دعواه أن فى إمكان الناس أن يأتوا بمثلهـــا ، إذ لا معجزات أمام قوتهم ، أى فى قدرة الانسان أن يخترع من جنسها فلا تكون معجزة ، إذ المعجزة هى التى تعجز كل من أراد أن يأتى بمثلها من النوع الانسانى وتتحداه ، وهذا كله ادعاء مجرّد وثرثرة فارغة ومكابرة للحس والضرورة ، فهذه معجزات الانبياء لا تعد ولا تحصى عـلى إختلاف أجناسها ، وقد ترقى الناس فى العلوم الصناعية المادية والطبيعية وغيرها رقيا أخـــذ بعقلك حتى أذهبه ، فهل قدروا أن يأتوا بمثل واحدة منها من كل وجه ، بل هـذا القرآن الـكريم قد مضى عـلى نزوله ما ينيف عـلى ثلاثة عشر قرنا وقد عاداه مـلايين الملايـين من الخلق وحرص كثير منهم عـلى الاتيان بمثله وفيهم من البراعـة والبلاغه والفصاحه والتفوق فى كل فن من فنون الأدب مالا يمكن جحده فهل قدر واحد منهم على الإتيان بمثله فى هذه المدة الطويلة ثلاثة عشر قرنا ، مع أنه كلام ، وقد حاول كثير من الفصحاء أن يأتوا بشيء من مثله فارتبكوا ، وكان ما أتوا به ضحكة للعقول ، فرجعوا خاسئين

ويقال خامسا : قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه بالاستقراء التـام أن كل أمة

---

(١) وسيأتى أيضا دعواه فيه أنه فيلسوف عظيم

اعتمدت هذه التربية وارتاضت عليها أصبحت فاشلة هابطة بل مدمرة تدميرا شنيعا ، فان أكثر الأمم من الأولين والآخرين الذين اعتدوا وحاربوا فهزموا ودمروا اذا سبرت أسباب اعتدائهم ثم هزيمتهم وتدميرهم وجدت أن ذلك من هذه التربية أو أكثرها ويكفى برهانا على ذلك أنها هى تربية ملاحدة أعداء الرسل من أولهم الى آخرهم ، فانهم ما كفروا واستكبروا عن عبادة الله وحده واتباع رسله إلا لأنهم اعتقدوا أنهم غير محتاجين الى الله فى الاعانة والرعاية ، وأن فى مواهبهم من القدرة والاستعداد ما يكفيهم عن اتباع الدين ، ولهذا قال قوم هود ﴿ من أشد منا قوة ﴾ وقالوا متحدّين له ﴿ائتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾

ومعلوم أنهم ما قاتلوا الرسل إلا لأنهم يرون أن فيهم قدرة ذاتية فى إمكانها أن تتغلب على كل شىء حتى على القوة الدينية وتقضى عليها ، وأنها صالحة لذلك جديرة به ، وأن الأخلاق الدينية عندهم لا قيمة لها ، ولهذا قال إمامهم فرعون[1] ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وهذا صريح فى أنه كان يرى أن فى امكانه التغلب على موسى وقومه ، وأن القوة الدينية فى عينه ليست بالشىء الكبير الذى يهتم له ، فانه لما قال له الملأ على وجه الإغراء ﴿أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك ﴾ أجابهم بقوله ﴿ سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون ﴾ وفحوى هذا أننا سننتصر عليهم لا محالة ونفعل بهم ما شئنا من الاستخدام والتعذيب والتقتيل وغيره ، وأما تربية موسى فانها بعكس هذه التربية ، فانه قال لقومه ﴿ استعينوا بالله واصبروا ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ﴾ فأخبرهم بأنهم محتاجون الى الله بالاعانة والتوفيق والنصر ، فعليهم

---

(١) أى لقومه متوعدا بنى إسرائيل

أن يستمسكوا بهذا الحبل الدينى ، وأن يستعينوا بالله ويدعوه ويتقوه ويصبروا فيجمعوا بين أصل السبب الدينى والمادى ، وقدم الدينى لأنه العمدة ، وأخبرهم أن هذا الملك الذى يفتخر به فرعون ليس هو له بل هو لله الذى يستعان به القـــادر على ما يريد ، فهو الذى يؤتيه من يشاء ، ومن أعظم الأسباب التى يعطى بها الانسان هى التقوى والاستعانة والدعاء وما يتضمن ذلك والصبر والثبات ، فلما بين لهم ذلك قالوا ﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ وهذا يدل على شيء من ضعف اليقين فيهم لأنهم استبعدوا هلاك فرعون وتدمير قوته لانها هائلة عظيمة فى نظرهم وليس معهم من الأسباب المادية ما يكافئها ، وأعظم قوة معهم هى القوة الدينية ؛ فخافوا أن لا ينصروا عليه فيعودوا الى الحالة الأولى فتكون نكبتهم أعظم من أجل العداوة المتجددة ، فأقنعهم موسى بقوله ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ وهذا تحقيق لكلامه الأول الذى فيه بيان السبب الذى به يستحصل النصر والعاقبة الحميدة ، وهذا فيه بيان وقوع هذا الشيء الذى يتمنونه من خالص أفئدتهم ، فوعدهم بالمآل المحقق ليطمئنوا بذلك ويوقنوا به . قال بعض العلماء (عسى) من الله واجب ، ولهذا وقع ما أخبر به موسى صلوات الله وسلامه عليه كما قال فى نفس سياق هذه القصة ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الارض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون ﴾ فانظر بين هذه التربية العالية القوية الوثابة العظيمة تربية كليم الله عليه الصلاة والسلام ومن اتبعه وبين تلك الـــتربية المرذولة الخبيثة الملعونة تربية فرعون ومن حذا حذوه من الملاحدة وفروخهم ، مع أن هذه التربية قد ضم اليها هذا الملحد خبثا الى خبثها الوبيل كمثل ما ذكره فى بحث المرأة والقدح فى المشيئة العليا ونحو ذلك ، فهى تربية كل ساقط مجنون مستهتر ، وقد أشرنا فى مقدمة الكتاب الى عظم تربية القرآن وأنها هى التربية

الاساسية الكبرى التى قامت عليها النهضات العلمية والعملية وأن الحضارة الراقية كلها إنما اكتسبت عناصرها الأصلية من تعاليمه القوية المقدسة ، وان الامة التى تقوم قوتها على هذه التربية السامية لا يمكن بحال أن تغلب أو تسبق ما لم تغير أو يبدل فيها ، ولا سيما فيما يناقضها ويعاكسها من كل وجه

فصل

قال « ونحن فى هذه الحرب نشاهد ساسة المتحاربين يتبارون فى تقوية هذا الايحاء أشد مباراة ، ويعمل كل منهم بكل وسائله وأساليبه على إقناع شعبه بقدرته وكفايته وشخصيته التى لا تغلب ، وإقناعه أنه بهذه القدرة والكفاية سينتصر على كل ما يقف فى طريقه ، ويحطم كل العقبات والمشكلات والازمات »

فيقال : هذا هو برهانه الساطع ودليله القاطع على صحة تلك التربية ، فاعتبروا يا أولى الأبصار فى هذه الخبائث المتسلسلة ، فهل يجب على المسلمين أن يبنوا عقائدهم على تربية دليلها فعل هؤلاء القادة الطغاة ، مع أن منهم فريقا انتصر وفريقا اندحر ، وعقيدتهم على ما يقول واحدة . لا ندرى كيف سوغ لهذا المغرور عقله بأن يدعو المسلمين الى أن يجعلوا قادة هؤلاء المتحاربين هم أئمتهم وقدوتهم فى هذه الأصول العظيمة التى هى أساس الدين [1] ويتركوا عقائد قادة الصحابة وخير القرون كالخلفاء الاربعة وسعد بن أبى وقاص وخالد ابن الوليد وغيرهم من الصحابة ومن تبعهم من أهل القرون المفضلة الذين هدوا صروح الامم العظيمة التى هى أكثر منهم عدة وعددا بتربية الدين والتقوى ، بتربية القرآن والسنة ، تلك التربية الجبارة القاهرة ، فان كانت هذه التربية التى

---

(١) مع معرفتهم بعداوتهم لهم ولدينهم

دعا اليها قد عرف صحتها من انتصار البعض فقد عرف فسادهـــا من اندحار الفريق الآخر ، بخلاف تربية الصحابة وأتباعهم فانه لم يوجد فيها من جنس هذا الذى وجد فى هؤلاء ، هذا لو لم تكن هذه التربية مصادمة للدين وقدحا فى رب العالمين ، فكيف وهى الكفر الذى ليس وراءه كفر ، وبطلانها واضح شرعا وعقلا ، وإقناع الشعوب الراقية ليس هو كله بهذه الأمانى العاطلة التى هى أشبه شىء بالأحلام ، بل إقناعهـا بتشجيعها بالطرق الصحيحة فى الحث على العمل واستعمال الصبر والتروّى فى الأمور ، وأن يحسب لكل شىء حسابه بالتفكير وتقليب الرأى وغير ذلك من الطرق المعروفة ، وكل أحد يعلم أن الدعايات وطرق الاقناعات فى بعض هـذه الشعوب المتحاربة كانت واحدة ، ومع ذلك اختلفت النتيجة اختلافا بعيدا متباينا ، فعلم أن إقناع الشعب بهذه الدعايات والتربية الزائفة لا يجدى شيئا ، لأن النتائج أدل دليل على وسائلها فى الصحة والفساد ، ولو كان لهذا الزائغ أدنى مسكة من عقل لم يخرج للمسلمين كتابا يسميه أغلالا ويتكلم فى أصول الدين كالقضاء والقـدر ثم يستدل على صحة ما يقول بآراء قادة هذه الحرب من الطليان والألمان وغيرهم ويرفض حكم قادة الاسلام الصحيح الذين كانت لهم المواقف المشكورة ثم لا يملأ أحد منهم عينه ولا يراه شيئا يذكر فيعمى عن الشمس وينظر الى السهى ، وما كنا نعلم عن هذه التربية الخبيثة ثم الاستدلال عليها لولا أن هذا الغراب الأبقع اجتهد فى نشر هذه الخبائث المدفونة فى أماكنها القذرة فأبرزها بين المسلمين مفتخرا بها ومعارضا بها دينهم

ومن يكن الغراب له دليلا يمـــر به على جيف الكلاب

ثم قال « وقد كان رئيس الحكومـة البريطانية فى هـذه الحرب من أقدر الرجال وأعظمهم لبراعته العجيبة وقوته السحرية على إقناعه نفسه وإقنـاع الشعوب البريطانية بل إقناع كل الشعوب المتحالفة بالقدرة على النصر وعلى هزيمة الاعداء »

فيقال : هذه الدعوى كالتى قبلها فى السقوط ، وهـذه البصبصة لأن تكون قدحا أقرب من أن تكون مدحا ، فان هذا الرئيس لم يظفر بالنصر بمجرد هذا الاقناع ، ولو كان لاقناعه هذا أثر كبير لكان أثره فى الشعب الألمانى والايطالى أكبر ، فليس هتلر ولا موسولينى بدونه فى معرفة إلقاء هـــذا الاقناع على شعبيهما ، بل ربما كان هتلر أبرع وشعبه له أطوع زيادة على ذلك ، ولهذا زج بهم فى هذا التيار الملتطم مستمسكا بخيوط هذه العقيدة الواهية التى لقى وبالها وتبين مآلها ، ولو سلم من هذه العقيدة وحسب لكل شىء حسابه لكان أولى به ، ولـكن شيطان هذه النزعة نزغ به كما نزغ بايطاليا وغيرها فآلوا الى نتيجة ما اعتقدوه فى هذه التربية المدخولة

والحاصل أن الايحاء الذى يلقيه أكثر هؤلاء القادة انما يقصد به التشجيع والاطمئنان ، وإلا فهم يعلمون أن أثره ليس بكبير بالنسبة الى الأمور الحربية الـكبرى ، ونحن لا ننكر أثر التشجيع والحث على الصبر والثبات وحسن العاقبة ، وانما ننكر ما يدعيه من هذه التربية الخبيثة والاستدلال عليها بهـذا الايحاء وتعليق النصر به ، فان هذا ادعاء فى غاية الفساد

فصل

قال « ولا شك أن ألمانيا نفسها إنما استعدت لحرب العالم ، وعبأت قواها الضئيلة المحدودة لهذه الحرب بايمان وشجاعة تملأ النفوس كلها حتى نفوس أعدائها إعجابا ودهشا وفرقا ، وانها إنما وقفت ـــ وقد ضربت عليهـا الحلقة باحكام وتضييق من كل جانب تناضل مواد بشرية وغير بشرية تفوق موادها البشرية وغيرهـا عشرات المرات نضالا هو أعظم من أن يدعى بطولة أو أن يسمى شجاعة أو أن يقال انه انتحار الاحرار الأبطال ـــ بهـذه الثقة نفسها وبهـذا الايمان نفسه »

فيقال هذا المغرور يريد أن يمدح كل من لم يؤمن بالدين سواء كان مهزوما أو منصورا ، أمـا المسلمون من أولهم الى آخرهم فلم يثن عليهم فى شىء قط ، مع ما جرى لهم من الصبر والثبات ومكافحة المصائب العظيمة التى لا تطاق والنصر الذى لم يسبق له نظير ، فهذا كله ليس بشىء فى عينه ، أما هذه الدول الأخرى فانه أثنى على كل واحدة منهـا سواء كانت ظافرة أو خاسرة ، ولهذا أثنى على ألمانيا فى طيشها ومجازفتها هـذه ، كما أثنى على اليـابان فى آخر الكتاب أيضا ، ثم هو مع ثنائه عليها ادعى أن قوتها محدودة ضئيلة ، فيقال له : اذا كانت قواها محدودة ضئيلة وأنها فى دخولها هـذه الحرب انما تحارب العـالم كله فهل تكون محمودة فى هـذه المخاطرة ويثنى عليها بهـذا الفعل ذو دين وفكرة وعقل ، مع أنها ليست مضطرة الى دخول الحرب بل دخلتها مختارة ذلك ، أفليس الذى دفعها الى هذا كله هو إيمانها بأصل هـذه التربية الطائشة بأن فى إمكانها أن تتغلب على كل شىء ، وأن قدرتها لا حدود لها ولا قيود ، وأنها غير محتاجة الى عون ورعاية وأن قدرتها صالحة وجديرة لأن تملك بهـا الدنيا ، فايمانها بهذه الثقة هو الذى أوثق فى عنقها حبـلا من مسد ربطت به نفسها وجعلته فى يد غيرها ، والا فاذا كانت تفهم أنها انما تحارب العـالم كله أو أكثره وأن قوتها محـدودة ضئيلة بالنسبة الى من ستحاربه فكيف تدخـل هذا المأزق الحرج . لا شك أن عمى هذه الثقة وشيطان هذه التربية هو الذى صدها عن السبيل ، ودفعها الى هذا العذاب الوبيل ، حتى جعلت عدوها يضرب عليها الحلقة بتضييق ليس له مثيل ، ولو أنها ثبتت على مناعتها وجـــدت واجتهدت فى مضاعفة التسليح الذى فاقت به غيرها ووازنت بين قواها وقوى غيرها وصبرت سنوات قليلة حتى تأتى لها الفرصة لكان من المحتمل أن تدرك مطلوبها ولم تدمر نفسها هذا التدمير الذى جعلها فى قيود الأعداء بسبب هذه التربية الفاسدة ، ولا شك ان المجازفة والتهور يفسدان البطولة والشجاعـــة ويذهبان بثمرتها المقصودة ولا يحصل بها إلا الخيبة والخسران كما قيل :

الرأى قبل شجاعة الشجعان   هو أول وهى المحل الثانى

وكذلك القول فى إيطاليا وغيرها كالقول فى ألمانيا ، لكن إيطاليا أقربه الى هذه التربية ولهذا كانت أحط درجة فى أخلاقها ، وكل أمة تنشأ على هذه التربية فلا بد أن تكون أمة طائشة مجازفة بقوتها بدون حساب فلا بد أن تصبح ذليلة خاسرة ، وكل أمة آمنت بهذه التربية قد سقطت ولم ينفعها هذا الايمان لما رأت بأس الله الذى صبه عليها بأيدى أخدانها وأعوانها على الكفر وأعدائها على المادة ، ﴿ سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون ﴾

ثم أخذ فى مدح هذه التربية مكررا هذا المعنى . وقد عرفت ما فيه ، وذكر أن المسلمين يرون أنهم لا قدرة لهم على الفعل والعمل ، وأنهم عاجزون ، وأنهم محل لأعمال الآخرين ، وقد عرفت أن هذا كله كذب وفجور وبهتان لا يخفى على عاقل

فصل

ثم شرع بعد هذا ينقل عن المسلمين اعتقادهم فى القضاء والقدر . فنقل عنهم ما شاءت شهوته من الكذب والفجور ، وضرب صفحا عن عقائدهم المعتبرة المشهورة وكتبهم المعتمدة التى لا تعد ولا تحصى . ولقد كان من الواجب المفروض عليه أن ينقل كلامهم الذى يعتمدونه فى هذا الأصل من عقائدهم وكتبهم المعمول بها ، ولكنه يعلم أنه لو فعل هذا لم تساعده النقول على ما يشاء ويشتهى ، بل تكذبه تكذيبا صريحا وتصادم دعايته ولا يمكن أن يستقيم له قدح فى هذا الأصل العظيم ، فلهذا حاد عنه ولجأ الى الحرفة اليهودية وهى البهت والفجور والتحريف المنكر .

فقال : « ما هو القضاء والقدر عند هؤلاء القوم الذين يلقون بهذه التعاليم والأوهام بين المسلمين ، زاعمين لهم أنها مما يوجبه الايمان بهما ؟ يقولون ان معنى القضاء والقدر أشياء : أولها أن الله سبحانه سجل على الانسان منذ الأزل كل أعماله وربطه بها ربطا لا انفكاك منه ، بحيث لا يجدى معه الارشاد ولا النصح ولا محاولة الخروج »

قلت : هذا الذى ادّعاه على المسلمين فى تفسير القضاء والقدر كذب وفجور ظاهر ، فالمسلمون لا يدّعون هـــذا ، فلا يقولون فى معناهما ان الله ربط الانسان هذا الربط الذى لا يجدى معه الارشاد والنصح ومحاولة الخروج ، ففى أى كتاب وجد هذا التفسير عنهم على هـذه الصورة التى ادعاهـا ؟ ويكفى فى تكذيبه أنهم يعلمون أن الله أنزل الكتب وأرسل الرسل لهـداية الخلق وان الارشاد والنصح اللذين اشتملا عليها قد أثرا فى كثير من الخلق حتى خرجوا من الظلمات الى النور ، فهذه الدعوى التى ذكرها عنهم بهذه الصفة كذب وزور لا ريب فيـه ، ولو كانوا يعتقدون ذلك لم يوجبوا الارشاد والنصح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعقوبات والتعزيرات بأنواعها ، وهـــذا كله معروف بالمشاهدة والحس ، فانكاره مكابرة ، وكونه سبحانه علم ما الخلق عاملون وكتب ذلك لا يدل على أنه ربطهم ، فليس العلم بالشىء الذى سيقع ربطا له ، فالربط شىء والعلم به شىء آخر ، فاذا علم الانسان بأمور ستقع من أقوام فلا يقال انه ربط أولئك الأقوام بأفعالهم ربطا لا محيص لهم عنه

ثم قال « ثانيها - أن الله أوجـد فى الانسان الذى يعمل الشر الاستعداد للشر فى أصل خلقته وطبيعته دون الذى يعمل الخـير ، فانه تعالى خلق فيـه الاستعداد للخير دون الشر ، فقد فرق بينهما فى أصل الخلقة والطبيعة . فلا يستطيع أحدهما أن يخرج ممـا خلق مستعدا له ، كما لا يستطيع بذر القمح أن يخرج شعيرا أو بذر الشعير أن يخرج قمحا »

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور كالذى قبله ، فما حكاه هنا على هـذه الصورة على المسلمين ليس بصحيح ، فنى أى عقيدة معتمدة وجده . فان حاصل هذه الدعوى أنهم يعتقدون أن الله تعالى خلق الخلق من عنصرين متضادين لا يقبل أحدهما ما يقبله الثانى حين مثل ذلك بالقمح والشعير ، فالقمح لا يقبل طبيعة الشعير فلا ينبت شعيرا ، كما لا ينبت الشعير قمحا . وهذا كله من الكذب البارد ، فان المسلمين يعلمون أن الله تعالى خلق بنى آدم من نفس واحـدة وخلقهم حنفاء قابلين بفطرتهم لتعاليم الخير ، ولكن منهم من تفسد فطرته بسبب إعراض صاحبها عما يغذيها من تعاليم الدين ، ومنهم من تزكو فطرته كما تقدم الكلام على حديث الفطرة ، وهم يعلمون أن الله يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، فيخرج الكافر من المسلم والمسلم من الكافر ، وقد يسلم الكافر فيكون من المتقين ، وقد يرتد المسلم وينسلخ من الدين فيكون من الكافرين أو الملحدين ، وأما القمح والشعير فليس كذلك ، فلا يخرج القمح إلا قمحا ولا الشعير إلا شعيرا ولا ينقلب أحدهما الى طبيعة الثانى ، وكونهم يقولون ان فيهم الكافر والمسلم لا يقتضى أن يكونوا على ما ذكره ، فان القمح قد يخرج فيه فاسد بالمرة ويخرج منه ما هو طيب صحيح وما هو متوسط ، وكذلك الشعير ، ولكن لا ينتقل أحدهما الى طبع الآخر ، فالدعوى كذب ظاهر لا ريب فيه

ثم قال « ثالثها ـ أن الله قد أرصد بطرق خفية غامضة فى سبيل كل انسان ما يوجهه بالقوة الى الأعمال التى يعملها ، أو التى تظهر عليه إذا اخترنا التعبير الصحيح ، بأسباب خفية [1] وبدون أسباب ، فالجبان العاجز الضعيف مسوق

---

(١) كثيرا ما يعبر عن المشيئة العليا بالأسباب الخفية إذا أراد أن يقدح فيها ويشوهها ، فليلاحظ ذلك

الى جبنه وعجزه وضعفه بقوة لا يمكنه الخلاص منها ، والشجاع القوى الجرىء مسوق أيضا بنفس هذه الوسيلة والطريقة بحيث يعجز عن المخالفة ، وهكذا كل إنسان بل كل مخلوق »

فيقال : وهذا أيضا كالذى قبله بهت وفجور ليس له نصيب من الصحة ، فمن هو الذى ادعى هذا على هذه الصفة ، بل المسلمون يقولون ان الله خلق فى العبد قدرة واختيارا وارادة بها يفعل ويترك ، فان شاء فعل وان شاء ترك ، وهو حرّ فى فعله وتركه غير مجبور ، كما سيأتى كلامهم بهذا النص ، ولكن نحن اذا اخترنا التعبير الصحيح قلنا : هذا هو عين ما تدعيه أنت فى قدرة الانسان وفعله ، فانك قلت فيما تقدم « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها ـ أى تحكم الكائنات الحية ـ إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة ، فلا غرابة اذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد » هذا كلامك بحروفه ، وهو صريح فى أن النواميس المولودة من المادة الجامدة هى التى تحكم الانسان وغيره من الكائنات الحية ، فهو مربوط ربطا قويا وثيقا بتحكمها لا خلاص له منه أبدا ، فهو إنما يجرى ويعمل ويفعل بحسب ما توجهه اليه قواها الخفية ، لأنها حاكمته حكما طبيعيا فلا بد أن يكون سيره منسجما مع توجيهها القاسر بالضرورة الطبيعية ، فهو يعمل مضطرا مقسورا على فعله ، فهذا الذى ادعيته بهتانا وزورا على المسلمين هو مقتضى نظريتك واعتقادك ودعايتك ، فكيف ترميهم بدائك وتصفهم بعماك ، فعلى دعواك هذه فى نواميس الطبيعة لا بد أن يكون صاحب الشر مربوطا بقوى شريرة ، وصاحب الخير كذلك ، بدون اختيار ، بل بالاضطرار الذى لا حيلة له فى دفعه

ثم قال « رابعها ـ أن الانسان الذى يريد الخير أو الشر لا يريد شيئا منهما بنفسه ، وانما الله الغلاب هو الذى يخلق إحدى الارادتين فيه لأسباب غير

معلومة[١] أو لأنه يريد أن يضل بعض الناس ويشقيهم ويدخلهم النار بمجرد أنه قادر خالق ! فاذا خلق هذه الارادة الشريرة فى نفس انسان لم يستطع أن يعمل غير الشر ، فيندفع الى الأعمال الشريرة بهذه الارادة ، فيصير شريرا ولا بد »

فيقال : وهذا أيضا من نمط ما قبله ، بهت وزور لا صحة له البتة كما يدعى . وانظر الى السر الخبيث فى حذفه مقابل ما ادعاه فى الضلال ، فان المقام يقتضى أن يقول « واذا أراد أن يهدى بعض الناس فيدخلهم الجنة برحمته خلق هذه الارادة الخيرية » الى آخره ، فلم يذكر هذا ، بل اقتصر على قسم الضلال تشويها لسمعة القضاء ، مع أن ما ادعاه فى هذه الارادة على هذا الوجه كذب وفجور فان المسلمين مجمعون على أن الشر ليس الى الله بل الشر طبيعى سلبى ، معناه عدم وجود أثر الخير ، فالانسان من حيث طبعه ووجوده غير مهتد وغير مستحصل على خير لولا ما خلق الله فيه من بذور الفطرة الطيبة التى هى موضع قبول الخير ، فمتى أعرض ولم يقبل ما به تقوى فطرته وتستنير من مصادر الكمال والقوة والنور كان شريرا ، فلا يمكن أن يريد بطبعه الخير ويريد الله منه الشر أبدا ، بل اذا قدر الله له الاضلال فلا بد أن يكون هو مريدا الضلال[٢] فلا تكون إرادة العبد متضادة مع ارادة الله بأن يمنعه الهداية اذا أرادها أبدا بل هو برحمته يعين العبد على الهداية والإنابة والتوفيق ، ويفرح بتوبة التائب كما وردت بذلك النصوص

وانظر الى فجور هذا الملحد فى ادعائه بأنهم يقولون انه يريد أن يضل

---

(١) بدل قولهم « لحكمة لا يعلمها إلا هو » بقوله « لأسباب غير معلومة » قاتله الله ما أحرصه على غمط الحقائق

(٢) كما حققه شيخ الاسلام ابن تيمية فى مواضع ، راجع ص ٤٤ العقل والنقل

بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد انه خالق قادر ، ألا قبحك الله ما أحرصك على الفجور واختلاق الزور ، فيابلعام زمانه من هو الذى قال ان الله يضل بعض الناس ويدخلهم النار بمجرد كونه خالقا قادرا ، فانه لو كان هذا هو السبب لكان الناس فى الحكم سواء فان نسبة الخلق الى الخالقية والارادة سواء، والله سبحانه قد بين بأوضح بيان أن دخول النار سببه المعاصى والكفر لا بسبب القدرة والخلق ، فلم عدلت عن كلام الله وكلام رسوله وكلام أهل العلم فى تعليل ذلك وذهبت تخترع فجورا من رأسك لم تسبق اليه ثم تحمله على المسلمين حرصا على إشانة دينهم الذى أنعم الله عليهم به وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون

ثم قال « خامسها ـ أن الانسان ليس عاملا ولا فاعلا فى الحقيقة ، وليس له القدرة على العمل بل على شيء ما ، والانسان عندهم على مقتضى فهمهم القضاء والقدر ليس إلا محلا لأعمال الخلاق ، فكل الأعمال الخيرة والشريرة التى يعملها الانسان فى الظاهر أو تعمل فيه انما هى أعمال الله وصنعه وحده ، والعبد ليس له فيها الا المحلية ، أى كونه محلا لها »

فيقال : قبحك الله وقبح من يغتر بكلامك ما أرخص الكذب عندك وأشد عداوتك للدين وأهله . فياعدو الله من أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن الانسان ليس إلا محلا وظرفا لأفعال الله ، وأن الأعمال التى تعمل فى العبد ما هى الا أعمال الله وصنعه وحده [1] فنى أى عقيدة معتبرة وجدت هذا ، ولا عجب فان الزنديق المرتد المملوء قلبه حقدا على الاسلام وأهله لا بد أن يقول هذا ونحوه ، قال تعالى فى المنافقين ﴿هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله

(١) فاذن كل فجور يعمله الانسان أو يعمل فيه فهم ينسبونه اليه تعالى ، قاتلك الله ما أعظم عداءك للاسلام

أنى يؤفكون ﴾ وليس فى المسلمين من يشك فى أن من ادعى أن كل أفعاله تعمل فى الانسان فهى فعل الله ليس للعبد فيها صنع وانما هو ظرف لها أنه كافر خارج من الدين ، فكيف يكون هذا هو اعتقادهم ، وهم لا يشكون فى كفر من اعتقده ، وسيأتى كلام شيخ الاسلام ونقله الاجماع على أن العبد فاعل حقيقة باختياره ، وسيأتى قول أئمة الأشاعرة كصاحب العقائد النسفية فانه ذكر فيها أن العبد فاعل مختار حيث قال « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها » الخ

ثم الطامة الأخرى قوله بعد هذا « وقد زعموا أن من اعتقد أن الانسان فاعل حقيقة أو موجد أعماله حقيقة فهو المشرك » انتهى ، فهكذا تصنع الزندقة والعداوة المنكرة للاسلام وأهله بصاحبها ، وكل عاقل يعلم أن جماهير أهل السنة على أن الانسان فاعل حقيقة كما نقله شيخ الاسلام فى (العقيدة الواسطية) عن أهل السنة والجماعة حيث قال ص٢٣ « والعباد فاعلون حقيقة » هذا لفظه وسيأتى كلامه كله ونقله الامام ابن القيم فى (شفاء العليل) عن أهل السنة ، ونقله شارح الطحاوية وغيرهم ، وأما كون الانسان محل لاعمال الله وظرف لها فهذا لم يقل به أحد من المسلمين ، بل كلهم يكفرون من يدعى ذلك ، وانما ينسب القول بالجبر الى الجهمية وقد كفرهم أئمة السلف كما نقله شيخ الاسلام ، ونقل الاجماع على كفرهم الامام أحمد فى رسالته لمسدد [1] ونقله الامام الدارمى فى الرد على المريسى ، ونقله عبد الله بن أحمد فى كتاب السنة حتى نقل عن الحسن بن عيسى أنه قال : ومن يشك فى كفر الجهمية ، وتكفير الجهمية أمر مشهور . فكيف ينقل هذا الملحد عن المسلمين أنهم يكفرون من يقول ان العبد فاعل مع أنهم يكفرون من يقول بالجبر المحض والأئمة

(١) مختصر طبقات الحنابلة ، وهى أيضا فى المدخل

نقلوا الاجماع على أن العبد فاعل وفى القرآن والسنة من إسناد الافعال الى الانسان مالا يعدّ ولا يحصى من النصوص ، وبعض الأشعرية الذين يعدونهم مغالين فى القدر لا يقولون ان الانسان محل وظرف لأفعال الله بل يقولون ان للعبد كسبا حقيقة ويمنعون فى إطلاق كونه محلا أو ظرفا ، بل يعدون ذلك مروقا من الدين ، ولهذا قال النسفى كما مرّ « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها » فلينظر العاقل إلى كلام هذا الملحد والى أقوال أئمة الاسلام ليعرف أن هذا الملحد لا يبالى بما يفتريه على الدين وأهله من بهت وسب وبغى

ثم قال « وقد كفر فريق منهم المعتزلة ، وقال المعتدلون منهم انهم ضلال فقط ، لذهابهم الى أن الانسان موجد أفعاله وأن فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا . . . وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان بالقدرية اى المعطين للانسان قدرة ذاتية »

فيقال : كأنه يخاطب بهذا الهذيان أمة أجنبية عن معرفة دين الاسلام ومذاهب أهله ، ولهذا قال وهم يسمون من يقول بقدرة الانسان القدرية أى المعطين للانسان قدرة ذاتية . فمن هو الذى توجه اليه هذا القول المزور المكذوب الذى لا يخفى فساده على أدنى مسلم، وكيف يكفر المسلمون المعتزلة بقولهم ان فيه قدرة على العمل حقيقة لا مجازا ، وهم مجمعون على هذا كما نقله شيخ الاسلام ابن تيمية فى (العقيدة الواسطية) وغيرها ، والذين كفروا المعتزلة لم يكفروهم من أجل نسبة الفعل اليهم حقيقة ، وانما كفروهم لأنهم جعلوا أفعال العباد غير مخلوقة لله أى خارجة عن مخلوقاته ، وبعضهم أنكر كونه يعلمها وأنه لا يهدى ضالا ولا يقدر على ذلك مع تحريفهم للصفات كانكار العلو على العرش وانكار السمع والبصر وادعائهم بأن كلامه تعالى مخلوق ونحو ذلك ، وأما اعتقاد أن العبد فاعل حقيقة لا مجازا وله قدرة على فعله حقيقة فهذا هو قول أهل السنة ، لكن المعتزلة يدعون أنه فاعل بدون المشيئة ،

وحقيقة قولهم أنه يعصى قهرا عنه، فهـــذا هو الذى أنكره المسلمون عليهم لا نسبة الفعل الى العبد حقيقة، وقد بينا فيما تقدم أن هذا المغرور أسند أفعال العباد الى الطبيعة ونواميسها، وصرح بأنها هى التى تحكم العالم، فعلى هذا فالعبد ليس فاعلا لأفعاله حقيقة بل مجبور عليها بحكم قوانين الطبيعة، فهى التى تدفعه اضطرارا الى الفعل، وهو محل وظرف لأفعالها وأحكامها، وليس له اختيار وخروج عن مقتضى هـــذه النواميس الطبيعية . وقد صرح بأن من حاول الخروج عنها هلك ولا محالة ولن ينفعه أن يقول انه مسلم، ومعلوم أن الطبيعة ليس لها عقل ولا عدل ولا رحمة ولا حكمة ، بل عملهـا تفاعل اضطرارى قسرى ، فما الظن بمن يتصرف فيه من هذه حقيقته ، فصار هذا الملحد أكفر من غلاة الجهمية وأكفر من المشركين كلهم القائلين بالجبر، لأن أولئك الذين ادعوا الجبر جعلوا الله هو الفاعل ، وأما هذا فقد جعل الطبيعة هى الفـاعلة وهى التى تجبر الناس على أفعالهم ، وأما رب العالمـين فهو عنده معزول عزلا تاما عن ملكه ، ولهذا لم يسند اليه شيئا من التصرف فى هذا الكون فى كل أغلاله ، غله الله بها الى يوم يلقاه

ثم قال « ومن قول إحـدى العقائد المنظومة المدروسة فى الأزهر الذى يملى عقائده على أربعمائة مليون مسلم ـ أو الذى يحاول هذا الاملاء ويسلمه له الملايين ـ من قول إحدى هذه العقائد فى تجريد الانسان من قواه :

ومن يقل بالقوة المودعة   فذاك بدعىّ فــلا تلتفت

أى من يقل بأن فى الانسان قوة على أعمـاله أودعها الله فيه فهو مبتدع فى الاسلام لا يلتفت اليه . هذا هو فهمهم للقضاء والقدر ، وهذه هى منزلة الانسان لديهم »

فيقال : كل هذه الدعاوى فى سائر هذه الأقسام كذب وفجور لا يخفى على من له أدنى إلمام بمعرفة مذاهب المسلمين فى هـذه المسألة ، وحاصل ما ذكره

عنهم أنهم يقولون بالجبر بل أشنع من الجبر، حيث جعلهم يدّعون أن الانسان كالظرف والمحل لعمل غيره ، وانما طوّل هذه الاقاويل ونوّعها ليوهم أن المسألة فيها اضطراب واختلاف ونزاع فيجب طرحه ، ومن عمق خبثه وحبه لكتم الحق وغمط الحقيقة أنه ذكر قول غلاة الجبرية من الجهمية وقول المعتزلة فقط ، وتجاهل ما عليه جماهير المسلمين الذين كان يدعى سابقا أنهم أهل العلم والدراية وأهل البصيرة فى الدين وأنهم أتباع السلف ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة الصريح الواضح المدون فى كتبهم المقررة قراءته فى كثير من أنحاء المسلمين ، فترك هذا الواضح الجلى وضرب عنه صفحا ، وهو أن العبد فاعل فعله حقيقة لا مجازا وله قدرة وإرادة واختيار على الفعل والترك ، ولكنه لا يفعل شيئا قهرا على الله ، بل باذنه . هذا المذهب أعرض عنه كما يأتى كلام أئمة المسلمين فى تقريره ، ولو أن هذا الملحد لم يعرف كتب أهل السنة ويقرأ كثيرا منها لكان له شيء من العذر ، ولكنه لا يريد بيان الحق ، وإنما يريد اتباع هواه ، فلهذا عمد الى أشنع قول قيل فى هذه المسألة فادعى أن هذا هو اعتقاد المسلمين فى هذه المسألة الاصولية ليشوه سمعتها بقصد رفضها ، لأن المقصد الحقيق هو الرفض فتوسل اليه بالتشويه ، فلو ذكر الحق لم يستقم له ما يريد ، ولهذا انحدر سريعا الى الاستشهاد بهذا البيت واستدل به على الأقوال التى ذكرها بأن الانسان ظرف ومحل لأعمال غيره ، وأنه ليس بفاعل . ومعلوم أن البيت ليس فيه أدنى شاهد لهذه الدعوى ، وليس فى البيت ما يدل على أن من ادعى أن العبد فاعل حقيقة فهو كافر كما زعم ، غاية ما فيه أن صاحبه أنكر أن تكون الأشياء فاعلة بطبعها لذاتها أو بقوة فيها ، ولم يتعرض للانسان بل كلامه فى القوى التى فى الأشياء ، والا فالناظم يعلم أن للانسان اختياراً فى أفعاله ، فقد أثبت أن للانسان كسبا وذكر فى المنظومة نفسها كثيرا من الواجبات والمحرمات ونهى وأمر ، ولو كان يرى أن الانسان كالظرف ولا قدرة له لم يؤلف العقيدة ويدعو اليها ، فان الظروف والجمادات

والاشجار والحيوانات العجم لا تخاطب بهذه التكاليف ، وما ذاك إلا لأنها لا قدرة لها على هذه الأفعال وفهمها ، فهذا البيت ليس فيه دليل على ما ادعاه بوجه من الوجوه ، هذا لو سلم أن العمل عليه وأن الملايين الذين ذكرهم يعتقدونه ، وإلا فأدنى عاقل يعلم أن هذه العقيدة فضلا عن هذا البيت من جنس غيرها من العقائد التي يدرسها بعض الطوائف المنتسبة الى السنة وان كان فيها انحراف عن طريقة السلف بل كثير من العلماء المحققين كالحنابلة وغيرهم من أتباع السلف يعلمون أن هذه العقيدة فيها بدع لا يصح الاعتماد عليها ، وجماهير أهل السنة مخالفون لكثير منها ، فان الأسباب عندهم تؤثر بالقوة المودعة فيها ، والعبد فاعل مؤثر بالقوة المودعة فيه كما صرح بذلك الامام ابن القيم وغيره كما يأتي (١) وهذه العقيدة وأمثالها هى من أسباب ضلال بعض المتطرفين الذين يقرؤنها هى وأمثالها فيظنون أنها هى عقيدة المسلمين وأن أصل الاسلام هو ما اشتملت عليه ، فاذا قرأ هؤلاء مثل انكار الجهة لقصد إنكار العلو فوق العرش وانكار تأثير القوى ظن أن هذا دين الاسلام ولم يعلم أن الحق عكس ما ادعاه صاحب المنظومة ، حتى ان صاحب العقائد النسفية وهو من أصحاب صاحب هذه المنظومة صرح بأن للعباد أفعالا اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، فالالتجاء الى هذا البيت فى الاحتجاج دليل على زيغ هذا الملحد واتباعه لهواه ، ودعواه أن هذا البيت يدرس فى الأزهر لا يدل على أن المسلمين يعملون بمقتضاه ، فان الأزهر يدرس فيه عقائد كثيرة ، حتى أن هذا الزائغ يدعى أن عقائد الرافضة والزيدية تدرس فيه ، فليس وجود عقيدة واحدة تدرس فى جانب من جوانب الأزهر أحيانا دليلا على أنها هى عمدة المسلمين ، واذا كان الأزهر يريد إملاء عقائده على ملايين المسلمين كما

---

(١) وتقدم أيضا تصريحه بذلك آخر البحث السابق

يدعى فليس إملاؤه هو هذه العقيدة ، بل هو يملى عليهم عقائد كثيرة [١] وبعض الأقطار الاسلامية لا يجيزون إملاء هذا البيت ولا القول به لأنه باطل بلا شك مع كونه لا يدل على ما ادعاه البتة

ثم أخذ فى الاستهزاء بالأشعرية والسخرية بهم مضيفا اليهم ما لم يقولوا به فقال : « فالانسان ليس فاعلا وليست له قدرة على الفعل ، ثم اختلفوا بعد هذا [٢] هل يسمى كاسبا أو يبخل عليه بهذه التسمية وهذا التشريف . قالت طوائف لا يسمى كاسبا وانما هو الجبر البحت والظرفية البحت [٣] والاضطرار المطلق فى الظاهر والباطن . وقالت الطائفة التى تدرس آراؤها وعقائدها فى سائر المعاهد الاسلامية [٤] وهى الطائفة المحسوبة على الأشعرى المنسوبة اليه المسماة بأهل السنة [٥] قالت هذه الطائفة بل نسميه كاسبا ، ثم عادت وأعملت معاول التفسير والتأويل فى معنى الكسب والكاسب فردته الى الجبر المحض الذى لا غبار عليه ، فقد قيل لها : هل العبد فاعل حقيقة . قالت لا . قيل لها

---

(١) وهذا المغرور نفسه قد صنف نبذة سماها (شيوخ الازهر والزيادة فى الاسلام) فادعى أن شيوخ الأزهر زائدين فى الاسلام مبتدعين فيه ، وضللهم فى ذلك وادعى أنهم مخالفون لأئمة المسلمين فى هذه البدع ، فكيف هنا يحتج بوجود بيت فى قصيدة واحدة قد يقرأها بعض الناس فى الأزهر كأنها هى التى يعتمد عليها فيه وحدها

(٢) هذا صريح فى أنهم اتفقوا على أن الانسان ليس بفاعل وليس له قدرة ، لانه قال « ثم اختلفوا بعد هذا »

(٣) من هم هؤلاء الطوائف من المسلمين القائلون بالجبر البحت والظرفية البحت الخ ، قاتلك الله ما أجرأك على الكذب

(٤) هذا كذب وفجور ، بل اكثر المعاهد الاسلامية لا تدرس هذا

(٥) لكن أهل السنة عند الاطلاق ليس هم الأشعرية وحدهم بل أهل السنة هم أتباع السلف وأصحاب الحديث كما فى الواسطية

هل هو شريك فى الفعل مشاركة حقيقية فقالت لا . فقيل لها هل هو سبب حقيق فى وجود الفعل الواقع فيه . فقالت لا . فقيل لها هل هو موجد له . فقالت لا . فقيل لها فهل يستطيع أن يمتنع من فعل ما وقع عليه من الأعمال ، أى هل هو مختار فى حدوث الأفعال الواقعة فيه وفى عدم حدوثها . فقالت لا . فقيل لها ما معنى كونه غير مجبور . فقالت هو أنه كاسب . فقيل لها وما معنى كاسب . قالت هو كونه كاسبا . فقيل لها هذا له خيء . قالت معناه ليست لنـــا عقول[١] . فالكسب عند الأشعرية هو الجبر فى المعنى عند الجبرية ، والتسمية بكاسب وكسب لا معنى لها ، بل مذهب الجبرية أوضح من هذا المذهب » انتهى

وكل هذا ثرثرة وهذيان لا طائل تحته ، فانه اخترع ما شاء ، وخاطب نفسه بنفسه ، وقدر أشياء بعقله وادعاها وأجاب عليها ، فهو مطالب ببيان الجبرية من هم ، وهل هم من المسلمين حتى يحتج على الناس بأقوالهم ، ثم هو مطالب بما نقله عن الأشعرية فى تفسير الكسب وهو لم يبين شيئا من هذا بل ادعى ان الأشعرية يقولون بالجبر إلزاما لهم مع أنهم نفوه صريحا[٢] وهو من أعظم الناس مشاقة ومماكسة ومعاندة لمن ألزمه بصريح قوله ، بل ألزم الأشاعرة هنا بأنهم يدعون أن لا عقول لهم ، وقد أفصح فى هذا وغيره عن

(١) هكذا ادعى ان الأشعرية يذكرون عن أنفسهم أنه ليس لهم عقول . سلاسل خبيثة يتعب الانسان فى نقلها والتنبيه عليها

(٢) وذكر أن الكسب لا معنى له فاكتفى بقوله لا معنى له عن إقامة البرهان على رده ، ولولا كراهة التطويل لنقلنا تحامله وتهكمه واستهزاءه بالدجوى فى نبذة (البروق) حينما ادعى الدجوى فى كلام ذكره أنه « لا معنى له » فتهكم به هذا وذكر أن كلمة « لا معنى له » لا تكفى ، وأن كل أحد يقدر على أن يقول مثلها وأطال فى ذلك ، ولكنه سقط على أم رأسه واضطر هنا اليها والى أمثالها بما رمى به اعداءه

السر" الذى طرد من الأزهر بسببه من جنس هذه المخازى ، وفتح للناس باب العذر فى أعدائه الذين فصلوه وطردوه بما أباح به فى هذه الاغلال وغيرها

ويكفى القارىء أن يرجع الى كتب الأشعرية التى لا تعد ولا تحصى فيجد تكذيب هذا القول الذى عزاه اليهم صريحا ، فانهم صرحوا بان للانسان فعلا اختياريا وقدرة على فعله وأنه غير مجبور ، وهذا ادعى عليهم الجبر وأن الانسان ليس له قدرة على عمـــله . ولا ريب أن من أشهر ما يعتمد عليه الأشاعرة فى العقائد هى (العقيدة النسفية) قال مؤلفها فيها « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها ، والحسن منها برضى الله تعالى ، والقبيح منها ليس برضاه تعالى ، والاستطاعة مع الفعل ، وهى حقيقة القدرة التى يكون بها الفعل ، ويقع هذا الاسم على سلامة الأسباب والآلات والجوارح ، وصحة التكليف تعتمد هذه الاستطاعة ، ولا يكلف العبد ما ليس فى وسعه » انتهى . فانظر كيف صرح بأن العباد لهم أفعال اختيارية ، ومعلوم أن المجبر غـــير مختار ، وكلامهم فى هذا الأصل معروف مشهور وكله يقضى بتكذيبه.

ثم ذكر أن هـذا الذى قاله عن الأشعرية فى معنى الكسب « من المذاهب التى تقال مع تجردها من الحقيقة والمعنى »

فيقال له : لكن عجزت عن الرد عليهم ، وحقيقه كلامك هذا كله سخرية واستهزاء فقط ، وقد كان من الواجب عليك اذا كنت تريد تفنيد رأيهم أن تنقل كلامهم وترده بكلام صحيح معقول بدون تهكم واستهزاء ، وأنت لم تفعل شيئا من هذا ، فنكتفى بمنع ما ادعيته والمطالبة بتصحيح ما نقلته ثم بيان فساده

والعجب كل العجب أنه أطال فى ذم الأشعرية وصار يدور على مذهبهم ، وأعرض عن مذهب جماهير أهـل السنة الذى نقله شيخ الاسلام ابن تيمية عن أهل السنة والجماعة ونقله ابن القيم وغيرهما ، وهو يعلم أن عقيدتهم صريحة فى أن الانسان فاعل مختار له قدرة وارادة وتاثير فى عمله كما سيأتى ، فاقتصر

على ذكر مذهب الجبرية والمعتزلة وترك غيرهم ، وهذا عين لبس الحق بالباطل وكتم الحق مع العلم به

ثم قال مشنعا على أهل السنة بزعمه بعد كلامه المتقدم : « فأعظم معانى القدر عند هؤلاء وأظهرها أن الانسان ليس فاعلا ولا عاملا ، وانما الخالق هو الموجد الفاعل لكل شيء ، والانسان لا يعدو أن يكون محلا لما يسمى أفعالا له . والقضاء هو الفراغ من ذلك . فالعبد عندهم مجرد من كل شيء سوى الظرفية ، فهو عاجز عجزا تاما ، والله لم يخلق له قوة يفعل بها ، ومن قال بهذا فهو كافر فى رأيهم ، وعند المعتدلين منهم فاسق فقط »

فيقال لهذا الملحد : لا يعجز أكفر يهودى أن يدّعى على المسلمين هذه الدعاوى الخبيثة كذبا وفجورا ، فانه اذا كان مجرد ادعاء الانسان على عدوه بدون نقل وبدون دين وحياء يقبل فما الفرق بينك وبين اليهودى ، ولقد تذكرت بهذا ما ذكره بعض المطلعين على حقيقة أمر هذا المغرور قال : جرى بينى وبينه مناقشة فى مواضع من كتابه ، فقلت له : قد ذكرت أمورا كثيرة فى كتابك وعزوتها الى المسلمين مما ليس له أصل ، بل قد يكفرون من يقول بها وأنت تعرف أن العلماء وكثيرا من الطلبة يعرف مذاهب الناس وآراءهم ، وهذا يقضى بتكذيبك ورد الكتاب كله وربما قاموا عليك . قال فأجاب قائلا : كل الذى قلته فى كتابى فى إمكانى أن أخرّج له معنى ولو بعيدا ، والتأويل غير ممنوع ، وأنا لم أصنف الكتاب للعلماء والطلبة [1] بل للزعماء والرؤساء ، وهؤلاء أكثرهم لا يعرف حقيقة هذه الأمور ولا حقيقة مذاهب الناس فيها ، وهم الذين بأيديهم أزمة الامور ، وهم اذا شاءوا تفنيده لا يمكنهم جمع العلماء وسؤالهم لأن ذلك ضدهم ، وقد يختلفون بينهم فيكون ما قلته موافقا عليه

---

(١) اى الذين يعرفون مذاهب الناس

بعضهم على الأقل ، لأنه لا يمكن أن يقوم أحد منهم بمناقشتى فى هـذا ، وقد تيقنت أن من هنا أناسا موافقين لى فى هذا . وذكر كلاما طويلا هذا معناه .
ولا شك أن ما ادعاه هنا يؤيد ما ذكر عنه تاييدا ظـاهرا ، فانه يأتى الى أمور واضحة قد صرح علماء الاسلام بأنها كفر فيدعى أنها مذهبهم وأنهم يكفرون من فعلها ، ولهذا نسب الأشعرية الى الجـبر المحض وأنهم يقولون ان العبد ليس إلا ظرفا لأعمال الآخرين ، وأنه مجرد من كل شيء سوى الظرفية ، وأنه عاجز عجزا تامـا ، وأنهم يكفرون من يقول ان الله خلق فى العبد قوة يفعل بها ويفسقونه . ومعلوم أن الأشعرية ينكرون هذا وأكثرهم يكفر الجـبرية المحضة الذين يدعون أن العبد ظرف لأفعال الله وأعمال الآخرين لا قدرة له عـــلى فعله

وقريب من كذبه هذا وبهته ما نقله ونسبه الى فقهـــاء الشافعية بأنهم يوجبون على الانسان أن يتوضأ بالبول اذا كان الماء قليـلا لا يكفى للوضوء حيث قال فى ص ١٤٦ وهذا لفظه « وممـا يقرب من هذا وان كان ليس منـه ما ذكره فقهاء الشافعية قالوا اذا وجد جماعة من المسلمين ماء لا يكفيهم للوضوء لزمهم أن يبولوا فيه ثم يتوضأوا منه » انتهى لفظه بحروفه ، فنسب هذا الفجور الى فقهاء الشافعية ولم يذكر مصدره ، وقد علم الخـــاص والعام أن الشافعية يحكمون بنجاسة المـاء اذا كان دون القلتين بمجرد ملاقاة النجـاسة وان كان لا يدركها الطرف وأنه يحرم استعماله فى الوضوء وغـيره ، وكلامهم مشهور فى ردّ هذا البهت فى أدنى كتاب من كتبهم الفقهية (١)

---

(١) وتقدم ادعاؤه على المسلمين بأنهم يرون الجهـالة أم الفضائل ، مع ان شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب ذكر فى كتاب الكبائر أن الجهالة من الكبائر واستدله عليها بالنصوص ، وأمثال هذا كثير جدا

ثم قال « وقد اشتدت المبـــارزة في العصور الأولى إبـان نشوء الفرق والمذاهب وتكونها بين هؤلاء الذين يسمون أهل السنة وبين المعتزلة وتقاتلوا بكل سلاح استطاعوا الحصول عليه ، ولـكن كانت الغلبة في النهاية لمن يسمون أهل السنة ، فاندحرت جيوش الاعتزال بل قضى عليها حتى لم يبق لهم اليوم باقيـة معروفة ، واختفت كتبهم وانقرضت وصارت عقـائدهم لا تعرف في الغالب إلا من كتب خصومهم عند ما يذكرونها لثلبها وثلبهم وللتشهير بها وبهم ، فاصبح الناس كلهم إلا من شاء الله من أهـل السنة أي من الأشعرية ومن إخوانهم المشابهين لهم في كل شيء [1] » .

فيقال : كل هذا حجة عليك ، فانك عللت بأن القول بهذا المذهب يوجب الضعف والتأخر ، وأن مذهب الاعتزال عندك في هذه المسألة أصح ، فلمَ لمْ ينفعهم هذا الاعتقاد وقد مكثوا مئات السنين على كثرتهم ولم تقم لهم قائمـة ، بل غلبهم هؤلاء الذين تشنع عليهم وتدعي أن مذهبهم في القضاء والقـدر لا يمكن أن تتقدم به أمة . ثم دعواك بأن الناس على هذا المذهب دعوى كاذبة ، فقد علم أن القائلين بخـلاف مذهب الأشعرية في القدر والقضاء أمم لا يعدهم ولا يحصيهم إلا الله ، بل قد يكونون أكثر منهم في سائر الاقطار الاسلامية . وقد بينا أن مذهب أهل السنة والجماعة هو خلاف مذهب المعتزلة وأقرب الى الاثبـات من مـذهب الأشعرية كما يأتي في كلام شيخ الاسلام حيث قال في (العقيدة الواسطية) التي ذكر أنها عقيدة أهل السنة والجماعة ، فقال في مسألة القضاء والقدر « والعباد فاعلون حقيقة ، والله خالقهم وخالق أفعالهم ، والعبد

---

(١) قبحك الله ما أسرع انحرافك ، وقد ذكرت في كتبك الاولى أن أئمة المسلمين من أهل السنة وأتباع السلف كلهم مخالفون لأكثر أصول الأشعرية ، وهنـا تدعي أنهم إخوانهم مشابهون لهم في كل شيء ، فهل هم مشابهون لهم في هذه المسألة والكلام والتحسين والتقبيح وكثير من الصفات الخبرية وغيرها

هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق ارادتهم، فانظر كيف صرح بان للعباد قدرة على أعمالهم وإرادة وأنهم فاعلون حقيقة، فاعتقاد قدرتهم وإرادتهم واختيارهم فى إيقاع أفعالهم لا ينافى كون الله خالقهم وخالق أفعالهم، فالله سبحانه هو الذى خلق العبد وخلق جوارحه وقدرته ومشيئته، فكله بجسمه وروحه وعقله وإرادته ورأيه مخلوق، فافعاله من أجل هذا مخلوقة لله، لا أنها فعل لله، فيجب أن يعرف الفرق بين الفعل والمفعول، فالعبد هو الآكل الشارب المصلى، وأكله وشربه وصلاته مخلوقة من مخلوقات الله، لا أن الله سبحانه هو الذى فعلها بل العبد هو الذى فعلها حقيقة لا مجازا، وسيأتى توضيح هذا، فخلق الشيء المختار المريد ليس دفعا له على فعل ما لم يرده بل يريد نقيضه، فالخلق شيء وإرادة المختار المريد شيء آخر، وليس الغرض تقرير هذه المسألة ببراهينها وأدلتها الطويلة فان هذا موضعه كتب الأصول المطولة، وانما المقصود بيان كذبه وأن ما ادعاه على المسلمين على هذا الوجه كذب ظاهر وبرهان على عداوته لهم وأنه يحاول به ايقاع العداوة بين الزعماء والعلماء وإثارة الفتن لأغراض قد نبهنا عليها فيما سبق

ثم لما فرغ من نقل هذه الأقوال وأضاف اليها ما شاء من البهت والفجور أخذ فى التشنيع وحمل التأخر والضعف عليها وعلى العلماء القائلين بها على عادته فى محاربة أوهامه التى يتصورها على غير حقيقة، وقد بينا لك أن ما ادعاه كذب، وإذا بطل الاصل عرف بطلان الفرع وعرف أن سبب التأخر غير ما يدعى، ولو لم يكن من ذلك الا أن المعتزلة لا يرونه ومع هذا صاروا أعظم فى التأخر من المثبتين له، فسبب التأخر هو التقصير فى العمل بالكتاب والسنة، فهو التقصير بالاستضاءة من نور الله وأخذ القوة من روح الكتاب العزيز الذى جعله الله هدى ونورا وشفاء ورحمة وبصائر لمن آمن به وعمل به

وعمىّ على كل من أعرض عنه وابتغى الهداية من غيره

فصل

قال « ناد فى جموع المسلمين منكرا عليهم اختصاصهم بالذل والاستعباد دون العالمين ، فانهم سيجيبونك انه القضاء والقدر . قل لتاجر أو صانع أو زارع : لماذا أنت صغير فقير ، وفلان من الاجانب يملك الضياع والمتاجر والمصانع والاموال العظيمة (١) ؟ فسيجيبك أيضا انه القضاء والقدر . كلم من شئت لما شئت منكرا أو معاتبا أو مستفهما (٢) فستسمع الجواب أيضا انه القضاء والقدر ، فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول ، وهما السبب الظاهر المعقول فى كل فشل وفى كل هوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس »

فيقال : كل هذا كذب وبهتان ، وليس له أساس من الصحة ، ونحن نكتفى فى دحر هذه الدعوى بأن نتحدّاه فنقول له : ان كنت صادقا فى دعواك هذه فادخل أنت فى جموع المسلمين وناد بهذا النـــداء ، فان أجابوك بهذا فأنت صادق ، ولكنك لا تظفر بهذه الإجابة أبدا ، ولا تسمع عاقلا واحدا يجيبك بهذا الزعم الذى تدعيه . وياليتك تجرب هذا لتظفر بالصفع واللعن والبصاق فى وجهك وتقع فى ورطة لا مخلص لك منها

يا بلعام زمانه ، لو ناديت بهذا النداء لأذاقوك أنواع العذاب والنكال وقالوا لك بعد الفعل بك ما تستحقه : انها الذنوب والمعاصى والإعراض عن الدين والتفرق والاختلاف وفساد الاخلاق وتحكيم الطواغيت فى شرع الله . انك لو ناديت ألف مرة أو أكثر فانهم لا يجيبونك إلا بهذا أو ما هو معناه .

---

(١) يفهم من هذا أن كل مسلم صغير فقير ، وكل كافر كبير تاجر عظيم كما ترى

(٢) فعلى هذا لو لام أحد أحدا على الزنا والسرقة لأجاب أنه القضاء والقدر . هكذا تكون المجاهرة بالقحة .

يدل على هذا دلالة واضحة جلية ما هو منشور مشهور فى الكتب والمجلات والجرائد المعتدلة وغيرها ، فانها ليس فيها كلها ما تدعيه ، فليس منهم أحد يقتصر اذا ما بحث فى أسباب التأخر على القضاء والقدر ، ولا يعرف عاقل تفوه بهذا ، بل كل منهم يتكلم ويعلل بما يراه من الأسباب الأخرى التى حاصلها التفريط والتقصير فى الأمور الدينية والدنيوية ، أما أن أحدا منهم — يا بلعام زمانه — يحمل عهدة كل مصيبة على القضاء فقط كما تدعى فغير صحيح ، بل هو من الكذب البارد والهذيان المرذول . ولو أنهم يرون هذا الرأى الذى تدعيه لنشروه واعتمدوه وكان معروفا مشهورا لدى الخاص والعام ، فاذا كان الأمر خلاف هذا فكيف يجيبون من ينادى بهذا النداء بخلاف ما قالوه وكتبوا وصرحوا بخلافه ، فما هذه الثورات والمنازعات والأعمال التى تبذل فى سبيل كل مصيبة ، فهل تظن أنهم يثورون وينازعون ويقاومون القضاء والقدر إذا كانوا يحصرون العلة فى ذلك كما تقول وتدعى بدون عقل ولا حياء . يا بلعام زمانه ومطية شيطانه ، قل لتاجر أو صانع أو زارع عاقل مؤمن : لماذا أنت صغير فقير فى هذه الأمور دون بعض الكفار ، فانه سيجيبك بان ذلك بسبب تفريطى وتقصيرى فى طاعة ربى ، وجهلى بمعرفة هذه الأمور . فلو قلت له : فلماذا كان الأجنبى أكثر منك ضياعا وأعظم تجارة وهو أشد تفريطا فى الطاعة بل لاطاعة له ، فسيقول لك : ليس كل أجنبى أكثر منى ضياعا وأكبر تجارة ، بل يوجد فى الأجانب ملايين لا تحصى أقل منى تجارة وضياعا مع ما هم فيه من المصائب المتنوعة ، واذا وجد فيهم من هو أكثر منى فى المسلمين من هو أكثر منه ومن كان مثلى منهم ، فما أعطانى الله من حلاوة الايمان ونشاط الروح وقوة القلب وعزة النفس والأنس به تعالى خير مما أعطاه الله من الزيادة بالنسبة إلى ، ونقصى فى التجارة أسهل من نقصه فى الدين ، وقد حصلت المساواة بينى وبينه فى لوازم الحياة الضرورية ، وأما ما زاد عن ذلك فان يكن زاد على فى نوع واحد كالتجارة فقد زدت عليه فى أنواع أخرى من ضروب

الحياة ، فبين لى واحدا منهم زاد على فى كل شىء حتى اقنعك أننى قد زدت عليه من ناحية أخرى ، ولو لم يكن من ذلك إلا عزة الايمان وراحة الضمير ، وغاية ما عندك أن تدعى أن فيهم من قد زاد على فى التجارة ، وليست اللذة كلها محصورة فى التجارة فقط بل كم فى الدنيا من تجارة مريرة قد أهلكت صاحبها ، فأسباب اللذة والنعيم والراحة كثيرة جدا ، والتجارة سبب واحد منها ، فلا يسوغ لى أن أبيع رأس مالى من دينى وغيره من أسباب الملاذ الأخرى بتجارة غير محققة منافعها ولذتها[1] كما لا يسوغ لك أن تتجاهل وتتعامى عما لدى من فضل الله ورحمته والفرح بذلك وتجعله شيئا صغيرا وتعظم أمر التجارة وتجعل الخير كل الخير فيها ، وأنا أرى غير رأيك وأعرف من نفسى مالا تعرفه أنت . هذا هو الذى سيجيبك به كل مؤمن عاقل ، أو ما هذا معناه ، أما أنه سيحمل مصيبته على القضاء والقدر فقط فهذا لا يفعله مؤمن أبدا ، بل لا يفعله إلا من هو من إخوانك المنافقين الشاكين فى الله ودينه ، فيحتجون بالقضاء والقدر اتباعا لأهوائهم لا إيمانا بهما كما قالوا ﴿أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا فى ضلال مبين﴾ والمسلم اذا ذكر القضاء والقدر أحيانا عند المصائب فانه يقرن ذلك بتعليل معقول صحيح ، فلا يذكرهما مجردين ويجعلهما هما المصيبة أو هما سبب المصيبة لا لاجل ذنب ونحوه . والعجب من جرأته فى قوله « فالقضاء والقدر هما العذر الواضح المقبول » الخ ، فلا ندرى هل هذه رؤيا رآها ، أو وحى من الشيطان أدخله فى روعه ، أم شىء هذى به ولم يعرف معناه ويخشى تبعته ويراقب نتيجته ، أفلا أبصرت عيناه أو عينه وطرق سمعه هذا الكفاح المتواصل والمنازعات الدائمة والثورات المتتابعة ، وكيف لم ير هذه الأعمال المختلفة المتنوعة التى يقوم

---

(١) أو محقق وجودها على ترك الدين

بها المسلمون من المعارف والعساكر والزراعات والتجارات والصناعات وغير ذلك ، فلأى شىء وضعت ، ولأى شىء بذلت إذا كان القضاء والقدر هما العذر المقبول ، أفلا يستحى قدر مبلغه من العلم أن يتفوه بهذه الترهـــات المخزية والفضائح المكشوفة . ثم دعواه على المسلمين بأنهم مختصون بالذل والاستعباد دون العالمـــين زيادة رجس الى رجس وإضافة خبث الى خبث ، متى كان المسلمون مختصين بالذل والاستعباد دون العالمين ، وأنت ترى أمما كثيرة فى مشارق الأرض ومغاربها تتمنى باقصى ما لديها أن لو حصل لهـــا من العز والسيادة مثـل ما حصل للمسلمين ، مع أنهم ينكرون القضاء والقـدر وقد لا يعرفونهما كما يعرفهما المسلمون . وقد تقدم ادعاؤك أول الكتاب أن هـــذا الاستعباد لم يختص به المسلمون بل اجتاح غـيرهم ، فكيف تدعى هنـا أنهم اختصوا به من دون العالمين ، وكل مسلم بل كل عاقل يعلم أن الفترات التى فقد المسلمون فيها عزهم العظيم ومجدهم الكبير أقل من الفترات التى ضرب بها هؤلاء الغربيون بالذل والاستعبـاد ، فان أولئك مكثوا آلاف السنين فى أضعف حالة وأذل استعباد ، بخلاف المسلمين فانهم نالوا نهاية المجـد وضخامة الشأن وعلو السيادة فوق ألف سنة ، ولم يفقدو إلا بعض عزهم فى فـــترات قصيرة بسبب إعراضهم وتقصيرهم فى اتباع القرآن والسنة اللذين قامت عليهما حياتهم ونجاتهم وعزهم ومجدهم الأصيل

والعجب الآخر من خبثه العميق فى قوله « وهما العذر الواضح المقبول فى كل فشل وهوان وعبودية ، وفى كل عجز وضعف وفقر وبؤس » وسكت عن ضد ذلك ، وكان عليه أن يقول : وهما الحجة فى كل نصر وعز وتمكين وقوة وغنى وثروة ، فانه من المعلوم أن من يحتج بالقضاء والقدر فى شىء من أموره فانه يحتج بهما فى الخير والشر سواء ، ونحن نعرف النكتة فى ذلك وهو إشانة هذا الأصل الدينى بكل وسيلة ، وأن الايمان بهما يجر الى الشر دون الخير

ثم رجع فأخذ فى تكرير ما سبق بأن المسلمين يرون أن الانسان ليس بفاعل وأنه لا قدرة له على الفعل ، وقد سبق الجواب عن هذا مرارا كثيرة

ثم إنه أورد على نفسه اعتراضا أخذ منه بالمخنق ، فذكر : أنه لا يصح أن يرفع من شأن عقيدة القضاء والقدر ، ولا أن تحمل كل هذه الأعباء ، لأننا نرى المسلمين عامة يعملون أو يحاولون أن يعملوا ، ولم نرهم تركوا العمل محتجين بالقضاء والقدر ، فهذه العقيدة على حسب ما ذكر هنا ـ وإن كانت باطلة ـ إلا أن المسلمين لم يفهموا منها ترك العمل أو ترك القيام بالواجبات .

هكذا أورد هذا السؤال الركيك ، وهو وإن كان قد أورده وصاغه على حسب هواه وشهوته لا على حسب الواقع فهو يبطل دعواه من أصلها وينقضها نقضا بينا . ثم انه أجاب عليه جوابا ساقطا خبيثا متهافتا حاصله أنهم لم يعملوا جازمين بالنجاح ، بل حقيقة جوابه أنهم لم يعملوا كافرين بالقضاء والقدر والمشيئة ، ولو فعلوا ذلك لنجحوا . فقال :

« إذا قيل هذا قيل فى الجواب : ما أعظم ما تخفى على الانسان نفسه وتخفى عليه حقيقته [١] . أجل ، ان المسلمين يأتون شيئا كثيرا من الأعمال الصغيرة ، تدفعهم اليها فى الغالب الغرائز كما تدفع المخلوقات الأخرى ، أو يدفعهم اليها الفكر القلق المشوش [٢] أو يندفعون اليها زاعمين أنهم مأمورون بها تعبدا وتكليفا فقط [٣] كما كلفوا بالصلوات والدعوات ، لا لأنها تفيد بذاتها ، أو

---

(١) يقال هو ذا أنت ، فانها خفيت عليك لما بك من العجب والتيه والكبر ، فلم تعرف قدرها فوقعت فيما وقعت فيه

(٢) هذا منقوض بأن الفكر نفسه لا يدفع أحدا ، بل الدافع متعلق الفكر ، فلا بد من بيانه

(٣) هذا منقوض بالأفعال الدنيوية المحض ، ومعلوم أن أكثر الناس لا يفعلها تعبدا ، ثم لو فعلوها تعبدا حقيقيا لكان أقوى

يدفعهم غير ذلك من الأغراض الصغيرة (١) . ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم وتشقيهم ، أو تفقرهم وتغنيهم اعتقادا جادا ، أو اعتقدوا أنهم أحرار مختارون فيما يأتون ويذرون ، وأنهم إن شاءوا فعلوا وإلا تركوا ، أو اعتقدوا أنهم فاعلون عاملون حقيقة (٢) ، أو أن فيهم قوة ذاتية ، أو أنه ليس هناك قوة خفية ـ وهو ما يدعونه بسر القدر ـ تعمل أبدا على توجيههم غير الجهة التي يقصدون ويريدون ، بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون ، وأنها هي ـ أي العوامل (٣) ـ قادرة قوية ، أو اعتقدوا أن النتيجة تأتي على قدر الوسيلة دائما جزاء وفاقا . هل اعتقدوا شيئا من هـذا أو هذا كله اعتقادا صحيحا لا يشوبه الشك ولا يرديه الريب . كلا إنهم لم يعتقدوا شيئا من هذا ، فكيف إذن يرجى لهم أن يعملوا أعمالا تفضي بهم إلى النجاح والظفر المبين »

قلت : فلينظر المسلم المنصف الغيور على دينه إلى ما في هـذا الجواب من القلق والاضطراب والبهت والكفر والخبائث التي لا تحصى . والذي أوجه الى هذا الفجور والطيش والبهتان العظيم محاولة التخلص من هذا الايراد الذي هو كالغـل الذي خنق به نفسه فطاش طيشه ، ولولا أن الله تعـالى ذكر عن أعدائه ما نسبوه إليه من العظائم فى محكم التنزيل لما استطاعت أناملنا أن تنقل من هذه الكفريات والجرأة العظيمة على مقام الربوبية شيئا

(١) من أين له أن الأغراض التي تدفعهم صغيرة ، هـذه دعوى مجردة ألقاها مجازفة

(٢) قبحك الله على هذا الهذيان ، فهم هذه الأعمـال إذن ، هل اطلعت على قلوبهم . لو أنك قلت ، هل عملوا كافرين بالقدر ، لاختصرت الكلام واسترحت من هذا التطويح والتلويح المريب

(٣) لينظر المسلم الغيور الى هـذا الكفر الفظيع ، فهل أحـد سب الله تعـالى وقدح فى مشيئته وقدره مثل هذا الزنديق الملحد . أين الغيرة الدينية على الاسلام . فلعن الله من قال هذا ورضي به

فقوله « ولكن هل اعتقدوا أن أعمالهم تسعدهم أو تشقيهم » الى قوله « انهم فاعلون عاملون حقيقة » يقال فى جوابه :

وليس يصح فى الأذهان شىء   اذا احتاج النهار الى دليل

فلاى شىء عملوا هذه الأعمال ، أتراهم عملوها مصادفة وجنونا وتخفيلا . وهؤلاء الذين هلكوا وقتلوا فى ثوراتهم وغيرها أتراهم قصروا فيما فعلوا . لا شك أنهم ما عملوا تلك الأعمال إلا لطلب نتائجها من السعادة والشقاوة ، معتقدين أنهم فاعلون حقيقة ، فأنت لو تسأل أدنى انسان لم يشك فى أن فعله ليس مجازاً بل هو حقيقة ، بل كل من لم يعرف الفرق بين الحقيقة والمجاز لا يشك فى نفسه أنه فاعل ، فكان يجب عليك أن تبين أن افعالهم مجاز ، لأن الأصل الحقيقة وأنت مدّع خلافها . ولكن نحن نعلم أن مرادك أنهم لم يعملوا كافرين بالقدر ، فنقول حينئذ : لا شك أن أكثرهم لم يعمل كافرا بمشيئة الله وقدره ، فان كان لا بد من وجود هذا الشرط عندك فى النجاح - كما صرحت به فى المواضع الأخرى - فهناك أمم مستعبدة قد عملت من غير أن تعتقد القضاء والقدر كما اعتقده المسلمون وقد تردت فى هاويتها السحيقة وما خرجت عنها . وما كان ينبغى لمثلك ممن هو على عقيدتك فى الالحاد أن يتكبد هـذه الحسرات ، ويشد نفسه بهذه الأغلال النفاقية ، فيأتى بهذه الدعاوى طويلة ملتوية ، ومعناها مفهوم عند كل عاقل . وقد بينا أن ائمة المسلمين من أهل السنة والجماعة مجمعون على أن العبد فاعل وكاسب غير مجبر ، وأنه فاعل حقيقة كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى (منهاج السنة) ص ١٢٧ ج ١ « وأما سائر أهل السنة فيقولون : إن أفعال العباد فعل لهم حقيقة » وتقدم قوله فى (العقيدة الواسطية) : والعباد فاعلون حقيقة . الى قوله « وللعباد قدرة على أعمالهم وإرادة » وتقدم قول النسفى فى عقيدته المعتمده عند الاشاعرة « وللعباد أفعال اختيارية يثابون بها ويعاقبون عليها » الى آخره وهذه العقيدة تدرس ويعتمد

عليها أهل هذا المذهب المتبوع ، فكان ما أدعيته على المسلمين كذبا وبهتا معلوم الفساد

وقوله « أو أن فيهم قدرة ذاتية » يقال هذا مكرر مع ما قبله ، فان عنيت أن فيهم قدرة بالطبع يفعلون بها بدون قدر وقضاء ومشيئة وإرادة ، بل لو شاء الله منهم فعلا وشاءوا هم فعلا آخر غلبت مشيئتهم مشيئة الله - فهذا لم يعتقدوه ، وقد اعتقده بعض الملاحدة فما نفعهم . وان أردت أنهم فاعلون بالقوة المودعة فيهم أى فاعلون حقيقة بالمشيئة العليا فقد بينا أن هذا قول أئمة المسلمين فلا حجة لك فيه .

وقوله « أو اعتقدوا أنه ليس هناك عوامل خفية - وهو ما يدعونه بسر القدر - تعمل أبدا على توجيههم غير الجهة التى يقصدون إلخ »

يقال : نعم فالمسلمون لم يعتقدوا أن هناك عوامل خفية بهذه الصفة ، وانما اعتقدوا أن هناك مشيئة عليا مهيمنة على كل الوجود ليس لأحد قدرة على قهرها ومعاداتها والانتصار عليها ، فاعتقدوا أن أعمالهم التى أقدرهم الله على فعلها تحت مشيئة الله العامة ، وأنه سبحانه البر الرحيم الرءوف الذى هو أرحم بعبده المطيع من الوالدة بولدها ، العليم الحكيم الكريم الذي وسعت رحمته كل شيء فشمل فضله وإنعامه حتى الملحدين الذين بارزوه بالسب والقدح وهم يسرحون ويمرحون فى نعمائه الضافية ، فكل هذه الخيرات واللذات الموجودة فى الدنيا التى تتقلب فيها هذه الخلائق المتمردة العاتية إلا القليل فيها أثر رحمته وكرمه وإحسانه . نعم هم علموا أن فوقهم مشيئة الله الذى رضوا به ربا ومولى ، فنعم المولى ونعم النصير ، ولكنهم لم يعملوا عالمين بعوامل خفية موصوفة بالصفة التى أدعيتها ، اللهم إلا أن يكون هنالك منافقون يرون هذا وأنك منهم ، فهذا هو الذى يطابقه ما تدعيه وتدعو اليه

يا بلعام زمانه ، أين وجدت أن المسلمين يعتقدون أن بينهم وبين الله

عداوة ، وأن سرّ القدر يعمل أبدا على توجيههم لغير الجهة التى يقصدون ، وأنه يحرمهم ثمرة زرعهم الذى زرعوه الى آخر ما هذيت به . ولعلك كنت تعتقد هذا فيما سبق فصار من الأسباب التى أوقعتك فى الردة والالحاد ، وقد تقدمت أبياتك التى تدعى فيها أن الانسان يزداد نعيما كلما ازداد جوره وكفره ، وأن الناس والدنيا خوادم لمن كفر وجار ، لا شك أن من اعتقد هذا فقمين أن يعتقد الفوضى وأن يرتد بعـــد اسلامه ، ولا سيما إذا ضم إلى ذلك أخبث إعتقاد على وجه الأرض وهو الكفر بالقضاء والقدر الذى يحكم العالم

ثم انه زاد خبثا الى خبثه فى قوله « بلا سبب غير أنهم ضعاف عاجزون وأنها ـ أى العوامل ـ قادرة قوية » فجعل هذا الملحد كل عقوبة وبلاء بسبب ضعف الانسان وقوة الله ، وضرب صفحا عن هذا الكفر الغليظ ومبارزة الله ليلا ونهارا بالمعاصى والعداوة ، فلم يجعل العقوبات أثراً لذلك ، بل جعلها بسبب القدر وضعف الانسان ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وقد نسى هذا الملحد أنه أسند هذا إلى نواميس الطبيعة ، فهى عنده التى تحكم العالم ، وهى العوامل التى تفعل هذه الأفاعيل بمجرد قدرتها ، لأنها لا رحمة لها ولا علم ولا حكمة ، والانسان ضعيف لا قدرة له على مصادقتها وهى لا تسمع ولا تجيب ، وهذا عين الفوضى . وكل مسلم عاقل يعرف أن غرضه من هذا السب والقدح هو تشوية سمعة الأديان ، والتنفير عنها وعن أصولها كالقضاء والقدر ، وانه تعالى لا يتصرف فى ملكه ، فأين الرحمة وأين العدل وأين الحكمة على مقتضى كلامه ، فلم يذكر لله رحمة ولا فضلا على عباده فى أغلاله كلها ، بل جعلها كلها بفحواها معاداة لله ، فأنكر دعاءه وتسبيحه وتحميده وتقديسه على المنابر وعبادته فى المساجد ، وجعل ذلك شرما يؤدى ومصرفا خبيثا ، ومشيئته جعلها قوى خفية معادية للانسان ، وفى موضع آخر يأتى وصفها بالخبث . ثم قصد إلى التوكل فافسده وقلب معناه فجعل الشرك الصريح توكلا ، الى غير ذلك من الفظائع التى لا تعد ولا تحصى

وحاصل كلامه برمته في الجواب على هذا السؤال الذى أخذ منه بالمخنق أنهم لم يعلموا جازمين أن نواميس الطبيعة هي التي تحكم العالم ، لا دخل لقضاء وقدر ومشيئة في سيرها وتفاعلها ، وأنها هي التي تسعد وتشقى وتعز وتذل وتقدم وتؤخر ، لذاتها ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . وقد علمت أنه جواب في نهاية السقوط ، فانه يوجد شعوب كثيرة ملحدة مضروب عليها أعظم الذل وهي لا تعتقد بقدر ولا بقضاء ، وما نفعها هذا الاعتقاد بشيء ، وأقرب الناس إلى هذه الأمة هم المعتزلة في نفي القضاء والقدر وهم أذلها وأرذلها فلم يتقدموا في وقت من الأوقات على غيرهم من القائلين بالقضاء والقدر ، فعلم أن اعتقاد القضاء والقدر ليس له أدنى علاقة في التأخر الذى يدعيه

وقد سبق كلام هذا المغرور واستهزاؤه بذلك الخطيب الذى حث الناس في خطبته على الدعاء ، وأن الناس لو دعوا موقنين بالاجابة لأجيبوا ولكنهم دعوا غير موقنين بالاجابة فلم يجابوا ، فاستهزأ به على هذا وتهكم بكلامه غاية التهكم كما سبق . وهنا لما اعترض عليه بأن الناس يعملون أعمالا عظيمة متواصلة ومع ذلك لم ينجحوا أجاب بهذا الكلام الذى حاصله أنهم لم يعملوا كافرين بالقدر جازمين بالنجاح ، فلو فعلوا ذلك لنجحوا . فانظر كيف انقلب على رأسه وافتضح وتناقض ، فانه من المعلوم الذى لا يستريب فيه عاقل أن أعمال الناس في دنياهم واجتهادهم في إتقانها والحرص عليها والمحافظة عليها وتوجيه الهمة اليها أعظم بكثير من اجتهادهم في الدعاء والصدق والاخلاص فيه والبعد عما يضاده وينافيه ، وأن تناولهم لأعمالهم الدنيوية أعظم من تأديتهم لأعمالهم الدينية بكثير ، بل لا نسبة بين هذا وهذا عند عامة الناس إلا القليل ، فاذا كانوا لم ينجحوا في الأعمال الدنيويةوقد بذلوا مهجهم فيها وأعطوها العناية التامة ، فكيف يسيء الظن بأعمالهم الدينية كالدعاء ويدعى أنه لم يحصل منه نتيجة مع ظهور النتائج الكثيرة ومع كونهم لم يجتهدوا فيها هذا الاجتهاد ويخلصوا فيها هذا الاخلاص ويأتوا بها على أحسن وجوهها ، فبعضهم يدعو من لا يستطيع أن يقدم نفسه أو يؤخرها

ولا يملك لها موتا ولا حياة ولا نشورا ، وبعضهم يحرف صفات الله ويتحيل على قلب مسمياتها ، وبعضهم منغمس فى غيه واتباع هواه وشهوة نفسه فيجمع بين التقصير فى هذه الأعمال الدينية ثم فى الكذب عليها وعلى نتائجها الحسنة ، ولا شك أن أعظم أصول النظام السماوى هو الايمان بأن الجزاء من جنس العمل ، وأنه تعالى يجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ، وأنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا ، بل من كرمه وإحسانه أنه يجزى الحسنة بعشر أمثالها والسيئة مثلها أو يعفو ، وهـــذا غاية الكرم والاحسان . أما كون الانسان يقصر فى حق ربه أو يؤديه بفتور وكسل وضعف همة قد أحاطت به الشكوك والشبهات والشهوات من كل جانب ثم يحرص كل الحرص على حق نفسه وحق جنسه مما قد يكون له فيه مصلحة دنيوية طفيفة فيتقنه ويخلص فيه نهاية الاخلاص ثم يريدون اليه أن ينصره ويؤيده على غيره ويعطيه السيادة والسعادة لأنه مستحق لذلك بمجرد انتسابه الى الدين ، لا للعمل ومطابقة الحقيقة ، فهذا غير معقول ـ لاشرعا ولاعقلا ـ كما تقدم التنبيه على هذا اذ كلامه يدور على هذه الأصول فـــلا بد أن يكون الجواب دائرا معه

ثم نقل كلاما عن كتاب لم يبين اسمه فى الاعتماد على القضاء والقدر ، وأن صاحب الكتاب قال فيه يجب على الانسان أن يفوض أموره الى الله تعالى ، ولا يتكلف فى إرهاق نفسه فى طلب ما لم يكتب له ، وأن المختار للانسان أن يحسن الظن بالله ويفوض أموره اليه . وقد ترك اسم مؤلف الكتاب وقال : « طويت اسمه عن هذا المقام »

فيقال : اذا طويت اسم هذا المؤلف واسم كتابه طوينا الإجابة عنه ، وكان لا بد من بيان اسم القائل ووجه الدلالة من كلامه ، مع أنه لا حجة لك فيما استشهدت به عند المناقشة كما هو ظاهر ، فليس فيه حث على ترك العمل ،

وانما فيه إيجاب حسن الظن بالله ، وكراهية ارهاق النفس فيما لا يجب ، فان كان هذا الذنب كبيراً عندك - كما هو اللائق بقلبك الخبيث - فان هذا هو الحق الذى لا شك فيه . ولكن لا حاجة لنا فى مناقشتك هنا فان هذا الأصل العظيم الذى خالفت فيه الأمة كلها لا يكفى فيه الاستدلال بقول مجمل عن كتاب مجهول عن مصنف مجهول ، فان كثيرا من الكتب فيها كفر وشرك وتعطيل للصفات واعتماد على الأسباب وتوكل عليها ودعاية واسعة للفواحش والسحر وغير ذلك ، وقد تقدم قولك : انه ليس كل ما يقال وينقل حجة على المسلم ، وانه ليس المسلم الصحيح الاسلام هو الذى يتتبع اخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين ، فما الذى سوّغ ذلك الاحتجاج بما ليس من الحجة فى شىء ، والمخالفة الى ما نهيت عنه . ولكن لو جعلنا قولك :

« لو انصفوا كنت المقدم فى الأمر »

بين أعيننا وعند أذهاننا لعرفنا به كل مقصود ومراد فى مطاوى هذه الأغلال المظلمة كلها

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن عقيدة القضاء والقدر ثابتة فى الكتاب والسنة ثبوتا واضحا كالشمس ، وأنها من عقائد المسلمين الراسخة التى لا يمكن جحدها ولا زحزحتها من قلوبهم ما داموا يدينون بالاسلام إذ هى من أركان الايمان - بذل جهده وصرف همته الى تحريف معناهما لأنه اتخذ النصوص كالصائل عليه يدفعه بالأسهل فالأسهل ، فان أمكنه جحد اللفظ والمعنى جحده كما جحد كثيرا من الأحاديث الصحيحة ، وان عجز جحد المعنى وحده وحرف الدليل على ما يوافق هواه ، ولو خالف الناس كلهم . وقد طرد هذا الأصل

الخبيث هنا فسفه آراء جميع ما قاله أئمة المسلمين في هذه الأصول فجعل معنى القدر شيئا واحدا وهو خلق هذه المخلوقات المحسوسة على هذا المقدار المشاهد ، فصار معنى القدر عنده هو خلق الاشياء على مقاديرها فى الكم والكيف على هذا الشكل الموجود بدون أن تكون الحوادث متعلقة بالمشيئة والقدرة . وقد أسهب فى تطويل المعاكسة والعناد فى تقرير ما يدعيه ، وعجز عن أن ينقل نقلا واحدا عن إمام واحد من أئمة المسلمين أو عقيدة من عقائدهم ـ على كثرتها وتنوعها ـ ما يصح دعواه ، سوى أنه نقل أثرا عن عمر رضى الله عنه لا علاقة له بما يدعيه كما يأتى ، ثم هو مع هذا أطال فى التشدق والهذيان الفارغ وسوء الادب مع القرآن فى هذا المعنى ، فقال فى أول استدلاله على أن القدر هو خلق العالم على هذه المقدار المشاهد :

« أما القدر فهو فى مادته مأخوذ من التقدير ، أى جعل الشيء ذا مقادير ، أى ذا حدود . يقال هذا الشيء قدر هذا ، أى محدود بحدوده ، كما قال ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ وقال ﴿ قد جعل الله لكل شيء قدرا ﴾ وقال ﴿ ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره ﴾ وقال ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ وقال ﴿ والله يقدر الليل والنهار ﴾ وقال ﴿ وكل شيء عنده بمقدار ﴾ وقال ﴿ وخلق كل شيء فقدره تقديرا ﴾ وقال ﴿ والقمر قدرناه منازل ﴾ ويقال : قدرت الثوب أى جعلته على مقياس الجسم ، أى مثله ، أى محدودا بحدوده . ويقال : قدر كذا ، كما قال ﴿ إنه فكر وقدّر ، فقتل كيف قدّر ﴾ ويراد به التفكير والتروّى فى الأمر ، وهو راجع أيضا الى جعل الحدود للشيء ، ولكنها قد تكون حدودا مادية ، وقد تكون معنوية ـ أى قد يكون المراد تقدير الخطة العقلية وتحديدها فكريا بحيث تجيء وفاق الأمر المادى . وقد يكون المراد تصوُّر الشيء بمقاييسه المادية وجعله مقدورا ذا مثل وغايات معلومة . وقال ﴿ تعرج الملئكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف

سنة ﴾ وقال ﴿ وإن من شيء إلا عندنا خزائنه ، وما ننزله إلا بقدر معلوم [١] ﴾ وقال جرير :

جاء الخلافة أو كانت له قدرا كما أتى ربه موسى على قدر

اى كانت الخلافة له كفوا وكان هو لها كفوا أيضا ، أى إن الأوصاف الموجودة فيه هى الاوصاف التى تشترط فى الخليفة وتوجد فى الخلافة الحقة ، فمن جمع هذه الصفات جاءته الخـــلافة فهو خليق بها وهى به خليقة ، كما قال الآخر فى هذا المعنى :

فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

وكذلك مجيء موسى ربه أي على مثل ووفاق فى المعانى والصفات [٢] وفى هذا المعنى ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وليس المراد أن الخلافة جاءت الممدوح بمجرد القدر أى بمجرد المشيئة والقدرة [٣] من غير استحقاق [٤] ولا أوصاف خاصة ، فانه حينئذ يكون أقرب إلى الذم منه الى المدح ، ولكن المقام هنا مقام مدح ، وقال شاعر آخر :

---

(١) انتقل من الاستدلال بالآيات الى كلام الشعراء ، وترك الاحاديث جانبا لانها صريحة فى رد ما يدعيه

(٢) هذا التفسير باطل

(٣) لكن ليس فيه ما ينفى أنها جاءت بالمشيئة والقدرة ، بل فيه ما يؤكد ذلك فانه قد شاء الله له ذلك لانه كفؤ لها ، وقد علمت من هذا أنه صرح بأن القدر المشيئة والقدرة ، وعلمت قدحه فيما مضى فى هذا المعنى وأنه صرح به هنا ولم يقل بقوى خفية ، لأن المقام لا يحتاج الى خداع ونفاق

(٤) ومن هو الذى قال لك ان المشيئة والقدرة تجرى لمن لا يستحق ذلك حتى تبنى هذا الهراء على الهواء

تقفون والفلك المدبر سائر وتقدرون فتضحك الأقدار

أى تضعون لآمالكم ولما سيحدث حدودا وأزمانا ، ولكن الأقدار المجهولة تبطل عليكم هذه الحدود وتلك الأزمان المعدودة المحدودة ، وتقلب عليكم الأمر ، لأن الأقدار هى نظام الوجود وهى سر الحياة ، وأنتم لا تقدرون ان تتغلبوا على كل الحياة والوجود بتقديراتكم وآمالكم »

قلت : هكذا ساق هذه الآيات واستشهد بهذه الاستشهادات تمهيدا لما سيقرره فى معنى القدر على ما يذهب هو اليه ، فقال بعد هذا الاستدلال :

« فالقدر بجملته وجملة استعمالاته يراد به التقدير ، أى جعل الشىء ذا مقادير معلومة ، أى يراد به جعل الشىء منظما فى كمه وكيفه . . . فقدر الله معناه أن الله جلت قدرته [1] قد أوجد هذا الوجود : السماويات منه والأرضيات ، مقدرا بمقادير محكمة هى أدق فى ضبطها ومقاييسها ونسبها من أعظم مركب كيمائى قام بتركيبه وتقدير عناصره وضبط نسبه أبرع الكيمائيين ، وأدق من أدق صناعة فيها آلاف الآلات التى يبدع فى وضعها أبرع عقل . فما من شىء فى هذا الوجود سواء أكان معنويا أدبيا [2] أو ماديا إلا وقد ضبطت مقاديره وأحكمت نسبه . وهذا الضبط فى التقدير جاء فى الأشياء بالنظر اليها مستقلة وبالنظر اليها متصلة بغيرها ـ أى إن ضبطها أجرى عليها على اعتبارها وحدة مستقلة وعلى اعتبارها جزءا من العالم . فضبطت هى فى نفسها ، وضبطت

---

(١) يلاحظ أن مثل هذه الكلمة كثيرا ما يستعملها إذا أراد أن يقرر أصلا خبيثا ضد أصل الدين ، ليجعلها خدعة للغوغاء وضعفاء البصائر . ولهذا قل أن تجدها فى غير هذه المضايق . وهذا الصنيع كصنيع من يستعمل شيئا لذيذا اذا أراد أن يجرع احدا سما أو شيئا كريها ، فيجعل ذلك سبيلا لاستساغته

(٢) ينظر ما مقصوده من تقييد المعنوى بالأدبى خاصة

مع سواها ، أى إنها مضبوطة مستقلة ومضبوطه مشتركة مع غيرها . ولهذا جاء هذا العالم منظما صالحا للانتفاع وللحياة وللاستقرار فيه وعليه . ولولا هذه المقادير والنسب لما كان صالحا لذلك ، انتهى كلامه فى تعريف القدر فسبحان واهب العقول .

ما يبلغ الأعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

فأى مناسبة لما ساقه من الآيات والشواهد على ما ادعاه هنا ، وكأنه ظن أن المسلمين يرون أن هذا العالم لم يخلق على أتقن صنعة وأحكمها فلهذا أطال فيما هو خارج عن المقصود ، لان الكلام فى أعمال الخلق لا فى تركيب العالم وضبطه بنسبه وحدوده ، فان هذا لا خلاف فيه ، وفى كلامه من الظلمة والقلق والاجمال والالتباس مالا يخفى على فطن ، وسيأتى هدمه قريبا . ثم شرح هذه الجملة المظلمة التى ادعاها فى معنى القدر فقال :

« وشرح هذا أن العالم مركب من عناصر أحصى منها الآن الشىء الكثير ، وكل شىء من هذه الموجودات آخذ من هذه العناصر نسبا ومقادير مخالفة للنسب والمقادير التى أخذها غيره ، ومن هنا حصل الاختلاف والتباين المقصود المفيد . وهذه النسب والمقادير التى أخذها أو التى أعطيها روعى فيها الدقة والضبط لتكون صالحة للغرض الذى أريد منها . ثم هذا الشىء فى نفسه قد روعى فيه من ناحية الكم مقدار معين ووزن معين لأجل أن يكون اجتماعه مع غيره ممكنا ومفيدا . ولنجعل ثمرة البرتقال مثلا فنقول : لهذه الثمرة ناحيتان : ناحية الكيف وناحية الكم . أما ناحية الكيف فقد عينت النسب والمقادير فيها من العناصر تعيينا متقنا . وبهذا كانت برتقالا ، وكانت شهية لذيذة مستساغة ، وبهذا كانت أيضا نافعة مغذية . ولو فقدت النسب والمقادير من هذه الثمرة لما أمكن أن تجمع الفوائد التى جمعت . فالقدر هنا هو الذى جعلها بهذا الكيف المحكم . وأما الكم فانها لو لم تحدد بكم معين أو قريب من

التخين ، وكان من الممكن أن تنمو نمواً مطلقاً بحيث تصبح ضخمة جداً ؛ لكانت غير متناسبة مع شجرتها التي تحملها ، ولا مقدورة بطاقة عيدانها التي تمسكها ؛ ولكانت النتيجة حينئذ عجز هذه الشجرة وعجز أغصانها عن حمل ثمرتها ، فتهوى بها حينئذ الى الارض . ولكن شجرة البرتقال إنما خلقت باسقة صاعدة لا متمددة ولا مفروشة على التراب . أما النخلة فانها لما كانت قوية فان ثمرها كان ثقيلا فكان التناسب صحيحا والتقدير مضبوطا . وأما البطيخ فانه لما خلق متمددا ملقى كان من التقدير والتناسب المقبول أن يكون ثمره أكبر وأعظم منه لأنه لا يحمله [١] وهكذا يقال فى كل شيء يقع تحت بصرنا وعلمنا

والجواب أن يقال : هذا التقرير الذى ادعاه فى معنى القدر ليس بصحيح ، بل هو باطل بهذا المعنى ، فان القضاء والقدر لهما مراتب : علمه تعالى بهذه المخلوقات كلها قبل خلقها ، وكتابته لها ، ومشيئته ، وخلقه لها . وهو اقتصر على

---

(١) التمثيل الذى ذكره فى البرتقالة والنخلة والبطيخ غير مطابق لما ادعاه ولا صحيح فى نفسه ، فانه جعل لذته وكونه برتقالا نافعا من أجل تناسبه . وهذا باطل لأن الحنظل متناسب أيضا ، وكل شجرة متناسبة وقد اختلف طعمها . ولكن الحق أن لذتها من أجل مناسبتها لمزاج الانسان مع تناسبها فى نفسها . وأما حملها وكثرته وثقله فانه من أجل المنفعة المبذولة لحياتها ووجودها لتكافئها وتزيد عليها قليلا لاجل حياتها ، وإلا فشجر البادية من جنسها ومع ذلك حمله تافه أو معدوم لانه غير محتاج الى تربية مثلها . وأما النخلة فان حملها يعطى صورة عن شكلها ، فان العذق كنخلة مستقلة صغيرة ، فنسبة البلح فى الشمراخ فى العذق كنسبة الخوص فى الجريدة فى الساق . وهكذا كل شجرة ، لأن ثمرة البرتقالة تعطى صورة أوراق ملتفة فى رأس غصن ، وأما البطيخ فلأجل تفاهته كان ضخما وغير قوى كشجرته فى الضعف والتفاهة ، عكس النخلة فانها قوية وحملها كذلك مشتمل على مواد قوية (فيتاميثات) وهو يناسب العمل الذى يعيش به . وليس الغرض شرح هذه الأمور وإنما ننبه على فساد تشبيه هذا

مرتبة الخلق فقط ، وتهور فيها ، ولم يتكلم عن الحوادث المتعاقبة ، بل اقتصر على ذكر المخلوقات المادية فى كمها وكيفها بكلام مدخول مخيل غير مستقيم

ونبين بطلان ما ذكره من وجوه :

أولا : قد علم أن النزاع بينه وبين خصومه من المؤمنين بالقدر إنما هو فى أعمال العباد وأفعالهم ، لافى خلق السموات والأرض والأشجار ونحو ذلك ، فليس لذكر هذه المخلوقات المادية هنا مناسبة أصلا فهل ادعى خصومه أو أحد من الكفار أن المخلوقات خلقت على غير نظام ، أو أن خلقها غير متناسب ، أو أنها غير صالحة على هذه الهيئة ، حتى يذهب فى التكليف فى هذا التعريف الاجنبى عن هذا المقام ويطنب فيه ، وهل كان المعتزلة والقدرية الموجودون فى آخر عهد الصحابة والقرون المفضلة يجادلون فى اتقان خلق هذه الأشياء حتى يتكلم الصحابة ومن بعدهم فى القضاء والقدر ويضللوا أولئك ومن اقتدى بهم ، وانما قصده التجاهل والتملص من النصوص الصريحة فى تقرير هذا الأصل فعدل الى المراوغة وهيهات

ويقال ثانيا : لا مناسبة بين سياقك للآيات والشواهد الأخرى وبين تعريفك للقدر ، فان الآيات التى استشهدت بها حجة عليك ، فان الله تعالى يقول ﴿ قد جعل الله لكل شىء قدرا ﴾ وقال تعالى ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شىء عنده بمقدار ﴾ وقال تعالى ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ فأخبر سبحانه بأصرح بيان وأوضحه أنه خلق كل الأشياء بقدر ، وأنها عنده بمقدار ، وأنت عاندت هذه النصوص فأخرجت أكثر الأشياء من خلقه وتصرفه ، فان الأعمال والحوادث والمعانى وغيرها كلها داخلة فى عامة المخلوقات بلا ريب ، فأنفس الأشياء بل أنفس ما فى العالم أعمال الرسل والأنبياء والملئكة والمؤمنين ، وأنت تريد إخراجها من أن تكون واقعة بمشيئة الله وقدره ، فتجعلها غير مخلوقة ، فلا يهدى من يستهديه ولا يعين من يستعين

به ، فكيف تستدل بالآيات وهى حجة عليك

ويقال ثالثا : دعنا من هذه المراوغة والالتجاء الى الاشجار كالبرتقال والبطيخ والنخل ، فمحل النزاع شيء آخر غير هذا الذى هربت إليه ، وهو أعمال الخلائق كلها خيرها وشرها . أخبرنا هل تعترف بأنها من مخلوقاته تعالى التى خلقها ، أم خارجة عنها . فان قلت خارجة عنها فقد صرحت للناس بأنك مجوسى ، مع كونك ملحدا منافقا حيث أثبت لهذا العالم خالقين خالق للاعمال وخالق لغيرها . وان قلت بل هى من مخلوقاته رجعت الى قولنا رغم أنفك وسقط اعتراضك من أساسه ، فانه من المعلوم أنه تعالى لا يخلق شيئا إلا بعلمه وقدرته مشيئته . فان قلت انه خلق فيهم قوة يقدرون بها على الفعل والترك اختيارا فان شاءوا فعلوا وان شاءوا تركوا ، قلنا : هل فعلهم الذى يفعلونه بهذه القوة المخلوقة فيهم يقع قهرا عليه تعالى ومن غير علمه أو باذنه . فان قلت بل فعلهم يقع قهرا عليه ومن غير علمه أو قهرا عليه بعلمه فقد أظهرت للناس أنك شر من المجوس لأنك حكمت على الله بان عبده قهره ، وأنه أحدث فى ملكه مالا يريده ، وأن ارادته غلبت ارادة الله . فان قلت بل فعله بعلم من الله وإذنه قلنا لك : هذا قولنا الذى عاديته ، وبطل اعتراضك من أصله

ويقال رابعا : من المعلوم أن كل موجود ـ سواء أكان ماديا أو معنويا ، أدبيا او غير أدبي ـ كائن بعد أن لم يكن . والعبد ـ بصفاته كلها ـ من هذه المخلوقات ، فهو سبحانه الذى خلق العبد سميعا بصيرا متحركا فاعلا مختارا عاقلا ، وكونه يفعل بالقوة التى خلقها الله فيه لا ينفى أن يكون فعله مخلوقا لله ، كما أن ثمرة البرتقال الخارجة من شجرتها مخلوقة لله ، فان خروجها باذن الله ولو شاء الله عدم خروجها لم تخرج ، وفعل العبد وقع باذنه ولو شاء الله عدم فعله للأشياء لم يفعل ، قال تعالى ﴿ ولو شاء ربك مافعلوه ﴾ ، ﴿ ولو شاء الله ما اقتتلوا ﴾ ، ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ فالشجرة بثمرتها

والانسان بعمله من مخلوقات الله ، فالأعمال والنتائج والأسباب والمسببات – سواء اكانت مادية أومعنوية وسواء أكانت اختيارية أواضطرارية – كلها من مخلوقات الله تعالى ، فالذى يريد أن يجعل فى هذه المخلوقات ما هو مخلوق له وما هو مخلوق لغيره بلا إذنه فهو مجوسى أو شر منه قال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾ فان كانت (ما) هنا مصدرية فظاهر ، وإن كانت موصولة فهى دليل أيضا بأن عملهم مخلوق ، فان التأليف والصنعة فعلهم بلا ريب ، بخلاف المادة الأصلية فانهم لم يعملوها فصار عملهم مخلوقا كما قال تعالى ﴿ وخلق كل شىء فقدره تقديرا ﴾ ، ﴿ إنا كل شىء خلقناه بقدر ﴾

ويجب هنا أن يعلم الفرق بين فعل الله ومفعوله وخلقه ومخلوقه ، وأنه ليس الخلق الذى هو نفس الفعل هو المخلوق الذى هو أثره ، فالأشياء المخلوقة إنما وجدت بفعله لا أنها هى فعله ، فالتكوين شىء والمكون شىء آخر ، هو اثر التكوين ، كما قال تعالى ﴿ إنما أمرنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴾ فلا يجوز وصفه تعالى بشىء من مخلوقاته الحادثة فى غيره ، فانه اذا خلق فعلا فى محل عاد حكم ذلك الفعل الى ذلك المحل ، فالصلاة فعل قائم بالعبد والعبد هو المصلى وهى مفعولة له بمعنى أنه تعالى هو الذى جعل العبد المصلى ، فهى صفة لغيره ، وهى من مفعولاته التى هى أثر فعله ، لأنه هو الذى خلق الارادة والقدرة والاختيار فى العبد حتى جعله مصليا ، فالفرق بين الفعل والمفعول ثابت ، بل نقل البغوى الاجماع من أهل السنة على أنه ليس الفعل هو عين المفعول كما يأتى تقريره

ويقال خامسا : كما أنك ادعيت أن الأشياء المادية فى كل أفرادها مقدرة بمقادير ونسب وحدود فهكذا نقول : والاعمال والأقوال مقدرة أيضا بمقادير ونسب وحدود ، إما تقديراً شرعيا أو كونيا أو شرعيا وكونيا معاً ، فالصلاة وهى أفعال وأقوال مقدرة تقديرا شرعيا من ناحية الكم والكيف ، بل كل

وكن فيها قوليا أو فعليا ـ مقدر تقديرا فى غاية الضبط والاتقان والمناسبة لحالة المصلى والزمان والمكان بصفة لا تقبل الزيادة والنقص ولا التبديل ولا التحويل ، وكذلك يقال فى الزكاة والصيام والحج ، فالوقوف بعرفة والطواف كل ذلك مقدر بمقادير لا يمكن لأحد تبديلها وتحويلها ، وكذلك الأفعال الشرعية الأخرى كعقود النكاح والطلاق والجنايات والحدود والفرائض وغيرها ، وهكذا الأمور العادية من الأكل والشرب والوطء ونحو ذلك مقدرة تقديرا مضبوطا متناسبا مع متعلقه من كل حيوان ، فهذه الامور كلها مقدرة بحدود وقيود ونسب ، فما هو الذى أخرجها عن خلق الله ومشيئته وقدرته ، وإن كنت تعترف بهذا فلا حاجة الى المغالطة واللجاجة الفارغة

ويقال سادسا : تقدير الله تعالى لهذه المخلوقات على هذه الصفات والحدود والهيئات والتكافؤ والتناسب والانسجام برهان واضح على علمه بها وقدرته عليها ويمتنع بداهة أن تصدر بغير مشيئته وإرادته ، وهو عالم بها قادر عليها ، فعلمه بها وقدرته عليها ومشيئته لها متقدمة على خلقها ، اذ يمتنع أيضا وجودها على هذا الضبط التام والأحكام الدقيق بدون هذه الأمور ، وفى حديث عبد الله بن عمرو « أن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء » رواه مسلم وغيره ، وإذا كانت كلها إنما وجدت بالمشيئة والقدرة والارادة بمقتضى علمه بها وكتابته لها فهذا هو القدر الذى يؤمن به الناس ، فانهم يؤمنون بأن هذه الأمور قدرها عليهم أى أجراها وخلقها بمشيئته الصادرة عن قدرته وعلمه وحكمته ، وكتابته لهذه المقادير برهان واضح على أنها فى غاية الضبط والأحكام وعدم الفوضى التى يعتقدها الملاحدة وأضرابهم حيث أسندوا أمور العالم الى نواميس الطبيعة ، فلا علم ولا إرادة ولا كتابة ولا غير ذلك ، بل تفاعل وحوادث قسرية تجرى على حسب المصادفات وملكة تصرف الانسان ، وهذا هو عين الفوضى ، بخلاف الأمور التى تجرى على ما ذكر فى النصوص فانها غاية النظام المحكم ،

قال تعالى ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ وقال تعالى ﴿ وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة . وفى صحيح البخارى عن عمران بن حصين قال : دخلت على النبى ﷺ وعقلت ناقتى بالباب فأتاه ناس من بنى تميم فقال « اقبلوا البشرى يا بنى تميم » قالوا : قد بشرتنا فأعطنا مرتين . ثم دخل عليه ناس من اليمن فقال « اقبلوا البشرى يا أهل اليمن ، اذ لم يقبلها بنو تميم » قالوا : قد قبلنا يا رسول الله ، وقالوا : جئنا لنسألك عن هذا الأمر . قال : « كان الله ولم يكن شىء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السموات والأرض » فنادى منـــاد : ذهبت ناقتك يا ابن الحصين . فانطلقت فاذا هى ينقطع دونها السراب ، فوالله لوددت أنى كنت تركتها ولم أقم . وفى حديث عبادة بن الصامت « ان أول ما خلق الله القلم فقال : اكتب . فقـال : يارب وما أكتب . قال : أكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة » رواه أبو داود والنصوص فى هذا كثيرة ، فدل على أن هذه المخلوقات وما فيها من الحوادث كلها صغيرها وكبيرها خيرها وشرها مقدرة بالعلم والكتابة والقدرة والمشيئة ، كما أنها مقدرة فى كمها وكيفها . فلماذا اعرضت عن هذا كله مع دلالة النصوص الكثيرة عليه ، وهو النظام الباهر ، فالذين آمنوا بالقدر بهذا المعنى هم الذين فى الحقيقة آمنوا بنظام الله فى شرعه على ألسنة رسله ، بخلاف الزنادقة ومن شاكلهم حيث كفروا بهذا وآمنوا بالفوضى ، فمن كفر بمشيئة الله وعلمه وقدرته على هذه الحوادث فكيف يكون مؤمنا بنظام العالم

ويقال ثانيا : قد تضافرت النصوص التى لا تعد ولا تحصى بأن حوادث العالم بما فى ذلك من أعمال العباد كلها من غير استثناء صادرة عن مشيئة الله

وإرادته وقدرته ، ولم يصدر منها شيء قهرا عليه وخارجا عن علمه وقدرته وإرادته ، والأدلة في ذلك أكثر من أن تحصر ، وقد عدل هذا المغرور عنها وذهب يتفلسف في خلق السموات والأرض والأشجار ، مع علمه بأن المشركين مقرون بذلك ، وأنه لا حاجة إلى بيان ما ادعاه ، فانهم مقرون بتوحيد الربوبية ، وأنه هو الخالق الرازق ، وقد حكاه القرآن عنهم ، وإنما كان الكلام في أمر القدر في أفعال الخلائق بخلاف ذواتها فقرر الكتاب هذا الأصل ، قال تعالى ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك زينا لكل أمة عملهم ﴾ وقال تعالى عن نوح ﴿ ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب ﴾ وقال تعالى ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن يؤمن بالله يهد قلبه ﴾ ، ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم ﴾ وقال تعالى ﴿ فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة ﴾ والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصر وهي في غاية الصراحة في أن أعمال العباد واقعة بمشيئة الله وإرادته وأنه لا يمكن أن يجرى شيء من هذه الأعمال في ملكه بخلاف مشيئته وإرادته الكونية ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأن كلا ميسر لما خلق له ، قال

الإمام ابن القيم فى شفاء العليل [١] الباب الثالث عشر فى المرتبة الرابعة من مراتب القضاء والقدر وهى مرتبة خلق الله سبحانه الأعمال وتكوينه وإيجاده لها : وهذا أمر متفق عليه بين الرسل ، وعليه اتفقت جميع الكتب الالهية والفطر والعقول والاعتبار ، وخالف فى ذلك مجوس الأمة فأخرجت طاعات ملائكته وأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وهى أشرف ما فى العالم عن ربوبيته وتكوينه ومشيئته ، بل جعلوهم هم الخالقين لها ولا تعلق لها بمشيئته ولا تدخل تحت قدرته ، وكذلك قالوا فى جميع أفعال الحيوانات الاختيارية ، فعندهم أنه سبحانه لا يقدر أن يهدى ضالا ولا يضل مهتديا ولا يقدر أن يجعل المسلم مسلماً والكافر كافراً والمصلى مصلياً وانما ذلك بجعلهم أنفسهم كذلك لا بجعله تعالى ، وقد نادى القرآن بل الكتب السماوية والسنة وأدلة التوحيد وصاح بهم أهل العلم والايمان من أقطار الأرض ، وصنف حزب الاسلام وعصابة الرسول وعسكره التصانيف فى الرد عليهم ، وهى أكثر من أن يحصيها إلا الله تعالى ، ولم تزل أيدى السلف وأئمة السنة فى أقفيتهم ونواصيهم تحت أرجلهم ، إذ كانوا يردون باطلهم بالحق المحض ودعتهم بالسنة والسنة لا يقوم لها شىء فكانوا معهم كأهل الذمة مع المسلمين ، إلى أن نبغت نابغة ردوا بدعتهم ببدعة تقابلها ، وقابلوا باطلهم بباطل من جنسه ، وقالوا : العبد مجبور على أفعاله مقهور عليها لا تأثير له فى وجودها ولا هى واقعة بارادته واختياره ، وغلا غلاتهم فقالوا بل هى عين أفعال الله ولا تنسب لهم إلا على المجاز ، والله سبحانه يلوم العبد ويعاقبه ويخلده فى النار على ما لم يكن له فيه صنع ولا هو فعله ، بل هو محض فعل الله ، وهذا قول الجبرية ، وهو وان لم يكن شرا من القدرية فليس هو بدونه فى البطلان ، وجماع الرسل واتفاق الكتب الالهية وأدلة العقول والفطر والعيان تكذب هذا القول وترده ، والطائفتان فى عمى

---

(١) صحيفة ٤٩

عن الحق القويم والصراط المستقيم . ثم اندفع ابن القيم فى الكلام على معنى القدرة والاستطاعة والتأثير وذكر أقوال الطوائف ، ثم ذكر القول المختار الصحيح الذى هو قول أهل السنة والجماعة فقال عنهم : « فانهم يثبتون قدرة الله على جميع الموجودات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة ، وينزهونه عن أن يكون فى ملكه مالا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته ، ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون على ماقدره الله وقضاه وفرغ منه ، وأنهم لا يشاءون إلا أن يشاء الله ، ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا تخصيص عندهم فى هاتين القضيتين بوجه من الوجوه ، والقدر عندهم قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه ، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته فهم المؤمنون بلا حول ولا قوة إلا بالله على الحقيقة اذا قالها غيرهم على المجاز اذ العالم علويه وسفليه وكل حى يفعل فعلا فان فعله بقوة فيه على الفعل ، وهو فى حول من ترك إلى فعل ومن فعل الى ترك ومن فعل إلى فعل ، وذلك كله بالله تعالى لا بالعبد . ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأنه هو الذى يجعل المسلم مسلما والكافر كافرا والمصلى مصليا والمتحرك متحركا ، وهو الذى يسير عبده فى البر والبحر ، فهو المسير وعبده السائر ، وهو المحرك والعبد المتحرك ، وهو المقيم وعبده القائم ، وهو الهادى والعبد المهتدى ، وانه المطعم والعبد الطاعم ، وهو المحيى المميت والعبد الذى يحيى ويموت . ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وارادته واختياره وفعله حقيقة لا مجازا ، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول كما حكاه عنهم البغوى وغيره . فحركاتهم واعتقاداتهم أفعالهم حقيقة ، وهى مفعولة لله سبحانه مخلوقة له حقيقة ، والذى قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه ، والذى قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم ، فهم المسلمون القائمون القاعدون حقيقة ، وهو سبحانه المقدر لهم ذلك القادر عليه الذى شاءه منهم وخلقه لهم ، ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته ، فما يشاءون إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا أن يشاء الله » انتهى

وقال فى شرح الطحاوية [1] فى العقيدة السلفية ص ٣٦٥ : اختلف الناس فى أفعال العباد ، فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن صفوان الترمذى أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى ، وهى كلها اضطرارية كحركات المرتعش والعروق النابضة وحركات الأشجار ، وإضافتها الى الخلق مجاز وهى على حسب ما يضاف الشىء إلى محله ، وقابلهم المعتزلة فقالوا : ان جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها لا تعلق لها بخلق الله تعالى ، واختلفوا فيما بينهم أن الله يقدر على أفعال العباد أم لا ، وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهى مخلوقة لله ، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات لاخالق لها سواه .فالجبرية غلوا فى إثبات القدر فنفوا صنع العبد أصلا كما عملت المشبهة فى إثبات الصفات فشبهوا ، والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا مجوس هذه الأمة بل أردأ من المجوس من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين وهم أثبتوا خالقين . وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية فانما يدل على أن الله خالق كل شىء وأنه على كل شىء قدير وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا

---

(١) حقق الفاضل النبيل الشيخ محمد نصيف : أن شارح الطحاوية هو العلامة على ابن على بن محمد ابن أبى العز الأذرعى الحنفى ، وله ترجمة حافلة فى (المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى) لابن تغرى بردى مخطوط فى مكتبة شيخ الاسلام عارف حكمة بالمدينة المنورة . قال الشيخ محمد نصيف : وقد نقل الزبيدى شارح الاحياء فى الجزء الثانى صفحة ١٤٦ سطر ١١ فى مبحث كلام الله فصلا من شرح الطحاوية ص ١١٣ و ١١٤ ، ومنه تأكدت نسبة الشرح الى ابن أبى العز الاذرعى لأن النسخة المطبوعة فى المطبعة السلفية بمكة كانت خالية من ذكر اسم الشارح

يدل على أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدرية فانما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة وأنه مريد له مختار له حقيقة ، وأن إضافته ونسبته اليه إضافة حق ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى ، وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فاذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق الى حق الأخرى فانما يدل ذلك على مادل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم ، وهذا هو الواقع فى نفس الأمر ، فان أدلة الحق لا تتعارض والحق يصدق بعضه بعضا ، انتهى

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية [1] : وتؤمن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة بالقدر خيره وشره . والايمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين : فالدرجة (الأولى) الايمان بأن الله علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذى هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصى والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله فى اللوح المحفوظ مقادير الخلائق ، فأول ما خلق الله القلم قال له : اكتب . قال : ما أكتب . قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الانسان لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، كما قال تعالى ﴿ ألم تعلم أن الله يعلم ما فى السموات والأرض ان ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير ﴾ وقال ﴿ ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ﴾ وهذا التقدير التابع لعلمه سبحانه يكون فى

---

(١) أنظر (العقيدة الواسطية)

مواضع جملة وتفصيلا ، فقد كتب فى اللوح المحفوظ ما شاء واذا خلق جسد الجنين قبل نفخ الروح فيه يبعث اليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات فيقال : اكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد ونحو ذلك ، فهذا القدر قد كان ينكره غلاة القدرية قديما ومنكروه اليوم قليل . وأما (الدرجة الثانية) فهى مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة والايمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه ما فى السموات والأرض من حركة وسكون إلا بمشيئة الله تعالى لا يكون فى ملكه ما لا يريد ، وأنه سبحانه على كل شىء قدير من الموجودات والمعدومات ، فما من مخلوقات فى الأرض ولا فى السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه ، ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله ونهاهم عن معصيته ، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولا يحب الفساد ، والعباد فاعلون حقيقة والله خالق أفعالهم ، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم ، وللعباد قدرة على أعمالهم ، ولهم إرادة ، والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم ، وهذه الدرجة من القدر يكذب بها عامة القدرية الذين سماهم النبى ﷺ مجوس هذه الأمة ، ويغلو فيها قوم من أهل الاثبات حتى سلبوا العبد قدرته واختياره ، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها » انتهى . وتقدم قول النسفى « وللعباد أفعال اختيارية يثابون عليها ويعاقبون عليها » الخ . وكلام أهل العلم فى ذلك أكثر من أن يحصر ، فكلهم مجمعون على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأنها فعلهم ، فكونها فعلهم لا يقتضى أن تكون خارجة عن مخلوقاته تعالى ، فانه سبحانه لا يعصى قهرا أبدا ، وهل يظن مسلم أن الله يريد شيئا والعبد يريد شيئا آخر وأن إرادة العبد قهرت إرادة الله فوقع مراد العبد ، فان هذا أكفر الكفر ، بل

الله إذا أراد من العبد شيئا فلا بد أن يكون العبد مريداً له مائلا اليه ، فلا يشاء الله شيئا إلا والعبد قد أراده ، فلا تتعاكس إرادة الله وإرادة العبد فى فعل ما ، غير أن الطاعات يعان عليها العبد ، وإن كان مائلا إلى المعاصى بطبعه ولكنه يكرهها بدينه فيعينه الله ويصرفها عنه إذا علم منه الاخلاص فى كراهيتها وحب الله تعالى ودينه كما فى الحديث « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » فلولا إعانة الله تعالى لعجز الانسان عن حجز نفسه الأمارة بالسوء عن السوء ، والانسان يجتمع فيه الميل إلى الشىء مع كراهيته للوقوع فيه ، وشهوته له مع حبه لعدم إتيانه ، لتضاد اتباع الهوى واتباع الدين .

وينبغى أن يلاحظ فى هذا المقام أن إرادة الله نوعان : إرادة قدرية كونية خلقية ، وإرادة دينية أمرية شرعية ، وهذه الاخيرة هى المتضمنة للمحبة والرضا ، وأما الكونية فهى المشيئة العامة لجميع الحوادث ، فهذه كقوله تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقوله ﴿ فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ . وأما الارادة الشرعية الدينية فكقوله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ ، ﴿ يريد الله أن يبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم ﴾ الى قوله ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا ﴾ والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فاذا إراد الفاعل أن يفعل فعلا فان هذه الارادة متعلقة بفعله ، واذا أراد من غيره أن يفعل فعلا فهذه الارادة متعلقة بفعل الغير ، وكلا النوعين معقول للناس ، والأمر الشرعى يستلزم الارادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد اعانة المأمور على ما أمر به وقد لا يريد ذلك بل يبين له الرشد فحسب ، فهو سبحانه أمر الخلق على السنة

رسله بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم وأوضح لهم الطريق وبين لهم الأسباب التي بها تحصل النجاة والعطب ، ولكن منهم من أراد أن يخلق فعله بأن يعينه فيجعله فاعلا لما أمر به باعانته له وتوفيقه ، ومنهم من خلق فيه الاستطاعة على الفعل ولم يخلق فعله ، فجهة خلقه سبحانه لأفعال العباد وغيرها غير جهة أمره للعبد على جهة الارشاد والبيان لما هو مصلحة للعبد أو مفسدة ، وهو تعالى اذا أمر فرعون مثلا بالايمان كان قد بين له ما ينفعه ويصلحه اذا فعله وقد خلق فيه الاستطاعه على الفعل والترك ، ولا يلزم إذا أمره بهذا وبين له طريق السعادة أن يعينه ، فانه قد يكون غير مستحق للاعانة لما قد يترتب على ذلك من مفاسد وفوات مصالح أخرى من حيث كون الاعانة فعلا له تعالى واعانة لا من حيث كونه أمرا وارشادا ، فانه سبحانه يخلق ما يخلق لحكمة ويأمر بما يأمر به لحكمة أخرى ، ولا يلزم إذا كان الفعل المأمور به مصلحة للمأمور اذا فعله أن يكون مصلحة للآمر اذا فعله هو أو جعل الآخر فاعلا له باعانته ، فجهة الخلق غير جهة الأمر ، فالواحد من الناس يأمر غيره وينهاه موضحا له طريق السعادة مريدا النصيحة والبيان لما ينفعه وان كان مع ذلك لا يريد أن يعينه على ذلك الفعل لما قد يترتب على الاعانة من المفاسد من ناحية أخرى من حيث الاعانة لا من حيث الأمر والنصح والبيان ، اذ ليس كل ما كان مصلحتك في أن تأمر به غيرك وتنصحه يكون مصلحة لك في أن تعينه أنت عليه ، بل قد تكون المصلحة في إرادة ما يضاده أو وقوع ما يضاد ما أمرته به ، فجهة أمر الانسان لغيره نصحا وارشادا وبيانا غير جهة فعله لنفسه ، واذا أمكن الفرق في حق المخلوقين فهو في حق الله أولى بالامكان مع ثبوت عدل الله وحكمته ورحمته وإحسانه ، فمن أمره وأعانه على فعل المأمور كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمره ، أنشأه خلقا ومحبة ، فكان مرادا بجهة الخلق ومرادا بجهة الأمر ، ومن لم يعنه على فعل المأمور كان ذلك المأمور قد تعلق

به أمره ولم يتعلق به خلقه لعدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، إما لعدم قبول المحل أو لفوات حصول الحكمة المقتضية لخلق ضده أو لهذا وهذا ، ولا شك أن خلق أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر ، فان خلق المرض ينافى العافية ، كما أن خلق الهداية ينافى وجود ضدها ، ووجود التضاد أمر لا بد منه لما فى ذلك من مظاهر الربوبية والاسماء والصفات ومعرفة الشر والخير والبلوى والعافية والعلم والجهل وغير ذلك مما لا يعد ولا يحصى ، إذ لو كان الناس أمة واحدة لاختفى وجهل أمور عظيمة فى هذا العالم وجهل قدرها .

فالضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتبين الأشياء

وليس غرضنا هنا بيان وجوه الحكمة فى التفاوت والافاضة فى بسط هذا الأصل العظيم فان ذلك يستدعى تطويلا خارجا عن موضوع الكتاب ، وقد بسط الكلام عليه العلامة ابن القيم فى شفاء العليل ، فمن أراد ذلك فليراجعه ، ويكفى المسلم العاقل أن يعلم أن الله سبحانه رب كل شيء ومليكه وأنه العليم الحكيم الذى له الغاية فى العلم والحكمة ، وليس من شرط وجود حكمة الله أن يطلع الناس عليها كلها ، والله سبحانه جعل فى العبد قدرة واختيارا على الفعل والترك ، وأنه ينفر مما يكرهه ويضر به ويحب ويميل الى ما ينفعه ، وانه سبحانه لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وأنه يعين من يحب طاعته ويميل اليها ويدعوه بتضرع وصدق وإخلاص ويهديه وييسر له أموره . وأن من تمرد عليه وشمخ بأنفه عن طاعته واتباع رضاه وكله إلى نفسه وخلى بينه وبينها حتى يضل فيطبع على قلبه ، وليس العاقل بمكلف أن يدخل بين الله وبين عباده فيشغل نفسه بما لا يعنيه فى مثل هذه الأمور الغيبية فيقول مثلا : لم كان كذا وكذا ، وإذا كان كذا كان كذا وكذا ، فى أمور القدر ، فانه يمتنع أن يكون الانسان محسنا الظن بالله ويعتقد من صميم قلبه أنه عليم حكيم وأنه رءوف رحيم ثم يذهب يتعنت فى أمور القدر متجاوزا الألفاظ الشرعية ، والفرق واضح لمن

نور الله بصيرته بين قولنا ان الله خالق فيه قدرة واختيارا على الفعل والترك وقولنا ان الله خالق فعله وان فعله مخلوق لله وانه لا يفعل إلا ما شاء الله أن يفعله ، فقد بينا أن الخلق ليس هو عين المخلوق ، وأن الفعل ليس هو عين المفعول بل هو أثره ، فأفعال الانسان من حيث كونها مفعولة لله داخلة فى خلقه لا أنها فعله ، فهى فعل الانسان ، كما أن الأكل والشرب والقيام والقعود والصلاة والصيام أفعال للانسان باختياره مضافة اليه حقيقة لا مجازا ، وهى مفعولة لله بمعنى أنها وقعت باذنه ومشيئته لا قهرا عليه وخفاء عليه ، لكن الطاعات لا بد أن يكون فيها إعانه من الله تعالى لعبده ، بخلاف المعاصى فان الله يكرهها ويمقتها ولا يعين عليها ، ولا يلزم من خلق القدرة والاختيار والارادة فى الانسان وجود الفعل مطلقا ، فان الاستطاعة التى هى مناط التكليف فى الأمر والنهى لا يلزم أن تكون مقارنة للفعل ، وأما الاستطاعة التى يجب معها وجود الفعل فهى مقارنة له ، فالأولى كقوله تعالى ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ﴾ وقول النبى ﷺ لعمران بن حصين « صل قائما ، فان لم تستطع فقاعدا ، فان لم تستطع فعلى جنب » ومعلوم أن الحج والصلاة تجب على المستطيع سواء فعل أو لم يفعل ، فهذه لا يجب أن تكون مقارنة للفعل ، وأما الثانية فكقوله تعالى ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ ، ﴿ وكانوا لا يستطيعون سمعا ﴾ وهذه حال من صده هواه أو رأيه الفاسد عن استماع كتب الله المنزلة واتباعها واشتغل بضدها ، فهو لاشتغاله عنها بضدها وكراهيته لها لايستطيع ذلك ، وهذه الاستطاعة هى المقارنة للفعل الموجبة له كما قرره الشيخ تقى الدين وابن القيم وغيرهما [1]

---

(١) راجع ص ٢١ و ٢٢ ج ١ (العقل والنقل)

فصل

ثم انه أطال فى تقرير كون هذه الموجودات المادية مقدرة من ناحية الكم والكيف ، وكرر الكلام فى ذلك ، وقد بينا لك أن هذا خارج عن محل النزاع ، واستدل بقوله تعالى ﴿ قل انكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين . ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ ثم قال : فقوله ﴿ وقدر فيها أقواتها ﴾ وقوله ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾ يراد به القدر الذى ضل فيه الناس وصيروه عامل ركود وانحطاط مع أنه هو القوة والوثوب والنشاط ، والمراد بتقدير الأقوات جعلها ذات مقادير ونسب كما سبق ، وختام الآيات بقوله ﴿ العزيز العليم ﴾ هو كالتدليل على أن المقصود بالتقدير وضع الأشياء فى مواضعها وخلقها متناسبة متكافئة وإعطاء كل شيء ما يستحقه وما يصلحه ويفيده [1] فان العزيز هو القوى الغالب والعليم هو الذى يفعل ذلك ويقدر عليه [2] لأن من لا يصنع ذلك فالمانع له إما أن يكون عجزا وإما أن يكون

---

(١) يوهم أن المسلمين يقولون ان هذه المخلوقات غير متكافئة وغير متناسبة وأنه تعالى لا يضع الأشياء فى مواضعها ولا يعطى كل شيء ما يستحقه ، وقد بينا لك انه هذا الذى يحاول رمى المسلمين به هو مذهب الملاحدة الذين يسندون الامور الى الطبيعة

(٢) يوهم أن المسلمين يقولون ان الله لا يفعل ذلك ولا يقدر عليه ، وأنه ليس بقوى ولا غالب ، وإلا فأى داع الى التكلف فيما هو معروف عند كل عاقل من المسلمين

جهلا ، وهو ليس بعاجز ولا جاهل لانه العزيز العليم [1] ولو كان التقدير مما يفهمه العامة من القدر لكان المناسب أن يقال فى إختتام الآية ذلك تقدير العزيز السفيه الظالم الشرير [2] تعالى الله عن ذلك وقوله ﴿ وبارك فيها ﴾ إشارة الى سر القدر ولبابه وغايته [3] وقوله ﴿ ائتياطوعا أو كرها ﴾ اشارة الى فائدته والى أنه سنة محتومة لا تغير ولا تبدل . وقوله ﴿ وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ﴾ اشارة الى قانون الجاذبية العام فانه هو الذى يحفظ هذه المخلوقات من الهوىّ والتصادم ، وهذا هو الحفظ والتزيين . والرواسى هى الجبال ، يعنى أنها ثابتة فى أماكنها لا تمايل ولا تتطاير مع دوران الارض ودورانها هى معها ، وكل هذا يرجع الى قانون الجاذبية .

هذا كلامه بحروفه ، فهو يفسر القرآن كيفما شاءت شهوته وهواه ، لانه المقدم فى الأمر كما يقول ، وقد سكت عن تفسير اليومين لأنه يضاد ما ذكره فى خلقها وأنها مكثت ملايين السنين كما يأتى ، ولو شاء لحرف اليومين وجعلها سنين أو أشهرا أو أياما أو غيرها كفعله فى غيرها . وقد قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى الكلام على هذه الأيام الستة (ص ٨٩ القسم الثالث مجموعة رسائل ابن تيمية طبعة المنار) : والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان.

---

(١) لكن سيأتى كلامك أنه حد لنفسه حدودا لا يتعداها وحواجز لا يخرقها ، الى غير ذلك ، وأنه لايتصرف فى الاسباب بقطع ووصل ، وهذا تصريح بعجزه عن تغيير نواميس الطبيعة

(٢) فعلى هذا كل تصرف يفعله الله فى خلقه وهو مخالف رأيك فى نواميس الطبيعة فهو ظلم وشر وسفه . ولو كنت تعتقد أن كل أفعاله تعالى قائمة على العدل والحكمة لم تدع هذا . والعامة الذين تشنع عليهم قد أبنت عن اعتقادهم بان الله عندهم يتصرف فى الأسباب كيف شاء ، فهل هذا عندك هو السفه والظلم والشر

(٣) هذا هو سر القدر عنده

الذى هو مقدار حركتها مع إخبارها بأنها خلقت من مادة قبل ذلك وفى زمان قبل هذا الزمان ، فانه سبحانه أخبر أنه خلق السموات فى ستة أيام ، وسواء قيل ان تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدرة بطلوع الشمس وغروبها أو قيل إنها أكبر منها كما قال بعضهم ان كل يوم قدره ألف سنة فلا ريب أن تلك الأيام غير هذه الأيام وغير الزمان الذى هو مقدار حركة هذه الأفلاك ، وتلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض » انتهى .

والحاصل أن ما ذكره هذا المغرور فكله يدور على أن التقدير المذكور فى هذه الآية هو القدر ، وقد رفض جميع الأحاديث الصريحة التى تخالف ما ادعاه ، وقد عرفت بطلان كلامه فيما سبق .

فصل

قال « وقد جاءت أحاديث وآثار عن السلف تدل على أنهم كانوا يفهمون القدر على ما ذكرناه ، فمما جاء فى ذلك حديث رجوع عمر بن الخطاب ومن معه من الصحابة والمسلمين عن الشام لما أن قربوا منها وعلموا أن الطاعون قد وفد اليها ، وقد استشار عمر الناس فى الرجوع فأشار مشيرون بأن يرجع وآخرون بأن يمضى ، فاختار بفطنته الثاقبة وبصيرته النافذة الرجوع ، فقيل له : أفرارا من قدر الله ؟ فقال — وأعجب بما قال — : نفرٌ من قدر الله إلى قدر الله . ثم قال للمعترض : أرأيت لو هبطت واديا فيه مكان مخصب ومكان مجدب ، فان رعيت المخصب رعيته بقدر الله ، وان رعيت المجدب رعيته بقدر الله ، ثم حُدث عن نهى الرسول عن القدوم على الوباء فسر بذلك ، ثم أخذ يفرع على هذا الأثر على عادته ويتحكم فيه على هواه فقال « وهذا صريح فى أنهم فهموا القدر على خلاف ما فهمه المتأخرون » الى آخره

فيقال أولا : قد ذكرت فيما يأتى قريبا الحديث الناص على أن عمر تبرأ من نسبة هذا اليه ، وردك للحديث مع تصحيح العلماء له مضروب به وجهك لأنه مبنى على أنك المقدم فى كل أمر ، وحينئذ فلا يسوغ لك الاحتجاج بهذا الحديث أصلا

ويقال ثانياً : قد تقدم ما ذكرته أن عمر كان يمنع من كتب الأوائل والتوراة والانجيل ويعاقب على ذلك ، ثم جعلت هذا الفعل من المقادح العظيمة فى تأخر المسلمين ، فبصيرته النافذه وفطنته الثاقبة لم تقبلها هناك مع ثبوت ذلك عنه ، وهنا احتججت بما يثبت أنه قد تبرأ منه

ويقال ثالثاً : على فرض ثبوت هذا وأنه لم يتبرأ منه هو فى غاية الصراحة فى الرد عليك ، فانه فى رد جميع ما قررته فى تفسير القدر ، لأن حاصل كلامك أن الحوادث المستجدة وأفعال العباد ليست مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وقدرته ، اذ لو كنت تقر بذلك لم تنازع المسلمين المعتقدين هذا ، فان عمر رضى الله عنه أثبت أن وقوع الوباء فى هذا المكان دون ذلك المكان من قدر الله ، ومعلوم أن وقوع الوباء أمر حادث من الحوادث الكونية ، فهو دليل على أنه تعالى هو الذى أنزله فى هذا المكان ، وأن كون الانسان يأتيه اليه من قدر الله وكونه يفر منه من قدر الله ، ومعلوم أن الاتيان والفرار أفعال حادثة فهى من قدر الله . ويوضح هذا أنه مثل الاتيان والفرار بالمرعى فى المكان المخصب والمكان المجدب ، ومعلوم أن رعي الأرض فعل حادث فسماه عمر قدراً ، فأين هذا من كلامك الماضى والآتى فى قولك فى تعريف القدر والقضاء أن معناهما أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير مضبوطة محكوما بسنن لا تقبل التغير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان ، فهذا صريح فى أن الحوادث لا تصدر عن مشيئة الله وارادته وقدرته ، بل هو خلق هذا العالم وتركه

يتفاعل بنفسه ، وعمر رضى الله عنه أثبت أن فعله من الفرار واتيان الأرض كرعي الأرض وسمى ذلك قدرا فتبين أن أفعال العباد من الفرار والاتيان والرعي وجميع الأعمال كلها من قدر الله ، كما أن الأسباب المادية ومسبباتها كلها من قدر الله لا تصدر إلا بارادته ومشيئته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . وقد قلنا فيما مضى : إما أن تلتزم بأن هذه الحوادث كلها من أسباب ومسببات من الأجسام والأقوال والأفعال تجرى بمشيئة الله وقدرته وإرادته . وإما أن تدعى أنها خارجة عن مشيئته وقدرته وإرادته . فان التزمت بالأول فلا معنى للمشاكسة والمعاكسة والعناد الطويل كما سبق ، وان ادعيت الثانى فقد أنكرت تصرف الله فى ملكه وتدبيره له وجعله معزولا عنه ، وهذا أعظم الكفر ، ولا حاجة الى هذا الخداع والتلبيس والمنافقة الظاهرة .

ولو أن رجلا فر من الطاعون فمات هل تظن أن الناس المقرين بالقدر يقولون أنه مات من غير قدر ، وهل تظن أنهم يوجبون على الانسان أن يلقى بنفسه الى التهلكة ويقولون هذا هو الايمان بالقدر حتى تستدل بهذا ، بل هم يوجبون على الانسان أن يفعل ما فيه صلاحه وفلاحه وينهونه عما فيه هلاكه ودماره ، ويقولون كل من الصلاح والفلاح والوصول الى ذلك من القدر ، وكذلك الهلاك ، كما فى الحديث « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » وكما قال تعالى ﴿ والذى قدّر فهدى ﴾ فهو سبحانه إذا قدر للعبد شيئا فلا بد أن يهديه لأسبابه التى توصله الى ما قدر له . وقال تعالى ﴿ الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ فهذا نص فى أنه أعطى الانسان خلقه وهداه لما قدر له كما فى الآية المتقدمة فخلق الانسان على صفته بمقداره وحدوده وهيئته ثم أعطى خلقه من أقوال وأفعال ومعلومات كلها مقدرة عليه مخلوقة لله تعالى ليس لأحد فيها خلق البتة

ثم قال « فذكر ابن حجر العسقلانى فى شرح البخارى قال : أخرج

الطحاوى باسناد صحيح أن عمر قال : اللهم إن الناس نحلونى ثلاثا أنا لبرىء اليك منهن ، زعموا أنى فررت من الطاعون وأنا أبرأ اليك من ذلك . وساق بقية الثلاثة . وهذا يجب أن لا يكون صحيحاً ، اذ كيف يبرأ عمر من شىء أمر به الرسول ، ومن شىء فعله ووافقت الصحابة عليه واحتج له ذلك الاحتجاج المسكت »

قلت : هكذا ساق الحديث واكتفى فى رده بما ترى فى قوله « يجب أن لا يكون صحيحاً » بناء على أنه اذا قال قولا أمن الدهر لقوله ، وأنه هو المقدم فى كل أمر . وحيث أن موافقة الحديث لهواه شرط من شروط صحته فمتى وافق هواه فهو صحيح بلا ريب ، ومتى خالفه فهو كذب بلا شك ، فكان هذا الحديث غير صحيح لعدم وجود شرطه فيجب أن لا يكون صحيحاً ، وكيف يكون صحيحاً وهو لم يوافق هواه الذى استوجب أن يكون المقدم فى الأمر وأن يفرد بالطلب والرغبة والرهبة ، هذا لا يكون على مقتضى قاعدته أبدا ، وإلا فرجل يذكر حديثا مخرجا باسناد صحيح قد صححه أهل العلم يرده بقوله يجب أن لا يكون صحيحاً ولا يذكر العلل التى بها كان غير صحيح لا شك أنه يرى لنفسه الحق فى إبطال الأحاديث وتصحيحها بمجرد تحكمه فى شريعة الله ونظامه ، ولو أنه ذكر أن أحداً ضعفه أو أنكره أو جعل فى صحته نظراً ونحو ذلك لكان أسهل ، أما إيجاب عدم صحته هكذا فطيش وجنون ومجازفة ظاهرة .

ثم ذكر الحديث الذى فيه أنهم سألوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئا . قال : هى من قدر الله . ثم قال : وقدر الله فى الحديث هو ما شرحنا .

فيقال : قد تقدم الكلام على ما شرحه وانه لا حجة له فيه ، بل هذا الحديث يؤيد ما يعتقده المسلمون ، فان التداوى أفعال والأدوية أكثرها

معمولة مصنوعة حادثة [٢] فاذا كان النبي ﷺ قد جعلها من قدر الله فقد دل على أن أفعال العباد وأعمالهم كلها مما قدر الله ، وأنها كلها من تصرف الله فى المتجدد المستمر فى ملكه بقدرته ومشيئته ، وهو دليل على أن الأسباب ومسبباتها كلها من القدر الذى هو مربوط بالمشيئة والارادة ، ومعلوم أن بعض الأدوية لا تنفع بل فيها ما يضر ، فالله تعالى هو الذى قدرها أدوية للأمراض ، كما أنه هو الذى قدر الأمراض . وبالجملة فقد بينا لك فيما سبق أن جميع ما فى الكون هو تحت قدرة الله وإرادته ومشيئته ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، فمن ادعى أنه يكون فى ملك الله ما لا يشاؤه فقد عاند الله جهاراً ، فلا حاجة إلى أن يدعى الاسلام ويتحمل عذاب النفاق وذلة الخداع .

فصل

ثم ذكر بيتين للبحترى وشنع عليه فى رأيه فى القدر ، ثم ذكر بيت ابن هانىء الذى يقول فيه :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

ثم قال « انه ذهب كما ذهب الجميع الى أن الأقدار هى القوى الخفية الخبيثة الظالمة التى أرسلت على هذا الانسان تسوسه شر سياسة ، وتطارده وتستبد به بدون أن يلقى غوثا ، وتذوده عن الوصول إلى أغراضه وعن الاستمتاع بمواهبه وأعماله [٢]

---

(١) كما قال تعالى ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾

(٢) قاتلك الله ، من الذى جعل الأقدار بهذا الوصف ، ومن الذى أعطاه المواهب يستمتع بها ثم ذاده عنها

فلينظر المنصف الى هذا الملحد كيف استدل بهذا البيت ثم ركب عليه هذا الخبث وجعل المسلمين يرون أن القدر هو القوى الخفية الخبيثة ، فجعلها قوى خفية خبيثة حيث ذكر أن الجميع ذهبوا الى هذا . ولا بدع فيمن عادى الله ورسوله والمؤمنين ومن اجترأ على المقام الأقدس أن يتكلم بهذا . ولو قيل لهذا الزنديق : بين لنا من هم الجميع الذين ذهبوا الى أن القدر قوى خبيثة لم يجد من المسلمين نفراً واحداً يدعي هذا ، اللهم إلا أن يجد زنديقاً مثـله يسميه مسلماً فقد يكون ، والغرض الحقيقى من هذا هو تشويه سمعة هذا الأصل الدينى وتركيز كراهيته فى النفوس ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يشكون فى كفر من اعتقد هذا فى مشيئة الله تعالى وقدرته وقضائه وقدره ، فالله ينتقم منه إنه عزيز ذو انتقام .

فصل

ثم سلك فى تفسير القضاء مسلكه فى تفسير القدر سواء بسواء ، فادعى أن معناه أن هذه المخلوقات قد قضى من خلقها على هذا التكوين الطبيعى ، فكان معنى القضاء والقدر سواء وهو خلق الأشياء المادية وايجادها على هذا التكوين المحكم ، وقد علمت مما سبق أن مسألة اعتقاد خلق العالم على ما هو عليه من الاتقان والإحكام أمر لا ينازع فيه أحد من المسلمين ، بل المشركون مقرون بهذا كما تقدم بيانه ، وانما الكلام فى الحوادث المشهودة من الأعمال والأفعال وغيرها ، فالمسلمون يقولون كل ذلك بقضاء الله وقدره ومشيئته لها ، والدهرية والملاحدة ومن سلك سبيلهم يدعون أن ذلك مصادفات من تفاعل الطبيعة لا تعلق للارادة والمشيئة العليا به . وكلام هذا الملحد يقرر هذا فى الحقيقة ، وإلا فلا معنى لاعتراضه ونزاعه ، فقال وهو حاصل كلامه فى القضاء والقدر :

« فالقضاء والقدر معناهما أن الله قد أوجد هذا العالم مقدراً بمقادير

مضبوطة ، محكوما بسنن لا تقبل التغيير ، وأنه تعالى قد فرغ من ذلك فراغا لا يعقبه تبديل ولا تعديل ولا زيادة ولا نقصان ، لأن ذلك هو شأن الضعفاء أو الجهلاء أو السفهاء ، وتعالى الله عن ذلك »

فيقال له : ما معنى التبديل والتعديل والزيادة والنقصان هنا ، أتريد أنه تعالى لما فرغ من خلق العالم عزل نفسه عن التصرف ، وأن هذه الحوادث المشهودة لا تعلق لها بمشيئته وقدرته وإرادته ، أم تريد أنه فرغ من ذلك وكل ما فى العالم يجرى على مقتضى خلقه وأمره ، أم تريد أمراً آخر ، فان أردت الأول فقد جاهرت بالكفر وجعلت يده تعالى مغلولة عن التصرف فى ملكه وأنه معزول عنه ، وان أردت الثانى فهو قول المسلمين فلا معنى لعداوتهم ورد رأيهم . ونحن نعلم أن هذا ليس هو مرادك ، ولكن هذا على فرض التنزل . وان أردت غير ذلك فلا بد من بيانه فانك خادعت هنا كثيراً ـ كعادتك فى كثير من هذه الأمور ـ من أجل الخوف والرهبة وإلا فمقصودك معروف . ثم إنكارك التبديل مضاد لقوله تعالى ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ وكل الحوادث المستجدة ما هى إلا بدل عن حوادث ذاهبة . وأما التعديل فلا بد من بيان معناه ، وحينئذ يظهر الجواب عنه ، وقد علم أن المسلمين لا يقولون إن العالم محتاج إلى تعديل ، وأما الزيادة فأنت قررت أن العالم كان كتلة واحدة ثم انفجر فتوقا فكان شموساً ، ثم ولدت الشموس السيارات ، وولدت السيارات الأقمار على ما مرّ فى كلامك ، وهذا كله زيادة فى أصول العالم ، وقد أطلت فى تقرير التطور ، ومعلوم أنه زيادة بلا شك . فان كانت الزيادة التى أنكرتها من هذا الباب فقد تناقضت ، وإن كانت من غيره فلا بد من بيانه ، وكذلك النقص فانك لم تبين حقيقته هل هو فى الكليات أو فى الأفراد أو فى غير ذلك ، وقد قال تعالى ﴿ أو لم يروا انا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ﴾

والتحول المشاهد فى أفراد كثير من المخلوقات وأنواعها نقص عكس التطور . والحاصل أن كلامك هذا هذيان ليس من التحقيق فى شىء ، ومقصودك منه إبطال للقضاء والقدر الذى يعتقده المسلمون ، وإلا فقد بينا أنه لا بد لك من أمرين إما الاقرار بتعلق المشيئة بجميع الموجودات ، وإما انكارها ، وحينئذ ينكشف خداعك ونفاقك . أما التطويل والتهويل والذبذبة فى خلق العالم فهو تملص لا ينفعك ولا يغنى من الحق شيئا

ودعواك أن هذا شأن الضعفاء والجهلاء والسفهاء

يقال : قد تحكمت على الله فى القدر ، فان هذه أمور غيبية ، فمن أين لك أن تصرف الله فى ملكه على مقتضى علمه وحكمته هو شأن هؤلاء ، ولا يلزم من عدم اطلاع الخلق على حكمة الله أن يكون ذلك سفها وجهلا تعالى وتقدس ، بل مقتضى تأصيلك وتقريرك أنه تعالى بهذا الوصف ، فانك جعلته قد وكل عبيده الى الطبيعة ونواميسها تتحكم فيهم كما أرادت ، فهو لعجزه تركه لغيره يتصرف فيه بما شاء ، ولأنه لا يعرف كلياتها وجزئياتها ، ولأنه لعدم رحمته وحكمته لا يبالى بما يصيبهم ، ولا يفرق بين من أطاعه واتقاه وبين من عصاه وتمرد عليه ، فالمحسن كالمسىء سواء ، أما من اعتقد أن الله غفور رحيم عدل حكيم قائم على كل نفس بما كسبت قائم بالقسط فلا يجعل من كان مؤمناً كمن كان فاسقاً ، بل حكم بأنهم لا يستوون وأنه يدبر الأمر ، وبيده الملك ، يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير ، وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه كل يوم هو فى شأن — من اعتقد هذا فليس معتقداً إلا ما دل عليه نظام الله وشرعه وكتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

وقد قال هذا الملحد فى البحث العاشر الآتى « وجاء فى النصوص أن الوجود كله فى تغير وتغيير مستمرين فى طريق الكمال الخ » فكيف هنا يقول

ان العالم محكوم بسنن لا تقبل التغيير وان ذلك هو شأن الضعفاء إلخ . وهذا شأنه فى القلق والاضطراب

يوما بحزوى ويوما بالعقيق وبالعذيب يوما ويوما بالخليصاء
وتارة تنتحي نجدا وآونة شعب الغوير وطورا قصر تيماء

الكلام على المبحث الثامن ـ فى التوكل

عنوانه فى أغلاله هكذا :

(التوكل — أخطاء الناس فيه — كيف يجب أن يفهم)

هذا هو عنوان هذا المبحث . ولما كان هذا الملحد مؤسسا كتابه على هدم أصول الدين وقواعده الأساسية ، موجها سهامه إلى روحه وقلبه ، وعلم أن أصل الدين وقاعدته هو توجه الانسان بقلبه وقالبه إلى ربه تبارك وتعالى واعتماده عليه وإنزال الفاقة اليه والاستعانة به فى كل مهمة وقصد ، وهذه الأصول كلها تدور على الدعاء والتوكل وملاحظة القضاء والقدر ـ فهى أصول العبادة ـ جعل لكل واحد من هذه الأصول وما يتعلق بها من الخطب والصلاة معولا وسلاحا يجتثه من أصله ، ليقطع العلائق الدينية بين الله تعالى وبين عباده ، وبانقطاعها بزعمه يحصل التوجه إلى الطبيعة ونواميسها ، لأن معرفة ذلك فى رأيه لا يتفق مع الايمان بالله واليوم الآخر وهذه الأصول أيضا . فاجتهد فى إزالة هذه الأصول وإبعادها عن طريق دعايته الإلحادية ، فأفرد للتوكل هذا المبحث ، وسلك فيه مسلك نظائره من أصول الدين التى حاول هدمها . وقد أوهم الناس من أضداد الاسلام وغيرهم من الجهلاء أن المسلمين يعتقدون أن التوكل هو ترك العمل بتاتا ، والعجز والنوم والكسل ، وترك القيام بكل ما ينفعهم فى معاشهم ودنياهم ، وأنهم فعلوا ذلك فكانوا عاجزين متأخرين . وغرضه من هذا الافتراء هو حمل عهدة كل مصيبة على

الدين وأصوله كالتوكل ، على عادته فى حمل المصائب على الدين وأهله كما تقدم.
وكل مسلم عاقل يعرف دينه يعلم حقيقة العلم أن هذا الذى ادعاه بهت وجحود
ومكابرة واضحة وتزوير على المسلمين ، فلا يمكن له بحال أن يجد ما يصدقه
فى كتاب من كتبهم المعتمدة وعقائدهم المعتبرة . وأن التوكل هو هذا الذى
ادعاه . والواقع المشاهد من أحوال الناس خاصتهم وعامتهم خلاف ما ادعاه .
فان معاملاتهم وسيرهم وراء رغباتهم الكثيرة المختلفة سيرا حثيثا يناقض
ما ادعاه ، فالناس إنما أتوا من حيث تركوا التوكل لا من حيث فعلوه ، كما يأتى
توضيح ذلك . قال الملحد :

« التوكل - أخطأ الناس فيه - كيف يجب أن يفهم »

أراد أحد سلاطين الأتراك فى أواسط القرن الثالث عشر الهجرى أن
يدخل النظام الجديد الغربى على الجيوش العثمانية ، فهاج الشعب وهاج
الانكشارية ، يؤيدهم شيخ الاسلام والصدر الأعظم قائلين : انه لا يجوز أن
تكون عساكر الاسلام متشبهة بالكفار ، فأحدثوا شغبا عظيما فى العاصمة
وغيرها ، وقاموا يطالبون بقتل السلطان ومن معه من الوزراء الذين يريدون
النظام الجديد ويريدون إفساد طهارة الايمان بأفعالهم الشنيعة ، ونشروا
منشوراً فيه أسماء الرجال من عظماء الدولة الذين يطالبون بقتلهم ، وقد ذكر
لهم أسماء أولئك الرجال شيخ الاسلام عطاء الله أفندى ، فجدوا فى ذلك حتى
قتلوهم ، ثم خرجوا فى الطرقات ينادون : أيها السلطان المغشوش بهذه التعاليم
نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضا عن اتكالك على الله القادر العظيم الذى
يمدد فى دقيقة واحدة الجيوش الكثيرة أردت أن تشبه الاسلام بالكفار ،
وأغضبت الله ، فكيف يسوغ لك أن تكون أمير المؤمنين وحاميا عن
الدين ، فالعساكر المحافظة على كرسيك لم يبق لها ثقة بك ، والمملكة أضحت
مضطربة ، فيجب عليك أن تلاحظ وأن تفضل على كل شيء شرف الايمان

وسلامة الاسلام ثم أصدروا استفتاء فيه : السلطان الذى يخالف القرآن هل يترك على تخت السلطنة . فكانت الفتوى : كلا . ثم صاحوا : قد صار معلوما عندكم أنه يتحتم عزل السلطان ، فما قولكم الآن ، هل تسلمون له أن يفعل ما يخل بالاسلام . فصاحت العساكر : كلا كلا ، لا نقبله سلطانا ، فليعزل . وفى نهاية الأمر خلعوا هذا السلطان ثم قتلوه وألزموا من جاء بعـــده برد النظام الجديد الذى أريد إدخاله على جيوش الدولة » (مصـــادر التاريخ الاسلامية)

ثم قال « هذه حادثة سقناها لندل بها على الهوة السحيقة التى سقط الناس فيها من جراء فهمهم التوكل ، بحيث صار أحد الأمراض الاجتماعية النفسية الاعتقادية التى تألبت عليهم حتى سلبوا الحول والقوة » .

والجواب أن يقال : ونحن إنما نقلنا ما سقته لنبين به مقدار الهوة العميقة التى سقطت فيها من حيث لا تشعر من جراء فهمك لهذه الأصول ، حتى صار الجهل العريض والرسوخ فى الغباوة المحققة خلقا طبيعيا ملازما لك ، فما أشبه حالك فى استشهادك بهذه الحادثة بما شبهناك به سابقا بحال إخوانك فى الإباحية حين قالوا ﴿ أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ﴾ قال بعض السلف عابوهم بغير عيب . وهذا الملحد لما كان يرى أن مخالفة القرآن أمر لا باس به ، بل ربما يجب ، استدل بهذه القصة ، فنقم على هؤلاء الذين نقموا على هذا السلطان الذى خالف القرآن فى إدخال النظام الجديد الذى خالف فيه القرآن ، ولهذا لم يجبهم سلطانهم بأنه غير مخالف له بل سياق القصة دليل على أنه معترف بذلك ، ولكنه رأى كما رأى بعض المنكودين المنكوبين أن مخالفة القرآن فى الأمور السياسية لا بأس بها ، بل يسمون المتقيد بأحكام القرآن جامدا خاملا ، ولهذا ضربوا بالجمود والخمول تحت أعدائهم والارتكاس الفظيع ، فهذا الملحد عاب على هذا الشيخ وانتقده هو وشعبه الهائجين على هذا النظام الخبيث الغريب الغربى وعدم استسلامهم له مع اعتقادهم أنه مخالف للقرآن .

ثم ان هـذا الفعل ليس بمجرد رأى رأوه بل هو باستفتاء وفتوى صادرة من أهلها ، ومعلوم أن هذه الدول الملحدة التى قد وهبها هذا الزائغ كل ما قدر عليه من إجلال وثناء وتعظيم وتبجيل لو حاول أحد رؤسائها ادخال نظام غريب عليها بمجرد رأى رآه بدون موافقة أولى الرأى أو الشعب لهـاج الشعب كله ولبطشوا بالرئيس أو غيره مهما كان الأمر ، هذا مع كونهم لا يرون أن هذا النظام الذى يراد تبديله منزّل من عند الله الحكيم العليم الرحيم ، وكم حاكمت هذه الدول من وزير أو كبير أراد تحويل أمر واحد من أمورها بمجرد رأيه فقتلته أو حبسته حبسا مؤبدا فضلا عن عزله وطرده ، وما من دولة من هذه الدول الملحدة إلا وقد حاكمت زعيما من زعمائها او اكثر ، وأوقعت به أشد العقوبات من أجل هذا الأمر مع كون هذا الذى يراد إبدا له كفرا مخالفـا للأديان ، ومع ذلك فقد أثنى عليها كلها أعظم الثناء وسبح بحمدها وقدسها أعظم التقديس ، بل رفعها إلى حد أن جعلها شريكة لله تعـالى فى أخص صفاته وهو العلم بكل شىء والتغلب على كل شىء ، فلما ان حصلت هذه الحادثة التى مضمونها إنكار ما يخالف القرآن والقيام على من حاول ذلك حرج صدره وضاقت عليه الأرض بما رحبت وجعل ذلك مشكلة كبرى ومصيبة عظمى ومرضا اجتماعيـا نفسانيا اعتقاديا قد ألب على الناس حتى سلبهم الحول والقوة فصار من الذنوب التى لا تغفر ، بل جعله حجة يحتج بها على المسلمين فى أغـــلاله المشدودة فى عنقه . يا لله العجب ، كيف يعيب على دولة تدعى أنها على مبدأ الاسلام والقرآن يأتى اليها أعداؤها بدسائس ملعونة فيروّجونها على رئيس من رؤسائها ثم يريد هذا الرئيس أن يقلب نظامها ومبدأها الذى تتعبد الله به ثم لا تعزله أو تقتله . وهذا الزنديق قد مدح مصطفى كمال لما غير دينها واختار أن تكون لا دينية ، وقد أعجب به وبرأيه [1] هذا الذى يضاد القرآن ، وليس هذا بكثير

(١) ذكره فى نبذته (كيف ذل المسلمون) ، وسيأتى مدحه له هنا أيضا

من مثله ، فان الزنديق لا بد أن يكون هذا مبدأه ، ولا بد أن يؤمن بالجبت والطاغوت ويقول للذين كفروا ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ .
ثم أى عيب فى قولهم أيها السلطان المخشوش بهذه التعاليم - وهى التعاليم المخالفة للقرآن - نسيت أنك أمير المؤمنين ، وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم الذى يبدد فى الدقيقة الواحدة الجيوش الكثيرة . فان هذا كله صحيح ولعله استكثر أن يبدد الله فى دقيقه واحدة الجيوش الكثيرة وعد هذا مجازفة منهم ولم يعتبر بما فعل بالأمم الماضية المكذبة للرسل كيف أهلكها الله وبددها ، بل ولم يستكثر ذلك فى الطاقة الذرية التى أخرجها الله على أيدى عباده فى وقت رفض الأديان وشيوع الزندقة والالحاد ، فهذا هو الوقت الملائم لها ، لينتقم بها من أعدائه ومن نصرهم وأعجب بهم ، أو لعل موضع انتقاده قولهم ، وعوضا عن اتكالك على القادر العظيم ، يعنى لم قالوا هذا القول لأن الذى يتكل على الله ويتمسك بالقرآن ويترك النظام الجديد الذى يضاده هو عنده جاهل رجعى متقهقر بناء على أصله أن الديانة لها نتائج أخرى هى الملهاة والتعويق . فاذا كان هذا هو الذى خطر على باله فليعلم أنهم لما ردوا هذا النظام تقدموا تقدما عظيما باهرا ولم يصبهم تأخر ، وانما أصابهم ما أصابهم حين عادوا فأدخلوا النظام الجديد وأمثاله فغيروا فغير الله عليهم سنة الله التى قد خلت فى عباده أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، هذا مع ما هم فيه من المخالفة فى أمور أخرى كشيوع مذاهب الجهمية المنكرين لعلو الله على عرشه وعبادة قبور الأنبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد والغلو فى كثير من نظريات الصوفية الباطلة

والمقصود أن سياقه لهذه الحادثة مستفتحا بها هذا المبحث منتقدا بها على المسلمين مما يدل على كثافة حجابه ، لأنه لم ينقم منهم ﴿ إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد الذى له ملك السموات والأرض ﴾ وانما ألجأه الى ارتكاب هذه الجهالة العمياء عنته الشديدة وولوعه الأعمى فى حب الأنظمة الجديدة ولا سيما

إذا كانت الحادية محضة ، ومقته للأخلاق الدينية الأولى ، فانه مطبوع على تتبع الخبائث وكراهة الطيبات ومقتها والبعد عنها ، وطبعه هذا هو الذى أعماه عما به يستدل ، وهذا كله تنازلا على تقدير ثبوت هذه الحادثة على الصورة التي ذكرها ، والا فالمعروف أنهم قاموا عليه لما أراد مخالفة القرآن صريحا .
ثم انه صاغ الدعوى على حسب ما تقتضيه شهوته وإرادته ، واحتج بها فجعل الدعوى هى الحجة ثم بنى عليها هذيانه ، وهذا خطأ مستقل ، ثم هى مع هذا كله برمتها تناقض أيضا ما أدعاه على المسلمين فى التوكل كما يأتى أنه الاستسلام والكسل وترك العمل . والحادثة تضمنت الجد والقيام والجهاد وحشد الجيوش فلو كان الأمر كما ذكر لم تجعل لها جيوشا محاربة وأسلحة وعددا عظيمة ، بل استسلمت وطلبت من الله ما شاءت واشتهت ـ على زعمك ـ بدون جيوش ، ولكنه مبتلى بعمى القلب والبصيرة فى كل ناحية من آرائه وأفكاره حتى مللنا من التنبيه على كثرة تناقضه وتهادم كلامه فى كل جملة وصحيفة الا ما ندر

فصل

ثم شرع يبين معنى التوكل الذى يعتقده المسلمون ، ولكنه صنع فيه كما صنع فى معنى القضاء والقدر ، فلم يذكر ما يفهمه المسلمون على وجهه من كونه الاعتماد على الله فى جميع الأفعال والأقوال المشروعة من الأسباب الدينية والدنيوية ، بل عكس المعنى لأنه يريد أن يطبق أصول الدين على ضده من قواعد الالحاد ، فيعكس المدلول فيجعل الشرك توحيدا والتوحيد شركا كما جعل العلم جهلا والجهل علما ، فادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب وهذا غاية البهت والمكابرة ، فجعل عبادة الله هى عبادة الأوثان ، فانه لا يختلف المسلمون أن التوكل من أنواع العبادة وأن من توكل على سبب فقد عبده ، كما نقل فى الاقناع وشرحه الاجماع على أن من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويسألهم ويتوكل عليهم كفر إجماعا ، وبرهنوا على هذا الأصل بأن ذلك

كفعل عابدى الأوثان قائلين ﴿ ما نعبدهم إلا ليقرّبونا الى الله زلفى ﴾ فجعلوا التوكل من العبادة ، بل هو نفسه قد صرح فى كتبه السابقة أن التوكل من أنواع العبادة [1] فكيف يبيح صرف هذه العبادة لغير الله ، ولا شك أن الأسباب كلها مخلوقة لله لا تجوز عبادتها ، فمن عبد غير الله كفر ، وسيأتى تصريح شيخ الاسلام بأن الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، ولم نعلم أحداً من جميع الكفار والمستهترين بالأديان ادعى أن التوكل على الله هو التوكل على الأسباب سوى دجال هذا العصر هذا الزنديق ، وهذا مع كونه استهتاراً واضحاً بالشرائع السماوية فهو قحة سافرة لا تخفى إلا على بليد كالأنعام

وقد زين له شيطانه أن يتقول على الفقهاء أقوالا لا أساس لها من الصحة ثم يستدل بأقوال مجهولة لبعض الصوفية ليخلط الحق بالباطل وليصدق دعواه فيما عزاه إلى المسلمين ، وقد ترك أئمة الاسلام فى معنى التوكل ككلام ابن القيم فى شرح المنازل وغيره كما ترك كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره من علماء المسلمين فى عقائدهم وكتبهم المعتمدة ، وفسره بما خطر على باله مع مخالفته لكتب الدين كلها واللغة والنحو وغير ذلك ، فان أدنى كتاب من هذه الكتب يراجعه الانسان يجد فيه أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه أو الاستسلام له والوثوق به . أما كونه يجد التوكل عليه هو هو الاعتماد على خلقه من أسباب فهذا لا يمكن أن يوجد أبداً لأنه يتضاد مع معناه مضادة صريحة فقال :

«وقد اختلف الصوفية والمتزهدون والفقهاء كعادتهم فى تحديد معنى التوكل

---

(١) قد نقلنا شيئا من كلامه فى المبحث الأول ، وسيأتى نص كلامه بأن التوكل ركن من أركان الدين

اختلافا كبيراً [1] وكتبوا فيه كلاما كثيراً وأوردوا تعريفات لمعنى هذه الكلمة الاصطلاحى لا يمكن حصرها ، ولكن يمكن تلخيصها فى كلمة أو كلمات :

فعندهم أن من اهتم لشىء فى هذه الدنيا أو عمل له أو اعتقد أن شيئا فيها يوصل إلى شىء آخر أو أن شيئا من الأشياء لا يمكن بلوغه إلا بأسبابه أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها أو أن أحدا كائنا ما كان يقدر أن ينفعه أو يضره أو أن أمرا متوقف وجوده على أمر آخر أو أن أمراً معلل بأمر فقد خرج عن جميع حدود التوكل ومن كل أبوابه »

فيقال : هذا التلخيص الذى ذكره بهت وفجور ظاهر ترده كتب المسلمين المعتمدة كلها كما يرده الحس والضروة والعيان ، فليس فى المسلمين من يدعى أن هذا هو معنى التوكل ، فلا يمكنه بحال أن يستشهد بنقل عن أحد يعتد بقوله ، وإن كان قال هذا اتحادى أو من لا يعبأ بقوله فلا يجوز له أن ينسب قوله إلى المسلمين ، مع ادعائه أنه ليس المسلم هو الذى يتتبع أخطاء المخطئين وأغلاط الغالطين . ثم أقوال اتحادية الصوفية والجهمية ونحوهم لا تعد من أقوال المسلمين ، ولو أن يهوديا ادعى على المسلمين بما تفعله الرافضة من سب الصحابة وكلامهم فى المنتظر بمجرد كون الرافضة تنسب نفسها للاسلام لكان دعوى هذا اليهودى من جنس دعوى هذا الزنديق سواء ، وقد كان يجب عليه

---

(١) غرضه من ذكر الاختلاف أنه شىء غير منضبط فيجب رفضه ، وقد كذب ، ليس فى أصله اختلاف ، واختلاف التعبير فى حدوده لا يوجب الاختلاف فى أصله ، كالحب فان الناس يعرفونه وان اختلفوا فى حده ، وكذلك البغض ، فالتوكل يعرفه أدنى عامى فضلا عن غيره ، فانه يقول توكلت على الله أى اعتمدت عليه ، واذا قيل له اعتمد على الله أو توكل عليه فهم من العبارتين معنى واحدا

فى مثل هذه الأمور أن ينقل كلام أئمة الدين فى معنى التوكل من عقائدهم أو كتبهم المشهورة ثم يجيب عنه ، ولكنه أصغر وأحقر من أن يسلك هذا الطريق الصحيح ، وإنما غايته أن يلجأ الى الخصلة اليهودية ، فهو اذا اضطر الى ذلك وحزبه الأمر وأعوزته الحجة استعمل البهت والتحريف ولبس الحق بالباطل شأن كل منافق هدام . ولكن يجب أن يلاحظ قوله « أو اعتقد أن شيئا فيها يوصل إلى شيء آخر ، أو أنه يستطيع أن ينفع نفسه أو يضرها ، إلخ فانه يقصد باذن الله ، إذ هذا نظر المسلمين ، أما اذا اعتقد حصول ذلك استقلالا من دون الله ومشيئته فليس هذا خارجا عن حدود التوكل بل خارج عن حظيرة الاسلام ، فان من اعتقد أن نفسه أو غيره مستقلة عن مشيئة الله وقدرته ، وأنه يقدر أن يوصل لنفسه نفعا أو ضراً قهراً على الله فهو كافر ، أما إذا اعتقد أنه قادر على ذلك بالأسباب التى وضعها الله لذلك باذنه تعالى ومشيئته فهذا حق وهو الذى يعتقده المسلمون ، قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾ وقال تعالى ﴿ وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾

ثم قال : « وعندهم وعند الذين أخذوا عنهم أن الواجب على المؤمن المتوكل أن يستسلم وأن يطرح أعباءه وأثقاله كلها على الله ، مسلما نفسه للهدوء والراحة والكسل الذهنى والجسدى ، معتقدا أن الله سيفعل كل شيء بأسباب يوجدها هو أو بلا أسباب » .

فيقال : وهذا أيضا بهت ظاهر ، فهو مطالب ببيان الآخذ والمأخوذ عنه الذى قال هذا القول ، وإلا فهى دعوى عدو على عدوه ، بل دعوى زنديق على مؤمن ، فيجب طرحها نهائيا كنظائرها

ثم قال : « ومن رأيهم أنهم كلما غالوا فى هذا الاستسلام وهذا التخلى عن

العمل والتفكير فى المصير والعاقبة لله. التفت الله اليهم وسارع الى قضاء حاجتهم وإعطائهم ما يشاءون ، وأن ايمان المرء وإسلامه مقيسان مقدران بهذا الاستسلام والتخلى ، فكلما تخلى التاجر والزارع والصانع وكل عامل ومفكر عن عمله وتفكيره لله زاد الله تجارته وصناعته وزراعته وعمله وتفكيره نماء وبركة وسدادا ورشادا ، وعلى حسب اهتمامهم والتفاتهم إلى أعمالهم يكون تخلى الله عنها وعنهم ، وعلى قدر تخلى الله تكون المصيبة والخسران »

فيقال : الجواب عن هذا كالذى قبله ، فانها كلها خبائث اخترعها زنديق ورمى بها المسلمين وطلب من الناس أن يصدقوه فيها بمجرد ادعائه بدون برهان ولا حجة ، فيطالب بالبرهان والا فضروب بها وجهه ، ويكفى فى تكذيبها أن أدنى كتاب من كتب المسلمين يحرم البطالة ويوجب العمل ، وأعمال الناس المنظورة بالعيان لا تخفى ، مع أنهم يعتقدون التوكل على الله ، ولكن من يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا

فصل

ثم قال « وقد ذهبوا الى أن التوكل هنا مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس ، وهى أن الموكل يذهب الى بيته ويترك لوكيله كل عمل وتفكير فى تدبير ما وكل اليه ، وأنه كلما تنحى صاحب الشأن عن الاهتمام بالتفكير فى شأنه معتمدا على وكيله وعلى إخلاصه وعمله واجتهاده كان ذلك التنحى أدعى الى رضا الوكيل والى اخلاصه »

فيقال : ومن قال لك ان التوكل على الله هو بمعنى توكيل الناس بعضهم لبعض ، لا بد من اثبات هذا ، مع أنك لما أردت أن تقرر معنى التوكل عندك فسرته بما يقارب هذا التفسير كما يأتى . ثم إن الوكيل لا يقضى حاجة موكله بدون عمل من الموكل وطاعة له واتباعا لكل ما تحتاجه الوكالة ، ولو أن إنسانا عادى إنسانا وعانده ثم طلب منه أن يكون وكيلا عنه فى كل ما يحتاجه

أو فى أمر من الأمور لم يحصل له ذلك ولكان هـــذا الموكل إما سفيها وإما مجنونا ، ولا سيما إذا كان الوكيل عظيما ، فليس كل توكيل مقبولا حتى فى الانسان ، فالقياس باطل مع كون الدعوى باطلة من أصلها

ثم قال « ونحن هنا نثبت ما ذكروا من عبارات . فرأى بعضهم أن المتوكل لا يكون متوكلا حتى يفقد التميز »

فيقال : من هو هذا البعض الذى قال هذا القول ، فما أسفه رأيك ، فهلا سميته حتى تعرف حالته ومكانته العلمية من العلم والدين والامانة ، وحتى يكون لك فى ذلك شيء من الحجة . فالذى يريد أن يطعن فى أمم يدعى أنهـا تبلغ أربعمائة مليون ويدعى أن دينها محرف ، لا يكفيه أن يستدل بقوله قال بعضهم وقال أحدهم وهكذا ، بل لعل عقـلاء كثير من الكفار يتحاشون من التفوه بهـذا الادعاء ، لأن هذا من السخافات والترهات التى هى أوهى من بيت العنكبوت

ثم ساق أقوالا ساقطة كلها يقول منهـا : وقال بعضهم ، ورأى بعضهم ، ومن رأى فريق ، ومن قول طائفة اخرى ، وقال أحدهم ونحو ذلك . ومعلوم أن من يريد أن يخلع جلباب الحياء ويرفض العقل والدين فى إمكانه أن يكتب مجلدات على هذا النحو والهذيان البارد ، ثم تداركه الشقاء فنقل عن أبى يزيد وذى النون المصرى وأبى عبد الله القرشى ـ وكلهم من الصوفيـة ـ اقوالا غير منسوبة الى كتاب ، ولا شك أن حكم هذه كحكم قوله « قال بعضهم » ، ثم أدركه البلاء فنقل عن أبى يعقوب الزيات وعبد الله بن الجلاء [1] أن المتوكل

(١) ومن هو أبو يعقوب الزيات وعبد الله بن الجـلاء فى علماء المسلمين . ثم كل هؤلاء قد شرطوا للتوكل شروطا كثيرة معروفة كما قرره الغزالى فى الاحيـاء وغـيره فكيف أعرض عنهـا

لا يدخر شيئا ، ونسب ذلك الى الاحياء للغزالى ، وهكذا تكون حال من انسلخ من الدين واتبع هواه ، ثم انقلب على وجهه فنقل عن أبى سليمان الدارانى وذى النون وسفيان بن عيينة وعزا ذلك الى (تلبيس إبليس) ، وهو يعلم أن ابن الجوزى الذى نقل كلامـــه رده ورد أمثاله ، فرفض كلام ابن الجوزى فى القدح فيما عزى اليهم وهو استدل بها ، فانظر الى هذه المخازى والفضائح المتتابعة

والعجب أنه نقل عن ابن الأثير أنه قال فى شرح غريب الحديث « معنى كون الله الوكيل أنه هو القيم الكفيل بأرزاق العباد . وحقيقته أن يستقل بأمر الموكول اليه » هكذا نقل عن ابن الأثير ، وهو حق وصحيح ، قال تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ الآية ، فهذا الملحد يناقش ابن الأثير فى كون الله قائما بأرزاق عباده ، وإذن فلينازع القرآن ، قال تعالى ﴿ قل من يرزقكم من السماء والارض ﴾ الآية وقال تعالى ﴿ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴾ الآية ، وهذا كله لا ينافى الأسباب ، فان الله أمر بفعلها ، وما رأينا أحـدا ترك رزقه اعتمادا على القدر أو التوكل ، وهل يظن عاقل أن أمة أو طائفة من النـاس تركوا أرزاقهم أو غيرها توكلا على الله أو اعتمادا على القدر من دون فعل الأسباب ، انه لا يمكن لعاقل أن يدعى هذه الدعوى أبدا لأنها قحة ومكابرة لا شك فيها . وليس فى كلام ابن الأثير حث على ترك الأسباب حتى يستدل به . ثم إنه فسره بخلاف ما ادعاه الملحد من أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ، فقد تبين لك بما ذكرناه أنه لم يجد ما يصدق دعواه فيما عزاه الى المسلمين ، فانه لم يظفر بقول واحد ممن يعتبر قوله يشهد لما ادعاه ، وكتب العلماء مشحونة فى الحث على العمل وطلب الرزق مع كونهم يوجبون التوكل لأنهم يعلمون أن التوكل لا ينافيه أبدا ، بل العمل مع التوكل هو العمل القوى الناجح الصحيح ، بخلاف العمل مع الالحاد والزندقة فانه عمل قاصر ،

فأكثر الشعوب الملحدة انما يدفع عمالها الى العمل دفعا قهريا ، واذا حصلت نتائجها فأكثرها تكون وبالا على أهلها أو على من هم على مبدإهم كما قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

ثم قال « وفى قواميس اللغة : توكل على الله واتكل استسلم [1] » .

فيقال : وهل فى هـذا ما يستنكر أو ما يؤيد ما تدعيه فى معنى التوكل كما يأتى ، فليس فى هذا إلا بيان معنى التوكل وأنه الاستسلام لله ولعلك تريد أن يكون التوكل معاندة الله ، فان الاستسلام لله هو الاسلام ، فقد شهدت على نفسك أن قواميس اللغـة فسرت التوكل بالاستسلام الى الله كما هو صريح فى قواميس اللغة وغيرها ، فانهم قالوا : توكل على الله واتكل استسلم له . فهل قالوا توكل على الله اعتمد على الأسباب كما ادعيته ، أو هل فى هذا نفى للعمل ، فانه لا يفيد بمفهومه نفى العمل ، وانما يفيد نفى العمل المستلزم نفى الاستسلام ، وعلى هذا فكل الأمور المشروعة والمباحة لا تنافى الاستسلام ، فانها استسلام بمعنى أنها امتثال لأمر الله وعمل بما أباحه ، فان الله لا يبيح ما ينافى التوكل الذى هو استسلام له ، فلا يبيح معاندته : ولا شك أن البطالة وترك العمل أو ترك الأكل والشرب مخلّ بالاستسلام لأن ذلك مخالفة لما أمر الله به من الأعمال المشروعة . وهذا المغرور استغرب الاستسلام لله واستكثره ، فلهذا ساق هذا الكلام فى معرض الانتقاد ، فعلى هذا فهو يريد بالتوكل معاندة الله والخضوع للأسباب المادية ، فقد تقدم ادعاؤه بأن من حاول الخروج عن نواميس الطبيعة هلك ولا محالة ، ومن سار معها نال ما يبغى ، كما تقدم ادعاؤه

(١) الذى فى قواميس اللغة : استسلم اليه . وقد حذف « اليه » تحريفا وتعمية للمراد

بأنه يجب منازعة الله فى عمله وقوته وقدرته الخ فمعاندة الله والخضوع للاسباب هى التوكل عنده كما تراه ظاهرا من كلامه ، ولا شك أن من اعتمد على الأسباب وحدها من دون الله فقد عاند الله ولم يره كفوا لإعانة اوليائه وخذلان أعدائه ، بل الأصنام هى التى لا تنفع من اعتمد عليها ، ولا تفرق بين الناصح والغاش والمؤمن والجاحد . وسبب غلطه هذا هو أنه فهم بفهمه الجامد أن الاستسلام يفيد ترك العمل مطلقا ، وهذا من كثافة حجابه ، ولو لزم هذا للزم بطلان الأعمال الدينية والدنيوية المشروعة ، وقد بينا أن الأمور الصناعية ونحوها كلها من الأمور التى أمر الله تعالى بها عباده بحسب الحاجة والقصد ، فلا تنافى التوكل ، وانما ينافيه التمرد على الله وعصيانه والاعتماد على النفس والغير من كل الأسباب ، لان هذا كله ليس باستسلام لله واتكال عليه بل هو اتكال على غيره ، فما ذكره حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم انه بعد أن ذكر هذه الأقوال التى قد عرفت ما فيها ، شرع يطعن فى الهواء ويحارب الخيال ويجادل الشهر والدهر ، وقد أطال وأطنب فى التشنيع على المسلمين بأنهم يعتقدون هذه الاعتقادات ، وأنهم يلقون بها بين الناس وأنها تطايرت فى الكتب ومرنوا عليها ، فأصبحوا متأخرين ، فلا يمكن أن يتقدموا وهم قد اعتادوها ولقنوها . وأطال من هذا الهراء واللجاجة الفارغة . وقد عرفناك فيما سبق ما عليه المسلمون فى هذا الأصل وغيره فى التوكل على الله ، وأنه غير ما اخترعه وادعاه ، فهو انما يرد على الهواء والخيالات التى لا وجود لها أصلا ، فالاطناب فى تطويل الرد عليه تكرار لا طائل تحته ، لأنه بناء على غير أصل ، وهو إنما يقصد به رفض التوكل وقطع العلائق بين الله تعالى وبين عباده الضعفاء ، قطع الله عنه علائق الرحمة عند حاجته اليها ، حيث صدّ عن سبيل الله وابتغاها عوجا . فجميع ما ادعاه هنا إنما يرد على

إخوانه من الملاحدة أو من أخلد الى العجز والكسل وقطع أوقاته فى مواضع اللهو والرقص والخلاعة والفجور لا يعرف صلاة ولا صياما ولا غير ذلك من الأعمال الدينية كما لا يسعى فى عمل دنيوى فيما ينفع امته ونفسه ، فان هؤلاء هم الذين على غاية من الكسل والبطالة وفساد الأخلاق ، وهم لا يعرفون التوكل ولا يرونه شيئا ، فانهم لما جهلوا خالقهم وتعاليم دينهم ولم يرفعوا بذلك رأسا تركوا التوكل وتركوا الدعاء وغفلوا عن ملاحظة القضاء والقدر فقطعوا صلتهم بالله تعالى واستعاضوا عنها صلة البغايا وأمثالهن وانغمسوا فى شهوات أنفسهم والفساد والفوضى والسرقة والتلصص وأكل اموال الناس بالباطل من الحيل المتنوعة والرشوة وغير ذلك . ومعلوم أن أهل هذه الأخلاق هم أبعد الناس عن التوكل كما أنهم أبعد الناس عن الأعمال الصحيحة النافعة ، وأنك لتجد أخبث الناس نفسا واكثرهم خيانة وأكسلهم وأعجزهم هم البعداء عن الدعاء والتوكل وملاحظة القضاء والقدر وأمثال ذلك من أصول الدين ، وهذا أمر معروف بالحس والعيان ، بل لا توجد الفوضى والاضطرابات إلا فى المواضع التى تفقد منها هذه الأصول أو تضعف فيها ضعفا كثيرا . فمذهب المسلمين الذى ننصره هنا وهو المذهب الحق فى التوكل هو اعتماد الانسان على ربه تبارك وتعالى فى جميع أعماله المشروعة والمباحة التى يعملها لمعاشه ومعاده ، فيعمل بصدق وإخلاص معتمدا على الله تعالى متوكلا عليه مستعينا به على قصده وإرادته معتقدا أنه لا يضيع أجر من أحسن عملا

فالاتكال على الله هو الاستسلام لله تعالى فى المصائب التى يبتلى بها الانسان ولا حيلة له فى دفعها فيحتسب ويدعو الله ويسأله العفو والعافية ونحو ذلك . هذا فى المصائب ، وأما فى الأعمال فيعتمد على الله فى ايصال النتائج صحيحة نافعة ، ويجدّ فى العمل بمباشرة الأسباب ويطلب المعونة والتسديد فى عمله كله ، فالتوكل فى استعمال الأسباب والأعمال كلها كمادة الحياة فى الأشياء الحية والنامية ، فهو النور والروح ، فمتى دخلت الحياة الأجسام القابلة لها نفعت

بحسب استعمالها ومتى فقدت تلك الروح صارت ميتة أو ضعيفة حياتها . وقد بينا فيما مضى أن الأعمال أنواع : أحدها ما يخص الأمور الغيبية الكونية كتخلف المطر وحصول العاهات الأخرى ، فالاتكال على الله فى مثل هذه الأمور أن يستعين بالله ويدعو بما شاء فى قضاء حاجته ويستغفره ويتوب اليه وأمثال ذلك ، ويسلم للواقع ، ويعلم أن الله سبحانه حكيم عليم رءوف رحيم بعباده ، وأن ما فعله فى خلقه فهو بسبب ذنوب اقترفوها ، وأنهم مستحقون لما هو أعظم من ذلك ، فهو الحكيم العليم العدل الغنى الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ومهما أصاب الانسان من بلاء فلو قرنه بما أصابه من السراء والنعمة والفرح والعافية لم يجد الا أقل القليل مع كثرة الذنوب والخطايا . والنوع الثانى الأمور الدنيوية وهى كثيرة ، مثل أن يظلمه إنسان وهو غير قادر على مقاومته وليست مقاومته واجبة شرعا ، فيتكل على الله ويسلم له ، فان شاء دعا عليه وإن شاء ترك ، والله لا يضيع حق أحد على أحد فى الدنيا والآخرة . والنوع الثالث الأعمال التى يعملها مثل الجهاد والصناعة والزراعة والتجارة وغير ذلك ، فالتوكل على الله فى مثل هذه الأمور أن يقصد الإنسان الطريقة المباحة فيتوكل على الله فى عمله فيها ويستمد منه الاعانة والتوفيق ويعمل بجد واجتهاد بحسب الحاجة والقدرة ، ويعتمد على الله فى بلوغ النجاح ، ويحسن الظن به فى تبليغ مقصوده وتقوية عمله ، ويعلم أنه إن حصل له قصور أو تعويق فى هذا العمل فانما ذلك لخلل فى عمله أو لذنوب اقترفها ، فيجمع الانسان بين العلم والعمل ، فالعلم هو الدين والاستعانة بالله ، والعمل هو مباشرة الأعمال على وجه صحيح ، فهذا هو أصل التوكل الشرعى [1] فمتى عمل به الانسان فانه لن يخيب عمله أبدا ، وانما يؤتى الانسان من ناحيتين إما من ضعف التوكل

---

(١) كما قال النبى ﷺ « احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ، ولا تعجزن » الحديث .

والاعجاب بالنفس والعلم والعقل وسوء الظن بالله تعالى ، وإما أن يكون له ذنوب إما فى عمله هذا ـ وهذا أشد خطرا ـ وإما فى غيره . وأما ما كرره الملحد من دعوى كون النجاح فى تلقين الانسان أنه هو الذى يوجد عمله بدون معين[1] ، وأنه موكول الى نفسه ، فهذا مع كونه كفرا وباطلا فليس فيه نجاح ، بل هو عين الوهن ، وقد بينا ذلك فيما سبق فلا حاجة الى اعادته مرارا

فصل

قال « ليتصور من لا يستطيع أن ينفذ الى حقائق علم النفس الكبرى طفلا يولد فى بيئة من البيئات ، تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل بأن حوله قوة غالبة عزيزة لا يمتنع عليها شىء ، وأن هذه القوة على استعداد لأن تهبه كل ما يشتهى فى كل وقت وفى كل مكان بدون عناء وبدون عمل ودون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها ـ ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم إيمانا خالصا ـ ليتصور منا من لا يستطيع النفوذ الى الحقائق الكبرى حالة هذا الطفل : كيف يمكن أن يكون وكيف يمكن أن يجابه الحياة ؟ هل من الجائز أن يصنع مثل هذا الطفل خيراً أو أن يقوى على شىء ؟ ثم ليعلم أن شرا من ذلك الطفل أو الرجل الذى يعلم هذه التعاليم الاتكالية ويلقن كل هذه الملقنات للاستسلام والانتظار »

والجواب أن يقال على وجه النقض : كلامك هذا متناقض فى نفسه ، فقولك بدون عناء ودون عمل ودون ثمن سوى أنه يستسلم لها ويركن اليها ويتوكل عليها ويثق بها قول ينقض أوله آخره ، فمن قال لك أن الاستسلام والركون والاتكال والوثوق على وجهه الصحيح ليس بثمن وليس فيه عناء . أتريد أن يكون هذا مجرد اعتقادات بدون أعمال مطلقا ، أم تريد أن

---

(١) أى إعانة الله

الأعمال الدينية ليست بثمن ـ وهذا هو مرادك ـ ولو أردت الأول قيل لك هـذا ممتنع الوجود على الوجه الصحيح ، فان الاستسلام والركون والوثوق الحقيق متى قام بقلب فلا بد أن يدفع صاحبه للعمل الذى لا أقوى منه شيء ، ولا بد أن يتناول الأسباب المشروعة تناولا صحيحا ، ولا بد أن تكون نتائجه صحيحة مثمرة لأن الاستسلام هو الاذعان واتباع الأوامر ، وإن أردت أن هذه الأعمال والاعتقادات من الاستسلام والاتكال والوثوق لا تنتج خيرا ولا تقوى على شيء ، قيل لك هذا مصادرة ، فقد جعلت نفس دعواك دليلا لك ، فصارت دعوى ودليلا معا ، فهل النزاع بيننا وبينك إلا فى هذه الأصول .
فان حاصل كلامك أن الاستسلام والتوكل على هـذه القوة العـزيزة الغالبـة والوثوق بها غير نافع ولا مفيد ولا يقوى عـلى شيء ، وهـذا ادعاء محض قـد تبين فساده ، ويكفى أن يقال لك هنا إذا كانت هذه القوة الغالبة العزيزة ، أى الله القاهر كل الوجود وكله تحت قبضته ومشيئته ، وقد وعد من آمن به وتوكل عليه ووثق به وركن إليه واستسلم له على الوجه الصحيح بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون كما قال تعالى ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ فأى مانع لمن فعل هذا أن يؤيده الله ويحفظه وينصره ويسخر له من الأسباب ما لم يحسب له حسابا وهو بيـده ملكوت كل شيء ، فهل فى الدنيا أمة وثقت بالله واستسلمت له وركنت اليه وتوكلت عليه بالمعنى الذى أمر به فلم تأت بخير ولم تقو على شيء وأنه حصل لها شر ، بل نحن نعـلم أن الذين هربوا من هذا الاستسلام والركون والاتكال والوثوق ظانين بالله ظن السوء محتقرين هذه الأصول شامخين بأنوفهم عنها قد ترددوا فى دركات سحيقة ودارت عليهم دائرة السوء وعوملوا بالاهانة والذلة فلم يحصلو أخـيرا ولم يصلوا إلى ما أرادوا ، ونحن نرى هذه الدول الاسلامية كل من كان منها أقرب الى الوثوق بالله والاستسلام له والركون اليه على المعنى الصحيح صـار أعز وأعظم استقلالا ، وكل من كان أشدّ بعدا من هـذا صـار أعظم ذلة

وإهانة ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، فدعواك أن الطفل الذى يلقن هذا التلقين لا يصنع خيرا ولا يقوى على شيء قول فى نهاية السقوط . واذا قلت أنا لا أعنى بالاتكال الوثوق على وجهه الصحيح سقط كلامك من أصله ، اذ يكون الادعاء لا محل له ، فاننا لم نقل أن ترك العمل مطلوب شرعا . يوضح هـذا ما نقوله على وجه المعارضة وهو أن يقال ليتصور الانسان العاقل طفلا يولد فى بيئة من البيئات الخبيثة تأخذ هذه البيئة فى تلقين هذا الطفل بأنه ليس فوقه قدرة أو رب عزيز قاهر جبار له ملك السموات والأرض عليم حكيم رءوف رحيم وليس أمامه جنة ولا نار ولا حساب ولا عقاب وانما أموره كلها فى حكم الطبيعة المظلمة العاتية ، فهى التى تعزه وتذله وتقدمه وتؤخره وأن كل ما فى الوجود هو من العوامل الطبيعية من آلام ولذات وأفراح ومصائب وغير ذلك ثم يؤمن هذا الطفل بهذا التعليم فيعمل فى قلبه كما يعمل الجذام فى جسمه ، ليتصور الانسان هذا جيدا ثم ليتصور كيف يخرج هذا الطفل وكيف تكون حالته وكيف تكون نتائجه ، هل من الجائز أن يصدر من هذا المجذوم الخبيث الا الوباء ، وأن كل من قرب منه من ضعيف المزاج فلا بد أن تصيبه العدوى والمرض القاتل ، وهل من الجائز أن يصدر من هذا خير أو أن تقبل نفسه الخير ، بل لا بد أن يخرج أرعن خبيثاً زنديقا لا يصدر منه غـير الفساد والفواحش منغمسا فى الشهوات واللذات فى هذه الحياة التى اعتقد أن لا حياة له غيرها ، فأصدق صورة لهذا الطفل أن يكون كالكلب الذى غايته أن يلهث ويندفع بحرارة الى قضاء شهواته الحاضرة وان كان قد ينفع صاحبه فقط لاضطراره . وإذا قيل قد وجد من خرجوا على غير هذه الحالة مع هذا التلقين ، قيل هذا ممنوع ، فلا بد لمن خرج على خلاف هذا أن يكون فى تلقينه شيء من الأخلاق الحسنة الطيبة التى هى من آثار الأنبياء وأهل الدين ، ولهذا كان أكثر الاباحية والفواحش ونحوها فى الملاحدة المحض ، ولو قدر خروج نادر فيمكن المعارضة بالآلاف والملايين الذين خرجوا وتقدموا وصاروا على

غاية من العز والسيادة بالوثوق والركون والاتكال بمعانيها الصحيحة ، ولكن يجب أن يعلم أن شرا من هذا الطفل الذى بهذه الصورة وأخبث منه هو ذلك الرجل الذى بقى منحسرا على جانبى الرجل الدينى المخلص والرجل الملحد المجاهر الصريح فصار مذبذبا بين هذا وذاك ، ويزداد هذا الرجل خبثا وشرا فيما اذا كان يأخذ معانى الحقائق الصحيحة المقدسة فيقلبها الى المعانى الخبيثة الباطلة ثم ينقل معانى الباطل والخبث الى معانى الحق والنور ، ويأخذ نصوص الانبياء والأنوار السماوية فيحتج بها حاثا مع اعتناق ظلمات الزندقة والالحاد ، ويأخذ أخلاق أكفر خلق الله فيضيفها الى المسلمين ، ويأخذ أخلاق أولياء الله فيدعيها للملاحدة والمنافقين ، لا شك أن هذا هو شر الثلاثة بل شر العالمين

أما على قولنا واعتقادنا فى التوكل فليتصور المسلم العاقل طفلا يولد فى بيئة من البيئات تأخذ هذه البيئة بتلقين هذا الطفل وتمرينه بأن ربه الله هو الذى له الكمال المطلق من جميع الوجوه المتصف بكمال العلم والحكمة والرحمة والقدرة والرأفة واللطف المهيمن على كل مافى السموات والارض ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، قد أمره هذا الرب الكريم الجبار والقهار بأوامر عالية أخبره بها ونهاه عن أمور أخرى بينها له ، فقد علم أن ربه أعلم منه بمصالحه ومضاره علما لا يخالجه شك ، وبين له بأن ما أمره به مصلحة محضة عائدة اليه وما نهاه عنه شر محض عائد ضرره اليه ، وأنه غنى عنه وعن عبادته ، وانما أمره بذلك من أجل أن عمله هذا هو الطريقة الوحيدة لتزكية نفسه وتطهيرها وتنويرها من نقائص طبيعتها الاهلية وظلمتها وجهالتها ، لأن حقيقة هذه الاعمال اتصال واستمداد من مصادر الكمال المطلق والروح والنور اللذين هما مادة الحياة ونورها ، فأخبره بأنه لن امتثل ذلك فانه سيؤيده وينصره ويعينه ، وإن خالفه فانه سيخلى بينه وبين نفسه وسينقطع عنه هذا السبب الذى به حياته الصحيحة ونوره المستمر ويكون عرضة للطرد والابعاد وسوء العاقبة ، وان تساهل فى

الأخذ بهذا النظام الذى فيه أوامره ونواهيه والعمل به جوزى بقدر طاعته ومعصيته ، فبمقدار ما يقوم به من هذا النظام تكون إعانته ونصره وتوفيقه وتسديده ، وبمقدار إضاعته له وتقصيره فيه يكون طرده وإبعاده ، وان شك فى هذا النظام أو احتقره واستبدل به غيره فقد أساء الظن به وبمن أنزله ، فلا يمكن أن ينتفع به بحال ، ثم انه سبحانه أمره بأسباب كثيرة خلقها له وعينها وفصلها ، بل من أعظم القواعد التى جاء بها هذا النور تحرير العقل وإطلاقه إطلاقا حرا كاملا من الجهالات الموروثة والتقليد الأعمى[1] وقد أخبره أنه إذا أخذ بهذه الأسباب أخذا قويا صادقا بجد واجتهاد واستعان به أعين ونصر وأيد ، وإن رفض هذه الأسباب أو استعملها على غير وجهها لحرىّ أن لا يحصل على مقصوده ، وإن قصر فيها أو أخذ بها أخذا ضعيفا فربما يكون نجاحه ضعيفا . ثم ان هذا الطفل إن نشأ على هذه التربية السامية والايمان بها إيمانا قويا ليتصور الانسان العاقل هذا الطفل وكيف تكون حاله ، هل من الجائز أن يظهر هذا الطفل خبيثا أو خائنا فى أماناته كلها زنديقا أو لصا أو سارقا أو

---

(١) ليس فى الدين حرف واحد يمنع حرية الفكر والنظر الصحيح فى كل ما يتعلق بالأمور الدنيوية النافعة ، ولكنه يمنع الفوضى فى الاعتقادات الدينية لانها من عالم الغيب التى يستحيل على العقل إدراكها والاحاطة بها على وجهها المطلوب ، وكل ما حرمه الشارع فضرره أكثر من نفعه بل غالبه ضرر محض . ثم إنه لا يوجد فى الدنيا كلها نظام واحد لا يحرم شيئا ولا يحظر على أهله شيئا ، وأكثر الملاحدة جامدون مقلدون لرؤسائهم ، والطفل الذى ينشأ فى معاهد الإلحاد يرى أشياء كثيرة لا يسيغها العقل ، ولكنه يضطر الى قبولها ، لأنه اذا عارض فيها وتضجر منها نسب الى البلادة والبله والرجوع الى الوراء ، فيقبل ذلك على مضض لئلا تنحط منزلته بين التلاميذ بالشذوذ وسوء الفهم ، فأمور الالحاد والزندقة كلها جهالات عتيقة قد تخلق بها أعداء الانبياء الأولون وورثها عنهم خلفاؤهم المتأخرون

خائنـا أو كسلانا أو جبانا أو سفيها أو رديء أخـلاق أو يظهر على غاية من الدهاء والفطنة والرجولة والعقل والمروءة وحب العدل والاحسان والشجاعة والصرامة محـافظا على كرامته وانسانيته ودينه ووطنه وقومه وكل مـا يتعلق به ، فتربية الدين أعظم تربية وصلت اليها الانسانية على اختلاف أطوارهـا ، وأنت ترى الشيع والنحل والمبادىء الفاسدة لا تعدّ ولا تحصى تظهر وتطيش وتزول ولا تثبت زمنا كثيرا بل لا تبرح حتى تقوم مكانها مبـادىء أخرى ، بخـلاف مبادىء أصول الدين من عبادة الله والتوكل عليـه والوثوق به والاستسلام له فان هذا المبدأ هو من أول الدنيا الى آخرها لا يزال موجودا ولا تزال أكثر البشرية معترفة بقوته وعظمته وأنه هو الاصلح للبشرية فلهذا كان هو الملجأ الوحيد عند الشدائد وعند انهيار غيره .

ومن أعجـب العجب أنه استصغر الوثوق بالله والاستسلام له والتوكل والاعتماد عليه ، وجعل ذلك ثمنـا ليس بكبير ولا يوصل الى غاية عظيمة كما يدل عليه كلامه ، وما علم المسكين أن الاتيان بهذا الشيء أكبر شيء وأثقله على أكثر البشرية كما قال تعالى ﴿ كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ﴾ ومعلوم أنه قال ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾ ومعلوم أن هذه الأصول تتضمن غاية الاستسلام والوثوق والركون ، فان الاستسلام هو القبول والاذعان التام لكل مـا أمر الله به فالتمرد ينافى الاستسلام ، وقال تعالى ﴿ ومن يسلم وجهـه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبـة الامور ﴾ ولو فتش ذو فكر سليم وجد أن العـلة التى أصابت أكثر البشرية هى عـدم الاستسلام والركون والوثوق بالله أو النقص من ذلك ، وهذا الملحد نفسه إنما كفر وخلع ربقة الاسلام من عنقه لأنه ضـاق به ذرعا وثقل عليـه الاستسلام والركون والوثوق ، وإلا فلو كان واثقا بالله راكنا اليه متوكلا عليه مستسلما لنظـام الله

لكان له شان آخر ، فالرسل كلهم دعوا الناس الى هذا الثمن فابى أكثر الناس إلا كفورا ، فما أثقل هذا الثمن وما أعظمه على أكثر النفوس ، وما أنفسه وأجله وأجمل أثره لو جيء به على الوجه المطلوب . ان كل شر وشرك بـل والمعاصى بجميع أنواعها إنما هى نقص فى الاستسلام لله والركون اليه والوثوق به والاتكال عليه

ثم هل هؤلاء الذين تركوا هذا الاستسلام والركون والتوكل والوثوق استحصلوا على مقاصدهم ومآربهم . لا شك أن أكثرهم باء بسوء العاقبة فى الدنيا والآخرة وسوء أثره فى الأكثر الأغلب كاف فى فساده ، بخلاف من حقق هذه الأصول واعتمدها فانه ظفر بالحياة الصحيحة فى الدنيا والآخرة كما نجا من الهلاك والدمار كما قال تعالى ﴿ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾

وبهذا يتبين لك أى ما ادعاه فى جميع هذا المبحث الذى يدور كله على هذه الجملة كلام ساقط لا محل له ، مع ما فيه من التلبيس وفساد العقيدة ، لأنه يرمى الى الحث على الالحاد ورفض الاديان

فصل

ولما كان هذا المخذول يعلم أن التوكل ركن من أركان الدين ، وأن النصوص القرآنية والأحاديث النبوية صريحة جلية فى الأمر به فلا يمكنه جحده وكتمه وإنكاره لجأ الى الحرفة اليهودية فاستعملها فى تحريف معناه ، فان هذه الحرفة هى سلاحه عند المضايق فعمل فيه عملا لم يسبقه اليه أكفر كافر فى الدنيا ـ مع كونه عملا مضحكا مبكيا ـ ولو أنكره مجاهرة لـكان أستر له ، إذ أنه فسر التوكل على الله بالاعتماد على الأسباب ، ففسر التوكل على الله بقطع النظر الى الله ، وحقيقة هذا أن عبادة الأسباب هى عبادة الله ، فلو أن انسانا له كلب صيد فاعتمد على كلبه فى الصيد من دون الله فقد توكل على الله ، لأن الكلب

سبب فى صيد الأرنب ونحوه ، ولو أنه طرد هذا الأصل وقال صريحا والصلاة للأسباب صلاة لله لكان من جنسه ، فان التوكل الدينى الاعتقادى عبادة كالصلاة بلا خلاف ، فمن توكل على الاسباب فاعتمد عليها من دون الله فقد عبدها ، وقد تقدمت دعواه أننا إذا أردنا أن نعظم الله فنعظم مخلوقاته وتعظيمنا مخلوقاته تعظيم له ، وبالجملة فادنى عامى فضلا عن غيره يدرك قبح هذا التفسير وخبثه وسقوطه وأنه مكابرة وعكس ظاهر لمعناه الشرعى والعرفى ، وقد خالف جميع قوانين اللغة كما خالف جميع كتب الدين فى هذا التفسير ، لأنه المقدم فى الأمر فقال : « نعم ، التوكل جاء فى أكثر سور القرآن مكررا ، وجاءت الأديان كلها آمرة به ، واتفق المسلمون على أنه ركن من أركان دينهم . وليس الخلاف فى حسنه ووجوبه ، ولكن فى تفسيره ومعناه . فالجماهير من الخاصة والعامة أخذوه على النحو الذى قدمناه فكانت عاقبتهم ويلة »

فيقال : قد سبق أن ما ذكره هناك ونسبه إلى الخاصة والعامة كذب ظاهر وبهت مكشوف ، افتراه ونسبه اليهم وعجز غاية العجز أن ينسبه إلى فقيه من أئمة المسلمين أو إلى عقيدة واحدة من عقائدهم على كثرتها ، فلا يعتد بما ادعاه وما نقله عن قواميس اللغة ، فقد بينا أنه حجة عليه لأنه خالف نظريته . وقد بينا أنه الاعتماد على الله وتفويض الأمر اليه والاستسلام والركون اليه مع فعل الأسباب المشروعة التى أمر بالأخذ بها . فعلى الانسان أن يأخذ بالأسباب ويعتمد على الله فى بلوغ نتائجها ومسبباتها [1] ، ففعل الأسباب لا ينافى التوكل باتفاق المسلمين كما هو مقرر فى كتب الدين المعتمدة

اذا تبين هذا فقد رأيت أيها المنصف أن هذا الرجل اعترف بأن التوكل

---

(١) فانه تعالى أمر بالأخذ بالأسباب ، وأمر بالاعتماد عليه ، فلا بد من الاتيان بالأمرين جميعا

من أركان الدين ، وأنه قد جاءت الأديان آمرة به . ومعلوم أن من المحال فى العقل والدين أن يخفى هذا الركن العظيم على جميع الأمة فى هذه القرون الطويلة ولا يعرف معناه أحد منهم غير هذا الملحد ، فتلغى جميع كتب اللغة والتفسير والأصول وغيرها ثم يخترع هو من رأسه المصدوع معنى هو ضد ما قرره هؤلاء كلهم فيفسره به ثم يوجب على الناس اتباعه . ولهذا عجز غاية العجز أن ينسب هذا الرأى الذى رآه الى عالم من علماء الأمة كلهم من أولهم الى آخرهم ، ونحن نتحداه غاية التحدى أن يوجد لنا عالمـــا واحداً ادعى أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ، فان هذا لن يجده أبدا . وسنوضح فساد قوله ودلائله التى يدعيها

قال : « أما معناه ـ على حسب ما رأينا ، وعلى حسب الدلائل المختلفة ـ فهو ما سنذكره »

قلت : فقد رأيت أنه صرح هنا أن ما سيقوله فى معنى التوكل إنما هو على حسب رأيه ، وهذا غريب منه فى ترك الفجور والمكابرة . ومعلوم أنه إنما لجأ الى رأيه فى هذا الركن العظيم لعدم وجود ما يؤيده وأن المسلمين على خلافه ، إذ من غير المعقول أن يكون معنى ركن الدين غير معروف عنـــد غيره ولكن لما رأى أن رأيه لا يوافق آراء أهل الدين كلهم فى معناه تبـــع رأيه وحده وحق له ذلك ، فانه من غير المعقول أن يطابق رأى الزنديق الملحد رأى الاتقياء وأئمة الدين من السلف والخلف ، فلهذا حمل معناه على رأيه الخبيث [1] فقال :

« اذا وكلت وكيلا لينوب عنك فى أمر من أمورك ورضيت بوكالته رضا مطلقا واعتمدت عليه اعتمادا تاما بلا شك منك ولا تردد فى عمله ، فمعنى هذا

---

(١) سيأتى خلاصة ما يقرره فى قوله « ان الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى نجاحها » هذا لفظه بحروفه . فجعل الاعتماد عـــلى الوسائل والأخذ بها هو التوكل ، لا الاعتماد على الله والاخذ بالوسائل

أنك معتقد بأن أعمال ذلك الوكيل وما سيقوم به من أسباب وما يصنع من وسائل لانجاح الغاية التى يراد إنجاحها ، أعمال مؤدية الى الغاية ، وأسبابه موصلة الى المسببات ، ووسائل مقربة الى النتائج . وكلما ازددت اعتقادا بصحة أعماله وأسبابه ووسائله وبتوصيلها الى أهدافها ازددت عليه توكلا وبوكالته غبطة ، وازداد هو ـ أى وكيلك ـ رضا عنك وسرورا بايمانك بوكالته ... »

فيقال : ما شاء الله (ياالشمس التى فى غير برجها) من علمك هذا التفسير الغريب العجيب ـ ولعله من كنوز حقائقك الأزلية الأبدية ـ أن هذا التوكل على الله أو هو معنى الوكالة ، والناس كلهم إلا من شاء الله يوكل بعضهم بعضا ولا يفهمون هذا ولا يعرفونه ، ولو كانوا يعرفونه لبينوه ، فهذه وكالات الناس على اختلاف مذاهبهم وتنوع وكالاتهم يوكل بعضهم بعضا ولم يقل أحد فى توكيله لوكيله لا بد من معرفة ربط الأسباب بالمسببات ، والوسائل بالنتائج ، وهذه فرق كثيرة تدعى أن الله يفعل عند الأسباب لا بها ، أفتبطل وكالاتهم حيث لم يعتقدوا هذا . والعجب أن الله أعماه فذهب يفسر الوكالة لا التوكل ، وقد تقدم كلامه فى قوله وقد ذهبوا الى أن التوكل مأخوذ من الوكالة الموجودة بين الناس إلخ . ثم شنع عليهم فى هذا المأخذ ، وهنا أخذ يفسر التوكيل بمعنى الوكالة فتناقض وركب خطأ على أخطاء لا تحصى ، ففسر الوكالة دون التوكيل ، ولعله قد خانته محنته فى حب المعاكسة وتحريف النصوص فطفح كيله فى المجازفة فراح يفسر الوكالة ليفسر التوكيل ، فسبحان من طبع على قلبه ، وقد علم الخاص والعام ـ من عالم وعامى وبليد ـ أن الناس يوكل بعضهم بعضا ، بمعنى أن الموكل يفعل السبب الذى به تحصل الوكالة ويفوض الوكيل فى الأمر الذى وكله فيه اذا عرف كفاءته للوكالة ، فيوكله مفوضا أمره اليه بأن يعمل هذا العمل من غير أن ينظر إلى تعلق الوسائل بالنتائج والأسباب بالمسببات هل هى لذاتها وطبعها أو لقوة فيها أو أن الله يفعل عندها لا بها . ولو ان رجلا وكل وكيلا وذهب يتعنت عليه فى تعلق

الأسباب التي معه وربطها بمسبباتها ويتحكم عليه بأن لا يتصرف فيما تحت يده وفي ملكه ولا يغير فيه شيئا بعلمه وحكمته بل تكون الأسباب حاكمة عليه بطبعها لا حاكما هو عليها بقدرته وقهره وحكمته وعلمه ، لكان هذا الموكل قد طعن في الوكيل طعنا ظاهرا وأساء الظن به واحتقره ونسبه إلى الضعف والقصور وعدم الكفاءة ، ولكان هذا الموكل معدودا من الحمق والنوكى والأغبياء الذين لا يعلمون . والعجب الآخر أن هذا الملحد نفسه قد نقل عن كتب قواميس اللغة معنى التوكل وهو الاستسلام ، ثم تراه هنا صادمها كلها ، فان ما ذكره ليس باستسلام للوكيل بل تعنت عليه بل اتهام له ، وإنما هو استسلام للأسباب والمسببات أو الوسائل ونتائجها فقط . ولا شك أن الذي يتوكل على الله كهذا التوكل الذي ذكره ليس متوكلا عليه بل متوكل على الأسباب ومسبباتها ، وإلا فلو كان يعتقد في الله القدرة الكاملة والتصرف المطلق والعزة في إيصال النتائج وقطعها وأنه يعين من أطاعه واتقاه وركن اليه وحافظ على نظامه ويعاقب من عانده وحاربه واستهزأ به وتهكم بنظامه وجعل حكم الطاغوت أحسن من حكمه ـ لما اعتمد على أسباب فقيرة الى غيرها وركن اليها واستسلم لها وتوجه اليها وأعرض عن خالقها ، فأي تفويض واعتماد على الله تعالى ممن اعتمد على الأسباب وحدها وجعلها هي الفاعلة بطبعها بدون تعلق مشيئة الله وقدرته بها وأن الله لا يقدر على صرفها وخلق أضداد تبطلها وتعوقها وتصرفها عن وجهتها . وقد بينا فيما سبق أن التوكل على الله تفويض الأمر اليه مع التزام ما أمر به من استعمال الأسباب الدينية والدنيوية بقوة وإيمان صادق ، فعلى الانسان أن يؤمن إيمانا صادقا بشرع الله ونظامه ويستعين الله بجد واجتهاد والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ان الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً

ثم قال « أما اذا شككت في الوسائل والأسباب والأعمال التي يؤديها ، أو شككت في إيصالها المطلوب ، فان توكلك عليه يضعف ، وايمانك يهن »

فيقال : هذا مردود ، بل إنمـــا يضعف توكلي اذ شككت فى إعانته لى وكفاءته للوكالة وقدرته على الأسباب ومسبباتها الخـــاصة له ونظرت الى الأسباب فقط ، فانه — والحال هذه — يضعف توكلى عليه . أما اذا أحسنت الظن به واعتقدت فيه الكفاءة مع النصح معه فان توكلى يقوى ولا يهن ، وانما يضعف ويهن اذا صرفت وجهى الى من دونه ومن هو فى قبضتـــه وعلقت آمالى على ذلك دونه واتهمته فى عدم القدرة على التصرف فيما تقتضيه رحمته ولم أره كفؤا لأن يعتمد عليه بل الكفؤ هى الأسباب ومسبباتها ، فهـذا هو الذى يوجب الوهن والضعف ، بل هذا اساءة ظن بالوكيل ونسبته إلى العجز فالتوكيل على هذا الوجه توكيل ساقط فاسد ، فما ذكره هـذيان عار من التحقيق والنتيجة المطلوبة

ثم قال « وهكذا لننظر إلى التوكل على الله ، فالتوكل الصحيح عليه هو أن تثق ثقة مطلقة فى أن ما وضعه لعباده من أسباب ووسائل لتبلغهم غاياتهم هى أسباب ووسائل مؤدية الى مسبباتها ونتائجها بلا تخوف »

فيقال : نعم ، هذا هو التوكل الصحيح فى اعتقاد الزنادقة الذين يريدون أن يجمعوا بين الكفر والايمان ، وأن يجعلوا معنى التوكل على الله هو الايمان بالأسباب والاعتماد عليها فيكون معنى الاعتماد على الله هو معنى الاعتماد على الأسباب فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب المادية فى نفس الأمر ، وسيأتى كلام هذا الملحد فى قوله « ان الاتكال معناه الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحها » وكذلك قوله قريبا « فالتوكل الصحيح إذن هو أن تؤمن بنواميس هذا الوجود ، وان تعتقد بأن الخالق قد وضع لها سننا لا اضطراب فيها ولا محاباة ، وأنه قد ربط بين العلل والمعلولات » انتهى . فالانسان اذا عمل عملا واعتمد على الله فى إيصال نتيجته فليس بمتوكل على الله فى رأيه ، فانه ادعى أن معنى الاتكال الأخذ بالوسائل مع الاعتماد عليها ، وهذا عين ما يفعـــله

الملاحدة وعين ما فعله جميع أعداء الرسل الذين حاربوهم وقاتلوهم ، فجميع الكفار خصوصا الملاحدة الدهريين يكونون هم أعظم الناس توكلا على الله لأنهم يأخذون بالوسائل ويعتمدون عليها ويجعلونها مربوطة بنتائجها ربطا لا يمكن انفكاكه. أما الأشعرية ومن يرى رأيهم ممن يدعى أن الأسباب ليست عللا لمعلولاتها ، وانما الله يفعل عندها لا بها ، فهؤلاء عنده شر من الكفار من هذه الناحية فلم يأتوا بركن الدين الذى هو التوكل ، لأنه قرر أن التوكل ركن من أركان الدين ، فهم لم يتوكلوا على الله لأنهم لم يؤمنوا بأن بين العلل والمعلولات ربطا ذاتيا آليا طبيعيا ، وأن كل سبب مؤد الى مسببه بلا تخلف . وحقيقة هذه الدعوى ومغزاها أن التوكل على الله هو الكفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فمن كفر بقدرته على تغيير الأسباب والحيلولة بينها وبين نتائجها ، فقد توكل عليه ، أى من آمن بالطبيعة ونواميسها وأنها هى المسيطرة على الوجود وهى التى تحكمه باستخدام الانسان لها بمقدرته الذاتية فقد توكل عليه تعالى ، ومن آمن به على أنه مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير وأنه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب وأنه لن يجعل المسلمين كالمجرمين ولا الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ولا المتقين كالفجار ، فانه ـ على مقتضى دعواه ـ لم يكن متوكلا ، بل يكون فوضويا قد اعتقد الاضطراب والمحاباة والتشويش ، لأن تصرف الله فى ملكه على ما تقتضيه حكمته وعلمه ورحمته عند الزنادقة والملاحدة تشويش ومحاباة واضطراب كما كرر هذا الأصل مرارا ، وهو واضح لا غبار عليه وانما يقرره بألوان من الخداع وضروب من النفاق لما قام بقلبه من عوامل الخوف على منزلته وشغفه بالمبادىء الالحادية ، فأراد أن يجمع بين هذا وهذا كما تقدم بيانه

فان هذا الملحد تبع سلفه الزنادقة من اليهود وأمثالهم فى التحيل على إبطال

الحقائق بقلب مسمياتها وتحريفها عن مواضعها ، وقد علم أن الله سبحانه وتعالى قد مسخ من احتال على صيد السمك قردة وخنازير ، فكيف بمن احتال على قلب أعظم مظهر للربوبية وهو تدبير الله للعالم وتصرفه فيه بما تقتضيه مشيئته وحكمته فسماه تشويشا واضطرابا ومحاباة . قال الامام أيوب السختيانى فى أصحاب الحيل « يخادعون الله كأنما يخادعون الصبيان ، فلو أتوا الامر عيانا كان أهون » ولهذا تجد هذا الملحد فيه شبه قوى من الخنزير فانه شديد النفرة من الأشياء الطيبة والمقدسة منصاع الى حد بعيد الى الخبائث وأهلها من الملاحدة والزنادقة وأتباعهم ، يعرف ذلك كل من تدبر كلامه وعرف حاله ، فانه فى هذا أراد أن يجمع بين الالحاد والتدين فلم يقدر أن يقول غير هذا الهراء ، لأنه كان مضطرا الى الزندقة التى لولاها لفطم عن ثديه الذى كان يعيش به بدعوى الدين

تكلمت فى إبطال شرع مقدس ... رمى الله منك الثغر بالحجر الصلد

ثم انه شرح هذا التوكل الصحيح عنده فقال :

« فالعلاج الصحيح الموافق من كل وجه للمرض — وهو سبب من الاسباب — مؤد بلا ريب الى الشفاء . ووضع البذر الصحيح السليم فى التربة السليمة الصالحة لانبات ذلك البذر ، مؤد بلا ريب الى الإنبات ، ثم الى الإثمار اذا ما سقى وحفظ من الآفات . واختلاط الذكورة القادرة على الإخصاب بالانوثة القادرة كذلك مؤد الى وجود الولد إلا أن يوجد مانع من الموانع الطبيعية . وسلوكك فى الحياة سلوكا سليما من العثار والزلل مؤد بك الى النجاح إلا أن يكون هناك عقبة طبيعية . وهكذا القول فى كل ما يدعى أسبابا ووسائل . فكلما ازددت ثقة بهذه الأسباب [1] التى جعلها الله كذلك ازددت

(١) لم يقل : كلما ازددت ثقة بالله الذى يسببها ازددت توكلا ، بل جعل الثقة بها نفسها ثقة بالله

توكلا عليه وثقة به وباعماله وتصديقا باخباره حينما أخبر بأن الأسباب موصلة الى غاياتها ، انتهى

وكأنه ظن هذا البعر تمرا فأكثر منه ، وكلامه – كما ترى – فى التمثيل فى الأسباب المادية ، أما الأسباب الدينية فقد علمت مما مرّ أنه كفر بها وحاربها وشتمها فجعلها نكبات وشرا وملهاة وخبثا وتعويقا . فيعارض هنا بان يقال له : والدعاء من القلب المخلص الصادق مستجاب كما دلت عليه صرائح النصوص والتجارب ، إلا أن يكون هناك موانع وعوارض دينية . فلم كفرت بهذا وأنكرته وجعلت نتيجته الخبث والتعويق والملهاة . فاذن أنت كافر بالتوكل اذا كنت تقرر أن الايمان بكون الأسباب مربوطة بنتائجها بلا تخلف هو التوكل . ومعلوم أنه ليس فى النصوص حرف واحد يدل على ما ادعيته ، بخلاف الدعاء والذكر والصلوات فان النصوص السماوية وأخبار الله تعالى التى لا تحصر دلت على أن ذلك سبب للاجابة والتوفيق . وكذلك التقوى وسائر العبادات من أعظم الأسباب فى حصول الخيرات ودرء العقوبات والمحن فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ فهذا نص صريح فى أن الايمان والتقوى سبب لفتح البركات فى الدنيا كما هى سبب لها فى الآخرة ، وأن الكفر سبب للانتقام والهلاك ، وأمثال هذه الآية كثير جدا ، فلم عاكست هذه النصوص وحاربتها ورفضتها ولجأت الى إخصاب المرأة وأمثاله من الأمور المادية ، وقد علم أن خصومك لم ينكروا هذا قط وأنت أنكرت ما علم بالضرورة من دين الاسلام مع اعترافك به من قبل ، وقد علم أن الكفار والمسلمين يعلمون أن البذر فى الأرض ينبت اذا كانت الأرض قابلة والبذر صالحا وحصلت الشروط وانتفت الموانع ، فالناس اذن كلهم متوكلون على الله بهذا المعنى فلا فرق بين مسلم وكافر ، فأى تخصيص للمسلم

به ، وبأى شيء يكون هذا ركنا من أركان الدين ، بل كثير ممن ينكر الدين والتوكل يؤمنون بهذا أيضا ، بل ربما كانوا أعظم الناس إيمانا بهذا ، فهم إذن أعظم الناس توكلا ، وقد تقدم الكلام فى قضية تأبير النخل ، فيكون إذن هؤلاء الكفار أعظم من الرسول وأصحابه توكلا لأنهم أشد اعتمادا على هذه الأسباب ومغالاة فى ربطها بنتائجها بدون تخلف ، فهل هذا إلا من الهذيان الذى يستحى كثير من الكفار من التفوه به لظهور هجنته وقبحه ونكارته

ثم قال « وإذا شككت فى الأسباب والطرق التى جعلها الله ، وجوزت أن لا توصل الى شيء فقد نقص توكلك على الله وإيمانك بنظامه وأصيب يقينك بأخباره وأضحيت من الشاكين غير المتوكلين »

فيقال : أما أولا فقد بينا أنك كفرت بالأسباب الدينية فأنكرت أن تكون أسبابا ووسائل ، وأنكرت وجود نتائجها على ما تقدم .

وثانيا هذا منقوض بما ذكرته من الرواية فى تأبير النخل ، فان الرسول عليه السلام ظن أن التأبير لا ينفع وأنه يوصل الى شيء ، وقد تركه الصحابة وظنوا أنه سبب لا يوصل الى مسببه ولا الى نتيجته ، فيكون عليه السلام هو وأصحابه إما شاكون فى الأسباب وإما جاهلون بها فيكونون شاكين فى الله لأنهم شاكون فى أسبابه كما تدعى فيما يأتى أو جاهلون به وقد أصيب يقينهم بأخباره فلم يعرفوا أخبار الله تعالى لأنك جعلت الشك فى الأسباب والتجويز بأنها لا توصل الى شيء مصيبة فى اليقين بأخباره تعالى ، وهذا قدح صريح فى الرسول عليه السلام وأصحابه وأن توكلهم ناقص وإيمانهم بنظام الله غير قوى ويقينهم بأخباره قد أصيب فكانوا من الشاكين غير المتوكلين لانهم جوزوا صلاح التمر بدون تأبير ، ومع هذا فلم يأمرهم الرسول عليه السلام بالتوبة من هذا الذنب الذى هو الشك وضعف اليقين وعدم الايمان بالله حين ظهر الأمر بخلاف ما ظنوا وكان الملاحدة ونظراؤهم ومن اقتفى آثارهم من هؤلاء

الزنادقة أعظم منهم توكلا وأقوى منهم يقينا وأعظم إيمانا بنظام الله لأنهم لم يشكوا فى الأسباب ولم يجوزوا أن لا توصل الى شىء كما ادعيت بل اعتقدوا فيها أعظم اعتقاد وأعطوها غاية الثقة واعتمدوا عليها غاية الاعتماد ، وهذا هو حقيقة ما يقوله هذا الملحد كما هو ظاهر

ويقال ثالثا : ليس فى الشك فى الأسباب المادية وكونها مربوطة بنتائجها كبير أمر فى الدين ، والخلاف فى ربطها معروف يأتى الكلام عليه ، وكل ذى علم بدينه يعلم أن الرجل اذا التزم شرائع الاسلام وعاش عمرا طويلا ولم يعرف الربط بين هذه الأسباب ومسبباتها ومات على ذلك أنه لا ينقص من إسلامه شىء ، ولم ينقل عن النبى ﷺ أنه علم الناس كيفية الربط بين الأسباب والمسببات أو نفى عدم تخلف النتائج عن وسائلها الطبيعية ، ولو كان ذلك من عظائم الأمور الدينية وأنه نقص فى التوكل ونقص فى الايمان بنظام الله وضعف يقين بأخباره وأنه ينافى التوكل لأخبر به قطعا [1] وكيف لم يبين لهم هذا الركن الذى هو من أركان الدين بهذه الصفة ويعرفه الملاحدة والكفرة دون المؤمنين ، وهذا بخلاف الأسباب الدينية ومسبباتها ووسائلها ونتائجها وأن كل سبب فهو مربوط بنتيجته ، فالقرآن كله فى هذا الاصل كما قال تعالى ﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ ، ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ وقد تقدم كثير من النصوص والبراهين الدالة على ذلك

ثم قال " ولا شك أنك إذا وكلت الى مهندس تصميم منزلك ووكلت الى بناء القيام بذلك المنزل فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما ، أما لو ارتبت

---

(١) وهل يشك عاقل فى أن الشك فى كون الكلب يصيد الأرنب أو الثعلب اذا علم يقدح فى الايمان وأمثال هذا ، ولكن هذا المخذول لا يستحى ولا يبالى بما يقوله

فيها وفيما يضعان من تصميم وهندسة ومن آلات رفع وأدوات بناء لما وكلت اليهما أمر منزلك ، ولما أمكن أن تكون متوكلا عليهما . ولو جوزت أن لا يكون البيت صالحا فى النهاية للسكن وجوزت أن يخرّ بعد الفراغ منه إما لخطأ فى هندسته وتصميمه وإما لضعف فى مواد بنائه لما عددت مؤمنا بهما ولا متوكلا عليهما ولا واكلا اليهما الأمر وكالة صحيحة »

فيقال : وهذا كالذى قبله هذيان بارد ، فقوله فقد آمنت بهما واعتمدت على عملهما كلام فى نهاية السقوط ، بل اذا اعتمدت على عملهما كنت معتمدا على الصفات التى قامت بهما من القدرة والعلم والحكمة ، وهذا بخلاف ما لو اعتمدت على الأسباب التى هى موضوع العمل كالآلات ونحوها فاننى لا أكون إذن معتمدا عليهما بل متهما لهما بالعجز وأنهما غير قادرين على الخروج عن طبيعة الأسباب ولا تغييرها ، اذ من الممتنع أن أعتمد على أسبابهما وهى تحت تصرفهما ، وإنما أكون معتمدا عليهما وعلى عملهما وحكمتهما فى التصرف اذا فوضت أمرى اليهما واعتقدت فيهما الكفاءة والقدرة التامة والنصح وأن الأسباب التى تحتهما رهن مشيئتهما يتصرفان فيها كيفما أرادا بما يقتضيه علمهما وحكمتهما . وهذه حقيقة الاتكال والوكالة . ثم إن البحث فى التوكل عليهما لا على أسبابهما ، وحينئذ يقال : هل الانسان يتوكل على الله مفوضا أمره اليه ، أو على فعل الله الذى يسميه بعض الناس عمله ، أو على أسبابه المخلوقة الموضوعة تحت مشيئته وقدرته وتصرفه وإرادته ، فكم نفعت من أقوام وأضرت بآخرين ، وكم أضرت بمن قد نفعتهم ونفعت من أضرت بهم أحيانا اخرى ، وتلك الأيام نداولها بين الناس

وكلام هذا الملحد ـ كما نرى ـ قد أدخل فيه من التلبيس مالا يخفى ، فهو على ما فيه من ركاكة وخداع متناقض ، فانه مثل باثنين[1] ولا داعى الى التمثيل

---

(١) أى مهندس وبناء

باثنين ، فان المسلمين لم يتوكلوا على الحين كل منهما له عمل ، فان المهندس والبناء كل منهما له عمل ، ثم المثل كله معكوس عليه أيضا ، فان الوكيل على البناء اذا وكلته على بناء منزلك معناه فوضت اليه أمر البناء حينما أخذت بأسباب الوكالة فيما تريده فى هذا المنزل فاعتقدت بأنه سينجزه على الوجه المطلوب ، فاذا اعتمدت عليه على هذا الوجه كنت متوكلا عليه اتكالا صحيحا ، أما اذا صرفت همتك واعتقادك الى الوسائل والأسباب من الآلات والعمال والخشب والجص والآجر أو الطين مثلا وبحثت عن كيفية ارتباط كل سبب بمسببه هل هو بطبيعته أم لا وذهبت تتعنت فى معرفة أكل العمال وشربهم وكيف يعملون وكيف يكون ضرب المسامير فى الخشب أو الجدر وعن أسباب ذلك ونتائجه وأمثال ذلك — فانك غير متكل عليه ، بل متهم له مستهزىء بعمله ظان به ظن السوء ، ولكان فعلك هذا واعتقادك دليلا على ضعف عقلك وأنك سفيه احمق ، ولكان هذا الوكيل حرياً بأن لا ينفعك ولا يقضى لك أمراً بل يكلك الى ما وجهت همتك اليه لحمقك وجهالتك وسفاهتك ، فما ذكره من التمثيل غير مطابق لما يريده ، بل هو حجة عليه بلا ريب

ثم قال « وكذلك لو ارتبت فيما وضعه الله من أسباب وما علم من طرق ، وجوزت أن تتخلف النتيجة وأن لا تكون الأسباب موصله ، لكنت من المرتابين فى الله وفى أعماله وفى كتبه وأنبيائه الذين جاءوا دالين على الأسباب وعلى مالها من قيمة »

فيقال : فما الذى حملك إذن على معاندة أنبياء الله ومعاكستهم فيما جاءوا به وأجمعوا على أنه من أعظم الوسائل والأسباب التى لا أكبر من قيمتها ، فأعظم سبب جاءوا به هو الدعاء وحمد الله والثناء عليه وعبادة الله كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فجعلت هذه العبادة التى جاءوا بها ملهاة ومصرفا خبيثا وانها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة فصرحت على رءوس الاشهاد بأنه لا فائدة فيها بعد أن قررت أن الدعاء هو العبادة بلا

خلاف وعمدت الى أعظم مظهر من مظاهر الايمان بالله والثناء عليه وتقديسه وهو خطب يوم الجمعة فجعلته من النكبات ، ثم عمدت الى بيوت الله[1] التى اذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ﴾ فجعلتها أدت شرما يؤدى وجعلت الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد ، فحاربت كتب الله وأنبياءه الدالين على هذه الأسباب التى لا يقدر قيمتها إلا الله تعالى ، بل الحياة كلها فى الدنيا والآخرة دون قيمتها فجعلتها كلها لا قيمة لها لا قليلة ولا كثيرة ، ولم تكتف بذلك بل جعلت قيمتها الشر والخبث والتعويق وجعلت المتدينين كلهم على اختلاف ديارهم وأجناسهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا ، فجعلت هؤلاء لا قيمة لأسبابهم ، أما المتحللون من الأديان فصرحت بأنهم هم الذين وهبوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، فأى محاربة لكتب الله وأنبيائه أعظم من هذه المحاربة ، فان حقيقة هذا أنهم ما جاءوا إلا بالشر لهذا العالم ، ولم يكفك هذا حتى ذهبت تتبع كل مقالة خبيثة لأخبث زنادقة العالم وملاحدتهم والى الكتب المملوءة بمسبة الله وأديانه وأنبيائه[2] فسلبت تلك المقالات وسرقت أصول هذه الكتب وركبت من الجميع قواعد هذه الأغلال وادعيت بأن النجاح موقوف على الأخذ بها والدمار موقوف على تركها ، ولم تكتف بذلك أيضا حتى طلبت تحكيمك فى الأمر وإفرادك بالرغبة والرهبة ، وهذا عين الجنون والهراء والهذيان ، هذا مع أن كثيرا من الناس يعرفون فهرس حياتك صفحة صفحة مكانا وزمانا ، فدعنا من التمويه والتلاعب والتشبع بما لم تعطه (فعند التناهى يقصر المتطاول)

ثم قال : «أما غير المتوكلين حقا فهم أولئك الذين لا يثقون بسنة من

---

(١) أى المساجد

(٢) ككتاب الآراء والمعتقدات

سنن الله ولا بناموس من نواميسه، فيجوزون عليهما الاختلاف زاعمين أنه لا ضبط ولا حساب، ولا حدود ولا رسوم يجريان عليها ولا يخرجان عنها»

فيقال: الجواب عن هذا قد تقدم فى أمثاله، فمن هم هؤلاء الذين هم بهذه الصفة، أما سنة الله الدينية فقد تقدم الجواب عنها فى مواضع كثيرة، وبينا أنك خالفت جميع أهل الدين فيها، وأما سنن الطبيعة المادية فقد بينا جوابه فيما ذكرنا على حديث تأبير النخل فيلزم مما ذكرته تجهيل الرسول وأصحابه، وعليه فلا يكونون متوكلين على الله، وقد أكثر من التطويل والتهويل فى هذا الأصل الخبيث فى مسألة النواميس والقوانين والنظام والتمويه فى ذلك، وكل عارف بدينه يعلم مقصوده من ذلك وهو توجيه النظر الى الطبيعة ونواميسها دون الله ومشيئته ورحمته والتوجه اليه، وقد بينا فيما تقدم أن أعرف الناس بهذه الأمور قد عوقبوا ودمروا تدميرا لم يسبق له نظير، وأن هـذا العلم لم يغن عنهم من الله من شىء لما أعرضوا عن الله واعتمدوا على أنفسهم من دونه، بل لا بد فى كل أمر من الأمور الصناعية والمادية وغيرها من فعل الأسباب والاعتماد على الله والتوكل عليه، وقد بينا أيضا أننـا لا ننكر الترابط بين الأسباب والمسببات والوسائل ونتائجها وأن فعل الأسباب أمر لا بد منه، ولكن كل هذا لا ينفع نفعا صحيحا مستمرا ما لم يكن مؤسسا على دين الله وطاعته والتوجه والاعتماد عليه، فهو الذى خلق الأسباب ومسبباتها والوسائل ونتائجها، وهو الذى ربط بعضها ببعض، وهو الذى يقلبها أحيانا ويقطع ترابطها أحيانا أخرى، وقطع ترابطها من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل فانه أخبر بذلك فما أخبر به فهو من سننه التى لا تبديل لها ولا تحويل، وهذا الاكل والشرب من أعظم الاسباب لحياة البدن، وقد يكون سببا فى موت بعض الناس، وقد يشرق الانسان بالماء البارد، وهذا المال قد يكون سببا فى نيل الجاه والشرف، وقد يكون سببا فى قتل صاحبه وعذابه، ويكون سببا فى مرضه أو سجنه أيضا. وقد يأخذ الانسان سلاحا للمدافعة فيقتل به. وهذا

العلم من أعظم الاسباب فى نيل رضا الرب تعالى والشرف فى الدنيا وقد يكون سببا فى الشقاء والذل فى الحياة الدنيا وقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ﴾ الآية وفى حكمة الشعر :

ومن العداوة ما ينالك نفعه ومن الصداقة ما يضر ويؤلم

وهذا برهان على أن الله تعالى هو المنفرد بتصريف الأمور فهو الذى يعطى الخير ويدفع الشر وأن كل سبب محكوم مقهور لا يمكن أن يؤثر إلا بشروط وموانع ، والشروط والموانع لا يقدر على حكمها حكما صارما الا الله تعالى

وقد تقدمت أبيات هذا الملحد التى ادعى فيها صريحا أن الجهل سبب للسيادة والسعادة ، وأن الناس والدنيا جميعا تخدم صاحب الجهل ، وان الانسان يزداد كلما زاد جوره ويكبر شأنا كلما زاد كفره ، بل وان الانسان كلما أنكر الفضائل ازداد فى نيل الجاه ، وأن العقل ضرب من الفقر ، كل هذا صرح به فى أبياته المتقدمة ، فهل فى الدنيا أحد دعا الى الفوضى أعظم مما دعا اليها هذا الملحد فى هذه الابيات ، وهل هذا الاعين قلب سنن الله فى خلقه ومحاولة تبديلها وتحويلها ، ولكن هو هذا دأبه ، يرمى الناس بدائه ويفتخر بما ليس له

فصل

قال « وقال عليه السلام : من استرقى أو اكتوى برىء من التوكل رواه الترمذى . وعن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب ، قيل من هم يارسول الله ، قال الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون رواه مسلم . وهذا لأن هذه الأمور ليست من الأسباب الطبيعية فكان الاعتماد عليها رجوعا إلى

غير أسباب واعتمادا على غير شيء ، فكان ذلك منافيا للتوكل ، لأن التوكل كما ذكرنا هو الايمان بالأسباب [1] ،

فيقال : فعلى تقريرك هذا يا بلعام زمانه يكون هؤلاء السبعون الألف إنما دخلوا الجنة لأنهم آمنوا بالأسباب فآمنوا باخصاب المرأة وبأن البذر الصالح ينبت فى الأرض المعتدلة وأن الأسباب تفعل بطبعها لا يمكن أن يغيرها الله فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، فالذين آمنوا هذا الايمان هم الذين يدخلون الجنة بغير حساب كما يدعى ، أما الذين شكوا فى الأسباب فظنوا أن تأبير النخل لا يفيد ولم يتوبوا ويستغفروا فهؤلاء لم يؤمنوا بالأسباب بل هم شاكون فى الله غير متوكلين فلا يدخلون الجنة كهؤلاء على مقتضى كلامه ، فجميع الملاحدة والزنادقة الذين يؤمنون بالأسباب متوكلون على الله لأنهم يؤمنون بالأسباب ويعتمدون عليها ، أما الذين لا يؤمنون بالأسباب — كالأشاعرة الذين يدعون أنه ليس بينها ترابط ذاتى بل الله هو الذى يفعل عند اقران السبب بالمسبب فهؤلاء قد تركوا ركن الدين . فجميع الملاحدة والزنادقة وكل من آمن بالأسباب الايمان الذى ذكره من الترابط الطبيعى خير من الأشاعرة من هذا الوجه . فقد فهمت من تطويله وتهويله أن التوكل هو الايمان بالأسباب وسيأتى ادعاؤه أن الايمان بالأسباب هو الاعتماد عليها فاذا آمن الانسان بالأسباب فهو متوكل على الله والله حسبه كما قال تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ فهو حسب جميع من آمن بالأسباب على قول (الشمس التى فى غير برجها ، والدر الذى فى لجج البحر)

والعجب أنه أخرج الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون منهم بناء على أصله الفاسد أن التوكل هو الايمان بالأسباب ، وعلل ذلك بهذا

---

(١) قد علمت أنه صرح بأن التوكل هو الايمان بالاسباب كما ترى

التعليل الفاسد أيضا فبنى فاسدا على ما هو أفسد منه وهو دعواه أن هذه ليست من الأسباب وأنها غير شيء ، ثم هو لم يبين من أى شيء تكون فهو لم يكتف بنفى السبب عن نفى الشيء ، بل نفاها من الأسباب ونفاها من أن تكون شيئا أيضا ، ولو أنه كوى فى هذا اللسان الذى نفى أن يكون الكى شيئا لعلم أنه شيء عظيم وأنه من أعظم الأسباب الطبيعية التى لا يمكن المماراة فيها ولا المكابرة فى نفيها ، فادعاؤه على هذا الحديث هراء وهذيان فى نهاية السقوط ، فان نفى الكى من أن يكون سببا طبيعيا من أفسد ما يقال . وكذلك نفى الرقى ونحوها والنبى ﷺ لم يقل وعلى الأسباب الطبيعية يتوكلون بل قال : « وعلى ربهم يتوكلون » فحصر التوكل على الله وحده وهم انما يتركون الكى والرقى ونحوها من أجل الاعتماد على الله لما فى ذلك من حصر التوجه اليه ولاسيما ترك الطيرة فان الطيرة شرك كما دلت على ذلك الرواية الأخرى لأنها تؤثر فى عقيدة ضعيف الايمان ، ولو أن الحال كما ذكر لكان الذين لا يتداوون غير متوكلين أيضا ، ومعلوم أن الحديث لا يفيد هذا لأنه ذكر أن الذى منعهم من فعل الكى ونحوه هو التوكل على الله ، ولكان أيضا يجب أن يقال وبغير هذه الأمور يتداوون أو ما هذا معناه ، لأن ذلك على زعمه من التوكل الذى هو ركن الايمان فكان لا بد من التنبيه عليه ، ولكن الحديث نفى استعمال هذه وأخبر بسبب يوجب نفيها هى وغيرها وهو حصر الاعتماد على الله حيث أخبر بأنهم على ربهم يتوكلون وذلك لقوة ما قام بقلوبهم من الايمان وصدق التوجه ، وكلام علماء المسلمين على هذا الحديث شهير وكلهم فهموا منه نحو ما ذكرنا ولم يدع أحد منهم كما ادعاه ، كل كلامهم كلهم صريح فى رد ما ادعاه وان كان هو لا يعبأ بقول أحد منهم كائنا ما كان لأنه المقدم فى الأمر وقبوله لقولهم أو قول أحد منهم ينافى ذلك

فصل

ثم أنه جاء بداهية دهياء فقال :

« لست أريد أن أقول إن التوكل هو الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد يدخل فيها [١] فيجعلها إن شاء أسباباً ويجعلها إن شاء غير أسباب أو مع الاعتقاد بأنه تعالى قد يفعل من غير الأسباب ، فان هذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها » انتهى

هكذا صرح هذا الملحد بدون مبالاة بأن السفه والفوضى التي لا ضابط لها هي أن يأخذ الانسان بالأسباب معتقد أنها تحت تصرف الله ومشيئته إن شاء جعلها أسبابا مبلغة إلى غاياتها ، وإن شاء جعلها غير أسباب . فقد عرفت أيها القارىء العزيز أن هذا الملحد لا يقتنع بالأخذ بالأسباب واستعمالها مع الاعتماد على الله والاعتقاد بأنه له التصرف فيها بكل ما شاء ، بل لا بد عنده من الأخذ بها والكفر بمشيئة الله وتصرفه فيها والاعتقاد بأنها آلية طبيعية سائرة الى نهاياتها ليس لله أن يتصرف فيها بل قوتها فوق كل قوة ، فهذا عنده هو التوكل الذي أطال في تقريره وتحريفه ، فما خالف هذا الذي قاله ـ كأن يعتقد الانسان أن لله قدرة على الأسباب وتصرفا فيها اذا أخذ بها ـ فهذا هو السفه والفوضى التي لا ضابط لها ، وكذلك أيضا لو اعتقد انسان أنه تعالى يفعل بغير أسباب فان ذلك سفه وفوضى لا ضابط لها أيضا ، فلا هو تعالى وتقدس وجلت عظمته يفعل من غير أسباب ولا هو يتصرف في الأسباب ، فعطله عن ملكه تعطيلا كاملا وجعله بمنزلة الصنم بل الصنم خير من إله لا يتصرف في ملكه فلا ينفع من أطاعه ولا يضر من عصاه ، وهذا الملحد لا يعترف في نفس الأمر

---

(١) قوله « يدخل » يعني يتصرف أبدل لفظ يتصرف بيدخل تشويها لسمعة تدبير الله لخالقه

بالربوبية ، وانما يلجأ أكثر الأحيان الى هذه المخادعات ترويجا لدعايته ، وإنا نتكلم معه مجاراة لظاهر كلامه لبيان بطلانه ، وغاية ما يدعيه فى هذه المخادعات أحيانا كونه تعالى خالق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس معترف بهذا ، وكذلك سائر الكفار حتى فرعون فانه فى الباطن معترف بذلك كما قال تعالى عن موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ وهذا الملحد جحد تصرف الله فى ملكه الذى أقر به كثير من الكفار فضلا عن المسلمين ، بل لم نعلم أحدا من الكافرين جحد تصرف الله فى ملكه سوى ما يذكر عن الملاحدة المحض ، فالمسلمون اليوم وقبل اليوم وكذلك أهل الأديان السماوية وكل من يقر بالصانع ويعترف بتصرف الرب تعالى فى ملكه بما شاء كل هؤلاء كفار أعداء الله لأنهم نسبوه الى السفه والفوضى التى لا ضابط لها — على رأيه — فاعتقدوا أنه يتصرف فى الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، وكفر هذا أعظم من كفر مشركى العرب وغيرهم من أعداء الرسل ، فان أولئك كانوا مقرين بأنه تعالى هو الخالق الرازق المدبر للأمر وإن عبدوا بعض المخلوقات معتقدين أن فيها قدرة ذاتية على الوساطة فى تحصيل الشفاعة ونحوها ، وكثير منهم تعلق على الأسباب المادية وتوجه اليها واعتمد عليها وهذا كفر صريح ، فكل من اعتمد اعتمادا كليا على غير الله فقد عبده ، فان الله أرسل رسله وأنزل كتبه ليتوجه اليه ويدعى ويستغاث به وتصرف اليه الرغبات والرهبات ، وهذه حقيقة العبودية التى خلق الله الخلق لأجلها

وهذا الملحد جحد اعظم مظاهر الربوبية وكفر به وهو تصرف الله فى ملكه بمشيئته العامة ، ولم يكفه ذلك حتى وسمها بالفوضى والسفه قبحه الله ، وهذا أعظم فى الشناعة من كفر من قالوا يد الله مغلولة غلت أيديهم ، فان هذا جعلها مغلولة عن التصرف فى ملكه فلا ﴿ يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك عن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ﴾

ولا ﴿ يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ ، ولا ﴿ كل يوم هو فى شان ﴾ الى غير ذلك كما هو صريح كلامه ، وقد بين فى هذه الجملة السفه والفوضى التى لا ضابط لها وهو تصرف الله فى ملكه ، وبهذا يتبين لك معنى السفه والفوضى التى طالما كررها ورددها وحذر عنها بان ذلك هو تدبير الله لملكه بما تقتضيه مشيئته العليا وإرادته الكاملة ، تعالى وتقدس عما يقول الظالمون والملحدون علوا كبيرا . قال شيخ الاسلام ابن تيمية فى المنهاج صحيفة ٩٢ ج ٢ « هو (أى الله) مسبب الأسباب وخالق كل شىء بسبب منه ، لكن الاسباب كما قال فيها أبو حامد وأبو الفرج بن الجوزى وغيرهما : الالتفات الى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل معنى يلتئم من التوحيد والعقل والشرع ، فالموحد المتوكل لا يلتفت الى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن اليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها ، فانه ليس فى الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر الى أمور أخرى تضم اليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سبب مستقل بالأحداث إلا مشيئة الله وحده فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاء خلقه بالأسباب التى يحدثها ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل الا عليه كما قال تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ـ الى ان قال ـ والعلل التى تنفى نوعان أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها وهذا شرك محرم الخ » وسياتى بقية كلامه

ثم قال : « ولو أنك رجوت من وكيلك أن يدبر وكالته على هذا النحو لكنت راجيا المحال والظلم » .

فيقال : بل لو رجوت من وكيلى أن يتصرف فى الأسباب التى فى قبضته وفق مصلحتى حيث وعدنى بذلك ويعيننى فى عملى ويقضى طلبى رحمة منه وكرما

وإحسانا لرجوت منه الرحمة والاحسان وكنت محسنا الظن به وهو أهل لذلك ، بل لو اعتمدت على الأسباب التى فى قبضته من دونه واعتقدت بأنه عاجز عن التصرف فيها أو أنه لا يمكن أن يغيرها بل يجعلها لى كما جعلها لعدوه وعدوى لكنت قادحا فيه ومشبها له بالأصنام التى لا تفرق بين الآخذين بالأسباب فى أديانهم ومذاهبهم فلا تملك لهم نفعا ولا ضرا . انى لو اعتقدت هذا فى وكيلى بانه مكفوف اليد عما فى ملكه لكنت معتقدا السفه والفوضى التى لا ضابط لها ، هذا مع أن تعليله هذا وقياسه فيه ما فيه ، لأنه تشبيه للخالق بالمخلوق والوكالة بالتوكل ، ومع هذا فهو حجة عليه . ثم ان الله زاده رجسا الى رجسه وعمى الى عماه ففسر قدرة الله بالعجز عن تغيير الأسباب ، وفسر العدل بمساواة المسىء بالمحسن والذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمفسدين فى الأرض ، وفسر الحكمة بما فسر به العدل أيضا ، وفسر الايمان بالاخبار بالايمان بالاسباب ، وقد تقدم الكلام على ذلك فى المبحث الأول مبسوطا فراجعه ان شئت لان أكثر كلامه مكرر ، فاننا نقلنا هناك عبارته بحروفها وأجبناه عليها وهى قوله « ولكن التوكل هو الايمان بقدرة الله وبعدله وحكمته وبأخباره الخ » فقد بينا هنالك أنه فسر هذه الأمور بضد تفسيرها الحقيق لأنه حاول تطبيقها على مبدأ الإلحاد بكون الأسباب هى المتصرفه بذاتها ، وأنه لا فرق بين الناس فى ذلك فلا تأثير للطاعات ولا دخل لرضا الله ولا لغضبه فى ذلك أبدا ، وقد بينا لك أن هذا هو اعتقاد جميع أعداء الرسل وأنهم ما قاتلوا أنبياء الله وحاربوهم إلا لانهم اعتقدوا أن ما معهم من الاخلاق الدينية لا تأثير لها فى تقدم ولا تأخر ، وحقيقة أغلاله التى فرح بها إنما هى جهالات المشركين الاولين كانت مختفية تحت أنوار العلم والدين وأفرغ هذا الملحد غاية جهده فى نبشها وتوجيه الناس اليها ، وهذا هو غاية التقهقر والرجوع الى الوثنية المحض

فصل

ثم قال « ولا شك أن الاعتقاد بأن الله يدخل [1] فى الأسباب ويدخل بينها وبين الآخذين بها : فيجعلها حينا أسبابا لانه راض عن الآخذ بها ، ويجعلها أحيانا أخرى غير أسباب لانه غاضب على الآخذ بها ، ويجعلها فى يد فلان أسبابا وفى يد فلان ليست أسبابا ، ويعطى أحيانا بها ويعطى أحيانا بدونها ، وقد يمنع أحيانا أخرى بها ، ويفقدها إنسان ويبلغ كل آماله ، ويأخذ بها إنسان آخر ثم لا يبلغ شيئا من آماله [2] وهكذا يتصرف نقضا وبناء فى نواميسه وخلائقه ـ على حسب رضاه وسخطه وكراهيته ، وعلى حسب اختلاف الاديان والمذاهب ، وعلى حسب تغيير مشيئته ـ نعم إن الاعتقاد بان الله هكذا يصنع ينافى التوكل على كل احتمال » انتهى

فيقال : اذا كان هذا كله ينافى التوكل فما معنى تدبير الله لملكه وتحكمه فيه وكونه يعز من يشاء ويذل من يشاء ويوتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء وبيده الخير ، وما معنى ربوبيته وكون عباده لا يشاءون شيئا إلا من بعد مشيئته ، وما هو الذى تريد أن يفعله الله بخلقه اذا كان غضبه لا أثر له فى الاسباب ورضاه لا أثر له أيضا ، فأى فرق بينه وبين الوثن الذى لا يملك لمن عبده ضرا ولا نفعا ، وما هى أفعاله تعالى وتقدس التى تطابق التوكل ، فانك لم تجعل له فعلا البتة سوى ما تدعيه أحيانا مخادعة أنه خلق العالم فقط ، ومعلوم أن إبليس وأعداء الرسل لم ينكروا ذلك ، ولكن هذا كله تقرير لما تدعيه من أنهم متروكون لنواميس الطبيعة وقوانينها تتحكم فيهم ، فهى التى تعز وتذل وتدبر أمر هذا العالم على ما سبق من كلامك ، وهذا إنما يتأتى على أصل

---

(١) تقدم معنى هذا ، وأنه أبدل لفظ يتصرف بيدخل نفاقا

(٢) هذه الجملة الأخيرة أدخلها مغالطة ، وإلا فهو يعلم أن المسلمين لا يقولون بها

الالحاد المحض . وهذا الزنديق الملحد قد بلغت به الجراءة والوقاحة الزائدة الى أن قام ينازع الله فى تدبيره لملكه ويقول إنه سفه وفوضى ، وان ذلك ينافى التوكل ، مع أن النصوص الدينية كلها قد قررت ما نفاه كما تقدمت شواهد ذلك غير مرة كما قال تعالى ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ فبين تعالى أنه لا يجعل هؤلاء كهؤلاء لافى المحيا ولا فى الممات أيضا ، وهذا صريح فى أن ثواب الأعمال الصالحة ليس مقصورا على جزاء الآخرة ، بل حتى فى الدنيا ، وكذلك قوله تعالى ﴿ أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون ﴾ وهذا الزائغ جعلهم سواء حيث قال فى تفسير الايمان بعدل الله « والايمان بعدله يوجب الايمان بالتسوية بين الآخذين بالأسباب بدون نظر الى الأسباب التى لا تتصل بذلك ، وبدون نظر الى أديانهم ومذاهبهم ، فمن أخذ بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا ، تلك هى العدالة الشاملة » انتهى . فهذه العدالة الشاملة هى التسوية بين الآخذين بالأسباب يعنى المادية لما علمت فيما سبق أن الدعاء عنده ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، وأن الأخلاق الدينية لها نتائج أخرى غير نتائج المجد . فالعدالة هى التسوية بين المسلمين والمجرمين والمنافقين والمتقين والمؤمنين والفاسقين ، فمن أخذ من هؤلاء بالسبب بلغ مسببه وإلا فلا دخل لإعانته وتسديده وتوفيقه ، ولا ينصر من نصر دينه كما لا يخذل من خذله وخذل دينه ، إنما هى طبيعة من أخذ بها حصل على النتيجة وإلا فلا . والمصيبة أنه جعل هذا هو عدل الله فلم يقتصر على كونه رأيا محضا بل جعله دينا يدان الله به ، فالطاعة لا دخل لها فى الأسباب ، وكذلك المعصية ، وهذا هو محور كلامه ، وهو دعاية صريحة ضد الشعوب الاسلامية التى تدين بالحق وتثبيط لهممهم وعزائمهم ، لأنه إذا صار العز والذل والتقدم والتأخر عند الأسباب المادية فلا شك أن هؤلاء المستعمرين أكثر سلاحا وأقوى فلا فائدة فى الثورة عليهم والقيام ضدهم ،

لأن الله مع الأقوى كما يدعى فيما سبق ، أى فلا ينفع هؤلاء إيمانهم ولا هم ينصرون

والحاصل أن هذا الملحد لم يقتصر على أن يطلب لنفسه أن يكون هو المقدم فى الأمر بين الناس بل تجاوز الى أن أراد أن يكون هو المقدم حتى فى تدبير العالم ، فهو يريد أن يتصرف اللهُ على وفق هواه ومشيئته كما ترى كلامه فتأمله فلعنه الله حيا وميتا ما أجرأه وأفجره . ومعلوم أن الرب الذى لا يدبر ملكه ويتصرف فيه بمشيئته وقدرته فينصر من أطاعه ويذل من عصاه على وفق ما تقتضيه مشيئته ورحمته غير مكترث بالأسباب ومسبباتها لهو رب عاجز ناقص كالمخلوق ، فأى عاقل يرضى لنفسه أن يكون إلهه ومليكه بهذه الصفة ، فالرب الذى له الكمال المطلق هو القادر القهار المتصرف المدبر لأمور خلقه بالإعطاء والمنع والوصل والقطع والعز والذل ، الذى يثيب من أخلص له عمله ونصح وصدق معه فى معاملاته ، وينتقم ممن عصاه وتمرد عليه ، المطلع على السرائر وما تكنه الضمائر ، القائم على كل نفس بما كسبت ، الذى له العلم الشامل والحكمة البالغة التى لا يطلع عليها أحد إلا بما شاء لمن شاء ، ومن ساوى بين عدوه الظالم الخبيث المفسد المتمرد المبالغ فى محاربته وعداوته الصاد عن سبيله القاطع الطريق الذى يحاول قلب نظامه وبين وليه المخلص الصادق فى معاملته الداعى الى سبيله المبالغ فى تنزيهه وتقديسه والدعوة الى سبيله فلا شك أن المخلوق الذى يفعل هذا ليس بعادل ولا حكيم ، فكيف الرب العظيم الذى أنكر غاية الانكار على من جعله يساوى بين الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمفسدين فى الأرض وبين المتقين والفجار ، والله جل وعلا قائم بالقسط بين عباده يوفى كل نفس بما كسبت ويعطى كل مخلوق ما يستحقه ويناسبه جزاء وفاقا بلا سفه ولا فوضى لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها كرما منه وإحسانا ، وهو الرءوف الرحيم بعباده ، الحكيم العليم فى أفعاله وصنعه ، لا يعزب عنه مثقال ذرة من ملكه . وهذا الملحد سلك أخبث مسلك

على وجه الارض فيما لا يعد ولا يحصى من كلامه ، ولهذا ذهب فى أبياته السابقة الى أشنع ضروب الفوضى ، فادعى أن الجهل هو سبب العز والتقدم ، وأنه بمقدار ما يكون الانسان من الجهالة والغباء تكون حالته فى الرياسة والجاه والعز والثراء ، وبمقدار ما يكون من العلم تكون حاله من البؤس والشقاء والذلة ، بل العقل عنده ضرب من الفقر ، فتأمل أبياته السابقة فى المبحث الخامس تجد أنه على غاية من سوء الظن بالله تعالى وأنه فوضوى خبيث الى حد بعيد ، فقبح الله من صد عن سبيله وصدف عنها وابتغاها عوجا وجعله عبرة لعباده المؤمنين

ثم قال « وان حكومة تعامل شعبها هذه المعاملة فلا تسوى بينهم على مقتضى الأسباب والأعمال ، بل تفرق بينهم وتفرق بين نتائج أسبابهم وأعمالهم ، لأنها تفرق بينهم فى الحب والبغض ، لأن منهم الموافقين ومنهم المخالفين على حسب الأحزاب والمبادىء والاشياء الأخرى ـ إن حكومة تفعل ذلك معدودة من شر الحكومات ، وهى حكومة لا يصح الاتكال عليها ولا الاعتماد على حكمها ولا الايمان بحكمتها . فكيف يسوغ للعاقل أن يصف الله بهذه الصفة » انتهى

فيقال : هذه الجملة لا تصلح تفريعا على الجملة التى قبلها لما فيها من التناقض فى نفسها ومع ما قبلها ، وقد جاء بها مشبها بهاتدبير الله لخلقه جرأة على الله تعالى وتسهيلا لرفض دينه ، ثم غالط فى آخرها بقوله فكيف يسوغ للعاقل إلخ ، مع أنه هو الذى وصف الله تعالى بها ثم قال فكيف يسوغ للعاقل . فانظر الى هذه المغالطة والتلاعب المنكر ، فمن هو الذى ادعاها قبله حتى يقول هذا القول . وكل عارف يعلم أنه انما اتى بها تعريضا بأنه تعالى يحكم العالم كهذا الحكم على حد سواء ، والله سبحانه لا تخفى عليه خافية . ولو كان يعتقد الربوبية حقا لم يتجاسر على مثل هذا القدح الفظيع فيه تعالى ، هذا مع كونه قاسه مخادعة على خلقه فأوجب عليه ما لم يوجبه على نفسه ، وهو تعالى لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، وهو سبحانه إنما أوجب على نفسه نصره للمؤمنين كما قال تعالى

﴿ ولقد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾

على أن للقائل أن يعكس هذه الدعوى عليه بالمعارضة فيقول : وإن حكومة تعامل شعبها بالتسوية بين المصلح والمفسد والثقة والخائن والمجاهد فى سبيلها والمحارب لها والمتبع لأمرها والمتمرد عليها والمخلص الصادق فى اتباع نظامها وأوامرها وبين المخالف لها الشاتم لها المفسد لنظامها الباذل جهده فى جحد حقوقها وبين الحامد لها المثنى عليها الداعى اليها وبين المنفّر عنها الكايد لها ـ لهى حكومة تعد من شر الحكومات ، ولا يمكن أن تستقر هذه الحكومة أو يرضى عنها أحد ، بل هى حكومة فوضوية طاغية سفيهة ، وهذا الملحد قد وصفه تعالى بهذه الحكومة ، فهو يريد أن لا تفرق هذه الحكومة بين الأسباب والمسببات من أجل التفريق بين الحب والبغض ، فكيف لا تفرق بين من أحبته ومن أبغضته وبين من وافقها وبين من خالفها ، وهل هذا الا من أفسد ما يقال . ذلك مع أنه أثنى على هذه الحكومات الطاغية الكافرة وهو يراها تفرق بين رعاياها فى الحب والبغض والموافقه والمخالفة ، بل يراهم يحاكمون من يخل أو يخالف ما تقتضيه أنظمتهم بل ويشنقون ويسجنون ويطردون كل من آنسوا منه فعل ما يخالف نظمهم ومبادئهم الأساسية ويغدقون ويرفعون كل من سعى فى صلاحهم وإصلاح قوانينهم ، فهذا كله فعله مع هؤلاء ورآه أحسن شيء ، وأما الرب الكريم فانه جعل إثابته للمطيع ومحبته له دون العاصى فوضى وسفها ، قبحه الله ما أكثر خبائثه

فصل

قال « ومن الإرشادات النبوية اللطيفة الدالة على ما ذكرنا من معنى التوكل ما جاء أنه عليه السلام قضى بقضاء بين رجلين فقال المقضى عليه لما أدبر « حسبي الله ونعم الوكيل » فقال عليه السلام « ان الله يلوم على العجز ، ولكن

عليك الكيس ، فاذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل » . وعن ابي أمامة قال قال رسول الله « ان الله يلوم على العجز ، فابذل من نفسك الجهد فان غلبت فقل توكلت على الله » وعن انس بن مالك قال : جاء رجل الى النبي وترك ناقته على باب المسجد ، فسأله الرسول عنها فقال : اطلقتها وتوكلت على الله ، فقال عليه السلام « اعقلها وتوكل » انتهى

قلت : هكذا ساق هذه الروايات محتجا بها ، وهو لم يعزها ، مع أنه لايقبل ما فى الصحيحين إذا لم يوافق هواه ، ومع أنه قد اتخذ التحريف ذريعة فى دفع النصوص القائمة فى وجهه فشرع فى تحريف هذه الروايات ولواها الى ما يوافق هواه ، وهو بهذه العملية فى إمكانه أن يجعل نصوص القرآن والسنة شاهدة لكل ما يقوله ، لأنه يتناول ماشاء من آية أوحديث أو قول عالم فيحرفه على هواه ويوجب على الناس اتباع قوله ويسفه رأى كل من خالفه كائنا ما كان بل ولو خالف اللغة ، وبهذا تكون دلائل النصوص شواهد على كل ما يريد ويشتهى ، فقال فى تحريف هذه الروايات التى ذكرها :

« فقول الرجل : حسبى الله ونعم الوكيل بعد هزيمته فى القضاء يوهم أنه يفهم من كون الله وكيلا أنه يتصرف ويقضى على مقتضى أهواء الناس ومصالحهم وما يريدون لأنفسهم ، لا على مقتضى الأسباب والنواميس التى وضعها وقضى بها على خلقه قضاء لاراد له »

فيقال له : من أين لك أن الرجل فهم هذا ، بل أو أن أحدا من المسلمين خاصتهم أو عامتهم ممن له عقل يفهم أن الله يتصرف على مقتضى أهواء الناس وما يريدون لأنفسهم ، وليس فى الحديث أيضا ما يدل على ما فهمته أنت من أنه تعالى يشير إلى هذا ، وحاشا أن يكون الله سبحانه محكوما بالنواميس والقوانين لا يتحكم هو فيها ويجريها على مقتضى مشيئته وحكمته ، فانه لو كان يتصرف على مقتضى الأسباب لكانت هى الحاكمة عليه لا سيما وهو قد ادعى

فيما سبق أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس والقوانين ويصرفها على مقتضى ما به من القدرة والملكة وهى التى تحكم العالم ، فجعل الانسان هو الذى يتصرف فيها ، وهنا قيد الله تعالى بالتصرف إلا على مقتضاها ، والله أعظم وأجل من ذلك ، بل هى محكومة خاضعة لمشيئته وقدرته وحكمته ، فهو يتصرف فيها بما شاء ، وهى محكومة طوع المشيئة فى القطع والوصل والاعطاء والمنع وحكمته وعدله وقدرته كلها من صفاته المقدسة الداخلة فى مسمى اسمه بخلاف الأسباب المخلوقة فانها ضعيفة أصلها العدم ، وكل ما فيها من قوة انما هو فيض من آثار رحمته التى وسعت كل شىء ، فالأسباب محكومة طائعة للمشيئة والارادة ، فمن استعمل الوسائل الدينية فقد استعمل الأسباب القوية التى وعد الله بالنصر من استعملها ، وهو الكريم الذى لا يخلف الميعاد ، ومن رفضها واعتمد على الأسباب المادية دونها وعاند الله وعاكس واحتقر دينه لم ينل إلا عكس مقصوده ولا بد ، ولا سيما إذا كان منافقا يدعى الدين وهو فى نفس الأمر يحتقر دين الله ويرى أن الذين كفروا أهدى من الذين آمنوا سبيلا

ثم قال : « فأرشده مرشد الانسانية إلى خطئه وأفهمه أن معنى كونه تعالى وكيلا أنه وضع الأسباب والمسببات وربط بينها فلا انفكاك ، فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات إلى ذلك [1] والأخذ به والاعتماد عليه ، وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات ، محطما الحواجز ، خارقا النواميس متجاوزا الحدود التى حدها هو »

فيقال : فعلى هذا فقد جعل بينه وبين الأسباب والمسببات حواجز وحدودا لا يمكن أن يخرقها أو يحطمها أو يتعداها . قبحك الله ما أخبث

---

(١) أى الى الربط وعدم الانفكاك ، هكذا فسره

كلامك ، فهل الأسباب إلا مخلوقات عاجـــزة ضعيفة تجرى طوع المشيئة والارادة يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد وهو الواحد القهار . ثم هل فى الحديث ما يشير إلى هذا الهذيان والثرثرة الفارغة التى نزه الله عنهـا نبيـه الـكريم ، وهل هذا إلا جرأة ظاهرة على مقام النبوة وتقويل له بما لم يقله ولا يدل عليه كلامه البتة . ولا عجب فلا للملحد الذى يريد إفساد دين الاسلام قول غير هذا وما فى معناه ، ومن أين له أنه أفهمه أن معنى كونه وكيـلا أنه وضـع الأسبـاب والمسببات وربط بينهما فلا انفكاك ، وأن التوكل عليه يجب أن يكون معنـاه الالتفات إلى ذلك أى الربط ، وأنه الأخذ به والاعتماد عليه ، فعلى هذا يكون الرسول هو وأصحابه فى قصة تأبير النخل قد خالفوا التوكل وضلوا فيه ضلالا بعيدا بحيث لم يلتفتوا إلى هذا الربط ولم يأخذوا به ولم يعتمدوا عليـه ، ومـع هذا فلم ينقل عنهم أنهم استغفروا من ذلك وتابوا منه ، فـكيف يفهم الرسول عليه السلام هذا الانسان بأن التوكل هو الربط بين الأسباب الذى لا انفكاك منه ، وأنه الاعتماد على ذلك والأخذ به ، مع أنه رآه وأخبر أصحابه بذلك فهو إذن قد ترك ركن الدين الذى هو التوكل ، أو كان جاهلا فيه هـذا الركن لا يعرفه على زعم هذا ، بل الناس فى هذا الأمر عـلى ثلاثة أقوال منهم من يقول ان بينهما ربطا وثيقا ولـكن الله تعالى اذا شاء قطع ما بينهما كما وقـع ذلك ، ومنهم من يقول بل الفعل لله تعالى وإنما السبب علامة للمسبب فقط ، وليس بينهما ربط بقوة مؤثرة كما يقوله الأشاعرة وغيرهم ، ومنهم من يقول بل بينهما ربط لا ينفك أبدا بل ربط طبيعى أزلى ، وهـذا قول الدهـــرية والملاحدة المحض ، ولـكن هؤلاء لا يدعون الاسلام بل يصرحون بالـكفر المحض ، وهذا الملحد أراد أن يجمع بين مـذهبهم وبين الاسـلام فيدعى فى الظاهر الاسلام ، ويقرر مقتضى ما يعتقده فى الباطن فيجعل الأسباب تفعـل بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهـاياتها ، وقـد

تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية [1] فى أن « الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجه العقل ، والأعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ، والتوكل يلتئم من التوحيد والعقل والشرع ، فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب بمعنى أنه لا يطمئن اليها ولا يثق بها ولا يرجوها ولا يخافها ، فانه ليس فى الوجود سبب يستقل بحكم ، بل كل سبب فهو مفتقر إلى أمور أخرى تضم اليه ، وله موانع وعوائق تمنع موجبه ، وما ثم سبب مستقل بالأحداث الا مشيئة الله وحده ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وما شاءه خلقه بالأسباب التى يحدثها ويصرف عنه الموانع ، فلا يجوز التوكل إلا عليه كما قال تعالى ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ وما سبق من علمه وحكمه فهو حق ، وقد علم وحكم بأن الشيء الفلانى يحدثه هو سبحانه بالسبب الفلانى ، فمن نظر الى علمه وحكمه فليشهد الحدوث بما أحدثه ، واذا نظر الى الحدوث بلا سبب منه لم يكن شهوده مطابقا لعلمه وحكمه ، فمن شهد أن الله تعالى خلق الولد لا من أبوين لسبق علمه وحكمه فهذا شهوده عمى بل يشهد أن الله تبارك وتعالى سبق علمه وحكمه بأن يخلق الولد من الأبوين والأبوان سبب فى وجوده ، فكيف يجوز أن يقال أنه سبق علمه وحكمه بحدوثه بلا سبب ، واذا كان علمه وحكمه قد أثبت السبب فكيف أشهد الأمور بخلاف ما هى عليه فى علمه وحكمه ، والعلل التى تنفى نوعان : أحدهما أن تعتمد على الأسباب وتتوكل عليها ، وهذا شرك محرم ، والثانى أن تترك ما أمرت به من الأسباب وهذا أيضا محرم ، بل عليك أن تعبده بفعل ما أمرك به من الأسباب ، وعليك أن تتوكل عليه فى أن يعينك على ما أمرك به وأن يفعل هو ما لا تقدر أنت عليه بدون سبب منك » انتهى كلام شيخ

---

(١) ص ٩٢ مجلد ٢ (منهاج السنة)

الاسلام . وانظر الى تصريحه بأن الاعتماد على الاسباب شرك محرم ، وهذا الملحد جعل ذلك هو التوكل وادعى أنه ركن الدين وكلام العلماء وأئمة المسلمين كلهم على هذا ، ومن أراد ذلك فليراجع كتب اللغة والتفسير وغير ذلك من كتب الأمة الاسلامية ، وأى عاقل فانه يعلم أنه لا علاقة بين ما قرر من التعليق على هذا الحديث وبين نص الحديث ، وأن الرسول ﷺ لم يفهم الرجل هذا الربط ولا الالتفات والأخذ والاعتماد على الأسباب ، بل قال له : « ان الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس ، فاذا غلبك أمر فقل : حسبي الله ونعم الوكيل » فاين هذا القول الكريم من هذا التعليق الخبيث بل هو عكس له ومضادة لمعناه ، فانه عليه السلام أمره بالكيس ، ونهاه عن العجز ، ومعلوم أن أبعد الناس عن الاتكال هم أكثر الناس عجزا ، فهؤلاء الذين ذهبت أعمارهم فرطا فى مواضع اللهو وعشق الصور وغيرها ، أتراهم فعلوا ذلك اتكالا أم فعلوه عجزا واتباعا لأهوائهم وشهواتهم واعتقادا بأن الاسباب المادية هى مناط الامور فلا حساب ولا عقاب ، ثم انه أمره عليه السلام بأنه إذا غلب فليقل : « حسبي الله ونعم الوكيل » ففيه حجة لنا على قولنا بوجوب الاخذ بالاسباب المادية والاعتماد على الله فى إنجاحها ، فانه المتصرف فيه بمشيئته وقوته وقدرته القاهرة فيجب طلب الاعانة والتوفيق والسداد ، إذ لو لم يكن له تصرف فيها وقدرة قاهرة عليها لم تطلب منه الاعانة والتسديد والهداية والتوكل عليه فيها ، لانها لا بد أن تجرى بطبعها حتما فلا يحصل بمجرد الالتفات اليه والتوجه اليه الا التعويق والملهاة فلهذا بنى على هذا الاصل جميع جنته وزندقته ، لانه لما اعتقد الالحاد واحتاج الى الانتساب الى الدين لامر معروف لم يسعه غير الدخول فى الزندقة والنفاق الاكبر فكان كذلك بل بلغ فى ذلك الى أقصى حده

وكل مؤمن يعلم أن الاخذ بالوسائل والاستعانة به تعالى يوجب الايمان

به وحبه وتعظيمه وإجلاله لانه هو المتصرف فيها المهيمن عليها ، وهذا يوجبه أيضا القوة والشجاعة والمواصلة فى السير والعمل ، فلو كان انفكاكها مستحيلا عليه تعالى لكان ذلك خارجا عن قدرته وهو عاجز عنها ، فلا معنى إذن لقوله « حسبنا الله ونعم الوكيل » وانما يكون الكافى الحسيب اذا كان قادرا عليها قاهرا لها وهى خاضعة لمشيئته وقدرته فيكون حينئذ معنى « حسبي الله » أى كافيني « ونعم الوكيل » أى المعتمد لانه القهار العزيز الغالب على كل شيء ففيه الكفاية فى إعانتى أو تعويضى عما يفوتنى على ما اقتضاه علمه وحكمته ورحمته

ودعواه أنه أرشده الى خطئه كذب ظاهر ، فلم يرشده الى خطأ أصلا ، ولا أنكر عليه ذلك ، فلم يقل له أخطأت ولم ينهه عما فعل ولم يقل : لم قلت « حسبي الله ونعم الوكيل » وكونه طلبه ورده لا يدل على انكاره بل يدل على أنه استحسن ذلك منه فأراد أن يزيده فائدة أخرى فأوضح له الفائدة فى النص نفسه فى تقريره لما قال فى نفس الحديث كما هو ظاهر

وقوله : « فالتوكل عليه يجب أن يكون معناه الالتفات الى ذلك والاخذ به والاعتماد عليه »

يقال : هذا كذب ظاهر بل كفر صريح ، وكيف يكون الشرك هو التوكل ، فهذه جرأة عظيمة على الله ورسوله ، فليس فى الحديث ما يدل على هذا بل فيه ما يدل دلالة صريحة على نقيضه كما تقدم ، وكيف يكون التوكل هو الالتفات الى الاسباب وربطها بمسبباتها ربطا لا ينفك وقد علم أن الملاحدة والمشركين الجاحدين للمعجزات إنما جحدوها إيمانا بهذا الربط ، فالمعجزات تناقض الربط المستحيل الانفكاك ، ولهذا كان المشركون والملاحدة ينكرونها ، ومحال أن الرسول ﷺ بعث لتقرير كفر المشركين وجحد المعجزات والتوكل على الاسباب ، فانه بعث لتقرير التوحيد الذى أساسه التوجه إلى الله قولا وفعلا ، والاعتصام به والالتجاء اليه فى كل حال فى استعمال الأسباب وغيرها

وقوله « وليس هو التوهم أنه يفعل الخوارق والمعجزات محطما الحواجز خارقا النواميس متجاوزا الحدود التى حدها هو »

فيقال : وهذا كله فجور ظاهر لا علاقة للحديث به أصـــلا ، وليس فيه ما يدل على أن الصحابى كان يتوهم هذا ، ثم هذا يبين أن الملحد لا يرى أن الله يفعل الخوارق والمعجزات ، وهذا إنكار صريح للمعجزات التى اختص بها من شاء من عباده من الانبياء والمرسلين ، وكذلك الكرامات التى خص بها أتباعهم . وقوله « محطما الحواجز » تصريح بأن هناك حواجز حجز بها نفسه من الأسباب لا يمكنه أن يتجاوزها . فانظر الى هذا الفجور الظاهر

وقوله « خارقا النواميس » تصريح بأن خالق النواميس لا يمكن أن يخرقها ، وما علم المغرور أن نفس أفعاله وتصرفاته فى خلقه على مقتضى علمه وحكمته ورحمته هى النواميس ، وإنما أراد أن يجعل تصرف العالم موكولا الى نواميس الطبيعة والله محجور عليه فلا يتصرف فيها ولا يغير شيئا عن طبيعته ، فجعل النواميس حاكمة عليه قاهرة له لا أنه المتصرف فيها المهيمن عليها الذى يدبرها كيف شاء فهو الفعال لما يريد

وقوله « متجاوزا الحدود التى حدها هو » تصريح آخر بأنه خلق حدودا لنفسه لا يتجاوزها [1] ، وما علم هـذا المبتلى أن خلقه كله بما فيه من حدود وقيود ورسوم كله تحت مشيئته وإرادته المطلقة ، فهو الذى يحكم ما يشاء

---

(١) تقدم تصريح هـذا الزائغ مرارا كثيرة بأن قدرة الانسان ليس لها حدود وأنها غير محدودة ، وأن مواهبه لا يمكن أن يكون لها حدود أو قيود ، هكذا صرح ، وهنا ادعى أن رب العالمين محدود بحدود لا يمكن أن يتجاوزها وحواجز لا يمكن أن يحطمها ونواميس لا يمكن أن يخرقها ، فرب العالمين عنده مقيد بحدود وحواجز ، أما ابن الحيض فهو الذى له التصرف المطلق الذى ليس له قيد ولا حد . هكذا يقول الزنديق الملحد ، ولكن من يسمع

ويفعل ما يريد ، ثم من أين علم أن الله حد حدودا وحواجز ونواميس لا يمكن أن يتعداها هو ولا يتجاوزها ، فان حقيقة هذا أنه خلق مخلوقات قاهرة له حاكمة عليه ، وليس وراء هذا كفر وزندقة ، وهذا بخلاف قوله تعالى كتب على نفسه الرحمة وكان حقا علينا نصر المؤمنين فان هذه صفات له ليست مخلوقة وهى حق أوجبه على نفسه قد عرف بالنص[1] حيث أخبرنا به ولم يخبرنا قط أنه حد لنفسه حدودا لا يتجاوزها أو نواميس لا يخرقهـا أو حواجز لا يحطمها ، فان هذا قول عليه بلا علم ، بل هو كفر صريح لا يرتاب فيه من عرف دين الاسلام

ثم قال « وقوله عليه السلام « فاذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » معناه اذا أعطيت من نفسك المستطاع ثم غلبت وجب عليك أن تعلم أنك انما غلبت بالحق وبالقوانين التى لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون اليها ، واذا كان ذلك كذلك وجب عليك الرضا بالحكم وان كان غلبا وهزيمة لأنه عدل ، ووجب عليك الثناء على الحاكم القاضى وان كان قضاؤه عليك لا لك ، لأنه عادل غير محاب ، ولأنه عالم غير جاهل ، ووجب ان تقول : حسبى الله ونعم الوكيل ، ثم وجب أن تخص نفسك باللوم إن كان ثم ما يدعو الى اللوم بعجز أو تقصير ، وهذا بمثابة قولك : نعم القاضى هذا مشيرا الى قاض قضى عليك ولكنك تعرف أنه انما قضى عليك بالحق » [2]

---

(١) اى فلا مجال للعقل فيه

(٢) لكن الذى يكلنى الى نواميس الطبيعة المضلة العاتية التى لا تعلم ولا تعقل وتتحكم فى بمجرد تفاعلها لم يقض على بالحق ولم يحكم فى بالرحمة والعدل والاحسان ، فكيف ارضى بحكمه الظالم الجائر وإنما أرضى به اذا تحـا كمت الى نظامه الذى شرعه بنفسه أو على ألسنة رسله ولأنه حينئذ قد حكم على بالحق ، وأما على تلك الصفة فالتى حكمت فى أوثان طبيعية خبيثة

قلت : فهذا تعليقه على هذا الحديث فكأنه يخاطب غوغاء وبرابرة لا يعلمون شيئا ولا يعقلون ، ولا نظن مسلما يخفى عليه ما فى هذا التفسير من البشاعة وفساد القصد وأنه ليس فيه مناسبة لنص الحديث أصلا ، فأى مناسبة بين قول حسبي الله ونعم الوكيل وبين قوله انما غلبت بالحق وبالقوانين التى لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها ويحتكمون اليها ، فان المناسب لهذا التفسير أن يقول « حسبي القوانين » لأنها هى التى حكمت عليه على هذا ، ومشيئة الله وارادته لا علاقة لها بذلك ، فان هذا الملحد صرح بأن القوانين هى التى تحكم العالم باستخدام الانسان لها حيث قال فيما مضى : فمن وفق لاستخدام هذه النواميس - إلى قوله - نال ما يبغى ، فصارت النواميس تجرى على مقتضى إرادة المستخدمين لها لا على مقتضى مشيئة الله وإرادته ، ولهذا ادعى هنا أنها لا تفرق بين من يقعون تحت طائلتها فانها لا تفرق بين المسيء والمحسن وولى الله وعدوه ، كالمسائل الرياضية بالنسبة للمسيء والمحسن وكالآلة المستخدمة التى هى تجرى على حسب إرادة مستخدميها لا على إرادة نفسها هى لأنها طبيعة عاتية مجردة . وحقيقة هذا أن العالم هو الذى يحكم نفسه بنفسه ، والا فالله سبحانه وتعالى قد نص على أنه يفرق بين المسيء والمحسن فى الحكم فلا يجعل المسلم كالمجرم فى الجزاء بل كل منهم يجازى بمقتضى عمله ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ وكما قال تعالى ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون ﴾ فأخبر أن هذا الحكم لا يجوز نسبته اليه ولا يليق به بل لا بد من التفريق بينهما ، وكيف يناسب هذا القول الذى ادعاه قوله « حسبي الله ونعم الوكيل » انما يناسبه إذا كان الله سبحانه هو المتصرف فى خلقه الكريم الرءوف الرحيم الذى هو حسب من يثق به ويلجأ اليه ويعتمد عليه ويستعمل من الأسباب التى شرعها ما فى وسعه ، فقوله ، ان غلبك أمر فقل حسبي الله » يعنى إنك اذا استعملت الأسباب على وجهها بما فى وسعك ثم غلبت فقل « حسبي الله » أى أنه كافيني ونعم الكافى ،

أى كافيني عن الأسباب التى فاتتنى ثمرتها فلا بد أن يعوضنى عنها أو يبدلها له بغيرها ويجبر مصيبتى . فهذه الرواية كالرواية التى فيها « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن، فان أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » الحديث . ولينظر العاقل إلى قوله تعالى ﴿ فان تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ هل فى معنى هذا اعتماد على نواميس الطبيعة وما يشير إلى ما ادعاه ، بل معنى الآية يتضمن الاعتماد على الله والوثوق بوعده فى نصرة رسله والذين آمنوا ، فان معناها فان تولوا أى تعرضوا عن قبول رسالة ربى فالله كافيني وهو المتولى أمرى ، فانى رسوله وهو القادر على تأييد رسوله القادر على اتمام نوره الذى جئت به رحمة للعالمين ، وعليه توكلت أى اعتمدت فى تبليغ ما أمرت به وفى شئونى كلها لأنه هو القادر القهار المتولى من توكل واعتمد عليه ، وانما أنا رسول مبلغ ، وقد بلغتكم ما أرسلت به اليكم ، وما على الرسول إلا البلاغ . هذا حاصل ما ذكره المفسرون ، وهو ظاهر ، فأى دخل لنواميس الطبيعة وقوانينها فى مثل هذه الأمور . وفى الصحيح عن ابن عباس قال : حسبي الله ونعم الوكيل قالها ابراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قيل له ﴿ ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ﴾ ولا شك أن ابراهيم عليه السلام حين ألقى فى النار لم يعمل أسبابا مادية أصلا فضلا عن أن يعتمد عليها ، بل استعمل أعظم سبب فى الوجود وهو الاخلاص فى التوجه الى الله تعالى بالدعاء والتوكل الذى تضمنه « حسبي الله ونعم الوكيل » ولهذا كان لهذا السبب الأثر الأكبر فى قلب النار الى ضدها ، لأنه استعمل هذا السبب الأعظم كاملا من كل وجه . وكذلك نوح لما دعا على قومه فى قوله ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾ الآية صار لدعائه أعظم الأثر فأغرقهم الله كلهم إلا من آمن معه فكان لهذا السبب المستعمل على وجهه الكامل أكبر الأثر ، وكذلك ذو النون لما استعمله

خرج من ظلمات بطن الحوت والبحر لأنه استعمله على الوجه الكامل وأمثاله ذلك كثير ، ومعلوم عند كل عاقل أن تأثير كل سبب بحسب استعماله على وجهه سواء أكان ذلك السبب ماديا أو معنويا ، فأكبر سبب مادى لا يؤثر إلا بقدر استعماله على وجهه ، ولكن لا يمكن بحال أن يبلغ مبلـــغ السبب الدينى لأنه دونه ولأنه تابع له ، وهذا مما يبين لك أن الأسباب الدينية أقوى من الأسباب الطبيعية وأن الطبيعية تابعة لا متبوعة ، فمن استعمل الدينية فلا بد أن يوفق لما به تحصل سعادته ونجاته ، ومن عاكس نظام الله وشرعه والتجأ إلى الأسباب الطبيعية واعتمد عليها وتوكل عليها عكس الله قصده وسلط عليه أسبابه أو أمثالها ودمرته وأذاقته وبال أمره [1] كما وقع ذلك للنبى ﷺ لما قيل له ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ اعتمـــد على الله واستعمل الدعاء والتوكل الذى تضمنه ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾ ولم يقل قد جمعنا لهم كما جمعوا لنا أو ما هذا معناه ، بل استعمل ما فى وسعه من الأسباب المـــادية واعتمد على الله واجتهد فى استعمال الأسباب الدينية من التوحيد الذى تتضمنه المتابعة ، ولذلك حصل النجاح التام والسيادة التى لم يحصل لها نظير قط

فصل

قال « وأما قول صاحب الناقة أطلقتها وتوكلت ، فانه يذهب فى هذا القول وهذا العمل الى أن معنى التوكل هو الاستسلام وترك الحيطه والعقل ، مؤملا أن يفعل الله له ما يشاء وأن ينزل من أجله وأجل ناقته جبريل وميكائيل فى يد أحدهما خطام وفى الآخر عقال ليحفظا له الناقة من الضياع والهرب ، فرد عليه الرسول هذا قائلا « اعقلها وتوكل » مبينا له أن الاتكال معناه الأخـــذ

---

(١) قال تعالى ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ الآية

بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى إنجاحها ، لأنها من خلق الله وشرعه ، وشرع الله وخلقه خليقان بأن يؤديا الى النجاح »

فيقال : وهـذا أيضا من جنس ما قبله فى الجرأه عـلى تحريف النصوص وهتك حرمتها ، ولا ندرى من أين علم مافى ضمير هـذا الصحابى حيث ادعى عليه ما لعـله لم يخطر بباله بأنه كان مؤمـلا أن ينزل جـبريل وميكائيل فى يد أحدهما خطام وفى الآخر عقال ليحفظا له الناقة ، ولم يبين من هو الذى فى يده الخطام ممن فى يده العقال منهما ، وكان من حقه إذ دخل فى هـذه الفضول أن يبين ذلك لتكميل هذيانه ، فان من علم مافى ضمير الصحابى فلا بد أن يعلم ذلك أيضا ، ولعل هذه الفضول والهذيان من وحى الحقائق الازلية الأبدية أو هى رؤيا رآها آخر الليل ، اذ لو كان له مسكة من عقل أو حياء لاستحيا من التفوه بهذه القحه والفضول التى لا يتكلم بها الا مخذول ، وكيف يتفق أن يكون معنى قول النبى ﷺ « اعقلها وتوكل » أن ذلك هو الأخـذ بالوسائل مع الاعتماد عليها وعلى انجاحهـا لا على الله وحده ، فلو كان هذا هو المراد من الحديث لقال : اعقلها وعقلك لها هو التوكل ، أو لقال : اعقلها وتوكل على عقلك لها ، لـكنه أمره بالعقل والتوكل عـلى الله ففيه بيان أن العقل وحـده ليس بكاف بدون الاعتماد على الله . ثم كيف يمكن أن يكون التوكل عـلى الله هو التوكل عـلى الوسائل فان هـذا بعينه فعل المشركين فانهم يتوكلون على الوسائل ويعتمدون عليها غاية الاعتماد ، ولهذا توجهوا اليها وعلقوا عليها آمالهم فدعوها والتجأوا اليها على اختلاف أنواعها من أرواح وأشباح وغير ذلك ، وهـذا هو شركهم الذى كفرهم الله به ، كما نقل شيخ الاسلام ابن تيميـة وغـيره من العلماء الاجماع على ذلك ، قال فى (الفروع) و (الاقناع) وغيرهما : من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم كفر إجماعا لأن هذا كفعل عابدى الأوثان . وهذا الملحد نفسه قد ذكر فيما يأتى أن أوربا جعلت صناعتهـا هى

آلهتها التي وحدتها وأبت الاشراك بها ، فلذلك صمدت هذا الصمود . فعنده أن تأليه الصناعة ونحوها من الأسباب المادية هو السبب في النجاح بخلاف توحيد رب العالمين ، ولينظر المسلم العاقل الى قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الى ولا تنظرون ﴾ فهل يظن ذو عقل أن معنى قوله ﴿فعلى الله توكلت﴾ اعتمدت على الأسباب وعلى إنجاحها ، بل الآية صريحة في أنه اعتمد على الله وحده ، وقال تعالى عن عبده هود عليه السلام ﴿قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ، اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم ﴾ فهل يظن عاقل أنه يريد بقوله ﴿اني توكلت على الله ربي وربكم﴾ اعتمدت على الوسائل المادية وعلى إنجاحها ، بل الآية صريحة في أنه اعتمد على الله الذي هو ربه ورب قومه ورب كل شيء الذي هو آخذ بناصية كل دابة ، فهذا تصريح بان كل الأسباب طوع مشيئته وإرادته ، فمن هذه صفته هو الذي يجب أن يعتمد عليه ويدعى ويلجأ اليه ، فالخير كل الخير في طاعته والشر كل الشر في معصيته ومخالفة أمره والاعراض عنه والاعتماد على غيره ، وتأمل قوله تعالى عن عبده موسى عليه السلام في قوله ﴿يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ، فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ﴾ فهل في هذا ما يدل على أن التوكل هو الاعتماد على الوسائل المادية ، أم هو صريح في نقض ما ادعاه ، فانه ادعى أن التوكل هو الايمان بالأسباب ، وهنا ادعى أن الاتكال هو الاعتماد على الوسائل وعلى انجاحها ، وموسى عليه السلام يقول ﴿ ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا ان كنتم مسلمين ، فقالوا على الله توكلنا ﴾ فهو صريح في أن التوكل هو الاعتماد على الله وحده ، وهذا أمر واضح كالشمس ، قد أجمعت عليه كتب اللغة والتفسير ، بل العامة تعرفه ، ولولا غربة الاسلام وفساد التصور في كثير

من الناس لما احتجنا الى هـذا الايضاح كله ، فان أدنى كتاب من كتب اللغـة يتناوله الانسان يجـد فيه التصريح بأن التوكل على الشيء هو الاعـتماد عليه والاستسلام له ، وما ادعاه عكس ظاهر للغـة وكلام العلماء كلهم ، بل عكس صريح لموضوع الدين ، فكيف يكون الاتكال على الشيء هو الاعتماد على غيره ، وكيف يكون المتوكل عـلى الله هو المعتمد عـلى الوسائل التى هى من خلقه ، وكيف تكون خلقه وهى شرعه ، ومعلوم أن الأسباب المادية ليست بشرعه بل شرعه هو عبادته التى أشرفها دعاؤه والتوجه اليه ، وهو قد جعله لا فائدة فيه ، فما أنزله من النظام السماوى هو شرعه ، وكله يتضمن طاعته ، أمـــا الأسباب المادية فانمـا شرع استعمالها على الوجـه الصحيح غير المخالف لشرعه الدينى ، فليست شرعا هى بل هى اذا استعملت على مقتضى الشرع يكون استعمالها مشروعا بالاضافة لا شرعا هى بالاستقـلال بل هى شر بالاستقـلال خير باستعمالها على نظام الله وشرعه ، وانما أدخل هذه الدعوى مغالطة والا فقد تقدم دعواه بان المنابر والمساجد ادت شر ما يؤدى ، فهذا هو أعظم مظهر مقدس لشرعه فقد جعله شرا وجهـلا وظلاما وخرافات ، وجعـل نواميس الطبيعة هى الحاكمة للعالم ، وهذا قلب صريح للدين ومحاربة لرب العالمين ، وقد نص العلماء على أن التوكل على الشيء دون الله عبادة له كما تقدم ، فمـن توكل على الوسائل وعلى انجاحها دون الله فهو مشرك كافر بالنص والاجماع ، والملحد نفسه قد اعترف بأن التوكل ركن من أركان الدين ، فكيف يصرفه للاسباب ، وقد تقدم كلام شيخ الاسلام بان الاعتماد على الأسباب شرك محرم ، فالحديث حجة واضحـة فى الدلالة عـلى نقيض دعواه فانه تضمن الأخـذ بالأسباب ، والاعتماد على الله لا عليها ، فلو كان الأخذ بالأسباب كافيا لم يحتج الى الاعتماد على الله لان ذلك يكون ملهاة وتعويقا لا فائدة فيه ، وفيه بيان وجوب الأخذ بالأسباب ، وأن التوكل المجرد لا ينبغى فان الله لم يأمر بذلك كما قررناه سابقا ، وتقدم أن معنى التوكل هو الاعتماد على الله وأن الاعـتماد عليه تعالى لا ينافى

الأخذ بالأسباب بل يحض على ذلك، لأن الأسباب مخلوقة مطيعة لأمره وهو بيده ملكوت كل شيء يتصرف فى ملكه كيف يشاء، وهو العليم الحكيم العزيز القهار الجبار لاراد لأمره ولا معقب لحكمه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون

ثم قال «ومبينا له (١) أن من سلك الطريق لزمه أن يطمئن، وأن لا يخشى من وراء الأسباب جورا وعدوانا كأن يهاجم ناقته المعقولة روح من الأرواح أو عفريت من العفاريت أو شيء آخر خفى من الأشياء الأخرى الخفية فيسرقها أو يضيعها أو يحل عقالها كما يظن ضحايا الأرواح، أوكان الله يصنع بناقته بعض الأشياء التى يزعمون أنه يصنعها خروجا على السنن والأسباب والعادات بقصد الامتحان أو الابتلاء أو لأنه تعالى يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كما يزعمون، وهذا ما يشير اليه قوله «وتوكل» أى اطمئن وثق بالنتيجة اذا ما أخذت بالحيطة الكاملة»

قلت: هذا آخر تفسيره وتعليقه على حديث «اعقلها وتوكل» ولا يخفى على ذى عقل ما اشتمل عليه هذا التعليق من المعاكسة لمعنى الحديث والبهت والفجور وسوء الأدب واتهام الصحابى بما لعله لم يخطر بباله، وفيه من ضروب المصائب والمعايب مالا يتسع هذا الموضع لمناقشته، وقد قدمنا الكلام فى السنن وأنه يريد بذلك نواميس الطبيعة أى تفاعلها على ما مرّ تفصيله، وقد بينا لك أن سنن الله هى نظامه الذى هو أمره ونهيه وتقديره وتدبيره، فأوامره وأقداره الكونية والشرعية كلها سننه، فقوله خروجا على السنن كلام ساقط، فان أفعاله وأقواله هى السنن، فكيف يخرج عليها، والأسباب ملكه يتصرف فيها كيف شاء بمقتضى علمه وحكمته فانه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد كما بين ذلك فى كتابه، فكيف لا يتصرف فى ملكه ويدبره على ما يريد. وقوله بقصد

---

(١) أى لصاحب الناقة

الامتحان والابتلاء لانه يحبه والمحبوب مقصود بالأذى والتحدى كلام ليس بصحيح ، بل من يقول هذا يقول لكنه من الجائز أن يبتلى الله عبـــاده ويمتحنهم لينظر كيف يعملون ، وليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين كما دلت على ذلك النصوص كقوله تعالى ﴿ ألم أحسب النـاس أن يتركوا أن يقولوا آمنـا وهم لا يفتنون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولنبلونـكم حتى نعـــلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخبـاركم ﴾ وقال تعالى ﴿ أم حسبتم ان تدخلوا الجنة ولمـا يأتكم مثـل الذين خـلوا من قبلكم مستهم البـأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا ان نصر الله قريب ﴾ وقال تعـالى ﴿ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ الى غـير ذلك من النصوص التى لا تحصى ، فالابتـلاء فى الدنيا أمر لا بد منه للمؤمن والكافر أيضا ، فالمؤمن يزداد إيمانا مـــع إيمانه وتطهر عبوديته ويتطهر من خطاياه وذنوبه [1] وأمـا الكافر فقد يبتلى أولا ليتعظ ويتذكر ، ثم قد يستدرج ويوسع له ثم يصاب بالنكبة التى لا عافية بعدها كما قال تعالى ﴿ ولقد ارسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولـكن قست قـلوبهم وزين لهـم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بمـا أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون ، فقطع دابر القـوم الذين ظلموا والحمد لله رب العـالمين ﴾ وهؤلاء المسلمون لم يقولوا ان المؤمـن المحبوب مقصود بالأذى ، فان هذا كذب ، بل يقولون ان حبه لعبده لا ينافى

---

(١) تقدم أن المصائب من حيث هى مسلوبة ونقائص طبيعية ، وأضدادها أسباب وجودية وفضل من الله ورحمة ، فكل مافى العالم من لذة وفرح وسرور فهو فضل من الله ورحمة ، وما سوى ذلك فسبب البعد من هذا المصدر الالهى ، وأعظم مبعد عنه هى الذنوب أو عدم الطاعات . والشر ليس الى الله ، والخير بيديه

أن يصيبه بشيء من الاذى فى دنياه لرفع درجته ولما يحدث له من التوبة والانابة والاستغفار الذى هو من موجبات الرحمة وتكفير الذنوب ، فيكون ما يحصل له بهذا الخير العظيم أضعاف أضعاف ما يصيبه من الأذى التافه الضئيل بالنسبة اليه كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ‏ ‏ ‏ ‏ وربما صحت الأجساد بالعلل

أما كونه يتقصد عبده المحبوب بالأذى دون غيره من أجل المحبة فقط كما يدل عليه كلام هذا المستهزىء فبهت ظاهر ، ولا ندرى كيف يقول هذا المغرور فى المصائب والأذى الذى نال الرسل هل ينكرها ويجعل ذلك من مقتضيات نواميس الطبيعة والمادة أم ينكر الرسالة أصلا ، وهذا هو الذى يدل عليه روح كلامه ونصوصه الكثيرة بلا شك

ثم قال « واذا ما فهم التوكل كهذا الذى ذكرنا ، كان قوة من أعظم القوى وكان مهمازا يسوق الانسانية أعنف سوق الى العمل والى فراغ الجهد كله »

والجواب أن يقال أولا : ليس لنا أن نفهم معنى لركن من أركان الدين فهما يضاد معناه الشرعى اللغوى ، ثم نطبقه على فهمنا ونلغى المعانى الشرعية اللغوية ، فانه لو فتح هذا الباب لجاء أناس يفهمون الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك على غير موضوعاتها الشرعية ، ثم يطبقونها على مافهموه فينسخون بذلك أحكام الدين كلها . ومعلوم أن الحقائق الشرعية ثابتة فى نفسها ولوازمها الصحيحة ثابتة معها ، فان لازم الحق حق أبدا ولازم الباطل باطل أبدا فلا يغير فهم الشيء على خلاف معناه فهم أحد كائنا ما كان ، فالفهم الذى يطابق الحقيقة صحيح وصواب ، والفهم المخالف للحقيقة خطأ وضلال بكل حال ، وهذا مطرد فى كل دليل ومدلوله ، وخلاف هذا يوقع فى الفوضى فى فهم الدلائل والمدلولات ، وكل أحد يمكنه أن يدعى فهما ويحصر الحق فيه ثم يحمل الناس عليه ويلغى كل أفهامهم وهذا عين الفوضى

ونقول ثانيا : لا نسلم أن فهم التوكل على ما ادعيته يكون قوة ومهمازا للعمل ، بل لا نسلم أن يكون فيه أدنى باعث على العمل ، بل نحن نعلم علما ضروريا لا ريب فيه أننا لو فهمنا التوكل على النحو الذى فهمته وقررته وادعيته لكان مآلنا الدمار المحقق الذى لا ريب فيه ولصرنا مضرب الأمثال فى الفوضى والهمجية والعجز والكسل والانهيار الخلقى ، وهذا صحيح لا شك فيه ، فان الانسان لن يجتهد فى العمل ولن يعطيه كل ما فى وسعه اذا كان عالما بأنه محكوم بقوة النواميس الفوضوية التى هى مجرد مصادفات ومجرد أعمال يعملها الناس ، فان هذا قد صرح بأن الناس هم الذين يستخدمون النواميس فهى تجرى على استخدامهم ، ومعلوم أن أفكارهم وآراءهم وشهواتهم وأهواءهم مضطربة متعاكسة فيلزم أن تكون النتائج على وفقها ، وهذا يوجب الحيرة والارتياب فيها والقلق والاضطراب وعدم الاطمئنان إلى العمل والى النتيجة فالأسباب مخلوقة معلوم فقرها وضعفها ، وأن كل سبب فيها قد قهره سبب آخر وافتقر الى سبب آخر ينضم اليه ، وكل أحد من بنى آدم معه شيء من الأسباب ليست محصورة عند أحد حتى يتصرف فيها كيف شاء ، بل مامن سبب إلا وقد اشترك فيه ملايين الناس ، فكيف يستطيع العامل أن يعمل سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا أو غيرهم وهو على هذه العقيدة الفاسدة ، فلو عمل وهو على هذا المبدأ لكان عمله فى غاية الفتور والضعف إلا أن يدفع اليه دفعا عنيفا ، ولا يخفى ما فى العمل الاجبارى من القصور ، وهذا بخلاف من أخذ بالأسباب معتمدا على خالقها المهيمن عليها الذى أمره بالأخذ بها والاستعانة به والاعتماد عليه ووعده بالاجابة والاعانة والتأييد والنصر اذا أخلص معه وصدق فى معاملته وأنه رءوف بعباده رحيم لطيف بهم له الغاية فى الكمال المطلق من كل وجه ، معتقدا أنه كلما أخذ بالأسباب واجتهد فى الأخذ بها والعمل بها واستعان بالله أعين وأيد ونصر ، وأنه اذا ترك الأسباب واستهان بها فقد فرط فى أمره ، بل لا بد من الأخذ بها والاجتهاد فى عملها

والاعتماد على الله والنصح والاخلاص له فى عمله هذا ولا سيما إذا لاحظ مع ذلك أنه اذا عاند نظام الله وتمرد عليه أنه سيتعرض للخذلان والمقت والانتقام ، ولا شك أن العقول السليمة تميز بين الدافعين وما يلزمهما من النتائج ، وما أصاب الناس هذا الوهن وهذا الكسل إلا حينما تركوا التوكل واعتمدوا على أنفسهم واتبعوا آراءهم وأهواءهم فى الأسباب وغيرها

ثم قال « والتوكل بهذا المعنى روح الانسانية ، ومتى زايلها فقد حانت وفاتها . وهو بهذا المعنى أيضا روح الأديان وروح الاسلام [1] . ولهذا جاء ذكره فى أكثر سور القرآن مأمورا به ومخبرا عنه ، وقد كان بهذا المعنى إحدى القوى الكبرى التى قدمت للعرب مفاتيح البلدان ، وأخضعت لهم الممالك ، وقهرت بهم الأديان ، ووضعت فى أيديهم مقاليد الدنيا ـ الدنيا التى تعوزها هذه الروح ، والتى كانت اذ ذاك تتصور التوكل على نحو ما يتصور المسلمون اليوم الجمود والاستسلام ورجاء ما لا يكون) [2] انتهى

والجواب أن يقال : قد بينا معنى التوكل الصحيح الشرعى الذى هو ركن الأديان الذى به حصل النجاح وبه يعرف أن تأخر المسلمين اليوم هو تقصيرهم فيه ، وإلا فلو كان الأمر كما يقول فلا أعظم من اجتهاد الناس اليوم فى الاعتماد على الأسباب الدنيوية ولا أقل من اعتمادهم على الأسباب الدينية وما زادهم هذا الا خسارا . فبالله عليك ـ يا بلعام زمانه ـ من هى الدولة الاسلامية التى تركت التقدم والعمل اعتمادا على التوكل ، بل أى حزب أو جماعة تركت أعمالها وتقدمها اعتمادا على التوكل ، فالتوكل والاعتماد على الله ليس له من الأثر أدنى شىء فى ترك العمل ، بل كل من ترك العمل فانما تركه

---

(١) فبحلك الله ما أجرأك كيف تكون عبادة الطبيعة روح الأديان وروح الاسلام

(٢) هذا آخر مبحث التوكل فى كتابه

لمحق لا بد أن يكون فيه ما ينافي التوكل ، فالتوكل الصحيح والاعتماد على الله هو روح العمل ، فانه يلهب القوة والحرص على استعمال الأسباب على وجهها والعمل بها والاجتهاد فيها . ومعلوم أن الصدر الأول الذين فتحوا الممالك العظيمة لم يكونوا يعتمدون على الأسباب ويرون النصر والهزيمة عندها وأن الله مع الأقوياء ، فان اجتهادهم فى الأسباب الدينية أعظم من اجتهادهم فى الأسباب المادية ، وتمسكهم بالقرآن والسنة أعظم من تمسكهم بنواميس الطبيعة ـ لو قدر أن هناك أدنى تمسك ـ فأفعالهم عكس أفعال الآخرين اليوم ، فان تمسك هؤلاء بالأسباب المادية أعظم من تمسكهم بالأسباب الدينية ، فهم عكس الصدر الأول ، ولهذا كان مآلهم على عكس مآل أولئك فما حصلوا على طائل ولن يحصلوا إلا الخزى والدمار ان لم يتمسكوا بالأخلاق الدينية الصحيحة أخلاق السنة والقرآن أخلاق السلف الصالح . ثم أن أدنى كتاب من كتب اللغة والتفسير والحديث شاهد بأن التوكل على الله هو الاعتماد عليه لا الاعتماد على الأسباب ، فان ذلك شرك محرم كما تقدم كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره ، بل معرفة هذا أمر مفروغ منه ، ولبيانه ووضوحه لم يتجاسر أحد أن يخالفه قبل هذا الملحد الذى عكس معناه عكسا صريحا واضحا ، فان أدنى عامى فضلا عن غيره يعرف أن التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، بل الكفار يعرفون هذا وينكرون أن يكون معنى الاتكال على الله هو الاعتماد على خلقه ، فهم إما عارف معناه تارك له أصلا ، وإما مقر به مقر بمخالفته ، فأما قلبه وعكسه الى ضده فهو شيء لم يسبق هذا الزنديق اليه أحد من العالمين إلا أن يكون زنديقا مثله ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجد أن التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب المخلوقة [1] أو الايمان بها ، فان هذا

---

(١) تقدم كلامه بأن كل مافى الوجود فهو من أسباب الله

توكل عليها بلا ريب لا توكل على الله ، ثم ما هى العبارة التى تفيد الاعتماد على الله بمعنى التوكل عليه ، فان هـــذا يقتضى أن يكون الاعتماد على الله أيضا هو الاعتماد على الأسباب والاستسلام لله هو الاستسلام للأسبـــاب وهكذا ، وهذا هو قلب الدين ومضادته . والبلية أنه ادعى أن روح الأديان والاسلام على المعنى الذى ادعاه فقبحه الله ما أجرأه ، فيكون معـنى روح الأديان هو الاعتماد على الأسباب والايمان بها ، وهذا كله إنما يجرى على قاعـدة الالحـاد المحض وأنه يجب على الناس أن يتوجهوا الى الطبيـــعة ونواميسها ويرفضوا أخلاق الدين ، كما قال فيما سبق : ان تأخرنا هو الجهل بقوى الطبيعـــة ونواميسها ، فهذه هى روح الاديان والاسلام عنده ، فسبحان الله كيف تذهب العقول وسبحانه تعالى ما أوسع علمه وحلمه

فصل

خلاصة هذا المبحث أنه فسر التوكل على الله بضد معناه اللغوى والشرعى كعادته فى قلب المسميات الشرعية فى أصول الدين ، فانه فسر التوكل على الله بالاتكال على غيره من الوسائل المادية . ومعلوم أن هذا التفسير قلب صريح لمدلول اسم التوكل لغة وشرعا ، ولو أعرض عنـه لـكان أستر له من هـذه الفضيحة المـكشوفة ، فان التوكل على الله هو الاعتماد عليه ، كما أن التوكل على الأسباب هو الاعتماد عليها . ثم اذا كان التوكل على الله هو الاعتماد على الأسباب ـ كما زعم ـ فما معنى التوكل على الأسباب إذن أهو الاعتماد عليها أو على الله أو معناهما سواء وعين أحدهما هو عـين الآخر كما هو مـذهب اتحادية الصوفية . ومن خلع جلباب الحياء واستهتر بالتلاعب بالنصوص فلا حيلة فيه . والذى اضطر هذا المخذول الى هذه القحة السافرة أنه لم يجد للتوكل معنىً مشتركا يمكنه حمل ما يريده عليه ولو بالتأويل البعيد الغامض ، وكان لابد

له من ازالة هذا الأصل العظيم الذى وقف سدا فى طريق دعايته الى الالحاد ، فمن أجل هذا لجأ الى هذه القرمطة المفضوحة

اذا لم تستطع شيئا فدعه وجاوزه الى ما تستطيع

قال الامام ابن القيم فى معنى قوله تعالى ﴿ وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ﴾ : « جعل التوكل على الله شرطا فى الايمان فدل على انتفاء الايمان عند انتفائه ، وفى الآية الاخرى قال موسى ﴿ يا قوم ان كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾ فجعل دليل صحة الاسلام التوكل ، وكلما قوى إيمان العبد كان توكله أقوى ، واذا ضعف الايمان ضعف التوكل » انتهى . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله « وما رجا أحد مخلوقا ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه ، فانه مشرك ، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » فكل من توكل على غير الله فى الأمور التى لا يقدر عليها إلا هو فهو كافر مشرك لأنه صرف نوعا من العبادة لغير الله تعالى

ولا ريب أن حاجة نفس العبد وقلبه الى التوكل على الله أعظم من حاجته الى الطعام والشراب لأن التوكل مادة الايمان الذى هو مادة حياة القلب ونعيمه وسعادته الأبدية ، كما أن الطعام والشراب مادة حياة البدن . ولا شك أن حياة القلب التى بها يحصل فرحه ونشاطه وعزته أعظم من حياة البدن ولذته ـ وان كانت حياة البدن هى فى الحقيقة تابعة لحياة القلب ـ ولهذا إذا استحكم موت القلب كان مآل البدن الى التلف لا محالة ، واذا مرض فلا بد أن يمرض البدن ، وهذا عام فى الأفراد والجماعات ، وكل الشعوب الاسلامية المريضة إنما مرضت لفساد غذائها الدينى المعنوى لما به من الأخلاط الفاسدة الدخيلة عليه فان أكثرها خاط إيمانه الدينى الصحيح بمبادىء إلحادية خبيثة كتحريف الصفات وعبادة الأموات وتحكيم القوانين المظلمة والظالمة ،

تخلطها هذا هو الذى أمرضها هذا المرض المشاهد ، ولهذا فان البدن الذى يتغذى بالخبث المحض يكون أمثل من البدن الذى يتغذى بأخلاط متضادة متناقضة ولكنه ينهار أو يموت فجأة غالبا ، وأما البدن الذى يتغذى بالغذاء الصحيح السليم القوى فلا بد أن يكون صحيحا قويا نشيطا .

وليس فى الدنيا أضر على الانسان من اعتماده على نفسه أو على غيره من دون الله ، فان اعتماده هذا هو قطع الصلة بينه وبين ربه تبارك وتعالى ، ومن انقطعت صلته عن الله فانى له الحياة والنجاة . فالاعتماد على النفس من دون الله هو الداء القديم العضال ، وهو الذى هدم الامم الملحدة السابقة واللاحقة — وان أطنب الجهلاء فى تجميله والدعوة إليه ، وجعلوه علامة للدهاء والسياسة [1] — فان هذا من الاغلاط الكبرى التى وقع فيها من وقع بسبب التقاليد الغربية المنافية للدين . فان الله سبحانه وتعالى امر الانسان فى أعظم موقف يقفه بين يديه أن يقول ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم ﴾ فيقول ذلك فى كل صلواته ، وان يعترف باطنا وظاهرا بان لا حول له ولا قوة إلا بالله فيستمد فى كل عمل يعمله من هذا الإيمان الحارّ الجبار . والعبادات كلها توجه قولى وفعلى واعتقادى ، واستمداد من الله الإعانة والتوفيق والهداية ، كما قال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وفى الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم » الحديث ، وفى الدعاء المشهور « اللهم لا تكلنى الى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله » ولهذا لا تكاد تجد أحدا — سواء أكان فردا أو شعبا — اعتمد على نفسه أو على جنسه من المخلوقات دون الله إلا قد خيب الله أمله وأحبط

---

(١) فانهم انما قالوا هذا لقلة معرفتهم بحقيقة الدين وتوحيد الله الذى هو المطلوب منهم . فان الثقة بالنفس مطلقا تنافى الثقة بالله والاعتماد عليه

عمله وعومل بنقيض قصده حتما ولا بد أن الله يريه كيف عاقبة اعتماده على غيره تعالى ، فانه اعتمد على الطبيعة المظلمة المنحطة وما يتعلق بها ، وأعرض عن الله الحى القيوم القهار الرءوف الرحيم . ولهذا تجد الكثرة الساحقة فى الشعوب الملحدة إلحادا محضا مع رؤسائها أشبه شيء بالحيوانات العجم تساق كما تساق القطعان ، بل هم كالآلات الصماء التى يفعل بها العمال كيف شاءوا . وكلما كانت الأمة أشد إلحادا كان رؤساؤها لأفرادها أشد عذابا ، وهذا أمر معروف لا يمترى فيه إلا جاهل بليد لا يعرف حقائق الأمور . ويكفيك عبرة ما وقع فى هذه الدول التى اعتمدت على نفسها وجنسها من دون الله كيف أنزل الله بها بأسه ودمرها بالكوارث والنكبات بأيديها وأيدى جنسها وبأسبابها التى اعتمدت عليها ، فدمر الله الملحدين بعضهم ببعض وأذاق بعضهم بأس بعض ، وفى الاثر الذى رواه الإمام أحمد عن وهب بن منبه قال : أوحى الله الى داود عليه السلام « يا داود أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم بى عبد من عبيدى دون خلق أعرف ذلك من نيته فتكيده السموات السبع والارضون السبع إلا جعلت له من بينهن مخرجا . أما وعزتى وعظمتى لا يعتصم عبد من عبيدى بمخلوق دونى أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء من يديه ، وأسخت الأرض من تحت قدميه ، ثم لا أبالى بأى واد هلك » وشواهد هذا الأثر كثيرة كقوله تعالى ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ ، ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾ وقوله تعالى ﴿ ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق ﴾ أى فلا يرجى له خلاص البتة .

والمقصود أن التوكل على الله وحده والاعتصام به هو الطريق الوحيد الأعظم لحصول المقاصد وإدراك النتائج المحمودة ، فهو الذى يمد حرارة الايمان بالوقود القوى المستمر ، فيدفع الى العمل دفعا عنيفا ، فيلهب القوى

البدنية ويحبب اليهـا العمل كما أنه ينشط الروح ويركز فى الطاقة الانسانية قوة الى قوتها بتقدم ثابت واستمرار صحيح . ولا شك أن كل من يعمل عملا فلا بدّ له من استمداد قوة فى الصبر والثبات عليه من أمور خارجة عنه وعن من هو فى حكمه ، وذلك لا يحصل — بحق — إلا فى الايمان بالله والاتكال عليه والاستعانة به وأمل ثوابه وخوف عقابه ، وكل عامل إنما يقصد من عمله ثمرته التى هى نتيجته ، وهى ـ أى نتيجته ـ إنما تكون بقدر قوة العمل ، وقوة العمل بقدر قوة الداعى والدافع ، وهذا انما يكون فى القلب وعمل البدن تابع لما يقوم بالقلب من القوة والضعف اللذين مناطهما الحياة والمرض . وقد بينا أنه حياة البدن موقوفة على الغذاء المـادى ، فان كان مناسبا له صحيحا قويا صار البدن به صحيحا قويا وإلا ضعف بقدر ضعف غذائه المـادى ، بل إنه إن لم يحصل له غذاء موافق له اضطر الى التغذى بالمواد الخبيثة القذرة وحينئذ يأول الى الهلاك حتما ، وهكذا الروح أو القلب غـــذاؤه الأمور الدينية كالذكر والقراءة والطـاعات ، فان حرم من هـذا أو انحرف عنه اضطر الى التغـذية باضداد ذلك من الخبائث المعنوية كالمعاصى والملاهى والفسوق والفجور ، واذا طال عليه الأمـد ارتاض على ذلك حتى لا يستطيع فراقه إلى أن يشـاء الله ، فنسبة غذاء الأبدان الى المادة طيبا وخبثا كنسبة غـذاء القلوب والأرواح الى الامور المعنوية طيبا وخبثا ، ولهـذا ورد فى الحديث الصحيح « ان اهل الجنة يلهمون التسبيح كما يلهمون النفس » لان هـذا الذكر المقـدس القوى الطاهر ملائم لتلك النفوس الطاهرة القوية المقدسة ، فتتغذى به فتبقى قوتهـا مستمرة مخلدة فى النعيم المقيم

فقد تبين لك من هذا أن النتائج تابعة للأعمال فى العظمة والتفاهـة والقوة والضعف ، وأن الاعمال تابعة لما يقوم بالقـلوب من القوة والضعف ، وأن القلوب لها غذاء ضرورى كغذاء الأبدان من حيث توقف الحيـــاة والصحة

عليه ، وأن الطاعات لها الأثر الأكبر فى الأعمال البدنية (١) من قوة وضعف
وبهذا أيضا يتبين لك سقوط دعوى بعض الملاحدة (٢) أنه اذا كان الله غنيا
عن الطاعة فلا فائدة فيها وان الله لا حاجة له الى أعمال الخلق ، فان هذا تلبيس
وزندقة ، فان كون الله تعالى غنيا عن الطاعة لا يقتضى أن يكون الانسان غنيا
عنها كما أنه تعالى غنى عما يعمله الانسان فى تغذية بدنه ومع ذلك فلم يتركه
الانسان ، والله سبحانه غنى عن خلق الانسان بل وخلق السموات والأرض
ومع ذلك خلق هذا كله ، فليست علة مشروعية العمل حاجته تعالى اليه ، بل
هو شرع ما شرع لحكم كثيرة منها رحمته بعبده ، فان الطاعة هى السبيل الوحيدة
التى لا سبيل سواها إلى سعادة العبد ووصوله إلى غايته ، فهو جعل الطاعة
سبيلا الى الحصول على السعادة الأبدية كما جعل الأكل والشرب ونحو ذلك
سبيلا الى التمتع بهذه الحياة البدنية ، وليس هو تعالى محتاجا الى هذا ولا الى
هذا ، فقول القائل لا أفعل الطاعة لأنه غير محتاج اليها كقوله لا آكل ولا
أشرب أو أكتسى لأنه غير محتاج الى ذلك . فعمل العبد مصلحة محضة عائدة
الى العبد من الجهتين ، فتركه لها أو إحداهما ضرر عائد اليه . وها نحن نرى
هؤلاء الملاحدة يتكلفون غاية التكلف فى تحسين غذائهم المادى ويصبرون على
المشقة - أيا كانت - فى تنقيته مما يلوثه مما لا يلائمه ، ويقطعون أوقاتا طويلة فى
شأنه خوفا من علة تأتى فى أجسامهم بسببه ، لأنهم يرون أن صحة البدن متوقفة
عليه ، فهلا فعلوا معشار هذا فى غذاء قلوبهم وأرواحهم من الأمور الدينية

---

(١) فما ذكره هذا الملحد فيما مضى أن الأمور الدينية أشياء أخرى لها نتائج أخرى غير نتائج الجد فى نهاية السقوط ، فان الاعتقادات هى عوامل الأعمال التى هى أصول النتائج ، فتكون نتائج أعمال الدين فى غاية القوة تبعا لقوة دوافعها

(٢) اى فى تضليل العامة والتلبيس عليهم فى الطاعات وتشكيكهم فى الدين ، فقد كثر مثل هذه الدعاوى فى هذه الأزمنة الفاسدة من دعاة الملاحدة المشككين فى الأديان

حتى يروا حسن عاقبة ذلك ، وكيف يدعون أنها لم تنفعهم وهم لم يعملوها إما مطلقا وإما على وجهها الصحيح المستقيم كما فعلوا فى أمورهم المادية الطبيعية .

وصرف الانسان همته كلها الى شهوات النفس ورغباتها إنما هو خلق خاص بالبهائم والأطفال ، فمتى كان الانسان بهذه الحالة فهو فى حكم هؤلاء أو هذه فان البهائم لا يهمها الا ما ادخلته بطونها وقضت به شهواتها كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ ولهذا وصفهم تعالى فى كتابه العزيز فى غير ما آية بهذا ، بل حكم عليهم بأنهم أضل سبيلا

وينبغى أن يعلم أن هذا الملحد سلك فى هذه الأغلال مسلك غلاة الملاحدة وزنادقتهم ، فانه ـ من حيث أصوله ـ أسسه على الكفر بالله وكتبه ورسله وملئكته واليوم الآخر والقضاء والقدر ، لأن هذه الأصول هى الأسباب المتصلة بين الله وبين خلقه ، وهى الموصلة اليه ، فلهذا بذل غاية جهده فى أن يجتثها من أصولها لأنها هى الحد الفاصل بين المتدينين والملحدين فى الجملة فمتى أزال هذا الحد الأكبر حصل له مقصوده وهو اعتناق الالحاد ورفض الدين[1] . ولما كان زنديقا مرتابا خائفا صار تعبيره فى محاربة هذه الأصول مناسبا لحاله ، فأتى به مجملا ملبسا [2] ليكون أقبل له ، وليتسنى له التخلص من ظاهر معناه بالتحريف عند الحاجة اليه كعادته فى مضايق قواعده الخبيثة . وقد وضع لكل أصل من هذه الأصول التى ذكرنا بحثا خاصا لهدمه وإزالته ، فوضع

---

(١) والشعوب الملحدة إلحادا محضا تقرر الكفر بهذه الأصول وتعلنه شبابها ، لكن تصرح أنه مضاد للأديان السماوية كلها

(٢) لأن حالة الزنديق المنافق لا بد أن يكون فيها شيء اللبس والتمويه قد تخفى على من يجهل حاله

لأصل الايمان بالله تعالى البحث الثانى [١] وهو الايمان بالانسان وعبر عنه بقوله (لقد كفروا بالانسان . الايمان به أول) ، يعنى أن الايمان بالله يقتضى الكفر بالانسان لأن الايمان بالله مبنى على أنه المتصرف فى الكون كله وأن الكون محكوم بارادة قهارة وأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء ، والايمان بالانسان بأنه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء أو أنه ليس فوق قدرته شىء يصادم هذا ، اذ من المحال أن يجمع الانسان بين الايمان بالخالق والمخلوق بأنهما متساويان فى التصرف والعلم والقدرة ، فلا بد من التفريق وهو يقتضى اختصاص الخالق بذلك دون المخلوق ، وهذا التفريق الذى أوجب الاختصاص ـ على أصله ـ أوجب الكفر بالانسان بكونه يعلم كل شىء ويقدر على كل شىء وليس لعلمه ولا قدرته حدود ولا قيود ، وقد اجتهد غاية الاجتهاد فى إلغاء هذا التفريق [٢] وأطال البحث من أجل ذلك [٣] وجعل الايمان بالله كفرا بالانسان ، ولهذا أكده بقوله (الايمان به أول) أى قبل كل شىء ، فاذا حصل الاعتقاد بان الايمان به أول حصل الكفر بما ينافيه وهو الكفر بالله ، وهذا ظاهر لا يخفى إلا على أعمى البصيرة .

وأما الكفر بكتبه تعالى ورسله فانه وضع لذلك المبحث الثالث والرابع ، ولهذا أطال فى بهت المسلمين فيهما بأنهم كرهوا العلم وحاربوه وأحبوا الجهالة والخرافات والأوهام ونحو ذلك ، حتى ادعى أنهم حجبوا المرأة عن العلم . ثم انه فسر هذا العلم بفهم قوانين الطبيعة ونواميسها والموسيقى ودقائق الفلسفة ونحو ذلك ، وغرضه من هذا أن كتب الدين كلها تسند الامور كلها الى الله لا الى قوانين الطبيعة ونواميسها ، بل جميع الكتب ونصوص الرسل فى محاربة

---

(١) وهو الأول فى الحقيقة ، وما قبله كالمقدمة كما لا يخفى
(٢) ولهذا صرح بأن عدم منازعة الله فى علمه وقوته وقدرته سخف مبين
(٣) لأنه أصل الأصول ، فجعل بحثه والإسهاب فيه أطول بحوثه فى أغلاله كلها

هذا الأصل أى التوجه الى الطبيعة والاعتماد عليها ، بل هى محكومة لا حاكمة تجرى على مقتضى مشيئة الله وإرادته ، كما أن كتب الله ورسله تنص على محاربة فساد الأخلاق التى منها الفواحش والدعارة والفجور ، وأكثر هذه متعلقة بالمرأة اذا أطلقت فى ميدان الفسق والاستهتار والإباحية وأشباه ذلك ، فكان مقتضى ما يحاوله أنه لا يمكن التوجه الى الطبيعة ونواميسها والانهماك فى ذلك والانكباب عليه والانطلاق فى ميدان الشهوات على اختلاف أنواعها المحرمة إلا بالكفر بما يضادّ هذه الأمور وهى الأمور الدينية التى جاءت بها الكتب السماوية وأجمع عليها الرسل ، وحيث انه سمى ما يدعو اليه من الإلحاد والخبائث علما لزم من ذلك أن يسمى ما يضاده جهلا ، كما أنه حين حرص كل الحرص على الدعوة الى الايمان بما يدعو إليه فقد حرص كل الحرص على الكفر بما يضاده من كتب الله ورسله ، وهذا ظاهر ، وقد عرفت مما سبق هنالك معنى العلم والجهالة عنده

وأما الكفر باليوم الآخر فانه وضع له المبحث الخامس ، فعبر عن عدم الكفر بالآخرة (بكراهة الدنيا) يعنى أن إيمان الناس بالآخرة هى كراهة الدنيا ، فجعل كل من آمن بالآخرة فقد كره الدنيا ، وإلا فهو يعلم حقيقة العلم أن الناس لم يكرهوا الدنيا بل صرح بأنهم يحبونها حبا عظيما ويريدون تحصيلها بكل الطرق حتى بالمحرمة منها ، ولكن النقطة هى أنهم لم يكفروا بالآخرة ، فلو كفروا بها لكان كفرهم هو حب الدنيا ، ولهذا أطال فى تمطيط هذا المعنى فى ذلك البحث من أجل هذين العاملين اللذين تنازعاه وهما الخوف من التصريح بهذا اللفظ أى الكفر بالآخرة وحب الإلحاد والحرص على الدعوة اليه

وأما الكفر بالملائكة فانه وضع له البحث السادس وفيه أن (الجهل بنواميس الطبيعة مانع من التقدم) وقد تبين فى هذا البحث أن نواميس الطبيعة

هى التى تحكم هذا العالم ، فصرح بذلك تصريحا لا إشكال فيه ، وقد أطال فى إنكار ما يرد على ذلك من اعتقاد تأثير الدعاء والطاعات وإنكار الأرواح ، وأطنب فى إنكار الارواح ليتسنى له انكار الملائكة ، وهذا ظاهر لمن تأمل هذا البحث كله

وأما الكفر بالقضاء والقدر فظاهر فى البحث السابع فانه فسر الايمان بالقضاء والقدر بالايمان بالأسباب المادية بأنها مربوطة بنتائجها وأنه تعالى لا يتصرف فيها ، وهذا هو عين إيمان الكفار بالأسباب ، والنتائج كما تقدم

ولما كان التوكل على الله تعالى من أعظم أصول الدين وأنه صلة بين العبد وبين ربه ، وهو يتضمن تلك الاصول كلها ، وضع له هذا الملحد بحثا خاصا واجتهد غاية الاجتهاد فى إفساده وازالته وتشويهه حتى حرف معناه جهارا ، فلهذا أطلنا فى إيضاح هذا الأصل وابطال كلامه

وأما المباحث الآتية فانها زيادة تأكيد وتأييد لما قرره فى المباحث الأولى ، لأن حقيقتها الحث على التوجه الى الطبيعة ونواميسها ومحاربة كتب الدين وعلمائها ، لأن ذلك يعارض ما يدعو إليه . ثم انه ـ لحاه الله ـ لم يكتف بتقرير هذه الشناعات والكفريات الواضحة حتى حول أصول الدين فجعلها هى عين أصول الملاحدة ، ففسر الايمان بعدل الله وعلمه وحكمته واخباره بالايمان بتفاعل الطبيعة وأن النواميس هى التى تحكم هذا العالم وأن الله لا يتصرف فى الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، بل هذا هو السفه والفوضى ، فجعل ايمان الملاحدة بكون الطبيعة بتفاعلها هى التى تحكم العالم ـ هو عدل الله وعلمه وحكمته واخباره كما أوضحنا هذا فيما سبق ، ولهذا أكد هذا التقرير الخبيث بأنه هو الدين الصحيح حيث ادعى بأن كتابه هو محاولة فهم الدين وأنه وفق بين روح الدين وروح العمل وجعل ما يضاد هذا الذى ادعاه دينا باطلا وأنه هو أصل المزالق ، فالدين الباطل عنده الذى لا يمكن ان يقدم

صاحبه هو ما يخالف ما قرره فى هذه الأغلال . وهذه الآراء الشنيعة أكثرها مستمد من ملاحدة القرن الماضى مثل غوستاف لوبون وأمثاله فان غوستاف هذا قرر كثيرا من هذه النظريات لكنه معترف بانهـا مصادمة لنظريات الأديان لأنه غير محتاج الى النفاق والزندقة كحاجة هـذا ، فقد قرر غوستاف أن الكون يجرى على مقتضى تفاعل طبيعى ليس لله تدخل فى أسبابه ونهاياته ، وادعى عـلى علماء الدين ـ إما جهلا أو تجاهـلا ـ أنهم ينكرون أن يكون بين الأسباب ومسبباتهـا ترابط مطلقا حيث قال ص ١٤٧ (الآراء المعتقدات) : « لا أهمية لارتباط الاشياء والحوادث بعضها ببعض عند أولى النفوس الدينية فالارتباط المذكور فى نظر هؤلاء إن هو إلا أمر يختص بموجودات عـلوية تعانى عزائمها فقط » (١) وقد كذب فى هـذه الدعوى فقد ذكرنا كلام شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم فى نقلها القول بربط الأسباب بمسبباتهـا وأن الأسباب تؤثر بالقوة المودعة فيها بقدرة الله تعالى وان ذلك هو قول جماهـير

---

(١) ان غوستاف لوبون قد يكون له شىء من العـذر فى مسألة ترابط الأسباب فقط وان كان ملحدا خبيثا لأنه بين أناس خرافيين من مسيحيين ووثنيين وعباد قبور وجهمية ، فهو يظن أن الدين هو ما يعرفه هؤلاء الخرافيون الذين حوله ، وهـذا من أسباب ضلال كثير من الناس اذ يرون أناسا من الجهمية الذين ينكرون علو الله على عرشه وكلامه وكثيرا من صفاته وينكرون أن يكون بين الأسباب ونتائجها ترابط ويدعون الأموات ونحو هـذا ، فاذا رآهم هؤلاء الضلال ظنوا أن الدين هو ما عليه هؤلاء ، ولا شك أن هؤلاء فتنة للذين كفروا ، فاذا رأوهم ازدروا الدين واحتقروه وازدروا أهله واحتقروهم ورموهم بالغباء والجهالة جميعا ، لأنهم يحسبون أن هؤلاء هم أهل الدين . ولكن هذا المعارض الملحد قد عرف كتب شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما التى تشتمل على الدين الصحيح وفيها من نور المعارف ما فيه كفاية لمن أراد الاطلاع على الدين الحق ، فليس هو مثل متبوعه لوبون ، بل هو يعرف الحق معرفة واضحة ، ولكنه كفر استكبارا وعنادا ورغبة فى تحصيل أمور أخرى

علماء المسلمين لم يخالف فى ذلك إلا طائفة من طوائف الأشعرية ، بل عدم تأثير الأسباب هو فى الأصل قول الجهمية الذين كفرهم السلف بسبب انكار الصفات ، وقد نقل ابن رشد الحفيد القول بترابطها عن الجمهور أيضا . وربط الأسباب بمسبباتها لا ينفى تصرف الله فيها ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب لأن الاسباب مختلفة ومتضادة فيدمر بعضها ببعض ويقوم بعضها ببعض ويكمل بعضها ببعض فهو سبحانه إذا شاء بطلان أسباب سلط عليها أسبابا من جنسها إما أكبر منها أو مضادة لها فى الطبع أو غير فكرة أهلها حتى يوقعهم فى الأغلاط التى تفسدها وتبطلها ، فهو سبحانه الحاكم عليها فيغيرها بنفسها تارة وبنتائجها تارات وبأيدى أهلها أحيانا ، فربطها من تصرفه فيها ، كما أن خلق أضدادها من تصرفه فيها أيضا ، وتقليب قلوب أهلها التى هى من أعظم العوامل فيها من تصرفه فيها ، فالعوامل التى تبطل الأسباب لا يعدها ولا يحصيها إلا الله تعالى ، كما أن كثيرا من الاسباب العظيمة ـ فضلا عما هو دونها ـ قد شوهد بطلانها فى كل حال وزمان ، بل وشواهد إضرارها بأهلها فى كل حال ومكان وزمان

وكذلك قول الملحد غوستاف ص ١٤٨ « لعل أهم ثورة ظهرت فى عالم الفكر هى الثورة التى أدى اليها العلم باثباته أن الحوادث تصدر عن نواميس مهيمنة لا عن أهواء الآلهة [1] الخ » فان هذا الكلام مبنى على جهله بالدين وبأهله وقد بينا لك أن فحول علماء الدين كالامام ابن تيمية وابن القيم والذهبى وغيرهم صرحوا بأن الأسباب مربوطة بأسبابها وأنها مؤثرة فيها بالقوة المودعة فيها ، بل نقل ابن القيم هذا عن جماهير المسلمين [2] كما قرره أيضا ابن

---

(١) هذه الجملة والتى قبلها من كلام جستاف لوبون هى من النقط العامة التى اعتمدها صاحب (الاغلال) وبنى عليها أكثر كلامه فى الأسباب ، فهذا هو مشربه ومذهبه

(٢) فى كتابه (شفاء العليل) وغيره

رشد ونقله عن الأئمة ورد - كما ردوا - على من خالف ذلك . فاذا كانت هذه الثورة التى أعجب بها وجعلها أهم ثورة هى التى كانت سببا فى الظفر بالعلم المادى والحضارة فقد سبق علماء الدين وأئمة المسلمين اليها غيرهم ، وإن غيرهم من علماء الغرب إنما أخذوهـا عنهم ، فكيف جازله أن ينقل عنهم نقيضها ، وإن كان المقصود من هذا هو أن الله تعالى لا يدبر هذه الأسباب ولا يتصرف فيها مطلقا فهذا لم يقل به إلا الملاحدة المنكرون للأديان جملة والكلام مع هؤلاء له شان آخر ، ويكفى فى بطلان كلامهم مشاهدة بطلان الأسباب القوية قهرا على أهلها وتعذيبهم بها دون من هو دونهم ، كما أنه يكفى فى فساد عقولهم إثباتهم جملة الأسباب بدون مسبب أول وأن الحوادث المنظمة المحكمة تحدث بدون محدث عالم حكيم مريد وايمانهم بالجزئيات فى هذا دون الكليات مع أن الكليات أعظم وأبدع

ومن أوغل الكفر والمكابرة ما قاله فى هـــذا المبحث « ان الانسانية بمجموعها هى التى أوجدت هذه الحيـاة وبنت هذا المجتمع وسخرت كل هذه الطبيعة بعقولها وكواهلها دون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك » انتهى فهل أظهر من هذا الكفر كفر حيث صرح بأن الذى أوجد هذه الحياة والمجتمع وسخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله [1] لجرد الله تعالى من تصرفه فى ملكه بل جرده من إيجاد هذه الحياة . وانظر كيف صرح تصريحا لا إشكال فيه بأن الذى سخر الطبيعة هو الانسان بعقله وكاهله ، ولا ندرى كيف يجتمع الايمان بهذا القول والايمان بقوله تعـــالى ﴿ ألم تر أن الله سخر لكم مافى الارض ﴾ وقوله تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الارض جميعا منه ﴾ الى أمثال ذلك من الآيات . وهذا الملحد يقول : ان الذى سخر هذه الطبيعة وأوجد

(١) قد فسر هذا الانسان فيما تقدم بأنه المنحرف عن الدين المتحلل منه حيث قال : ونجد الذين صنعوا الحياة هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها

الحياة والمجتمع هو الانسان . ثم أكد هذا بان ذلك كله بعقله وكاهله ونفى أن يكون لله تعالى إعانة فى ذلك ، والله سبحانه وتعالى يقول ﴿ هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والارض ﴾ ، ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾ ، ﴿ أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإله مع الله ﴾ الآية ، وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ وقال تعالى ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون ﴾ وفى الحديث الصحيح « يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعمونى أطعمكم . يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته ، فاستكسونى أكسكم . يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدونى أهدكم » الى آخر الحديث . وهذا الملحد يقول : ان الانسانية هى التى أوجدت هذه الحياة والمجتمع ، بل وسخرت هذه الطبيعة بدون أن يعينها معين أو يشاركها مشارك . فض الله فاه ما أجرأه على الزور والفجور ، ثم هو مع كونه كفرا صريحا فهو مكابرة فى الحسيات ومباهتة فى الضروريات وسفسطة فى المعقولات ، فانه من المعلوم بالضرورة والوجدان الذى لا يستريب فيه أحد من الناس أن هذه الانسانية كلها إنما تعيش فى هذه الأرض بالأكل والشرب والحر والبرد والهواء ونحو ذلك ، فنقول لهذا الزنديق : من الذى خلق الماء فأنزل من السماء ماء وفجر الارض عيونا وأنهارا ومن الذى خلق الحيوان والنباتات التى خلق منها الحبوب واللحوم والألبان والادهان ومن الذى خلق العناصر الأصلية كالهواء والتراب والحرارة والبرودة وغير ذلك كالليل والنهار ، هل هو الانسان أو الله رب العالمين ، فاى حبة خردل أوجدها الانسان من هذه الكليات والجزئيات التى قامت عليها الحياة والمجتمع ، فضلا عن أن يكون هو الذى أوجدها وحده بدون إعانة معين أو مشاركة مشارك ، غاية مافى ذلك أن يكون كالعامل الذى أدخل مملكة أو دارا واسعة

قد جهزها صاحبها بجميع الأجهزة اللازمة التى تحتاجها ، فأمر هذا العامل أن يعمل فيها بآلاتها الكاملة فيها ، ويعيش من عمله فيها ، فهل يسوغ فى العقل أن يقال ان هذا العامل هو الذى أوجد هذه المملكة أو الدار بما فيها من حياة بدون أن يعينه معين أو يشاركه مشارك ، وهل هذا إلا هراء لا يقوله من يدرى ما يقول ، وخليق بعقل تنجس بقاذورات الالحاد أن ينحط الى هذه الدرجة النهائية من الزندقة والنفاق ، فان هذا الملحد لما عزم على الكفر اختار أقصى حد يوجد فيه فاعتنقه ، وحيث أن الزندقة وعداوة الأديان وقلب أصول الدين أصولا للكفر هو أقصى حد فى الكفر فإنه اختاره واعتنقه واطمأن به ودعا اليه [1] نسأل الله العافية بمنه وكرمه

وكل تقريره فى هذه الأصول هو من هذا النمط فى السفسطة والمكابرة والبهت والنفاق ، ولهذا لم يخف على ذوي البصائر كفره ومحاربته للدين كما أشرنا الى هذا فيما سبق

وقد اشتهر ما كتبه شيخنا المحقق العلامة محمد بن ابراهيم لما اطلع على أغلاله فكتب فى شأنه بأنه حرب صريح للاسلام ودعاية ضده ، وقد سمعته غير مرة يقول فيه إنه ملحد وكفره ظاهر . وقد قدمنا فى المبحث الأول بعضا مما يتعلق بهذا . وجميع علماء المسلمين العارفين بدينهم لا يشكون فى زندقته ومروقه من الاسلام ، ولو ذهبنا ننقل كلامهم فى تفكير هذا الملحد لطال

---

(١) ولعمق مافى قلبه من جذور النفاق وعداوة الأديان انه شديد الولع والمحبة لكل من كان أشد كفرا ، ولهذا تجده اذا ذكر اليهود والبلاشفة ونحوهم انحدر كالسيل فى كيل المديح لهم فيأتى بأضخم عبارات المدح والتعظيم فيكيلها لهم جزافا ، فاذا ذكر المسلمين ولا سيما أهل القرون المفضلة وأهل الحديث انقلب كالكلب العقور وأطال فى اللجاجة والشتم والسب والتهكم والازدراء والقحة المتناهية

الكتاب جدا كما قال مشايخنا الأجلاء عبد الله بن عبد العزيز العنقرى ورئيس القضاة عبد الله بن حسن وأخوه عمر ـ كيف يشك مسلم فى كفره ومحاربته للدين ، حتى قال رئيس القضاة : أصول دعايته كلها مناقضة لأصول دعاية القرآن مناقضة صريحة . وكلام جميع علماء الدين العارفين بدينهم يرون فيه هذا الرأى [١] كما شرحناه فيما سلف . وليعذرنا القارىء فيما يرى من تكرار بعض العبارات ، فان هذا أمر لا بد منه ، لأن كلامه مكرر معناه ، وانما يختلف فى التعبير فقط ، ولابد أن يكون الجواب مناصبا لكلامه . على أن كل موضع فيه شيء من التكرار لا بد أن فيه زيادة فائدة ، كما أن التكرار فى موضع لا بد فيه منه لا باس به لايضاحه أو تاكيده ، وكتب الرد على أهل الباطل لا تخلو من هذا ولا سيما فى الأصول كما يعلم من تتبعها وكما يعلم من أسلوب الكتاب العزيز وصنيع أئمة الدين مثل البخارى وأحمد وابن خزيمة وابن تيمية وابن القيم وغيرهم والله اعلم

---

(١) وقد طبع مجموعة من القصائد النجدية فى الرد عليه كتب عليها الشيخ عبد العزيز بن باز تقريظا حسنا وبين أن كفره ظاهر لا ريب فيه

الكلام على المبحث التاسع – فى الاسباب

عنوانه فى أغلاله هكذا :

(الأسباب ــ أوهام الناس فيها ــ كيف يجب أن تفهم)

وحقيقة هــــذا المبحث هو نفس ما قرره فى المباحث السابقة فى الطبيعة ونواميسها لا يختلف عنهـا فى شىء سوى زيادة التكرار والمجـازفة وتحريف النصوص الدينية . وقد سبق الكلام فى نواميس الطبيعة وأسبابهـا فى مواضع كثيرة جدا حتى مللنا من تكرارهـا ، ولـكن نذكر هنا بعض ما يتعلق بهـذا البحث زيادة للايضاح ، ودحضا لباطله الذى شغف به . وقد تقدم كلام شيخ الاسلام فى وجوب مراعاة الأسباب شرعا وعقـلا وأن الاعتماد عليها شرك محرم ، كما أن عدم الأخذ بها وتركها رأسا محرم أيضا

قال الملحد بعد ذكر العنوان المذكور :

« اقصد الى تربة غنية بالعناصر اللازمة للإنبات والإنماء ، وادفن فيها البذر الصحيح القوى فى الوقت المناسب ، ثم اسقها بالمـاء وفاق أصول الرى العلمية الصحيحة ، ثم انظر كيف تنبت هذه التربة ، وكيف يجىء نباتها . انها سوف تنبت وان نباتهــــا سوف يخرج جيدا إلا أن تكون هناك آفة من الآفات الزراعية . فاذا لم تنبت أو لم يكن نباتها قويا صحيحا فلا ريب فى وجود مانع إما فى الارض وإما فى البذر وإما فى طريقة الرى واما فى المناخ وأما فى أحد الاشياء المعروفة . أما أن تجتمع هذه الأمور وتنتفى هذه الموانع ثم لا يخرج النبات ـ أو يخرج ولا يكون صحيحا ـ فمحال »

فيقال : هذا ليس من الحجة فى شىء ، بل هو حجة عليه ، فان كلامه هنـا تضمن أن خروج النبات من البذر صحيحا متوقف على اجتماع هـذه الأسباب وانتفاء الموانع والعوارض ، فتضمن هذا أن الاسباب كلها ضعيفه لأن كل

واحد منها عاجز عن الاستقلال بالإنبات ، بل لا بد من أن تتعاون ولا بد من أن تكون صحيحة ولا بد أيضا من أن تكون مرتبة ترتيبا طبيعيا على وفق خلق الله لا على ما يريده الانسان . ثم إذا حصل هـذا كله فلا بد أيضا من أن تنضم الى ذلك أمور أخرى وهى انتفاء الموانع والعوارض ، ومعـــلوم أن الموانع لا يعدها ولا يحصى أنواعها إلا الله تعالى ، وهى أسباب أخرى تضاد هذه الأسباب المذكورة وتقهرها وتغلبها ، وهى تتأتى فى التربة وفى المناخ وفى الرى ، وتأتى فى جميع الأطوار التى يقطعها النبات . ومعلوم أيضا عند كل عاقل أنه ليس فى استطاعة أحد من بنى آدم ـ بل ولا بنى آدم كلهم ـ أن يمنعوا جميع الموانع والعوارض ويوجدوا جميع الأسباب بقدرتهم الذاتيـة . ومن العجب أنه جعل من الموانع الأشياء المعروفة ، وكل عاقل يعرف أن الأشياء المعروفة عند الناس هى الآفات وأكثرها ليس فى قدرة الانسان منعه وإنما ذلك راجع الى المشيئة العليا والقدرة الربانية ، فاذا أراد الله قطع المنفعة من هـذا النبـات سلط عليه آفة وسببا من هذه الأسباب الكثيرة التى تحت قهره وطوع مشيئته كأن يتلفها بحيوانات او برَد أو برْد أو صاعقة ، ويسلط عليها حيوانات أرضية من السوس أو غيره ، فصارت الأسباب كلها لا تستقل بوجود النتيجة بل لا بد من مراعاة القـــدرة والمشيئة الربانية ، فالأسباب قاصرة ضعيفة لا تستقل بوجود النتيجة فكيف يجوز أن تعبد وان يصرف الانسان وجهته اليها من دون الله ، بل عليه أن يستعملها على وجهها باجتهاد ويعتمد ويتوكل عـلى خالقها ويستعين به ، وإعانته تعالى هى التى تكملها وتزكيها وتنميها ويحصل منهـا الانتفاع على الوجه الأكمل المطلوب

وينبغى أن يلاحظ أن النزاع بيننا وبينه ليس هو فى تأثير الأسباب بالقوة المودعة فيها بمشيئة الله وقدرته ، انما النزاع بيننا وبينه فى استقلالها بايجاد نتائجها بدون مشيئته تعالى وإرادته ، وأنه تعالى لا يقدر على تغييرها وقطع سبب عن مسببه ، فافهم هذا جدا لـكى يزول عنك تلبيسه ، فان خداعه فى هذا المبحث

يوهم أننا لا نعتبر الأسباب شيئا وأننا ننفى تأثيرها أو ارتباطها بنتائجها وأن وجودها كعدمها ، وهذا لم نقل به ، ولكنه ممتحن بمجادلة الأوهـام التى يصورها هو على ما يريد . ويقال له أيضا : من الذى خلق التربة وخلق الرى وخلق البذر والمناخ والعامل ورتب ذلك على هـذا الترتيب الذى لا يستطيع أحد من الخلق تغييره أو تبديله ، ثم خلق لذلك موانع وعوارض أيضا لا تنضبط أنواعها ، أفليس ذلك هو الله وحده ، فلم لا يتصرف فيها وهى ملكه وطوع إرادته ، فان شاء أصلحها وهذا هو الغالب فان رحمته غلبت غضبه ، مع أن الذنوب أكثر من الطاعات ، وإن شاء أتلفها عدلا منه وحكمة ، كما ان هـذا يقع بالحس والمشاهدة أيضا

وقد تقدم فى المبحث الأول قاعدة فى الأسباب ونتائجها وبينا أن كل نتيجة فلا بد من أن يتوقف حصولها على أمر غيبى ، فارجع اليها إن شئت فما ذكره هنا حجة عليه

فصل

قال « ثم اقصد الى أرض غير صالحة للإنبات وضع فيها بذرا ، أو صالحة للإنبات ثم لا تسقها بعد وضع البذر فيها مع امتناع الماء عنها ، أو إلى أرض صالحة للانبات واسقها بالماء راجيا أن تنبت بدون أن يكون فيها البذر ، ثم انظر هل من الممكن أن تنبت هذه الارض مهما دعوت ورجوت »

فيقال : هذا أيضا كالذى قبله ليس من الحجة فى شيء ، فان الله وضع لكل شيء قدرا ونظاما بشروط وأركان معينة ليس لأحد من خلقه قدرة على تغييرها وجعل وجود النتيجة متوقفا على ما وضعه هو وجعل الحصول عليها والانتفاع بها ليس محققا يقينا ، وفرق بين الوجود والحصول والانتفاع ، وذلك أن عمل الزراعة عمل مستقل قد وضع الله له سنة مستقله انفرد بها فلا يمكن لمخلوق

تبديلها ، وهذا من أعظم الحجج على هذا الملحد الذى يدعى أن فى إمكان الانسان أن يقدر على كل شىء ويتغلب على كل شىء ، وأنه ليس شىء من الأشياء كائنا ما كان فوق قدرته ، فما باله عجز عن تغيير هذا الترتيب أو تبديل شرط من هذه الشروط ، فما ذكره فى الجملة الأولى هو الوضع الذى تكون به الزراعة ، وما ذكره هنا ليس بزراعة ، فان سقى الأرض عن غير وجود بذر فيها ليس بزراعة ولا يسمى زراعة ، اللهم إلا أن يكون فى لغة الزنادقة . وكذلك وضع البذر بدون سقى فان هذا محاولة لتبديل وضع الله ، ففيه بيان عجز الانسان وضعفه وأنه لا يقدر على تغيير هذا الوضع ، فالله سبحانه وضع هذه الأصول والشروط والأركان لهذا العمل الزراعى ، فمن جاء به على هذا الوضع الذى وضعه الله عليه وجد مسببه وكان وجوده مراعى تحت المشيئة والارادة ، ولهذا فان الزرع وان نبت فهو عرضة للتلف ، وان سلم فهو عرضة لتلف آخر بأن لا يحصله الزارع ، ثم إذا حصله فهو فى معرض تلف آخر وهو الحيلولة بينه وبين الانتفاع به فكم من زارع لم يستحصل على ثمرة زرعه وكم من مستحصل عليها لم ينتفع بها ، وهذا شىء ظاهر معروف ، ومثل هذه الأوضاع الأوضاعُ الدينية ، فان الحج مثلا فرض دينى أى من السنن الدينية فلا يسمى حجا إلا بوجود أركانه وشروطه وانتفاء الموانع والمبطلات ، فبوجود هذا كله يسمى حجا ويرجى منه حصول النتيجة المرتبة عليه ، ولكن الحصول على النتيجة ثم الانتفاع بها أمر وراء ذلك كله ، ولو أن رجلا وقف بعرفات وسعى بين الصفا والمروة ولم يطف لم يحصل له الحج الدينى مهما دعا ورجا ، فلا بد من الإتيان بالحج على الوضع الدينى . كما أنه لا بد من الأركان والشروط فى مسألة الزراعة ، فكل عمل سواء أكان دينيا أو ماديا قد وضع الله له سنة متحدة ولولا ذلك لاختلطت الأعمال وشاعت الفوضى فيها ، فنسبة الأعمال المادية لنتائجها كنسبة الأعمال الدينية لنتائجها ، وذلك أن الله تعالى وضع السنن المادية وسائل للسنن الدينية ، فان الله سخر لعباده ما فى الأرض جميعا ليعبدوه ويعرفوه

ويتقوه، فالسنن الدينية هى الغاية الموصلة للسعادة الكبرى فى الدنيا والآخرة، وسنة الطبيعة وسيلة لها فمن نفى فوائد الأسباب الدينية وأبطل نتائجها فهو أشنع ممن نفى فوائد الأسباب المادية ونتائجها ، ومن رجا وجود زرع بدون أرض أو بذر أو سقى فهو كمن رجا فائدة حج أو صلاة أو صيام بترك بعض أركانه فلا ينفعه رجاؤه هذا ولو دعا هنا لكان دعاؤه دعاء اعتداء قد صادم به سننه الدينية وقد أخبر تعالى أنه لا يحب المعتدين فقال ﴿ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين﴾ فينبغى أن يعرف أن أصول الأعمال ثابتة لا تتغير ولكن نتائجها والحصول عليها تتغير دائما بحسب نية الانسان وقصده وعمله ، لأن هذه الأمور هى التى يقع عليها الجزاء والثواب والعقاب ، وكلام شيخ الاسلام صريح فى أن الأسباب تراعى شرعا وعقلا ، أى تعتبر عوامل وموضوعات للنتائج ، وذكر أن التوجه اليها قدح فى التوحيد وأن الاعتماد عليها شرك ، وذلك لأنها لا تستقل بحصول النتيجة وحدها بل بمشيئة الله تعالى ، فهو المسخر لها فيجب الاعتماد عليه ، وهو المتفرد بالتدبير وحده وإنما وضع الأسباب محدودة مقدره بحدودها ومقاديرها لطفا بعباده وامتحانا لهم ودليلا على قدرته وكماله ليهتدوا بها واليها فى تحصيل حاجاتهم ، اذ لو كانت الأسباب مختلطة غير محدودة ومقدرة لتاهوا فيها ولكثر العبث بها ولسادت الفوضى ، فما ذكره حجة عليه ، فانه اذا كان يرى أن العلة فى الاعتماد على الأسباب هو ما ذكره فكذلك جميع الأسباب الدينية والدنيوية ، واذا كان لا يحكم إلا على المحسوسات فلينكر وجود الأرواح وأمثالها من الروحانيات وهذا مكابرة

فصل

قال « أو اقصد الى كائن حى وامنع عنه الطعام والشراب أو امنع عنه الهواء أو أفسد فيه أحد الأعضاء التى لا تكون الحياة بدونه ، وانظر هل من المحتمل أن يبقى حيا ، أو وفر لهذا الكائن الحى ما يلزم له من طعام وشراب

وهواء وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة وانظر كيف يبقى حيا »

فيقال : هذا المسكين يحاول نصر رأيه فى هذه الأصول العظيمة بهذه السخافات المضحكة والهذيان البارد ، وهى كلها حجة عليه كالمسائل المتقدمة . وهنا طفق يزخرف تمويهه فى هذه المسألة فزلت قدمه فى قوله وادفع عنه الآفات وما تكون به الوفاة . يا مسكين من هو الذى يحيط بالآفات وما تكون به الوفاة ويقدر على ضبطها ودفعها غير الله ، وهل أحد من الخلق يمكنه ذلك ، فهؤلاء سادتك من الماديين وغيرهم من الملاحدة قد درسوا كثيرا من معرفة هذه الآفات فهل أحصوها وعرفوها وهل قدروا على ما عرفوه فضلا عما لم يعرفوه . فوجود الطعام والشراب والهواء ليس كافيا فى الحياة ، بل لا بد من وجود أمور أخرى ، ولا بد من انتفاء الموانع والعوارض . ثم لو كان وجود هذه الأمور وانتفاء موانعها مضبوطة مقدورا عليها من كل وجه لاستمرت الحياة ، والا فالهرم لا ينفع معه وجود هذه الشروط وانتفاء الموانع لحلول علل أخرى لا طاقة لأحد بتبديلها وتحويلها ، وهذا كاف فى بطلان كلامه

ثم إنه شرع فى الطعن فى الهواء كعادته بناء على هذه الجمل التى ساقها وقد علمت ما فيها ، فذكر أن الأسباب اذا وجدت وافية وجدت المسببات وإلا فلا . وقد سبق الكلام فى هذا مرارا . ثم شرع فى تشويه سمعة المسلمين بأنهم تركوا الأسباب ولم يروها شيئا ، وأن ذلك من أسباب تأخرهم فقال :

« أساء المسلمون الظن بالأسباب ، وأكثروا من القول فى تقليل قيمتها وأثرها ، بل فى تجريدها من كل قيمة وأثر ، وملأوا الكتب والمنابر والنوادى والمجالس كتابة وخطابة بان تحصيل السبب وافيا ليس معناه تحصيل المطلوب ، وأن فقده ليس معناه فقد المطلوب »

فيقال : أنت أسأت الظن بالأسباب الدينية بل شتمتها وحاربتها وعاكستها وأكثرت من القول فى تقليل قيمتها وأثرها ، بل لم تجعل لها قيمة وأثرا بل

جعلتها ضررا محضا حيث قررت أنها ملهاة وتعويق ومصرف خبيث وشر مما يؤدى ، وملأت الأوراق وأتعبت نفسك فى اللجاجة والخصومة فيها فى الأندية والمجالس والمخاطبات ، وأما المنابر الدينية فقد صانها الله منك مدعيا بأن العمل بالسبب الدينى ليس بوسيلة وليس له من فائدة ، والله يعلم أن أغلالك هذه كلها فى هذا الشان . ومعلوم أن الكتب السماوية كلها وجميع الرسل انما كانت زبدة رسالتهم هى الحث على الأسباب الدينية والقرآن كله من أوله الى آخره قد علق الفلاح والصلاح والنجاح على الأسباب الدينية ، ولهذا تجد القرآن قد حصر المجد وجميع الخير فى التقوى والايمان والعمل الصالح ، وكذلك السنة ، وليس فيه من الحث على الأسباب المادية سوى شيء يسير جدا مجملا ، بخلاف الايمان والأعمال الصالحة فانه كرر الآيات فيها وفصلها وعظمها وبينها غاية البيان وعلق النجاح والسعادة الدائمة عليها (١) فما بالك عدلت الى ما عظمه الله تعالى وعلق الخير كله عليه فصادمته وحاربته وعاندته فجعلته ملهاة وشرا وتخديرا وجهلا وضلالا إلى غير ذلك من السب والشتم الذى لا يحصى وذهبت الى الأسباب المادية التى أشار اليها إشارة مجملة ومحذرا عن الاعتماد عليها فعاكست الله ورسله وأنبياءه وعباده المؤمنين أعظم معاكسة ، فأهلكت نفسك فى الحث على الاعتماد عليها حثا أخرجك الى حد الجنون ، هذا مع أنك تعلم أن الناس لا يحتاجون الى مثل هذا الحث على ما هم فيه من الدافع الطبيعى ، بخلاف الأعمال الدينية فانهم فى أعظم الحاجة الى ذلك فان الناس فى الأسباب المادية لم يقصروا فى الأخذ بها واستعمالها فقد جن بعضهم وقتل بعضهم وسجن بعضهم وضرب بعضهم وكفر بعضهم كله من أجل الأخذ بها والاعتماد عليها ، والقليل النادر فيهم الذى فى غاية الكسل عنها قد اتخذ له وسيلة مباحة فى

---

(١) وذلك لعلمه سبحانه بما سيكون ، فان حث الناس وتأكيد الأمر عليهم فى هذا أعظم من الأمور المادية ، لأن الشهوات والحاجات كافية فى سوقهم اليها كما هو الواقع

تحصيل ما يقوم بكفايته . ثم إنك تعلم أنه لو قدر أن أحدا منهم فرط فيها وتساهل فليس ذلك من أجل اشتغاله بالعبادة بل من أجل اتباع هواه وإصابته بوباء النفاق أو الالحاد لا من أجل الدين . ثم انك تعلم أيضا حقيقة العلم أن الأسباب الدينية قد أهملت وضيعت وتركت ورفضت إلا أقل القليل ، وهذه مواضع اللهو مملوءة كل وقت والمساجد فارغة إلا أقل الأوقات ، واذا قيست مواضع اللهو بمواضع العبادات بأنواعها ومقالات الالحاد والاستهتار بمقالات الدين وكتب الالحاد والكفر والشرك بكتب الدين ومجلات الكفر والنفاق والزندقة بمجلات الدين وأمثال ذلك لتبين الفرق الواضح الجلى بين الرغبة فى هذا والنفرة من الآخر ، فما بالك عمدت الى أنفس نفيس فى الدنيا متروك مهمل مزهود فيه وادعيت أن الناس منهمكون فيه وذهبت الى مضاده وهو التساهل فى الدين ونحوه من الأمور التى قد انهمكوا بها وهلكوا فيها فادعيت أنهم تركوه وقصروا فيه وأساءوا الظن به ، أليس هذا كله من قلب الحقائق ومن معاندة الله ودينه وعباده المؤمنين ، فالله يجازيك بعدله إنه سميع مجيب حيث صددت عن سبيله وسعيت حثيثا فى إضلال عباده

فصل

قال « وقد صار الناس فى هذه المسألة طائفتين : إحداهما أكبر من الأخرى ضلالا (١) ، طائفة تنكر الأسباب والأخذ بها جملة وتنكر أن يكون لها شيء من الأثر وتطعن فى دين من يأخذ بها ومن يراها شيئا ، وزعماء هذه الطائفة كثيرون ، منهم الغزالى فى كتاب منهاج العابدين » ثم ذكر كلاما له ولناس من غلاة الصوفية كما هو دأبه فى غزو الاسلام بكلام بعض الصوفية

---

(١) لو قدر أن فى هذا ضلال فأين ضلال من أنكر الأسباب المادية والاخذ بها من ضلال من أنكر الأسباب الدينية وادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها من فائدة

أما ما نسبه الى الغزالى [1] فليس بصحيح بل تقدم كلام شيخ الاسلام ونقله عنه بأن إنكار الأسباب عن أن تكون أسبابا قدح فى الشرع ، وكتبه كلهـا شاهدة فى الحث على الاسباب . أما غلاة الصوفية فقد بينا أنه أقرب لهم فى الشبه من المسلمين ، فان كثيرا منهم ملاحدة فعلوا ما فعلوه لأجل إضلال المسلمين بدعوى أنهم مسلمون ، وقد تقدم الكلام فى كتبهم وأن إجماع المسلمين منعقد على عدم الأخذ بظاهرها حتى عند الموافقين لهم ، لأنهم يقولون : لهم اصطلاح لا يفهمه إلا من دخل معهم فيما هم فيه من التصوف ، وكثير من أهل العلم يخرجون غلاتهم من الملة ، فكيف يحتج بأقوالهم ويجعلها سهاما يرمى بها الاسلام مع أنه يرى رد العلماء عليهم فى كتب أئمة المسلمين مما لا يعد ولا يحصى ككتب شيخ الاسلام وتلميذه ابن القيم ، ولكن مقصوده من هذا معروف وهو التوسل بكل ما أمكنه الى إشانة الاسلام والتنفير منه ليقول ان أهله على فساد من الرأى فيجب رفض كتبهم وعقائدهم وإبدا لهـا بآراء الملاحدة التى قررها فى أغلاله غلت بها عنقه ويداه وكان من الخاسرين

ثم ذكر الطائفة الاخرى فقال :

« وأما الطائفة الأخرى فانها لم تنكر الأسباب جملة ، ولكن جردتها من التأثير ، وزعمت أنها مظاهر صورية يؤديها الانسان ، لأن الله أمر بتأديتها ، ولأن الطبيعة البشرية تطمئن اليها لا لأنها تؤثر أو توصل »

فيقال : هذا كذب ظاهر على هذه الصورة التى ادعاها ، والتقسيم باطل من أصله ، فإن التقسيم الصحيح ما نذكره قريبا من أن الناس ثلاثة أقسام

ثم قال : « وقد ذكروا فى توجيه المسألة احتمالين كلاهما عندهم كفر »

---

(١) أى التساهل فى الأسباب

فيقال : وهذا أيضا بهت وفجور لا شك فيه مع أنه تفريع لا يلتئم مع ما قبله . ثم ذكر الاحتمالين فقال :

« أحدهما الزعم أن الأشياء توصل الى نتائجها بطبيعتها ، وأن الأسباب تؤدى الى مسبباتها بقوتها . وثانيهما الزعم أنها علل تترتب عليها المعلولات . وكلا الامرين عندهم كفر ، فمن اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها وأن الطعام والشراب يشبع ويروى كذلك وأن الكائنات الحية من طبيعتها النماء والحركة وأن العمل والطلب والذكاء والعلم يوصل الى النجاح ويعصم من الفشل والإملاق ، أو اعتقد أن الأشياء المذكورة علل لما يراد منها ويطلب بها فهو كافر زنديق مشرك بالله على ما زعموا »

والجواب أن يقال : ألا لعنة الله على الظالمين الذين يصدّون عن سبيل الله ويبغونها عوجا . وقد قدمنا أن هذا الملحد فيه شبه قوى من اليهود فى البهت والمكابرة والتحريف ومقت الفضائل وغمطها والتنفير منها ، ولم نعلم أحدا حارب المسلمين ودينهم بالزور والفجور والأكاذيب والبهتان مثل هذا الملحد ، فمن أعظم البهت وأفجر الفجور دعواه على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد أن السيف يقطع بطبعه وأن النار تحرق بطبعها أنه كافر زنديق مشرك بالله ، وكذلك ما ذكره فى الشبع بالطعام والرى بالشراب فان هذا من أفجر الفجور ، وقد نقل شيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم عن جماهير اهل السنة من المسلمين أنهم يرون هذا الرأى أى أن السيف يقطع بطبعه والنار تحرق بطبعها أى بالقوة التى خلقها الله فيها ، وكذلك الطعام والماء كل منها يشبع ويروى بالقوة التى جعلها الله فيه ، فكيف يدعى هذا الزنديق أن ذلك عندهم كفر وشرك وزندقة ، قاتله الله ما أرخص الكذب عنده ، وسيأتى كلام ابن تيمية وابن القيم قريبا فى هذا

ومن المعلوم أن الناس فى هذه المسألة على ثلاثة أقوال كما أشرنا الى هذا

فيما سبق : أحدها من يقول ان الأسباب تفعل بطبعها من غير أن يخلق الله فيها قوة على أن تفعل ذلك وانما هى بنفسها هكذا كانت وليس فى الامكان أن يغيرها الله بل هى مطبوعة طبعا مؤبدا بدون مشيئة من الله ولا إرادة وليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وهذا قول ملاحدة الدهرية وأمثالهم من الزنادقة ، فلا معجزة عندهم ولا آية ولا كرامة ، لأن ذلك عندهم تغيير فى طبيعة الأسباب ، وبنوا على هذا إنكار النبوات لأنها لم تثبت إلا بالمعجزة وليس فى الامكان وجود معجزة بهذا الوضع ، على أن منهم فرقا كثيرة يجوزون تغيير الطبيعة وانقطاع النتيجة عن وسيلتها لانهم رأوا هذا وعلموه بالاستقراء ، ولكن يسمون هذا فلتات الطبيعة فلا يعللون ذلك بشىء لا مشيئة ولا غيرها

والقول الثانى أن الأسباب لها قوة فى التأثير والفعل خلقها الله فيها ، فهى تفعل وتؤثر بالطبع والقوة التى خلقها الله وأودعها فيها ، فالسكين تقطع بنفسها والنار تحرق بطبع القوة التى خلقت فيها وكذلك الطعام يشبع بالقوة التى فيه والماء يروى كذلك ، وهذا قول جماهير أهل السنة من أصحاب الحديث وغيرهم وهو الذى حققه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما

قال شيخ الاسلام فى رسالته أقوم ما قيل [1] : ومن قال ان قدرة العبد وغيرها من الأسباب التى خلق الله تعالى بها المخلوقات ليست أسبابا أو أن وجودها كعدمها وليس هناك إلا مجرد اقتران عادى كاقتران الدليل بالمدلول فقد جحد مافى خلق الله وشرعه من الأسباب والحكم ولم يجعل فى العين قوة تمتاز بها عن الخد تبصر بها ولا فى القلب قوة يمتاز بها عن الرجل يعقل بها ولا فى النار قوة تمتاز عن التراب تحرق بها ، وهؤلاء ينكرون مافى الأجسام المطبوعة من الطبائع والغرائز ، قال بعض الفضلاء : تكلم قوم من الناس فى

(١) مجموعة رسائل ابن تيمية ص ١٥٦ طبعة المنار

إبطال الأسباب والقوى والطبائع فأضحكوا العقلاء على عقولهم ، ثم إن هؤلاء يقولون لا ينبغى للانسان أن يقول أنه شبع بالخبز وروى بالماء ، بل يقولون شبعت عنده ورويت عنده فالله يخلق الشبع والرى ونحو ذلك من الحوادث عند هذه المقترنات عادة لابها ، وهذا خلاف الكتاب والسنة ، انتهى . ثم ساق آيات استدل بها على كون الله يفعل بالأسباب وأن الأسباب فيها قوة مؤثرة بإرادة الله . ثم قال الشيخ : ونظر هؤلاء الذين أبطلوا الأسباب المشروعة فى أمر الله كالذين يظنون أن ما يحصل بالدعاء والأعمال الصالحة وغير ذلك من الخيرات إن كان مقدرا حصل بدون ذلك وان لم يكن مقدورا لم يحصل ، ثم رد هذا الرأى ، ثم ذكر أن الالتفات الى الاسباب شرك فى التوحيد ، ومحو الاسباب أن تكون أسبابا تغيير فى وجوه العقل ، والإعراض عن الأسباب بالكلية يقدح فى الشرع ، ونقله عن العلماء على نحو ما تقدم ، وكلامه رحمه الله فى هذه الأمور كثير مشهور

وقال الامام ابن القيم فى شفاء العليل صحيفة (٤) : وزعمت هذه الفرقة (يعنى بعض المغالين فى القدر من الجبرية ونحوهم من الجهمية) أنهم بذلك للسنة ناصرون وللقدر مثبتون ولأقوال أهل البدع مبطلون ، هذا وقد طووا بساط التكليف وطففوا فى الميزان غاية التطفيف وحملوا ذنوبهم على الاقدار وبرأوا أنفسهم فى الحقيقة من فعل الذنوب والاوزار ، وقالوا انها فى الحقيقة فعل الخلاق العليم ، واذا سمع المنزه لربه هذا قال سبحانك هذا بهتان عظيم ، فالشر ليس اليك والخير كله فى يديك . ولقد ظنت هذه الطائفة بالله أسوأ الظن ونسبته الى أقبح الظلم وقالوا ان أوامر الرب ونواهيه كتكليف العبد أن يرقى فى السموات وكتكليف الميت إحياء الاموات ، والله يعذب عباده أشد العذاب على فعل مالا يقدرون على تركه وعلى ترك مالا يقدرون على فعله ، بل يعاقبهم على نفس فعله الذى هو لهم غير مقدور وليس أحد ميسر له بل هو عليه مقهور ، وترى العارف منهم ينشد مترنما ومن ربه متشكيا ومتظلما :

ألقاه فى اليم مكتوفا وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء

وليس عند القوم فى نفس الامر سبب ولا غاية ولا حكمة ولا قوة فى الاجسام ولا طبيعة وغريزة ، فليس فى الماء قوة التبريد ولا فى النار قوة التسخين ولا فى الاغذية قوة الغذاء ولا فى الادوية قوة الدواء ولا فى العين قوة الإبصار ولا فى الاذن قوة السماع ولا فى الانف قوة الشم ولا فى الحيوان قوة فاعلة ولا جاذبة ولا ممسكة ولا دافعة والرب تعالى لم يفعل شيئا بشىء ولا شيئا لشىء ، فليس فى أفعاله باء تسبب ولا لام تعليل ، وما ورد من ذلك فحمول على باء المصاحبة ولام العاقبة ، وزادوا على ذلك أن الافعال لا تنقسم فى نفسها إلى حسن وقبيح ولا فرق فى نفس الامر بين الصدق والكذب والبر والفجور والعدل والظلم والسجود للرحمن والسجود للشيطان والاحسان الى الخلق والاساءة اليهم ومسبة الخالق والثناء عليه ، وانما نعلم الحسن من ذلك من القبيح بمجرد الامر والنهى ، ولذلك يجوز النهى عن كل ما أمر به والامر بكل ما نهى عنه ، ولو فعل ذلك لكان هذا قبيحا وهذا حسنا ، وزاد بعض محققيهم على هذا أن الاجسام كلها متماثلة فلا فرق فى الحقيقة بين جسم النار وجسم الماء ولا بين جسم الذهب وجسم الخشب ولا بين المسك والرجيع ، وإنما تفرق بصفاتها وأعراضها مع تماثلها فى الحد والحقيقة . وزادوا على ذلك بان قالوا الاعراض كلها لا تبقى زمانين ولا تستقر وقتين ، فاذا جمعت بين قولهم بعدم بقاء الاعراض وقولهم بتماثل الاجسام وبتساوى الافعال وأن العبد لا فعل له البتة وأنه لا سبب فى الوجود ولا قوة ولا غريزة ولا طبيعة ، وقولهم أن الرب تعالى ليس له فعل يقوم به وفعله غير مفعوله ، وقولهم انه ليس بمباين لخلقه [1]

---

(١) أى ليس فوق العرش ، فان الجهمية ينكرون أن يكون الله فوق العرش كما جاء فى النصوص

ولا داخل العالم ولا خارجه ولا متصلا به ولا منفصلا عنه ، وقولهم انه لا يتكلم ولا يكلم ولا قال ولا يقول ولا سمع أحد خطابه ولا يسمعه ولا يراه المؤمنون يوم القيمة جهرة بابصارهم من فوقهم أنتجت لك هذه الأصول عقلا يعارض السمع ويناقض الوحى ، وقد أوصاك الأشياخ عند التعارض بتقديم هذا المعقول على ما جاء به الرسول

فلو أنى بليت بهاشمى　　خئولته بنو عبد المدان
لهان على ما ألقى ولكن　　تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

انتهى

وقال ايضا [1] الحق الذى لا يجوز غيره هو أنه سبحانه يفعل بمشيئته وقدرته وإرادته ويفعل ما يفعله بأسباب وحكمة وغايات محمودة ، وقد أودع العالم من القوى والطبائع والغرائز والأسباب والمسببات مابه قام الخلق والأمر ، وهذا قول جمهور أهل الاسلام وأكثر طوائف النظار ، وهو قول الفقهاء قاطبة إلا من خلى الفقه ناحية وتكلم بأصول النفاة فعادى فقهه وأصول دينه . انتهى كلام ابن القيم ، وهو صريح فى أن هذا قول جماهير أهل الاسلام ، وقد تقدم كلامه أيضا فى هذا الموضع فى آخر البحث السادس فليراجع

والقول الثالث أن الأسباب لا تؤثر بنفسها ولا بالقوة التى أودعها الله فيها بل الفعل الحادث عند اقتران السبب بالمسبب فعل الله ، فالاحتراق فعل الله والنار علامة له ، وهكذا الأسباب . قالوا وقد جعل الله هذه الأمور علامة على هذه الافعال ودلالة عليها فلكل نتيجة وفعل علامة لئلا تشتبه طرق المفعولات والنتائج . وهذا القول فى الأصل قول الجهمية وقد سرى فى طائفة من طوائف الأشعرية من المتأخرين وهى من الأمور التى اخذها الأشعرية

---

(١) ص ٢٠٦

من الجهمية وهو قول مرجوح . قد عرفت كلام ابن القيم وابن تيمية فى رده كما رده غيرهما . ولكن ينبغى أن يعلم أنه ليس مذهب الأشعرية هو مذهب الجهمية بل بينهما فروق ، فان مذهب الأشعرية فيه كثير من مذاهب اهل السنة سوى أمور أخرى كهذه المسألة ومسائل تأويل بعض الصفات ، فان هذه مأخوذة من مذهب الجهمية والمعتزلة . ثم ان هذا القول فى مسألة الاسباب الذى يقوله الاشعرية ليس فيه حجة لهـذا المبطل بأنهم معترفون بسببية الاسباب وأن لها نتائج وإنما ينكرون التأثير فقط وإلا فهم يقولون بأن النار سبب للاحراق أى دليل وعلامة له فلا بد منها ، فهم يوجبون استعمال الاسباب ولا يعذرون أحدا بترك الاسباب الضرورية من أجل أنه لا فعل لها بل يجب استعمالها لانها علامة ، وليس فيهم من يقول إن الزرع يحصل بدون بذر أو سقى أو أرض ونحو ذلك ، بل يوجبون الاتيان بالاسباب ويقولون من استعملها على وجهها فقد استعمل السبب الذى به تحصل النتيجة مالم يكن هنالك مانع آخر ، ومن تركها لم يحصل له شيء ، فليس قولهم ملازما لتركها ، فمن نسب اليهم القول بترك الاخذ بالاسباب فقد بالغ فى البهت والمكابرة ، وأدنى كتاب من كتبهم شاهد على ذلك ، ومسألة الكلام فى تأثيرها وعدمه غير مسألة الاخذ بها ، وقد أورد الغزالى أنه ليس عند المخالفين له فى هذه المسألة دليل على كون النتيجة هى بسبب تأثير الوسائل بنفسها لا بفعل الله ، وادعى أنه ليس عندهم إلا كونهم يرون الفعل عند اقتران السبب بالمسبب فقط ، والفعل شيء خفى فمن أين لهم أنه من فعل السبب لا من خلق الفعل عنده ومجرد الاقتران لا يوجب التعليل ، ثم أورد مسألة جذب المغناطيس للحديد فانه شيء غير مدرك بالعقل وأطال فى ذلك . وهذا الملحد وأمثاله عاجزون عن معارضته ، غاية ما عنده الاستهزاء والبهت والتحريف بدون حجة . هذه هى عوامله وسلاحه الذى يحارب به المسلمين

فقد تبين لك من هذا أن الناس على ثلاثة أقوال ، وأن المسلمين هـلى

قولين ، فالاكثرون قائلون بان الاسباب مربوطة بمسبباتها والعلل بمعلولاتها وأن الله قد أودع فيها طبيعة وقوة على التأثير ، وأن هذا قول أهل السنة .
والقول الثانى من يجعلها أسبابا لكن ينفى تأثيرها بقوتها ويجعل التأثير بفعل الله عندها لا بها وأن هذا قول أكثر الأشاعرة [1] فكيف يدعى هذا الزنديق على المسلمين بأنهم يرون أن من اعتقد ما ذكره من تأثير الأسباب فى مسبباتها والعلل بمعلولها بقوة فيها يكون كافرا زنديقا مشركا بالله ، فهل فى الدنيا أعظم من هذا البهت والفجور فى هذا الادعاء على المسلمين . والمصيبة أنه عمم المسلمين بهذه الدعوى حيث قال فى أول الدعوى « أساء المسلمون الظن بالاسباب الخ » .
ومن شنيع خبثه وتلبيسه ادخاله الذكاء والعلم والطلب مع مسألة السيف والنار والطعام والشراب بنتائجها ، وكل عاقل يفرق بين تلازم هـذه الأشياء ، فان الذكاء والطلب أعراض وأسباب قاصرة لا تكون لازمة للنجاح كملازمة النار للاحراق والطعام للشبع والشراب للرى ، فان هـذه قوى قوية المفعول فى نتائجها بخلاف الذكاء والطلب فلا بد من انضمام أسباب أخرى وموانع كثيرة ، وكل أحد يعرف تفاوت هذه الأمور فى النتائج ، بل هو نفسه ادعى فى أبياته المتقدمة أن الذكاء والعقل سبب للحرمان وأن الجهل سبب للسيادة وأن العقل ضرب من الفقر ، وهذا تصريح منه بان هذه الأسباب لا تستلزم نتائجها ولا عجب فهكذا كان دأبه فى التناقض والاضطراب والقلق والحيرة والعياذ بالله

ثم انه زاد الطين بلة فقال :

« وقد نظموا هذا شعرا واستظهروه وأمروا باستظهاره فقالوا فى احدى المنظومات الاعتقادية التى تحفظ وتدرس :

---

(١) والسبكى وكثير من الأشاعرة يرون أنها مؤثرة بنفسها كما ذكره فى شرح الخريدة

ومن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملة

والمسألة اجماعية على هذه العقيدة النظمية ، انتهى

قلت : فلينظر المنصف الى هذا الفجور والتحريف الخبيث فى الاستشهاد على ما ادعاه ، والمنظومة إنما تضمنت ثلاثة أقوال أشار اليها الناظم بقوله - أى فى القصيدة المسماة بالخريدة :

والفعل فى التأثير ليس إلا   للواحد القهار جل وعلا
ومن يقل بالطبع أو بالعلة   فذاك كفر عند أهل الملة
ومن يقل بالقوة المودعة   فذاك بدعىّ فلا تلتفت

فصاحب هذه المنظومة وهو أحمد الدردير بين الفرق بين القول بالطبع والقول بالقوة المودعة ، وهذا الملحد خلطها جميعا وجعل الجميع كفرا وزندقة وشركا ، والفرق بين القولين ظاهر ، فانه لما ذكر أن التاثير منفرد به الله أردفه بمضاده وهو قول الدهرية القائلين بأن مستند حركات الكون نواميس الطبيعة وأن الاشياء تفعل بطبعها لا أن الله خلق فيها طبيعة وقوة على الفعل وهى تحت مشيئته وقدرته بل هى نفسها لم تزل كذلك فهى علل للمعلولات لذاتها وطبيعة نتائجها لذاتها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهاياتها ، وهم ينكرون الربوبية ، ومنهم من يقول بقدم العالم وأنها لم تزل كذلك ليس لله قدرة على تغييرها ، وهذا كفر صريح لا شك فيه بين المسلمين ، وهو الذى يذهب اليه هذا الملحد ، وأما القول الثانى فهو قول اهل السنة من يجعل فيها قوة على الفعل خلقها الله فيها ، فالنار تحرق بقوتها المودعة فيها وكذلك السيف يقطع بقوته المودعة فيه وكذلك الطعام والشراب كل منهما يؤدى وظيفته بالقوة المودعة فيه وكل هذه القوى والخصائص تحت المشيئة العليا وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وهكذا جميع الوسائل مع نتائجها ، وهذا هو الذى نصره شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأكابر أهل السنة وأصحاب

الحديث ، والقول الثالث وهو الذى أشار اليه الناظم واختاره لأنه من بعض الأشاعرة المنكرين القوى المؤثرة فى الطبائع ولهـــذا قال فيمن خالف رأيه « فذاك بدعى فـلا تلتفت » ولم يقل انه كافـر مشرك زنديق كما يقول هـذا الكاذب ، وهذا الناظم بنى هذا القول على اعتقاده لان معه شيئا من أصول الجهمية كرأيه فى تأويل الصفات الخبرية ونفى المباينة وانكار الحرف والصوت فى كلام الله ، وهذه الأمور ليست مذهبا للاشعرى بل هو قد صرح فى كتبه كلها كالإبانة وغيرها بخـــلاف ما ذكره فى هذه المنظومة المسماة بالخريدة ، وكـذلك هو مصرح بخلاف ما قاله صاحب الجوهرة والسنوسى وأمثال هؤلاء المتأخرين فى مثل هذه الامور ، فانه صرح فى كـتبه بالاستواء عـلى العرش والمباينة وأنـكر على من زعم أن استوى بمعنى استولى ورد عليهم وأقر بجميع النصوص الواردة على ظاهرها ، وكذلك كثير من أصحابه من أئمة الاشاعرة والشافعية ، فمن طالع عقيدة الامام الصابونى وابن خزيمة والجوينى والد امـام الحرمين[1] وغيرهم علم ان هذه العقائد المتأخرة فيهـا أشياء مخالفة لهم خـلافا ظاهرا ، وهذا الجوينى الملقب امام الحرمين أثبت التأثير فى فعل العبد كما نقله عنه ابن القيم فى شفاء العليل . وليس غرضنا شرح هذه الأمور وإنما الغرض بيان أن ما نقله محتجـا به فيه من البهت والتحريف مالا يخفى على عاقل

وقال شيخ الاسلام ابن تيمية قدس الله روحـــه فى فتوى له فى النجوم والـكواكب[2] « وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده وسخرهـا لهم كما قال تعالى ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ ، ﴿ نسخر لكم الليل والنهار ﴾ وقال تعـالى ﴿ والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ﴾ وقال تعالى ﴿ وسخر لكم مافى السموات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ ومن منافعهـا

---

(١) له رسالة جليلة مطبوعة ضمن المجموعة المنيرية

(٢) المجلد الاول ص ٢٢٤ من مجموعة فتاويه طبعة الـكردى

الظاهرة ما يجعله سبحانه بالشمس من الحر والبرد والليل والنهار وإنضاج الثمار وخلق الحيوان والنبات والمعادن ، وكذا ما يجعله بها من الترطيب والتيبيس وغير ذلك من الامور المشهورة ، كما جعل فى النهار الاشراق والاحراق وفى الماء التطهير والسقى وأمثال ذلك من نعمه التى يذكرها فى كتابه كما قال تعالى ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناسى كثيرا ﴾ وقال تعالى ﴿ وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى اذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ﴾ وكما قال ﴿ وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ﴾ فمن قال من أهل الكلام إن الله يفعل هذه الأمور عندها لا بها فعبارته مخالفة لكتاب الله تعالى والأمور المشهورة كمن زعم أنها مستقلة بالفعل هو شرك مخالف للعقل والدين » انتهى

وقال أيضا رحمه الله فى كتابه (منهاج السنة) فى الرد على الرافضى ص ٢٦٥ ج ١ : « الوجه الثانى أن يقال نقله (يعنى الرافضى) عن الأكثر أن العبد لا تأثير له فى الكفر والمعاصى نقل باطل ، بل جمهور أهل السنة المثبتة للقدر من جميع الطوائف يقولون ان العبد فاعل حقيقة وان له قدرة حقيقة وهم لا ينكرون تأثير الاسباب الطبيعية بل يقرون بما دل عليه العقل من أن الله تعالى يخلق السحاب بالرياح وينزل الماء بالسحاب وينبت النبات بالماء ولا يقولون ان قوى الطبائع الموجودة فى المخلوقات لا تأثير لها بل يقرون أن لها تأثيرا لفظا ومعنى ، حتى جاء لفظ الأثر فى مثل قوله تعالى ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ وان كان التأثير هناك أعم منه فى الآية لكن يقولون هذا التأثير هو تأثير الأسباب فى مسبباتها والله خالق السبب والمسبب ومع أنه خالق السبب فلا بد له من سبب آخر يشاركه ولا بد له من معارض يمانعه فلا يتم أثره إلا مع خلق الله له لا به بأن يخلق الله تعالى السبب الآخر ويزيل الموانع » انتهى . فهذا كلام شيخ الاسلام - كما ترى - صريح فى أن جماهير الناس من أهل السنة على إثبات

تأثير العبد فى فعله ، وأن الأسباب مؤثرة بقوتها فى مسبباتها ، فكيف يدعى هذا الكاذب على المسلمين بأن من ادعى ذلك فهو كافر مشرك زنديق[1] ولكنه تبع هذا الرافضى الذى ادعى كدعواه فى التشنيع على أهل السنة بأنهم ينكرون تأثير فعل العبد بغضا ومقتا للمخالفين له فى رفضه وعداوته للصحابة ، كما أن هذا فعله خبثا وعداوة للمضادين له فى زندقته وإلحاده وعداوته للأديان

وأما قوله تعالى ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فقال فى شرح الطحاوية ص ٣٦٧ : فهو دليل عليهم (أى على الجبرية) لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميا بقوله ﴿ اذ رميت ﴾ فعلم أن المثبت غير المنفى ، وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء فابتداؤه الحذف وانتهاؤه الإصابة وكل منهما يسمى رميا ، فالمعنى حينئذ والله أعلم : وما اصبت اذ حذفت ولكن الله أصاب[2] ، وإلا فطرد قولهم وما صليت اذ صليت ولكن الله صلى وما صمت اذ صمت وما زنيت اذ زنيت وما سرقت اذ سرقت ، وفساد هذا ظاهر . انتهى

وقد تقدم الكلام فى الأسباب ونتائجها والربط بينها فى مواضع كثيرة جدا بما يغنى عن إعادته ويأتى له بقية

فصل

ثم استدل بقصة ذى القرنين على أن الأسباب هى التى تمكن الانسان من

---

(١) أى فيما سبق فى بحث القدر

(٢) أى لأن الاصابة التى وقعت كانت معجزة فان حفنة التراب التى رمى بها عليه السلام المشركين حتى دخلت أعينهم وانهزموا ليس فى استطاعته فعل ذلك ولكن الذى فى استطاعته الرمى فقط ، فأثبت له الرمى الذى هو الحذف ، ونفى عنه أثره العظيم الذى ليس فى استطاعته ، فالمثبت غير المنفى ، وإلا فلو لزم هذا للزم ما ذكره الشارح

كل شيء لقوله تعالى ﴿ انا مكنا له فى الارض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ فاستدل بهذه الآية وبالقصة ، وهى حجة عليه ، فان الله تعالى أسند تمكينه فى الأرض اليه تعالى لا الى أسبابه ، وأسند ما استحصل عليه من الأسباب الى إعطائه ذلك فضلا منه بمشيئته وقدرته ، لانه قال جل وعلا ﴿ إنا مكنا له فى الأرض ﴾ ولم يقل إنه تمكن بما آتيناه من الأسباب ، أو ان الأسباب مكنته ، أو انه مكن بالأسباب ، بل قال ﴿ انا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ﴾ فأخبر أنه مكنه وأنه آتاه ، لئلا يظن زنديق أن التمكين بنتيجة الأسباب وحدها . ثم انه ذكر أنه آتاه من كل شيء سببا ، وإعطاء الأسباب لايقتضى استحصال النتائج حتما كما فى قصة بلعام ، بل لا بد من حصول الرحمة والمشيئة وإلا فقد يعطى الانسان أسبابا ليستحصل بها الخير فيستعملها فى ضده بل يستعملها فى المعاصى فتكون وبالا عليه [1] بل قد يستعملها فى شيء يضره وهو يراه رأى العين ويقر بأنه ضر كتعاطى المسكرات ونحوها . فالقصة حجة عليه ، مع أننا لا ننكر تأثير الأسباب ولا الأخذ بها لكن ننكر أن تكون هى الفاعلة لذاتها بدون أن يغيرها الله وأن يكون له قدرة عليها أو أن تكون خارجة عن مشيئته وإرادته . فنحن إنما ننازع فى هذه الدعوى العريضة

ثم استدل بقوله تعالى ﴿ وتقطعت بهم الأسباب ﴾ وهذا أيضا من عكس

---

(١) ينعم الله على كثير من الخلق بالمال والجاه ليتقوى به على طاعته فيستعمله فى المعاصى ، ويعطى آخر ذكاء وفصاحة وبلاغة لينفع بهما ويدعو الى الله والى دينه فيستعملها فى عكس ذلك فى تقرير الالحاد والزندقة والحط على الدين وأهله ، ويعطى الانسان قوة فى بدنه فيستعملها فى المعاصى . وكذلك يقال فى حسن الصورة وسائر الأسباب الحسنة التى خلقها الله فى الانسان وللانسان ليسعد بها نفسه فيجعلها سببا لشقائه ، وذلك برهان على أن وجود السبب ليس كافيا فى حصول المطلوب بل لا بد من المشيئة فى ذلك

الاستدلال ، لان هذه الآية من أبلغ الحجج عليه ، فانه تعالى أخبر عن حال هؤلاء أنهم كانوا متعلقين بالأسباب متوجهين اليها فتقطعت بهم وخانتهم أحوج ما كانوا اليها ، فلو أنهم علقوا آمالهم به تعالى وأخذوا بالأسباب كما أمروا لاستمسكوا بالعرى الوثيقة كما قال تعالى ﴿ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور﴾ ولكنهم احتقروا هذه العرى وذهبوا يلتمسون غيرها ظانين أن فيها الكفاية فتقطعت بهم وسقطوا فى الهاوية السحيقة فانقطعت آمالهم وتقطعت قلوبهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، ولو أن الأسباب لا تتغير وأن نتائجها لازمة لها لزوما ذاتيا ليس لله قدرة على تغييرها لم تتقطع بهم بل تبقى على ما هى عليه مما ظنوه واعتمدوا عليه ، فالآية حجة عليه كما هو ظاهر

فصل

ثم قال « وما جاء عن الله ولا عن رسوله حرف واحد فى ذم الأسباب أو ذم الآخذ بها » [1] فيقال بل كل الذى جاء عن الله وعن رسوله من أوله الى آخره فى ذمها وذم الآخذ بها على المعنى الذى تريده وتدعو اليه ، فانك لم تقتنع بالأخذ بها واعتقاد أن الله يصرفها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، بل جعلت هذا هو السفه والفوضى ، وإنما تدعو الى الأخذ بها والاعتماد عليها [2] والكفر بمشيئة الله بأن يتصرف فيها فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب . ومعلوم أن هذا وأمثاله مما قررته هو الوثنية المحضة والزندقة التى لا شك فيها ، وحينئذ فان الله تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله ليعبد

---

(١) قد عرفت مرارا أننا لم نذمها ولم يذمها أحد من المسلمين على الوجه الصحيح ، وانما الذم فيما يدعو اليه من الاشراك بها

(٢) كما صرح به فى المبحث الماضى وغيره

وحده لا شريك له وأن يتوكل عليه ويعتمد عليه ويركن اليه ويوثق به وأن يتوجه اليه فى كل مهمة ومقصد ، فلا يدعى إلا هو ولا يتوكل إلا عليه ولا يلجأ إلا إليه ولا تنزل الفاقات إلا به . ومعلوم أن هـذا يضاد دعايتك إلى الأسباب ، فانك قررت أن الاعتماد على الأسباب والرجوع اليها والتوجه اليها هو أصل كل سيادة والخروج من كل بلاء ، وهذا هو اعتقاد المشركين كما مر تقريره ، فان الشرك كله ليس إلا الرجوع الى الأسباب المخلوقة ، والالحاد كله والنفاق كله والزندقة كلها كذلك ليس إلا الاعتماد على الأسباب المادية وتعليق الآمال عليها وطلب الحاجات المختصة بالله منها ، إما قولا وإما فعلا باعتقاد أن فيها الكفاية إما بواسطتها بسر غيبي أو بذاتها ظاهرا وقد أمرنا الله تعالى أن نقول كل وقت فى صلاتنا ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾ والاعتماد على الأسباب يناقض هذا أعظم المناقضة ، ولهذا قال بعض العلماء ان الله جمع معانى دعوة القرآن فى الفاتحة وجمع ذلك فى آية اياك نعبد واياك نستعين [1] فالعبادة تتضمن غاية الحب مع غاية الذل والتعظيم والاجلال ، والاستعانة تتضمن الدعاء والطلب والافتقار واستنزال الرحمة والنصر والتأييد والفيض الربانى الذى هو مصدر القوة كلها ، ومن تأمل القرآن كله علم أنه يدور على هذا الأصل فى طلب التوجه إلى الله والانابة اليه وطلب الرزق والنصر وكل شيء من عنده ، بل الأسباب التى جعلها طريقا الى ذلك قال تعالى ﴿ وان من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم ﴾ فخزائن السموات والأرض بما فيها من الأسباب عنده لا تطلب إلا منه ، فمن أعرض عن

---

(١) قال ابن تيمية رضى الله عنه فى المنهاج ص ٩٨ مجلد ٢ : روى الحسن البصرى رحمه الله أن الله أنزل مائة كتاب وأربعة كتب جمع سرها فى الأربعة ، وجمع سر الأربعة فى القرآن ، وجمع سر القرآن فى الفاتحة ، وجمع سر الفاتحة فى هاتين الكلمتين ﴿ اياك نعبد واياك نستعين ﴾

صاحب الخزائن وذهب الى الخزائن بدون أمره فهو إما سارق تقطع يده ، أو لص قاطع طريق فله حكمه أو محارب فكذلك له حكمه مع حرمانه ما أراد فلا يستحصل الا نقيض قصده ، وقال تعالى ﴿ فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه ﴾ ، فقرن العبادة بابتغاء الرزق لأنها مفتاح خزائنه وطرق تحصيلها ، فمن اعتدى على الخزائن مع علم صاحبها به فلا بد أن يعاقب ، والله سبحانه بين الطريق التى توصل الى خزائنه ورحمته وخيراته كلها أوضح بيان ، فطلب من العباد أن يدعوه ويطلبوا منه وأن يعبدوه ويسيروا على نظامه فيأخذوا بما شرعه من الأسباب الدينية والمادية ، ووعدهم إذا فعلوا ذلك أن ييسر لهم الطريق ويهيء لهم من الأسباب ويدفع عنهم من الموانع والمعارضات ما لا يقدرون هم على دفعه فينجح لهم العمل ويعينهم عليه . وأعظم الناس غلوا فى الأسباب واعتمادا عليها دون الله هم أكفر الناس ، ولهذا كان فرعون ونمرود أعظم الناس غلوا فى الاعتماد على الأسباب والايمان بها وأنها فاعلة بطبعها ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، وهم أزهد الناس وأحقرهم للأسباب الدينية فان فرعون رأى آية العصا واليد وغيرهما واحتقرها واعتمد على القوة الطبيعية وحارب القوة الدينية فقال ﴿ ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون ، وإنا لجميع حاذرون ﴾ وهذه أقوى الأسباب الحربية المادية ، فان الكثرة مع الغيظ والحذر مع الاتيان صفا كما فى الآية الأخرى — هى القوة الحربية ، ولم يعبأ بالأسباب الدينية كورثته الذين اتبعوه فى هذه الفكرة كما أشرنا الى هذا فيما تقدم ، وكذلك نمرود لم يعبأ برسالة الخليل عليه الصلاة والسلام بل قصد أقوى سبب مادى فى الضرر والربط بالنتيجة فأوقد النار لأنه معتقد أن النار مطبوعة على الاحراق طبعا مؤيدا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها وتتحكم فى نهايتها ولا أشد من ملازمة النار للاحراق ، فلهذا اعتمد على هذا السبب ، وذهب يقذف خليل الله فيها ،

فكان الدعاء وحسبي الله كافيا فى قلبها الى ضدها وتحويلها بردا وسلاما ، لأن ذلك الدعاء وذلك التوجه الذى هو أكبر سبب فى الوجود استعمل على أكمل الوجوه لما فيه من الاخلاص والصدق الكامل فبطل المسبب عن سببه والوسيلة عن نتيجتها . وهكذا كانت عقيدة كل أعداء الرسل الذين قاتلوهم وقاتلوا أتباعهم انما قاتلوهم معتقدين أن الأسباب فيها كفاية لذاتها ، وأن الأمور الدينية لا تقف فى سبيلها أبدا ، ومن المعلوم أيضا أن كلمة التوحيد . لا اله إلا الله، هى أصل الاسلام ولا شك عندالمسلمين أن معناها لا معبود بحق إلا الله ، والمعبود هو المألوه الذى يتوجه اليه ويعتمد عليه فى سد الحاجات والرغبات ويلجأ اليه عند الضرورات ، فمن اعتمد على الاسباب ودعا الى الاعتماد عليها وتعلق بها فقد ناقض معناها مناقضة صريحة . وكذلك شهادة أن محمدا رسول الله تستدعى التصديق التام والمتابعة المحققة ، فمن شهد أنه رسول الله فيجب عليه العمل بمقتضى شهادته ، إذ كونه رسولا يوجب التصديق الذى لا يدخله أدنى ريب فى كل ما جاء به وتحكيم سننه وكل ما جاء به فى كل أمر ووجبت المتابعة الخالصة بدون أدنى تردد ، إذ هو رسول الله فيجب أن يتبع ، فمن كذبه أو ارتاب فيما جاء به واستكبر عن اتباعه أو رأى أن غيره أهدى منه سبيلا من كل مشروع شرعه فهو لم يحقق هذه الشهادة بل ناقضها . ومعلوم أن من تعلق على الاسباب المادية واعتمد عليها ولم يلتفت الى الاسباب الدينية التى وضعها الله ورسوله وضعا كاملا وأخبر أن النجاح متوقف على من اتبعه فيها ، فمن خالفه فى ذلك فقد ناقض شهادته وصار منافقا ، فان المنافقين الذين قالوا نشهد أنك لرسول الله انما أكذب الله شهادتهم هذه لانهم لم يعتقدوا مقتضاها من التصديق والاخلاص فى المتابعة ، وهكذا يقال فى أصول الدين وأركانه كالصلاة والزكاة والصيام والحج كلها مظاهر واعتقادات تحقق معنى الشهادة وتحقق معنى المتابعة ، فانها ترجع الى كمال محبة الله تعالى وتعظيمه والاعتماد عليه والذل والخضوع له وإنزال الحاجات والفاقة به واستنزال الرحمة والاعانة

والتوفيق والسعادة منه ، فالاعتماد على الاسباب والتوجه اليها يصادم ذلك أعظم المصادمة وينافضه أعظم المناقضة ، وهذا الملحد العنيد لما كان يعلم أن هـــذه الاصول الدينية تناقض روح دعايته فى الاعتماد على الاسباب صرف همته الى الطعن فيها ، بل كل أغلاله فى الطعن فى صميمها ولا سيما مظاهرهـا العظيمة كالدعاء والخطب أيام الجمع على المنابر ومواضع العبادات كالمساجد ، فانه جعل ذلك شرا وملهاة وتعويقا الى آخر كلامه ، وقد قال تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذين خاضوا أولئـــك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيهـا خالدون ﴾ فأخبر سبحانه أن الامم الماضية كان لديها من الاسباب والقوة شيء كثير فان الاموال والاولاد هى الاسباب المادية كلها فانهـا ترجع الى هذين الشيئين فلما استمتعوا بخلاقهم ولم يعتمدوا على الله بل اعتمدوا على هذه الاسباب التى هى الاموال والاولاد حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة . وتأمل قوله ﴿ فى الدنيا ﴾ تجـد أن العقوبات وحبوط الاعمـال تتأتى فى الدنيا كما تتأتى فى الآخرة وانه ليس ذلك خاصا بالآخرة كما أن إثابة الطاعات تجيء فى الدنيا أيضا كما تجيء فى الآخرة ، وهـذا يناقض فكرة كثير من الزنادقة الذين يدعون أن الجـزاء فى الطاعات والمعاصى مختص بالآخرة كما ادعاه هذا الملحد[1] فى مواضع كثيرة

وقال تعالى ﴿ ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعـا وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا يستهزئون ﴾ فأخبر تعالى ان هـذه الأسبـاب التى لها المحل الأعلى عند جميع الأمم وهى الأسماع والأبصار والأفئـدة ، فان

---

(١) أى فى نبذته (كيف ذل المسلمون)

هذه هى التى تناط بها السياسة ونحوها ـ لم تغن عن أهلها شيئا ، بل حاق بهم ما كانوا به يستهزئون ، لأنهم احتقروا الأسباب الدينية واستهزأوا بها ورأوها أوهاما ، وأنه ليس فيها كبير أمر ، وأنه لا يوثق بها كما يدعى جميع الزنادقة إلى اليوم ، سنة متبوعة وطريقة معمودة أتواصوا بها بل هم قوم طاغون أخذوها خلفا عن سلف ، وبذلك تجد كثيرا من هـذه البشرية ولا سيما الطبقات المترفة المتطرفة محتقرين الأخلاق الدينية زاهدين فيها ، بل قد زادت المصيبة حتى جعلوا التقوى والصلاح من سيماء البله والجهـلاء ، وادعوا أن الصلاح والتقوى ينافيان السياسة وسبب هذا الفجور أنهم تصوروا شيئا زريا ضعيفا فظنوا أنه هو التقوى والصلاح ، ثم استرسلوا مع هـذا الظن فسموا هذا الحق تقوى وصلاحا ، ثم رتبوا على ذلك هذه النتائج التى تصوروها هم ولم يفهموا معنى التقوى والصلاح بالمعنى الصحيح الذى هو القوة فى الأخـذ بالأخلاق الدينية والصدق والاخلاص فى هذا المبدأ وما يلزمـه من الأمور الدنيوية التى سار عليه النبي ﷺ وأصحابه فى الجد والاجتهاد والدهاء ومعرفة أحوال الزمان وأهله وما يلائمه وأمثال ذلك . والآيات فى هذا المعنى كثيرة جدا ، وقد أخبر تعالى عن ابن نوح أنه لجأ الى السبب المـادى من دون الله معتمدا عليه وقت حاجته فقال ﴿ سآوى الى جبل يعصمنى من المـاء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهمـا الموج فكان من المغرقين ﴾ فما نفعه هذا السبب القوى الذى لجأ اليه ، وقد أخـبره نوح عليه السلام أنه لا عاصم من أمر الله إلا من رحم ، فأنكر عليه أبوه التجاءه الى هذا السبب المادى فى تلك الساعة فانه اذا جاء أمر الله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، ولا يرد أمر الله ولا غيره ، وهو عليه السلام ركب السفينة اقتداء بأمر الله ، واستعمل الدعاء فقال بسم الله مجراها ومرساها ، لأن السبب المادى لا يكفى بدون السبب الدينى ، وقال تعالى ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴾ وقال تعالى ﴿ فما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فلم يجدوالهم من دون الله

أنصاراً﴾ الى أمثال ذلك وهذا كله شامل لجميع الأسباب ، فدعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم هى ضد الاعتماد على كل شيء دون الله عز وجل من جميع الأسباب ، وحصر الاعتماد على الله سبحانه وتعالى فانه هو الذى يتصرف فى الأسباب كيف شاء

ثم قال بعد العبارة السابقة « بل كان التاريخ الاسلامى قبل أن ترتديه هؤلاء قائماً على الاعتراف بطبائع الأشياء ، ولم ينكر طبيعة من طبائعها »

فيقال : لكنك خالفت التاريخ الاسلامى كله ، فانك تجاوزت حد الاعتراف الى الاعتماد على الطبيعة ونواميسها ، فدعوت الى ذلك ، وليس النزاع فى ثبوت الطبائع إنما النزاع فى الدعوة الى الاعتماد عليها ، وأن الله لا يغير فيها ولا يتصرف فيها ، ثم إنك مطالب باثبات ما تدعيه فى هذا التاريخ وكونه على النحو الذى تدعو اليه وقد بينا أقوال أئمة الاسلام فى ذلك وان ذلك على خلاف ما تدعيه وتدعو اليه .

فصل

قال « ومن أعظم ما جعلهم يسيئون الظن بالأسباب شيئان أحدهما أنهم حسبوا أن الايمان بقدرة الله المطلقة فى تصرفها وعملها ينافى الايمان بالأسباب وحسبوا أنهم اذا آمنوا بالسبب (١) فقد قيدوا الله به وألزموه بأن لا يخرج عنه وأن لا يعمل بدونه ، والله عندهم (٢) غير مقيد فى فعل من أفعاله ، بل هو يفعل ما يشاء بلا قيد ولا سبب ولا إلزام (٣) . وثانيهما أنهم وجدوا

---

(١) قد علمت مما مر أنه لا يكتفى بالايمان بالسبب ، بل لا بد من الاعتماد عليه ، فكان من الواجب عليه أن يقول اذا آمنوا بالسبب واعتمدوا عليه

(٢) يلاحظ قوله « عندهم » هنا

(٣) يلاحظ هنا قوله « بلا قيد ولا إلزام » فعنده أنه مقيد وملزم ، وأما السبب فقد بينا أنه تعالى يفعل بالأ[illegible] وليس الفعل بالأسباب كالقيد والالزام فان القيد و[illegible]لزام نو[illegible] [illegible] أما فعل بالاسباب فهو كمال لانه يوجب أن تكون المخلوقات [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] اسبابها

المسببات كثيرا ما تتخلف عن أسبابها ، ووجدوا أن الانسان قد يؤدى السبب على الوجه الأوفى الأكمل فيما يبدو ، ثم لا يصل به ذلك الى غرض منشود ، كما وجدوا أن العكس أيضا صحيح ، أى وجدوا أن المرء قد ينال حاجته وغرضه بدون سبب[1] هذان أمران هما أعظم ما صار بالقوم الى هذا المصير فى حكمهم على الأسباب وفى تراخيهم عند الأخذ بها وفى شكهم فيها ، ذلك الحكم والتراخى والشك الذى جعلهم عاجزين عن الاتيان بها صحيحة سليمة وافية موصلة الى مسبباتها . . . ومن أخذ بالسبب شاكا فيه متراخيا فى أخذه فلن ينفعه النفع المطلوب الحاسم [2] لأنه لن يتقنه ، ولن يثابر ويصابر عليه ولن يبدع فيه ، بل لا بد من الايمان به مع الاصرار على هذا الايمان وإلا فلا نجاح ، ولا بد من الاتقان والمثابرة والمصابرة على العمل ، وإلا فلا أمل فى فوز حقيق ، ولا بد من تقليب الرأى على كل وجوهه بحثا عما يمكن أن يكون قد دق من خفى الأسباب وضروب الوسائل »

فيقال : كل هذا الذى ذكرته هنا من الاعتذار عن بلوغ المسببات مع استعمال أسبابها مع ما ادعيته من المثابرة والمصابرة والاجتهاد والاصرار كله قد تقدم معناه مرارا وأجبنا عليه بما تقدم ، فانه معارض بمثله فى مسألة الأسباب الدينية التى حاربها فادعى أنها ليست بوسيلة وليس لها نتائج سوى الشر والتعويق والملهاة ، فاذا كان معترفا هنا بان المسببات تتخلف عن نتائجها لموانع وعوارض ولتخلف بعض الشروط فكيف يغلو فيها هذا الغلو الذى تجاوز به الى حد الجنون والكفر ولم يكن هذا التخلف مانعا له عن هذا

---

(١) هذا كذب ظاهر

(٢) يعارض بمثل هذا القول فى الأسباب الدينية كالدعاء وإجابته سواء بسواء ، فلم عادى هذا وعبد هذا

الاطراء والمغالاة الزائدة والاعتماد عليها والاهتمام بها ، وأما دعاء الله والثناء عليه والصلوات فى المساجد والايمان والتقوى ونحو ذلك من الأسباب الدينية التى عاش فى أثرها الخلق فذهب فيها الى عكس ذهابه فى الأسباب المادية فحاربها وعاندها وعاكسها أشد المعاكسة والعناد والحرب حتى نفى سببيتها أصلا فلم يجعلها وسيلة ولم يجعل لها فائدة بل حكم عليها بأنواع الضرر والخبث مع علمه بأن الأسباب الدينية لو كانت تستعمل ويجتهد فيها كما يجتهد فى الأسباب المادية لما كاد أن يتخلف شىء من نتائجها ألبته بل هى تستعمل غالبا إما ضعيفة وإما معكوسة أو مقلوبة أو ملوثة بما يفسدها ويضعفها ، بل كثير منها يستعمل مقرونا بما يضاده ويبطله كالأحزاب التى يخلط فيها ذكر الله ودعاؤه بدعاء غيره من الأموات والغائبين من الانبياء والصالحين والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات أو لكشف الضر وهذا كفر واضح

فما أجاب عنه هنا على تخلف الأسباب المادية فهو جوابنا عليه فى تخلف بعض نتائج الأسباب الدينية كالاجابة فى الدعاء أحيانا . ومعلوم أن كل سبب فى الوجود لا يمكن بحال من الأحوال أن تحصل نتيجته إلا على حسب كماله وكمال شروطه وانتفاء موانعه واستعماله على الوجه الصحيح المطلوب منه كما أوضحنا هذا فيما سبق ، سواء كان ذلك السبب ماديا أو كان دينيا فالمغالاة فى هذا وحصر الخير فيه والمعاداة لنظيره من هذه الجهة ومحاربته والتنفير منه هوس ظاهر وجنون واضح . ثم إن ما ادعاه هنا تخرص وتمحل ليس عليه أثارة من علم ولا نظر صحيح ، فهو دعوى مجردة عن أدنى دليل يصحبها ، وأكثره باطل وكذب . وأما نحن فى دعوانا فى الأسباب الدينية فقد دلت النصوص الصريحة والاستقراء التام أن للايمان والعمل الصالح والتمسك بالشريعة المطهرة أكبر الأثر فى حصول المطالب العالية ، وأن من استعمل الأسباب المادية وهو على هذه الأخلاق فلا بد أن ينصر ويؤيد وتكون له العاقبة الحميدة كما تقدمت الشواهد على ذلك كقوله تعالى ﴿ فمن آمن وأصلح

فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ ، ﴿ فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ﴾ ولم تتقدم أمة من الأمم قط إلا على أخلاق صحيحة سامية أساسها العدل والاحسان اللذان هما من ثمرات الدين والايمان ، ولم تتأخر إلا بعكس ذلك كالهمجية والوحشية التى هى من نتائج النفاق والالحاد . ثم ان حاصل كلامه أن أسباب فشل الأسباب أحيانا هو كون أهلها لم يعملوا عمل من يحزم بالنجاح ويبذلوا الغاية فى الاجتهاد والاصرار ، وإلا فلو فعلوا ذلك لنجحوا . ومعلوم أن هذا اعتذار ساقط ، فانه يقال له هم أعرف منك بأعمالهم وبالأسباب التى باشروها وحرصوا عليها وتخلفت نتائجهـــا فقد بذلوا دماءهم وأموالهم وفعلوا كل ممكن كما أقروا بذلك وكتبوه وسجلوه وهو أمر معروف بالحس والعيان فلا يقبل الجدال حتى جعلوا ذلك من مسائل القدر وكثير من هؤلاء الذين فشلت نتائجهم من أحرص الناس واذكاهم وأدقهم فطنة فى معرفة الاسباب ، ومع ذلك فقد سبقهم من هو دونهم ، ممن استعمل أسبابا دون أسبابهم وعمل عمـلا دون أعمالهم ، وكل هؤلاء معترفون بأنهم لم يستعملوا الاسباب الدينيـة كمـــا يستعملون الاسباب المادية فى الاجتهـاد والصدق والاخلاص ، فكلهم إلا من شاء الله يعلم أنه مقصر فى ما أمر به من الطاعات ولهذا كانوا يعترفون بالذنوب أكثر مما يعترفون بالتقصير فى استعمال الاسباب المادية ، وكم من انسان معه من الاسباب الكثيرة التى تؤهله للتجارة والامارة والسيادة والمناصب الكبرى وقد بذل جهده للوصول الى ذلك فلم يصل الى شىء ممـا وصل اليه من هو دونه بكثير ممن لم يستعمل غير بعض أسبابه التى عملهـا للوصول الى ذلك ، وهذا المعارض قد اعترف بذلك فى أبيـاته السابقة حتى ادعى أن العقل ضرب من الفقر ، بل ادعى أن الذكاء والعلم مما يوجب التأخر وأن الجهل سبب للسيادة فى الدنيا ويكفى أن يقال له أنت ادعيت لنفسك بانك المستحق للتقديم فى كل أمر[1] وقد بذلت أعظم الجهـد للوصول الى وظيفـة

(١) كما تقدم كلامه

واحدة أو منصب رسمى فما حصل لك من ذلك شىء ، فما سر هذا وما سببه .
ودعواه أن الاصرار على بلوغ الغاية سبب فى بلوغها ليس بصحيح فان كثيرا من الدول المغلوبة أصرت غاية الاصرار ولم يفدها ذلك شيئا وكثير من الناس يصر على بلوغ مراده حتى يكاد أن يموت ولا يحصل على طائل . ثم انك لم تجب على العكس الذى ذكرته من أن بعض الناس ينال حاجته من غير سبب أو بسبب ضعيف ، فما هو السبب فى تركك ذلك وهو يبطل كلامك فى عكسه

ثم قال « وليس من ريب فى أن كثيرين يسقطون دون أغراضهم لانهم لا يجربون كل الاسباب والوسائل ، بل انهم اذا فشلوا عند تجربة أول سبب تجربة أولى ألقوا سلاحهم ولم ينهضوا لمقاومة ولا لهجوم ولصقوا بالتراب والذل والمسكنة حاسبين أنه لم يبق لهم مكان فى هذا الوجود وذهبوا يبكون أقدارهم وحظوظهم ويلعنون أيامهم وأقوامهم ، ولا شك أن نجاحهم كان مضمونا ومحققا لو أنهم أعادوا الكرة وأصروا على الوصول الى الغاية »

فيقال : ينبغى أن تبعث ضمانك هذا الى هذه الدول والحكومات المهزومة ، فانك ضمنت الضمان المحقق أنهم لو أعادوا الكرة وأصروا على الوصول الى الغاية لوصلوا . وهذا الرجل يكتب ما خطر على باله ولو كان فى غاية البطلان فليست إعادة الكرة والاصرار بدون حساب ورأى صحيح إلا مجازفة قد تؤدى الى الهلاك والدمار ، فاعادة الكرة ليس بالأمر الهين الميسور على كل من رامه ، ولو كان الأمر كما قال لبادر كل من هزم الى ذلك بدون توقف

ثم قال « ولا ريب أن من أخطأ الهدف فى الرمية الأولى سيصيبه اذا كرر الرميات وعاودها مرات ، ومن المعلوم أن بلوغ قصب السبق لا يكون فى الوثبة أو الخطوة الأولى ، إنما يكون فى تكرير الخطوات والوثبات ، وفى معاودة شد الاعصاب والعضلات »

فيقال : هذا المثل غير مطابق ، فان إصابة الهدف إنما تحصل إذا كان الساعد

سليما والسلاح صحيحا والهدف فى مكانه يمكن إصابته . أما من انكسر ساعده وسلاحه وبعد هدفه فلا يقدر أن يرمى فضلا عن أن يكرر الرميات فضلا عن أن يصيب . وكذلك لو انكسر سلاحه فقط لا يمكنه تكرار الرمى فضلا عن الإصابة . وكذلك لو كان السلاح معيبا عيبا يمنع الرمى فلا بد من جبر الساعد وتصليح السلاح وتحقيق الهدف ، وقد يعجز الانسان عن الجبر وعن تصليح السلاح لكثرة التعثر والموانع والعوارض ، ثم العدو ليس هو كالهدف واقف لكل من يريد رميه كل وقت ، بل العدو اذا رميته مرة وأخطأته فقد يرميك فيصيبك فالطريقة أن تعرف الموازنة بين سلاحك وسلاحه وتتثبت فى رميتك الأولى فى القضاء عليه قضاء حاسما ، ولا شك أن من هزم هزيمة شنيعة منكرة أنه يكسر سلاحه بل وساعده فيحتاج الى معالجة طويلة لاعادة ما فقده ، فالقوة الاولى يجب أن تكون موزونة محققة .

وكذلك ما ذكره من السبق فغير مطابق ، فان قصة السبق لا تبرح مكانها ولا تنقلب على من لم يصل اليها ، والعدو ليس كذلك ، فانه اذا استولى على أثر هزيمة شنيعة فقد يضع أغلالا وقيودا تمنع من المشى الى الهدف كما تمنع من شد الأعصاب والعضلات ، فيحتاج الى السلامة من هذا كله ، ولكن الذى قد ينفع ويدفع هو أن ينظر من أصيب بالهزيمة فيعرف من أين جاءت ، وما أسبابها ، وما هى الأسباب التى قضت عليه ، وكيف كانت الهزيمة ، وكيف استولى العدو عليه ، فيحسب الحساب ويوازن بين الأسباب ويعالج مرضه بالعلاج الناجح الذى يستطيعه حتى يعرف كيف يمكن أن ترجح كفته اذا هم بالوثوب مرة أخرى . ومعلوم أن أقوى قوة فى الوجود هى القوة العليا الجبارة القهارة فيستمد منها قوته وليصنع من نظامها قوة عظيمة ويعلم أن الله قد وضع بين يديه أسبابا لا تعد ولا تحصى ، وفتح له الباب يدعوه ليستعين به ويعتمد عليه ، فيجب عليه أن يأخذ بهذه القوى الدينية والمادية بثبات وتفكير وبصيرة نافذة ، ويدعو من وضع هذا له ويعلم أنه هو ومن يحاربه تحت قدرته

تعالى ومشيئته ، وأنه محق وأن عـدوه مبطل ، وأن الله أمره بالدفاع والقتال بالمعنى الشرعى ، وأنه إنما أمره وأعطاه هذه الأسباب ومكنه منهـــا لينصره ويؤيده ، فان فاته النصر حصل على السعادة ، فلا بد له من إحـدى الحسنيين بكل حال ، فاذا أجمع أمره فليتوكل على خالقه وليعتمد عليه والله مع المتقين والعـاقبة للمتقين والله ولى المتقين . أما اذا رجعت المسألة الى تنـافس وبغى وعناد وحقد ومحاماة عصبية قومية محضة ونحو ذلك فتلك أمور أخرى قل أن يظهر لهـا نتيجة صالحة فاكبر ما تكون عقوبة على أهلهـا (ولا ظالم الا سيبلى بظالم)

فصل

ثم أجاب عن الأمر الأول ، وهو الايمان بقدرته تعـالى عـــلى حسب ما ذكره سابقا فقال « أما الايمان بقدرة الله المطلقة من القيود والحـدود فانه يقتضى الايمـان بالسبب لا الـكفر به ، لأن الايمـان بالسبب هو فى الواقـع إيمـان بمسببه وصاحبه ، والـكفر به كفر به »

فيقال : ما شاء الله يابلهام هذا الوقت ما أدق فطنتك ، من أين وجدت أن الايمان بقدرة الله ومشيئته هو الايمان بأنه مقيد بأن لا يخرج عمـا طبعت عليه الأسباب فلا يتصرف فيها بمشيئته وقدرته فلا يدبرهـا فيجعلها إن شاء أسبابا وإن شاء غير أسباب ، فان ذلك هو السفه والفوضى التى لا ضابط لهـا . من أين وجدت أن الايمان بالأسباب بأنها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو لتتحكم فى نهاياتها ، أن ذلك هو الايمان بقدرة الله ، فاذا كان الايمان بقدرة الله هو الايمان بعجز الله عن تغيير الأسباب والتصرف فيها عندك فتبا لك وسحقا كأنك تخاطب بهذا الهذيان أنعاما لا رجالا عقلاء ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجدت أن الايمان بالأسباب المادية ايمان بمسببهـا والـكفر بها كفر به ، فعلى هذا فجميع المسلمين كفار لأنهم لم يؤمنوا بها . هذا

الايمان الذى تدعيه ، فقد قلت فيما سبق أساء المسلمون الظن بالأسباب إلخ ، وقد ذكرت أنهم لم يؤمنوا بالأسباب ، والملاحدة آمنوا بهـــا فهم المسلمون اذن [1] . وقد قال تعالى ﴿ سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ فكل من آمن بالأسباب ـ وكل مـا فى هـذا الوجود هو من أسباب الله كما يقول ـ فهو ممن آمن بالله ورسله فهو فى الجنة ، فالملاحدة والطبائعيون وكل من آمن بالطبائع فهم المؤمنون بالله ورسله ، وأما المسلمون الذين أساءوا الظن بالأسباب وأكثروا من القول بتقليل قيمتهـا كما يقول فهم لم يؤمنوا بالله ورسله بل أساءوا الظن بالله لأن الايمان بالسبب هو فى الواقع إيمان بالله وإساءة الظن بالسبب إساءة ظـن بالله . يا الدر الذى فى لجج البحر ، يا الشمس التى فى غير برجهـا ، يا عالم الشرق الأوسط ، من آمن بالأسباب فهو فى الواقع مؤمن بالله ، فما هو الفرق بين الايمان بالله والايمـان بالسبب ، فمن قال آمنت بالله فقد آمن بالسبب ومن قال آمنت بالسبب فقـد آمن بالله . إنه لمن الغريب جدا أن تتكلم فى الاتحادية الصوفية وأن تسفـــه آراءهم وقد اضطررت الى مثل هذا القول الذى هو فى الاتحاد أظهر ممـا قالوه بكثير ، بل أكثرهم يحتشم ويستحى من أن يقول مثل هذا القول .

الله أكبر يا بلعام هذا الوقت ، من آمن بأن الـكلب يصيد الأرنب بطبيعته وأن الذئب يأكل النعجة بطبيعته فهو مؤمن بالله مؤمن بقدرته ، ومن كفر بذلك فقد كفر بالله ، ومن شك فى ذلك فقد شك فى قدرة الله ، ومن أساء الظن بذلك فقد أساء الظن به ، ومن آمن بأن الذكاء سبب فى الحصول على النجاح والعصمة من الفشل فهو مؤمن بالله تعالى مؤمن بقدرته ومن شك فى ذلك فقد شك فيه وفى قدرته ومن كفر بذلك فقد كفر بالله وهكذا عندك جميع الأسباب المادية ، أما من آمن بأن الدعاء سبب للاجابة وأن ذكر الله على المنابر والثناء عليـه سبب فى

(١) وقد ذكر فيما سبق أن الشعوب الأخرى إنما تقدمت لأنها آمنت بالأسباب.

تنزول الرحمة والنصر والتأييد فهو الضال الجامد الرجعى الجاهل الذى فعل الشر والخبث والظلام والدمار ، فسحقا لك ما أكثر مخازيك وفضائحك ، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون

ثم قال « والشاكون فى أسباب الله ـ وكل ما فى هذه الدنيا هو من أسباب الله ـ هم فى الحقيقة شاكون فى الله وفى عمله ، فان هذا الشك معناه الشك فى قدرته تعالى على أن يجعلها موصلة مبلغة »

فيقال : ﴿ وما نريهم من آية إلا هى أكبر من أختها ﴾ هكذا تكون آيات الحقائق الأزلية الأبدية وإلا فلا حاجة اليها . هذه حلقة مفرغة من حلق هذه السلسلة الخاطئة : فى بيان الايمان بقدرة الله أنه الايمان بالأسباب . والمصيبة أنه جعل كل ما فى الوجود من أسباب الله التى يجب الايمان بها على هذا النحو ، فمن آمن بأن القمل يتولد فى جسم الانسان بسبب الوسخ ونحوه فقد آمن بالله وقدرته ، وهكذا جميع الأسباب والمسببات ، فمن آمن بها فقد آمن بالله تعالى ، وكذلك من آمن بهذه الحشرات المتنوعة وطبائعها وكذا غيرها فقد آمن بالله فان هذه كلها فى هذا الوجود ـ ولو أن الدجوى قال شيئا من هذا القول لقامت قيامة هذا الملحد عليه ، فأما عالم الشرق الأوسط ونابغة القرن الرابع عشر وبحر العلوم الذى لا ساحل له فانه قرر أن الايمان بالله هو الايمان بالأسباب وكل مافى هذا الوجود هو من أسباب الله فالنبى ﷺ حين قال فى تلقيح النخل ما أظن ذلك يغنى شيئا فتركوه لذلك لم يؤمن هو وأصحابه بالله تعالى بزعمه بل هم شاكون مرتابون فيه تعالى وفى قدرته ، فانهم لم يعتقدوا بأن هذا السبب مربوط بسببه ربطا لا يمكن انفكاكه أبدا ، وان ذلك مستحيل وكذلك كل من شك فى أن الماء يروى بطبعه والطعام يشبع بطبعه وأن الكلاب تصيد الصيد بطبعها وأن الحمير تنهق بطبعها وأن الضب يستغنى عن شرب الماء بالهواء بطبعه وأن العلم والذكاء يوصل الى النجاح بالطبع كل من

شك فى هذا فقد شك فى الله وفى قدرته ولم يؤمن بالله ، لأن الايمان بالاسباب ـ وكل مافى هذا الوجود من الأسباب ـ هو فى الواقع ايمـان بالله ، هكذا يكون نور الشمس التى فى غير برجها ، وهكذا يكون لمعـان الدر الذى فى لجج البحر ، وهذا القول أشنع وأبشع مما يعتقده المشركون فى الأصنام والأوثان مدعين أن عبادتها عبادة لله ومدعين انها اسباب للنجاح إما بالوساطة وإمـا بالذات ، فهم بكل حال مؤمنون بأنها أسباب ، فمنهم من يجعلها واسطة ومنهم من يعتقد فيها بنفسها الكفاية ، وهـذا الملحد نفسه قد ادعى أن أوربا قد وحدت صناعتها وأبت الاشراك بهـا ، فمن التجأ الى الصناعة أو الزراعة أو التجارة أو غيرها معتمدا عليهـا بأن فيها الكفاية فقد آمن بالله وقدرته على كلام هذا الملحد ، والكفار المشركون على عظم كفرهم لم يصلوا الى هـذا الحد فيدعوا أن الايمان بالأسباب هو الايمان بالله ، بل هم يؤمنون بالله تارة وبأسبابهم تارة ويشركون بها ويفرقون بين الاعتماد عليه تعالى والاعتماد على أسبابهم ، فاذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين ولم يدعوا أن إيمانهم بالأسباب هو عـين إيمـانهم بالله لأنهم لم يصلوا فى الزندقة والنفاق والكفر والالحاد إلى الحد الذى وصل اليه هـذا الزنديق الذى حاول قلب شرائع الله والطعن فى صميمها . وهذا الملحد قد فقد كل مناعة من عقل ودين وحياء فتكلم بكل ما خطر على باله ، ولو أنه سلم من هذا الجواب لكان أستر له ، ولـكنه أراد قلب الحقيقة فانقلب على وجهه وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين . ثم انه قد تناقض فقد مر أنه كفر بالأسباب الدينية وادعى أنهـا شر مـا يؤدى ، أما الايمـان بامتثال أوامره الشرعية وكون ذلك سببا فى دخول الجنة فليس ذلك هو الايمان بأسباب مخلوقة بل ذلك هو تصديق الله فيما وعد به أولياءه والاعتماد عليه فى ذلك ، لأنه سبحانه وعد من آمن وعمل صالحـا بالفوز والنجاة كما قال تعالى ﴿ يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والذين كفروا

وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وقال تعالى ﴿ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم﴾ فهـذا ايمان به وبأسبابه الدينية والتصديق به حيث أمر بذلك وليس فى النصوص حرف واحد يوجب القول بأن من آمن بالأسباب كلها التى فى هـذا الوجود يكون مؤمنـا بالله ومن شك فيها فقد شك فى الله وكفر به . وقد تقدم حـديث تأبير النخل وهو كاف فى بطلان دعواه . ثم اننا لا نجزم على معين بأن عمله سبب فى دخول الجنة حتما وأن هذا السبب متحقق مسببه ما لم يكن فى ذلك نص خاص ، فالايمان والتقوى والعمل الصالح هى من الأسباب لدخول الجنة ، لـكن الشهادة بكون هذا السبب المعين لا بد من وقوع مسببه لا يمكن ، فقـد يكون هنالك موانع وعوارض توجب عدم حصول النتيجة ، بل قد يصحب العمل الصالح إعجاب وكبر وزهو فيبطله ويقع ضده كما فعل بلعام وغيره من المرتدين ، فامتثالنـا أوامر الله هو أخذ بالأسباب الدينية التى تقع مسبباتها بحسب سنة الله فى خلقه ، ولـكن حصول المسببـات لا يتحقق فى أسبـاب معينة مجهول ما يصحبهـا ويعارضها من الموانع ، ونحن انما نؤمن بوقوع مسببات هذه الأسباب وانها حقة لأن النصوص دلت على ذلك دلالة صريحة ، بخلاف الأسباب المادية فان أكثرها عرف بالعقل وفيها كثير قد دل العقل على تخلف مسبباتها عن أسبابها بل قد تنقلب الى ضدها فتكون واقعة على وجهة أخرى غير الوجهة المقصودة ، وليس الايمان بالأسباب الدينية كالايمان بالأسبـاب الدنيوية ، فان من آمن بالأسباب الدينية حـكم بايمانه وكان هـذا عاصمـا له فى الدنيـا ولم يسأل عن الأسباب المادية ، بخلاف مالو آمن بالاسباب المادية فانه لن يدخل فى الاسلام حتى يؤمن بالاسباب الدينية ، فالفرق بينهما واضح جلى ، ومن جمع بينهما وجعل أحدهما عين الآخر فهو فى غاية الضلال والـكفر

ثم قال « والتقيد بالـكمال والخير والحـكمة والعدل ليس قيـدا إلا فى لغـة هؤلاء » فيقال أولا : لا نسلم أن ما ذكرته كمال وخير وحكمة وعـدل ، وقد

عرفنا مرادك بالعدل والحكمة وأنه التسوية بين المسيء والمحسن والمفسد والمصلح ومعلوم أن هذا ليس من العدل والحكمة فى شىء بل هو عكس ذلك

ونقول ثانيا : ليس لأحد أن يقيد قدرة الله تعالى بتحكمه وهواه ، بل هو سبحانه قد أخبر صريحا بأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، وأنه تعالى يعز من يشاء ويذل من يشاء وبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، وانه يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه كل يوم هو فى شأن ، وأنه يدبر الأمر ، وأنه لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . وكل ذى مسكة من عقل يعلم أن ما ذكرته فى كل هذا الخداع لا حكمة ولا عدل ولا خير فيه ، بل هو عين الخبث والشر والفوضى والظلم العظيم ، وكيف يكون العدل والحكمة فى دعواك أن العالم محكوم بنواميس الطبيعة وأن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس بعلمه وملكته وأمثال هذه الترهات الفاحشة ، فمن اعتقد أن أمور العالم كلها تجرى بمقتضى استخدام الانسان لنواميس الطبيعة فقد سلب الله تصرفه ومشيئته وإرادته ، بل اعتقد الفوضى والسفه الذى لا ريب فيه

ودعواه أنه ليس هذا قيدا إلا فى لغة هؤلاء ، ولو كان قيدا لكان مدحا فيقال : وليس النقص والفوضى والعجز كما لا إلا فى لغتك ، لأن ذلك لا يتأتى إلا على اعتقادك فى زندقتك وإلحادك .

ثم قال « أما تخلف الأسباب عن المسببات فهذا لا يكون أبدا »

فيقال : هذا تحكم باطل ورجم بالغيب وتكذيب بما لم تحط به علما . فنفيك له يحتاج الى برهان ، ويكفى فى تكذيبه ثبوت المعجزات ، فان انقطاع الاحتراق من النار تخلف مسبب عن سببه الكامل ، وكذلك غير هذه المعجزة مما لا يعد ولا يحصى ، وتأكيدك النفى بالتأبيد فجور واضح بل جماهير الملاحدة مقرون بأن المسببات تتخلف عن أسبابها ويسمون ذلك فلتات الطبيعة ، فقد تبين رد باطلك بما اعترف به سادتك من التخلف كما أشار إلى

ذلك السيد محمد رشيد رضا فى الوحى المحمدى وغيره [1] بل العامة تعرف ذلك معرفة ترتفع عن الجدال ، ولهذا يحتجون بالقضاء والقدر ويذكرون الحظ الذى تجده فى فم كل إنسان فكيف تنكر شيئا لم تعلمه ، ومعلوم أن عدم العلم ليس علما بالعدم بالاتفاق

فصل

قال « ولا يفلت من هذا القانون أمر من الأمور حتى الموت نفسه فانه إنما يقع حيث تجتمع الأسباب وهى إما الأمراض وإما عجز الخلايا بسبب الشيخوخة ، وإما عجز القلب عن تنظيم نبضه وحركته لآفة فيه أو لأمر داهم مفاجىء »

فيقال : هذا كلام لا حاصل له سوى أن الموت إنما يقع اذا وقعت أسبابه ، وهو من جنس كلامك الماضى فى البذر أنه يخرج إذا اجتمعت أسبابه ، وكأنك تظن أن خصومك يدعون ان الموت لا يقع بالأسباب ، فان كان هذا ظنك ـ وما هو على غباوتك ببعيد ـ فنحن نخبرك بأنهم يقولون انه يقع بأسبابه ، وقد بينا غير مرة أن الله تعالى يفعل بالأسباب ويوجد

---

(١) قد ذكر الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى كتاب (الشواهد) كلاما كثيرا لعلماء الطبيعة المشهورين فى اعترافهم بتخلف الأسباب عن المسببات وأن هذا أمر معروف عند علماء المادة فنقل عن جيمز الانجليزى مؤلف كتاب (النجوم فى مسالكها) وكتاب (الكون الغامض) وهو دكتور فى الآداب ودكتور فى العلوم وعضو المجمع العلمى البريطانى وقطب من أقطاب العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية فنقل الشيخ عنه كلاما طويلا فى الشواهد من ص ٢٦ الى ٣٥ فى إثبات تخلف المسببات عن أسبابها وأن النتيجة ليست حتمية ، وأثبت القضاء والقدر ، ونقل عن غيره كلاما كثيرا فليراجع .

بعض الأسباب ببعض ويصرف الأسباب بعضها ببعض وان الله يرزق بالأسباب ويحيي بالأسباب ويميت بأسباب ويفقر بأسباب ويعز بأسبابه ويذل بأسباب ويؤتى الملك من يشاء بأسباب وينزع الملك ممن يشاء بأسباب قال تعالى ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾ وقال تعالى ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ وكونه يفعل بالأسباب أعظم فى القدرة لأن هذا يقضى أن الأسباب كلها فى قبضته وطوع مشيئته وإرادته وأنها كلها مقهورة بالمشيئة العليا لا يمكن أن تفلت من حكمها ، وهذا القول لو قيل لمن لا يرى أنه يفعل بأسباب فربما كان له وجه ، واذا كان مرادك أن الاسباب نفسها هى علة الموت عاد الكلام فى مسألة نواميس الطبيعة وقد تقدم الكلام فيه مرارا وبينا أن الطبيعة ونواميسها وقواها كلها تجرى بارادته تعالى ومشيئته ، واذا كنت تريد أن ذلك الفعل هو فيها لذاتها ليس بالمشيئة والارادة ـ وهذا هو مرادك ـ فهذا الحاد صريح فلا حاجة الى الخداع وكثرة التناقض والاسهاب والاطناب ، فصرح به مجاهرة ودع الخداع والمنافقة جانبا لتعرف عاقبته . ثم يقال لك ما أسباب المرض وما أسباب أسبابه وما أسباب عجز الخلايا فى وقت دون وقت وما سبب عجز القلب عن تنظيم نبضه وما سبب الأمر الداهم المفاجىء فهل أحد يحيط بذلك ويمكنه ازالة هذه العلل وجعل البدن مستقيما على الحالة التى بها يعيش ويحيى حياة صالحة ، أليس ذلك كله راجعا الى أمور غيبية ليس للبشر قدرة على الاحاطة بها وإدراك الغاية فيها ، ثم إن الموت قد يحدث فجأة [1] وقد يحدث من مرض ضعيف جدا كما أنه قد لا يقع فى وجود المرض المخوف فما أسباب هذا التفاوت . ثم انه قد علم أن الأسبابه التى يموت بها البشر لا يعدها ولا يحصيها الا الله تعالى ، وهذا واضح جلى فى

---

(١) قد مات كثير من الناس وهو جاحد وفيهم من مات وهو فى حالة صحية جدا فيأتيه الموت فجأة

عجز الانسان عن ضبط الاسباب فكيف بالقدرة على استخدامها كلها فى كل ما شاء وأراد

ثم قال « أما الآيات التى تنص على آجال الأفراد والامم وأنهم لا يستأخرون عنها ساعة واحدة ولا يتقدمونها ، فهى كذلك أيضا ، لأن حلول الأجل معناه اجتماع الاسباب واجتماع الاسباب معناه حلول الاجل »

فيقال : نعم هذا معناه فى لغة أغلالك لأنك تريد أن تجعل لك لغة مفردة فيها ، لانك المقدم فى الأمر ، ففى أى لغة من لغات بنى آدم وجدت أن معنى الأجل هو اجتماع الأسباب ، وهذه قواميس لغة العرب لا تعد ولا تحصى ، وهى تكذب هذه الدعوى ، وقد قال تعالى ﴿ ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب ﴾ فهل يقول عاقل : ولولا اجتماع الاسباب لجاءهم العذاب . وقال تعالى ﴿ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ﴾ فهل يقول عاقل إن معنى هذا الأجل هو اجتماع الأسباب ، وهل فى لغة العرب أن هذا معنى الأجل ، وفى حديث ابن مسعود المتفق على صحته « فيكتب رزقه وأجله وشقى أم سعيد » ويقول المسلمون : اذا جاء الأجل المسمى ويذكرونه فيعينون الوقت والزمان المحدود ، ويقول العلماء يصح بيع السلم الى أجل مسمى ، فالأجل فى جميع اللغة هو الوقت المحدود المعلوم ليس هو اجتماع الأسباب وهذا الوقت قد تجتمع فيه الأسباب وقد لا تجتمع فانه الوقت الذى تكون فيه مفارقة الروح للجسد ، وقال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ فاخبر تعالى أنه لا يمكن لنفس أن تموت الا باذنه فى وقت مؤجل قد كتبه الله وحقيقة كلام هذا الملحد يقتضى ألا يكون معنى الآية فاذا جاء موتهم لا يستأخرون ساعة عن موتهم ولا يستقدمونها ، وهذا باطل ، وانما يصح المعنى اذا كان الأجل هو الوقت المحدود فانه يصح حينئذ أن يكون المعنى اذا جاء وقت موتهم أو هلاكهم لا يستأخرون عن هذا الوقت المحدود ساعة ولا يستقدمون ، ويدل على هذا أنه ذكر الساعة ، ومعلوم أنها الوقت

المحدود . ثم اجتماع الأسباب يختلف اختلافا لا يحصى ، فقد تجتمع أسبابه ويتأخر الميت ساعات وأكثر من ذلك ، واذا قيل المراد الأسباب المقتضية للموت قيل هذا يوجب أن يكون الأجل اسما لأسباب دون أسباب ، وهذا كثير لا ينضبط ولا يسمى اجلا مطلقا فى جميع اللغة كما تقدم

وقوله « فمن صدمته سيارة فقد حل أجله »

يقال : وهذا لا ينفعك شيئا ، فاننا نقول قد تصدمه ولا يموت كما يقع كثيرا ، لانه حينئذ لم يكن قد حل الوقت الذى هو أجله . ثم إنه إذا كان موته بصدمة سيارة فانها لا يمكن أن تصدمه قبل الوقت الذى هو أجله فلا يستقدم الأجل بصدمة سيارة يموت فيها ولا يستأخر ، فليس نفس الموت بالصدمة هو الأجل ، بل هو الوقت الذى تكون فيه الصدمة فلا تصدمه إلا حين حلول الأجل الذى هو الوقت بمشيئته تعالى

ثم ذكر أن بعض النـاس يعتقد أن بعض الأمم تسقط بدون أسبـاب ، وأن أممـا أخرى قد تنهض بدون أسباب ، وذكر أن بعض الناس يقول إن بعض الأمم تشيخ كما يشيخ الافراد وأطال من هذا الهذيان ، وقد تقدم الجواب عن مثل هذا

ثم قال « وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة الباطلة ـ وهي فكرة إنكار الأسباب أو التهوين من شأنهـا أو الاعتقاد بأن الله يفعل بدونهـا أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينها وبين نهاياتها [1] . وابن خلدون نفسه لم يستطع أن يخلص من هذه الأغاليط التقليدية حينما نهض لبحث هذه المسائل ودراستها ،

---

(١) هـذا صريح ظاهر فى غاية الوضوح والجلاء بانه يدعى أن الله لا يحول بين الأسباب ومسبباتها ولا بينهـا وبين نهاياتها ، وهو كفر صريح واضح ، لانه انكار لتصرف الله فى ملكه كما أنه تكذيب بالمعجزات وإبطال للشرائع ، فاى فعل لله اذا كان لا يتصرف فى الأسباب بقطع أو وصل أو غيره

فيقال : أما إنكار الاسباب والتهوين من شأنها فقد بينا أن هذا كذب ظاهر . وأما اعتقاد أن الله يتصرف فيها بالقطع والوصل ويحول بينها وبين نهاياتها فهذا هو اعتقاد المسلمين بل وأهل الملل كلهم ، ممن يقر بالخالق تعالى كما تقدم إيضاحه ، فهذا الملحد صرح فى هـــذا بأنه تعالى لا يحول بين الاسباب ومسبباتها ونهاياتها أبدا وهذا تصريح ظاهر فى إنكار كونه يتصرف فيها بقطع أو وصل ، وأنت اذا تأملت قوله هذا ونظرت الى قوله فى المشكلة التى لم تحل « والانسان لن يكون سببيا إلا إذا آمن بأن هذا الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو تتحكم فى نهاياتها » علمت أنه يريد أنه ليس لله أن يقف فى سبيلها ويتحكم فى نهاياتها ، وهذا صريح فى ان النجاح لا يمكن إلا لمن كفر بتصرف الله فى ملكه وكفر بكونه يحول بين الاسباب والمسببات وبين الوسائل والنتائج ، فما دام الانسان لم يكفر بمشيئة الله بالقطع والوصل فانه لن ينجح لانه لن يكون سببيا ، وأى كفر فى الدنيا أظهر من هذا فقبحه الله ما أخبث كلامه وقبح ما جادل عنه . وهذا كما أنه كفر صريح يقتضى إبطال النبوات وإبطال الكتب السماوية بل إبطال الاديان كلها ، فهو كلام ساقط ، فان أكثر الملاحدة أنفسهم يخالفون فى هذا ، فانهم معترفون بوجود انقطاع المسببات عن الاسباب كثيرا ويسمون ذلك فلتات الطبيعة ، وفساد هذا القول فى الشرع والعقل والضرورة أمر واضح ، ومن يخفى عليه فساد هـذا فهو مصاب فى دينه وعقله ، ولهذا أنكر هذا الملحد على ابن خلدون هذه الفكرة وادعى أنهـا من الاغاليط ، مع أنه عجز عن إثباتها ، فلو طولب هذا الملحد ببيان سبب واحد لم يختلف ولن يختلف لن يجد ذلك أبدا ، وابن خلدون أعقل من أن ينكر تصرف الله فى ملكه ، بل تكلم فى الاسباب وأثبت المشيئة ، وهو ممن يثبت الاسباب لكن لا يتجاوز الى حد الاشراك بها وأنه يجب الاعتماد عليها ، وأنه

الله لا سيطرة له عليها ، فان هذا قول الدهرية والزنادقة المقلدين لهم على غير بصيرة

ثم قال « ويحسب بعض الناس ـ وقد تورعنا عن أن نقول كلهم [1] ـ أن أمثال قول الله ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ يدل على ضعف أمر الأسباب ، وعلى أن الأخذ بالحيطة والتحصن من أسباب الموت لا يفيد شيئا ولا يرد آتيا ، لأن الله قد حكم بأن الناس كلهم ستدركهم المنايا ـ مقدرة لهم ومقدرين ـ لا محالة ولولزموا البيوت المشيدة . . . والواقع أن الآية تعطى عكس ما فهم الناس منها ، لأنها قضت بأن الناس كلهم مقضى عليهم بالموت مهما حاولوا الفرار منه »

فيقال : بل الآية نص صريح فى عكس ما فهمته منها فى العكس الذى ذكرته وفيما قبله ، فان مما لا ريب فيه أن البروج المشيدة من أعظم ما يتحصن به من الموت والوقاية من أسبابه لا سيما وقت الحرب ، وهذه الآية سيقت فى هذا الشان فلا مناسبة لما ذكره عليها ، بل سيقت للمعنى الذى فهمه عامة المفسرين وسائر علماء الدين كما يدل عليه ما قبلها من السياق وما بعدها ، فانه سبحانه أخبر بأن هذا السبب الذى هو عند المنافقين وورثتهم أقوى الأسباب فى رد الموت ومقتضياته ولان المنافقين كلهم خلفا عن سلف كانوا يعتمدون على الأسباب غاية الاعتماد ويؤمنون بها غاية الايمان ولهذا كانوا يلجأون اليها عند الشدائد ويرون أن فيها الكفاية فى الوقاية من الموت وأسبابه ، فرد الله عليهم ردا صريحا فى هذا الرأى فى قوله تعالى ﴿ ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم

---

(١) لا حاجة الى هذا الورع البسيط الزائف فى جانب هذا الفجور الفاحش المنكر

يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ الآية ففى هذا بيان أنهم فهموا كما فهم أتباعهم أن الآجال هى اجتماع أسباب الموت ولهذا جزعوا غاية الجزع من القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فقالوا معترضين على ما أمروا به من القتال ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ ففى هذا بيان أنهم معترفون بالربوبية ومع هذا فهم فى الدرك الأسفل من النار ، لأنهم منافقون خالف فعلهم واعتقادهم قولهم ، واتخذوا أيمانهم جنة ، وأفسدوا فى الأرض وقالوا إنما نحن مصلحون ، وخادعوا الله ورسوله والمؤمنين فقالوا ﴿ ربنا لم كتبت علينا القتال ﴾ يعنون أن هذا شىء يوجب الموت بحكم العادة فى الأغلب ، فانهم يسندون الأمور الى الأسباب مطلقا بدون ملاحظة القضاء والقدر والمشيئة وأنه لا يصيبهم شىء إلا ما قدر لهم ، ولهذا قالوا ﴿ لولا ﴾ أى هلا ﴿ أخرتنا الى أجل قريب ﴾ فانهم جزموا بالموت فى القتال لأن أسباب الموت تجتمع فيه فلهذا فرقوا منه واعترضوا على الله فى هذا التقدير الذى هو كتب القتال ، ولم يقولو لولا أخرت أجلنا لانهم لا يرون القضاء بل يرون أن الأسباب هى التى تفعل لذاتها ، فلذا قالوا ﴿ لولا أخرتنا الى أجل قريب ﴾ أى أخرت كتب القتال[1] لأنهم نزلوه منزلة القتل المحقق ـ لشدة القلق والجزع ورسوخ عقيدة استناد الموت الى الأسباب فقط ، فودوا أنه لم يكتب عليهم القتال ، فانهم أيقنوا بالهلاك فيه ، فرد الله عليهم هذا الوهم وهذا الظن الخبيث أعظم الرد وأبينه فقال ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ متاع الدنيا قليل ﴾ لأن غاية ما تتمنونه أن تؤخروا وتمتعوا قليلا وهو متاع قليل ، ثم يأتيكم الأجل المحتوم الذى لا بد منه ، فكأنكم لم تؤخروا ولم يحصل لكم شىء من

---

(١) أى الذى أمرت به أمرا دينيا كقوله ﴿ كتب عليكم الصيام ﴾ ونحو ذلك

المتاع ، فان الفائدة المطلوبة من الحياة أن يكتب فيها عمل صالح وإلا كانت خسارة سرمدية لا عوض عنها [1] ﴿ والآخرة خير لمن اتق ﴾ أى فقط ﴿ ولا تظلمون فتيلا ﴾ بل تجازون جزاء ما عملتم ، فلأى شيء هذا الجزع والقلق وطلب التأخير والحال هذه ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ﴾ فلأى شيء هذا الجزع والفرار من القتال وهو أنه إن كان أجلكم فيه فهذا لا يفيدكم بل لا بد أن يدرككم الموت بكل حال ﴿ ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ فلا حاجة الى طلب التأخير وكراهة القتال خوفا من الموت وهو واقع لا محالة بكم ولو كنتم متحصنين منه فى بروج مشيدة أى حصينة وهذا أبلغ شيء فى التحرز والبعد عن القتال ، وهذا رد صريح لما يتوهم المنافقون فى الأسباب بأنها مصدر الأعمال دون القضاء والقدر بل الأسباب تجرى على مقتضى القضاء والقدر ، ولو كان التحصين فى البروج يفيد تأخير الأجل لم يحسن الاعتراض عليهم والرد عليهم لانهم لم يدعوا عدم الموت حتى يكون فى الآية اثبات ان الموت مقضى به على كل أحد وإنما طلبوا التاخير فقط فرد عليهم بأن كتب القتال لا يستقدم الأجل ، بل الموت اذا حل أجله جاءهم ولو كانوا فى بروج مشيدة ، فسيان بين موضع القتال والبروج المشيدة فى حلول الأجل أى أنه لا فرق بين الاستجابة لله بالقتال وبين التحصن فى البروج فى حلول الأجل كما يدل عليه قوله تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا موجلا ﴾ وقوله ﴿ ولكل أمة أجل ، فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ وكقوله تعالى ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ الآية ، فهذا الملحد قد تبع سلفه فى هذا الرأى كما تبعهم فى كل شئونهم فى النفاق الغليظ وهو مبتلى بالاعتذار عنهم والدفاع والنضال عن أسلافه هؤلاء

---

(١) أى كما قال تعالى ﴿ أفرأيت ان متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ، ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون ﴾

والتصلب فى تقليدهم والاقتداء بهم ولا سيما فى الاستهزاء بالمؤمنين والتعلق على الأسباب والاعتماد عليها وإنكار القضاء والقدر وإظهار الاسلام احيانا عند الحاجة والملق ومحبة أعداء الله وموالاتهم وغير ذلك من شئونه حتى صارت حالته أصدق صورة ترسم للمنافق الحقيق والعياذ بالله تعالى

فصل

قال « أما قوله تعالى ﴿ قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فالمعنى فيه أن هنالك أقواما من أشراف العرب يوجب عليهم شرفهم ومكانهم من قومهم وفى قومهم ، وتوجب عليهم سيادتهم ذاته الحقوق المعروفة المرعية ، وظروفهم القاهرة الحاكمة أن يخرجوا للقتال على أى حال حتى ولو كان فى هذا الخروج الهلاك المحقق ، اذا ما أهاب بهم داعى المجد - وان لم يدعهم الرسول وأصحابه الى ذلك ، كما هو الشأن فى كل الأمم ، وكما هو الشأن فى الجاهلية والاسلام . . وحكم هذه الظروف عليهم المحفوفة بالاخطاب وأسباب الهلاك هو معنى كتب القتل عليهم ، ومعنى بروزهم الى مضاجعهم . وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج لأنهم مرادون للقتل لأغراض لا تعقل »

انتهى كلامه على هذه الآية فاعتبروا يا أولى الأبصار ، اعتبروا أيها المسلمون ، ان خروج الأشراف الى القتال هو معنى الكتابة ، وكأنه لدقة فطنته تخيل أن الأرض صحيفة وأن أرجلهم أقلام تخط فيها وتنقط ، وذلك هو الكتب حينما يخرجون الى القتال وحق له أن يقول هذا البيت الذى امتدح به نفسه :

ولم يذكروا غيرى متى ذكر الذكا ولم يبصروا غيرى لدى غيبة البدر

فقد جاء بعض تأويل هذا البيت فى تفسير هذه الآية ، فمن هو الذى

يستطيع أن يدرك ذكاؤه أن معنى كتب الله هو خروج الأشراف بداعى الشرف الى القتال ، ومن ذا الذى يكون له غور بعيد فى استخراج هذا الزعاف المنتن غير (الدر الذى فى لجج البحر) فالكتابة فى قوله تعالى ﴿ كتب عليهم القتل ﴾ عند صاحب الحقائق الأزلية الأبدية التى تأخذ بها أمة فتنهض وتتركها أمة فتهوى هى خروج الأشراف الى القتال ، فيكون معنى الآية قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين برزوا للقتال ، فانه فسر معنى الكتابة بالبروز الى المضاجع ، فيكون معنى كتب الله القتل عليهم خروجهم وبروزهم . وليس من شك عند أدنى عاقل أن هذا مسخ صريح للقرآن ، فلو جاز أن يفسر كتاب الله بهذا المسخ ويتحكم فيه هذا التحكم والهذيان لبطل الانتفاع به جملة ، فانه من الممكن لليهودى والمجوسى وكل ملحد وكل مشرك وكافر أن يستدل به على صحة رأيه اذا سلك هذا المسلك ، فانه إذا كان خروج أناس من بيوتهم الى مواضع القتال يسمى كتابة فكل معنى فيه يمكن أيضا أن يسمى كتابة ، فان هذا الزنديق لو وهب عمر نوح لم يجد فى اللغة أن معنى الكتابة هو مشى الأشراف من بيوتهم الى مواضع القتل ، وهو يعلم حقيقة العلم أنه لا يمكنه وجود ما يؤيد هذه الدعوى المرذولة لا لغة ولا شرعا ولا عرفا ، ولكنه لا يريد أن يتبع اللغة ولا التفسير ولا أحدا من أهل العلم ، بل لا يريد أن يتبع غير هواه وأن تكون كتابة الله أيضا مطابقة لهواه ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ، ولهذا ادعى بأنه ليس عليه أن يأخذ بما قاله أهل العلم ، بل هو معترف بأن ما سطره فى أغلاله هو رأى رآه ولم يسبق اليه ، فلهذا تحكم فى كلام الرب تعالى بما يشاء ويشتهى بدون حدود ولا قيود ، فقد سولت له نفسه وزين له شيطانه وغره تيهه واختياله أن المسلمين أمة برابرة همجية لا تفهم ولا تعقل ، بل انه ليس فى المسلمين من يفهم كلام الله ويعقله وأنه اذا قال قولا قبل منه وترك جميع ما يخالفه من كلام علماء المسلمين ، وهذا

من آثار اعتقاده فى قوله [1]

متى جريت فكل الناس فى أثرى ‏ ‏ وإن وقفت فما فى الناس من يجرى

ولهذا فانه أخذ يعبث فى القرآن والسنة على حسب ما يشاء ويريد غير متقيد باللغة ولا غيرها من أقوال أهل العلم من أولهم الى آخرهم

ودعوة المرء تطفى نور بهجته ‏ ‏ هذا المحق فكيف المدعى زللا

ولقد أبعد النجعة فى تحريفه لهذه الآية الكريمة ، فليس فيها اختصاص أهل الشرف أو المكانه من العرب فى قومهم ، بل هى فى المنافقين سواء كانوا من أهل الشرف فى قومهم أو لم يكن لهم شرف ، فان الله تعالى يقول أول الآية وذلك فى غزوة أحد حين كان فيها أناس من المنافقين ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء ، قل ان الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلناهاهنا ، قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدورهم وليمحص ما فى قلوبهم والله عليم بذات الصدور ﴾ فتأمل الآية من أولها الى آخرها تجد أنها صريحة فى مناقضة ما ادعاه . فقوله جل من قائل ﴿ وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ﴾ يعنى تعالى بذلك المنافقين ، فانهم ﴿ يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ وذلك لخبث بواطنهم وعدم ايمانهم بالله ومحبتهم له وإخلاصهم وصدقهم ، فانهم لم يحبوه ويعظموه ويشهدوا معانى أسمائه وصفاته وأنه الكامل الذى له الغاية فى الكمال المستحق للحمد والثناء فى كل أفعاله وتدبيره ، فأفعاله كلها إما عدل وإما إحسان وكلاهما يستحق عليه الحمد ، فكيف يظنون به تعالى غير

---

(١) فى آخر نبذته (شيوخ الأزهر)

الحق ، وهل هذا إلا من خبث طويتهم وجهلهم به ، ولهذا أسندوا الأمور الى الأسباب وجعلوه غير قادر على ضبطها وتصريفها على مقتضى مشيئته وقدرته [1]﴿ يقولون هل لنا من الأمر من شيء ﴾ أى فى الخروج الى القتال وهذا من شدة ما بهم من القلق والجزع وعدم الثبات والاستسلام والصبر كما هو شأن كل منافق ، فانه شديد اللجاجة والخصومة فيما اذا وقع الأمر على خلاف ما يهوى ويريد ولا سيما إذا ظن أن فى ذلك هلاكه أو خسارته ، قال تعالى ردا عليهم ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿ان الامر كله لله﴾ فهو الذى أخرجكم وأخرجنا ، وذلك لانهم يلومون المؤمنين فى خروجهم للقتال وينسبون ما أصابهم فى هذه الوقعة اليهم وأنهم لو كان الامر بأيديهم هم لما خرجوا ولما صار شيء من القتل ، والا فلو أنهم اعتقدوا أن الامر كله لله فهو الذى أخرجهم فانه جهاد مشروع ، ثم انه وإن كان مصيبة فى حق البعض فالواجب الصبر عند المصائب والاحتساب كما قال النبي ﷺ «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، فان أصابك شيء فلا تقل لو انى فعلت كذا لكان كذا وكذا ، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ، فان (لو) تفتح عمل الشيطان » فهؤلاء استعملوا (لو) فانهم قالوا ﴿ لو كان لنا من الامر من شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ ولم يقولوا قدر الله وما شاء فعل ولا صبروا واحتسبوا ، ولا سيما فقد كان النبي ﷺ معهم فيجب أن يستسلموا وينقادوا لما أمر به ويتبعوه وأن لا يعترضوا على ما فعل ، ولكنهم لخبث عقائدهم لم يعبأوا بذلك شيئا وهذا من الاسرار التى تكون سببا فى هزيمة المؤمنين اذا كان فيهم منافقون فانه بذلك يتميز الصادق من الكاذب والمخلص من المنافق كما فى آخر هذه الآية نفسها . فقوله ﴿ قل إن الامر كله لله ﴾ يوجب عليهم أن يستسلموا ويطيعوا ويتركوا الضجر والقلق فانه ربهم الحكيم العليم الرءوف الرحيم ، فما

---

(١) أى فلا يعز أهل طاعته ولا يذل أهل معصيته

هذا الاعتراض والتمرد الاعدم رضا به وبتدبيره وأمره كما فى الحديث « ذاق طعم الايمان من رضى بالله ربا وبالاسلام دينا وبمحمد نبيا » والرضا يوجب الانقياد والاستسلام ، ليس هو مجرد الاقرار باللسان فقط فهم مقرون بذلك ، ومع هذا فهم فى الدرك الاسفل من النار ، وقوله تعالى ﴿ يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك ﴾ لأنهم اذا جاءوا عند الرسول عليه الصلاة والسلام أظهروا الملق والخداع كما ذكر ذلك عنهم فى الآية الأخرى ﴿ واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ﴾ فهم يخفون فى أنفسهم من عدم الرضا وعدم الاستسلام والقلق والضجر بخلاف ما يبدون له من الخداع والنفاق والأيمان الفاجرة ، فانه عليه السلام أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون وذلك أنهم ﴿ يقولون ﴾ فيما لا يبدون له ﴿ لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا ﴾ وهذا تصريح بأنهم لا يرون القضاء والقدر شيئا بل يرون أن الانسان هو الذى يستخدم هذه النواميس فيصرفها بقدر استخدامه ، وذلك أنهم ادعوا أنه لو كان الامر فى أيديهم بأن كانوا هم الذين قدموا فى الامر لم يشيروا بالخروج الى القتال ولم يخرجوا اليه ولم يجر قتل ، وإنما ذلك كان فى مقدرتهم ، وانما جرى هذا كله بأسباب أنهم لم يكن لهم فى الامر شىء وكان الامر فى أيدى غيرهم ، قال تعالى ردا عليهم فى هذا الزعم الخبيث اذ ليس هذا شىء فى مقدورنا ولا مقدورهم وإنما الامر بقضاء وقدر سابق ، فانه أمر كله لله ﴿ لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ﴾ فان هـــذا القضاء المحتوم لا بد من نفوذه ، فقولكم ﴿ لو كان لنا من الامر من شىء ما قتلناها هنا ﴾ قول باطل فانما يفيد هذا لو كان أمر القتل والخروج وغيره ليس لله وانما هو لكم أو لغيركم ، ولكن الامر هو لله فليس فى الاستطاعة دفعه ، فانه قد علمه الله وكتبه فى اللوح المحفوظ وفى أم الكتاب ، فلو كنتم فى بيوتكم فلن ينفعكم جلوسكم فيها بل

لبرز هؤلاء الذين كتب عليهم القتل فى سابق علم الله الى مضاجعهم أى المواضع التى يقتلون فيها ، فانه سبحانه إذا قضى أمرا فلا راد لقضائه إنما يقول له كن فيكون ، فلا بد أن يهيء لهم من الأسباب ما يخرجهم الى مضاجعهم فقدرته تعالى غالبة ستسوقهم بأسباب أو بغير أسباب الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها ، فما هذا الجزع والفرق والإرجاف والاعتراض على الله ورسوله والمؤمنين باللوم وسوء الظن به غير الحق ، وانما ذلك منشأه ضعف الإيمان واليقين وعدم الاستسلام الكامل . ثم ختم الآية ببيان الحكمة فى هذه الواقعة وغيرها بقوله ﴿ وليبتلى الله ما فى صدوركم ﴾ وليمحص ما فى قلوبكم ﴿ والله عليم بذات الصدور ﴾ فان الله سبحانه لا بد أن يمتحن خلقه بما يبين الصادق من الكاذب والخبيث من الطيب لتظهر حكمته وتقوم حجته كما قال تعالى بعد هذه الآيات ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ﴾ الآية . وهذا الذى ذكرناه هو ظاهر الآية وكلام المفسرين فى معناها ، فاما ما ذكره هو على الآية فهو قرمطة ظاهرة ، فانه ليس فيها اختصاص أهل الشرف دون غيرهم ، وليس المشى من البيوت والخروج منها الى مواضع القتل هو الكتابة ، وإلا لكان معنى الآية : لبرز الذين برزوا الى مضاجعهم ، أو لبرز الذين خرجوا الى مضاجعهم ، ويصان كلام الله عن هذا الهذيان ، فان المقصود من الآية أنه التوقف عن القتال أو الاعتراض على الرسول والمؤمنين فى الخروج اليه اعتراض على الله وتوقف لا معنى له ، وليس فى الجلوس وقاية من الموت اذا كان الله قد قضى وقدر أن هؤلاء المقتولين سيقتلون فى هذا الوقت ، بل هذا القضاء سينفذ ولو كان هؤلاء المقتولون فى بيوتهم لبرزوا الى هذه المضاجع التى قتلوا فيها . وهذا مشى على قاعدته فى الالحاد وأبى أن تكون قدرة الله ومشيئته هى التى تخرجهم فقال : وليس معنى هذا أن هناك قوة خفية تلزم قوما معينين بالخروج . فيقال له : من أين اطلعت على أنه ليس هناك قوة خفية تلزمهم بالخروج ، وليس من شرط هذه القوة أن تطلع عليها ، وعدم اطلاعك عليها

وعلمك بها لا يوجب أن لا يكون هناك قوة خفية فكم فى الوجود من أشياء لم تطلع عليها ، فاذن احكم على كل ما لم تعلمه وتطلع عليه بالعدم ، فعدم العلم ليس علما بالعدم ، والآية فى غاية الصراحة فى نقيض ما ادعيته فى إنكار إرادة الله ومشيئته تعالى وقضائه قال تعالى ﴿ وما كان لنفس أن تموت إلا باذن الله كتابا مؤجلا ﴾ وكيف يقر هذا الملحد بأن الشرف يوجب عليهم الخروج ويخرجهم مع أنه عرض وينكر أن يكون الله القادر الجبار القهار الذى له ملك السموات والأرض لا يخرجهم ، وقد عبر عن الله بالقوة الخفية خداعا ونفاقا ، فكأنه هاب من التصريح بالاسم الظاهر ، ولا معنى لهذه الهيبة فان كل من له عقل ودين يعرف ذلك ، فهو سبحانه القادر على إخراجهم بأن يزين لهم القتال ويكره اليهم الجلوس ويهيء لهم من الأسباب ما يدفعهم الى الخروج أو يسلط عليهم من يخرجهم بمطامع أو غيرها ، والاسباب التى توجب خروج الانسان من بيته أكثر من أن تحصر ، فانه تعالى كتب عليهم القتل هنا لحكمة ربانية لا بد من ايجاد مقتضاها ، والقتل فى ميادين القتال الشرعى فيه مصالح كبيرة ، فانه ان كان فى قوم مؤمنين فهو خير لهم ورحمة لهم ليحييهم تعالى حياة طيبة صحيحة سعيدة ينسون بها ألم القتل وغيره ، وان كانوا أشقياء رحم العباد والبلاد بازالتهم منها والانتقام منهم ونفذ فيهم عدله الذى يستحق به الحمد . والبلية والمصيبة قوله « لا أنهم مرادون للقتل لاغراض لا تعقل » فجعل هذا الزنديق أفعال الله التى ينفذها فى خلقه موقوفا تنفيذها على عقله بأن يعقلها هو وإلا فهى مردودة ، فقد أبان فى هذا أن الذى حمله على هذه القرمطة والتحريف أنه لم يعقل حكمة الله التى سماها غرضا فى هذا القتل ، فكان فعل الله ومشيئته وقدره وقضاؤه مردودا مجحودا مرفوضا رفضا باتا حتى يفهمه ويطلع عليه هذا الزنديق ، فانه علل هذا بانه لا يعقل ، فجعل كل مالا يفهمه ولا يعقله لا يمكن أن يقع إلا على ما يريده هو ، ثم رتب على هذا تحريف هذه النصوص ، ثم ركب على هذا أيضا أن الذى قاله هو الذى يجب اتباعه ، ظلمات بعضها فوق

بعض . ومعلوم أن ما ذكره الله فى هذه الآية الكريمة فى غاية الوضوح ، وهو معقول مقبول معلوم ، فلا أحسن ولا أطيب ولا أبين ولا أوضح منه ، فهو عين الحكمة فان المقتول إما مستريح أو مستراح منه كما فى الحديث ، ثم لو فرض أننا لم نعقله فمن الجنون أن نحرفه أو نرده ، بل نقول : آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب

فصل

ومن عجيب أمره أنه احتج على غلوه فى الأسباب وكونها لا تغير باعتقاد المنافقين الموجودين فى زمن النبي ﷺ ، مع أن القرآن صرح بالنهى عما فعلوه فقال :

« ومما يجب فهمه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب إيمانا عميقا ، وقد حكى القرآن عنهم قولهم ﴿ يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا ﴾ يعنون ان الأمر لو كان أمرهم ـ أو لو كانوا مطاعين ـ لنهوا عن الخروج الى القتال ، ولما عرضوا أنفسهم على الموت ، ولنجوا حينئذ ، لأن القتل انما يقع بالتعرض له ولأسبابه . وفى آية اخرى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الأرض او كانوا غزًّا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾ وفى آية أخرى ﴿ الذين قالوا لاخوانهم ـ وقعدوا ـ لو أطاعونا ما قتلوا ﴾ فهم اذن كانوا يؤمنون بأسباب الموت والقتل وبأسباب النجاة إيمانا برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء » انتهى

ولا يخفى على أدنى عاقل مافى هذا الاستدلال من المخازى المضحكة وكأنه يستهزئ بهذا الاستدلال ويسخر به ، فدعواه أن العرب قبل الاسلام كانوا يؤمنون بالأسباب ثم استدلاله بهذه الآيات دعوى فى غاية السقوط ، فان هذه الآيات سيقت لبيان حالة شرذمة قليلة من المنافقين الذين كانوا بين المسلمين[1]

---

(١) لأنه تعالى صرح بأن هذا قول طائفة كما تقدم

ليس هى فى العرب كلهم ولا أكثرهم ، بل العرب المسلمون على عكس هذا الاعتقاد ، ودعواه أنهم قبل الاسلام ثم استدلاله بالآيات خطأ فوق ضلال ، فان الآيات صريحة فى واقعة أحد وواقعة أحـــد ليست قبل الاسلام ، ثم استدلاله بأفعالهم هذه كفر فوق خطأ فوق ضلال . وهذا الملحد مبتلى بتركيب الضلالات المترادفة كالظلمات التى فى قلبه

ثم يقال : نعم هؤلاء المذكورون فى الآيات يؤمنون بالأسباب كالايمان الذى ذكرته أو قريبا منه ، فهل تعرف هؤلاء أنهم أسلافك وسادتك وأئمتك ، هؤلاء هم المنافقون الذين لعنهم الله وأصمهم وأعمى أبصارهم ، وهم الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، وهم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، وهم الذين يقولون آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب اليم بما كانوا يكذبون ، واذا قيل لهم لا تفسدوا فى الارض قالو انما نحن مصلحون ، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا ، كما قلت انت ذلك فى مكاتباتك حين خانك أملك ، وهم الذين يسارعون فى موالاة الكافرين ويقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ، وهم الذين يقولون للمؤمنـــين استهزاء وسخرية غر هؤلاء دينهم ، وهم الذين آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وهؤلاء هم الذين قالوا لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا ، وهم الذين قالوا لإخوانهم اذا ضربوا فى الارض أو كانوا غزّا لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ، وقالوا أيضا لاخوانهم ـ وقعدوا ـ لو أطاعونا ما قتلوا ، فهؤلاء هم المؤمنون بالأسباب إيمانا عميقا لا المؤمنون بالقضاء والمشيئة العليا . ولهذا تجدهم فى غاية الاعتماد عليها والاعجاب بها واسناد الامور اليها وفى نهاية السخرية بالأسباب الدينية فلا يرون لها قيمة ، ولهذا يسخرون بأهلها أعظم السخرية ، والله حكم عليهم حكما صارما من أول الدنيا

الى آخرها باللعن والطرد والابعاد ، ولهذا فانك لا تجد منافقا إلا وقد كبته الله وأذله وجعله تحت أعدائه ، ولم تتقدم أمة من الأمم بالنفاق ابدا [١] بل قد يتقدم الكافر الصريح دون المنافق المذبذب . والغريب أنه استدل بفعلهم - مغالطة للاغبياء وضعفاء البصائر - مع كون الله نهى عن فعلهم صريحا حين قال ﴿ لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا فى الارض ﴾ الآية ، فكفرهم ونهى عن الاقتداء بهم . وفى الآية الأخرى رد عليهم بما يبطل قولهم واعتقادهم فى قوله ﴿قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ أى إنكم تموتون وأنتم فى بيوتكم وإن لم تشيخوا وتهرموا وتخرجوا للقتال وتضربوا فى الأرض ، ورد عليهم فى الآية الأخرى بقوله ﴿قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ، وقد أبى هذا الا المشاكسة بهذا البيان الواضح فجعل فعلهم هذا حجة على الايمان بالأسباب مع وضوح الآيات فى رد رأيهم واعتقادهم ، بل يدعى أنه لم ينكر عليهم مع تصريح الآيات بالانكار

ثم لو فرض أن ذلك هو اعتقاد العرب قبل الاسلام فهل يكون فى هذا حجة مع أفعالهم الأخرى المنافية للأديان والأخلاق الانسانية

وقوله « إيمانا برهانه طول التجربة وصدق الاستقراء » هذا تكملة منه لادعائهم واعانة لهم فى الاحتجاج مع أنها دعوى فى غاية الفساد ، فان حاصل هذا أن بعض الناس يموتون فى القتال وأن التجارب دلت على هذا ، وهذا ليس من الحجة فى شىء ، فاننا لا ننكر تأثير الأسباب والتجارب وكذا حصول المسببات بالأسباب غالبا ، والشرع قد دل على هذا ، لكن من أين لهؤلاء أن اجتماع الأسباب ووقوع المسببات ليس من فعل الله ، وان الله هو الذى رتب

---

(١) أى النفاق الدينى الاعتقادى

هذا على هذا فمن أين لهؤلاء أن الله لم يجعل آجالهم بأسباب هذا القتال وبسبب خروجهم اليه ، فانه سبحانه يفعل بالأسباب وهو الذى أمر بهذا القتال ورتب عليه نتائجه ، فلا بد من وجودها ولا بد من وقوع ما قدره فيها . فالتجربة دلت على أن من قرب من أسباب الموت فحرى أن يموت ، لكن لم تدل على أنه لا مسبب لهذه الأسباب وأن من كتب عليه الموت بهذه الأسباب أنه يمتنع من ذلك [1] وهـــذا يناقض اعتقادهم ، وكذلك الاستقراء فهم لم يكتفوا بالاعتراف بالأسباب والايمان بها ، بل اعتمدوا عليها وجعلوها هى المصدر فى النفع والضرر فقالوا لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا ، اى لو كان الأمر بأيدينا لكان فى استطاعتنا أن ننجو من القتل ، فهم الذين يدبرون أنفسهم استقلالا بدون قدر ولا قضاء بزعمهم ، ولذلك احتج عليهم تعالى بحكم الكتاب الأول فى القدر والقضاء ولم ينكر الأسباب ، وهذا ظاهر ، والاستقراء الذى دلهم هو التجربة ، وقد بينا أنها لا تفيد ما اعتقده مطلقا

ثم ذكر أن طبيعة بلاد العرب توحى بالايمان بالأسباب ، لأنها قليلة الثروة ، وهذه أيضا مهزلة أخرى لا حاجة لنا فى ردها لأن مثل هـذا ليس من الدين فى شىء ، واستطرد مكررا ما سبق بأن العرب كانوا فى غاية الايمان بالأسباب

وقد تقدم الجواب عن هذا مرارا ، على أن لقائل أن يعارضه بأن مشركى العرب أيضا كانوا يحتجون بالقدر على أفعالهم الشركية أحيانا كقولهم ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا . ولا حرمنا من دونه من شىء ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل الا البلاغ المبين ﴾ أى ليس عليهم أن يجادلوهم بغير ما بلغوا به فان احتجاجهم هذا تعنت ، وإلا فلو قتل أحـد منهم أحـدا لم يعذروا القاتل بالقدر بل ولا يطيعونه ، فكيف يتركونه فى حقوقهم ويحتجون به فى حق الله تعالى

---

(١) ولم تدل أيضا على أن من قرب من أسباب الموت أنه يموت قطعا بدون مباشرة

فصل

ثم قال « يصادفك وأنت تسير فى الأحياء الوطنية الحين بعد الأحيان هذان البيتان من الشعر الركيك مكتوبين على المتاجر والمصانع :

ملك الملوك اذا وهب لا تسألن عن السبب
فالله يعطى من يشا ء فقف على حد الأدب

وهذا تعبير بليغ صادق عن الروح الشعبية العامة ، وكلهم يشتركون فى هذه العقيدة ، من كتبوا ذلك على متاجرهم ومصانعهم ومن لم يكتبوه »

فيقال : وهذه بشرى عظيمة وعلامة نيرة قوية من العلامات الصادقة المبشرة بمستقبل طيب سعيد صحيح ان شاء الله تعالى ، فان كانت هذه مكتوبة هنالك فهى تدل على روح فيها حياة علمية دينية ، فليس فى هذه الأبيات غير الثناء على الله تعالى وتقدس ، وليس فيها ما ينكر ، وكأنه انتقد قوله « فقف على حد الأدب » أو قوله « لا تسألن عن السبب » يعنى أنه لا ينبغى السكوت والوقوف على حد الأدب ، بل يجب أن يسأل الله عن السبب الذى به أعطى هذا ومنع به هذا ولمَ يعطى هذا دون هذا ، فلا يجوز أن يسكت عن عطاء الله وافضاله وهبته ، فقبحه الله ما أكثر خبائثه ، ومن طلب إزالة هذين البيتين فليطلب إزالة المصحف المتضمن لما يصدقهما ويقطع علائق المنافقين كلها ، قال تعالى ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ ، وقال تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير ﴾ وقال تعالى ﴿ قل ان ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ان الله بكل شىء عليم ﴾ الى غير ذلك من الآيات ، وهذا الملحد يريد أن يدخل بين الله وبين عباده حتى فى الثناء عليه ويطالبهم بان لا يتأدبوا فى ترك التفتيش والسؤال عن مشيئته وحكمته فى تقسيم أرزاقه

بين عباده ، ولهذا غاظته هـذه الأبيات غيظا عظيما وتضايق منهـا وأحرجت صدره ووقع منها فى مشكلة فكانت ريبة فى صدره وقذى فى عينه كلما مرّ فى طريق صادفته وكانت له بالمرصاد لما فيها من تعظيم الله وعدم سؤاله عن تصرفه فى الرزق والوقوف على حد الادب فى ذلك ، أما تلك الصور القبيحة والمظاهر المخزية والمنكرات التى لا تعد ولا تحصى والمشاتمـة والملاعنة والنشيد الخبيث الموجود فى كثير من الأندية فذلك كله لا يهمه ولا يحزنه فهو لم يتعرض له بل هو غذاء قلبه وروحه ، ولهـذا خصص بحثا يدعو فيه لافساد المرأة ، وأنكر على من أنكر عليها تعلم الموسيقى والشطرنج ودقائق الفلسفة ، فكل هـــذه الأمور الخبيثة هى التى تنـاسبه ، فان القلوب والأرواح الخبيثة إنما تتغذى بمـا يناسبها وتنفر غاية النفرة مما لا يلائمها من الأمور الطيبة الطاهرة كمثل مـــا تضمنته هذه الأبيات ، ولهذا جعلها شعرا ركيكا ، وكل ذى ذوق سليم يعلم أنها فى غـاية القوة والسلاسة وحسن التعبير وان أبيـاته التى قدمنا بعضها فى غـاية الركاكة والفهاهة وفساد التصور والتركيب

ثم قال « فالله إذا أعطى أحدا مالا أوجاها أو مجـــداً أو نجاحا لم يصح السؤال عن تلك الهبات ولا عن أسبابها ، لأن الله وهو ملك الملوك لا يعطى على السبب ، ولا على قدر السبب [1] وإنما يعطى على المشيئة وعلى قدر المشيئة وقدر صاحبها ، فالسؤال عن ذلك اذن خروج عـلى الأدب وضلال فى جانب الله ، لأنه اعتقاد بانه تعالى إنمـا يهب جزاء ومكافأة ، وبقيود وحـــدود وأسباب ، لا مشيئة وقدرة وإرادة واطـلاقا . وهـذا اتهام لذاته وصفاته وأفعاله . والادب [2] هو الاعتقاد بان الأسباب لا شأن لها لافى نجاح ولا

(١) هذا استهزاء وتقريع على البيت
(٢) أى عندهم

إخفاق ، فاذا رأينا ناجحا لم يجز الاعتقاد بأن لنجاحه أسبابا وموازين وعللا تدرس وتفهم ويقاس عليها ، واذا وجدنا مخفقا فكذلك لم يجز التعليل والتسبب »

قلت : هكذا علق على هذين البيتين اللذين تضمنا الثناء على الله والأدب معه ، وهذه محادة صريحة لله تعالى ، وليس فى البيتين ما يدل على هذا كله ، بل مضمونها أن الله تعالى لا يسأل عمـــا يفعل من الاعطاء والمنع والخفض والرفع ، ولو أن رجلا أخذ يتعنت على ملك من ملوك الدنيا — ولله المثل الأعلى — لم أعطيت فلانا ومنعت فلانا ولم هيأت لفلان أسبابا وتركت فلانا ، - مع علمه بان فيهم المطيع والعاصى وأنه عليم بهم خبير بأحوالهم ومـا يليق بكل أحد منهم - لكان فى غاية المشاقة والمحادة له ، ولمقته وبطش به ، ولمقته الناس أيضا وتحامقوه ، فكيف بالله عز وجل الذى لا يخلو موجود من آثار رحمته وفضله وإحسانه وانه المعروف بالكرم والجود والعلم والحكمة والكمال الذى لا غاية فوقه فهو الذى يضع الأمور فى مواضعهـا اللائقة بهـا ، وكيف يجوز أن يسأله سائل ويتعنت عليه فى أفعاله التى أخبرنا بأنها صادرة عن علم وحكمة وعدل وإحسان ، وهل هذا إلا من الزندقة والخبث العميق والنفـاق الفظيع . ولم يرد صاحب الأبيات أن الناس لا يسأل بعضهم بعضا عن الأسباب والأمور التى يحتاجون اليها ، ولم يفهم الناس ذلك منها ، والبرهان على هذا أن هؤلاء الذين يعلقونها أو يكتبونها على متاجرهم ومصانعهم يسأل بعضهم بعضه ويناقش بعضهم بعضا فى كل أمورهم التى بينهم ، وقد تقدم البيان بأننا لا ننكر تاثير الأسباب ، والله سبحانه يفعل بها ، وأكثر هؤلاء الذين يعلقون هـذه الابيات وأمثالها يعرفون هـذا ، لأنهم يباشرون الأمور التجارية والصناعية وغيرها ، فهم معترفون بأنها أسباب وأن لها نتائج ، وسواء كان ذلك بالقوة المودعة فيها أو بفعل الله عندهـــا فهم بكل حال عاملون بها مجتهدين فى ذلك معترفين بأنها أسباب ، فلا معنى لهـــذه القحة والهراء الذى هو أشبه بنباح الكلاب

ثم قال هذا الملحد « وهذا من شر ما تبتلى الأفراد والجماعات بالايمان به » فيقال لهذا الملحد : ألا قاتلك الله ، أى شرّ فى هـذين البيتين وقد تضمنا الثناء على الله والأمر بالأدب عن سؤاله . ولـكن هـذا دأبه إزاء المظاهر المتضمنة لتعظيم الله وإجلاله ، كما ذكر أن المنابر والمساجد أدت شر مؤدى ، لأن كلا منهما مظهر من مظاهر الايمـان بالله تعالى ، وهو قد جعل الايمان به نكبة عـلى الناس متبعا صنمه غوستاف فى هذه الدعوى ، وكأنه لم ير فى هـذه الأمصار منكرات وفجورا وخبائث والحادا وشركا لا يحصى ، وقد تركها كلها وقصد ذكر الله وتعظيمه وإجـلاله وجعله السب والشتم والعـداوة الزائدة . ان الانسان ليعجب كيف عاش هذا الملحد بين هؤلاء المسلمين المتحمسين لدينهم ومبـدإهم المقدس ، وكيف ذهبت الغيرة الدينية من النفوس الى هذا الحد البعيد

ثم قال « ولا ريب أن هذين البيتين اللذين يحتلان وجوه المتاجر والمصانع شر فى دلالتهما ونتيجتهما من مئـات الجيوش الغـازية التى تحتل البلاد اغتصابا واقتدارا [1] »

قلت هكذا صرح هذا الزنديق بأن ما اشتمل عليه هذان البيتان من تعظيم الله تعالى وعدم سؤاله ولزوم الأدب معه شر عظيم ينوب عن مئات الجيوش الغازية التى تحتل البلاد اغتصابا واقتدارا ، فلينظر المسلم المعافى من هذا البلاء وليحمد الله تعالى . وقد بينا أن من انتقد هذه الابيات فلينتقد القرآن كلـــه وليدّع فيه ما ادعى فيها ، فانه اشتمل على الايمـان بالله وتعظيمه والثنـاء عليه وعدم الاعتراض على حكمه فى خلقه ولزوم الأدب معه ، قال تعالى ﴿ والذين

---

(١) نعم هما شر منها بالنسبة اليك ، لانك زنديق قد أحرق قلبك بغض الاديان وأهلها . وجيوش الالحاد الغازية هى لذة فؤادك وسروره ، فهى من هـذه الناحية نقمة عليك وشر من الجيوش الزاحفة اليك

يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم إن فى صدورهم إلا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فأخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة والمنافقين الذين يجادلون فى آياته سبحانه مع ظهورها ووضوحها ودلالتها على الحق إنما حملهم على ذلك الكبر والإعجاب بأنفسهم وأن لديهم من العلم والمعرفة ما هو فوق ذلك[1] وما أجمل قوله تعالى ﴿ فاستعذ بالله إنه هو السميع البصير ﴾ فانه سبحانه سميع بصير بما يقولون ويفعلون فيجب الاستعاذة به من فعلهم ، فان الشيطان قد نفخ فى أنوفهم وأزَّهم عن معرفة الحق واتباعه أزا ، نعوذ بالله السميع البصير

لم يؤذ هذا الملحدَ من هذه المناظر غير هذا الثناء على الله وتعظيمه وتقديسه ولزوم الادب معه فجعل ذلك شرا ينوب عن مئات الجيوش المحتلة ، ثم مع ذلك يدعى أنه مؤمن بالله وأن إيمانه كايمان عمر بن الخطاب ، لا نظنه يتصور المسلمين إذ خاطبهم بهذا الهذيان رجالا لهم عقول يفرقون بها بين الكفر والاسلام ، بل تصورهم غوغاء نوكى ليسوا على شيء من العقل والفهم والدين ، فكأنه لم يعلم بأن هذه الدول والحكومات التى احتلتها جيوش أعدائها شر احتلال لم تكن هذه الأبيات تعلق على متاجرها ومصانعها ، وما نفعها ذلك شيئا ، بل نحن نشهد بالله أن وجود مثل هذه الابيات بين الامم من أعظم المنافع لها ومن أعظم ما يدفع الله به عنها ، بل ان وجود ما تتضمنه كجيش محافظ ، فانها كما قال تعبير بليغ صادق عن وجود الايمان بالله فى تلك الأمكنة ، وكم يدفع الله بمثل هذه وما فى معناها عن أهلها من بلاء وشر ، وقد علم أن من هى موجودة لديهم فى نعم لا تعد ولا تحصى ، مع ما هم فيه من

---

(١) كما قال عنهم فى الآية الأخرى ﴿ فرحوا بما عندهم من العلم ﴾

ذنوب لا تعد ولا تحصى[1]، ثم هى ليس فيها تعرض للأسباب ولا نفى لها البتة ولا يفهم منها ذلك أبدا مالم يكن زنديقا مبالغا فى الدعوة الى الزندقة والنفاق، فأين فيها نفى للأسباب، بل الذى فيها الثناء على الله وأنه ملك الملوك وأنه يعطى من يشاء ولا يجوز سؤاله عن الأسباب التى بها أعطى، وليس فيها أنه يجب على الناس أن يطلبوا أرزاقهم من غير أسباب أو يرفضوا الاسباب، ولكن لعظيم ما رسخ فى ذهنه من بغض المظاهر الدينية والشغف بالأسباب المادية والاعتماد عليها صار يحارب بكل ما أمكنه ما فيه دعوة للدين، ويحتج بكل ما له علاقة بفعل الأسباب، ولهذا احتج بفعل المنافقين مع ظهور بطلان حجتهم وان الله نهى عن فعلهم وحذر منهم غاية التحذير ورد عليهم أبلغ الرد، وقد تقدم الكلام فى الأخذ بالأسباب وأنها تراعى وتعتبر ولا يعتمد عليها من دون الله وتجعل هى علة كل فوز ونجاح وهبوط وقنوط، بل الله سبحانه هو الذى يسخرها وهو الذى بيده ملكوت كل شىء فيجب التوكل والاعتماد عليه واتباع نظامه وشرعه فى الأسباب الدينية والمادية، وذلك هو الطريق لتحصيل كل خير فى الدنيا والآخرة

انه لمن العجب جدا أن يحارب الانسان هذه المظاهر الدينية هذه المحاربة المكشوفة، ثم مع ذلك يدعى أنه متدين وأنه ما قال غير الحق، بل أنه وفق بين الدين والعمل، وحقيقة هذا استهزاء بعقول الناس وسخرية بهم، فان من فعل هذا الفعل وادعى ما يضاده وطلب تصديقه فى ذلك فقد ظن بمن خاطبه الجهالة والبلادة والغباوة المتناهية

---

(١) ملاحظة : ينبغى صون الآيات القرآنية وكذا الأحاديث النبوية عن التعليق فى نحو الأمكنة التى لا تليق بها من المنازل والأسواق وغيرها ، وكذلك ما يجرى مجرى هذا من ذكر الله تعالى ، لان صونه عن ذلك احترام له ، وجعله فى غير موضعه إهانة له ، وقد أشار الى هذا كثير من العلماء فى كتب الاصول وغيرها

ولقد تكلم كثير من العلماء على ما فى هذا الكتاب من الخداع والتمويه وبينوا أنه دليل على ضعف عقل مؤلفه، فعكسوا عليه ظنه، وأوضحوا مناقضته للدين والعقل أيضا وقد تقدم ما قاله السيد قطب وغيره

ولهذا قال الاستاذ محمد أحمد الغمراوى [1] فى مقدمة كتاب (الشواهد) لما قرأ الأغلال: «وجدت كتابا ينبض بالضغن، ويفيض بالقدح فى الاسلام وأهله، فقد نقض صاحبه ما وصلت اليه يده من كتب المتقدمين، حتى اذا وقف على بعض أقوال لا يقول بها أحد يعتد به اليوم ـ ولا يخلو من مثلها تاريخ أمة حتى فى هذا العهد الحديث ـ اتخذ تلك الأقوال ذريعة الى الطعن فى المسلمين أجمعين فى عشرة القرون الأخيرة من تاريخ الاسلام، مؤكدا للقارىء وللناس أن المسلمين جميعا عاشوا طوال تلك الحقبة لا يرون الأخذ بالأسباب، معتقدين أن التوكل على الله معناه النوم وترك التدبير اتكالا على أن الله سيرزقهم من غير سعى ولا عمل، ويحميهم من غير إعداد عدة ولا جهاد، واكتفاء فى ذلك بالدعاء والانقطاع لعبادة الله من نحو صوم أو صلاة، فتأخروا فى زعمه عن ركب الانسانية ألف عام ناموها وسارها غيرهم من مختلف الشعوب والأديان، ولو اقتصر الأمر على مثل هذا الزعم لهان على شناعته، فكل عارف بتاريخ الاسلام يعلم أن المسلمين لم يكونوا كلهم أو جلهم يعتقدون ذلك يوما من الأيام، ولعل فترات عزهم فى ألف عام الأخيرة كانت أكثر من فترات ذلهم، بعكس الغربيين الذين يسبح صاحب الاغلال بحمدهم وحمد مدنيتهم ويقدس لها ولهم، وعلى فرض أن المسلمين كانوا كما وصف طوال تلك القرون العشرة فليسوا هم كذلك الآن، فكلهم يريد الأخذ بالأسباب والنهوض والعزة وان اختلفوا فى الأسباب ذاتها اختلاف أى أمة ناهضة أو شعب فى كل عصر وعلى الأخص فى هذا العصر

---

(١) العالم الشهير صاحب كتابى (النقد التحليلى) و (سنن الله الكونية)

ففيم الهمز واللمز والطعن والذم والاستهزاء والسخرية وقد انقضى سببها المزعوم ان كان قد وجد يوما من الأيام ، أليس من الحمق والغباوة أو من الغرور وتلمس شهوة المال والشهرة من اسوأ طريق أن يفترض صاحب الاغلال وجود ما لم يوجد أو استمرار ما قد انقطع وانقضى ليجاهده وينازله كما كان (دون كيشوت فى كتاب سرفنتس) يجادل وينازل طواحين الهواء يظنها مردة وعماليق تقطع على الناس الطريق . ثم أليس من الغرور والحمق معا أن يعتقد صاحب الاغلال أن الاربعمائة المليون المسلم - على حد تعبيره - خاضعة اليوم لسلطان تلك الخرافات التى يزعم ، ثم يطمع أن يزحزحها هو عن ذلك بسفاهته وبذاءته التى بثها فى كتابه والتى تصد عنه كل من يقترب منه كما تصد الرائحة الخبيثة عن مكان الجيفة ، فلو أن انسانا أحسن الدعوة من وجهها وجاء الى المسلمين يدعوهم ليقودهم بزمام دينهم - والاسلام كله مقاد الى الخير والعز والفلاح - لكان عجبا مع ذلك أن يطمع بمفرده فى تحريك العالم الاسلامى ، وقد قعد العمل بالاسلام ، طالت مدة القعود أو قصرت ، فكيف بهذا المغرور الضال الذى لا يرى سبيلا الى نهوض المسلمين إلا أن يكفروا بماضيهم كله وينزلوا عن ميراثهم كله ويحتقروا كل ما ألف فى ألف سنة فى أى علم أو فن لانه صورة من كتاب واحد ألف فى علمه أو فنه قبل أن تبدأ الألف أو بعد أن بدأت الألف ، وأن ينزلوا أى رواية أو رأى يجمع عليه أو عليها مؤلفو تلك الكتب الكثيرة منزلة رواية الفرد الواحد ورأى الشخص الواحد ، هكذا يدعى ، والى ذلك يدعو هذا المغرور المفتون فى إعادة وتكرار ومبالغة وتوكيد . واقرأ له إن شئت لترى الى أى مدى يذهب الغرور بصاحبه ، ولتحكم أعن عقل يصدر فى كلامه أم عن تخليط . قال فى ص ٣٠٦ من كتابه (والخطوط من عندنا) [1] « اننا نعد فى علم التاريخ مئات الكتب وألوفها وكذا فى الحديث والفقه والتفسير وفى

(١) اى الخطوط العرضية من عند صاحب المقدمة لملاحظه النقط التى هى أساس النقد من المغرور

كل علم، ولكننا عند التحقيق لا نجد إلا كتابا واحدا ، فانسان ألف منذ ألف سنة مثلا مؤلفا فى علم من هذه العلوم وأودع فيه ما أودع من أباطيل وأكاذيب وغيرها فاذا جاء بعده ألف مؤلف فى هذا العلم فانهم جميعا سيأخذون علومهم وحقائقهم عنه وعن كتابه بلا نظر أو تفكير ، وهذا هو الشأن فى جميع المؤلفات التى تغص بها المكتبات والفهارس العامة اليوم والتى يفوت إحصاؤها وعلى هذا فن الخطأ الذى يقع فيه الجميع أن نجد رواية أو رأيا فى مئات الكتب لمئات المؤلفين فنزعم أن تلك الرواية أو ذلك الرأى قد قال به ورواه هذا العدد العديد ، والصحيح أن نقول أنها أو انه رواية أو رأى إنسان واحد فى مؤلف واحد نقله هؤلاء الجاهلون المقلدون بلا بحث وبلا عقل فلا ننخدع ونخدع بالكثرة ونقول كيف لا تكون تلك الحكاية أو الرواية صحيحة وقد رواها وصدقها عشرات العلماء أو مئاتهم ، وكيف تكون كذبا ثم يخفى حالها على كل هؤلاء ، ان من السهل على الانسان أن لا يثق برواية إنسان واحد وبرأيه ولكن من العسير عليه أن يشك فى رواية العشرات ورأيهم ولا سيما ان كانوا ممن يجل ويحترم [1] ».

دعوى يلقيها هذا الاحمق كأنه قرأ تلك الألوف المؤلفة فى جميع العلوم فى عشرة قرون فجاء يعلن بنتيجة بحوثه ويزين له شيطانه أن سيسمع له الناس . والحمق والغرور الظاهران من هذه الفقرة التى نقلناها لك من كتاب الاغلال هما الطابع الذى طبع به على الكتاب كله لا يكاد يخلو من أماراتها صفحة من صفحاته ، فأنت إذا تناولت الكتاب وجدت ذلك الطابع على غلافه الخارجى اذ تقرأ « سيقول مؤرخو الفكر إنه بهذا الكتاب قد بدأت الامم العربية تبصر طريق العقل » كأن الأمم العربية عامية عن العقل وطريقه وستبدأ تبصرهما ، ولكن على يد صاحب الاغلال - إلى أن قال - ثم هو يرى أن ضعف المسلمين ليس هو من تركهم الدين ، ولكن من اتباعهم إياه ، فهو لذلك

(١) انتهت جملة الأغلال

يحارب الدين ويستهزىء بقوانينه التي وضعها للناس كلما وجـــد الى الاستهزاء سبيلا ، أى كلمـا أمن عواقب الاستهزاء ، فان لم يأمن وظن أن رأيه الذى يعتقد ويود لو اتبعه الناس يعرضه لسخطهم ولرميهم إياه بمـا هم لابد راموه به من الزندقة والالحاد أو ما هو أكبر منهما لف ودار وقرر رأيه بجميع الصور ثم تبرأ بالهامش أو فى الصلب أن يكون قصد كفرا أو إلحـادا ، ولـكنه قصد تقرير الحقيقة ، أو أنه فعل ما فعل وأورد ما أورد للاعتبار . ولا نجـد شيئا إسلاميا سلم من سلاطة هذا الرجل وبذاءته لا الدهماء ولا العلماء ، لا الفقراء ولا الأغنياء ، لا المـلوك ولا السوقة ، لا الأمم ولا الأفراد ، لا العرب ولا العجم ، لا معاهد العلم ولا جهود المسلمين فى سبيله فى الماضى والحاضر ، لا شىء من ذلك للاسلام يلقى من صاحب الاغلال إلا الغل والضغن ، كأن ذلك كله حال فى الماضى ويحول فى الحاضر بين صاحب الأغلال وبين ما يبتغيه من جاه وقوة وثراء . ولو كان هذا الرجـل ينبض قلبه بشىء من الحب للاسلام وأهله لـكان سبيله فى تنبيههم غير سبيل تجاهل المحاسن وتلمس المساوىء والمعـايب الموجود منها والموهوم واتخاذهـا وسيلة للتحقير والتسفيه والزراية والتشهير ، ولدعاهم الى ما دعاهم ربهم اليه من العمل بدينه كما فى كتاب الله وسنة رسوله بدلا من ان يحـاول صرف ذلك كلـه عن وجهه وصرفهم عنه ـ الى أن قال ـ ولو قرأت كتابه لرأيت سحق ما انقلب اليـه ، تقرأ له فتقول دهرى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول صهيونى يتكلم ، ثم تقرأ فتقول شيوعى يتكلم ، ولعل فى هذا مـا يفسر طلبه الدنيا عن طريق مناصبته الاسلام العداوة ومبالغته فى ذلك ، حتى ليخيل اليـك أنك ازاء كلب أو ذئب عقور يحـاول أن يعقر من الاسلام كل ما يرى ، لولا أنك ترى أحيـانا من خداعه وختله ودورانه ولفـه ما يتذرك أنك تجاه عدو يكيد ولـكن كيد مفتون مغرور » هذا كلام الاستاذ الغمراوى المصرى ، وهو طويل اقتصرنا على هذا منه اختصارا ، كما تركنا كثيراً من المقالات التى هى بمعناه لـكثرتهـا وشهرتها

الكلام على المبحث العاشر
فى الاخلاق السلفية

عنوانه فى كتابه هكذا :

أمامنا لا وراءنا

ومضمون هذا المبحث هو الحط الشديد على السلف الصالح ، والصدر الأول من الصحابة والتابعين ، والقدح فى آرائهم وأخلاقهم ، وأنهم ليسوا على شىء من العلم والفهم ، وانما هؤلاء المتأخرون من الملاحدة وأمثالهم من الغربيين هم العلماء العارفون المحققون الذين يجب تعظيمهم والاقتداء بهم . وقد خادع - كعادته - فى التلبيس بالتعبير عن السلف بالقدماء ، ولكن خانته محنته فوصفهم بالوصف الذى لا ينطبق إلا على الصحابة والتابعين ، حيث ذكر فى وصفهم بأن جميع فرق المسلمين على اختلاف مذاهبهم معظمون لهم مقدمون لآرائهم ، ومعلوم أن هذا الوصف لا ينطبق الا عليهم . وغرضه الأكبر من هذا المبحث هو الرد على أولئك الجماعات الذين عارضوه فى دعايته الالحادية وهم الذين نقل عنهم أنهم يرون المجد الاسلامى المنشود ينحصر فى الأخذ بالأخلاق الدينية الأولى وإقامة الفرائض إلخ ما ذكره . وقد علم أن كثيرا من هذه الجماعات يرون أن الأساس الوحيد لاعادة مجد الاسلام هو الأخذ بما كان عليه السلف الصالح كما قال الامام مالك «لا يصلح آخر هذه الامة الا ما أصلح أولها» ، ولما كان يعلم أن من طالع كتابه هذا وتأمله حقيقة التأمل جزم بلا أدنى ريب أنه مضاد لدعاية القرآن ولما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه وأهل القرون المفضلة وأنه دعوة صريحة لتقليد الملاحدة والمنافقين العصريين ، ومعاكسة ظاهرة لما قرره المسلمون فى كتبهم المعتمدة ، لا سيما كتب السلف الصالح والصحاح والمسانيد ونحوها فى الأصول والفروع ، ولا شك أن وجود تعظيم السلف

ووجود هذه الكتب والايمان بها يضاد غاية المضادة اتباع أغلاله والأخذ بها واعتبارها ، فكان لا بد له من ازالة هذا العائق الكبير ، فانه من المستحيل أن يجمع الانسان بين الإيمان بكتابه وكتب الدين كما أشار الى هـذا فى دعواه بأنه يجب تعليم النـاس الكفر بالأولين وإفهامهم بأنهم ليسوا على شىء من الفهم والعلم كما يأتى ، فمن أجل هذا ـ ومن أجل ما ذكرناه من الأمور الاخرى ـ خصص هذا المبحث لهذا الغرض نفسه زيادة وإيضا حالما أدخله فى تضاعيف المباحث المتقدمـة . وقد نفث كل ما بصدره من غل وخبث وعداوة للدين وأهله فى هذا وأظهر من المحادة والمشاقة لله ولرسوله وللمؤمنين مالم يتجاسر على مثله أكفر كافر ولا شر زنديق

اذا تقرر هذا فاعلم أنه جرى على عادته من اختراع الكـذب ثم البنـاء عليه ، فهو فارس مغوار فى حرب أوهامه والرد على أكاذيبه المزورة ، فقد أوهم الجهلاء ومن لا يعرف عن الاسلام والمسلمين شيئا أن المسلمين عـلى جانب عظيم من الغباء والجهـل وفساد العقل ، وأنهم يوجبون تقليد جميع المتقدمين فى كل شىء ، وأنهم يدعون أن الخير كله فى كل متقدم ، وأن الشر كله فى كل متأخر ، وأن كل المتقدمين هم أهل الدين والعلم وأن جميع المتأخرين بعكس ذلك ، ثم ركب على هذا تشنيعه واستهزاءه ووقاحته وهـذيانه الطويل المتناقض ، وأى عاقل من المسلمين يعلم أن هذا كله كذب وبهت وفرية وفجور لا صحة له أصلا بهذا الاطـلاق ، ولكنهم يقولون إن الواجب المفروض اتباعهم فيما أوجب الله من الأمور الدينية التعبدية بأن يؤخذ بما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه واهل القرون المفضلة عـلى حسب ما رتبه الله ورسوله فى الايجاب وغيره ، واجتناب ما يخالف ذلك . أمـا الامور الدنيوية المحض كالامور الصناعية والتجارية ونحو ذلك فهذه ليست بأمور تعبدية بمجردها بل هى أمور عادية دنيوية يتبع فيها ما كان فيه صلاح للأمة أفرادا وشعوبا ، وجميع النصوص إنما دلت على اتباع السلف الصالح فى الأمور الدينية ، وأما الدنيوية

التى لا نص فيها فالأصل فيها الاباحة ، وهى بالقصد والنية اذا أسست على دين وهدى صارت خيرا وقوة مضافة الى قوة يثاب الانسان عليها ، وكل ما فيه نفع دنيوى فالمؤمن أحق به وأولى به كما قال النبي ﷺ « الحكمة ضالة المؤمن اذا وجدها فهو أحق بها » ولم يأت نص يمنع من تعاطى هذه الأمور ، وانما جاءت نصوص تمنع من أشياء معينة لوضوح ضررها ، أو لأن ضررها أكثر من نفعها كالربا ونحوه ، وهذا عمم الدعوى فى المتقدمين والمتأخرين بالاطلاق لقصد التلبيس وتشويه سمعة الاسلام . ومعلوم أن المسلمين ينكرون غاية الانكار على من يقتدى بأعمال الجاهلية الأولى وهم من المتقدمين فكيف يسوغ أن يقال إنهم يعظمون كل متقدم ويأمرون بالاقتداء به ، وينكرون على كل متأخر ، وهذا أمر ظاهر يعرفه أى عامى ، ولكن هذا شأنه لا يهاب من مكابرة ولا بهت ولا فجور قال :

(أمامنا لا وراءنا)

لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه (زعموه حديثا نبويا) (١)

أمس خير من اليوم واليوم خير من غد وهكذا حتى قيام الساعة

(زعموه من كلام ابن مسعود)

لا يزداد الأمر إلا شدة ولا الناس الا شحا ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق

(زعموه أيضا حديثا)

كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزيد (حديث أيضا على ما زعموا)

وكل خير فى اتباع من سلف وكل شر فى اتباع من خلف (٢)

كتب العقائد المقررة

---

(١) هذا الملحد بنفسه ممن زعمه وصححه واحتج به كما يأتى

(٢) المشهور « فى ابتداع من خلف »

قلت : هكذا ساق هذه الروايات مصدرا بها هذا المبحث ، وغرضه من ذلك أن المسلمين يعتقدونها وأنها دالة على أن كل القدماء خير من كل المتأخرين ، وهذا لا يفيده شيئا لأمور :

أولا : أن هناك روايات كثيرة أخرى فى معناها تؤيدها وتوضح معناها المراد منها ، وأن المراد أن الخير فى التمسك بأصول الدين كما فى الحديث الصحيح فى صفة الفرقة الناجية أنها من كان على مثل ما هو عليه وأصحابه كما سيأتى بيان الروايات فى هذا الشأن

وثانيا : أنه ليس فى هذه الروايات ما يشهد لما ادعاه من التعميم كما سيأتى إيضاحها

وثالثا : أن هناك روايات أخرى صريحة فى بيان المتقدمين والمتأخرين والمراد بهم كما ستراه

أما حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » فهو حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه ، ورواه أهل الكتب المعتمدة كالسنن والمسانيد ، وقد صححه هذا نفسه واحتج به على مشايخ الأزهر فى نبذته (شيوخ الأزهر) فقوله هنا « زعموه حديثا نبويا » مهزلة مضحكة . فانه ثابت فى الصحاح التى اعتمدها المسلمون ، ثم هو نفسه ممن زعم ذلك واحتج به على من خالفه ، وقد حاول هذا الملحد الفرار والتخلص منه هنا بالطعن فى صحته وتحريف معناه ، وهيهات وما كيد الكافرين إلا فى ضلال ، وسيأتى كلامه بنصه ، وأما الأثر الذى نسبه الى ابن مسعود فلا نعرفه بهذا اللفظ ، فمن الواجب عليه أن ينسبه الى مصدر معين ، وهو لم يفعل فلا يعتد بقوله لثبوت كذبه وخيانته ، ولكن المروى فى السنن عنه أنه قال : من كان مستنا بمن قد مات ، فان الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة : أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه . فاعرفوا

فضلهم ، واتبعوهم على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم فانهم كانوا على الهدى المستقيم . وعن حذيفة رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها فان الأول لم يدع للآخر مقالا ، فاتقوا الله يا معشر القراء وخذوا طريق من كان قبلكم . رواه أبو داود . فتبين من هذا أن المراد بذلك أمور العبادة . وهذا هو الذى فهمه المسلمون واعتمدوه واعتقدوه وقرروه

وأما الرواية الثالثة : فقد عزاها السيوطى فى (الجامع الصغير) الى أحمد والطبرانى وأشار الى تحسين اسنادها ، والكلام فى معناها يأتى أيضا

وأما البيت الذى ذكره فانما عنى صاحبه بقوله « وكل خير فى اتباع من سلف ، أى السلف الصالح فى أصول الدين والأمور التعبدية كما بين ذلك الشراح وكما عنى ذلك غيره وهو الذى لا يفهم أحد من المسلمين غيره بل نفس العقيدة تدل على هذا فانها فيما يختص بعقيدة الدين لا فى غيرها ، فانها لم توضع للأمور الصناعية ونحوها ، ولهذا قال « وكل شر فى ابتداع من خلف » ومعلوم ان الابتداع هو فى أمر الدين فى اصطلاح علماء الدين وهذ حرفه فنقل « اتباع » بدل « ابتداع » وبكل حال فلا حجة له فيه سواء كان بهذا أو هذا .

ثم انه ترك ما نقله العلماء الأمناء فى عقائدهم المشهورة فى هذا الشأن وتفصيلهم فى ذلك ، واكتفى بهذا البيت الذى لا حجة له فيه كما هو ظاهر

ثم قال « من الحقائق التى ترتفع اليوم على متناول النزاع أن هذا العالم كله ـ حيوانه ونباته وجماده ـ لم يزل دارجا فى طريق التطور ، متنقلا من طور الى طور أفضل ، ومن حالة الى حالة هى أدنى الى الكمال بطريقة منظمة دائبة لا يعروها توقف »

فيقال أولا : أنت خالفت هذا ونازعت فيه أشد المنازعة فلم يرتفع عن متناول نزاعك ، فعاكست فيما ادعيته هنا حقائق ، وادعيت أن معاكستك

هذه هى الحقائق التى لا يمكن الخلاف فيهـــا ولا المماراة ، فقلت فى نبذتك (الثورة الوهابية) صحيفة ١٣٩ ما نصه : « وأما الزعم أن النفوس الانسانيـة ارتقت فزعم كاذب ، والواقع أكبر دليل على كذبه ، بل الانسانية تتـــدلى بطفرة من الجهة الخلقية تدليا لا تمكن المماراة فيه ولا الخلاف فى بعد قراره ، وما يظن أنه أتى على الناس عصر فسقت فيـه النفوس وتمردت واستخصبت مرتـع الفجور والخروج على شرع الله ونظامه كهذا العصر ، والرقى المزعوم إنما هو رقى صناعى صرف لا حظ للاخلاق ولا للكمال فيه ، والرقى الصناعى إن لم يصاحبه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة على الانسانية وعلى الأخلاق وعلى الصناعة أيضا وعلى كل شىء ، وقائل غير هذا إما غاش أو جاهل » انتهى كلامك بحرفه . وهو صريح فى نقض ما ذكرته هنا ، وقد حصرت الرقى بأنه فى الصناعة فقط وأن ذلك أيضا لا ينفع ان لم يصحبـه الرقى الخلقى ، وصرحت أيضا بأن قائل غيره إما غاش وإما جاهل ، وصرحت بأن هذا الرأى مما لا يقبل المماراة ولا الخلاف فى صدقه . وهذه الحقيقة التى قلتها هنا إنما رأيتها فى الحين الذى استوقدت فيه النـــار فأضاءت ما حولك ، فلما أن ذهب الله بنورك ذهبت تنكرها وتتخبط فى ظلمات الشكوك والشبهات . وهذه الجملة كافية فى الشهادة عليك ببطلان ما ذكرته فى هذا المبحث ، بل فى أغـــلالك كلها فى الاطناب والاسهاب فى تركيز عقيدة التطور وتثبيته وكون التطور عاما فى كل شىء حتى ادعيته فى العلوم الصحيحة كلها ، وقصدت بذلك التنفير من حب السلف الصالح والبعد عن الاقتداء بهم ، فهذا الغل المحكم الذى عملته يداك يشد فى عنقك وتختنق به فلا يمكنك الخلاص منه أبدا ، لأن غاية ما تعتذر به عنه بأنك ادعيت ذلك قبل أن تكفر بعد ايمانك ، فاذا اعتذرت بهذا قيل : واذ كفرت فلا يقبل قولك فى دين المسلمين ، فان الكافر مردود قوله فى دين المسلمين ومذاهبهم ، وهذا يبطل الكتاب كله ولا يمكنك أن تتنصل منه بأن ذلك نظرية قد بان لك خلافها بعد ، فانك صرحت فيها بأن هذا شىء ضرورى

واقعى من الحقائق ، وصرحت بأن ذلك لا يمكن الخلاف ولا المماراة فيه ، وحكمت بأن قائل غيره (إما غاش وإما جاهل) ، وهذا صريح فى أن هذه الدعوى من أعظم الضروريات . ثم انك هنا فى أغلالك هذه ذكرت ضد ما ادعيته هنالك [1] وادعيت ان حقائقك ترتفع عن متناول النزاع . ويل امك فبأى حقائقك تريد أن يأخذ الناس ، تأتى الى الآراء الغامضة المتضادة ثم تدعى أنها حقائق ، وتارة تقول فيه انه يرتفع عن متناول النزاع ، وهنا تقول انه لا يمكن المماراة ولا الخلاف فيه ، وان قائل غيره إما جاهل وإما غاش ، ثم تريد أن يأخذ الناس بقولك ، فمن أين تعلمت هذه الترهات والرعونات والجنون الظاهر ، ألا قبحك الله ما أقبحك وأقبح كلامك . لقد أصبحت عورة لا يسترها حجاب ، ويكفى العاقل أن يحكم عليك بالحكم الذى حكمت به على نفسك فى هذه الجملة نفسها ، وهى أنك إما غاش وإما جاهل ، أو غاش وجاهل معا .

ويقال ثانيا دعواك هنا أن التطور فى هذه الأمور شىء يرتفع عن متناول النزاع دعوى كاذبة خاطئة ، بل كثير من أهل المعرفة فى هذه الأمور من علماء النفس وغيرهم ينازعون فى ذلك ، وهذا أحد علماء النفس عندهم المدعو (شيلر[2]) منكر استمرار التطور . وكذلك (هلدين) وهو من أشهر مشاهير

(١) سيأتى تصريحه بأن التطور شامل حتى للأخلاق .

(٢) شيلر من العلماء المشاهير الألمان وهو استاذ بجامعة بون قال فى كلام له : لم يطرأ أى تحسين على النوع البشرى منذ مدة طويلة من السنين ، وهذا ثابت بالنتائج التشريحية للجسم والمخ ، فان عقل الانسان فى القرن العشرين لا يختلف وعقل الانسان منذ فجر التاريخ . إلى أن قال : وإذا كان الانسان قد توصل الى عدد من الاكتشافات والاختراعات العظيمة خلال القرنين الأخيرين فليس يعنى ذلك أن عقله قد ارتقى أو تطور ، بل يرجع ذلك الى المصادفة فى غالب الأحيان ، والى تراكم المعلومات التى توارثها الانسان فى العصر الحديث عن آبائه وأجداده خلال مئات السنين الماضية =

علماء النفس منكر ذلك أيضا، وقد نقلنا شيئا من كلامهما فى انكار استمرار التطور، بل ادعى (هلدين) بأن الظاهر العكس[1] وأكثر من علماء النفس منكرون ذلك فضلا عن غيرهم من علماء الدين فانهم مجمعون على أن التطور فى الأخلاق الفاضلة غير صحيح

واذا كان علماء النفس أنفسهم مختلفين فى ذلك وكلامهم متضادا علم أن ذلك أمر غير محقق لديهم فكيف بغيرهم، والنصوص صريحة فى بطلانه فى الأخلاق. والكلام فى مسألة التطور طويل عريض، ونحن لا ننكر وجود التطور فى بعض الأمور، لكن هذا التطور الذى يدعيه باطل، وقد حقق الكلام السيد محمود الفيضى فى (كتاب الوجود) فى مسألة التطور كما حققه غيره.

فصل

ثم قال «وعند العلماء أن شيئا من هذا العالم لم يوجد بحالة ثابتة دائمة، ولا بحالة فيها استعداد للرجوع الى الوراء، ولا للانتقال من الكمال الى النقص، بل ثبت لديهم ثبوت الحقائق أن هذا الوجود قد وجد بدائيا، وأنه قد ظل يتنقل من وجود الى وجود ومن شكل الى شكل، وأنه قد ظل فى عملية هذا التنقل ملايين الملايين من الأعوام حتى بلغ الحالة التى تصلح لوجود الحياة فيه»

فيقال: قد علم أنك لست من أهل هذه العلوم ولا خبرة لك بها، وغاية ما لديك أن تقلد فيها بعض أهلها، واذا كان الأمر كذلك فلم تسفه آراء علماء

= بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا، والخلق هو رباط المجتمع السليم، وليس أدل على ذلك من إنشاء دور الرقص والملاهى المبتذلة وتفشى الآراء المتطرفة المادية، وفى هذا دليل على ثورة الجنس البشري على الأوضاع التى فرضتها الأديان. انتهى من (الشواهد) ص ٥٥ و ٥٦

(١) راجع مجلة الهلال شعبان ١٣٦٦

الدين من أهل الحديث والتفسير والفقه وترميهم بالجهالة والتقليد وعدم الفهم فى علومهم التى عرفوها وعلموا حقائقها حتى كانت لديهم ضرورية كالشمس ، ثم لا تكتفى بتجهيلهم حتى تعاكسهم فى أقوالهم وتحكم بالجهالة والبلادة حين خالفوك فى مثل هذه الأمور الغامضة المضادة لبراهين القرآن والسنة ، ثم تقلد فيها بعض من يدعى معرفتها تقليدا أعمى ، وتدعى بأن ذلك ثابت ثبوت الحقائق ، ثم تحتج بذلك على المسلمين ، ثم تسفه رأى من يتوقف فيها أو يكذب بها ، ثم تنقلب على عقبيك مرة اخرى فتدعى أن الانسان لا يمكن أن يفهم حتى يشك ، والذى لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، وأن الشك والفهم شرطان فى تحصيل العلم ، هكذا تقول ، وهكذا تفعل ، فلم لا تشك فى هذه العلوم الغامضة الدقيقة وأنت لست من أهلها ، مع العلم بأن أكثر أهلها ممن عرف بالخبث والكفر ومعاداة الأديان والعداوة لها . ثم مع هذا كنت فى غاية الشك والريب فى كثير من النصوص الدينية ، بل أكثرها ولا سيما أصول الدين فانك فى غاية الانكار لها فضلا عن الشك فيها ، أما كتب علوم الدين فهى عندك كما قلت فيها ليس لها أدنى قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، فكيف تقدح فى علوم المسلمين وتنكرها ثم تحتج عليهم بعلوم أعدائهم وتوجب عليهم تصديقها وتدعى أنها ثبتت ثبوت الحقائق ، ثم تركب عليها أمرا آخر وهو الاحتجاج بثبوت التطور ، ثم تركب على ذلك ما هو أدهى وأمرّ وهو أن المتأخرين من هؤلاء الملاحدة اعلم من المتقدمين وأفضل منهم وأوسع علوما وعقولا ، ثم تدعى أن هذا من الحقائق الازلية الأبدية التى لا يستغنى عنها مسلم ، وكل عاقل يعلم أن هذه الدعاوى التى افتريتها باطلة بالشرع والعقل والحس ، فان الأخلاق الفاسدة الموجودة فى الزمان القديم منذ آلاف السنين تتطور زيادتها فى الأزمنة الأخيرة تطورا مدهشا لا ينكر ، هذا مع اتفاق العقول كلها على أنها تأخر وفساد فى الفطرة وضرر ظاهر فى الشعوب والأفراد مثل الخيانات والكذب والبهت واللواط والزنا والظلم والعدوان والحروب

العدائية والأحقاد والضغائن وأمثال ذلك فهذه الأخلاق وأمثالها قد عمت وطغت فلا يستطاع أن تنتشل منها قريبك الذى تشفق عليه ، بل هى تزداد بالرغم من كثرة التعليم وتطور الأفكار فى الأمور الأدبية والصناعية ، وهذا برهان على أن النفوس تزداد انحطاطا فى اتباع أهوائها وشهواتها ، واتباع الأهواء والشهوات هو أصل أكثر الفساد . ومعلوم أن صلاح الأخلاق وتقويمها وتنويرها إنما يحصل بالعلوم الدينية الصحيحة ، فكلما كثرت العلوم الدينية فى أمة تحسنت أخلاقها وكثر فيها العدل والاحسان ، فارتفعت نفوسها وقويت وعظمت ، وكلما بعدت عن الدين وعلومه تدهورت وانحطت الى الوحشية والهمجية ، وكل مايوجد فى الأمم المتمدنة الغربية وغيرها من أخلاق راقية فانها مأخوذة من الأديان نفسها ، ولهذا كانت تعاليم الأديان هى الكفيل الوحيد لصلاح النفوس وشفائها وتقويتها وترقيتها ، وفقدانها هو العامل الوحيد لهدمها وفسادها ورجوعها الى الأخلاق الوحشية الهمجية من الظلم والعدوان والفحشاء والمنكر ، وهذا هو الواقع الذى لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة [1]

فصل

ثم ذكر العبارة الطويلة التى نقلناها فى المبحث الأول التى أولها قوله : « علم الكون ـ أول ما علم ـ فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا ـ الى قوله ـ إن أنفس شىء الدنيا كاللآلئ مثلا لا يمكن الحصول عليه لولا

---

(١) ثم الصناعة من حيث النظر اليها بالجملة لا يمكن أن يحكم عليها بأنها جاءت بخير للبشر ، فمن الذى يستطيع أن يقول ان الغاز الخانق وما استنتجه علماء البكتريا من مكروبات أو ان القنبلة الذرية كل هذه جاءت تحمل الخير والراحة للشعوب ، بل أكثر المفكرين يرون أن ضررها فى الجملة أكثر من نفعها ، فثبوت مطلق الخير فى تطورها للبشر جملة ممنوع فيحتاج الى تحقيق ونظر

خضوعه لهذه العملية، أى عملية التطور، وهذه العبارة تتضمن كيفية تخلق هذا العالم، وأن الشموس ولدت السيارات والسيارات ولدت الأقمار حتى قال فيها: « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة، والنواميس التى تحكمها أى تحكم الكائنات الحية إنما ورثتها من أصلها التى هى المادة الجامدة. فلا غرابة إذن فى كون القوانين واحدة متفقة فى الحى وفى الجماد » الى آخر عبارته المتضمنة بأن العالم يحكم نفسه بنفسه لا بمشيئة الله وقدرته. ونحن نسوق عبارته برمتها إيضاحا للحقيقة، وان كانت قد تقدمت، لمناسبة الإتيان بها هنا فقال:

« علم الكون - أول ما علم - فى حالة غازية منتشرة فى الفضاء انتشارا متناسبا متسقا، مثل أن تبخر مقدارا من الماء فى غرفة تساوى فيها ضغط الهواء، أو مثل أن تنثر مقدارا من الدقائق فى مكان نثرا متساويا. وقد بقى كذلك ملايين السنين أو ملايين الملايين حتى استطاع بتفاعله المستمر [1] أن يفلت من هذه الحالة الغازية أو السديمية الى حالة التكتل والتقاص، فأصبح كتلة واحدة هائلة، أو ذرة كونية ضخمة اجتمع فيها الوجود أجمع. فبقى على هذه الحالة ملايين السنين أو ملايين الملايين، وهو يتفاعل فى حقيقته تفاعلا مستمرا استعدادا للانتقال الى وجود آخر أفضل وأكمل. وبعد التفاعل اللازم المقدور انفجر هذا الكون المحشوك المحشود فى ذرته انفجارا فجائيا فى الظاهر، موقتا معلوما مقدورا فى الباطن، مثل ما تنفجر قنبلة مملوءة بالمواد المتفجرة. فتطايرت منه الدقائق والذرات تطايرا قائما على الحساب الدقيق، فتفرق فى الفضاء كتلا هائلة غازية، فبقيت هذه الكتل المتفرقة تتفاعل وتجتمع وتتكتل ملايين السنين أو ملايين الملايين، حتى أصبحت نجوما وشموسا. ثم أخذت هذه النجوم والشموس بالتفاعل نفسه والاستعداد

---

(١) انظر كيف أسند استطاعته الى نفسه فى هذا الأمر العظيم على حد قوله

المخبوء فيها للتطور تنقسم على نفسها وتنفصل عنها النجوم والسيارات والتوابع ليكون من كل شمس من هذه الشموس مجموعة متماسكة من هذه المجموعات التي يدعونها اليوم المجموعات الشمسية أو المجموعات النجمية التي إحداها مجموعتنا الشمسية التي نحن إحدى رعاياها ... وقد راحت هذه السيارات التابعة لغيرها تنقسم على نفسها أيضا وتنفصل عنها الأتباع وتلد الأقمار لتكون - أي الأقمار - من حولها كما كانت هي من حول شمسها . وهذه العمليات الانفصالية أو التوالدية تشبه عمليات التوالد والانقسامات بين الأحياء التي يكون الغرض منها إيجاد مجموعات أو فصائل حيوانية أو نباتية تتعاقب وتتوالد خضوعا لسنة هذا الوجود . والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التي تحكمها - اى تحكم الكائنات الحية - إنما ورثتها من أصلها الذي هو المادة الجامدة . فلا غرابة إذن في كون القوانين واحدة متفقة في الحي وفي الجماد . وبعد هذا التوزع وهذه الانقسامات في ذرة الكون الاولى الكبرى لم يكن شيء منه صالحا للحياة أو للاستقرار بل لقد قدر العلماء عمر الشمس قبل أن توجد الحياة في الارض - وهي منفصلة عنها - بنحو خمسة ملايين مليون سنة ، وقدروا عمر الارض بنحو ألفي مليون سنة ، وأن الحياة لم توجد فيها إلا من نحو ثلاثمائة مليون سنة [1] أي إنها ظلت حوالى ألف وسبعمائة مليون سنة تتهيأ لتكون صالحة لظهور الحياة عليها ، وقدروا عمر الانسان في الأرض بثلثمائة ألف سنة ، وهذا أحد التقديرات كما هو معلوم ، ومعنى هذا أن الأرض بقيت ما يقرب من ثلثمائة مليون سنة صالحة لوجود الحياة فيها قبل أن تصلح لوجود حياة الانسان الذي هو أرقى الموجودات

---

(١) قال (لو كنت دي نوى) مؤلف كتاب (مصير الانسان) ومن أشهر مشاهير علماء الطبيعة « لقد استحال علينا حتى اليوم أن نعرف معرفة دقيقة كيف بدأت الحياة » ذكره في (الشواهد)

فيها ، أى انها تهيأت لوجود حياة الكائنات الدنيا فيها قبل أن تتهيأ لوجود حياة الانسان المحدود كائنا راقيا . وما من شيء في هذا الوجود وصل الى حالته التى هو عليها إلا بعد أن سلك هذا السبيل ـ سبيل التطور المنظم البطيء ـ فما جاءت الشموس ولا السيارات ولا الأقمار ولا النجيمات ولا كل هذه العوالم إلا من هذا الطريق »

قلت : فهذا برهانه على مسألة التطور ، وهذا برهانه على القدح في السلف الصالح ، وأن ملاحدة هذا العصر أعلم منهم وأفهم . وانظر الى النقطة الخبيثة في قوله « والموجودات الموصوفة بالكائنات الحية ليست إلا نسل المادة الجامدة ، والنواميس التى تحكمها ـ أى تحكم الكائنات الحية ـ إنما ورثتها من أصلها الذى هو المادة الجامدة » تجد هذه العبارة صريحة جدا في أن النواميس من المخلوقات المولودة وأنها هى التى تحكمنا وتحكم غيرنا من الكائنات الحية ، فصار العالم يحكم نفسه بنفسه ، ولم يجعل لله حكما لا في هذا الموضع ولا في غيره ، فعزل الله تعالى عن ملكه عزلا تاما ، فالمشيئة العليا عنده لا دخل لها في التصرف في هذا العالم ، وكون القوانين واحدة برهان على نقيض قوله ، فانه اذا كان الأمر كذلك في القوانين فهى آية من آياته وأنه المتصرف فيها ، وأن النواميس محكومة تحت المشيئة ، اذ من المحال أن تنسجم القوانين أو ينسجم شيء من الأشياء انسجاما صحيحا كاملا من غير أن يكون انسجامه صادرا عن حكمة واتقان وعلم وإرادة ، فان أمور الفوضى كلها متناقضة مضطربة ، بخلاف أمور الحكمة والعلم والارادة والاتقان . ثم المصيبة العظمى أنه ذكر ما ذكره في خلق العالم واعتمد عليه ودعا اليه وادعى أنه حقائق بل وجعله برهانا وقاعدة لهذا المبحث الخبيث كله في معارضة أهل الأديان كلهم ، وقد علم كل من له أدنى إلمام بعلم الهيئة أن أهل الهيئة أنفسهم مضطربون في هذه المسألة اضطرابا كثيرا لا ينضبط ، وأن هذا القول الذى ادعاه ساقط لا يعتد به الآن عندهم فضلا

عن غيرهم [١] وليس غرضنا هنا ذكر كلامهم فأن النصوص كافية لمن يؤمن بها في إبطال ما ادعاه من أصله ، فان الله سبحانه قد أخبرنا عن خلق السموات والأرض وخلق الانسان بأحسن كلام وأجله وأجمله كما هو مذكور فى سورة فصلت وفى سورة النازعات وغيرها ، وقد كرر تعالى ما ذكره فى خلق آدم فى عدة سور لأنه تعالى قد علم ما سيكون فبين هذه الأصول بأوضح بيان لعلمه أنه سيكون فى هذه الأزمنة زنادقة وملاحدة يشبهون على الناس ويشككونهم فى معرفة الحق ودلائله ، وقد قدمنا سياق الآيات كما قدمنا كلام أهل العلم فى هذه الأصول مثل كلام الشيخ تقى الدين بن تيمية . ثم إن نفس هذه الدعوى تبطل مقصوده فى التطور ، فانه ادعى أنه وجد بدائيا ، ومعلوم أنه إذ ذاك لا يخلو من ثلاثة أمور : إما أن يعترف أنه كان فى الأزل كذلك على حالته ، وهذا يوجب أن يكون ثابتا أزمانا سحيقة ، وينتقض قوله فى عدم الثبوت ووجود التطور المستمر . وإما أن يكون مستحيلا عن حالة غير الغازية والسديمية ، فان كان عن حالة أكبر وأعظم منها صار متحولا ، وهو ضد التطور ، وإن كان عن حالة دونها فلا بد أن ينتهى الى مبدأ يقف التطور عليه وتنتقض دعوى ازلية التطور وأبديته أيضا كما تنقض دعواه أنه لا يوجد شيء من غير سبب مادى يخالف نواميس الطبيعة كما تقدم مرارا . وبالجملة فدخوله هنا فى هذا العلم الغيبي ، ثم جزمه بما ادعاه بدون برهان ، ثم احتجاجه به مع مصادمته للنصوص دليل على ضعف عقله وطيشه . ومسألة التطور مسألة طويلة عريضة وكلام الناس فيها كثيرا جدا ، وقد قبلها واحتج بها بحذافيرها مع

---

(١) قد أشار الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة فى كتابه (الشواهد والنصوص) صفحة ٥٣ الى ضعف هذه النظرية التى هى نظرية (لابلاس) عند أهل الهيئة ، وأشار الى ما ذكره شيلر وجيمس وهما من أشهر مشاهير علماء هذه البحوث وأنهما قررا خلاف هذا ، فراجعه

أنه ليس من أهل المعرفة بهذه الأمور ، وإنما هو مقلد لغيره جامد على قول مهجور ليس عليه أثارة من علم ، بل هو باطل شرعا وعقلا ، وبطلانه لا يخفى على من عرف حقيقة دين الاسلام ، فلا نطيل فى رده زيادة على مـا تقدم فى المبحث الأول

فصل

ثم أخذ يبرهن على ما ادعاه فى التطور فقال :

« إننا نزرع الأرض حتى نرهقها بالاستغلال ، وحتى نسرف فى امتصاصها وامتصاص قواهـا الى أن تعجز عن إعطائنا ما نطلب منهـا ، والى أن تـكاد تضعف عن القيام بوظيفتها ـ كما يفعل أحدنا اذا أرهقت قواه بالأعمال الشاقة ـ فنتركها لا تعطينا ولا نأخذ منها . ثم نرجع اليها مرة أخرى بعد مدة من الزمان فاذا بها قد استرجعت قواها وعادت قادرة على أن تعطى بسخاء . فكيف حصل هذا . إن يد التطور ويد الاستعداد للنمو والتحسن قد امتدت الى هذه الأرض فرجعت اليها ما فقدت وصيرتها قادرة على تأدية عملها . اننا نعمد الى الشجرة فنشذب أوراقها ونجور على أغصانها فندعها عارية ، ولـكن نرجع اليها بعد مدة فنجدهـا قد اكتست بأوراق وأغصان أخرى . فلماذا هـــذا . إنه الاستعداد الطبيعى للتطور ، ولولاه لبقيت كما تركت عارية جرداء » انتهى

فهـذه براهينه على اثبـات التطور الذى أطـار عقله فاستنبط به وجوب الاقتداء بافعال المتأخرين ورفض آراء السلف وأخلاقهم من المتقدمين . وهذا الذى ذكره هذيان بارد ليس فيه شيء من التحقيق أصلا . أما الأرض فما ذكره فيها فمنقوض بالأراضى التى لا تختلف زراعتها مهما زرعت فى كل وقت وهى كثيرة كاراضى تهامة باليمن فانا شاهدنا ذلك فى أكثرها ، إنها تزرع كل وقت صيفا وشتاء ولا تختلف زراعتهـا مع عدم استعمال أى شيء من الأسمـدة أو

غيرها [1] ويقال أيضا هذه الأرض التى تزرعها على الصفة التى ذكرتها ليس فى ذلك ما يدل على التطور ، فان غاية ما ذكرته أنها استردت قوتها الممتصة لا أنها زادت شيئا فوق القوة الأصلية المأخوذة منها ، وهذا ليس بتطور ، فانها قد كانت متوفرة فيها مواد نمو الزراعة وأضعفها امتصاص الزرع فنقصت لذلك وتحولت من القوة الى الضعف ، فلما تركت عادت اليها تلك القوة المفقودة إما لأجل مواد واردة عليها بسبب السيول والرياح أو لاجل تأكل العروق الموجودة فيها أو غير ذلك ، وعلى كل حال فالقوة المسترجعة لا تكون أكثر من القوة الأصلية الموجودة قبل الزراعة ، فان العناصر الاصلية على ما هى عليه ، إنما الزيادة والنقص فى المواد ، وهى تارة تضعف وتارة تقوى ، وهذا ليس بتطور حقيق ، فان التطور هو الزيادة شيئا فشيئا فى الكم والكيف لا استرجاع قوة فائتة ، فان هذا إعادة مفقود الى محله الاصلى . ومعنى هذا كله أن هذه الأرض عادت على ما كانت عليه من قبل ، لا أنها زادت عما كانت عليه قبل ذلك ، ومعلوم أن هذا لا يسمى تطورا ولا يفهم أحد منه معنى التطور الحقيق ، أما الشجرة فانها إذا شذبت أوراقها أو شيء من أغصانها ثم عاد على ما كان عليه فهو جبر نقص حادث لا أنها زادت تطورا فزادت على ما كانت من قبل ، فانه لو كان الأمر كذلك لزادت الشجرة زيادة مستمرة بهذا الفعل وهو خلاف المشاهدة فانها لا بد أن تقف على مستوى الشكل الطبيعى لها ، وسبب هذا فى الأرض وفى الشجر وفى الحيوان أيضا أن الله تعالى خلق هذا الفرد على شكل معين متناسب متسق غاية الاتساق والاتزان ، فاذا حدث فيه نقص لا يُذهب شيئا من العنصر الاصلى فانه يعود الى هيئته الأصلية والى مستواه الطبيعى لأن عناصر النمو التى بها حدث تكوينه قائمة حية ،

---

(١) أى لا ينقل الناس اليها شيئا كغيرها بل يكتفى بعضها بالرياح ، وبعضها بالسيول ، أو بما يحترق مما بق من تلك المواد التى زرعت بها . ولماذا لا تتطور الأرض السبخة فتنبت الأشجار أو تنقلب عن حالتها بدون تبدل أو تغير

أما اذا ضعفت فانه يضعف استعداده لتكميل ما نقص به بمقدار ضعف العنصر الأصلى ، وهذا يتفاوت كثيرا فى الانواع ، فان النخلة اذا شذبت جريدتها الخضراء الكاملة فى البلوغ لم تعد كالعضو فى الانسان ، لكن النخلة تستعيض عن ما شذب منها بخروج جريدة أخرى بدلا عنها سواء شذبت أو لم تشذب لان النخلة تنمو من جهة وتتحول من جهة أخرى ، بخلاف الانسان فانه اذا قطع منه عضو أصلى فانه لا يعود على حالته وانما يعود ما كان قابلا للعودة ، كما اذا مرض وضعف ثم عوفى أو جرح جرحا لا يتلف شيئا من عنصره الأصلى الذى لا يسترد ، فما ذكره لا يصح دليلا على التطور ، بل لو ادعى مدع العكس ، أى أن ذلك يدل على التحول لكانت دعواه أقرب الى الصحة من قول هذا ، وذلك أنه اذا توبع فى الشجرة على الشذب فى الأغصان أو الأوراق فانها تضعف وربما تتلف ، ثم انها اذا تركت فلا بد أن تتحول الى النقص شيئا فشيئا ثم الى التلف . فالنبات ومثله الحيوان له ثلاث حالات : الحالة الأولى الضعف البدائى ، ثم يأخذ فى النمو الجسمى وما يتبعه ، حتى يصل المستوى وهى الغاية التى ينتهى اليها فى حدود وجوده الطبيعى ، ثم يرجع الى مبدئه متحولا ضد حالته الأولى الى أن يكاد أن يصل الى حالته الأولى فى الضعف حتى ينعدم وهكذا ، فاذا احتج بتطور نحو الشجرة أو الحيوان من هذه الناحية أمكن لمعارضه أن يحتج عليه بالعكس فى التحول ، قال تعالى ﴿ الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة ، ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ، يخلق ما يشاء وهو العليم القدير ﴾ فجميع النباتات والحيوانات على هذا المقياس ، لان ايجادها على هذه الصورة ثم إحالتها ثانيا من أبدع مظاهر القدرة والعلم والحكمة والدلالة على البعث والنشور ، كما أن ذلك أيضا برهان واضح على ضعفها وعجزها وعدم قيامها بنفسها ، وأن وجودها ونموها وتلفها راجع الى أمور غيبية ، فأن العناصر والقوابل الأصلية الكلية هى هى ثابتة ، فلو كانت هى الموجدة لها بالذات والطبع لدامت بدوامها ، فان العلة الكاملة يجب وجود

معلولها ودوامه بدوامها ، هذا مع اختلاف أجسامها وأنواعها وألوانها وأعمارها وما فيها من بديع الصنعة والحكمة وحسن الاتقان ، فتبارك الله أحسن الخالقين

ثم قال « إن كل شيء أمامنا يقوم بهذه العملية قياما بديعا منظما ، ولولاها لما حصل شيء جديد ولا صورة جديدة فكل ما يحدث مما يجدد الصور والمظاهر والألوان ، ومما يعيد ما فقد ، ما هو إلا تطور وقيام بعمليته »

فيقال : هذا ممنوع يعرف منعه مما تقدم ، فان الصور المتجددة عوض عن صور متحولة ذاهبة ، فهي صور تصوّر وجود أمهاتها السابقة فهي مثلها ، فالتطور والتحول متعاقبان ـ في الصور والمظاهر ـ كتعاقب الأيام والليالي مع أنهما ليس فيهما تطور والحكمة تجدد آيات الله على كل متجدد وتكررها على كل متعاقب ، والعبرة بها والتفكير فيها والاستدلال بها على قدرته ومشيئته وإرادته وعلمه وحكمته ورحمته ، فهي صور تخرج لصور عن صور منعدمة متحولة ، وهذا ليس بتطور حقيق ، فالتطور هو الزيادة العامة في الأصول والفروع والكليات والأفراد ، وهذا الذي ادعيته ليس من هذا بل هو في الأفراد خاصة مع كونه باطلا ومع كونه خارجا عن محل النزاع ، فان محل النزاع هو في تطور الأخلاق والعلوم الدينية ، وأما العلوم الصناعية فتطورها ناشيء عن التجارب والضعف والحاجة والضرورة ، فأن الضعف والحاجة والضرورة سبل الى شدة الخوف والرجاء وذلك يبعث على التفكير والتماس النجاة ، وذلك يبعث على العمل والرياضة فيه وكثرة التجارب وتقليب الأفكار ، مع أن كل جيل لا بد أن يكون له فكر متجدد على حسب ضعفه وحاجته وفساد خلقه ، فلا بد أن يكون له زيادة عمل فيما يناسب خلقه [1] ولهذا كانت الأخلاق الصحيحة لا

(١) لان كل فرد له ميزة عن غيره في النظر والتفكير إما قوة أو ضعفا ، فيستحصل من المجموع أفكار متنوعة يؤخذ منها ما يحتاج اليه بحكم الضرورة المتزايده فيتفق مع =

تتجدد وانما يتجدد ضدها ، فالحروب مكروهة عند أكثر البشر ومع ذلك تزداد ، وزيادتها دليل على فساد الأخلاق ، وكذلك الظلم والارهاق . على أن تطور الصناعات ليس خيرا كله ، بل ربما يكون أكثره شرا ، ثم هو تطور جزئى قليل بالنسبة الى غيره ، وهذا الرجل نفسه قد ادعى فيما مر أنه إن لم يصحبه الرقى الخلقى عاد هبوطا ونكبة كما تقدم . وأتباع السلف لم ينكروا تطور الصناعات كما سبق بيان هذا ، فما دام معترفا بأن تطورها ليس بتطور فى الأخلاق مطلقا فلا حاجة الى تطويل الاستدلال على ذلك ، لأن اعتراف الخصم يغنى عن إقامة الدليل عليه

ثم قال « ان دفن الحبة فى التراب أو ركز الغصن فيه ، ثم خروج تلك الحبة أو ذلك الغصن وارتفاعه فى الفضاء ، ثم تقسمه الى أغصان وأوراق وسيقان وأزهار وثمار ما هو إلا لون من ألوان التطور »

فيقال : هذا مردود أيضا ، مع أنه فى الأفراد خاصة ، وهو بديهى البطلان ، فان كل فرد من هذه يتحول حتى ينعدم فان خروج الحبة أو الغصن على هذه الحالة ما هو إلا ظهور صورة متجددة عن صورة متحولة او ذاهبة ، أو ما هو فى حكمها ، اذ لولا ذلك لانقطع النوع ، ولكن الله سبحانه أراد بقاءه ، فهو جل وعلا جعل الحبة والنواة أداة لايجاد النوع وإبقائه بحيث كلما ذهب نوع بآفة أو غيرها استعيض بدله وكان الحب أو الغصن يقوم مقام أبيه لحكم كثيرة منها تيسر نقله وغرسه واستعماله ولأنه أبدع فى مظهر القدرة كما نبه على ذلك فى القرآن العزيز ، ولهذا كانت حبة القمح مثلا تخرج مثل أمها لا

= زيادة الحاجات وزيادة الأفكار ، وهذا هو سبب التطور الصناعى ، بخلاف الخلق فهو بعكسه لان الترف الحاصل من تطور الصناعات يدفع الى حب الشهوات والفساد ، وهذا الحب يدفع الى فساد الأخلاق فانحلال الاخلاق وفسادها نتيجة الترف والترف نتيجة حصول شهوات النفس ومطالبها بسبب الصناعات المقتضية لذلك

أكبر منها ولا أصغر ، والنخلة أو غيرها كذلك ، وكون الحبة تأتى بحبات متعددة لأمور : أولا أن أمها الأصلية كذلك وهى إنما تعطى صورتها وتؤدى رسالتها الصادقة . وثانيا أن الحبات الزائدة كالوقاية عن فناء النوع ، فانه لو كانت الحبة لا تخرج إلا حبة واحدة لا نقطع النوع ، لان الآفات والعوارض كثيرة فى الاتلاف ولا سيما فى مثل الحبوب المأكولة ، وهذا يوجب الانقطاع . ثالثا أن الحب الزائد بمنزلة النفقة على بقاء الأصل ، فانه لو كانت الحبة لا تنبت إلا حبة مثلها مع كونها تستنبت وتحتاج الى عمل كبير ـ لم تزرع وتستنبت لعدم الفائدة ، والله سبحانه جعله غذاء باقيا نوعه ، فالزارع إنما يزرع ليكتسب فائدة عمله فيكون الزائد فى مقابلة العمل والنفقة على إيجاد النوع ، وهذا مطرد فى النبات الزراعى وكذلك الحيوان أيضا كالدجاج وكالجراد أيضا فانه لما كان حيوانا مستضعفا تطمع فيه أكثر الحيوانات على اختلاف أجناسها وأنواعها كثر نسله ليبقى نوعه ، وكذلك الشجر الذى لا ثمر له وينتفع به فان خشبه يقام مقام ثمرة ، وأما شجر البادية فلقلة نفاسته قلت مؤنته إلا إذا كان نفيسا مرغوبا فيه فلا بد أن يكون الحصول عليه شاقا أو يكون قليلا غالبا كما لا يخفى على من تتبع ذلك

ثم قال « لقد ثبت أن كل شىء فى الحياة يتحسن اذا لم يوجد ما يفوقه ، وأن طبيعة كل شىء دائبة على عملية التحسين المستمر الدائب ، وثبت أن الأحياء الثلاثة ـ كما ثبت ذلك للجماد ـ فى عملية متواصلة فى سبيل التحسن والتحسين »

ونحن نعارضه بمنع الثبوت ، ويكفى أنه بنفسه قد منعه فى كلامه المتقدم ، فكل هذه دعاوى لا مستند لها فلا تقبل ، على أن قوله « اذا لم يجد ما يعوقه » كاف فى فساد دعواه ، فاننا نقول وجد ما يعوقه عن التطور الكلى وهو النقص الطبيعى ، فان المخلوق ناقص بالطبع ، فقولك ان كل شىء فى الحياة يتحسن اذا

لم يجد ما يعوقه كقول الآخر كل شيء كامل اذا لم يوجد ما يمنعه من الكمال وأمثال ذلك ، فهذا العائق أصلي طبيعي لا بد من وجوده

ثم قال « اما الانسان فليس هناك شك فى أنه كان منذ ثلاثمائة سنة ـ دع أكثر من ذلك ـ أضعف منه اليوم أجساما وعقولا ومعارف ، وليس هناك من يرتاب فى أنه فى هذه الثلاث المائة السنة قد تحسن من ناحية الصورة ومن ناحية التفكير ومن ناحية القوة البدنية تحسنا عظيما »

فيقال : نعم قد يكون ليس هناك من الزنادقة ممن يرى رأيك من يرتاب فى هذا الذى ادعيته لأنه ليس هناك من له مسكة من عقل ودين يشك فى بطلان ما ذكرته ، ويكفى فى بطلان هذه الدعوى أنك قد صادمتها وادعيت نقيضها فيما نقلناه عنك فى إبطال دعوى التطور فى غير الصناعات . ويحك كيف يشك مسلم أن هذه الثلاثة القرون المتأخرة خير من الذين قبلهم ، بل خير من القرون التى اثنى عليها النبى ﷺ بقوله « خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » وقد صرح فى هذه الطامة المرذولة بأن القرون الأولى التى قبل هذه القرون الأخيرة الثلاثة أضعف عقولا ومعارف وأفكارا من هؤلاء المتأخرين ، وأكبر من ذلك وأطم دعواه أنه ليس هناك من يشك أو يرتاب فى هذه الدعوى ، ونسى هذا الملحد أنه ادعى فى هذا المبحث نفسه ما ينقض هذا حيث قال فى صحيفة ٣٠٢ ما نصه « ولقد يعجب المرء اذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام قد عقمت فى عددها العديد وعمرها المديد عن أن تلد مولودا واحدا »[1] انتهى . ومراده بهذا أن هذه الجامعة قد بلغ عمرها من الطول

---

(١) المقصود من تناقضه هنا أنه معترف بأن عمر نوح طويل جدا سواء كان حوالى ألف سنة أو قريبا منها ، وهو هنا يعلم أنه ليس فى القرون الثلاثة من بلغ عمره قريبا من هذا ، فأين التطور والتحسن فى القوة البدنية ونحوها ، فكيف تتفق دعواه هنا وهناك

أكثر من عمر نوح أى فوق ألف سنة تقريبا ، فهذه الجامعة الاسلامية التى بلغت هذا المبلغ عجزت عن أن تلد واحــدا ينفعها نفعا صحيحا ، فقد أقر بطول عمر نوح وبلوغه هـذا المبلغ وإلا لم يكن لضرب المثـل بعمره فائدة ، وهو يريد أنه هو المولود الوحيد فى هذه الجامعة فانه طلب أن يكون هو المقدم فى الأمر الى غير ذلك مما أسلفناه فى ادعائه لنفسه ، وانما يحصل هذا الادعاء لمن فيه نوع من هذه المزية ، وقد ترك جميع ما مدح به شيخ الاسلام ابن تيمية فى الصراع وجعله الامام الوحيد بعد القرون المفضلة الخ ما مدحه به ، وقد قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحا الى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامــا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾ وهذا صريح فى أن نوحا بلغ من العمر ما ينيف عن ألف سنة ، فاذا كان معترفا بذلك فكيف يدعى أن هؤلاء المتـأخرين فى القرون الثلاثة أقوى أجساما الخ ، ثم هـــذا صريح أيضا فى نقض دعواه فى التطور فى القوة البدنية ، وفى الصحيحين عن النبي ﷺ أن طول آدم ستون ذراعا فى السماء ، والآثار الصحيحة فى هذا أكثر من أن تحصر ، ومن تأمل أفعال الأولين فى آثارهم الباقية وأفعالهم وأقوالهم ومكرهم علم أنهم أدهى من المتأخرين فى هذه الأزمنة ، وقد قال لوط عليه السلام لقومـــه ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ وهذا يدل على أن فساد الأخلاق فى الزمان الأول أقل ، فان اللواط أعظم فساد خلق كما قال الخليفة الوليـد بن عبد الملك : لولا أن الله ذكر اللواط فى كتابه ما ظننت أن احـدا يفعله ، أى لنفور الفطرة منه . ثم إن هذا القول الذى قاله مجرد دعوى مصادمـة للشرع والحس والتاريخ المتواتر ، فيكتفى فى ردها بالمنع ، فمن أين له أن المتـأخرين أكمل عقولا ومعارف وأفكارا من الأولين وأنهم أحسن صورا وأبدانا منهم ، ومعلوم أن مثل هذه الدعاوى العارية من الحجة لا يعجز كل مـدع أن يدعى مثلهـا

ثم قال « وليس تطور الحضارة إلا تعبيرا عن تطور الانسانية ، فلو أن الانسان لا يتطور فى وجوده العام لما أمكن أن تتطور حضارته ، وليس ثمة شىء يرجع الى الوراء ويتقدم القهقرى ، بل كل ما فيها لا يعرف إلا طريقا واحدة تؤدى به الى الأمام وإلى الأمام دائما »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، إنما هو تعبير عن تطور الصناعة فقط ، وهذا مما لا خلاف فيه ، ولا يلزم منه تطور حسن الصور ولا الأفكار ولا العقول ولا الأجسام لما تقدم ، وها نحن نرى أناسا نشأوا فى الحضارة ولهم فيها أصول عريضة وليسوا فى صورهم بل ولا اجسامهم بأحسن من غيرهم ممن نشأوا فى البادية الساذجة ، بل يوجد كثير من الجمال البارع والصور البديعة فى كثير من البوادى مالا يوجد مثله فى أناس من المتمدنين

وكذلك يقال فى الاجسام والأفكار وصحة التصور كالشعر وغيره ، بخلاف الصناعات لان أكثرها أمور اكتسابية بالتعليم ، ولهذا اذا علم أن هؤلاء الذين ليس لهم أصل عريق فى الحضارة لم يكادوا يقصرون عن غيرهم فى الفطنة والذكاء وقبول التعليم ، فعلم أنه لا يلزم من تطور الحضارة وجود التطور فى كل شىء ، بل ذلك راجع الى الأمور الصناعية وما يتعلق بها ، هذا مع أن كلامك الماضى ينقض هذا نقضا بينا كما تقدم . ثم أى علاقة فى هذا بأن المتأخرين أصح آراء من الأولين فى كل شىء ، ومعلوم أن أكثر أصول هذه الحضارة مأخوذة عن الأولين فهى موروثة عنهم ، وانما غير فيها الآخرون حسنا وقبحا أيضا ، وقد بينا فيما مضى أن الإلحاد رجوع الى الوراء بلا شك وهو فى المتأخرين فى هذه العصور أكثر ، كما أن فساد الأخلاق فيهم أعم

ثم قال « وكما دل على هذا العلم فقد دلت عليه أيضا نصوص الدين ، فقد جاء بأن هذا الوجود كله كان دخانا كما قال فى الآية السابقة ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان ﴾ ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس

والسيارات والارض وكل شيء فيها .

فيقال : لكن الذى أخبرنا بأنه استوى الى السماء وهى دخان وأنه خلق السموات والارض هو الذى أخبرنا بأن نوحا مكث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ، وأخبرنا رسوله بأن طول آدم ستون ذراعا فى السماء وأخبرنا بأنه لا يأتى زمان الا والذى بعده شر منه ، الى غير ذلك من النصوص الواضحة فى الدلالة على أن الانسان يتأخر فى الجملة لا يتقدم ، فالعلم العقلى الصحيح دل على أن الانسان يتأخر ويضعف فى أموره كلها وكذلك النصوص التى لا تعد ولا تحصى ، فمن هو الذى يبلغ الآن فى العمر ما بلغ نوح أو قريبا منه ، وهذا كاف فى بطلان ما تدعيه . ثم النصوص انما دلت على خلق السموات والأرض على تفصيل يناقض تفصيلك كا دلت على أن الانسان الأول أكبر وأقوى أجساما وأطول أعمارا ، ثم قوله تعالى ﴿ ثم استوى الى السماء وهى دخان ﴾ الآية صريحة فى أنه خلق الأرض قبل السموات ، وأنت عكست الدعوى فجعلت الأرض مخلوقة بعد السماء بملايين السنين ، فانها من السيارات المولودة من الشموس ، وأيضا النص دل على أن السماء حين خلق الأرض دخان ، وأنت عكست مدلوله فقلت ومن هذا الدخان أو الغاز أو السديم خلقت الشموس والسيارات والأرض وكل شيء فيها وهذا يناقض الآية مناقضة صريحة ، فانه أخبر بخلق الأرض فى يومين وقدر أقواتها وبارك فيها فى يومين ، ثم ذكر بعد ذلك أنه استوى الى السماء وهى دخان . وكل مسلم عاقل يعرف أن النصوص لا تنطبق على ما ذكرت أبدا ، فكيف تحتج بما هو حجة عليك ، ولكن هذا شأن المنافق يريد أن يجمع بين الدين والكفر والايمان والنفاق كما هو شأنك فى هذه الأغلال ، وكما هو شأنك فى الذبذبة دائما بين الأصناف المتباينة

يوما يمان إذا ما جئت ذا يمن   وإن لقيت معديا فعدنانى

ثم قال « وجـاء فى النصوص أن الوجود كله فى تغير وتغيير مستمرين فى طريق الكمال، فى الكتاب الكريم ﴿ يوم تبدل الأرض غـــير الأرض والسموات ﴾ وهذا يوم القيامة »

فيقال : قد ذكرت فيما مضى أن هذا العالم محكوم بسنن لا تقبل التغير ولا التبديل ولا الزيادة ولا النقصان ، فما هذا التقلب والمراوغة المنكرة . وليس النزاع فى التغير والتبديل مطلقـا ، فان الرجوع والتقهقر تغير وتغير أيضا فلمَ لم تقبله ، إنما النزاع فى وجود التطور فى العلوم الصحيحة وأن المتأخرين خير من السلف الصالح ، وفرارك الى تطور العالم وتبديله يوم القيامة لا يفيدك شيئا فهو مع كونه خداعا لا يخفى على مسلم فهو خروج عن محل النزاع ، فان كلامك فى التطور الدنيوى والنزاع فيه ، ولم ينكر أحد من أتبـاع السلف فى وجوده يوم القيمة فلا حاجة الى هذه المداجاة والخداع الظاهر

ثم قال « وفى الكتاب ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾ وليس من اللازم علينا أن نلتزم مـا قاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطـوار ، وانما اللازم أن نطلق ما أطلقه الله وأن نحمله على أحسن الوجوه والمعانى »

فيقال : هذا تناقض ظاهر ، كيف تدعى أنك تطلق ما أطلقه الله ثم تدعى أنك تحمله على أحسن الوجوه والمعانى . ومعلوم أن حمله على هـذه الوجوه ضد إطلاقه ، مع أنك حملته عـلى أقبح الوجوه وأكرهها وأفسد المعـــانى وأخبثها . ثم انك تناقضت أيضا من وجه آخر حيث ادعيت أنك لا تلتزم ما قاله بعض الشيوخ فى تفسير الأطوار ثم التزمت ما قاله بعض الشيوخ الخبثاء ممن هو مثلك ورفضت ما قاله جميع شيوخ الملة والدين ، ولعل مرادك أنك لا يمكن أن تلتزم بأقوال شيوخ الدين وتلزم ما قاله بعض شيوخ الملاحدة ، أو لعل السبب أنك أنت المقدم فى كل أمر ، ومن هو كذلك فليس من اللازم أن يلتزم ما قاله بعض الشيوخ أو كلهم كما ادعيته فى الموضع الآخر ، لان ذلك

ينافى التقديم [1] والذى يوافقه هو حمله على مقتضى ما يوافق هواك وإرادتك وتدعى أنه أحسن الوجوه والمعانى لكونه صدر من الشمس التى فى غير برجها والدر الذى فى لجج البحر ، فيجب أن يكون إذن على أحسن الوجوه والمعانى طبعا

فصل

ولما كان هذا المغرور يعلم أن كل فرد من أفراد هذا العالم له بداية وغاية ونهاية ، وأن ثبوت التحول فيه بعد التطور بديهى لا يمكن جحده أطال فى المراوغة واللجاجة فى التملص من ذلك وهيهات ، فقال :

« أما الشيخوخة والموت اللذان قد يحسبان من الرجوع الى الوراء فهما مظهران من المظاهر المؤذنة بانقضاء دور من الأدوار التى تقوم المادة والعالم كله دائما بتمثيلها ، لتأخذ بتمثيل دور آخر من أدوار الرواية العالمية الإلهية المستمرة ، فان العالم كله يشبه رواية ذات فصول يناسب عددها ضخامة الرواية وضخامة الغرض ، لكل فصل من فصولها مظاهر ومواقف مختلفة كثيرة ، لكل مظهر وموقف معنى ومغزى يؤديه . وكل فصول الرواية ومواقفها ومشاهدها مقصودة لأنها متممة للأغراض العامة التى رمى اليها بها ، وليس فى فصل من فصولها ولا فى مشهد من مشاهدها ما يصح أن يعد دليلا على الخروج عن السبيل المرسومة وعن الغاية المنشودة »

قلت : لا يخفى على عاقل ضعف هذا القول بل بطلانه ، فانه مغالطة محضة وعذر بارد لا يخرجه عن ما وقع فيه من الحجة القاطعة ، فان كل عاقل صحيح

---

(١) يتبين لك ان ايراده للآيات القرآنية احيانا كما هنا انه اعتبر القرآن تاريخا لارسالة من الله ، فهو يأخذ منه ـ ليستدل به على ما يريد ان يذهب اليه ـ وجها مخالفا ولا يتوقف عند نصوصه وكلمه اذا كان سياق بحثه يقتضى ذلك ، وهذا غاية الايغال فى الخبث (خ ·)

الذهن يعرف أن ذبول الشجرة وأخذهـــا فى التقص حتى تفنى ، وضعف الحيوان شيئا فشيئا حتى ينتهى الى الفناء والى الحالة التى ابتدأ منها برهان قاطع لا يقبل المعارضة ، فلا أوضح من هذا على وجود التحول والضعف الذى هو ضد التطور ، وقد بينا أن الصور المتولدة هى حلق من سلسلة الموجودات التى اختفت فى عالم الفنـاء ، وأن التطور الأول ما هو إلا بروز مظـاهر مسبوقة بأنواع مثلها ، لا يزيد الأخير عن الأول شيئا فى الجمله أبدا ، وقد جعلت هذه الصور التى تتبادل وتتعاقب آيات وعبرا ومنافع ينتفع بهـا مادة ومعنى ، كما قال تعالى ﴿ هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا ﴾ وقال تعالى ﴿ ما ذرأ لكم فى الأرض مختلفـا ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ﴾ ففى هـذا دلالات وعلامات متعاقبة تبعـا لتعاقب الأفراد المنتفعة بهـا ، فأى حجة فى هذا عـلى التطور . وقد أطال العناد فى التخلص من هـذه الحجة ، وحسبك دليلا على فساد دعواه أنه هو بنفسه قد أنكر ذلك إنكارا باتا كما تقدم كلامه ، فكيف بغيره . فلو اقتصرنا على خنقه بأغلاله ونقض ادعائه بأقواله لكان ذلك رأيـا حميدا ومسلكا سديدا ، فانه قطع لسانه بسنانه ، وهذه عادة الله فى كل من خرج عن دينه واتبع هواه

فصل

اذا عرفت ما تقدم ، وعلمت أن هذا الرجل تكلم بمـا تكلم به فى مسألة وجود هـذا العالم واحتج بمـا لم يحط به علما مستندا على بعض أقوال قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيرا وضلوا عن سواء السبيل ، فاخذ ما ذكروه مـع علمه باختلافهم فى ذلك اختلافا متباعدا ، ومـــع علمه أنه مصادم للنصوص الدينية مصادمة واضحة لا تقبـل الشك ، ومع علمه بأنه ليس من أهل هـذه العلوم ولا دراية له بها ، ومع هـذا كله استسلم لما قاله بعضهم استسلاما كاملا وقلدهم تقليدا أعمى بلا أدنى قيد أو شرط ، فانظر الى كلامه هنـا فى علماء الملة

الاسلامية من الصحابة والتابعين لهم باحسان من أهل القرون المفضلة ومن بعدهم وطبق فعله هذا على فعل أسلافه من منافقة اليهود إذ قالوا للمشركين ﴿ هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ قال وهذا لفظه :

« أما هؤلاء الذين قلدوا الزعامة الدينية ، واختيروا لقيادة الفكر الاسلامى فى أحوال سيئة قاسية ولأسباب ينكرها الدين والعلم ، فقد عصفت بهم نوبة من نوبات الفساد الذهنى وموجة من موجـــات العماية الأصيلة ، واجتاحهم إعصار من أعاصير الجهل التليد البليد فقاموا ـ وهم يترنحون من الغبـــاوة ويتمايلون على أنغام الشيطان ـ ليوقعوا على أكذوبة علمية [1] من أعظم وأشهر الأكاذيب العلمية فى التاريخ ... فقد زعم هؤلاء ـ بين هتاف الغباء المتواصل ـ فى كل كتاب كتبوه وقول قالوه أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبدا وألا يمد بصره بين يديه أبدا ، وأن يرجع القهقرى وينكص الى الوراء ما استطاع الى ذلك سبيلا ، ليظفر بالسعادة وبالعلم وبالعقل وبالأخلاق وبالعدالة وبالنظام الاجتماعى المبرأ من العيوب والنقائص [2] . . . وزعموا أن كل خير فى أعمال الماضين ، وكل شر فى أعمال المتأخرين ، وأن كل خير فى اتباع من سلف ، وكل شر فى اتباع من خلف [3] وأن كل ما يمكن تصوره فى الخير فقد مضى ، وكل ما يمكن تصوره من الشر

---

(١) هى تفضيل صدر هذه الامة على المتأخرين ، وحديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » وقد صححه هو واحتج به ، ولكنه راوغ فى التصريح بذلك خوفا ورهبة شأن الزنديق

(٢) لقد غمغم فى بيان الحقيقة ، وهى أن أئمة المسلمين مجمعون على أن السلف حازوا قصب السبق فى الأخلاق الفاضلة الدينية ، ولكن هذا الملحد جرىء على السب غير جرىء على بيان الحقيقة والتصريح بها للخوف والرعب الذى فى قلبه ، كما قال فيه السيد قطب : « هو رجل تنقصه الجرأة أن يقول ما يريد أن يقوله » .

(٣) المشهور فى البيت « فى ابتداع من خلف »

فقد بقى ، وأن كل ما لم يستطع عمـله الأولون وكل ما لم يعملوه ويرتضوه من الأعمال والعلوم والأخلاق فهو شر وجهل وفساد ، وأنه اذا كان خيرا وعجزوا عنه فلا بد أن يعجز هذه الأواخر . . . »

قلت : هذا الموضع هو من تلك المواضع التى اختبل فيها وتخبطه الشيطان من المس ، وكل هذا الهراء الذى قاله نفثة مقهور ، وأنه معثور ، وما ضر السحاب نبح الكلاب ، وبهذا وأمثاله تعلم أنه إهاب ملىء خبثا وبغضا ومقتـا للاسلام وأهله من قدمه الى مفرق رأسه ، ولو أن هذا المأفون لم يتملق لهؤلاء الذين ذكر أنهم يقدمون السلف على الخلف ويتضرع اليهم ويخضع لهم خضوعا لا نظير له ويعمل معهم كما يعمل الكلب مع صاحبه لكان له شىء من العـذر ، أما والحالة هذه ثم يريد أن ينقم عليهم ويكيل لهم السباب كيلا فصفاقة وسقوط لاحـد لهــا

أضحى يسد فم الأفعى باصبعه يكفيه ما قد تلاقى منـه إصبعه

إن هذا الزنديق لما سئل عن هذا الادعاء : من أين وجدت أن أئمة المسلمين الذين قلدوا الزعامة الدينية قالوا هذا القول الذى ادعيته ، وفى أى كتاب أو عقيدة معتبرة وجدته ، وعن أى عالم سمعته ، أخذه الرعب وتنصل من ظاهره ولم يقدر أن يجاهر بما يفهمه الناس منه ، بل لجأ الى النفاق والزندقة والتأويل المضاد لنص كلامه كعادته فى المكابرة والنفاق الذى لا حد له

ليت شعرى ، من هو الذى قال من أئمـة المسلمين أن سعادة الانسان وطريق تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يتلفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه ابدا الخ ، قاتلك الله ما أرخص الـكذب عندك وأسهله عليك وأخفه عـلى لسانك ، وقصده من هـذا الافتراء أن المسلمين يقولون كما قال الامام مالك « لا يصلح آخر هذه الأمة الا ما أصلح أولها » وانهم متفقون على أن خير هذه الأمة هم الصحابة وأهل القرون المفضلة ، وأنه يجب اتبـاعهم فى الاخلاق الدينية . هذا هو مقصوده ، وإلا فهو يعلم أنهم لم يقولوا نه يجب على

الانسان أن ينكص الى الوراء ولا يمد بصره بين يديه أبدا ، فان هذا الادعاء بهت وفجور لا يخفى على عاقل ، ولكنه لما كان فيه شبه قوى من اليهود بدل قولا غير الذى قيل له : بدل قول المسلمين « لا يصلح آخر هذه الامة إلا ما أصلح أولها » بدعواه أنهم يدعون أن تقدمه وراءه لا أمامه ، وأن عليه أن يلتفت خلفه أبدا وأن لا يمد بصره بين يديه . فانظر كيف شابه اليهود هذه المشابهة التى قل أن توجد فى غيره ، لانه لما شابههم فى الاعتقاد والاخلاق شابههم فى البهت والتحريف وإبدال القول بقول غير الذى قيل له

يا صاحب الاغلال ، غلت يداك كما غلت أيدى إخوانك وسادتك ، فى أى كتاب وجدت هذه الأقوال التى ادعيتها على هذه الصفة وعلى هذا اللفظ ، وعن أى عالم سمعت ذلك ، وكيف تهجم على أمة عظيمة اسلامية منتشرة فى مشارق الارض ومغاربها فتنسب اليها هذه الأمور التى لو سألت عنها مسلما واحدا يعرف دينه لأنكرها ، فكيف بمن قلدوا الزعامة الدينية كما تدعى ، بل فكيف بسائر أهل الدين على اختلاف مذاهبهم كما صرحت بذلك فيما يأتى . تالله لقد عاد الاسلام غريبا ، ولا عجب اذا قامت هذه الحثالة اليهودية تتحدى المسلمين أو العرب وتطمع فى بعض أوطانهم اذ كان مثل هذا يشتم أئمة هذه الأمة وهو فى وسطها بكل ما خطر على باله غير مبال بما يأتى وما يذر ، وهل هذا الا من إدبار الدين وضعف احترامه فى نفوس الأكثرين ، فانا لله وإنا اليه راجعون

ثم قال « وقد حاولوا ـ والبلاهة تحدو لهم ـ أن يعزوا هذه الدعاوى بروايات وأخبار نسبوها إلى الرسول عليه السلام وإلى اصحابه وإلى الأئمة المقلدين ، وجدوا فى نشر هذه الأخبار والروايات والآراء وفى ترويجها حتى أمكن لهم أن يصيروا لهم من هذه الخرافات ثقافة عامة يلتقى عليها وينضوى اليها أربعمائة مليون من الاجناس المختلفة المتباينة الآخذة بأعظم دين جاء

لايجاد إنسانية مهذبة عاملة على الترقى المستمر[1] وقد استسلم لهذه الثقافة او لهذه الخرافة كل الطوائف ، فالأدباء والشعراء والمؤرخون آمنوا بها ونشروها وشهروها فى شعرهم وأدبهم وتاريخهم ، كما آمن بها الفقهاء والمفسرون والمحدثون والمتصوفون بل والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام فى الدين أو فى الأخلاق أو فى الوعظ . وقد غبروا زمانا قد يزيد على العشرة القرون وهم جادون ماضون فى تركيزها فى النفوس وفى المعتقدات ، حتى قام عليها من الاجماع بين الخواص والعوام ما لم يقم على قضية أخرى ، وحتى أصبح اعتقادها والتصديق بها مما يتسامى على الخلاف والجدل . . . ولو ان قائلا قال إنه لم يدر على خاطر انسان الشك فيها وفى صحتها كل هذه القرون لما كان قائلا باطلا ، ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيق أكبر مدة من الزمن لذكرنا هذه القضية أول ما نذكر » . انتهى

فيقال : نعم هذه القضية هى كما ذكرت وكما علمت فى الاجماع عليها من جميع طوائف المسلمين على رغم أنفك . وهذه شهادة سجلتها على نفسك فى الخروج عن طريقة المسلمين ، والمنابذة لهم ، وأنك متبع غير سبيل المؤمنين . فانك هنا اعترفت صريحا بثبوت الاجماع الحقيق عن جميع فرق الاسلام أزيد من عشرة قرون وخالفتهم وادعيت بعد أن صرحت باجماعهم بانهم غالطون فى هذا الاجماع المحقق ، ومخالفة الاجماع المحقق كفر صريح عند جميع المسلمين ولا سيما فى المسائل الاصولية ، فانك اعترفت بان الاجماع الحقيق من الفقهاء والمحدثين والمفسرين والمتصوفين والفلاسفة وكل من تعاطى الكلام فى الدين - قائم بالايمان بهذه الثقافة ، ومعلوم قطعا أن هؤلاء لم يتفقوا إلا على تقديم الصحابة والقرون المفضلة فى الأخلاق الدينية ، وأنهم أفضل الناس بعد الانبياء فى

(١) احتاج فى هذا المضيق الشائك إلى الخداع ، فهو هكذا يرتفع ثم يرمى بنفسه من حالق

ذلك ، وأنهم هم الذين على الهدى والرشد والخير ، وأما الرافضة فأنت قد أخرجتهم من الملة فى كتبك السابقة فأنت لا تعتدّ بهم ، ومع هذا فقد زاحمتهم فى هذه الرذيلة ، بل زدت عليهم فلم تستثن أحدا دون أحد ، فهذه الوثيقة التى حكمت بها على نفسك شاهدة عليك بانك مخالف للأمة كلها ، مارق من سبيلها فى هذا بل وغيره ، فلا بد من أن يصك بها وجهك وأن تعلق فى الأغلال التى فى عنقك كالجريمة التى تعلق فى عنق المتهم ولو لم يكن فى كتابك هذا من الشهادة على بطلانه وفساده ومضادته للاسلام وأهله إلا هذا الاعتراف لكفى ، فانك صرحت تصريحا واضحا بأنك مخالف لسائر هذه الفرق الاسلامية أزيد من عشرة قرون فى هذه القضية . ومن المعلوم أنها من أكبر أصول الدين فانها اذا لم تثبت وحصل الطعن فى أولئك بطل الدين من أصله ، فانهم هم الذين دونوا القرآن ونقلوا لنا الأحاديث الصحيحة كما أنهم هم الذين أخذت عنهم جميع العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والحج وتفاصيل ذلك ، فاذا تطرق الطعن فيهم لم يصح لأحد أن يحتج بشيء من الدين ، لأنه كله أصوله وفروعه مأخوذ عنهم ، ونحن نعلم أنك إنما طعنت فيهم هذا الطعن تذرعا الى الوصول الى هذه الغاية . ولكن اخسأ يا عدو الله ، أما علمت أن الله يقول فى كتابه العزيز ﴿ ان الذين يحادُّون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ﴾ . وقال ﴿ ان الذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ﴾ الآية . فلا بد إن شاء الله إن يطبق عليك هذا النظام الالهى . ويلك ثم ويلك ، أما وجدت لدعايتك الخبيثة غير هذه الزندقة المفضوحة . كيف تحكم على أزيد من عشرة قرون فى هذه الامة المحمدية . فهل كل هؤلاء عندك ضالون وأنت وحدك اهتديت . فالحمد لله الذى أخزاك وجعلك من الذين يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين ، فانهم هم إخوانك تشابهت قلوبكم ، ثم مع هذا تقول بدون جمجمة ولا حياء « ولو أننا سئلنا عن أكبر غلطة نهض عليها الاجماع الحقيق أكبر مدة من الزمان لذكرنا هذه القضية فى أول ما نذكر » فهذا اعتراف فى غاية الصراحة

بأنه قد قام على هذه القضية الإجماع الحقيقى ، وتصريح منك بأن هذا الإجماع غالط وأنك مخالف له وأن الصواب معك وحدك بمجرد دعواك ، مع أنك لم تذكر دليلهم ولم تحتج على دعايتك ، بل غلطتهم بمجرد الدعوى وصوبت نفسك بمجردها أيضا ، ومع أنك معترف قبل ذلك بصواب ما رأوه ومقيم البراهين عليه ومدع بأنه أمر لا شك فى صدقه ، ومع أنك معترف أيضا بأن ما ادعيته أمر مشكل لم يوجد له حل الى اليوم ، ومع أنك معترف أيضا فى آخر كتابك بأنك قد تكون أخطأت ، ومع أنك معترف أيضا بأن هذه الأغلال حقائق أزلية أبدية تتركها أمة فتهوى ، وتأخذ بها أمة فتنهض ، ولن يستغنى عنها مسلم

ويلك ، من لقنك هذه الخبائث والمخازى المتسلسلة ، قطع الله لسانك ما أقذرك وأقذر كلامك وأقذر من يقبله ومن يروج عليه

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلامُ

أى رجل له مسكة من عقل أو دين أو حياء يتجاسر أن يسجل على نفسه هذا الضلال فيرضى على نفسه أن يغلط هذه الأمة كلها أزيد من عشرة قرون ، ويدعى أن هداتها وأئمتها ومصابيحها ضالون غالطون منحرفون ، ثم يصوب رأيه ، إلا من هو قد خلع جلباب الحياء والعقل والدين وكان من الغافلين

والذى دفعه إلى هذا الهراء والاستهتار والعناد أنه لما علم أن دعاية هؤلاء الأئمة على اختلاف مذاهبهم من أولهم الى آخرهم معاكسة لدعايته مضادة لقواعد أغلاله من كل وجه لم يجد طريقا لإزالة ذلك إلا بان سفههم وغلطهم وادعى أن الصواب معه والسداد فى رأيه وكتابه ، ولكن خانته قريحته وأقر بأنهم مجمعون إجماعا حقيقيا على خلافه ، وكما أنه قد شابه اليهود فى كل خباثتهم فهو كذلك يريد أن يضيف الى هذه المشابهة مشابهة غلاة الروافض فى تضليل السلف ، بل فاقهم فى هذا حيث لم يستثن أحدا دون أحد فى الذم والسباب والاتهام

من كان محل الشمس موضعه فليس يرفعه شيء ولا يضع

فصل

قال « من هذه الروايات الرواية التى أوردناها فى مطلع البحث وهى « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » وهـــذه الرواية مخالفة للرواية الأخرى الصحيحة القائلة «لا تسبوا الدهر فان الله هو الدهر» لأن نسبة الشر الى الزمان سب صريح له ، والزمان يقينا لا يفعل خيرا ولا شرا ، ولـكن أهـله هم الذين يفعلون فأنى ينسب اليه الشر »

فيقال أولا : طعنك فى هذا الحديث بالتشهى والتحكم مضروب به وجهك فانه قد ثبت فى صحيح البخارى وغيره من الـكتب المعتمدة ، وأنت بنفسك قد ادعيت أنه صحيح واحتججت به على أعدائك من شيوخ الأزهر . فقلت فى صحيفة ٢٤ من نبذتك (شيوخ الأزهر) ما نصه « وفى الحديث الصحيح أنه ﷺ قال « لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه » هكذا نقلته مصححا له محتجا به على علماء الأزهر ، فكيف تصححه وتدعى أنه صحيح وتحتج به ثم تنقلب ظهر البطن وتطعن فيه ، أتريد أن تتحكم فى شريعة الله وتتلاعب بهـا تارة تحتج بها وتارة تطعن فيها وتريد أن النـــاس يقدمونك فى كل أمر [1] فالحديث فى غاية الصحة ولم ينازع أحد من المسلمين فى صحة هذا الحديث بل تقبلوه وقبلوه وشرحوه واحتجوا به ولم يشكل على أحد منهم ، وكلام عامة الشراح والمعلقين عليه مشهور فى الـكتب ، وقد رواه الإمام أحمـد فى مسنده

(١) من طرائفه المخزية المضحكة دعواه أن مقتضى هـذا الحديث يكذبه الدين والحس والعقل والتاريخ وأن الأديان كلهـا لا تخرج عن أن تكون بجملتها تكذيبـا لهذه الدعوى ، ثم مع هـذا ـ كما ترى ـ قد صححه وقبله واحتج به على علماء الأزهر وجعله برهانا له عليهم . وهذه عادته قبحه الله فى إلقاء الكلام مجازفة بدون حساب ولا تقدير لانه المقدم فى الأمر

وابن ماجه وغيرهما من طرق كثيرة كلها صحيحة ، وقد نقـــله أيضا الفقهاء والمفسرون وأهل اللغة وفهموا معناه ولم يدع واحد منهم أنه يعارض حديث « لا تسبوا الدهر » لأنهم لم يتلقوه بقلوب مثل قلب هذا الملحد الذى يحاول قلب الدين ، وأدنى عامى يسمعه لا يفهم منه مناقضة لحديث « لا تسبوا الدهر » ولا علاقة لأحدهما بالثانى إلا بمجـرد أن الزمان فى كل واحـد منهما ، فأى مناسبة للتناقض ، فان هذا تضمن أن كل أهل زمان فى الجملة خير من بعدهم كما فى الروايات الأخرى لأنه ورد فى قصـة ، وهو أنهم أتوا الى أنس يشكون من الحجاج فقال : اصبروا فانه لا يأتى عليكم زمان إلا والذى بعده شر منه ، وفى رواية لا يأتى عليكم زمان ولا يوم ، فقد فهم المسلمون منه أنه سيأتى بعد الحجاج أزمنة يكون الشر فيها أكثر بسبب ضعف الدين ، لأنه كلما بعد العهد من آثار الرسالة كثر الجهل والظلم فيكثر الشر لأنه أثره المرتب عليه . وأما حديث « لا تسبوا الدهر » فالمقصود منه أن أهل الجـــاهلية كان من عاداتهم نسبة النوازل والقحط ونحوه الى الدهر فيسبونه ، فيقولون أصابهم الدهـــر وأبادهم الدهر ، فاذا أسندوا مثل هذه المصائب الى الدهر كان حقيقة قولهم سبا لله لأنه هو الذى يصرفه ، لأن الدهر بنفسه غير مكاف ولا فعل له ، فهذا نهى عن فعل مناف للتسليم والتوكل على الله والاعتماد عليه والتوبة والتنصل من الذنوب ، وحديث « لا يأتى زمان » خبر بأن هذا سيكون ، فهـــذا خبر وذاك إنشاء ، ثم إنه يوجب التسليم والتوبة والتضرع الى الله ، لا التسخط والجزع الذى هو سبب السب ، فقوله « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » يوجب التسلية ويوجب التوبة والاستغفار ، وليس فيه أمر بالسب حتى يقال انه يخالف الحديث الثانى ، فانه انما يخالفه إذا كان فيه أمر بأن يسب الدهر أو الزمان ، وذاك فيه نهى عن سب الدهر أما اذا كان هذا خبرا يتضمن التسلية والصبر والاحتساب والدعاء بأن يكشف الله الضر ، فأين المناقضة ، وعلماء الأمة على اختلاف مشاربهم الذين تلقوه وشرحوه وفسروه لم يتأملوه بقلوبهم

كقلب هذا الملحد حتى يفهموا منه مثل ما فهمه ، كما أن أنس بن مالك رضى الله عنه لم يخاطب بذلك زنادقة يحاولون قلب الدين ، اذ لو كان يخاطبهم لقالوا هذا يخالف حديث النهى عن سب الدهر ، ولو أن هذا المغرور مثل هؤلاء العلماء الأخيار فى صحة الفكر وطهارة القلب لفهم منه مثل ما فهموا ، ولكن لما كان قلبه مشابها لقلوب الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من الزنادقة والملاحدة فهم كما فهموا

ويقال ثانيا : هذا الحديث يصدقه الواقع أظهر تصديق ، ويكفى فى تصديقه الحس والعيان ، فلا شىء أبين من تصديقه اليوم ، فانه كلما تأخر الزمان زاد البلاء والمحن وفسدت الأخلاق ، فان كان تأخر الاسلام والمسلمين شرا فهذا دليل ظاهر ، وان كان تأخر الاسلام والمسلمين ليس بشر عنده بل هو محض خير فهذا كفر ظاهر فلا حاجة الى الكلام فى الحديث

ويقال ثالثا : لا حاجة الى التعنت والجدال فى رد هذا الحديث وحده ، فلو فرض أنه ضعيف أو لم يرو بالكلية فان فى معناه أحاديث كثيرة فى غاية الصحة والصراحة على معناه ، وهى متواترة لا يمكن إنكارها والمكابرة فى ردها ، وهى أغلال فى عنقك لا محيص لك من التخلص منها ، ونحن نذكر بعضها لتكون قذى فى عينك وريبة فى قلبك ، أخرج البخارى فى صحيحه عن مرداس الاسلمى قال : قال رسول الله ﷺ « يذهب الصالحون الأول فالأول وتبقى حفالة كحفالة الشعير أو التمر لا يباليهم الله باله » رواه الامام أحمد وغيره . وهذا نص صريح فى المسألة لا يمكن تحريفه ولا الطعن فيه . وفى الصحيحين عن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير أمتى قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » قال عمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا . وفى الصحيحين أيضا عن ابن مسعود مرفوعا « خير الناس قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم

يمينه ويمينه شهادته » وفى صحيح مسلم عن عائشة مرفوعا أيضا « خير الناس قرنى الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» رواه الطبرانى . وعن جعدة ابن هبيرة مرفوعا «خير الناس قرنى الذين أنا فيهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم والآخرون اراذل » رواه البخارى وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « بدأ الاسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء » وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « يأتى على الناس زمان الصابر فيه على دينه كالقابض على الجمر » رواه الترمذى وحسنه . وعن ابن عمر مرفوعا قال « ليأتين على أمتى ما أتى على بنى إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتى لو كان فيهم من يأتى أمه لكان فى أمتى من يصنع ذلك . وان بنى اسرائيل افترقت على اثنتين وسبعين ملة وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة كلهم فى النار إلا ملة واحدة . قالوا : من هى يارسول الله . قال : ما أنا عليه وأصحابى » وفى السنن الأربعة نحوه من حديث أبى هريرة باسناد صحيح قال « افترقت اليهود على أحدى وسبعين فرقة وتفرقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة » الحديث وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال « كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزاد فيه » رواه أحمد والطبرانى وغيرهما : والنصوص فى ذلك كثيرة جدا ، وكلها فى غاية الصحة والصراحة قاطعة لظهره هو وأمثاله ، فلا حاجة الى التعنت فى رد حديث « لا يأتى عليكم عام إلا والذى بعده شر منه » فان فعله فى تحريفه وتضعيفه يوهم أنه ليس ثمة حجة غيره ، وهو حديث واحد من أحاديث لا تحصى كلها بمعناه . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الارض الله الله » وفيه أيضا . قال عليه الصلاة والسلام « ان من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء ، والذين يتخذون القبور مساجد » ولاشك أن الذى يدعى أن الخير يزيد والشر ينقص معاكس لمدلول هذه الأحاديث والواقع معاكسة صريحة ، مع أنه لا يمكنه أن يجد أثرا واحدا لا صحيحا ولا ضعيفا يؤيد كلامه . وكذلك الآثار عن الصحابة والتابعين فى هذا المعنى أكثر من أن تحصى . وقد

روى أبو داود وغيره عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها ، فان الأول لم يدع للآخر شيئا ، فاتقوا الله يامعشر القراء وخذوا ممن كان قبلكم . وقد تقدم الأثر الذى ذكرناه عن ابن مسعود وفيه : أولئك أصحاب محمد كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا . اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ولاقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم على الأثر ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ، فانهم كانوا على الهدى المستقيم . والآثار فى ذلك كثيرة جدا . وكذلك التابعون فان المروى عنهم فى ذلك لا يعد ولا يحصى ، وقد اشتهر قول الامام مالك : لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها . وبالجملة فالأحاديث والآثار وإجماع الأمة متفقة على هذا مع تصديق الضرورى من الدين والواقع . والملحد نفسه معترف بالاجماع المحقق ، لكن يزعم أنهم كلهم غالطون ، ولا شك أن من اعتقد اعتقاده فلا بد أن يرى ما رآه من الغلط ، فانه من المحال أن يجمع الانسان بين تصديق الملاحدة والتمسك بآرائهم والايمان بالسلف الصالح وتصديقهم واعتقاد الصدق والخير فيهم ، ولهذا ادعى أن الطريقة الى اخراج الناس من هذا الاعتقاد أن يعلموا الكفر بهؤلاء الأولين كما يأتى ، فمن هذا اعتقاده خليق بأن يدعى أن الناس غالطون أزيد من عشرة قرون ، ولو لم يكن فى هذه القضية إلا الواقع مصدقا لها لكفى ، فان أدنى رجل مسلم يعرف أن الشرور بأنواعها كلها تزيد على المسلمين ، وما اجترأت هذه الحثالة اليهودية على فلسطين وتحدت الأمم الاسلامية على ذلك إلا فى هذا الزمن الذى مدحه هذا المغرور ، وما تجاسر هذا الملحد على إخراج كتاب يشتم فيه الأديان السماوية وأهلها شتما لم يسبق له نظير ، حتى ادعى أن المتدينين على اختلاف أجناسهم وديارهم وأنبيائهم وأمزجتهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ولم يكونوا فيها مخلوقات متألقة ، وأن الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها

العلوم هم المتحللون من الأديان المنحرفون عنها . إلخ هذيانه ويطيل ويسهب في رفض الأديان . ويقلب نصوص شرع الله ونظامه فيجعلها دلائل لعبادة الطبيعة ونواميسها ، وأنها هي التي تحكم هذا العالم باستخدام الانسان لها ، ولا يكفيه ذلك حتى يدعي أن النهوض موقوف على الأخذ به والهلاك موقوف على تركه ، إلا في هذه الأزمان الأخيرة المملوءة بالشر والطغيان ، وهذا أمر ظاهر لا يجادل فيه إلا جاهل أو ذو هوى . ومن العجب أنه ادعى أنه حديث « لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه » يفهم منه أن هذا يتناول الازمان التي قبل الرسول عليه السلام ، وهو يريد بهذا إفساد معنى الحديث ، وكل عاقل من المسلمين لا يفهم منه هذا أبدا ، بل نفس الحديث يرده ، فان قوله « لا ياتي عليكم زمان » فيه بيان أنه لا يأتي على هؤلاء المخاطبين بهذا الخطاب الذين هم الصحابة وأمة الاجابة ، وهو لم يقل كل زمان يأتي بل قال لا يأتي عليكم ، فهذا معناه واضح جلي ، فكيف يتناول من قبلهم ، ولهذا كان الواقع مصدقا له مطابقا له غاية المطابقة ، وقد شاهد تصديقه الصحابي أنس بن مالك فاحتج به ، فانه أدرك من زمن الرسول الى خلافة عبد الملك بن مروان ، فأين زمان أبي بكر وعمر من زمن يزيد وعبد الملك بن مروان . وقد فهم العلماء كلهم منه هذا المراد ، ولذلك كان معناه عندهم واضحا جليا . والملحد يعلم ذلك ، ولهذا احتج به لما كان محتاجا اليه كما اسلفناه ، وانما أراد ان يغالط الاغبياء ومن طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم

ثم إنه بعد أن ضعف حديث « لا يأتي عليكم زمان » حكم على غيره من سائر الروايات التي في معناه بالتكذيب بمجرد الدعوى ، لأنها تخالف هواه فقال :

« فهذه الرواية وغيرها من الروايات المسوقة في أول هذا المبحث وسواها من النقول الأخرى ، المزعوم فيها أن الانسانية ترتد الى الوراء ، وأن القدماء

أبدا خير من الذين يجيئون بعدهم ، وأن الشر والفساد أبدا فى ازدياد ، وأن كل شىء ينقص إلا الشر فانه يزيد ـ روايات من أصر على نسبتها للاسلام وللرسول فقد أصر على التنقيص والاتهام »

هكذا قال بدون حجة ، وقد كان من الواجب عليه أن يذكر هذه الروايات بطرقها وينقضها على أساس معقول كصنيعه مع الرافضة فى (الصراع) ولكنه يعلم أنه ليست حجج أئمة الدين كحجج الرافضة ، فنحن نكتفى برد ما زعمه من التكذيب لها بان أئمة المسلمين الذين نقلوا هذه الشريعة المطهرة قد نقلوها وصححوها وقبلوها ، وهو نفسه قد احتج بأكثرها لما كان محتاجا اليه ، وليس له أن يتحكم فى شريعة الله فيكذبها حينا ويصدق بها أحيانا ، ويحتج بها على أعدائه ويكذب بها إذا احتج بها عليه أحد ، فان هذا العمل لا يفعله الا ماجن متلاعب بالشريعة الغراء قد انسلخ من الدين والعقل والحياء ، وقد بينا أن الواقع يصدقها تصديقا أوضح من الشمس فى رائعة النهار

ومما يجب أن يتفطن له أن أساس هذه الدعايات الخبيثة فى عداوة الأخلاق الدينية السلفية وشيوع هذه الأقاويل والأكاذيب فى تهجينها والدعوة الى حب الاخلاق الالحادية المشتملة على الكفر والفسوق والعصيان وسائر الرذائل التى لا تعد ولا تحصى بحجة الجديد أو التجديد أو التمدن والحضارة والرقى والتطور وأمثال ذلك ، كل هـذا من عمل أيدى السياسات المستعمرة الاجنبيه سعيا وراء إقناع الشعوب المستعبدة ، وإماتة الروح الحية فيها والحيلولة بينها وبين إيقاظ الشعور الدينى والقومى المستمد من الدين ، ومن ذكرى أخلاق السلف الأولين ، لئلا ينفروا من هؤلاء المستعبدين ، ومن أفعالهم الغريبة الخبيثة المنافية للرجولة ، والمحافظة على الكرامة والمناعة الموجودة فى الأخلاق السلفية الدينية ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له عقل وبصيرة نافذة كما نبه عليه غير واحد من عقلاء المسلمين ودهاتهم

فصل

ثم أخذ يبحث عن سبب هذه الفكرة التى هى تقديم السلف على الخلف فى الفضائل ، وهو يعلم أن مستندها النصوص والحقائق الواقعية ، ولكن أراد أن يغالط الأغبياء فقال : « كيف جاءت هذه الفكرة ـ فكرة اعتقاد الخير فى الأولين والشر فى الآخرين ؟ يغلب على الظن أنها إحدى الفكر الباقية من عهد الطفولة العقلية الانسانية . ولا تزال الفكرة برمتها مستولية على تصرف الاطفال وعلى حياتهم ومشاعرهم واتجاههم العام ، فانهم يرون أن من هم أقدم منهم سنا أكبر منهم عقولا وأضخم اقتدارا »

فيقال : هذا الذى غلب ظنك بل وعقلك خطأ معلوم الفساد لأمور :

أولا أن هذه الفكرة مستندها النصوص الصحيحة الصريحة المطابقة للواقع وللعقول السليمة

ثانيا أن هذه النصوص مؤيدة بالاستقراء الصادق كما شرحناه ، فانه لا يشك مسلم فى أن أول هذه الأمة خير من آخرها ، وأن الخير فى أولها أكثر منه فى آخرها ، وأن أولئك الأولين كانوا أكبر عقولا وأقوى ديانة وقلوبا وأحسن أخلاقا من آخرها ، وأنها لم تبلغ تلك الذروة العالية إلا بأخلاقها الدينية الصحيحة ، وأنها ما تدهورت فى آخرها إلا من أجل بعدها عن هذه الأخلاق والعلوم نفسها وعن تلك الروح القوية الحية ، وأن تقدمها وتأخرها من حين نشأتها الى هذا الوقت تابع لقيامها بدينها أو ضعفها فى هذا القيام ، فبقدر تمسكها يحصل تقدمها وبقدر تقصيرها ومخالفتها يكون تأخرها :

ثالثا أن ما ذكرته من نظرية الأطفال ليس بصحيح ، بل هو حجة عليك ، فإن الأطفال إذا كبروا اختلفت نظرياتهم وتقليدهم وتفكيرهم حتى لو كانوا ناشئين فى منزل واحد أو مدرسة واحدة ، ثم إنهم قلما يتركون على نظرهم البدائى ، ولو أن الأطفال ينشأون على تقليد كبرائهم مطلقا لكان كل الناس سواء ، لأنهم كلهم قد كانوا أطفالا ، أنت قد اعترفت بان جميع فرق المسلمين

على اختلاف مذاهبهم وتباينهم فى النظريات متفقون ومجمعون إجماعا قطعيا على تقديم هؤلاء الأولين على الآخرين ، فكان ما ذكرته صحيحا وانه حجة عليك ، لأنه قد ثبت ثبوتا لا يقبل الجدال بأن الأطفال يعشقون الجديد ويندفعون اليه اندفاعا مدهشا وينفرون من القديم ويكرهونه ويسأمون منه ، فهم إذا وجدوا صناعة جديدة أو حيوانا غريبا جديدة رؤيته أو شيئا من الجمادات حديثا قبلوه وتركوا ما قبله وان كان أقوى وأحسن منه ، فهم يكرهون القديم من أجل قدمه ويحبون الجديد من أجل جدته لا لشىء آخر ، وهـذا شىء مغروز فى طبيعة أكثر الأطفال ، ولهذا كان أهلهم يعرفون ذلك منهم فيأتونهم بالأشياء الجديدة ولو كانت صورا جوفاء لا فائدة فيها ، ولهذا تجد الطفل يفرح ويلهو بالصورة الفارغة التى لا روح فيها فيلهو بها أكثر مما يلهو بأخيه وقريبه وغيرهما ممن هم دائما عنده أو معه لأنه يرى هذه الصورة شيئا جديدا غريبا ، وهؤلاء منذ نشأته وهو يراهم وهم بهذه الحالة ، فهم قدماء بالنسبة الى الصورة التى أعجب بها ، وهذا أمر معروف فيهم فى تعشق كل جديد وحديث ، وكراهة كل قديم ، ولا تكاد تجد طفلا يميل الى الشيوخ والكهول حتى والديه الا عند الحاجة والضرورة ، بخلاف الصور المستجدة فان لم توجد مال الى الاطفال ومن فى سنه لأنهم أقرب الى الجدة من أولئك ، فهو لا يرتاح إلا معهم ولا يقبل إلا كلا منهم ، فهو يحب كل جديد بالجملة فى أكله ولباسه وفى شئونه كلها . فما ذكره فهو حجة عليه لا له

فصل

ثم أخذ على عادته فى الطعن فى الهواء ، والتفريع على أوهامه وأكاذيبه التى يخترعها من كون المسلمين يفضلون كل قديم مطلقا على كل شىء متأخر ، وقد مرّ لك بطلان كلامه وأنه ادعاء كاذب وافتراء صرف ، فما ركبه عليه من التفريع فكلام لا محل له لأنه فرع أكاذيب على أصول افتراها بمجرد التشهى والهوى وسوء القصد ، فقال :

«كانت العقيدة التى حكمت على هؤلاء كل هذه القرون قائمة على أمرين كما تقدم : أحدهما أن كل ما عجز عنه الأوائل فلن يستطيعه الأواخر ، وثانيها أن الأوائل قد فعلوا كل خير وبلغوا كل كمال»

فيقال : كل هذا كذب لا صحة له ، وقد بينا أن المسلمين لا يقولون هذا القول ولا يرون هذا الرأى على إطلاقه ، بل يقولون إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين قد بلغوا الغاية فى الأخلاق الدينية فلا يجوز أن نشرع فى دين الله شيئا لم يقولوا به . أما الأمور الدنيوية المحضة مما لا نص فيه فهى تتغير بتغير الأزمنة كالصناعات ونحوها ، ولم يقل أحد من المسلمين إن ما عجز عنه الأوائل من الأمور الدنيوية فلن يستطيعه الأواخر ، وقد قدمنا كلام حذيفة رضى الله عنه فى قوله : كل عبادة لا يتعبدها أصحاب محمد فلا تعبدوها . فكلامهم إنما هو فى الأخلاق الدينية ، فان السلف بلغوا فيها غاية الكمال . وفى الحديث الصحيح «الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها» فكل حكمة فالمؤمن أحق بها بنص الحديث

ثم قال «أما الأمر الأول فقد ترتب عليه أن وقف التفكير فى التجديد والابتكار وقوفا تاما وأن عدل نهائيا ـ على حسب ما ظنوا ـ عن محاولة التجربة ومحاولة مواصلة السير»

فيقال : هذا التفريع مبنى على ما اخترعه فيما سبق ، وهو كذب ظاهر ، بل إنما وقف التفكير من أجل البعد عن اقتفاء آثار السلف ، والانحراف الى تقليد الجامدين المتأخرين ، وبيان هذا أن مذهب السلف ليس فيه شىء من البدع أصلا كتحريف الصفات [1] وعبادة الموتى وكون الأسباب ليس فيها قوى

(١) مثل العلو على العرش والكلام وسائر الصفات الخبرية ، بل يجرونها على ظاهرها اللائق بالله تعالى كما ذكره عنهم الذهبى وابن القيم وابن خزيمة وغيرهم

طبيعية وأمثال ذلك ، وأنه يجب اتباع المعقول اذا خالف المنقول وأمثال هذه الأقاويل الباطلة ، ولهذا تجد أكثر العقائد ولا سيما المتأخرة مشتملة على هذا وكلها من آثار المتأخرين الذين انغمسوا فى آراء المتفلسفه وخلطوا بها علوم الدين ، ولهذا تجد كتب السبكى وابنه وابن حجر الهيتمى والرازى وأمثال هؤلاء مشحونة بالتعصب لهذه الآراء الكاسدة ، أما كتب السلف الأولى وأتباعهم مثل شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم والذهبى وابن كثير والعينى ومحمد بن عبد الوهاب وأمثالهم فهى أكبر العوامل فى تحرير الأفكار وتنويرها وإطلاقها فى محاولة التجديد فى الابتكار فى كل ما فيه نفع للانسانية بما لا يتعارض مع أصول الدين . ثم إنه لما استولى هؤلاء الأجانب على أكثر الأقطار الاسلامية ونفثوا فيها سمومهم القتالة فى إماتة الأخلاق وقتل الحرية الصحيحة باتباع الأهواء والشهوات وكراهة الأخلاق الفاضلة وعشق الخرافات فزادت الأغلال ووقف التفكير الصحيح وقوفا تاما ، لأنهم سدوا عليهم باب الفضائل التى بها تعرف قيمة الحياة وقيمة العز والذل فيها . وقد علم أعداؤهم قيمة هذا فصدوهم عن ذلك كله ، وشغلوهم بالانغماس فى الفجور والغى والارتكاس فى الذل والهوان ، فصار وقف الفكر إنما جاء من كراهة السلف وعدم الاقتداء والاحتذاء بأخلاقهم الدينية الفاضلة ، ولهذا أجمع الباحثون على أن أكثر مبادىء الأمور الصناعية إنما أخذت من الاسلام ومن المسلمين أنفسهم باختلاطهم مع الغربيين فى أوربا كأسبانيا وغيرها وانتقال كتب هؤلاء الأولين بين أيديهم ، فكان دخول تلك الكتب عاملا من أعظم العوامل التى تدفع إلى العمل وإلى التجديد والابتكار فى كل ما ينفع الناس ويمكث فى الأرض . ومن الأسباب الكبرى فى تأخر الصناعات وأمثالها التعصب للأنساب والمذاهب ، ومعلوم بالضرورة التى لا مرية فيها أن السلف أبعد الناس عن هذين الخلقين ، فصار أثر هذين الخلقين يتبعهما لانهما فى المتأخرين أكثر ، فان أغلب الحروب والعداوات والضغائن تنتج عنهما ،

وذلك مما يشغل القلب والجوارح عن العلم والعمل للدين والدنيا . وقد بينا غير مرة أن الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح كل ذلك ليس فيه ما يمنع الاخذ بالاخلاق الصناعية والتجارية والمادية وغيرها ، بل هذا كله ما دلت الشريعة على الاخذ به ، وليس التجديد الصحيح هو رفض العقائد الصحيحة ، بل العمل بها هو التجديد الصحيح ، وتركها هو الرجوع إلى الوراء ، لأن الجاهلية الأولى والقرون المتقدمة التى هى فى غاية الجهالة كانت لا تعمل بهذه العقائد ، فعدم العمل بها رجوع إلى أخلاق هؤلاء ، فان الانسان فى أحد أمرين : إما أن يتبع السلف ، وإما أن يتبع الجاهلية الأولى التى قبلهم بقرون طويلة ، فمخالفة السلف رجوع صريح الى الوراء . انظر إلى هؤلاء الذين يحكمون قوانين الرومان وفرنسا وأمثالهم ويدعون أحكام القرآن والسنة هل خرجوا الى تجديد ، بل خرجوا إلى أقدم من الكتاب والسنة ، فان قانون الرومان وفرنسا أقدم من شريعة الاسلام فى الزمان ، فكيف يقال انهم مجددون وإنما هم متجردون ، وهل هذا إلا رجوع صريح الى الوراء ، ونحن نعلم كما يعلم غيرنا أن هذا المغرور إنما يدعو الى رفض الكتاب والسنة والاخذ بقوانين الملاحدة ، وقوانينهم كلها ـ الا ما ندر ـ قديم جدا مبنى على نظريات هى بعينها نظريات الجاهلية الأولى الذين حاربوا الرسل وبادوا عن آخرهم ، وكانوا على غاية من الجهل والغباء ، وهو نفسه لما تكلم فى نبذته (الثورة الوهابية) تكلم بما يناقض كلامه هنا مناقضة صريحة ، وادعى أن الأخذ بأخلاق القرن الثانى هو الطريقة الى الرقى والتقدم ، حتى رد على الشيخ المراغى شيخ الازهر بكلام طويل فهم منه أن شيخ الأزهر يدعو إلى التجديد ، وأكثر ما فهمه خطأ ظاهر . ولولا طلب الاختصار لنقلنا كلامه فليراجع . ومن العجيب أنه لم تطب نفسه بكلام واحد من علماء الأمة كلهم على كثرتهم ، كما لم تطب أيضا بعالم واحد منهم ارتضاه فى أغلاله هذه ، بل هجم عليهم كلهم كما هجم على كتبهم ، ثم قال :

« انظر ، ان الكتب التى ألفت منذ مئات السنين ـ بل منـــذ ألف عام تقريبا ـ فى الفقه أو فى التفسير أو فى الحديث أو فى العقائد أو فى التاريخ أو فى الأدب أو فى النحو أو الصرف أو فى اللغـة ، بل أو فى الطب ، إن كان هناك طب ، كتذكرة داود وأمثالها ، أو فى الفلسفة أو فى التربية ـ إن كان ثمة تربية ـ إن الكتب التى ألفت منذ ذاك التاريخ فى هذه العلوم وسواها لا تزال حتى اليوم هى المرجع . وهى تدرس وتطبع وتنشر وتعرف ويسرع الى قراءتها واقتنائها فى العالم الاسلامى كله . . . وان وجد شيء ضئيل من التجديد والتغيير فهو لا يعدو أن يكون نقلا مشوشا ونسخا ممسوخا من هذه الكتب المعمرة ذات الألف وذات المئين من السنين ، حتى ان المجلات الدينية (١) التى تكاثرت فى السنين الاخيرة لا يخرج مجموع ما فيها من تفسير للقرآن أو شرح للحديث وتعديد وتقسيم للمعتقدات وسرد لما يحل ولما يحرم فى الفقه ولما اختلف الفقهاء فيه ولما اتفقوا عليه ، إن كان قد وجد اتفاق ـ إن مجموع ذلك لا يخرج عن أن يكون فتاتا متناثرا من تلك الموائد التى قام الآكلون عنها منذ ألف عام . ولقد يعجب المرء اذا ما أدار نظرة حوله فوجد أن أكبر جامعة اسلامية قد بلغت من العمر أكثر مما بلغه نوح عليه السلام ، قد عقمت فى عمرها العديد ، وعمرها المديد ، عن أن تلد مولودا واحدا حتى ضرب المثل بعقمها . . . »

قلت : هذا نظره الى علماء المسلمين ، وذا رأيه فى كتبهم ، فلم يستثن عالما واحدا ولا كتابا واحدا على كثرتهم وكثرتها ، بل صرح بأن هـذه الجامعة الاسلامية التى بلغت هذا المبلغ الطويل من العمر عجزت عن أن تلد مولودا ، يعنى يجدد لها وينفعها ، فلم يملأ عينه أحد منهم ، كما لم يملأ عينه كتاب من كتبهم

(١) يقال له وكذلك المجلات الداعية الى الالحاد لا يخرج ما فيهـــا عن نظرية متقدمة فى الدعوة الى أخلاق الجاهلية الأولى فى محاربة الرسل وما جاءوا به ودعوى انه أساطير الاولين

فلا غرابة على هذا أن يدعى لنفسه أنه الخليق بأن يقدم فى الأمر وأن تجعل افكاره هذه هى النظام الجديد الذى تتركه أمة فتهوى ، وتأخذ به أمة فتنهض الخ . ثم انه لشدة شقائه صرح بازدراء ما سماه الفتات المتناثر ، يعنى كتب السلف ـ اذ صرح بأنه قام عنه آكلوه منذ ألف عام ، ومعلوم أن كتب السلف هى التى مضى عليها هذا العمر ـ فانتقد على المسلمين أخذهم بها وعدم التجديد بتركها ، لأن الفتات يجب أن يترك . ولم يبين وجه التجديد بيانا موضحا غير ما مدح به كتابه على الوصف الذى ذكرناه ، وكان من الواجب عليه فى مثل هذه الأمور أن يبين الكتب بأسمائها ووجه الانتقاد بدليله ، ثم يبين وجه التجديد ببراهين وتفصيل واضح ، فان من يريد أن يتكلم فى مثل هذه الأمور العظام لا يكتفى فيها بالمنافقة والغمغمة والتبليس الذى لا طائل تحته ، فان كل عاقل يعرف دينه يعرف مراده وما يرتضيه ، ومن كان جاهلا مخدوعا لا ينفعه مثل هذا الكلام . والحاصل أنه يقصد بهذا إبدال هذه الكتب بكتابه والاعتماد عليه . وحقيقة هذا كله هو طلب إبدال الدين بمبدأ الإلحاد ، فان هذه الكتب التى يشنع على أهلها إما تفسير للقرآن وبيان لمعانيه ، أو أحاديث مجموعة بأسانيدها ، أو شروح وتعليقات عليها ، كما صرح بذلك ، وهذا غاية ما يفعله المسلمون الذين يعتقدون أن الله أكمل لهم دينهم وأتم عليهم نعمته ورضى لهم الاسلام دينا ، وأن الشريعة كاملة لا تحتاج الى زيادة ولا نقص ولا تبديل ولا تغيير فى أصلها ونظامها . أما لو كانوا يعتقدون خلاف هذا ، وأن الأديان كالسياسات ، لامكن أن ينتقدهم بعدم التعديل والتبديل والتغيير ، لأنها قابلة لذلك . ولا ينسى القارىء العزيز أن هذا الملحد نفسه قد انتقد المسلمين حينما ذكر أن عمر رضى الله عنه نهى عن قراءة كتب الأوائل ، وذكر فيما ذكر فى المبحث الثالث أن عمر أمر بتحريق مكتبة الاسكندرية ، ثم شنع على المسلمين فى ذلك بل شنع على عمر فى نفس الامر وأطال الهذيان وادعى أن هذه جهالة وأنهم يرون بذلك أن العلم حجاب ، وأن الجهالة أم الفضائل ، فرماهم كلهم

بالغباوة والبلادة والجهالة والرجوع الى الوراء بنفس ما ادعاه هو فى هـذا المبحث فى كتب القدماء ، هـذا مع علمه أن تلك الكتب القديمة لما خرج أكثرها على وقت المأمون كان ذلك سببا فى تدهور الاسلام وانهياره ، ومع ادعائه أيضا بأن تلك الكتب ألفت فى العصور التى ذكر أنها فى طور الحيوان أو قريبا من الطور الحيوانى ، ثم هو كما ترى عاد الى مثل هـذا الذى نقم على المسلمين به ، فأخذ يسفه آراءهم ويرميهم بالجهالة والسفاهة وفساد الرأى فى تمسكهم بالكتب التى ألفت قبل ألف عام ، هذا مع علمه بأن أولئك الذين كانوا فى تلك القرون على غاية من الدهاء والشجاعة ونزاهة الأخلاق وصحة الرأى ، ومع علمه بأن المسلمين كلهم معظمون لهم ، ومع علمه بأن بين هـذه الكتب وبين تلك الكتب التى نهى عمر عن قراءتها فرقا واضحا ، فان تلك الكتب قد نسخت وجاءت خلاصة ما فيها من الصدق والخير فى هذه الشريعة ، بخلاف هذه الكتب التى يدعو الى إزالتها ورفضها ، وهو لو قدر عليها لأتلفها بأسرع ما يمكن ، ولكن الله أعجزه كما أعجز تلك الحيوانات [١] التى عملت على إضرام نار الخليل فما صنعت شيئا ، وكيده ومكره فى هذه المحاولة ككيد تلك الحيوانات ومكرها سواء بسواء

ثم يقال له من وجه آخر : غاية ما نقمته على هؤلاء هو تفسير الشريعة وشرحها والتعليق عليها ، فبأى شىء تريد أن يعملوا غير هذه اذا لم ترد رفضها وابدالها بمبدأ آخر . وهذا الذى انتقدته على هؤلاء المسلمين هو من جنس ما يفعله الملاحدة والمنافقون — وانت منهم — فى كتب أسلافهم ، فانه لا يعدو أن يكون تفسيرا أو شرحا أو تعليقا متنوعا ، وبرهان هذا أن هؤلاء الذين حكموا الطواغيت دون شريعة الله إنما تمسكوا بأصل القانون الرومانى أو ما هو فى معناه ، وجميع ما عدلوه وغيروه إما شرح أو تعليق أو ما فى معناه ، مع أن

---

(١) يعنى الوزغ وما شابهه

هذا التغيير الذى غيروه أو جددوه ضئيل جدا . ثم ان أغلالك المشدودة فى عنقك كلها جهالات الزنادقة القدماء وملاحدتهم ، وهى كلها على ما فيها من خبث وقذارة لا تعدو أن تكون إما تفسيرا أو شرحا لها أو تعليقا عليها ، فان من تدبر أغلالك هذه علم بلا أدنى شك أنها تدور على ما قرره غوستاف لوبون الملحد فى كتابه الآراء والمعتقدات[1] ولا سيما فى قوله ان الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ، فكل كتابك تعليق على هذا ، ولهذا ادعيت أن الخطب وايام الجمعات هى إحدى النكبات لأنها تحث على الايمان بالله واليوم الآخر ، وقد بينا فيما سلف أن جميع أعداء الرسل من الملاحدة والمشركين ذهبوا الى جنس ما قررته فى هذا الكتاب كفرعون نفسه فى معاندته ومكابرته وإلحاده، وسخريته بموسى ومن معه من المؤمنين ، واعتماده على نفسه ، وإيمانه بالاسباب . وقد استأنست بكلام سيدك هذا غوستاف لوبون حين نقلت عنه تلك الجملة الملعونة ، واخذت شوطا تفسر كلامه وتعلق عليه وتؤوله وتخرج له الوجوه القبيحة ، فهذا الصنيع الذى نقمت به على هؤلاء المسلمين فى كتب أسلافهم الطيبين الطاهرين قد صنعت جنسه فى كتب سادتك الملاحدة وأعداء الرسل . ونحن هنا نكتفى عن المناقشة فيما هذيت به ـ وان كانت من أسهل شىء علينا ـ بأن نطالبك ببيان الكتب التى نقمت منها وتسميتها باسمائها وتعيين مواضع الانتقاد ووجهه ، وأن المسلمين كلهم فعلوا ما ادعيته ، وأن فعلهم هذا هو السبب فى تأخرهم . وحيث انك لم تفعل شيئا من ذلك بل جئت بها هوجاء مغمغمة مدخولة بالزور والبهت والفجور ، فنكتفى فيها بالرد ونحيل القارىء على ما ذكرته فى نبذك الأولى فى (الثورة الوهابية) حينما انتقدت المراغى فى نفس

---

(١) وغيره من كتبه الخبيثة . وقد علم أنه من أعداء الاسلام المناوئين له ، حتى انه سب النبى ﷺ وقد ادعى بانه متهوس ، فهل يقلد هذا من فيه غيرة على الدين أو العرب على الأقل

ما تنصره الآن ، وكلامك فى شيوخ الأزهر ، وادعائك هنالك بأن ما ذكرته فى تلك النظرية الأولى هو الحق الذى لا ريب فيه وهنا نقضته وادعيت أنه حقائق أزليـــة أبدية ، فلا أحسن من أن تخنق بأغلالك وتحـمّل بأثقالك ، ليجعل الله ذلك حسرة فى قلبك ، والله لا يهدى كيد الخائنين

يا ناطح الجبـل العـالى ليكلمه   ارفق على الرأس لا ترفق على الجبل

فصل

قال « واما الأمر الثانى ـ وهو الاعتقاد بأن الأولين قد فعلوا الخـير كله وبلغوا الكمال المطلق ، وأن أفعالهم كلها أفعال يقتدى بهـــا ـ فقد تترتب عليه أيضا نتائجه . فان هؤلاء الذين اعتقدوا هذه العقيدة قد صرفوا كل قواهم وأوقاتهم وعنايتهم الى محاولة الاقتداء بأولئك الكاملين الخيرين ، ومحاولة الأخذ عنهم والتشبه بهم ، بل محاولة إعادتهم ونشرهم لو كان ذلك مستطاعا »

فيقال أولا : كل ما تدعيه فى المسلمين المحاولين للاقتداء بأسلافهم والتشبه بهم وما يترتب على ذلك يعارض عنه بما فعله الملاحدة مع أسلافهم ، فانهم أعظم فى المغالاة فيهم والاحتذاء حذوهم ، وأما المسلمون فكثير منهم خالفوا أسلافهم بل ناقضوا كثيرا مما ذهبوا اليه ، فكل ما يمكن أن يترتب عـلى التقليـــد الذى تدعيه فى هؤلاء يمكن أن يترتب على أولئك فى تقليد أسلافهم ، ومعلوم الفرق الواضح بين أسلاف هؤلاء وأسلاف هؤلاء ، هذا مع أن ما ادعيته هنا عـلى هذه الصفة بهتان ظاهر ، فان المدعين بأن السلف قد فعلوا الخير وبلغوا الكمال فيه لا يعنون ما تعنيه ، يقولون ان ذلك فى الأخلاق الدينية والفضائل الانسانية خاصة ، لا فى الصناعات والتجارات ونحوها ، فانهم فرقوا بين هذا وهذا فى كل كتبهم المشهورة المعمول بها ، فدعواه على وجه الاجمال كذب ظاهر . ثم مـا ذكره من كونهم فعلوا ذلك فصرفوا أوقاتهم وعنايتهم الى الاقتداء بهم كذب آخر لا يرتاب فيه مسلم ، وياليته صدق فى هذه الدعوى ، بل ان عكس الدعوى

أصح ، فان أكثرهم أهمل الطريقة السلفية فجاءت النكبة من الاهمال لا من الاقتداء ، ولهذا تجد المخالفة للسلف شاملة لاصول الدين وفروعه فضلا عن آدابه وما يتعلق بذلك ، بل ادعى كثير منهم بأن مذهب الخلف أعلم ومذهب السلف أسلم ، فتبعوا الأعلم بزعمهم ، وكثير من العقائد المنتشرة المدروسة اليوم وقبل اليوم فيها كثير مخالف لطريقة السلف كالسنوسية والجوهرة والخريدة وأمثال ذلك ، فى هذه العقائد مسائل مخالفة لاجماع السلف كمسألة علو الله على عرشه ، وقد يعبر بعضهم عن ذلك بنفى الجهة ، وكإنكار الصفات الخبرية كالحب والرضا والغضب وغير ذلك ويؤولونها ، وكإنكار حقيقة الـــكلام ويدعون أن ذلك هو المعنى النفسى ، فكل هـذا مخالف لعقائد السلف كما بين ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية بالبراهين الواضحه فى كتبه كلها ولا سيما كتاب (العقل والنقل [١]) وابن القيم والذهبى وغيرهم فالعقائد الصحيحة المبنية على الطريقة السلفية المحضة هى مثل (كتاب التوحيد) للامام ابن خزيمة الشافعى وعقيدة الصابونى الشافعى وابن عبد البر المالكى وشيخ الاسلام ابن تيمية فى العقيدة الواسطة المشهورة وغيرهم وهذا فى أصول الدين فكيف بغيره . ولا يخفى على أدنى مسلم اليوم أن كثيرا من النظامات مخالفة للدين ولما كان عليه السلف ولا تمت الى ذلك بأى صلة ، فهؤلاء الذين خالفوا السلف إنما خالفوهم رجاء أن يصلوا الى هذا الرقى والعلم الذى يدعيه ، فكل من رغب عن النصوص واستصغرها بعد علمها لم يحصل على طائل ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ﴾ فلهذا لم يجد هؤلاء الذين رغبوا عنها إلا سرابا وعذابا ، وإلا فلو اقتدوا بهم فى هذه الأمور لكان أهدى لهم وأسلم وأحكم ، فما ذكره من النتيجة باطل قطعا كما لا يخفى . هذا فى الخاصة فكيف بالعامة الذين لا يعرف أكثرهم غير الفسوق والدعارة والاخلاق الساقطة فضلا عن أن يعرف أخلاق السلف والاقتداء بهم

---

(١) المطبوع بعضه بهامش (منهاج السنة)

ثم أطال فى سب هذه الكتب وأنها هى التى أضلت النـــاس ، ولم يسم واحدا منها باسمه كما انه لم يبين وجه الانتقاد ولا المعنى الذى أوجب السب ، بل سبها سبا إجماليا ، وهذا ليس من التحقيق فى شيء ، بل هو هذيان لا قيمة له وقد قدمنا ما ذكره الأستاذ محمد أحمد الغمراوى المصرى فيما نقله عن هـــذا المغرور فى رأيه فى كتب المسلمين ، فلا حاجة الى إعادته

فصل

ولما كان هذا الملحد قد حرج صدره وعجز عن مقاومة هذه العقيـــدة الراسخة التى هى من أعظم الحواجز بين الدين والالحاد وبين قبول كتابه وكتب الدين واعتقاد تقديم السلف على هؤلاء الملاحدة الذين يدعون أنهم مجددون وأنهم خير منهم ، ورأى أن هـذه العقيدة ثابتـة فى قلوبهم ثبوت الجبال فى أماكنها لا يمكن أن يزحزحها هذا الهذيان وأمثاله فلا تتفق هـذه العقيدة وقواعد أغلاله أبداً ، انفجر غيظا فقال :

« والعائق الأكبر هو أن هؤلاء الذين يراد إصلاحهم يرون الكمال فى أولئك القدامى الذين يجدون هذه الأباطيل والخرافات فى كتبهم ، فمن المستحيل أن يجمعوا بين الكفر بأباطيلهم وبين اعتقـاد الكمال المطلق فيهم . والسبيل التى لا سبيل سواها لاخراج هذه الجماعات المنكودة مما هى فيه أن تعلم الكفر بهؤلاء ، والشك فيهم ، وإساءة الظن بهم وبعلمهم ، وأن تعلم أنهم كانوا تحت ظنهم بهم جدا ، وأنهم أبعد عن الكمال من المعـــاصرين ومن المتأخرين » .

فيقال : ما قصرت فى أغلالك هذه من الحث على تعليم الكفر بهم والقدح فيهم ، ولكن الله تعالى أبطل كيدك ، وردّه فى نحرك ، فذهب كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . ثم ما هى الأباطيل والخرافات ، لا بد من بيانها ، فان

مجرد دعوى الأباطيل والخرافات فى كل ما يضاد رأيك لا يعجز عن مثله كل انسان يريد أن يرد قول خصمه ، فان كل من هان عليه دينه وعقله أمكنه أن يدعى كهذه الدعوى . ونحن نعلم أن مرادك بالأباطيل هى ما يخالف ما ادعيته فى هذه الأغلال من نواميس الطبيعة وغيره ، ولكن الأولى لك فى مثل هذه الدعاية أن تبين ذلك بمعناه الواضح ودليله الجلى ، وحيث أنك لم تفعل شيئا من ذلك فنكتفى فى رده بالمنع والمطالبة بالبيان والدليل بالايضاح والتفصيل

فصل

قال « فجهالة التقليد من الجهالات ذات الآثار القاتلة ، وأظهر آثارها كما سبق شيئان : التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل ، وغل العقل والفهم »

فيقال أولا : هذا كلام لا محل له ، فخصومك لا يدعون الى التقليد ، انما يدعون الى اتباع شرع الله ونظامه ، وهذا هو الواجب على كل من آمن بالله ورسوله ، وما خالف هذا هو تقليد بلا ريب ولا يمكن الخروج عنه أبدا كما هو الواقع ، فمن لم يتبع نظام الله فلا بد أن يتبع نظام أعداء الله ، ولهذا لما حاول البعض الخروج عن الشريعة المحمدية بدعوى التجديد اضطروا الى تقليد الجهلاء الكفرة الأولين كما تقدم بيانه .

ويقال ثانيا : اذا كان الأمر كما تدعى فما هو السبب الذى رمى بك فى أحضان الملاحدة وتقليدهم هذا التقليد الأعمى فى كل ما قالوه حتى فى أصل الأصول وحتى فى أغمض الأشياء كمسأله خلق العالم على التفصيل الذى ذكرته وفى نواميس الطبيعة وغير ذلك ، فقلدتهم وجمدت على كل ما قالوه جمودا لم تسبق اليه ، فانك تقلدهم وتحتج بأقوالهم وتذم من خالفهم ، وما رأيناك خالفت واحدا منهم كما أننا ما رأيناك وافقت واحدا من علماء الملة من أولهم الى آخرهم . أما المسلمون فقد علمت أنهم لا يقولون بالتقليد فى أصول

الدين ، أما فى بعض المسائل التى قد يخفى دليلها عند العامة أو غيرهم فهم قد يقلدون من أجمع المسلمون على هدايته ودرايته ، لأنه من أهل الذكر الذين قال الله فيهم ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾

ويحك يا بلعام زمانه ، أين من قلد الصحابة وأئمة أهل القرون المفضلة ـ مثل أبى حنيفة ومالك والشافعى وأحمد وأمثالهم ونظرائهم وأتباعهم كشيخ الاسلام ابن تيمية والامام ابن القيم والحافظ الذهبى ونور الدين الحنفى وأمثال هؤلاء الذين خدموا الاسلام الخدمة الصادقة بكل ما فى وسعهم ، أين هؤلاء من سادتك الذين قلدتهم تقليدا أعمى مثل غوستا فلوبون الذى نقلت عنه أن البشرية لم تستطع أن تخطو خطواتها الصحيحة إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام ، وأمثال هذا ممن لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت ، وقل أن يوجد من هؤلاء أحد الا وكلبه هو خدينه ومعبوده ، هؤلاء هم أئمتك ، فان الله تعالى لما مسخ نفسك نفس خنزير كنت تكره الطيبات والطيبين وتنفر منها وترمى بنفسك على الخبيثات والخبيثين وتلتذ بذلك لأنها تلائم نفسك وتستريح بها . ودعواك أن من آثار ذلك التصديق بكل ما يقال ويسمع وينقل فهذا مما ينطبق عليك لأنك هكذا صدقت بكل ما يقوله الملاحدة ويسمع وينقل عنهم ، ولهذا لم تخالفهم فى شىء مطلقا ، وأما المسلمون فانهم لا يصدقون إلا بما قام البرهان على صدقه لا بكل ما يقال ويسمع فان هذا كذب ظاهر . وقوله « وغل العقل عن الفهم » يقال هو ذا أنت أيضا فانه من أدوائك القديمة العريقة ، وكفى بما نقلته من الهذيان وصدقت به ثم احتججت به فى مسألة خلق العالم وغيرها شاهدا على غل عقلك عن الفهم والرشد ومعرفة الصواب

ثم قال « ولا يمكن أن تبلغ أمة من الأمم مبلغا من الحضارة والمدنية ما لم تشك وما لم تفهم ، فالشك والفهم شرطان ضروريان فى تحصيل الحضارة والعلم

والقوة . والذى لا يعرف أن يشك لا يعرف أن يفهم ، والذى لا يعرف أن يفهم لا يعرف أن ينبغ ويمتاز »

فيقال : هذا ليس بصحيح ، بل هو باطل بهذا الاطلاق . أما أولا فان الحقائق وموضوعاتها مختلفة فى الظهور والخفاء وقوة البرهان وضعفه ، فالحكم عليها كلها بالشك فيها باطل بالبداهة ، فان وضوح الدين والرسالة وصدقها ولزوم الخير فيها أمر أوضح من الشمس ، ومن شك فى ذلك فهو كافر ، فمن شك فى أصول الدين المعروفة من الدين بالضرورة فلا شك فى كفره . ولو جاز الشك فى كل شىء لوقع الناس فى السفسطة ، فانها هى الشك فى الحقائق الظاهرة ، فثبوت فضيلة الصحابة وصدقهم ونصحهم للامة وسبقهم إلى الفضائل أمر واضح كالشمس ، فمن شك فى ذلك فقد شك فى الدين وهو كفر ؛ فالشك فى مثل هذه الأمور كما أنه كفر فهو سفسطة ووسواس ، فان الشك فى الأمور الضرورية كالشمس والنهار والليل وأمثال ذلك وسواس لا ريب فيه . ومن العجب أن أعظم الناس شكا وريبا فى أصول الدين هم أقرب الناس تصديقا بالمحالات ، واندفاعا الى قبول كل ما يقال ويسمع عن سادتهم وشيوخهم فالعلوم إما قطعية أو ظنية ، فالقطعى كالذى ذكرنا لا يجوز الشك فيه مطلقا ، ومن شك فى ذلك فقد شك فى الدين ، ولا يمكن أن تثبت حقيقة من الحقائق إلا ويرد عليها أعظم مما يرد على الحقيقة التى يريد إثباتها من التشكيك فى الدين وأما الأمور الظنية فهى مراتب كثيرة فهذه ينظر الى أدلتها وبراهينها ، فما قام البرهان على صدقه فهو صدق وما قام البرهان على كذبه فهو كذلك ، وما بين ذلك فينظر الى الدليل والترجيح كما هو مبين فى مواضعه

ويقال ثانيا : أنت خالفت هذه الدعوى ، فانك لم تشك فيما ذكرته وكتبته ودعوت اليه بل جعلته حقائق أزلية ، ومعلوم أنه كله مجرد دعاوى ليس عليها أثارة من العلم ، بل البراهين الصادقة قائمة على تكذيبها ، ومع ذلك فلم تدع

الناس الى الشك فيها ، بل دعوتهم الى تصديقها واعتقادها والأخذ بها ، بل علقت النهوض على التمسك بها ، والسقوط على الاعراض عنها . وكذلك لم تشك فيما ذكره الملاحدة فى مسألة خلق العالم وغيره مع أنه شيء بعيد دقيق غامض من عالم الغيب لادراية لك به ، وقد دلت النصوص على خلافه ، ومع هذا قبلته وصدقت به واحتججت به وسفهت رأى من شك فيه وخالفه ، فأين الشك الذى تدعيه

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك اذا فعلت عظيم

فاذن أنت لا تفهم لأنك لا تعرف أن تشك ، ولا تعلم لعدم وجود الشرطين اللذين ذكرتهما ، فلا يمكن أن تنبغ أو تمتاز ، وهكذا كان الواقع ، كما أن هذا الحكم إنما هو على رأسك

ثم إن الملحد أعاد كلامه فى التطور وقد سبق الكلام على ذلك مرارا كثيرة فلا حاجة الى إعادته ، ولكن تلك الجملة التى نقلناها عنه فى إنكار التطور إنكارا باتا كافية فى بطلان كلامه كله فى ذلك

ثم استطرد يستدل على أن هذه الدول تعتقد هذا التطور ، وأنها تقدمت بسبب ذلك ، وبالغ فى مدحها على ذلك ، ثم ختم هذا المبحث الخبيث بمسك ختامه اللائق به وهو الثناء العظيم على تشرشل وزير بريطانيا ، وأما الذين تولوا الزعامة الدينية فقد عرفت ما قاله فيهم فيما سبق ، فقال فى هذا الختام اللائق به :

« ولعل أعجب أسرار هذه المسألة وهذه الفكرة [١] إسقاط بريطانيا للرجل الذى أعطاها النصر وانتزعه لها من لهوات الهزيمة ، اذ لا شك أن الانجليز إنما أسقطوا تشرشل لايمانهم بأن من الممكن أو من المحقق أن من سيخلفه سيجيئهم

---

(١) أى فكرة التطور

بأفضل وأعظم مما يجيئهم به واهب النصر لو أبقوه مكانه . . . ولا ريب أن شعبا يعتقد هذه العقيدة فى تشرشل وفى خلفه شعب يؤمن أشد الايمان بالمستقبل وبالتطور وبأن المستقبل وأهله دائما أفضل وأكمل من الماضى وأهله . . . وإن شعبا [١] تقوده هذه الأفكار الجميلة لعسير جدا مباراته وإنزاله عن سلطانه الضخم الواسع . ولو أن رجلا كتشرشل كان لنا معشر المؤمنين بهذه الفكرة وأعطانا هذا الذى أعطى أمته لـكان من المستيقن أن نعد من الجنون ومن الخيانة بل ومن الكفر بالله التفكير فى إبعاده عن الحكم والقيادة ، ولكان من المستيقن أن هذا التفكير لا يمكن أن يصيب نجاحا لو أريد العمل به ، ولـكان من المستيقن أيضا أن نعبده بعد وفاته عبادة تفوق عبادتنا لكل هؤلاء الأموات المتناثرين فى أرجاء العالم الاسلامى ممن عبدوا مجانا لأنهم لم يصنعوا شيئا يستحقون عليه العبادة [٢] التى يخصهم ويقصدهم بها ملايين المسلمين العاكفين على الأضرحة وعلى الذكريات والأسماء ، بل صنعوا ما يستحقون عليه الرجم والتدمير والكفران الابدى [٣] » انتهى . وهذه الآية من أطول آيات الحقائق الأزلية الأبدية ، فهذا رأى هذا الرجل فى أسباب تغيير وزارة تشرشل ، وهذا رأيه فى أسباب انتصار بريطانيا بأنه بهذا السبب ، وهذا رأيه فى كون عزل تشرشل دليلا على صحة عقيدة التطور على النحو الذى ذكره ، وفى صحة عقيدتهم هذه أيضا ، وهذا رأيه فى توسع دولتهم وقوة سياستهم ، وهذا رأيه فينا معاشر المسلمين من سوء الظن والسخرية والاحتقار ، وهذا رأيه فينا

---

(١) لما كان يعلم ان دعايته فى أغلاله دعاية بلشفية خبيثة جاء بهذه الجملة إرضاء للانجليز لئلا يظنوه شيوعيا فيعرقلوا مقاصده

(٢) يريد بالعبادة هنا تعظيم السلف والأخذ بأقوالهم ونحو ذلك

(٣) كيف يكون ما صنعه السلف وسائر الأموات من علماء المسلمين إنما هو شىء يستحقون عليه الرجم ؟ ألا قبحك الله وقبح من يغتر بكلامك

بأنه لم يوجد منا من هو مثل تشرشل ، وهذا رأيه فينا بأننا لو كان فى أمتنا مثله لكنا نعبده عبادة زائدة عن العبادات فليست مثلها بل تفوق عليها ، فليس فى المسلمين من أولهم الى آخرهم من يساويه أو يدانيه ، اذ لو وجد مثله لوجدت العبادة التى علقها على وجوده باليقين ، وتكون عبادة صحيحة لانها ليست مجانا فلعل عدم وجوده من نعم الله علينا لئلا نتخذ إلها آخر ، وهذا رأيه فى السلف أو فى علماء المسلمين الأموات والحاضرين ، فالأموات لم يفعلوا شيئا مثل فعل تشرشل فيستحقوا عليه العبادة ، بل كل أفعالهم التى فعلوها لا يستحقون عليها سوى الرجم من أجـــل اختلال شرط العبادة الذى هو فعل تشرشل ، أو التجديد الذى هو فعله هو فى أغلاله ، فهم لم يفعلوا شيئا من هذا ولا هذا ، بل كل أفعالهم تلك الأفعال المعروفة المشهورة ليست بشيء ، فلا يستحقون عليها - على رأى هذا الرجل - سوى الرجم والتدمير ، فلا يكفى الرجم وحده بل ولا التدمير معه بل لا بد أن يضاف إلى ذلك الكفران الأبدى

تالله ان الانسان ليحار ويعجب كيف ذهبت الحماسة والشجاعة والغيرة الدينية وأخطأت هذا الملحد الزنديق ، وكيف راجت هذه الفضائح والمخازى المكشوفة على من يشم رائحة الاسلام . ولا نحتاج هنا الى تطويل التعليق على مثل هذه الجمل الخبيثة ، فان القارىء الذى يخفى عليه ما فيها من الخبث والزندقة وسوء الطوية لا يفيد فيه إفهام ولا إرشاد ، بل لا بد أن يكون ميت القلب فاسد العقل جامد الذهن قد ختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فانى له الرشاد والتوفيق . وما أخلق هذا الملحد بمن قال الله فيهم ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا﴾

اختتم هذا المغرور هذه المباحث الخبيثة بهذا المبحث المتضمن رفض الدين ومنابذه أهله والحث على تقليد الغربيين والانطلاق وراءهم فى هذه المبادىء

المدامة التى اتبعوها وذاقوا وبال أمرها فودوا لو أنهم جهلوها واستراحوا من توقع غوائلها وأخطارها المستهدفة كما صرح بذلك كثير من رؤسائهم وعقلائهم

طاش عقل هذا المسكين وذهب به الغرور والزهو الى أقصى حد حينما قيل انه استحصل على شيء من المعرفة والمبادىء العلمية ، ودفعه زيادة على ذلك ما سمعه من الإغواء والإغراء ممن غشه أو لم يعرف حقيقة أمره ومزاجه

فقد خيل اليه أنه ابتلع العلم كله بجميع فنونه ونواحيه ولم يبق لا حد منه شيء ، فأخذ العلوم كلها وترك لغيره الجهالة والبلادة والغباوة كلها ـ فجن جنونه فنعب وهذى وذهب يشتم ويمقت ويتهكم ويستهزىء ويعادى كل من خالفه أو أعرض عن قبول قوله ، بل فرض طاعته وتصديقه على الناس أجمعين

ولو كان له ادنى مسكة من عقل لم يذهب مندفعا فى هذه المهامه المهلكة سعيا وراء هذه الاوهام اللامعة والمظاهر الخداعة التى اغتر بها كل سخيف رأى وضعيف عقل ، بل كان من الواجب عليه أن يتبين ويتثبت ويسترشد حتى يعرف حقيقة الأمر كما عرفها العقلاء وكما ادعى معرفتها هو قبل ذلك

وقد تكلم كثير من علماء الشرق والغرب أيضا وبينوا ما فى هذه الحضارة الزائفة المدخولة التى أعجب بها هذا وأمثاله من ضعفاء العقول من القلق والفساد والانحلال المادى والمعنوى ، وكما ظهر بالمشاهدة فى كثير من شعوبها الدمار والانهيار الفظيع ، وأصبح الباقون فى أشد حالة خطرة ، كل ذلك بأسباب هذه المادية التى فتنوا بها وعبدوها كما نقل الاستاذ محمد عبده فى (تفسير سورة العصر) عن ماكس نوردو الشهير فى كتابه المسمى (الأكاذيب العرفية لتمدننا الحديث) قال الاستاذ : ان ما يرى فى بعض الأمم من ظاهر السعادة ليس إلا لمعان السراب ، حتى اذا جاءه وحقق أمره لم يجده شيئا . وقال ماكس نوردو أيضا فى كتابه المذكور ما معناه : ان للناس كانوا ولم يزالوا يطلبون الحق ، ولم يكونوا فى زمن أبعد عنه منهم فى هذا الزمان . ثم قال ما ترجمته :

انك لو طرقت أى باب تسأل هل مرت السعادة بهذا البيت ، لا جابك مجيب : إذا شئت فاطرق بابا آخر ، فان السعادة لم تمر ببيتنا . وقال جود الانكليزى[١] رئيس قسم علوم النفس والفلسفة باحدى كليات جامعة لندن : « إن الاوربيين قد فقدوا تعادل القوى والأخلاق ، والتوازن بين العلم بظاهر من الحياة الدنيا وبين الدين منذ قرون ، فلم تزل القوة فى أوربا بعد النهضة الجديدة ولم يزل العلم يسموان على حساب الدين والاخلاق ، ولم يزل ذانك فى ارتفاع وهذان فى انخفاض وانحطاط ، حتى بعدت النسبة بينهما ، ونشأ جيل كأنه ميزان لصقت إحدى كفتيه بالأرض ثقلا وهى كفة القوة والعلم ، وخفت الثانيـــة كفة الاخلاق والدين حتى ارتفعت هذه الثانية جدا ، فبينما يتراءى هذا الجيل للناظر فى خوارقه الصناعية وعجائبه الكونية وتسخيره للمادة والقوة الطبيعية لمصالحه وأغراضه كأنه فوق البشر ، فاذا هو لا يتميز فى أخلاقه وأعماله وفى شرهه وطمعه وفى طيشه ونزقه وفى فسوقه وظلمه عن البهائم والوحوش ، ثم أطال فى ذلك . وتقدم ما قاله شيلر الالمانى الشهير : بدأت الجماعات تهوى وتنحل خلقيا ، والخلق هو رباط المجتمع السليم ، وليس أدل على ذلك من انتشار دور الرقص والملاهى المبتذلة وتفشى الآراء المتطرفة المادية الخ . وقال السيد المودودى[٢] ظهرت الحضارة الغربية فى أمة لم يكن عندها معين صاف ولا نبع عذب للحكمة الالهية ، لقد كان فيها قادة الدين ، ولكن لم يكونوا أصحاب حكمة ولا علم ولا شريعة إلهية ، لم يكن عندهم إلا خيال دينى لو حاول أن يسير بالنوع الانسانى على صراط مستقيم فى طرق الفكر والعمل لما استطاع . ثم ذكر أن هذا هو السبب فى نبذهم الدين . الى أن قال : وجدوا المخلوقات مسخرة فاستخدموها

---

(١) نقله فى (الشواهد) ص ٦٥

(٢) ذكره فى (الشواهد) ص ٧٢

لاغراضهم ، وجهلوا انهم ليسوا سادتها ومدبريها ، وانما هم خلفاء سيدها الحق ، فلم يروا أنفسهم مسئولين عنهـــا ولا عليهم تبعات وحساب ، فزاغ أساس مدنيتهم وتهذيبهم ، وانحرفوا عن عبادة الله الى عبادة أنفسهم واتخـذوا إلههم هواهم ، وفتنتهم عبادة الهوى ، فساروا بهذه العبادة فى كل ميدان من ميادين الفكر والعمل على طرق شتى وسبل متفرقة خلابة رائعة ، ولـكن مصيرها الى الهلاك . هذا هو الذى مسخ العلوم الطبيعية فصارت آلة لهلاك الانسان ، ضاعت الاخلاق فى قالب الشهوات والرياء والخلاعة والاباحة ، وتسلط عـلى العيش شيطان الأثرة والشح والفتك ببنى الانسان ، ودس فى عروق المجتمع وشرايينه سموم عبادة النفس والانانية والإخلاد الى الرفاهية والتنعم ، ولطخ السياسة بنعرة الجنسية والوطنية وفروق الألوان والأجناس وعبـــادة القوة و تأليهها والتغنى بها وجعلها هدف الانسانية الاكبر . وبالجملة ان البذرة الخبيثة التى ألقيت فى تربة أوربـا ونهضتها الأخيرة نبتت منها دوحـة خبيثة أثمرت ثمرات يانعة سامة ، وأزهرت أزهارا بهيجة شائكة : فروع خضراء تنفث غازا ساما لا يرى ، لـكنه يسمم دم النوع البشرى . وغارسو هذه الشجرة الخبيثة من الغرب قد مقتوها وأمسوا يتذمرون منهـا ، فقد خلفت فى كل ناحية من النواحى مشاكل وعقد عجزوا عن حلها ، وما حلوا عقدة إلا ظهر غيرهـا ، ولا قطعوا فرعا إلا نبتت فروع شائكة أخبث منه ، فهم فى معالجة أدوائهم وإصلاح شئونهم كمعالج الخمار بالخمر ، ومداوى الادمان بالمداومة عليه ، وكـناقش الشوكة بالشوكة التى تنكسر مـع أختهـا . عالجـــوا الرأسمـاليـة الظالمـــة بالاشتراكية المتطرفة ، حاولوا استئصال الديمقراطية الزائفة فنبتت الدكتاتورية المستبدة الخانقة ، أرادوا أن يحلوا مشاكل الاجتماع فنبتت حركة (تذكير) النساء وحركة منع الولادة ، أرادوا تشريع قوانين الاستئصال المفاسد الخلقية فهاجت حركة العصيان والجنايات ، فلا ينتهى شر إلا بولادة شر ، ولا فساد إلا الى فساد أكبر منه ، ولا تزال هذه الشجرة تثمر لهم شرورا ومصائب

حتى صارت الحياة الأوروبية جسدا مقروحا متسمما يشكو كل عضو منه أوجاعا وأوصابا ، وأعيا الداء أطباءه ، واتسع الخرق على الراقع : الأمم الغربية تتململ ألما بقلوب مضطربة وأرواح متعطشة الى ماء الحياة ، ولكنها لا تعلم أين معين الحياة ا ه

وكلامهم فى هذا كثير جدا ، حتى أن لوبون الخبيث الذى يعظمه هذا الملحد قال فى كتابه (حضارة العرب) : « وتعانى مجتمعاتنا تحولا بعيد المدى فى الوقت الحاضر ، وقد قلبت مبتكرات العلوم الصناعية كياننا المادي والأدبى رأسا على عقب ، ويقاسى الغرب خلافا شديدا فى مجتمعه ، ويكابد فى سبيل معالجة الشرور التى نشأت من ذلك الخلاف أزمة عامة تسوقه باطراد الى تبديل نظمه ، ويئن من عدم الانسجام بين المشاعر والمعتقدات الجديدة » الخ . فهذا كلام طاغوته ، واذا اعترف الخصم فلاحاجة الى الدليل عليه ، فهلا تداوى به من إلحاده الذى قلده فيه (كما يتداوى شارب الخمر بالخمر) . ومما وقع فى الغرب كأمريكا واوربا وغيرهما من الفساد والدمار يعرف الحكمة فى اختصاص الشرق بانزال الكتب وارسال الرسل المشهورين ، لانه أقبل لها ، فلهذا أخذوا بها وعملوا بها مئات السنين ، وأما هؤلاء فان الله أنعم عليهم بما به يعرفون الدين والكتب ودعوة الرسل ، ولكن لم يقبلوا ذلك ولم يكونوا كأهل الشرق ، وقد قامت عليهم الحجة لئــــلا يقول قائلهم حينما يرون ما يوعدون ﴿ ربنا لولا أرسلت الينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴾ كما نبهنا على هذه فيما مضى والله اعلم

الكلام على خلاصة كتابه

عنوانها فى أغلاله :

(المشكلة التى لم تحل)

وقد جعل هذه (الخلاصة) هى حاصل ما ذكره فى كتابه من أوله إلى اخره ، وقد تبين لك مما سبق أن هذا الرجل افتتح كتابه بمدحه وتعظيمه ، مدعيا أن هذه الأفكار من الحقائق الأزلية الأبدية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت ولن يستغنى عنه مسلم . فقد افتتح هذا الكتاب بهذه الدعوى ، واختتمه مدعيا أن خلاصته مشكلة لم يوجد لها حل إلى اليوم ، فكان حاصل الكتاب الوقوع فى الشك والريب والحيرة . ولا تنس أن هذا الرجل نفسه افتتح المبحث الثانى الذى هو فى الحقيقة أول مباحث الكتاب المقصودة بما نقله عن الزمخشرى والرازى وابن أبى الحديد فى تلك الأبيات ، وتهكم بهم وبعلومهم ، ونسبهم الى الجهل والضلال ، وسخر منهم غاية السخرية حيث اخبروا بأن غاية ما وصلوا اليه من أمرهم الحيرة وعدم الحصول على الحقيقة . فها هو قد وقع فى ما هو أعظم وأدهى وأطم مما وقعوا فيه ، فانه جعل حاصل هذا الكتاب الذى وصفه بما تقدم مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم :

ومن العجائب والعجائب جمة أن يلهج الأعمى بعيب الأعمش

قال :

(المشكلة التى لم تحل)

« يتبين للقارىء إذا كان قد قرأ فصول هذا الكتاب كلها ، أن أساس هذه المزالق الفكرية قائم كله على التدين الباطل ، أو على الفكرة الدينية من حيث هى . فالمشكلة التى ما أظن أحداً درسها دراسة صحيحة وافيـــة هى أن فكرة

التدين قائمة على الايمان بسبب ترجع اليه جميع الأسباب ، لأنه هو خالقها ، المهيمن عليها ، المتصرف فيها كيف شاء ، وهذا السبب الذى هو سبب الأسباب - أى الله ، على اختلاف كبير بعيد بين أصناف المتدينين فيه وفى حقيقته [١] - لا يحتاج هو الى سبب فى وجوده وقيامه بنفسه وفى فعله وصنعه . فاذا وصلوا الى الايمان بهذا السبب والى الايمان بقدرته الكاملة التى لا يعجزها شىء ولا يندّ عن سلطانها وقبضتها أمر ، شكوا فى الأسباب الأخرى التى هى دونه ، والتى هى من خلقه وصنعه ! وإذا ما صاروا الى هذا الشك فى الأسباب تراخوا فيها وفى الأخذ بها ، وفى العمل على اتقانها والتعويل عليها ، وحينئذ تصاب قواهم كلها بالضعف وبالعجز عن الابداع والتبريز وعن الانتاج والعمل البارع العظيم . فان الانسان لن يكون سببيا محضا إلا إذا آمن بأن هــذا الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ، تسير إلى نهاياتها ونتائجها سيراً آليا طبيعيا ، ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أو أن تتحكم فى نهايتها [٢] . وهو - أى الانسان - لن ينجح النجاح المرجو إلا إذا كان سببيا محضا . فالايمان بسبب الأسباب يمنعه - على حسب ما تصور وبلغ - من أن يكون سببيا ، وعــدم كونه سببيا يمنعه من النجاح . هذا هو كل ما استطاعت مدارك البشر الدينية

---

(١) ذكر الاختلاف فى صفته هنــا كلام ساقط لا محل له ، لأن الكلام هنا فى التصرف المطلق وهو مجمع عليه بين أصناف المتدينين له

(٢) تقدم قوله : « وهذه الآراء مصدرها كلها هذه الفكرة البـاطلة ، وهى فكرة إنكار الأسباب أو التهوين من شأنهـا أو الاعتقاد أن الله يفعل بدونهـا أو يدخل بينها وبين مسبباتها ويحول بينهـا وبين نهاياتها » . وتقدم تصريحه أيضا بأن غضب الله ورضاه وسخطه وحبه وبغضه لا دخـل له فى الأسباب مطلقا ، فجرد الله من التصرف مطلقا ، وجعل النواميس هى التى تدبر أمر العـالم باستخدام الانسان لهـا بذاته بدون حدود ولا قيود

أن تبلغ وأن تعرف . تلك لعمر الله هي المشكلة الحقيقية الكبرى التي لم يوجد لها حل الى اليوم .

هذا شرحه للتدين الباطل والفكرة الدينية من حيث هي التي هي أساس هذه المزالق الفكرية التي ذكرها ، وهو أن الدين الباطل عنده أو الفكرة الدينية مطلقا — أي من حيث هي كما ذكر — هي أن يؤمن الانسان بالله وبقدرته الكاملة المتصرفة في هذا العالم ، فاذا آمن الانسان بهذا كان على دين باطل ولن ينجح ، لأن إيمانه هذا يمنعه أن يكون سببيا والسببي هو الذى لا يؤمن هذا الايمان ، بل يؤمن بأن قدرة الله لا تدخل بين الأسباب ومسبباتها ولا يمكن أن تحول بينها وبين نتائجها . فالمصيبه التي أصابت المسلمين أو المتدينين وحاقت بهم — على ما زعم — هو ايمانهم بالله الذى هو سبب الأسباب ، فان إيمانهم به أوجب لهم الإيمان بقدرته الكاملة وانه المتصرف في الأسباب كلها كيف شاء ، فلا يعجزه شيء ولا يند عن سلطانه أمر ، فلما آمنوا به آمنوا بعموم قدرته ومشيئته فكانوا غير سببيين ، ومن كان غير سببي فلن ينجح ، لأن النجاح إنما يكون للسببي المحض ، والسببي المحض هو المؤمن بأن الوجود كله مربوط بأسباب آلية طبيعية تسير الى نهاياتها ونتائجها سيرا آليا طبيعيا ليس لقوة من القوى أن تقف في سبيلها أو ان تتحكم في نهاياتها . فهذا الايمان يتنافى مع الايمان بالقدرة الكاملة والمشيئة العامة المتصرفه في الاسباب . فالمتدين أفسد على نفسه النجاح حيث كان مؤمنا بكون القدرة والمشيئة لها سلطة على الأسباب بالوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم فيها ، ولهذا صار غير سببي ، فلا بد له من التأخر ، كما ان السببي لا بد له من التقدم . فالانسان الذى يريد النجاح لا بد له من الكفر بقدرة الله وتصرفه في الاسباب ليكون سببيا محضا ، لأن السببي المحض هو الذى ينجح . هذا حاصل كلامه بل صريحه في هذه الجملة بل في الكتاب كله . وسرّ المسألة أنه لا بد من طلب النجاح ، وطلب النجاح إنما

يكون حاصلا للسببي المحض الذى لا يؤمن بالقدرة والمشيئة المتصرفة فى الأسباب ، بل يؤمن بأن هذا الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها . فاذا آمن الذى يطلب النجاح هذا الايمان فانه يكون سببيا يمكنه النجاح ، بخلاف ما لو آمن بالقدرة والمشيئة وأنها تقف فى سبيل الأسباب أو تتحكم فى نهاياتها فان إيمانه هذا الذى تصوره يمنعه من النجاح ، فكان لا بد من الكفر بالقدرة والمشيئة التى تقف فى سبيل الأسباب . وكفره بالقدرة والمشيئة مشكلة لا يمكن أن تتفق مع الايمان بالله ، فلا بد أيضا من الكفر به تعالى ، لأنه صرح فيما يأتى قريبا بأنه لا إله بلا فعل ، وأن الاقرار بافعاله يوجب الاقرار بالتصرف ، وهذا يوجب للانسان بأن لا يكون سببيا [1] كما يأتى ، ولأن الاله الذى لا فعل له ولا يتصرف فى مخلوقاته إما معدوم أو عاجز ، وهذا حقيقة كلامه بل صريحه . وهذا القول مع كونه كفرا صريحا غليظا أشنع من كفر المشركين واليهود وغيرهم ، فهو تقرير ساقط بالمرة ، وسقوطه ظاهر بالشرع والعقل والحس والضرورة والاستقراء.

أما كونه كفرا ظاهرا فانه مصادم للشرائع السماوية كلها ، فانها متفقة على عموم قدرته تعالى ومشيئته وتدبيره لخلقه وتصرفه فيهم كيف شاء ، وأنه بيده ملكوت كل شيء ، وما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، وأنه يعز من يشاء ويذل من يشاء ، ويبسط الرزق لمن يشاء ، ويمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، وأنه يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وكل الأسباب خاضعة له جارية تحت إرادته لا يعجزه شيء من جميع ما خلق يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ولهذا كان كل من أقر بالله تعالى أقرّ بذلك وأقر بتصرفه ومشيئته العامة وأنه لا يسأل عما يفعل وهم

---

(١) اى فيكون متأخرا

يسألون . ولكون الايمان بهذا بديهيا لكل من آمن به تعالى فقد أقر به حتى عبدة الاوثان الذين يتقربون بعبادتها اليه زلفى لوضوح هذا الامر وجلائه.

وأما مخالفته للعقل والضرورة (١) فانه يمتنع الايمان بالله والكفر بقدرته ومشيئته وتصرفه فى الأسباب ، فان الايمان به على هذه الصفة من جنس الايمان ببعض الأوثان العاجزة ، وكل الناس يعلمون من غير أدنى شك بالعقل والحس والضرورة والاستقراء أن الرسل أعظم ايمانا بالله تعالى ومشيئته العامة وقدرته الكاملة ، وقد نجحوا فى كل مطالبهم ، ونصرهم الله على أعدائهم المعتمدين على الأسباب المادية كما قال تعالى ﴿ ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين انهم لهم المنصورون وان جندنا لهم الغالبون ﴾ وهذا نص قاطع على أن الله قد نصر رسله وجنده كلهم ، وأن النصر لا بد أن يكون فى جانبهم ، وهكذا كان الواقع . ولا يرد على هذا أن بعض الأنبياء والصلحاء قتل ، فان وجود قتل بعض منهم لا ينافى نصر الله لهم ، فان الله ينتقم ممن فعل ذلك بهم سريعا وينصر أعوانهم وأتباعهم ويجعلهم فوقهم وأولئك تحت اقدامهم فيكونوا هم الغالبين كما قال تعالى ﴿ انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ﴾ فهذا نص صريح فى أنه سبحانه ينصر رسله فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ألا ترى أن اليهود عليهم لعائن الله لما قتلوا بعض الانبياء ظلما وعدوانا اذلهم الله وضرب عليهم الذلة والمسكنة آلاف السنين ، وكانوا تحت أقدام أتباع الانبياء ، مع أنهم بذلوا غاية جهدهم فى هذه العصور الطويلة للخلاص مما هم فيه من الاذلال والاهانة فما حصلوا على شيء ، وقد

---

(١) بل كثير من علماء المادة والطبيعة المشاهير اليوم معترفون بان قانون السببية قد أصبح غير حتمى كما قرره جيمس الانجليزى وشيلر الالمانى وغيرهما . فهو كما أنه خالف الأديان كلها فقد خالف أكثر علماء الطبيعة الذين يسبح بحمدهم ويقدسهم ، فكان مذبذبا فى كل نظرياته

حاولوا قتل عيسى عليه السلام واهانته وإهانة أتباعه من الحواريين وغيرهم فما حصل لهم غير عكس ما راموا ، كما قال تعالى ﴿ يا عيسى إنى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيمة ﴾ وهكذا كان الواقع . وكذلك لا يقال ان المجوس انتصروا على عمر بن الخطاب لما قتله أبو لؤلؤة حسدا وبغيا وعدوانا ، ولا يقال أن أولئك البغاة الذين قتلوا عثمان رضى الله عنه انتصروا ، فان الله عاملهم بنقيض قصدهم فاذلهم وبدد شملهم ونصره الله عليهم فانتقم منهم بأبغض شىء اليهم وهم عصبة عثمان ، وقد كان هؤلاء الذين خرجوا عليه وقتلوه إنما قصدوا نقل الخلافة منه لكونه من بنى أمية الى على بغيا وعدوانا لا لغير ذلك ، فعاملهم الله بنقيض قصدهم بان قيدهم بالسبب الذى فروا منه ، فولى بنى أمية عليهم وجعلهم تحتهم يسومونهم سوء العذاب حتى هلك ذلك الجيل كله عن آخره فكان هذا الخليفة الراشد منصورا وان كان مقتولا ، وهكذا كل نبى وصالح . قال شيخ الاسلام ابن تيمية [1] « فان قيل : ففى الانبياء من قتل كما أخبر الله تعالى أن بنى اسرائيل يقتلون النبيين بغير حق ، وفى أهل الفجور من يؤتيه الله ملكا وسلطانا ويسلطه على المتدينين كما سلط بخت نصر على بنى اسرائيل ، وكما سلط كفار المشركين وأهل الكتاب أحيانا على المسلمين ، قيل أما من قتل من الأنبياء فهم كمن يقتل من المؤمنين فى الجهاد شهيدا . قال تعالى ﴿ وكأين من نبى قتل[2] معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن

---

(١) أى فى (الجواب الصحيح فى الرد على النصارى) ج ٤ ص ٢٦٦
(٢) كذا نقله الشيخ ، وهى قراءة مشهورة ، وان كانت الأشهر « قاتل » كما فى المصحف المطبوع

ثواب الآخرة والله يحب المحسنين ﴾ ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيدا فى القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه ، قال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾ ولهذا قال تعالى ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ أي إما النصر والظفر وإما الشهادة والجنة . ثم الدين الذى قاتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر فيكون لطائفته السعادة فى الدنيا والآخرة ، من قتل منهم كان شهيدا ومن عاش منهم كان منصورا سعيدا ، وهذا غاية ما يكون من النصر ، اذ كان الموت لا بد منه ، فالموت على الوجه الذي تحصل به سعادة الدنيا والآخرة أكمل بخلاف من يهلك هو وطائفته ولا يفوز لا هو ولا هم بمطلوبهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . والشهداء من المؤمنين قاتلوا باختيارهم وفعلوا الأسباب التي بها قتلوا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهم اختاروا هذا الموت ، إما انهم قصدوا الشهادة وإما أنهم قصدوا ما به يصيرون شهداء ، عالمين بان لهم السعادة فى الآخرة وفى الدنيا بانتصار طائفتهم وببقاء لسان الصدق لهم ثناء ودعاء ، بخلاف من هلك من الكفار فانهم هلكوا بغير اختيارهم هلاكا لا يرجون معه سعادة الآخرة ، ولم يحصل به لهم ولا لطائفتهم شيء من سعادة الدنيا ، بل اتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيمة هم من المقبوحين . وقيل فيهم ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين ، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقد أخبر سبحانه أن كثيرا من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أى ألوف كثيرة ، وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك بل استغفروا من ذنوبهم التى كانت سبب ظهور العدو ، وأن الله آتاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة . فاذا كان هذا قتل المؤمنين فما الظن بقتل الانبياء ، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح ، وظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد ، فان تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم . كما

قد جرى مثل هذا للمسلمين فى عامة ملاحمهم مع الكفار ، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها ، فان النبي اذا قاموا بعهوده ووصاياه نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له ، فاذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم ، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجودا وعدما من غير سبب يزاحم ذلك ، ودوران الحكم مع الوصف وجودا وعدما من غير مزاحمة وصف آخر يوجب العلم بأن المدار علة للدائر . وقولنا « من غير مزاحمة وصف آخر » يزيل النقوض الواردة . فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو سبب اتباع النبي وأنه سبحانه يريد إعلاء كلمته ونصره ونصر أتباعه على من خالفه ، وأن يجعل لهم السعادة ولمن خالفهم الشقاء . وهذا يوجب العلم بنبوته وأن من اتبعه كان سعيدا ومن خالفه كان شقيا . ومن هذا ظهور بخت نصر على بنى اسرائيل ، فانه من دلائل نبوة موسى ، اذ كان ظهور بخت نصر انما كان لما غيروا عهود موسى وتركوا اتباعه فعوقبوا بذلك (١) وكانوا اذ كانوا متبعين لعهود موسى منصورين مؤيدين كما كانوا فى زمن داود وسليمان وغيرهما ، قال تعالى ﴿وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الارض مرتين ولتعلن علوا كبيرا ، فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى باس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وإن اسأتم فلها ، فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربكم أن يرحمكم ، وإن عدتم عدنا﴾ فكان ظهور بنى إسرائيل على عدوهم تارة وظهور عدوهم عليهم تارة من دلائل نبوة موسى

---

(١) كما جرى لهذه الأمة ، فانها لما كانت مستمسكة بالدين ولا سيما فى الأصول كانت على غاية من العزة وضخامة الشأن ، فلما أن تغيرت حالتهم فى زمن المأمون وما بعده بدأ الضعف فيهم كما فى الحديث « لتتبعن سنن من كان قبلكم »

ﷺ وآياته ، وكذلك ظهور أمة محمد ﷺ على عدوهم تارة وظهور عدوهم تارة هو من دلائل رسالة محمد وأعلام نبوته ، وكان نصر الله لموسى وقومه على عدوهم فى حياته وبعد موته كما جرى لهم من يوشع وغيره من دلائل نبوة موسى ، وكذلك انتصار المؤمنين مع محمد ﷺ فى حياته وبعد مماته مع خلفائه من أعلام نبوته ودلائلها ، وهذا بخلاف الكفار الذين ينصرون على أهل الكتاب أحيانا ، فان أولئك لا يقول مطاعهم إنى نبى ولا يقاتلون أتباع الانبياء على دين ولا يطالبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم ، بل قد يصرحون بأنا إنما نصرنا عليكم بذنوبكم ، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم . وأيضا فلا عاقبة لهم بل الله يهلك الظالم بالظالم ، ثم يهلك الظالمين جميعا . ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت ، ولا يختارون القتل ليسعدوا بعد الموت . فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين وظهور بعضهم على بعض » انتهى

قلت : وجميع الرسل الذين قص الله علينا ما جرى بينهم وبين قومهم فى القرآن العزيز قد نصرهم الله كنوح وهود وصالح وابراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم . ومن المعلوم الذى لا ريب فيه أن الحضارة والملك منذ آلاف السنين كانت فى أيدى المتدينين المقرين بالرسل ، وهى الآن تحت من كان لهم أصل عريق فى الديانات ، وإن كان فيهم الآن من ليس متدينا ، فان الأسباب الأولية التى أهلتهم للمعرفة فى هذه الأمور كانت مأخوذة فى أزمنة التدين مقتبسة منها . وهذا الملحد نفسه قد اعترف اعترافا ظاهرا فى نبذته الهوجاء (كيف ذل المسلمون) بأن أوربا لم تأتها هذه الحضارة وتقتبس هذه العلوم التى هى عليها الآن إلا من تعاليم الاسلام ومن المسلمين الذين خالطوهم فى أوربا ، ومعلوم أن أولئك المسلمين كلهم مقرون بالقدرة والمشيئة العامة ودخولها فى الأسباب والمسببات ، ومع هذا حصل النجاح . بل

هو نفسه ذكر فيما مضى أن المجردين من الدين يبقون على طباعهم الخبيثة من الجهالة والظلم والعدوان المطلق ، فاذا كان المجرد من الدين يبقى كذلك فكيف يقال ان المتدين لا بد أن يكون غير سببى والنجاح إنما يكون للسببى المحض ، وصريح هذا أن الملحد هو الذي يعتقد أن الوجود مربوط بأسباب آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، فان هذا هو اعتقاد الملحد بخلاف المتدين فانه لا يعتقد هذا أبدا كما اعترف هو بذلك فيما يأتى بانه لا إله بلا فعل ، وإثبات الفعل يقضى للانسان بأن لا يكون سببيا ، وقد قدمنا غير مرة أن الايمان بالأسباب بكونها آلية طبيعية ليس لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها أكبر مصيبة وأعظم مخذل للقوى ومضعف لها ، ولا يمكن بحال أن ينجح من هذا اعتقاده ، لأن هذا الوهن العظيم والعائق الاكبر لابد أن يضطر صاحبه الى الايمان بالمخلوقات العاجزة التي يشاهد عجزها فى نفسه وفى غيره فيكون ضميره قلقا حائرا ، فان هذه الاسباب المحدودة الضئيلة التى هى غير مضبوطة له وهى مشتركة بينه وبين عدوه ، وقد آمن بان عدوه يقدر على مثل ما يقدر هو عليه لأنه مؤمن بأن جنس الانسان يعلم كل شيء ويقدر على كل شيء ، وهذا يوجب أحد أمرين : الأول إتلاف النفس فى العمل إما اختيارا أو اضطرارا ، فالاختيار قلّ أن يفعله من فيه حياة صحيحة ، ولا سيما اذا كان يرى أن أكبر مصلحة عمله لغيره كرئيس ونحوه (١) وأما الاضطرار فلا يخفى ما فيه من الاستعباد وقتل الذهن والحرية والتفكير الصحيح . والأمر الثانى يوجب رفض العمل رأسا ، ولا سيما اذا كان فى شعب صغير قد استولى عليه شعب أو حكومة أكبر منه ، لأنه قد آمن بان القوة الكبرى تغلب الصغرى حتما ، وآمن بأن عدوه سيعمل أضعاف ما يعمل هو ، فلا فائدة حينئذ فى

---

(١) وربما كان أكره الناس اليه ذلك الرئيس أو الرؤساء الذين أجبروه على العمل لمصالحهم

العمل ، بل قد يختار أن يغتنم حياته فى الفرح والمرح واللذات العاجلة ولا يتلف قواه فى عمل نفعه لغيره ، وهذا بخلاف الدافع الدينى الذى يعتقد صاحبه أن الأسباب مربوطة بنتائجها والوسائل بغاياتها وأن الله يفعل بالأسباب وقد أمر بالأخذ بها والاعتماد عليه تعالى وأنها كلها تحت مشيئته وقدرته فهو القادر على نصره وتأييده وتوفيقه وإذلال عدوه وقهره وإفساد أعماله متى نصح العامل معه ، معتقدا أن عمله لا يذهب سدى : إما السعادة ، وإما الشهادة . فعمله كله خير له وكله طاعة وكله مثاب عليه ، فمن كان هذا هو اعتقاده فانه حقيق أن ينجح وحقيق أن يوفق وحقيق أن يواصل السير فى عمله بقوة ونشاط ، ولا بد أن تكون له العاقبة الحميدة

ودعواه أن هذه مشكلة حقيقية كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، يقال له : من المحال أن تكون هذه الفكرة مشكلة كبرى لم تحل ولا يذكرها أحد من الناس غيرك ، فان من المعلوم الذى لا يستريب فيه من له مسكة من عقل أنها لو كانت مشكلة لذكرها أحد من الناس على اختلاف أصنافهم منذ آلاف السنين ، فمن هو الذى أشكلت عليه غيرك . وهذا برهان ظاهر على أنها من أوضح الواضحات ، وان وضوحها عند الناس أوضح من الشمس ، حتى السوفسطائية الذين يغالطون فى الحقائق لم يجعلوها مشكلة كبرى . وكيف تكون مشكلة كبرى ويسكت عنها الملايين وملايين الملايين آلاف السنين وهم سائرون عليها حاكين بها على كثرة أعمالهم ، حتى أن المختلفين فى الصفات مقرّون بها ، فالناس إما ملحد زنديق منكر لها رأسا ، وإما مقر بها . أما كونها مشكلة فانما يكون هذا فيمن كانت نظريته مقلوبة فى معرفة الحقائق ، وكان مخالفا للناس فى كل نظرياتهم مثلك ، فمن كانت هذه حاله فخليق به أن تشكل عليه ، لغلظ حجاب قلبه ، وانطماس بصيرته وقوة ظلمته . ولقد كان من الواجب المفروض عليك أن تستفتى فيها اذا كانت مستشكلة عليك . أما كونك تذهب الى مشكلة

حقيقية كبرى عندك فتبنى عليها كتابا طويلا وتدعى أنه حقائق أزلية أبدية وأن النهوض موقوف على الأخذ به والسقوط موقوف على تركه وأنه لن يستغنى عنه مسلم ، فهذا من أخبث ما يفعله الانسان وأشنع ما يضلل به غيره

ولا غرابة فى من سقط على أم رأسه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة أن يذهب الى أوضح شىء فى الدنيا كلها بأسرها وهو الايمان بالله تعالى وبقدرته ومشيئته العامة والعمل مع ذلك والنجاح فيه فيدعى أن ذلك مشكلة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ، فان الاعمى الذى فى غاية الظلمة المحجوب بالحجب الكثيفة لا يرى الشمس صحوا وسط النهار ، وهكذا أعمى البصيرة مظلم القلب المحجوب بحجب الضلالات لا يرى الحقائق السافرة التى هى فى الوضوح والجلاء كذلك ، فجميع المسلمين بل وغيرهم من أهل الاديان من عالم وعامى من سائر الأصناف يعمل ويسعى جاهدا جادا فى عمله فى زراعته وصناعته وتجارته وسائر أمور معيشته وأكثرهم ينجح فى عمله ، واذا عدم النجاح عرف أنه من سبب غير هذا الايمان ، فأدنى إنسان من عامة المتدينين يؤمن بالله وقدرته ومشيئته العامة يجد فى عمله ولا يوهن هذا الايمان شيئا من عمله البتة . ولو أن هذا الذى ذكره قد خطر على بال أحد من الناس لسأل عنه ، وكيف يخطر على بال من له عقل أن الايمان بالقدرة والمشيئة يوجب عدم النجاح ، وأن الكفر بذلك يوجب النجاح . وكل عاقل يرى هؤلاء الناس على اختلاف طبقاتهم يسعون سعيا حثيثا فى طلب حاجاتهم سواء أكانت مشروعة أو مباحة أو محرمة موقنين بالنتيجة تحت المشيئة ولا أوهن هذا الايمان عزائمهم ، بل منهم من هلك من شدة اجتهاده وحرصه على العمل مع ايمانه هذا ، ولا يمكن لأحد أن يجد فرقا بين هؤلاء العاملين من أشعرية ومعتزلة وغيرهم فى هذه الاعمال التى يحاولونها مع اختلافهم فى تعلق الاسباب بمسبباتها

ومما يبطل هذه الدعوى من أصلها أن اجتهاد الانسان وحرصه فى عمله أو تراخيه أو وهنه فيه ليس منشأه الايمان بقدرة الله ومشيئته ، بل منشأ ذلك هى العوامل الغريزية بحسب الدواعى من الحب والبغض ونحو ذلك ، فان الانسان اذا كان يحب شيئا حبا شديدا كان سيره واندفاعه الى تحصيله عظيما ، كالرجل الذى يريد انقاذ ابنه أو حبيبه من مهلكة ونحو ذلك ، بخلاف ما لو اراد أن ينقذ شيئا تافها أو ليس فى انقاذه أمر كبير فان سعيه فى ذلك يتراخى ، وذلك لأجل الداعى والحافز مع ان اعتقاده فى المشيئة والاسباب هو بحاله ، وكذلك الرجل الذى يريد أن يصنع لابنه أو حبيبه دواء فانه يبذل غاية جهده ويحرص غاية الحرص فى إتقانه ، بخلاف ما لو صنعه لبهيمة تافهة أو لآخر لا علاقة له به أو كان يكرهه مع أن اعتقاده فى القـدرة والمشيئة فى هـذا الدواء ومفعوله بحاله لم يتغير فى الحالتين فى الحرص والاجتهاد ، فمن ادعى أن الايمان بالقدرة والمشيئة ينافى العمل أو ينافى الاجتهاد فهو مكابر مصاب فى دينه وعقله ، كما أنه كفر ظاهر وخروج عن حظيرة الاسلام بالكلية ، ولا يخفى هذا إلا عـلى من طبع الله على قلبه وكان من الغافلين

وقد تبين من هذا معنى الدين الباطل عنده والفـكرة الدينية التى هى أصل هذه المزالق التى حاقت بالمسلمين ، فالدين الباطل ـ كما ترى من صريح كلامه فى هذه الجملة ـ أن يؤمن الانسان بالله تعالى الذى هو سبب الأسباب بان له قدرة كاملة ومشيئة عامة فى إمكانها أن تقف فى سبيل الأسباب وتتحكم فى نهاياتها ، فان إيمانه بهذا السبب يمنعه على حسب ما تصور فى تلك القدرة والمشيئة فـلا ينجح ، فاذا اعتقد الانسان هذا فهو عـلى دين باطل ، أما إذا كفر بالمشيئة والقدرة التى حصلت من أجل الايمان بهذا السبب وآمن بالأسباب بأنها آليـة طبيعية لا يقف فى سبيلها شىء ولا يتحكم فى نهايتها شىء فهو عـلى دين صحيح . فهذا هو الدين الصحيح عنده . ولهذا ذكر فيما بعد أن هذا الدين الصحيح لا

يكاد يوجد ، أو أن الناس عاجزون عن فهمه ، فلاحظ هذا المقام ملاحظة دقيقة ينكشف لك ما وراءها من الخبث الذى ليس وراءه خبث ، ويزول عنك شيء كثير من خداعه الذى خدع به بعض النوكى وضعفاء البصائر وأشباه الأنعام

* * *

ثم قال بعد تلك الجملة « فالتصور الدينى البسيط الأول يدرك بالضرورة أن هذا الاله إما أن يكون له فعل وعمل فى هذا الوجود ، أو لا فعل له ولا عمل له . أما الفرض الأخير فمعناه بلا شك نفى الاله ، إذ لا إله بلا عمل وأثر . أما الافتراض الأول ـ الذى لا بد من الاقتناع به ـ فانه على حسب الفكرة الدينية ـ أو على حسب تصور المتدين ـ يوجب الارتياب والاستهانة بالأسباب وينزع الثقة بها منها . فان تصرف هذا الاله حينئذ وعمله لن يكون إلا دخولا فى الأسباب وتصرفا فيها أو عملا بدونها ، أو إيجادا وخلقا لها . فهو قد ابتدأ الأمور بدون أسباب ، فلا محالة من افتراض قطع سلسلة الأسباب ومن الأخذ بها ابتداء [1] ، ثم هو اذا فعل وصنع فلا بد أن يكون فعله وصنعه إما وقفا لسبب ، أو إبطالا ومنعا له من بلوغ غايته ، وإما اعانة له [2] وإبلاغا للغرض والنتيجة بدونه ، وأما إيجادا وخلقا له ، والاحتمالات كلها معناها الشك فى الأسباب والتهوين لشأنها »

قلت : هذه الجملة هى شرح حقيقة الاشكال الذى ادعاه فى الجملة السابقة ، وذلك أن التصور الدينى يوجب للانسان بداهة بان الاله له فعل وأثر فى

---

(١) هذا ممنوع

(٢) وأي محذور فى هذا

مخلوقاته ، ولا بد أن يكون هذا الفعل وهذا الأثر تصرفا فى الأسباب (١) بقطع أو وصل أو اعانة أو ابطال أو منع ، وكل ذلك ـ على ما زعم ـ يوجب للانسان الشك فى الأسباب والتهوين فى شأنها ، فلا يكون الانسان الذى يعتقد هذا سببيا فلا ينجح . فالايمان بفعله وأثره ، والايمان بهذا الفعل والأثر أوجب الشك فى الأسباب ، والشك فيها أوجب عدم النجاح . هذا صريح كلامه ـ كما ترى ـ فلا بد على هذا من الكفر بالسبب الأول ليزول ما بعده فيحصل النجاح المطلوب . فأى عبارة أصرح فى الدعوة الى الالحاد من هذه ، فصارت المصيبة التى أخرت جميع المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا كما يقول هو ايمانهم بالله تعالى وأنه يتصرف فى الوجود بفعله وأثره كيف شاء ، اما المتحللون من الأديان الذين صنعوا الحياة فهم عكس هؤلاء ، فلهذا نجحوا (٢) . ووجه الاشكال وسره الذى ادعاه وسقط فيه أنه لا بد للناس أو المتدينين من الاقتناع بوجود الاله ، ولا بد لهم من طلب النجاح ، وطلب النجاح موقوف على اعتقاد عدم التصرف فى الأسباب والتحكم فيها ، والايمان بالله يوجب الايمان بفعله إذ لا إله بلا فعل ، وفعله لا بد أن يكون تغييرا للاسباب وتصرفا فيها على كل احتمال ، وهذا يفضى الى عدم النجاح ، وحينئذ لابد من أخذ أمرين : اما أن يبقوا على الايمان به وبتصرفه وعدم النجاح ، وإما جحده ونفيه والاعتماد على الأسباب ، وهذا يوجب النجاح . وهم لا يقتنعون إلا بالأول وهو يفضى الى التأخر ، ومن هنا وقع الاشكال . فهذا مجمز مشكلته التى لم تحل ، وهذا سرها الخبيث المنتن ، فانه لما آمن بالأسباب على الذى ادعاه ، وهو أن النجاح منوط بالاعتماد عليها لا على خالقها ، وأنها تفعل

(١) لأن كل ما فى الوجود فهو أسباب

(٢) هذا روح الكتاب ـ وهو أن الايمان بالله نكبة على البشر كما نقله عن صاحبه غوستاف لعنهما الله

بطبعها فعلا آليا طبيعيا لا يمكن لقوة من القوى أن تقف فى سبيلها ، أوجب له هذا الايمان الكفر بما يرد على ذلك وهو تصرف الله فيها على كل احتمال ، وهو انكار فعله مطلقا ، وانكار فعله يوجب انكاره كما ادعاه بأن نفى فعله نفى له بلا شك ، فهذا سر مشكلته التى جعلها حقيقة كبرى لم يوجد لها حل الى اليوم ولا شك أن من اعتقد هذا الاعتقاد فلا بد من وقوعه فى هذا الاشكال الذى هو صريح الالحاد ، فهو فرض أشياء ومقدمات باطلة وبنى عليها ما شاء : وقد بينا أنها لم تشكل على أحد غيره . فاذا عرفت أن هذا محور كلامه ونقطة دائرة إلحاده وأنه وجه إشكاله ، فاعلم أن أدنى متدين عاقل فضلا عن غيره يسهل عليه حلها فيقول : دعواك أن الاقرار بالتصرف يوجب الشك فى الأسباب والاستهانة بها على كل احتمال دعوى فى غاية السقوط ، فهى مع كونها دعوى مجردة ليس عليها دليل فهى مخالفة للعقل والضرورة والحس والوجدان والاستقراء والواقع ، أما الفعل فانه من المعلوم الذى لا ريب فيه أن الأخذ بالأسباب مع الاعتقاد بأن الله قد أمر بالأخذ بها ووعد من استعان به أن يعينه وأنه القادر على تقويتها وتسديدها وهى تحت قدرته ومشيئته وطوع إرادته يوجب الحث ومواصلة السير فى العمل بها والاجتهاد فى الأخذ بها ، ولو أن ملكا عظيما أمر عبيده بعمل وأعطاهم أسبابا يعملون بها ووعدهم أن يعينهم هو وييسر لهم هذه الاسباب ويدفع ما يعارضها لكان أخذهم بهذه الأسباب والاجتهاد فيها أعظم وأقوى وأشد من كونهم لا يؤمنون إلا بأسباب قد عرفوا عجزها وضعفها ، وعلموا وجود أمور أخرى مثلها تعارضها وتبطلها . وهذا الملحد جعل جميع الاحتمالات التى ذكر منها الاعانة والوصل فى الأسباب مما يوجب الشك والاستهانة بها ، وهذا من أفسد ما يقال

وأما بطلانه بالضرورة والاستقراء والواقع فكل انسان يرى الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم يأخذون بالأسباب جادين فى الأخذ بها ، وكثير منهم قد هلك من شدة الحرص والاعتماد عليها ، وليس وراء الهلاك فى الحرص

شيء . واذا وجد فى أحد منهم كسل أو وهن لم يكن منشأ ذلك من هـــذا الايمان ، بل منشأه إما من اعتياد البطالة أو من أمر آخر ، والبرهان على هذا أن الكسل والوهن الذى يوجد فى النادر مشترك بين سائر الناس ، وغالبه إنما يوجد فى أهل الفساد وأتباع الشهوات والمنافقين ، وقل أن يوجد فى المستمسكين بالدين من هو كذلك . وقد قلنا غير مرة إن الايمان بالله وصفاته وإعانته ورحمته وتحكمه فى الأسباب أعظم حافز يوجد على وجه الأرض ، فانه يبعث على النشاط ومواصلة العمل ، لكون الله أمر بذلك ووعد بالاجابة لمن أطاعه وتوعد من خالف أمره بالاهانة والخذلان . فمتى علم الانسان أنه محق وأنه مطيع وأن خصمه ظالم له أوجب له هذا الايمان مواصلة السير والصبر والثبات والحزم والعزم الذى لا حد له ، أما اذا اعتمد على الأسباب وحدها وأن العادل والجائر والجاهل والعالم والمسيء والمحسن عند هذه الأسباب سواء فى ناموسها فان اعتقاده هذا فيها وفى أسبابها سيكون هو العائق الأكبر والمخدر الاعظم الموجب لليأس والقنوط للانسان حينئذ ، ولا سيما اذا كان فى أمة صغيرة وعدوه أمة كبرى فانه يقنط ويضرب بالعمل والاجتهاد عرض الحائط ، لان القوة الكبرى فى ناموس الطبيعة كما يدعى ستغلب الصغرى لا محالة ، واذا حاول المغالبة والمصابرة والعزيمة فقد علم أن خصمه سيكون كذلك وسيسبقه ، لانه أكثر منه عددا وأعظم انتاجا ، واذا حاول زيادة القوة فانه يعلم أيضا أن خصمه كذلك ، فاذا مشى شبرا مشى عدوه باعا أو أكثر ، لان ناموس الطبيعة كذلك ، وحينئذ يشك ويرتاب ويستهين بالعمل ويترك رأسا إن استطاع ، ويغتنم فرصة لذة الحياة العاجلة وراحة الضمير ويسلك مع عدوه مسلك المسالمة أو الخضوع الذى لا بد منه ، ولا حاجة الى المقاومة لانها ضرر أو عبث ، ولانه ليس هناك عقوبة ولا ثواب وليس معه رأسمال يحي به غير هـذا العمر القصير فكيف ينفقه فى مصلحة غيره ممن لا يعلم به ، وربما كان عـــدوا له .
وهكذا كان كثير من الشعوب التى فشا فيها النفاق والزندقة والالحـاد ، فانهم

اضطروا الى جعل العمل إجباريا لفقدان الروح الحية الدافعة الى العمل اختيارا . وأما المؤمن فانه بخلاف هذا كله ، فانه يعتقد أنه موعود باحدى الحسنيين إما السيادة أو الشهادة والحصول على الجنة أو النجاة من النار ، وهذا هو الذى لا بيع فيه ولا خلال ، بخلاف التعصب للقومية والوطن ونحو ذلك فأكثر هذا دعايات فارغة وأصباغ لامعة سرعان ما تزول ، فأكثر الناس لا يبيع حياته التى لا يرى أن لا حياة له لغيرها بالوطن ونحوه ، وهذا معروف بالاستقراء فى الشعوب المؤمنة والمنافقة ونحوها كما أوضحنا هذا مرارا كثيرة

* * *

ثم قال : « وقد يقال بعبارة اخرى ـ على حسب تصور المتدين ـ ان المسألة لا بد أن تفهم هكذا : الأسباب إما أن تكون كافية للآخذين بها أو غير كافية ، فان كانت كافية فأين الاله وأفعاله وألطافه ؟ ! فهى اذن غير كافية ، واذا كانت غير كافية فهى إذن غير خليقة بان يعول عليها المؤمن تعويلا صحيحا ، ولا أن يلتفت اليها . ومن هنا يصبح غير سببى »

قلت : وهذا كالذى قبله فى كونه إلحادا صريحا ، فانه اذا كان يصبح غير سببى فلا ينجح ، وهو خلاف المطلوب ، فعليه إذن أن يعتقد كفايتها ليكون سببيا ، واعتقاد كفايتها يتنافى مع اعتقاد وجود أفعاله وألطافه وهذا لا يمكن نفيه إلا بنفى الاله كما قال فيما سبق ، اذ لا إله بلا فعل ولا أثر ، وان معنى هذا بلا شك نفى الاله لجعله نفيا للاله بلا شك ، وهذا صريح فى الكفر والالحاد ، وهل يشك فى هذا من له عقل يميز به بين الدين والكفر ، ونقض هذه الدعوى فى هذه الجملة يفهم من نقض الجملة التى قبلها ، لأن هناك فرضا ثالثا تجاهله وتركه وهو الحق الواضح ، وهو اعتقاد كفايتها بالله تعالى تحت المشيئة وجودا وعدما وهذا الفرض أوضح من الفرضين الآخرين ، فان أكثر البشرية مقتنعة به وسائرة عليه ، ولا يلزم من عدم كفايتها لذاتها تركها . ألا ترى أن

وجود الشفاء من التداوى غير محتوم ، ولم يلزم من ذلك تركه رأسا ، بل ولا التهوين من شأنه ، وكذلك الزراعة والتجارة فان حصول نتيجتها والانتفاع بها ليس حاصلا حتما ، وذلك لم يمنع من استعمالها والحرص على الأخذ بهما والقيام والاجتهاد فيهما عند المتدينين كلهم ، والسببيون الملحدون أنفسهم معترفون بأن عدم تحتم وجود النتيجة لا يمنع استعمال سببها ولا التهاون فيه ، ولذلك يجرون التجارب تلو التجارب ، وقد يخسرون أموالا طائلة ولا يحصل لهم نتيجة إما مطلقا وإما مكافئة ، وأكثر أعمال الناس فى أمورهم وفى معايشهم تجرى على الظنون وعلى المخاطرة وعلى التحرى ، وذلك لم يمنعهم من الجد والاجتهاد فى استعمال أسبابها [1] كما أن علمهم بأن الأكل والشرب واستعمال الوقاية من المضار لا يمنع من الموت ومن المرض ، ولم يمنعهم اعتقادهم هذا من استعمال هذه الأمور . فما ذكره كلام ساقط كالذى قبله ، وهو دائما يجعل الدعوى دليلا على نفسها فيدعى ويستدل معاً ، فيقدر تقديرا مستحيلا أو بعيدا أو يبنى عليه ويحكم به بل ويجعله برهانا على غيره ، هذا مع أن تصور المتدين فى هذه الأمور مختلف اختلافا بعيدا وقد جعلها قضية كلية عامة مع فسادها وظهور بطلانها كما هو ظاهر

* * *

ثم قال « وجهة أخرى تلك هى أن المتدينين عجزوا عن أن يتصوروا إلههم تصورا يسمو كثيرا على ما يعرفون ويشاهدون من القادرين الآخرين ، فالله فى تقديرهم وتصويرهم ـ وان اختلفوا فى هذا وتخالفوا كثيرا ـ لا يعدو ان يكون ـ فى أفعاله وقضائه وقضاياه وحكمه على الأشياء وعلى الآخرين وعلى

---

(١) بل قد هلك بعضهم من الحرص عليها والكدح فيها مع اعتقاده بان النتيجة غير حتمية

سائر عبيده ورعاياه ـ بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم ، ولهذا فانه ـ أي الاله ـ يغضب عندهم ويرضى وينتقم ويثيب ويجازى ويعامل على مقتضى انفعالاته وعواطفه ، ويلجأ الى المحسوبية [١] والى الاعطاء والمنع على الشفاعة ، ويتحكم فى هذا العالم كله على ما تشير به هذه الانفعالات والتطورات عنده وعلى مقتضى تطورها وتغيرها لا على مقتضى نواميس شاملة[٢] ثابتة ، فاذا بلغوا هذا المكان من الايمان هبوا يلتمسون رضا هذا الاله على ما تصوروا ، وهبوا يتملقونه وينافقونه ويصنعون ما يحسبون أنه ينيلهم رضاه وعطفه ، وأرصدوا جل قواهم وأوقاتهم وأعمالهم لهذه السبيل ، ليدركوا لديه ما يشتهون ويبتغون ، فشغلوا بذلك عن سلوك السبيل [٣] وعن محاولة القيام بالأعمال النافعة المجدية ، لأن تصورهم للاشياء قد أصيب بالفساد ، واذا فسد التصور فسدت الأعمال لا محالة ، وأصبح مثل هؤلاء كمثل أولئك الزعانف المتملقين المنافقين الكذابين الذين يحدثنا التاريخ كيف كانوا ينالون رضا ملوكهم وخلفائهم وأمرائهم ، وكيف كانوا ينالون ذهبهم وفضتهم وضياعهم وجواريهم وكل ما يحبون بالملق والكذب والنفاق والعبودية والامتداح وكل تلك المخازى الخلقية التى أثبتتها لنا كتب الأدب والتاريخ وأسمتها مكارم ومكافئات وأدبيات إننا إذا وضعنا أمامنا ملكا أو خليفة من أولئك الملوك والخلفاء وتصورنا كيف كان الناس يلقون الجزاء والخير والشر عنده ، وتصورنا كيف كان يعطى ويقرب الشعراء والشفعاء وصنوف المتملقين لكبريائه ، وكيف كان يحرم

---

(١) قبحك الله من هو الذى ادعى هذا

(٢) أتريد أن يكون خاضعا لنواميس الطبيعة التى يستخدمها الانسان بزعمك فيكون الانسان هو المتصرف وهو العاجز

(٣) يوهم بهذا أنهم إنما تركوا العمل لأجل اشتغالهم بالعبادات والعكوف فى المساجد فقط

ويقصى أهل الجد والصدق فى القول والعمل ، وكيف كان يتخرق عطاء بدون حساب لأنه أراد ذلك ولأنه رضى ولأنه أحب أن يمدح ، وكيف كان يسيل نقمة وعذابا لأنه أراد ذلك ولأنه غضب ولأنه أحب أن يرهب ، ثم تصور كيف كان يتصرف فى اقطاعياته وفى عبيده وكيف كان يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما ولا عقلا ولا سفها ولكنها الخطرات والوساوس تلم بالرجال وتصيبهم بالخبال ، وكيف كان ينتقم ويثيب [1] إننا اذا تصورنا مثل هذا الخليفة أو الملك ، ثم تصورنا كيف يمكن أن يكون فساد من يعكفون على الطواف بكعبته ومن ينقطعون اليه ويلتمسون رضاه وهباته ويتعرضون لمواقع مجازفاته ، وكيف يصبحون شر الأنام [2] وكيف يعجزون أن يفعلوا الخير والصواب[3] ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة ـ إننا إذا تصورنا ذلك كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا ، وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة ،

قلت : فلينظر المسلم الغيور على دينه الى هذه السلسلة الخبيثة الملعونة وما تضمنته من الكفر الغليظ والفجور الذى لا حد له ، ولولا أن الله تعالى ذكر فى كتابه العزيز ما نسبه اليه أعداؤه من الأقاويل الكفرية لم تستطع الأنامل نقله [4]. يا مغلولا بهذه الأغلال ، فى أى كتاب وجدت أن المتدينين على

---

(١) هكذا وصف من امتثل أمر الله وعمل صالحا ، كما أنه وصف الله جل وعلا بهؤلاء الملوك الفسقة أهل الجور والظلم

(٢) هذا تصريح بأن المتدينين شر البرية

(٣) تصريح ظاهر بأن المتدينين لم يفعلوا الخير ولا الصواب

(٤) كما نبهنا على هذا فيما سبق

اختلاف أجناسهم يتصورون إلههم بشرا مقتدرا كالذين يعرفونهم ويفكرون تفكيرهم الى آخر ما هذيت به . وأدنى عقيدة من عقائد المسلمين تصرح بأن من شبه الله تعالى بالبشر فقد كفر ، ومن أعظم الكفر عندهم أن يشبه الله بخلقه فى أى كتاب وجدت أنه جل وعلا يلجأ الى المحسوبية وأنه يحكم هذا العالم كالحكم الذى ذكرت . ومعلوم أن ما ذكرته من التطورات والانفعالات انما يلصق بما ذهبت اليه فى الطبيعة ونواميسها ، فانك قررت أنها تتطور وتتفاعل ، ومع ذلك دعوت الى عبادتها ونسبت اليها حكم العالم ، ثم بعد أن اجترأت على المقام الأقدس ذهبت تشبه عباده المؤمنين به ـ مع أنك تخضع لهم وتضرع اليهم وتعبدهم ـ بالزعانف المنافقين مع أمراء الجور والخبث والظلم فتبنى ضلالات على كفريات ، ثم لم يكفك هذا الزعاف حتى ذهبت تشبه رب العالمين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين ـ الذى له الكمال المطلق الذى لا غاية فوقه القائم على كل نفس بما كسبت بالقسط والعدل والاحسان ـ بالملك أو الخليفة الأهوج الذى لا يحسن تدبير مملكته ، وأن هؤلاء المؤمنين بالله كأولئك المنافقين عند أولئك الملوك والخلفاء والسفهاء ، وتدعى أن هذه هى حالة المتدينين ولو اختلفوا وتخلفوا لا تعدو هذا ، ثم تركب على هذا فجورا أقبح منه فتقول « ثم تصورنا قوما يؤمنون بقوة مطلقة عليا يسمونها إلها ويفهمونها كما يفهمون هذا الملك أو الخليفة » إلخ . ومعلوم أنك اذا تصورت هذا انما تتصور أوهاما تخيلتها بنفسك لا حقيقة لها ورميت بها المتدينين ، ثم ذهبت تدعى بأنهم شر البرية ، ثم ركبت على ذلك فجورا فوق كفر متراكم بقولك « اننا اذا تصورنا هذا كله لم يعسر علينا أن ندرك كيف عجز المتدينون على اختلاف ديارهم وأزمانهم وأنبيائهم وأمزجتهم وأجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديد أو أن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » ألا قاتلك الله ما أهون الكفر عليك وأخفه على لسانك ، أيا بلعام زمانه اذا تصورنا ما ذكرته فانما نتصور الملاحدة واستخدامهم للطبيعة ونواميسها وعبادتهم لها فان هؤلاء

الملاحدة اعتقدوا فى الطبيعة كما اعتقد أولئك المنافقون فى أمراء الظلم والجور وسفاهة الرأى ، لأن هؤلاء المنافقين لما علموا أن أولئك الأمراء لا عـدل ولا رحمة ولا علم ولا حكمة لديهم وإنما أمورهم وأفضالهم تابعة لقوة دهاء من يخدمهم ويعرف كيف يسير مع ناموس طبيعتهم الفاسدة عملوا ما يعمل الملحد مـع الطبيعة ونواميسها ، فان الملحد يعتقد أن الطبيعة مجرد المصادفات التى لا علم ولا حكمة ولا عدل ولا رحمة لديها ، بل من استخدم هذه النواميس نال مـا يبغى كما ادعيت ذلك صريحا ، ومن خالفها لم يستحصل شيئا وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم ، فكل عمل صالح يبذله فلن ينفعه لأنها لا تعطى على الأعمال الصالحة وانما تعطى على مقتضى استخدام البشر لها وتصريفها على وفق معرفتهم وملكتهم ، وكل ما يصدر أيضا عنها من نتيجة إنما هى بحسب تطورها وتفاعلها لا على مقتضى مشيئة عادلة شاملة صارمة صادرة عن علم وحكمة ورحمة ، فهؤلاء المنافقون مع أولئك الأمراء هم من جنس هؤلاء الملاحدة مـــع الطبيعة ونواميسها ، بل الملاحدة شر منهم وأضعف آراء لأنهم عبدوا كل مظاهرهـا من خبيث وغيره وخضعوا له وخدموه واستخدموه ، بخلاف أولئك فانهم عبدوا مظهرا واحدا حصلوا فيه بعض مقاصدهم كما حصل هؤلاء بعض مقاصدهم واستمتع بعضهم ببعض ، أما المؤمنون بالله تعالى فانهم بخلاف هؤلاء كلهم ، فانهم اعتقدوا فى الله تعالى الـكمال المطلق الذى لا غاية فوقه من جميع الوجوه فوصفوه بما وصف به نفسه فى كتابه العزيز وعلى لسان رسوله ﷺ عـــلى الوجه اللائق به لا على ما يليق بخلقه ، فكل صفاته تختص به وتليق به ، وقـد علموا أنه سبحانه غنى عنهم وعن عبادتهم وأنهم لو لم يعبدوه بل ولم يخلقوا لم يضره شيئا ، وإنما أمرهم بهذه الفروض السهلة اليسيرة رحمة بهم ، فانهم خلقوا من أصل النقص العدمى من كل وجـــه فلا بد أن ينحطوا الى الأصل الذى خلقوا منه ويرجعوا اليه ، ولـكن لرحمته ولطفه وإحسانه خلق فيهم فطرة قابلة لمادة الخير المستمد من الكمالات فأرسل اليهم الرسل وأنزل اليهم الـكتب لينظم

على الطريقة الوحيدة التى تنفعهم وبها يستحصلون على غاية اللذة وغاية الحياة الصحيحة فضلا منه وإحسانا ، فالطريقة التى لا طريقة سواها هى أن يستمدوا بهذه الفطرة المخلوقة فيهم ما يلائمها من مصادر الكمال التى هى الآثار السماوية والاتصال بها [١] ، وحيث أن الانسان جاهل بكيفية العمل الذى به يدرك هذا الشرف الرفيع والمجد الذى لا أعظم منه جعل له نظاما سهلا يسيرا مضبوطا يسير عليه ويتمسك به ، فالدعوات والصلوات وغيرهـا من مظاهر عبادة الخالق هى اتصال مقدس بين العبد وبين مصادر الرحمة والاحسان وسائر صفات الكمال يحصل للنفس بها تطهير وتقديس وتنوير وقوة وروح ولذة وغيره ، وهى تؤثر فيها تأثيرا بليغا يخرج به من حالتها البهيمية الجاهلة الى أن تكون إنسانية ملكية ، ولا يحصل لها ذلك إلا من طريق هذه العبادات المفروضة لأنها هى السبيل الى اكتساب هذا الكمال الوجودى ، فاذا أعرضت عن ذلك وتركته صارت منحدرة فى ظلماتها ودركاتها الاصليه الطبيعية بسبب ما يتعاقب عليها من ظلمات المعاصى ومباشرتها للنقائص ومصادر النقص ، فان تقابل الطبيعة والنظام السماوى كتقابل الوجود والعدم والنقص والكمال ، فكلما أبعد الانسان عن النقص حصل له زيادة كمال ونور ، كما أنه اذا أبعد عن مصادر الكمال انغمس فى النقص والظلمة ، فالعبادات انما شرعت فضلا من الله وإحسانا الى خلقه ليحصلوا بها سعادتهم ، إذ أن ذلك غير ممكن لهم إلا من هذا الطريق ، فكيف تقاس هذه العبادات الشريفة على تلك الأعمال الخبيثة التى يعملها المنافقون مع الملوك الذين كل منهم مضطر الى منافقة صاحبه ومراعاته وخداعه والكذب عليه ، بل هؤلاء إنما ينطبق عليهم فعل الملاحدة مع نواميس الطبيعة إذ هؤلاء الملوك الظلمة سبب من أسبابها التى تستخدم وتخدم .

---

(١) أى يقابلون الفطرة الصحيحة بما يلائمها من مصادر الصحة والكمال التى هى الاتصال بالخالق فى عبادته وطاعته واتباع أوامره

ولا عجب فالمنافقون هم أعداء النبيين منذ وجدوا كما قال تعالى فيهم ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال فيهم ﴿ أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ﴾

ثم دعواه على المتدينين على اختلاف أجناسهم أنهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا الخ دعوى عدو على عدوه يمكن أن يقابل بمثلها ، وأن تقام الأدلة على ضدها . فان ما ادعاه قول مجرد عن الدليل ، والبراهين الصادقة قائمة على إبطاله وتقرير ضده ، فان الملاحدة مطلقا لم يهبوا الحياة شيئا جديدا كما علم ذلك بالبراهين القطعية التي لا تحصى والتي لا يمكن معارضتها نذكر منها ثلاثة استيفاء للبحث ، وقد تقدم كثير منها :

البرهان الاول : أنه من المتفق عليه أن كل شيء جديد إنما يخرج بالعلم لا بالجهل ، وإذا كان الأمر كذلك فقد ثبت أن المجرد من كل دين ليس معه علم إلا ما اكتسبه من المتدينين ، وهذا الملحد نفسه مقر بهذا ومعترف به ، وهاك عبارته فى صحيفة ٦٥ من اغلاله وهذا نصها : « ومن المعلوم أن لكل دين من هذه الأديان [1] ولأصحابها طريقة فى تعليم الأخلاق والتربية المأخوذ أكثرها من الدين نفسه ، ولو تركوا [2] لم يعلموا شيئا لا يهودية ولا نصرانية ولا مجوسية ولا إسلامية لبقوا على فطرتهم أى مجردين من كل دين ، وفطرتهم هى العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط ، والفطرة حينما تطلق إطلاقا ليست ممدوحة وليست خيرا » انتهى . فقد اعترف بان المجرد من كل دين يبقى على فطرته التى ادعى أنها العدوان المطلق الذى لا يعرف القيد ولا الضبط وليست خيرا ، وقرر كما تقدم بان الانسان بطبيعته خبيث ظالم جاهل

---

(١) أى الاسلامية واليهودية والنصرانية والمجوسية المذكورة فى حديث « كل مولود يولد على الفطرة »

(٢) أى الأطفال

وأنه يبقى كذلك اذا كان مجردا من كل دين ، وبأن التعليم مأخوذ من الدين نفسه ، وقد تقدم الكلام على هذه العبارات فى المبحث الثانى . والمقصود هنا أن العلم النافع مكتسب من الديانات ومأخوذ منها بلا خلاف كما قال تعالى ﴿ اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ وكما قال تعالى ﴿ انا انزلنا التوارة فيها هدى ونور ﴾ الى قوله ﴿ وقفينا بعيسى بن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ﴾ وكذلك ذكر فى القرآن أنه هدى ونور ، وكل انسان يعلم أن جميع الحضارة الموجودة انما أخذت من هذه الأديان الثلاثة ولهذا كانت أمريكا قبل أن تتصل بأهل هذه الأديان على غاية من الجهالة والانحطاط ، فلما اتصلت بهم واكتسبت منهم شيئا من آثار هذا الهدى والنور وصلت الى ما وصلت اليه . فالتجديد النافع والحضارة الراقية قد عرف بالضرورة انها قائمة على هذه الآثار السماوية ولا يضر وجود ملاحدة بعد ذلك ، فان هذا أيضا موجود فى الدول الاسلامية ، وقد ادعى هذا الملحد أن المسلمين يبلغون أربعمائة مليون ، ومعلوم أن فيهم ملاحدة ومنافقين كما فى غيرهم من الدول الكبرى كثيرون ، فاذا احتج بأن أولئك فيهم ملاحدة قد رفضوا أديانهم قيل يوجد فى المسلمين من هو كذلك ، فما بال هذا التجديد لم يوجد فيهم ، واذا قيل لان فيهم خرافات قيل وفى غيرهم كذلك ، وكل الخرافات التى فيهم إنما أخذوها من الملاحدة وهى من آثار الالحاد فانها كلها ترجع الى الايمان بالأسباب المادية كما تقدم

البرهان الثانى : أن يقال : اذا كان المراد باعطاء الحياة الشيء الجديد هو إعطاء الانسانية ما ينفعها ويرقيها وينعمها عاجلا وآجلا فقد كان من المعلوم بالاستقراء الذى لا ريب فيه أن الأنبياء وأتباعهم من المتدينين هم الذين أخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، فانه قد ثبت ثبوتا لا مرية فيه أن بنى اسرائيل كانوا فى رق الفراعنة وقد كانوا على أسوأ الحالات فأخرجهم موسى

من هذه الظلمات الى النور حتى صاروا ملوك الدنيا في زمانهم ، ثم لما جاء عيسى بالبينات والهدى والنور وآمن به من آمن من بنى إسرائيل وكفر به من كفر منهم أيد الله الذين آمنوا على عدوهم فكانوا ظاهرين عليهم مئات السنين من أجل هذا الهدى والنور الذى جاء به . ثم إنه قد علم بلا أدنى شك ما كانت عليه العرب قبل نزول هذا الهدى والنور الذى جاء به محمد ﷺ من الحالة السيئة ، فأخذوا به فكانوا ملوك الدنيا ، ونشروا النور والعدالة على سائر أقطار الارض ، ووهبوا البشرية الشيء الذى يصح أن يقال إنه جديد ، وقد قال هذا الملحد فى صحيفة ٦٧ من هذه الاغلال « وقد عمل الاسلام أعمالا باهرة لا تكفر لنقل الانسانية من طورها هذا الى ما هو أكمل وأفضل ، فكان له من التأثير فى هذا النضج البشرى الذى نشاهده اليوم ما هو معروف » انتهى . وقد قال هذا الملحد فيما تقدم ان العلماء هم الذين يخشون الله ومن لم يخش الله فليس بعالم ، هذا كلامه ، ومعلوم بلا شك أن الملحد لا يخشى الله فلا يكون عالما فلا يمكن أن يهب الحياة شيئا جديدا . وقد ذكر هـــذا أيضا فى مقدمته (كيف ذل المسلمون) أن حضارة أوربا إنما اكتسبت من دين الاسلام ، قال فيها ص ١٢٦ « وقد ظلت أوربا قرونا طويلة مديدة خاضعة لهذه الخرافات مسلمة أعناقها الى أغلالها واضعة رجلها فى أصفادها ، فكانت إذ ذاك فى غاية من الجهل والانحطاط والتأخر والضعف والفقر ، حتى أدركتها رحمة الله المنزلة على العالمين جميعا ، فانبثقت عليها أنوار الاسلام من جهة إسبانيا والقسطنطينية ومن سائر الجهات ، وقبست من هذه الأنوار العربية المحمدية حينما اختلطت بالمسلمين فى الحروب الصليبية وفى الحروب الاخرى ، فمزقت هـــذه الأنوار الشرقية العربية السماوية التى حملها اليهم المسلمون تلك الظلمات الداجية ، فأتيح لهم أن يبصروا بعد العمى الطويل الممل ، وأن يلتمسوا على ضيائه الوهاج أول الطريق الذى سلكوه الى حضارتهم هذه القائمة الحاكمة » انتهى . وهذه سجيته فى التناقض ، فكيف بعد هذا الاعتراف الصريح ينتكس على رأسه فيدعى

أن المتدينين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا أليس هذا كله هراء ووقاحة ظاهرة

البرهان الثالث : أنه من المعلوم الذى لا ريب فيه أن هذه المخترعات كلها إنما أخرجها هذه الدول المنتسبة الى الأديان العريقة فيها . وإذا كان الأمر كذلك فمن أين للمدعى أن المخترعات كلها أو بعضها من المتحللين وحدهم دون غيرهم ، فان هذا مكابرة ودعوى مجردة عن الدليل ، فهو مطالب بالبرهان الصادق على أن المتحللين من الأديان مستقلون بايجادها بدون أى مساعدة من نظر أو تفكير أو إعانة من الأشياء المأخوذة من الديانات . وقد ذكر هذا فى أغلاله أن المتأخرين لم يأتوا بشىء جديد يساوى الكتابة فى النفع ، ومعلوم أنها من الأمور التى خرجت على أيدى المتدينين القدماء وانتفع بها المتأخرون وكانوا مضطرين اليها غاية الاضطرار ، ولولاها لم يوجد أكثر هذه الصناعات ، قال تعالى ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ وهذا نص صريح بأنه تعالى علم الكتابة ، ومن يقول ان الانسان عرفها بطبعه يكذب هذا صريحا بدون حجة ، وهذا الملحد نفسه مطالب باثبات وجود شىء واحد جديد على أيدى الملاحدة استقلالا عن غيرهم ، فاذا كان عاجزا عن ذلك ـ وهو بلا ريب عاجز ، اذ لو كان قادرا لذكره أول ما يذكر ، فانه أحرص الناس على إثبات كل ما فيه أدنى علاقة للحث على الالحاد ـ فليعلم أن لخصمه أن يعكس دعواه هذه بدعوى مثلها سواء [1] وليس قبول قوله بأولى من قبول قول خصمه ، بل خصمه أولى بالصدق ، فان البراهين الدينية متضافرة على ذلك كما أسلفنا ، والعقل والاستقراء يشهدان لذلك وهذه الامم البعيدة عن الديانات أجهل الناس بمعرفة هذه

---

(١) أى فيقول قد عجز الملاحدة على اختلاف أجناسهم عن أن يهبوا الحياة شيئا جديدا الخ . وكل ما يجيبه من وجود هذا عند بعض الملاحدة يمكن المتدين مقابلته بعدم اختصاصهم بايجاده وبما ذكرناه من البراهين ، ودعوى الاختصاص فيما ينفع تحتاج الى برهان

الامور ومعلوم أنهم أبعد النـاس عن الاديان كالزنوج ونحوهم ، فكيف يدعى هـذه الدعوى العريضة التى تتضمن القدح فى الأديان ومن جاء بهـا ومن دان بها ، إذ حاصلهـا أن الـكتب السماوية والانبياء كلهم لم يأتوا إلا بالشر ، لأنهم لم ينفعوا البشرية بشيء سوى العذاب بالتعبدات ، ولا شك أن الجملة التى تقدمت ، بل الـكتاب كله برمته ، يتضمن الحث على بغض الرب الكريم ومقته ومقت دينه ومن دان به بمجرد القحة والهراء والتحكم المجرد ، فالله يجازيه بعدله إنه سميع مجيب

وأما دعواه المرذولة الأخرى فى قوله « وأن يكونوا فيها مخلوقات متألقة » فهى من المهازل التى تضحك الثكلى ، فما هو التألق الذى انفرد به الملاحدة دون المتدينين ، هل هو أكل أو شرب أو نكاح أو ركوب طائرات أو سيارات أو فى شيء غير ذلك فلا بد من بيانه ، فان هذه الأمور كلها قد اشترك فيها الملاحدة والمتدينون بل وكثير من البهائم ، ولعله يشير الى أنهم يركبون الطـائرات والسيارات ، فان كان هذا هو الذى خطر على باله فليعلم أن الـكلاب والخنازير قد استحصلت على هذا أيضا فضلا عن سائر أصناف بنى آدم على اختلاف مذاهبهم ، وليعلم أيضا أن النسور والغربان وغيرها قد ظفرت بالطيران والتحليق فى السماء بدون أدنى كلفة وبدون أدنى خسـارة فى كل وقت مع أن أكثر ما تعيش به جيف الحمير وأشباهها من الخبائث والقاذورات ، فان كان هذا هو التألق فليحكم على هذه بأنها أفضـل من المتـدينين بل والملحـدين لأن قدرتها على هذه الخصلة ومعرفتها لها وسهولته عليها أعظم من غـيرها . وقد سبق الـكلام على ما يتعلق بهذه الجملة فى مواضع كثيرة تغنى عن الاعانة

* * *

ثم قال « وأمر آخر ، ذلك أن المؤمنين يرون دائما أن الله حينما خلق العالم وخلقهم قد ضمن أرزاقهم وكفلها وتعهـد بحمايتهم ورعايتهم فى كل أمورهم

أوجلها ، لأنهم لا يتصورون أن يتخلى الله وهو الكريم القادر عمن صنع بيديه وعمن أوجدهم اختيارا واقتدارا [١] فيصيبهم هذا الاعتقاد بمثل ما يصاب به الطفل المدلل المكفول بين والدين مدللين رحيمين ثريين — أى يصاب بالتواكل والاعتماد على القوى الخارجية [٢] وحينئذ لا يصنعون لأنفسهم ما يجب أن يصنع وما لن يظفروا به إلا إذا صنعوه هم ، ولا يمكن أن يكونوا فى أفكارهم وأعمالهم مثل أولئك الذين يرون أنهم متروكون موكولون لقواهم ولأنفسهم ، كما أن ذلك الطفل المدلل المكفى لا يمكن أن يكون مثل ذلك الرجل العصامى الذى يعلم بأن الواجب عليه أن يعمل ويناضل ليعيش وإلا فلا سبيل له الى البقاء »

قلت : كل هذا غير صحيح ، فان المؤمنين لا يرون هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها ، بل هم يرون أن الله تعالى أمرهم بطاعته والقيام بما شرع لهم من الأمور الدينية والأخذ بالأسباب الدنيوية ، فيجب عليهم أن يعملوا بهذا وهذا . ولم يدعوا أنه ضمن أرزاقهم وتعهد بحمايتهم بدون أسباب أبدا . ثم على فرض التنزل مع هذا الملحد يقال له : هل هم عملوا بهذا الرأى أو تركوه . فان ادعيت أنهم فعلوه واشتغلوا بالطاعة عن فعل الأسباب فقد بالغت فى المكابرة والبهت كما هى عادتك ، وان نفيت هذا بطل كلامك ، فان هذه الدعوى مفروضة فرضا لا حقيقة له ، فان الناس كلهم على اختلاف أصنافهم لم يعملوا بما ادعيته ، ولم يروا أنفسهم كالطفل المدلل المكفى ، بل تقاتلوا وتضاربوا وتشاتموا وتشاحنوا وتقاطعوا على هذه الأسباب وعلى هذه الدنيا فى تجاراتها وصناعاتها وزراعاتها ورآساتها وفى شئونها كلها ، وكل منهم قد

---

(١) كل هذا تهكم وسخرية به تعالى

(٢) لا يوجد فرد ولا شعب ولا أمة مهما كانت فى القوة لا تحتاج الى ما هو غير عنها من نفسها أو جنسها ا ه

اتخذ له شغلا وعملا يعيش به من محرم ومباح . فاذا كانت هذه النتيجة - أى التواكل والاعتماد على القوى الخارجية - فلا حاجة الى ذكرها ، واذا كان الناس لم يعملوا بها وأكثرهم اعتمد عكسها فاعتمد على نفسه أى صابر كالرجل الثانى العصامى ومع ذلك لم يصلوا الى ما ادعيته من النجاح ، فان كل عارف يعلم أن كثيرا من الشعوب الاسلامية أقرب الى الرجل الثانى من الأول . ومع ذلك لم ينجحوا ، وقد قدمنا أن الفكرة الدينية الصحيحة توجب اعتبار الأسباب واستعمالها بالاعتماد على الله تعالى ، فهذا هو طريق النجاح ، فلا يقولون بالبطالة وتعطيل الأسباب كما لا يقولون بالاعتماد على الأسباب والتوكل عليها ، فان ذلك شرك صريح . وفى الحديث « احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن » وقد تقدم . فما ادعاه هنا تجاهل وافتراض موهوم يقصد به التهكم والاستهزاء بآراء المتدينين وتشويه الفكرة الدينية والتنفير عنها كما لا يخفى

ثم قال « ثم ان المؤمن يعتقد عادة بأن الله اذ تفضل عليه بخلقه وأوجده من صميم العدم فمن الواجب عليه أن يشتغل بخدمة ذلك الرب المتفضل وبالانقطاع الى عبادته ، زاهدا فى خدمة نفسه وخدمة شهواته وحاجاته وشئونه الخاصة وأن يصرف إن استطاع كل قواه وأعماله وأوقاته - أو أكثر ذلك - الى القيام بشكر ذلك المنعم الخالق المتفضل ، وإلا فانه عبد سوء ، لا يجزيه الله إلا الحرمان والطرد [1] . وحينئذ يجيء عاجزا فى تناوله الأمور والحياة ، ويكون دون ذلك الذى صرف جميع قواه وأوقاته فى سبيل الانتصار فى معركة الوجود والبقاء وما من شيء ينجح فيه المرء إلا على قدر انصرافه اليه وإعطائه من نفسه ووجوده ، وهنا يتجلى الفرق بين الرجلين »

قلت : غرضه من كل هذه الجمل التى ساقها محاولة التفريق بين المتدين

---

(١) هذا كالذى قبله فى التهكم والاستهزاء بالله وبمن آمن به

والملحد ، وتصوير حالة كل واحد منهما ومحاولة إثبات كون نتيجة الملحد خير من نتيجة المتدين ، وأن هذا لابد أن يتأخر وذاك لا بد أن يتقدم . وكل ذى مسكة من عقل يعرف بداهة أن تصويره فى هذه الجمل كلها لحالة كل واحد منهما تصوير باطل لا حقيقة له البتة ، فما بناه عليه من النتيجتين بديهى البطلان وما هى غير دعاوى مجردة لا يعسر على خصمه مقابلته بمثلها . وكيف يمكن أن يصدق ذو عقل أن جنس المتدين يكون مستغرقا وقته بالعبادة متفرغا لها لا يباشر شيئا من الأسباب ، كالطفل المدلل المكفول ، فانه صوره عاكفا فى مسجده صائما نهاره قائما يصلى ليله صارفا إن استطاع كل قواه وأعماله فى القيام بالشكر والعبادة ، قد رفض الأسباب من أجل اشتغاله بهذه الخدمة ، فهل ذو عقل يصدق بهذا ويكذب عقله وسمعه وبصره وفؤاده بما يراه فى الناس المتدينين من خلاف هذا ، بل لا يوجد فى الألف واحد أو اقل هذه صفته ، ثم إنه صور جنس الملحد بأنه الجاد الحازم فى العمل الآخذ بالأسباب النافعة مستغرقا أوقاته فى ذلك ، وهذا بديهى البطلان ايضا ، بل اكثر البطالين والسراق وقطاع الطريق وأهل الفسوق والمجون والدعارة من الملاحدة والمنافقين ، وأكثر الذين يعملون الأعمال النافعة القوية اختيارا هم المتدينون وأكثر الأعمال مشتركة بين هؤلاء وهؤلاء ، فما ذكره فى هذه الجمل كلها فى غاية السقوط . وهذه الجملة كالتى قبلها تقدير لا حقيقة لوقوعه ، بل الواقع خلافه ، ومع ذلك لم تحصل النتيجة على ما يدعى . وكل هذه المغالطات الباطلة فعلها تجاهلا منه ، وإلا فهو يعلم أن المؤمن غير مكلف تكليفا مفروضا بغير الفروض المعروفة التى لا تستغرق غير جزء قليل من وقته ، فدعواه أنه اذا لم يصرف أوقاته كلها فى خدمته فلا يستحق الا الطرد والحرمان ، كلام فى نهاية السقوط ، فانه لا يستحق الطرد والحرمان الا اذا ترك ما فرض عليه وهو سهل ميسور لا يأخذ معشار أوقات عمره . على أن لنا أن نقول على هذا ان من خدمته استعمال الأسباب المادية والمعنوية على الوجه المشروع كما أشار الى

ذلك النبي ﷺ فى حديث « كل سلامى من الناس عليه صدقة » و « وان الرجل يثاب حتى على ما يجعله فى فى امرأته » ومن ذلك الصناعات وكل ما فيه نفع للأمة فهو من خدمته بالنية . وحينئذ فالنتيجة اذن صحيحة ولا يرد على هذا فى هذه الفكرة الدينية شىء مما ذكره من التأخر ، بل لنا أن نعارض بالملحد المترف فان عمله بعكس هذا ، وهو كثير موجود فى الملاحدة والمنافقين المترفين ، فان أكثرهم يغتنم الراحة واللذة العاجلة والانغماس فى الغى والفجور ، ويرى أن من الجنون أن يضيع عمره الذى هو أثمن عنده من الذهب ولا عوض له عنه فى الشقاء لنفع غيره ممن قد يكون عدوا له فيتحمل الأسباب الثقيلة النكدة المتواصلة على عاتقه على غير طائل أو كبير أمر ، أما المؤمن فانه ان فعل أعمالا كبيرة فهو موقن بأن عمله هذا لا بد له من ثمرة يستحصل عليها بكل حال إما السعادة وإما الشهادة وكلها حسنات تكتب له ، ويجب فى هذه الخدمة من اللذة والفرح والسرور وعزة النفس وراحة الضمير مالا يحيط به وصف ، فان الانسان يستعذب أمورا كثيرة من التعب والنصب لما يعلم فى عواقبها من الثمرات الحميدة التى لا بد من حصولها ، وهذا لا يوجد إلا فى اعتقاد المتدين الصادق الناصح ، فظهر من هذا أن استعمال الأسباب النافعة المأمور بها شرعا هى فى خدمة ربه الكريم المحسن القادر فى سبيل الله وفى سبيل الانتصار فى معركة الوجود ، فيكون له النجاح بقدر انصرافه وصدقه وإخلاصه فى ذلك كله ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا

* * *

ولما كان هذا الملحد مؤسسا أغلاله على الكفر بالله واليوم الآخر ، فانه اعتقد أن الايمان بالله واليوم الآخر هو سبب التأخر تقليدا لسادته الملاحدة الساعين فى هدم الأديان ، فذكر ما ذكر من هذه الجمل وما قبلها دعاية الى الكفر بالله ، ثم انتقل من هذا الى الحث على الكفر بالآخرة فادعى أن الايمان

بالجنة ونعيمها وكون الانسان يعلق بها أمله عامل من عوامل الضعف الموجب للتأخر ، لأن ذلك على ما زعم يشغل عن الأخذ بالأسباب المادية كما يجب ، فقال بعد كلامه السابق :

« على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى ايجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية ، ذلك أن الانسان مهما كان تافها وصغيرا لا يمكن أن يحيا بدون أمل وبدون شيء يرجيه . والعادة أن الانسان يحاول أبدا أن يجعل أمله أحسن الآمال وأفضلها إن استطاع ، واذا خير بين أملين أو آمال فلا بد أن يختار أكبر هذه الآمال فى رأيه وأجملها إلا أن يحول بينه وبين ذلك حائل . وهكذا هو فى حياته وفى تصوره آماله وطلبه لها وسعيه وراءها ، ومن هنا اختلفت الآمال واختلفت وتعددت الطرق التى تسلك اليها ، لاختلاف الناس فى تصورهم وفى استعدادهم وظروفهم وقواهم وصحتهم وغير ذلك مما يوجه المرء ويسيطر على مسالكه ، وقد يصرف الأمل الواحد عن عشرات الآمال التى يطلبها الآخرون ويعملون من أجل الظفر بها ، واذا وجدت الناس مختلفين فاعلم أن كل واحد منهم مشغول بأمل قد ملأ عليه آفاق نفسه ، وأن هذا الانسان لا يعمل كما يعمل الانسان الآخر لأن له أملا آخر ألهاه عن ذلك الذى شغل الآخر ، أو لأنه تصور الطريق تصورا لم يتصوره الآخر ، أو لأمر آخر من هذه الأمور التى تصنع الخلاف والاختلاف بين البشر فى أعمالهم وسبلهم ووجهات نظرهم ، على أنه لاخلاف فى أن أسمى هذه الآمال وأقواها فى الاجتذاب والتوجيه والسلطان هو ذلك الأمل الضخم الأبدى فى تلك الحياة الضخمة الأبدية التى ينال فيها المرء الخلود وكل ما يرجى من حاجات الجسم والنفس بدون أن يكدر ذلك شيء من المكدرات المعروفة التى تشوب لذائذ هذه الحياة الأولى القصيرة والتى تملؤها بالخوف والاكتئاب . فاذا ما استطاع انسان أن يتمثل هذا الأمل وأن يغنى ويتغنى به وأن يصرفه

اليه تصوره والتفكير فيه وفى لذة الظفر به والوصول اليه والحصول عليه ، فلا محالة من أن يشغله ذلك عن كل شيء فى هذا الوجود [١] وقد يطغى عليه وعلى وجوده حتى لا يدع منه لهذه الحياة شيئا ، وقد يدع شيئا قليلا أو كثيرا ، والاختلاف فى هذا راجع الى الاختلاف فى قوة الاجتذاب وضعفه ، وقد يفنى عن هذه الحياة ويغيب عنها مع أنه فيها ، لأنه ليس من أهلها ، لا ينافس ولا يغاضب ولا يخاصم ولا يطالب ولا يحارب أو يسالم من أجل شيء فيها ، ويصير كذلك الرجل الورع الطيب الذى صرفه ورعه ودينه عن كل ما هنا حتى قال فيه معاوية بن أبى سفيان وهو يضع خطوط الطريق لابنه « أما فلان فقد أعجزه الورع ، فدع له دينه يدع لك دنياك » يعنى أنه لا يبالى بشيء من أمور الدنيا لأن همه وأمله مصروفان الى الآخرة والى الاستعداد للقائها . فاذا لا حظنا على المتدينين ـ أفرادا وشعوبا ـ عجزا عن إيجاد الحياة [٢] وعن التحليق بالصناعة والزراعة أو التجارة أو العلوم المادية الانسانية أو عن شيء ما من وسائل الحياة وأسبابها فلنعلم أن أحد أسباب هذا العجز هو هذا التصور لهذا الأمل العظيم والانصراف اليه بأكثر العقل وأكثر العمل وأعظم الاهتمام [٣] واذا عقلنا هذا لم يطل تعجبنا اذا وجدنا على بن أبى طالب وأمثاله وجيوشهم تنهار بلا عناء حينما نازلوا أمثال معاوية وجنودهم ورجالهم ، واذا ألفينا الرجل التقى الورع المحافظ على فروضه وعباداته ينهزم شر هزيمة [٤] فى

---

(١) تأمل تصريحه بأن تصوره للجنة يشغله عن العمل للدنيا فيكون عائقا عن التقدم

(٢) هكذا شهد لنفسه وحكم لها

(٣) هذا صريح فى أن اهتمام أهل الآخرة بالآخرة عائق عن التقدم ، وأنه لا ينبغى أن يهتم به جدا

(٤) قبحه الله ما أرخص الكذب عليه

كل عمل يتناوله أمام ذلك الرجل الذى جعل فرضه ودينه وعبادته هو التحليق بتجارته أو صناعته مصيرا ذلك إلهه المطـــاع المعبود وربه . فالمؤمنون اذن يشغلون بأملهم فى الآخرة [1] عن أن يصنعوا لهم فى الدنيا أملا جسيما عظيما ، فيأتون عادة عاجزين عن اللحاق بالآخرين الذى صنعوا لهم هذا الأمـل ثم أعطوه كل نشاطهم وإبداعهم فأصبحوا فيها السادة الغالبين » انتهى

والجواب أن يقال : هذا رأى هذا الرجل فى المؤمنين بالله واليوم الآخر فقد صرح بأن الايمان بنعيم الآخرة والاهتمام له يوجب الاشتغال به ، وأن هذا يشغل عن العمل للدنيا فيكون عاملا من عوامل التأخر ومعوقا عن النجاح ، فجعل الايمان بهذا الركن نكبة عـلى البشر لانه يتعبهم ويصـدهم عن السعى الى الكمال . وقد بينا لك أن هذا الرجل قصد الى أصول الدين فحمـل عليهـا كل نكبة ومصيبة ، ولهذا جعل أعظم المصائب الايمان بالله واليوم الآخر ، وهذا التقرير الذى ادعاه مع كونه كفرا صريحا فهو ادعاء مجرد ساقط ، والجواب عنه كالجواب عما قبله

فاننا نقول أولا : ان الواقع خلاف ما ادعيته فان صدر هذه الأمة كانوا من أعظم الناس إيمانا بهذا الأمر واهتماما به ، ولم يشغلهم ذلك عن العمـــل للدنيا بل تقدموا على غيرهم ممن لم يشغلهم هذا الأمل العظيم

وثانيا : لا يخفى أن أكثر البشرية من قبل ثلاثمائة عام أو قريبا منها مؤمنون بهذا الأمر ، وقد عمروا الدنيا عمارة أعظم من عمارة الشعوب المنحطة الجاهلة الملحدة ، بل هؤلاء الملاحدة المحض لم يعملوا شيئا يذكر فقـد عجزوا شعوبا كما عجزوا أفرادا عن ايجاد شىء كبير منهـا بأنفسهم ، وكل هذه الحضارات الحاضرة التى فى أيدى هؤلاء الملحدين المتحللين ونحوهم فى هـذه

---

(١) كلام صريح واضح فى الحث على الـكفر بالآخرة

السنين الأخيرة ما هى إلا آثار أولئك المتدينين كما مر تقريره ، وهذا الشيء لا يمكن المماراة فيه ولا يجادل فيه إلا مكابر . وقد قال السيد محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ج ١٠ ص ٣٥٢ : إن نصف الدول الافرنجية خاضعون للدين الكنائسى . وهذا فى وقته هو فى نحو سنة ١٣٥٠ مع فشو الالحاد فكيف بما قبله .

ونقول ثالثا : ان هذا الأمل الكبير من أعظم ما يدفع الانسان على العمل فانه اذا كان المؤمن يعلم ان هذه الحياة السعيدة التى لا يشعر فيها بشيء من المكدرات لا تدرك إلا بطاعة الله تعالى ، وأن من أعظم طاعته الجهاد فى سبيله بالنفس والمال وما هو وسيلة الى ذلك من صناعة أو زراعة أو علوم دينية أو مادية أو غيرها ، فان كل عمل فيه نفع للامة ونصر للدين ـ من الاسباب التى توصل الى هذا النعيم الابدى ـ فلا شك أنه يقوم بالجد والاجتهاد والعمل المتواصل المستمر القوى لتحصيل هذه الوسائل التى توصل الى هذا النعيم وتقيه من عذاب الجحيم ، وعلى هذا فلا بد من أن يحارب ويخاصم ويناضل ويغاضب ويسالم فى سبيل الحق والعدالة وإزالة الظلم والاستعباد والقهر والعسف وكل ما يقف فى هذا السبيل الذى هو هذا الأمل الكبير فانه لا ينال إلا بذلك ، فكيف يدعى هذا الملحد أن من يأمل هذا لا يعمل شيئا من هذه الأمور ، فهل هذا إلا من أفسد ما يقال

ويقال رابعا : أنت ذكرت فى هذا أنه لا يمكن أن يعيش أحد بلا أمل ، فيكون أمل الملاحدة منحصرا فى شيء ما من أعراض الدنيا التافهة ، وأكثر ما يوجد هذا الأمل ولا سيما فى الكثرة الساحقة هو الاستحصال على الصور البديعة الجميلة والانسجام معها ونبذ ما يكدر ذلك ويشغل عنه ، وكثير من هؤلاء أيضا يكون غاية أمله الحصول على المادة من أى وجه جاءته من جميع الطرق الكثيرة المختلفة ، وكل هذا يوجب الضعف والوهن عن العمل

والكسل العظيم ، والانصراف الى هذه المطالب النافقة والتمتع بها والاشتغال بها عن الأعمال الكبيرة النافعة وايجاد وسائل الحياة ، ولهذا تجد العمل الاختيارى الصحيح يكاد أن يكون مفقودا فى الشعوب المنافقة والملحدة ، وانما يدفعون الى هذه الأعمال دفعا قهريا [١] وحينئذ فلا فرق من هذه الوجهة بين متدين ولا غيره اذا كان العمل إجباريا قهريا ، فيبطل الفرق الذى حاوله ، بل ربما يكون المتدين أنجح لثباته وقوة صبره فى كل أعماله ، فان المتدين عند جميع العقلاء اهدأ قلبا وأعظم عزيمة من الملحد ، فانه عكسه فى هذه الأخلاق كلها

أما ما استشهد به من أن معاوية قال لابنه « أما فلان فقد أعجزه الورع » الى آخره فاستشهاد ساقط لا محل له ، فان الكلام فى هذه الجملة فى الأمل الأخروى ومعاوية بلا ريب عند المسلمين ممن يؤمن بهذا الأمل ويطلبه . ثم هذا القول لو صح ليس فيه ما يتشبث به ، فان معاوية لم يذم هذا الشخص الذى ادعى أنه أعجزه الورع بل مدحه ، وإنما بين لابنه أنه أعجزه - أو حجزه كما فى القول الآخر - عن الدخول فيما لا يعنيه وما لا فائدة فيه من إثارة الفتن وسفك الدماء بدون فائدة سوى الضرر العام على هذا الشخص وعلى الأمة كلها فان هذا ليس من العجز فى شىء ، فان العجز هو القعود عن الشىء النافع المقدور على استحصاله ، أما ترك المضارة والفتن والتباعد عنها فليس من العجز فى شىء ، بل هذا هو الحزم ونفع الأمة واجتناب ما قد يعود عليها بالضرر العام ، ولهذا لما قام الحسين وهو أفضل من قام فى ذلك لم يحصل شىء من النفع

---

(١) ياليت هذا الملحد المنكود عاش بين أولئك الشعوب الملحدة ليعرف كيف الضغط والقهر والاضطهاد السائد فيهم وما يلاقونه من الشدة والانحلال والقيود ، وهذا أمر لا يستريب فيه إلا جاهل أحمق

لا له ولا للأمة ، بل حصل ضرر كبير عام ، فأى فائدة فى القيام على هذا الوجه .

وأما قوله « فاذا لاحظنا على المتدينين أفرادا وشعوبا عجزا عن ايجاد الحياة » الى آخره

يقال : اذا لاحظت ذلك فانما تلاحظ فجورك الذى اخترعته من رأسك لنفسك وبنيت عليه أوهاما لا حقيقة لها ، وإلا فأى عاقل من عقلاء بنى آدم يصدقك ويكذب ما علم بالضرورة والمشاهدة والحس ، فان المتدينين هم الذين نشروا النور وهدوا الناس الى كل حياة صحيحة وما هذه الحضارة القائمة إلا من الآثار المأخوذة عنهم كما اعترفت أنت بذلك قبل أن ترتد وبعد أن ارتددت غفلة منك فى صدر هذا الكتاب حيث ادعيت أن المجرد من كل دين يبقى على العدوان المطلق وعلى طبعه الخبيث والجهل والظلم . ثم إن ما ذكرته هنا مبنى على أن جميع المتدينين يزهدون فى الدنيا وأسبابها كلها وأدنى عامى فضلا عن غيره يكذبك فى هذه الدعوى لانها خلاف ما ينظره الناس ويشاهدونه

وليس يصح فى الاذهان شىء إذا احتاج النهار الى دليل

فهذا الذى لاحظته إنما لاحظته بعين بصيرتك العمياء فلم تلاحظ شيئا موجودا وإنما تلاحظ ما قام بقلبك ورسخ فيه من الخيالات والأوهام الخبيثة الباطلة ، ولهذا فانه لا يعلم أن أحدا لاحظه غيرك ، ما لم يكن على شاكلتك فى اعتقادك

* * *

وأما ادخالك ما جرى بين على بن أبى طالب ومعاوية فى هذه المسألة فمن الخطأ الفاحش والاختلال الواضح ، فليس للاتيان بها فى هذا المحل أدنى علاقة فانك قلت فى أول هذه الجملة « على أن هنالك ما هو أكبر وأظهر فى إيجاد الاختلاف بين المتدين وغيره فى هذه القضية » فصريح كلامك فى بيان

الاختلاف بين المتدين وغير المتدين ، ومعلوم عند المسلمين أن عليا ومعاوية رضى الله عنهما من المتدينين فلا معنى للتشبيه بمسألتهما والاستشهاد بها على الفرق بين المتدين وغيره . ثم ان مسألة ما جرى بين على ومعاوية رضى الله عنهما من أبلغ الحجج عليك وعلى أمثالك من الملاحدة والزنادقة الذين يسندون الأمور فى التقدم والتأخر الى النواميس الطبيعية والى الأسباب المادية ، فان عليا رضى الله عنه أحرى بالانتصار لو كان ذلك بمجرد الأسباب المادية لأنه أقوى من معاوية ، فان جنده أكثر والدواعى الى نصره والقيام معه أبين وأظهر للأكثر . ولكن هناك أسبابا دينية عارضت هذه الأسباب ، ولا بد أن يكون النصر فى جانبها حتما

ونحن نوضح هذه المسألة بقدر ما يحتمله هذا الموضوع ونبين أنه لا حجة له فيما حاوله منها ، وأنه ليس السبب فى فشل على هو ورعه وتقواه كما زعم هذا وبعض من لا بصيرة له . فنقول : ان الله سبحانه وتعالى قد قضى قضاء لا مردّ له وسن سننا لا تبديل لها ولا تحويل . ومن هذه السنن الثابتة العظيمة أنه تعالى ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد ، فينصرهم على من قصدهم بسوء وحاربهم وآذاهم وقاتلهم من الكافرين والمنافقين والظالمين المعتدين ، كما أخبر تعالى بذلك فى غير ما آية من كتابه العزيز . وقد كان من المعلوم عند جميع المسلمين أن الخليفة الراشد عثمان بن عفان من أكابر أولياء الله المتقين والأئمة المهديين وقد أجمع على مبايعته أفضل الخلق بعد الانبياء إجماعا قطعيا كما نص على ذلك الامام أحمد وغيره ، وقد شهد له رسول الله ﷺ بالجنة وقال « ما ضرّ عثمان مافعل بعد اليوم » فقد كان خليفة راشدا تقيا وليا عادلا محسنا مرضيا ، فلما أن منحه الله هذا المقام الشريف فى الخلافة وطال عمره وكثرت الفتوحات فى زمنه وصار المسلمون فى خلافته وخلافة من قبله يدا واحدة على عدوهم ـ حرجت صدور أعدائهم من الفرس

واليهود ومن شابههم من المنافقين الذين دخلوا فى الاسلام كيدا له وللعرب ، فقاموا - ورأسهم الزنديق عبد الله بن سبأ اليهودى الذى ادعى الاسلام ، وسعى فى افساده ، وادعى مع ذلك أنه مؤمن بالله وباليوم الآخر ليقضى غرضه بذلك - وما زالوا يؤلبون الناس على عثمان ويسعون فى إثارة الفتنة عليه فى العراق وفى مصر حيث وجدوا هنالك سماعين لهم حتى دخلت دعايتهم قلوب كثير من الغوغاء وضعفاء البصائر ممن لم يدخل الايمان الصحيح فى قلبه ومن غلب هواه على عقله ، وقد صاغوا هذه الدعاية الممقوتة فى قالب التشيع لأهل البيت والتظاهر بالمحاماة لهم وأنهم أولى بالخلافة وأن عليا هو الأولى بها - فقام هؤلاء المنافقون ومن استخفوا به من الجهلاء على هذا الخليفة الراشد التقى البار بغيا وعدوانا وظلما وحسدا له على هذه النعمة التى خلعها الله عليه محاولين خلعه منها أو قتله ونقل الخلافة الى على بن أبى طالب بحجة أنه أولى بها منه ، من أجل ماذا ، من أجل أن عليا من بنى هاشم وأن عثمان من بنى أمية ، وان هذا أولى من هذا بملك الله ولو كان أفضل منه ، ومعنى هذا أنهم اعتمدوا على الأسباب المادية ، فانتصبوا خصوما لرب العالمين داخلين بينه وبين عباده فى ملكه الذى يتصرف فيه كيف شاء فيؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير ليس لأحد معه فى ملكه مثقال أدنى حبة من خردل من شركة ، وقد أحرجهم طول عمر هذا الخليفة مع أنه أحق بها من غيره ، ولكنهم أبوا إلا أن يسفهوا آراء الذين أثنى الله عليهم فى كتابه العزيز وأخبر أنهم لا تأخذهم فى الله لومة لائم فى اختيارهم إياه خليفة للمسلمين ، ولهذا فانهم أبوا الا اتباع أهوائهم وشهواتهم فرأوا أنه لا بد من انتزاع هذه الولاية من هذا الخليفة وهى فى يده وإعطائها من أرادوه هم ولو أفضى ذلك الى قتل هذا الولى المعصوم الدم ، وحقيقة هذا محاربة الله ومحاولة تبديل سنته كما قال عليه الصلاة والسلام « من

آذى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة » الحديث (١) فقام هؤلاء البغاة المعتدون الى هذا الخليفة الذى أجمع المسلمون على بيعته وولايته وتقواه وفضيلته على غيره بدون أدنى مشاورة من أكابر الصحابة واولى الأمر والرأى ، ثم عمدوا اليه متعنتين عليه المرة تلو المرة بأنه ظالم وأنه غير عادل ثم تطلبوا منه أشياء لاحق لهم فيها تمردا وعنادا مع وجود من هو أكبر منهم وأولى فى الطلب ، وهو لكرمه وحيائه وورعه وتقواه وشفقته على الدين والمسلمين يتنازل لهم عن ما طلبوه مما هو مختص بحقوقه الشخصية حتى اسكتهم . فلما لم تجد هذه الفئة الباغية طريقا تقضى به غرضها تعمد الى مكر آخر فتدعى أنها وجدت صورة ختمه بأنه أمر بقتل رجل منهم مع رسوله ، مع أنه من الجائز أن يكون بعض هؤلاء هو الذى صنع الصورة ودسها على الرسول إما عند الحصول عليه أو قبله ، ثم يأتون اليه فيسألون عن ذلك فيحلف لهم بالله أنه لم يعلم بذلك (وليس وراء الله للمرء مطلب) وهو الصادق البار الذى لا يشك فى صدقه إلا كل خبيث ضال ، ثم يدعون عليه بأن كاتبه هو الذى فعل ذلك ظنا منهم (ان الظن لا يغنى من الحق شيئا) ثم لو ثبت هذا ماذا يكون ، أيوجب هذا قتل رجل معصوم الدم ، فضلا عن خليفة راشد . .. فلما أن عجزت هذه الفئة عن أن تجد سبيلا إلى غرضها وأحرجها الغيظ والبلاء الذى حملته وحملها فى صدورها عمدت اليه تحصره فى بيته هو وأهله وذريته ، ثم تمنع وصول الماء البارد اليه ، ثم تقسور عليه فتقتله فى داره وبين أهله وهو جالس يقرأ كتاب الله تعالى وأهله وبنوه عنده فى تلك الساعة الرهيبة بأنفاس متصاعدة تلتهب منها آفاق السماء ، ودموع مرسلة تستنزل غضب الله على الأرض كأن لم يكن هذا الشيخ المقتول وليا لله والله وليه وناصره وكفى به وليا وكفى به نصيرا .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه

وانه لنعم المولى ونعم النصير ، ثم تذهب هذه الطائفة الخبيثة لتقضى حاجتها وتنفذ أغراضها التى جاءت لها بمبايعة على بن أبى طالب فتلتف حوله وتدخل فى جيشه ، ثم تظن أو تعتقد أن هذا الجيش الذى هى فيه سينتصر ويذهب دم عثمان ولى الله الشهيد المظلوم أدراج الرياح ، هيهات هيهات ، إن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ولا يحيق المكر السىء الا بأهله ، ولن تجد لسنة الله تبديلا . دار الفلك وجاء القضاء المحتوم الجبار بأن لا يكون الأمر على ما ظنوا ولا على ما زعموا (تلك أمانيهم) فلقد قتل ـ بسبب هذا الولى الشهيد الذى اجترأ هؤلاء المعتدون على قتله ، وتساهل من تساهل فى نصره ـ ما ينيف على مائة ألف قتيل ، ثم بعد هذا تكون الفرقة الطاغية الباغية المشردة المبددة وهؤلاء المتقاعدون أو المتساهلون فى القيام معه من أجل أنه من بنى أمية داخلين قهرا تحت حكم بنى أمية عصبة هذا الولى الشهيد ، تحت حكم معاوية بل وابنه يزيد على رغم أنف كل من جزع من ذلك ، ثم تحت حكم بنى مروان الذى حسد بكونه كاتبا لعثمان وهو من بنى أمية ، هذا مع وجود أبناء على وفاطمة ، فيبقى هذا الجيل كله تحت حكم عصبة هذا الخليفة المقتول ينظرونهم وهم يحكمون ويتحكمون فيهم ، وكل من قام أو عارض قتل ولم ينل شيئا حتى فنى هذا الجيل عن آخره ، فلما لم يحجزهم الدين والورع عن قتل هذا الخليفة العادل الولى الذى حجزه عنهم الدين والورع فكفروا بهذه النعمة سلط الله عليهم من لا يحجزه عنهم ورع ولا غيره ، بل يطاردهم ويقاتلهم فى الصحارى وغيرها اذا حاولوا القيام والتعنت عليه ، فالحكم لله العلى الكبير ، فانتصر الله لوليه أعظم انتصار ، وأجرى سنته الماضية فى العالمين ، وانتقم لعبده التقى المظلوم والله ولى المتقين ، فقتل هؤلاء الطغاة البغاة شر قتلة ، ومن بقى منهم اذيقوا مرارة الذل والخزى والتشريد والطرد ، وما نالوا مما راموا شيئا ، بل حبطت أعمالهم وحيل بينهم وبين ما يشتهون . أما من لم يدخل مع هؤلاء من أهل الدين والتقوى فلم ينلهم ضرر بالكلية ، وليس فى ولاية بنى أمية ضرر عليهم ،

فانهم لم يتعرضوا للناس فى أديانهم وأمورهم الخاصة وانما كانوا نقمة على أهل الشر والظلم والعدوان

ولو أن عليا انتصر على معاوية وهم معه فى جيشه لكان فى ذلك نصر لهم وتنفيذ لغرضهم وقضاء لمآربهم التى طلبوها بمعاندة الله ومحاربة أوليائه ، وهذا خلاف ما علم من سنة الله فى خلقه من نصر أوليائه المتقين وخذلان أعدائهم المعتدين ، فمحال أن ينصر الله جيشا مدخولا بالزنادقة والمنافقين على جيش آخر ليس مثله ، وإن كان فى هذا الجيش المدخول بررة أتقياء كعلى وغيره ، فان الله تعالى يقول ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ فبين تعالى أن الفتنة لا تصيب الذين ظلموا خاصة بل قد تتناول وتشمل من هو معهم أو فيهم أوله علاقة بهم ، وهكذا كان الواقع فى كثير من الفتن ، فالفتن الكبرى تعم فى الغالب ، فالمطلوب اتقاؤها والتباعد منها ، ولهذا أشار ابن عباس وابن عمر والحسن بن على رضى الله عنهم بترك القتال أولا ، ولكن عليا رضى الله عنه لم يكن يظن أن الأمر يبلغ ما بلغ كما أخبر بذلك عن نفسه [1]

فتقوى عثمان رضى الله عنه وولايته لله وورعه ذلك الورع العظيم النادر الذى يتضاءل دونه كل ورع ، واعتداء هؤلاء الطغاة الظلمة عليه وبعدهم عن التقوى والورع ، من أعظم الأسباب التى كانت عاملا فى انهيار جيش على أمام جيش معاوية . وهذا برهان ظاهر على أن الأسباب المادية لا تقاوم الأسباب الدينية ، وأن المشيئة العليا هى المستقلة بتصريف الأسباب ونتائجها ، وإلا فكل إنسان يعلم بداهة أن أسباب على المادية أكثر من أسباب معاوية ، وما النصر إلا من عند الله ، ولهذا ترى كثيرا من الناس يتعجب من هذا الانتصار لضعف تصور أسبابه الحقيقية فالنصر إنما أتى من هذه الناحية المشار اليها ، وإلا

---

(١) كما نقله عنه شيخ الاسلام فى (المنهاج) ص ١٨٠ ج ٢

فلا شك عند المسلمين بأن عليا نفسه أفضل من معاوية ، بل معاوية معترف بهذا ولم يقاتل مدعيا أنه أفضل من على أو أنه أحق بالخلافة منه ، وانما قاتل بطلب دم عثمان وتسليم المجرمين اليه أو الاقتصاص منهم ، حتى قال فيما قال لجيشه : إما أن يكون على راضيا بقتل عثمان ، أو كارها له ولكنه عاجز عن إقامة الحد على من قتله ، فان كان عاجزا فكيف يستطيع أن يحميكم من هؤلاء ، وان كان راضيا فكيف ندخل فى طاعته وقد تقرر لدى الجيش كله أن عثمان قتل مظلوما شهيدا فلا يمكن أن يضيع دمه ، وكان من البلاء أن كثيرا من جيوش الطرفين يتظاهرون بأن عليا كان راضيا بقتله لتبرير كل منهم فعله وقصده ، وكل هذا كذب ظاهر ، بل على من أولياء الله المتقين ، وحاشا أن يرضى بقتل عثمان ، وكان يحلف على ذلك وهو الصادق بلا ريب ، ولكن البلاء المبين إنما جاء من الخبث الذى فى جيشه ، فانه مدخول بالمنافقين وهم كثيرون ، لأن دعاية الفرس والزنادقة أثرت فيهم كثيرا . ولهذا كانت الفتن لا تفتأ قائمة بينهم أنفسهم ، وقد قلنا فيما سبق إن النفاق للنفوس كالوباء للأبدان متى حل فيها أهلكها ، فكان هذا الوباء العظيم من أعظم ما أفسد هذا الجيش الكثير كما هى العادة السائرة المطردة فيه . واذا كان الوباء المادى يفسد الجيش ويدمره ويحدث فيه الانهيار فكذلك النفاق فانه أعظم فتكا منه ، لأن علاقته بالنفوس لا الأبدان [1] ، والنفوس هى العوامل الحقيقية ، والمواد تبع لها ، ولتكن الآية السابقة على بالك وهى قوله تعالى ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾ تعرف بها أن ضرر النفس يتعدى الى غير من ظلموا كما قيل :

وجرم جره سفهاء قوم　　　فحل بغير جارمه العذاب

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن نبيه ﷺ أنه لو خرج معه

---

(١) ولكن قد يؤثر فى الأبدان

لمنافقون ما زادوا جيشه إلا خبالا ولحصل منهم فساد فيه كما حصل فى أحد ، مع أنه أفضل الخلق ، فكيف لا يؤثر النفاق فى جيش على ، وقد لاحظ هذا الحسن رضى الله عنه ، فانه لما علم أن هذا الجيش فيه من الفساد ما يمنع الانتفاع به لمن استصحبه تركه وسلم الخلافة لمعاوية ، وما يعلم قط أن جيشا كثر فيه النفاق فانتصر أبدا إلا أن يكون مقاتله مثله أو دونه كما تقدم ، ولهذا قال تعالى فيهم ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾ وهكذا كان حالهم مع على ومع غيره فانهم أوضعوا خلال جيش على وجيش ابنه الحسن الفتنة وخانوا الحسين فلم يفوا بما وعدوه فكانوا نعمة على أهل البيت ، فلما ماتوا آذوهم بعبادتهم والشرك بهم والكفر بالله عند قبورهم وادعوا أنهم يعظمونهم وهم يؤذونهم [1] والمقصود أن انهيار جيش على كان بسبب المنافقين الذين يعتمدون على الأسباب المادية غير مفوضين الأمور الى الله تعالى آخذين بالأسباب التى أرشد اليها ، ولهذا كانوا يحدثون الشغب والضجر والقلق وكثرة التبرم بعضهم من بعض ، فأوضعوا خلال هذا الجيش الفتنة بالاختلاف والتنافر والتباغض والفوضى ، حتى حصل الانهيار والتفكك فى هذا الجيش العظيم ، وقد فطن لهذا على رضى الله عنه أيضا فقال لهم « وددت لو صرفتكم بأهل الشام صرف الدرهم بالدينار » وهذا يدل على أنه بعد أن اختبرهم علم عدم الوثوق بهم لما بهم من عدم الثبات والائتلاف الذى هو ثمرة الايمان الصادق والتقوى والورع ، وأما جيش معاوية فليس فيهم من شارك فى دم عثمان الشهيد وكانوا معه كسهم واحد متفقين اتفاقا صادقا ، لأنهم جاءوا لقصد

---

(١) بل هم أعظم الناس إيذاء لهم وسبا وقدحا فيهم ، لانهم يكفرون بالله عند قبورهم ويكذبون على الله ورسله بانه شرع ذلك وينسبونه اليهم وأمثال هذا . وهذه عادة الأحمق يريد أن ينفع فيضر

واحد وان كان كل من هؤلاء وهؤلاء فى الجملة مسلمين ، لكن الخصائص المفسدة كانت مختصة بالدخول فى جيش على ، ولهذا بعد أن قتلوا عثمان ولم يتم الأمر لعلى انقلب أكثرهم عليه خوارج وغيرهم فقاتلوه فكان عنصر ضعف الدين فيهم متقدما ، فصار النصر فى غير هذه الجهة المدخولة بالنفاق وسوء التنظيم الدينى ، ولو أن الجيش الذى مع على غير مدخول بهذه العناصر الخبيثة لكان فى ذلك نوع شبهة لدعوى هذا الملحد وأمثاله ، هذا مع أن دعواه أيضا - كما تقدم - فى بيان الاختلاف بين المتدين وغيره ، وهؤلاء فى الجملة كلهم متدينون ، أما كون بعض من جيش على توقفوا عن القتال لما رأوا رفع المصاحف وأن ذلك دليل على الورع والتقوى فليس بصحيح ، بل هو دليل على ضعف الرأى والحزم المنافى للورع والتقوى ، فانه لو دل على أن ذلك من الورع والتقوى لكان ذلك قد جافى عليا لأنه خالفهم فى هذا الرأى فيكون خلافه عدم ورع وتقوى وقد بين ان ذلك خدعة والمخالف يوافق على أن فعل على هو الصواب وهو المطلوب ، فبطل كون ذلك منهم ورعا ، ولهذا لما خالفهم على فى كف القتال قالوا له : إن لم تجب فعلنا بك مثل ما فعلنا بابن عفان ، وهذا غاية الغباء والجهل ، اذ كيف يقتلون الأولياء فى بيوتهم وهم يقرأون فى مصاحفهم ويكفون عن أعدائهم المحاربين لهم فى الصحراء [1] وهذا ليس من الورع والتقوى فى شىء ، وبكل حال فهم مخطئون فى نفس الأمر ومخالفون للورع والتقوى . ثم إن عليا قد بين لهم وجه الحق فى ذلك وهم قد بايعوه وتابعوه وقاتلوا معه ولأجله فكيف يعصونه فى ذلك

وأما احتجاج بعض الناس بأن قتال على مشروع وأن معاوية وأصحابه بغاة مستحقون للقتال فهذا الاحتجاج ليس بصحيح ، أما آية القتال فلا تنطبق

---

(١) أى حينما رفعوا المصاحف

على هذا القتال وهى قوله تعالى ﴿ وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى أمر الله ﴾ فالقتال المشروع فيها عند البغى بعد الصلح ، ومعلوم أن عليا بدأ معاوية بالقتال ، ثم هى تنقض أصل من احتج بها من الشيعة الذين يدعون أن خصوم على غير مؤمنين ، ثم إنه لا يجوز قتال المؤمنين ابتداء ، والبغاة هم الذين يبغون على الناس ويقاتلونهم بدون حق ، ولهذا ذهب جماهير العلماء من الأئمة الأربعة وأتباعهم الى أن هذا القتال قتال فتنة ، وأن ترك القتال من الطائفتين أولى [١] ، كما أن كثيرا من أكابر الصحابة لم يقاتلوا مع على ولا مع معاوية ، ولو كان ذلك مشروعا وفيه نص لم يخف على جماهير الأمة ، ولو كان أيضا مشروعا لم يمدح النبي ﷺ الحسن بتركه ، ولو كان أيضا مشروعا لاحتج على رضى الله عنه على فعله هذا بالدليل على مشروعيته ولم يصرح بأن ذلك رأى منه كما فى سنن أبى داود وغيره عن قيس بن عباد قال : قلت لعلى : أخبرنا عن مسيرك هذا عهد عهده اليك رسول الله ﷺ أم رأى رأيته . فقال : ما عهد الى النبى صلى الله عليه وسلم شيئا . وهذا نص صريح منه باعترافه بأنه ليس عنده دليل واضح من السنة على مشروعية هذا القتال ، اذ لو كان عنده نص لاستدل به كما استدل على قتال الخوارج بالنصوص الكثيرة وانتصر عليهم . وأيضا فالذين خرجوا على عثمان وقتلوه فى داره بين أهله بدون حجة بغاة باتفاق المسلمين ، فكان يجب أن يقاتلوا ، فانهم قتلوا وأفسدوا وأثاروا الفتن وشقوا العصا وفرقوا بين المسلمين فقتالهم أولى فى الدخول فى الأمر بقتال البغاة ، فلو فرض أن أولئك بغاة مختلف فيهم فهؤلاء بغاة متفق عليهم ، فكانوا أولى بالقتال . وقد طعن بعض أئمة الحديث فى الرواية التى فيها أنه عليه السلام قال لعمار « تقتلك الفئة الباغية » فهذه الرواية

---

(١) كما قرره شيخ الاسلام فى (منهاج السنة) ج ٢

تكلم فيها كثير من العلماء مثل الامام أحمد فى رواية عنه ويحي بن معين وحسين الكرابيسى وغيرهم [١] والقصة أخرجها البخارى بدون هذه الزيادة ، وعلى فرض ثبوتها فليست نصا فى مشروعية ابتداء القتال ، فان الباغى المؤمن لا يبدأ بالقتال مطلقا ، ولو فرض أن قتال معاوية مشروع وأنه لا تجوز ولايته لزم الطعن فى الحسن بن على رضى الله عنه لأنه ترك القتال وسلم الأمر لمعاوية ، وقد مدحه النبى صلى الله عليه وسلم على هذا الفعل العظيم كما فى الصحيحين أنه عليه السلام قال « إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين » فيكون الحسن على مقتضى زعم المعادين لعثمان وأضرابهم عاصيا بترك هذا القتال ، وعاصيا بتسليم أمر الأمة الاسلامية لهؤلاء البغاة ، ويكون هذا الحديث ذما له لا مدح فيه ، ومعلوم أن هذا من أفسد ما يقال ، بل يكون مخالفا للكتاب والسنة اللذين استدل بهما المعارض ، وبالجملة ففعل الحسن رضى الله عنه الذى اثنى عليه النبى صلى الله عليه وسلم به مخالف لفعل أبيه وأخيه وقد مدحه النبى صلى الله عليه وسلم على فعله هذا فلا بد من حمل ما فعلاه على الاجتهاد ، فان عليا رضى الله عنه ظن أن معاوية سيسلم الأمر وأن فى ذلك جمعا لكلمة المسلمين ، ولم يكن يظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ ، لأنه بلا ريب أفضل من معاوية وأولى بالحق منه فلما أن وقع ما وقع ندم على ذلك وكان يقول « يا حسن يا حسن ، ما ظن أبوك أن الأمر يبلغ هذا ، لله در مقام قامه سعد بن مالك وعبد الله بن عمر ، إن كان برا إن أجره لعظيم ، وإن كان إثما ان خطره ليسير ، نقل هذا عنه شيخ الاسلام بن تيمية فى منهاج السنة ١٨٠ ج ٢ وذكر عنه انه كان يقول :

---

(١) قال شيخ الاسلام فى (منهاج السنة) ج ٢ ص ٩٤ فى كلامه على حديث عمار « تقتلك الفئة الباغية » ما نصه : « وطائفة من العلماء ضعفوا هذا الحديث ، منهم حسين الكرابيسى وغيره ، ونقل عن أحمد أيضا »

لقد عجزت عجزة لا أعتذر　　سوف أكيس بعدها واستمر
واجمع الرأى الشتيت المنتشر

ومن العجيب احتجاج بعضهم بحديث « أهل بيتى كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق ، وهذا الحديث لم يروه أحد من العلماء المعتبرين ، بل حكموا بأنه حديث باطل [1] ، فانه من المعلوم أن سفينة نوح واحدة ومذاهب المنتسبين لأهل البيت كثيرة جدا ، وفيهم من يبدع بعضهم بعضا ويكفر بعضهم بعضا وكل منهم يدعى أن مذهبه هو سفينة نوح ، فكيف تكون هذه الشيع المتضادة كسفينة نوح ، ولهذا تجد الغالية تحتج به وتجد الامامية تحتج به وتجد الاسماعلية والنصيرية وغيرهم يحتجون به ، وكل من هؤلاء له نحلة قد ذهب اليها وضلل من خالفها والنبى صلى الله عليه وسلم قد بين الفرقة الناجية بقوله « من كان مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابى » متفق عليه من حديث قد تقدم . والمقصود أن ما استدل به هذا الملحد من انهيار جيش على وتعليل ذلك بأنهم شغلوا بالتقوى والاهتمام بالجنة وأن هذا الأمل هو الذى أفسدهم وأن مقابلهم على خلافهم كذب ظاهر يعرفه أدنى عاقل ، بل الأمر بالعكس فان الانهيار إنما جاء بسبب المنافقين الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة واعتمدوا على الأسباب المادية وقتلوا عثمان ثم قاتلوا طلحة والزبير وأثاروا الفتنة تلو الفتنة ، ثم آذوا عليا بالاختلاف عليه ، ثم انقلب بعضهم

---

(١) كما حكم عليه فى (المنهاج) وغيره . والحق أن من اتبع الكتاب والسنة فهو الذى على الحق ، أما من تعبد الله بشتم الصحابة والقرون المفضلة وعطل صفات الله وعبد القبور فهذا مضاد للقرآن ، وقد علم أن النبى ﷺ قال لفاطمة رضى الله عنها سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا وقال « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ولكن أعداء الدين لم يدخلوا على افساد العرب والقاء البغضاء بينهم إلا من هذا الطريق وأمثاله

عليه وقاتله ، فهذا أصل البلاء [1] فان المنافقين هم أصل كل فساد فى كل الأمم ولولا كثرة وجودهم فى هذه الأمم الاسلامية لما أصابها من الضعف والمحن ما أصابها ، فان هؤلاء هم الذين أسسوا تعطيل الصفات وتحريفها عن ظواهرها وأسسوا عبادة القبور والبناء عليها والصلاة عندها ، وهم الذين أسسوا تحكيم الطواغيت بدلا من أحكام الله ، فكيف ينهض المسلمون وهذه العلل متغلغلة فى أعصابهم وقواهم ، فلا بد من إزالتها بالأخذ بما جاءهم من الله من النور والكتاب المبين ، ولا يمكن لهم الحصول على هذا إلا بالأخذ بما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه فى الاخلاق الدينية كما قال الأئمة « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها » ولهذا لما نبغت هذه الفرقة الباغية واغترت بدسائس الفرس وأمثالهم حصل ما حصل حتى تعدى ضررهم الى غيرهم وكانوا فتنة لكل زنديق ومنافق

ومما يستدعى النظر والاعتبار أن جميع الذين قاموا فى هذه الفتنة فى قتل عثمان رضى الله عنه عوقبوا فى الدنيا من جنس ما فعلوه فى فتنتهم ، فانهم لما كادوا أن يرجعوا الى بلادهم وتركوا الفتنة رجعوا مجمعين على المكر والخديعة بدعوى الدين وأنهم قائمون بالحق ، وجعلوا مسألة مروان ذريعة لهم ، وعثمان رضى الله عنهم يعلم حقيقة أمرهم وأنهم لا يقصدون إلا نزع الخلافة إما بقتله

---

(١) ومن الغريب أن بعض الكتاب احتج على تأخر على بأنه كان ورعا تقيا ، واستدل على ذلك بأنه لم يكن يعطى ولاته من الأموال إلا قليلا ، وكان يدقق المحاسبة عليهم، وأن معاوية بخلاف ذلك ،وما شعر هذا الكاتب أن انتصار معاوية لم يأت من ناحية المال وإنما جاء من القتال ، ومعلوم أن أخذ المال وخطره أسهل من خطر القتال والدماء . فهذا الكاتب لم ينظر الى مقدمات الفتنة ، ولم ينظر الى الاسباب التى حصل بسببها التقدم والتأخر ، وانما نظر الى سبب لم يحصل لعلى منه ضرر البتة ، وانما جاء الضرر من غيره

أو خلعه ، لا يريدون مروان . ولهذا لما قتلوه تركوا مروان ولم يقتلوه مع قدرتهم عليه (وحسبوا أن لا تكون فتنة) فلهذا أعطوا جزاءهم فى الدنيا فضلا عن الآخرة ، فانهم لما كادوا أن يهزموا جيش الشام وأن يحصل لهم النصر والظفر أظهر الله لهم من يكيد لهم ويمكر بهم بدعوى القيام بالحق فى رفع المصاحف ، فكانت النتيجة الفشل النهائى ، كما كانت نتيجة رجوعهم الأول بالكيد والمكر حصولهم على الشر والاجرام المنكر فى حقهم ، أما فى حق عثمان فهو الخير ، فانه ظفر بالشهادة الحقيقية التى لا ينالها الا المقربون . ثم رؤساء هذه الفتنة ـ مثل محمد بن أبى بكر والاشتر النخعى وغيرهما ـ كل منهم جوزى من جنس فعله ، فان محمدا كان من أول من شب نار الفتنة لجيفة الدنيا فدخل على عثمان وقد منع عنه الماء ففعل ما فعل ، فلذا كانت خاتمته أن وجد فى خربة من خرائب مصر هاربا فى غاية العطش فقتل وهو على تلك الحالة ثم شبوا عليه النار فى جيفة حمار . وكذلك الاشتر النخعى ، فانه كان قائما فى الفتنة بدعوى إقامة الحق ، وباطنه الكيد والمكر ، فلذا كانت خاتمته أن سلط الله عليه من سقاه سما فى عسل حتى مات فى ذهابه الى مصر للولاية عليها ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ﴾ ، فعاقبة الغى والبغى والعدوان لا بد أن تكون وخيمة ، كما أن عاقبة أهل الدين والتقوى هى العاقبة الحميدة ، سنة مطردة لا تبديل لها ولا تحويل

وينبغى أن يعلم أن الذى دعانا إلى الافاضة فى هذه المسألة بيان الأسباب والعوامل الأساسية الدينية والدنيوية فى التقدم والتأخر ، وبيان أن النصر يكون دائما فى جانب التقوى فى الجملة لا فى التفصيل ، وأن البغى والعدوان والنفاق ـ وهذه الأمور منشأها الاعتماد على الأسباب المادية فقط ـ لا بد أن تكون عاقبة أهلها وخيمة اذا كان مقابلهم أهل دين صحيح ، لا اذا كان مقابلهم مثلهم . وقد رأيت كلاما كثيرا لبعض العلماء من الكتاب غيرهم من المتدينين

وغيرهم فى هذه المسألة فيه أشياء كثيرة من الاخطاء والاغلاط الفاحشة ، فلهذا وجب على الانسان بيان ما يراه فى هذه المسألة ـ ليعلم به تلك الأغلاط من الطرفين ـ وإن كان فى كلامنا هذا ما لا يرضاه من أصيب بداء الرفض ، فان هذا الداء العضال قد وقع فيه من شاء الله ممن لا يعدهم ولا يحصيهم إلا هو تعالى ، فهؤلاء ـ بلا شك ـ لا يرضون إلا على من اتبع ملتهم وأهواءهم ، وإلا فقوم لا يرضون عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن جماهير السلف الذين بذلوا نفوسهم لله تعالى ولدينه كيف يرضون عنا ، هذا من أشد المحال .

ولقد حكم الله سبحانه بأن أعداء عثمان والراضين بقتله تحت محبيه وناصريه من ذلك الوقت الى هذا الوقت الحاضر فى الجملة ، وهذا من تمام نصره لوليه ، رضى الله تعالى عنه وعن إخوانه ومن نصرهم وتبع هداهم

وختاما نقول ﴿ ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤف رحيم ﴾

* * *

ثم قال « ومن المعلوم أن أوربا يوم أن كانت مؤمنة بالكنيسة متدينة كانت فى ذلك الهوان والضعف والعجز الذى نعرفه ونقرؤه ، فلما أن مرقت من ايمانها وتنازلت عن ذلك الأمل الأخروى وجعلت الصناعة والتجارة والحياة الكبيرة القوية هى آلهتها التى وحدتها وأبت الاشراك بها صعدت بالحياة هذا الصعود الذى أعجز أبصارنا تنوره والنظر اليه . وقد قال أحد فلاسفة الانجليز المعاصرين المدرسين اليوم فى إحدى الجامعات البريطانية — وهو ملحد كما هو ظاهر — « ان أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد أن أعتقت نفسها من رق الايمان بالله واليوم الآخر »

قلت لما ذكر أن الايمان بالله وباليوم الآخر عاملان من عوامل التأخر

أخذ يستدل بفعل أوربا بقول هذا الانجليزى مع شهادته عليه بأنه ملحد ، وقد نسى بأنه قد اعترف بأن أوربا لم تصعد هذا الصعود الذى أعجز بصره تنوره إلا بعد أن خالطت المسلمين وأخذت حضارتها من تعاليم الاسلام كما تقدم كلامه ، وهنا تناقض فادعى بأنها لم تصعد إلا بالإلحاد ، وهو يريد بهذا الاستشهاد بفعلها على ما ادعاه فيما تقدم فى الحث على الالحاد ، ثم إنه لعظم شقائه برهن على هذا الكفر بكفر مثله ، وهو ما ذكره عن هذا الانجليزى المدرس بكون أوربا لم تستطع أن تكون أوربا إلا بعد عتقها من الايمان بالله واليوم الآخر ، ولكنها استرقت للصناعة ونحوها فهى فى الحقيقة لم تعتق من رقها . ثم إنه شهد على هذا المدرس بالالحاد ، واستدل بكلامه على ما يدعى ، وكل ذى عقل يعلم حقيقة العلم أنه لا فرق بين قوله وبين قول هذا الملحد فى هذه الجملة التى ساقها فى قوله « ومن المعلوم الخ » فان هذه الجملة التى ادعاها هو كالجملة التى ادعاها هذا الانجليزى سواء بسواء ، فان هذا الملحد صرح بان أوربا لم تصعد بالحياة إلا بعد أن مرقت من الإيمان بالكنيسة والدين ، وتنازلت عن الإيمان بالأمل الأخروى ، وجعلت إلهها ومعبودها صناعتها وتجارتها . وهذا الكلام إن لم يكن أخبث من كلام سيده الانجليزى الملحد فليس بدونه ، فكيف يرمى من ادعى كدعواه بالالحاد ، ولا يكون هو أيضا ملحدا . ثم إنها دعوى فى نهاية السقوط ، فليس دين المسلمين كدين الكنيسة حتى يصح رفضه ، هذا لو قدر أنها رفضته فى حين تقدم هذه الصناعات ، فان هذا باطل وهو خلاف المشهور المعروف ، فان أكثر من نصف أوربا يدين بدين الكنيسة ، مع أن كثيرا من هذه الشعوب المدعية للاسلام قد رفضت دينها وفعلت كما فعلت أوربا من رفض دين الكنيسة تقليدا لهم ، وما زادهم ذلك إلا خسارا . والمعروف أن أوربا وغيرها إنما رفضت كثيرا من الخرافات المخالفة للعقول فقط [1] ، وإلا فكثير من مبادىء الكنيسة موجود

---

(١) أى لا الايمان بالله واليوم الآخر إجمالا

فى كثير من الشعوب الأوربية وغيرها ، أى انها موجودة فى هذا الوقت الذى تطورت فيه الصناعات والحضارة ، وان كان قد فشا فيها الالحاد فى الازمنة الاخيرة بسبب الشيوعية فهذا لا يرد ، لأن الكلام فى مسألة اتفاق الحضارة مع التدين ، وقد بينا فيما تقدم أن مرض الالحاد والنفاق للنفوس كمرض الوباء المادى للأبدان ، فكما أن الأبدان العليلة التى ليس فيها قوة تقاوم المرض بل تكون فاسدة المزاج قابلة له يكون المرض أسرع فشوًّا فيها واستئصالا لها ، فهكذا مرض الالحاد فان أكثر هذه الشعوب الاوربية وغيرها ليس لهم معرفة بالدين الصحيح الذى يوجب قوة القلب والروح فيدفع ما يرد عليه من أمراض الشكوك والشبهات فى الالحاد ، فان هؤلاء الملحدين إنما تؤثر دعايتهم لعدم وجود أديان صحيحة تقاومها . ويتبين الفرق فى هذا بين الهند والصين ، فان الصين لما كانت أبعد عن معرفة الأديان السماوية ولا سيما الاسلام الصحيح فشا فيها الالحاد ، بخلاف الهند فان الممانعة فيها أقوى لقوة موجبه من العلوم الدينية الصحيحة ، فضعف الدين يجر الى الخرافات ، وان لم توجد جر الى النفاق ، وقد تجر الخرافات الى النفاق أيضا ، وكل من الخرافات والنفاق سبيل الى الالحاد ، وقد يضطر الملحد الى النفاق أحيانا لمقاصد أخرى ، فهكذا كان دين الكنيسة ، وكذلك الرفض والتجهم المحض يكون قابلا لتأثير عوامل الالحاد ، ولا ريب أن ذلك من أجل ضعف عنصر المقاومة الدينية فى أهلها . ثم كيف تتفق دعواه بأن هذه الحضارة وهذا التطور انما أخذ عن الاسلام وأن ذلك هو رفض الأمل الأخروى ، وكيف يدعو الى رفض الدين من أجل هذا وهو مأخوذ عن الدين نفسه ، فما أكثر فضوله ورعوناته

ودعواه أنها صعدت بالحياة هذا الصعود إلخ . يقال لكن سقط أكثرها سقوطا مدمرا ، ولا سيما الذين مرقوا مروقا تاما ، بل عادوا الى أسفل سافلين ، وصار سقوطهم بأسباب رق آلهتهم التى ادعيت أنهم وجدوها وأبوا

الاشراك بها وهى صناعتهم وتجارتهم ، فأنزلتهم معبوداتهم ودمرتهم لما تنازلوا عن الأمل الأخروى ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعونها من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك وما زادوهم غير تتبيب ، ومن لم يسقط منهم فهو مهدد بالسقوط ومصيره لا بدّ أن يكون للسقوط المحتوم ما دام رفيقا لآلهته

وغرض هذا الملحد من هذا الهراء — كما لا يخفى — أنكم أيها المسلمون يجب إن تفعلوا كما فعلوا ، فترفضوا دينكم الذى هو كدين الكنيسة لتصعدوا كما صعد أولئك . وما علم هذا الزائغ أن المسلمين على بينة من ربهم ، يعرفون الفرق بين دينهم ودين الكنيسة ، كما يعرفون الفرق بينهم وبين اليهود وغيرهم ، وأنه لا نجـــاة لهم ولا خلاص ولا حياة الا بالتمسك بدينهم والعض عليه بالنواجذ ، وأن أولئك لم ينفع أكثرهم ما فعله من المروق ، بل عاد عليه نكبة عظيمة وخسارة جسيمة فى الدنيا والآخرة

٭ ٭ ٭

ثم قال « ولقد كانت روسيا القيصرية المسيحية منذ أقل من ثلاثين عاما مثلا طيبا للفقر والضعف والمسكنة والجهل حينما كانت مسيحية متدينة صالحة ! فلما أن مرق بها البلاشفة وصنعوا لهـا أربابا آخرين وعبادة أخرى صارت هى روسيا اليوم قاهرة ألمانيا التى لم تكن تقهر ، ولعل روسيا هذه قد كفت لهزيمتها وإخراجها من الحرب العـالمية الأولى معركة واحدة رماها بها قائد ألمانيـــا العبقرى ، وقد لخص أحد أدباء الروس المخضرمين الذين عاصروا العهـدين القيصرى والبلشفى أسباب الفروق بين أولئك الروس وهؤلاء وعوامل التحول قائلا : لقد شاهدت الزراع والعمال البائسين اليائسين فى الزمـان القيصرى يوم أن كانوا يشكون بؤسهم وجهلهم وفقرهم وأمراضهم وسائر فسادهم الاجتماعى الى القوى الخفية المجهولة ، فكانوا يومذاك مثلا رائعا فى الانحطاط ، ثم شاهدت هؤلاء أنفسهم وهم يشكون ذلك الى المصنع والمحراث والمدرسة ، فصاروا هم

الروس الذين نالوا إعجاب العالم ورضاه سنة ١٩٤٤ وما بعدها ،

قلت : هنا طاب له الكلام والمكان ، فأخذ يهذى بما خطر على باله ، ولو كان له عقل ودين لم يحتج على المسلمين بمثل هذه الأمور ويدعى أنه مؤمن بالله واليوم الآخر ، وهذا الذى ادعاه وفرح به من أبلغ الحجج عليه لأمور :

أولا انه قد تقدم قوله فى الجملة السابقة قريبا بان أوربا مرقت من إيمانها وتنازلت عن الأمل الأخروى ، وهذا تصريح بأنها ملحدة ، ومعلوم أن روسيا انما انتصرت على هذه الشعوب المعروفة فيها بل على أقواها التى صرح باسمها فادعى أنها انتصرت بهذا المروق نفسه على هذه المارقة نفسها ، فصار هـــذا الاستدلال صريحا فى أن روسيا الملحدة انتصرت على أوربا الملحدة ، فكان حقيقة الدعوى أن هذا المبدأ الالحادى انتصر على نفسه ودمر أهله الدائنين به ، أى انتصر أحد طرفيه على الآخر فدمره وأنزل به أعظم النكبات والكوارث ، واذن فمن الذى قال لك ـ يا بلعام زمانه ـ ان الالحاد لا ينتصر على الالحاد وعلى النفاق أيضا وأنه يدمر بعضه بعضا ، بل هذا غل خنقت به نفسك ، فهل كانت روسيا منتصره على قوم يؤمنون به تعالى إيمانا صادقا خالصا ويعبدونه ويحكمون شرعه ويلجأون اليه فى السراء والضراء ويثقون به ويركنون اليه ، أم كانت منتصرة على من هو مثلها كما تدعى مجاهرة بلا تلعثم ، فأى شبهة لك فى هذا ، وكيف تعمد الى قوم نبذوا أمر الله وراء ظهورهم واحتقروا طاعته وعبادته ورأوها ـ كما رأيتها ـ ضعفا وعجـــزا ، فتسجل عليهم بأنهم مارقون ، ثم تعمد الى قوم مثلهم فتقرر بأنهم مثلهم قوم مارقون ، ثم تستدل على المسلمين بانتصار هؤلاء على هؤلاء ثم تدعو الى الاقتداء بهم ثم تحتج على هذا بكلام روسى بلشفى مجهول يدعو الى نفسه وجنسه بقول هراء يدعى فيه أن الشكوى الى المحراث خير من الشكوى الى خالقه ، فلو أن قائلا عكس دعواك وادعى بأن الالحاد عامل هدام بدليل ما أصاب الطرف الثانى المهزوم

لكان أولى بالصحة من قولك ، لأن الذى هدمه هو مبدأه ، فكان متهادما . ولعله ألقى فى روعك أن خصومك يدعون ان مبدأ الالحاد لا ينتصر على نفسه ، فان كان هذا هو الذى توهمته وخطر على بالك فليكن لديك معلوما بأن خصومك لا يقولون هذا أبدا ، بل يقولون ان الله تعالى يولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون ، ومعلوم أنه تعالى لا يولى بعضهم بعضا إلا بتقدم بعضهم على بعض كما حكى فى أول سورة الاسراء فى انتصار بختنصر على بنى اسرائيل بسبب إفسادهم فى الأرض ، ففيه برهان على أنه لا مانع من تقدم الكافر على المفسدين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا . أما من استمسك بطاعة الله تعالى واستقام على الدين الصحيح فلا بد أن يعينه الله ويسخر له من الأسباب ما ينتفع به فى الدنيا نفعا صحيحا كما قال تعالى ﴿ان الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ وكما قال تعالى ﴿ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون﴾

الأمر الثانى أن دعواه بأن روسيا لم تتقدم إلا بسبب مروقها من دين الكنيسة دعوى غير صحيحة ، بل هى تقدمت بأسباب أخرى كثيرة ككثرة عددها وخصوبة أرضها وغير ذلك من الأمور المعروفة التى لولاها لم تتقدم ، فانه يوجد حكومات أبعد منها عن الاديان ولم يحصل لها أدنى تقدم ، وهذه اليابان تقدمت تقدما عظيما يشبه الطفرة قبل هذه السنوات الاخيرة وهى لم تكن على دين الكنيسة ، كما أن هناك دولا أخرى لم تفعل فعلها فى الكنيسة كأمريكا والانجليز وتقدموا أعظم من تقدمها حتى على كثير ممن رفضوا الكنيسة ومرقوا من دينها . فتبين من هذا أن ليس لرفضهم الكنيسة كبير أثر فى تقدمهم ، بل لو لم يتركوا الكنيسة لكان أحرى لتقدمهم فانهم أرهقوا الشعب بالتشريد والتقتيل والعذاب ونفروا كثيرا منهم بسبب ذلك وكرههم أكثر الناس بسبب هذا ولا سيما فى الشرق ، وكان من الممكن محاربة بعض

الخرافات المنحطة جدا العائقة عن الأعمال وهى كافية كما فعل غيرهم

الامر الثالث : أن كثيرا من الناس يعارضونه فى كون روسيا كلها مرقت هذا المروق الذى يدعيه ، بل فيها كثيرون جدا ممن يدينون بالكنيسة وبغيرها وان كان أكثر المظاهر الدينية أزيل ، لكن كونها كلها مرقت غير صحيح ، وقد تراجعت فى السنين الاخيرة قبيل الحرب وكثرت الدعايات الدينية فيها لأنها عرفت أن ما فعلته فى أمر الكنيسة وغيرها قد أصبح ضرره أكبر من نفعه وإلا لم تتراجع بعض التراجع ، وبعض الناس يدعى أنها إنما حاربت الخرافات المنحطة فقط ، ومعلوم ان الخرافات المنحطة جدا كالتجهم والاتحاد وأمثال ذلك كالالحاد أو الزندقة أو هن أضر

الامر الرابع : أن دين الكنيسة ليس كدين المسلمين حتى يصح التمثيل ، بل هذا القياس باطل بالبداهة كما تقدم توضيحه مرارا كثيرة

الامر الخامس : أنه مطالب ببيان كون الفرد فى روسيا أحسن حالة مما كان قبل ذلك ، فانها قبل مروقها كانت مستقلة وكانت على حالة هادئة وحرية الفرد كانت جيدة جدا بخلاف انقلابها الأخير ، اما ما ذكره من الفقر والشقاء فليس بصحيح ، بل هى غنية من قديم وان كان حصل لها إثراء أعظم مما كان قبل فذاك لا يقتضى شقاء وفقرا قبل ذلك مع أن ما حل بها من الكوارث والنكبات فى السنين الأخيرة ليس بالامر الهين فيها

وهذه الصحف العالمية مملوءة بشرح حالها أولا وأخيرا مما لا حاجة الى التطويل فيه ، ويكفينا أن نقول لهذا الملحد : هل مكثت فيها وعرفت أحوالها أو احوال أهلها وماذا يجرى فيها وعرفت أحوال غيرهم حتى تستدل بهذا الكلام الذى حقيقته حجة عليك ، وقد بينا فيما سبق أن التقدم أحيانا والكثرة لا تدل على الحق ، ولا يدعى هذا أحد ممن يقدر الامور ويزنها بالميزان العقلى الصحيح ، وهو نفسه معترف بهذا أحيانا ، ولو لم يكن له إلا شذوذه فى هذه

الأغلال لكفى ، ولكن يريد أن يكون كل شيء حجة له ولو كانت قضايا متناقضة ، وهذه الجملة هي بيت القصيد هنا ، وما تقدم في أول هذه الخلاصة كالتمهيد لها وما بعدها تقرير لها ولهذا وقف عليها

(وقــوف شحــيح ضاع فى الـترب خاتمـه)

* * *

ثم قال : « وكذلك القول فى تركيا وفى كل الامم الحديثة والقديمة »

فيقال : كل هذا كذب ظاهر ، أما تركيا فكل أحد يعلم أنها لمــا كانت متدينة كانت متقدمة وعلى جانب عظيم من الاعتبار وسعة الملك والرقى والسيادة ، فلما أن بدأت تغير فى دينها ودبت اليها عناصر الالحاد ـ كالتجهم [1] والغلو فى الأموات وطلبهم الحوائج وإدخالها الانظمة المضادة لما فى الكتاب العزيز والسنة المطهرة ـ أخذت فى التأخر حتى وصلت الى هذا الحد ، فلما أن قلبت نظامها وصارت لا دينية لم يحصل لها تقدم البتة مع أن أكثر شعبهــا متدين ، ولهذا عرفت ضرر الإلحاد وشدة فساده فتراجعت الى التدين لأنها علمت أنها لا يمكن أن تعيش بغير دين لما أصاب شبابها من الانحطاط وخبث الأخلاق ، فهى أعرف بنفسها من غيرها ، ومن المكابرة والمجاهرة بالفجور ما ذكره فى نبذته (كيف ذل المسلمون) من أن تركيا لما كانت متدينة تأخرت ، فلما ألحدت تقدمت ، فهل يخفى هذا الفجور على أدنى عاقل ، فان الناس يعلمون أن تركيا كانت من أكبر الدول لما كانت متدينة فلما أن حرفت دينها وانقلبت على عقبها [2] تدهورت ثم لما أعلنت بأنها لا دينية لم يحصل لها تقدم ، بل كانت

---

(١) مثل تحريف الصفات وإنكار العلو والكلام ونحو ذلك

(٢) اى الحكومة ، وإلا فأكثر الشعب متدين

وقت تدينها أعظم وأرقى وأوسع ملكا من بعد أن كانت لا دينية ، وهذا أظهر من أن ينبه عليه

ومن أفجر الفجور الذى لا يتكلم به إلا من بلغ فى الاستهتار وعدم الحياء أبلغ حد قوله « وكذلك الامم الجديثة والقديمة » فجعل الأمم الحديثة والقديمة كلها على هذا المنوال . ونحن نتحداه باثبات دولة واحـدة من الدول القديمـة كانت عـــلى مبدأ إلحاد فتقدمت ، أفيظن أن بنى إسرائيل أو العرب وغيرهم لم يتقدموا إلا بالمروق من الدين ، وكذلك الدول الحديثة فقد عرف أمرها . وقد بين سبحانه كيف كان عاقبة الأمم المتقدمة وأنهـا عكس ما ادعاه ، كما أن البراهين التاريخية دلت على ذلك كما قال تعالى ﴿ ولقـد أرسلنا من قبلك رسلا الى قومهم فجـاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقـا علينا نصر المؤمنين ﴾ وقال تعالى ﴿ قل سيروا فى الأرض فانظروا كـيف كان عاقبة المـكذبين ﴾ وقال تعالى ﴿ ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون ﴾ والآيات فى هذا كثيرة جدا فى الأمم الأولى والأخرى وكلها كانت عاقبتها على هذه السنة والوتيرة لا تختلف أبدا كما قال تعالى ﴿ قل للذين كفروا إنْ ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين ﴾

* * *

ثم قال « ولعل الفرق يظهر جليا فى دولتين شرقيتين متجاورتين وهما اليابان الفتية المتوثبة والصين الواهنة الـكسول ، فاليابان وإن كان للدين البوذى فيهـا آثار وبقايا ومعابد وتماثيل ، إلا أنها قد نضت حقيقة هذا الدين فلم تدع عـلى روحهـا منه شيئا ، وان أبقت بعض الأشياء عـلى جسمها الخارجى ! والدين الشنتوى الذى تقمصته الروح اليابانية هو الذى يوجههـا ويمثلهـا ، وهو دين الطبقات العليا والأشراف هناك ، وهو دين يقوم على عبـادة للطبيعة وعبادة

مظاهر هذا الكون الجميلة المختلفة وعلى عبادة الجمال والقوى المادية ، ولهذا فان اليابان يبالغون جدا فى تصور الجمال وفى إدخاله على كل وجوه الحياة حتى على لعب الاطفال وأحذيتهم الخشبية ، وأصغر الامور التى يعملونها ، وهو دين ليست له طقوس ولا فروض ولا عبادات خاصة ولا كتب ذات نصوص يتعبد بها وبتلاوتها وهو لا يؤمن بالآخرة ولا بالحساب والعقاب والجزاء ، وخلاصته أنه دين طبيعى أو أنه دين الطبيعة فى أعم معانيها ، ومن ثمة كان أهله من أشد الناس اتصالا بالطبيعة وجمالها .

فيقال : وهذا أيضا من جنس ما قبله فى البطلان ، بل هو حجة عليه ، والغالب على هذا الشعب هو الدين البوذى بلا ريب فى جميع الطبقات عند جميع العارفين بهم ، ودعواه عليها بأنها قد نضت هذا الدين أى البوذى كذب ومكابرة مرذولة وأكثر عمال هذه الدولة وأشرافها وقادتها على هذا الدين البوذى وهو الذى يوجهها وهو الشائع فيها مع أن هناك أديانا أخرى فيها خرافات كثيرة لا تنقص عما فى الصين وما حولها ، وهذا يبطل دعواه كلها ويجتثها من أصلها حيث ادعى أن الدين الباطل لا يمكن أن تقوم عليه دولة وان الالحاد لا يمنع الرقى ، وهذا الدين أى البوذى هو الغالب على أكثر الصين والمغول ، فلو كان علة تأخر الصين هو وجود هذا الدين فيها لكان ذلك أيضا فى اليابان فانهما سواء فيه بلا فرق ، وهذا أمر معروف عند كل من له أدنى إلمام بمعرفة ذلك

ودعواه أن الدين الشنتوى هو الذى تقمصته الروح اليابانية وأنه هو الذى يوجهها فمن المكابرة التى يستحى من له عقل أن يجاهر بها ، فان هذا الدين لا يكاد يوجد فيها إلا بالنسبة الضئيلة فى بعض الطبقات القليلة وأكثر الرؤساء والأشراف هنالك على الدين البوذى فهو السائد فيها فى جميع الطبقات ، ومعلوم أن السيطرة إنما تكون للأكثر الأغلب فهو الذى يوجهها . ثم يقال

لهذا الزنديق : على فرض التنزل بأن الدين الشنتوى موجود فيها سواء أكان بقلة أو كثرة هل هو دين باطل أو دين صحيح ، فانت قد جعلته دينا ، فان كان دينا صحيحا عندك فصرح بذلك ولا حاجة الى ادعاء الاسلام فانه يناقضه ، وقد ذكرت أنه ليس فيه إيمان بالآخرة ، وان كان دينا باطلا بطل كلامك فى أن الدين الباطل لا تقوم عليه دولة وأنه عامل تأخر ، فان أهل هذا الدين تقدموا تقدما مدهشا فى سنوات قليلة مع كونه دينا باطلا ومشتملا على خرافات كثيرة ، وهذا يأتى على جميع قواعدك من أساسها ولا سيما فى التطويح حول تقدم روسيا برفض الكنيسة ، فهو مقابل لتقدم هذه الدولة مع كونها على أديان باطلة ولم ترفض كنيسة ولا غيرها

ثم أى مناسبة للاتيان بدين اليابان وأدنى رجل من المسلمين يعرف أن دينه ليس هو كدين اليابان ، ومن لم يفرق بين الاسلام والدين البوذى والشنتوى ونحوه من الأديان الباطلة فهو لا يعرف الاسلام ، وهذا المغرور مشى على قاعدته الخبيثة أن دين الاسلام كغيره من سائر الاديان الباطلة ، ولهذا عبر عن ذلك بالمتدينين وبالأمم المتدينة فجعل الناس فى الجملة بين متدين وملحد فالمتدين متأخر والملحد متقدم ، وكابر فى الحسيات كما كابر فى الضروريات وهو يعرف أن أكثر الأمم المنحطة كبعض سكان افريقيا وغيرهم لا يعرفون من الأديان شيئا ، وهكذا غيرهم من أهل الأديان الثلاثة فان فيهم من الناس من هم أعظم تأخرا ، وكل هذا أعرض عنه وتعلق بهذا الدين الشنتوى فمدحه مع إقراره بأن أصوله تتضمن الكفر باليوم الآخر ، وذم جميع الأديان التى تخالفه لانها أديان سماوية ، ولو كان هذا الملحد من أهل هذا الدين لعلم أن كتابه يتضمن الدعوة اليه والى ما يتضمنه من الالحاد الصريح

* * *

ثم قال « أما الصينيون فقد رماهم الدين الكنفشيوسى وسواء بما لم

يستطيعوا القيام منه لكثرة ما فيه من الأوهام والخيال ومن التأميل بالمستحيل » ، ثم شرع فى ذم هذا الدين ، وكل هذا لا حجة له فيه ، فليست هذه الأديان كدين الاسلام ، والمسلمون لم يمنعوها حتى يتكلف ذمها والحط على أهلها ، ومن ساوى بينها وبين الاسلام فهو مصاب فى دينه وعقله وهى لا تسمى أديانا إلا مضافة الى أهلها فلا يشملها إطلاق اسم الدين فى عرف أهل الأديان السماوية بل هى خرافات فالاديان هى الاسلامية والمسيحية واليهودية وما سوى ذلك فوثنية فان الملاحدة وثنيون فانهم يعبدون الأسباب ويعتمدون عليها ويعلقون عليها آمالهم بل ويعبد بعضهم بعضا ويعبدون أهواءهم ، فكل من اعتمد على غير الله وعلق عليه أمله وتوكل عليه وأطاعه وخضع له فقد عبده ، وليس من شرط عبادة الشيء أن يعمل الانسان مع معبوده كما يعمل مع الله كما اوضحنا ذلك فيما سلف قال تعالى ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ﴾ فجعل من اتبع هواه واختاره على شرع الله عابدا له قال أبو تمام :

وعبادة الأهواء فى تطويحها ... بالدين مثل عبادة الأوثان

كما فى حديث ابى واقد الليثى رضى الله عنه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط ، فمررنا بسدرة فقلنا يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال : الله أكبر إنها السنن ، قلتم — والذى نفسى بيده — كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون . رواه الترمذى وصححه ، فجعل فعلهم هذا عبادة ، وان لم يطلبوا أن يعملوا عند هذه السدرة كما يعملون لله . ثم انه استطرد فذكر الهند وادعى أن سبب تأخرها عبادة بعض أهلها للبقر ، وكل هذا هذيان لا قيمة له ، وهو مما يدل على أنه لا يرى بين عبادة الله وعبادة الأوثان فرقا ، وإلا فكيف يذكر ويشنع على أهلها وهو يعلم أن المسلمين يرونها وثنية لا ريب فيها .

ثم من أين له أن الهند لم تتأخر إلا بهذا السبب ، وقد تقدمت فى سنين طويلة وهى على حالتها هذه ، بل هناك عوامل أخرى غير هذه

* * *

ثم قال « وما أبدعت أمة من الأمم إلا بقدر ما كان لديها من التأميل فى هذه الحياة ومن الدوران حولها ، وقد أبدع الاغريق والرومان والمصريون القدماء وغيرهم من الشعوب القديمة لأنهم كانوا يبالغون جدا فى حب مظاهر هذه الطبيعة حتى عبدوها وصيروها كل أملهم ورجائهم المنشود ، وهوت جميع الأمم التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد الى مالا تحس ولا تجد ولا ترى »

قلت : وهذا من جنس ما قبله فى المكابرة والفجور الظاهر ، فان الشعوب القديمة التى هوت كلها انما هوت بسبب هذا التأميل وهذا الالحاد الذى تدعو اليه كالاغريق والرومان والفراعنة الأقدمون وغيرهم ، وما ترقت الأمم التى ورثت هؤلاء وتقدمت ونالت ضخامة الشأن الا بالتدين بالأديان السماوية كبنى إسرائيل والمسيحيين والعرب ، وهؤلاء كلهم يدينون بالعبادات ويؤمنون باليوم الآخر . وهذه حقائق ظاهرة لاجدال فيها ، فما ذكرته معروف البطلان بالبداهة . هذا مع كونه يناقض دعاويك السابقة فى ذم القديم والتصريح بأن القدماء لا يبعدون جدا عن طور الحيوانية وقت نزول القرآن فكيف بما قبله ، وانهم لا يعرفون إلا الظواهر وأنهم على غاية من الجهالة والغباء ، فكيف تنسبهم الى الجهالة العظيمة والغباء وتذمهم ذلك الذم العظيم ثم تنقلب وتدعى أنهم أبدعوا فيها بسبب حب مظاهر هذه الطبيعة وعبادتها ، وهذا مع ان التاريخ مملوء بأنهم على عبادات باطلة كعبادة الأرواح والكواكب وغيرها ، وقد قررت أن الدين الباطل لا يمكن أن يتقدم أهله ، وتذكر أن هؤلاء تقدموا ، أليس هذا كله هذيانا ظاهرا . والعجب من قولك « وهوت جميع الشعوب التى انصرفت بآمالها عما ترى وتحس وتجد الى مالا تحس ولا تجد ولا ترى » أى صرفت آمالها الى الاسباب المحسوسة ، ولو قلت كفرت بالله وملائكته واليوم

الآخر لكان أروح لضميرك . وهذه الثرثرة الفارغة لا يخفى ما فيها من الكذب على عاقل ، فان الناس يعرفون أن الأمم الحية منذ خمسة آلاف سنة بل أكثر هي التي صرفت آمالها الى الأديان السماوية ما عدا ملاحدة قليلون لم يقم لهم قائمة قط ، وهؤلاء أهل الكتاب هم أرقى الأمم الموجودة فى زمانهم ، ثم جاء بعدهم الاسلام وكان أهله فى القرون المفضلة هم أعظم الناس إيمانا بالله وملئكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتقدموا على غيرهم ، وكلما ضعف هذا الأمل ضعف هذا التقدم كما هو معروف بالبراهين اليقينية . ثم ان هذا الملحد استشهد على هذا الفجور بأخبث شهادة على وجه الأرض وهى ما ذكره بقوله :

« حتى إن رجلا فيلسوفا عظيما هو الدكتور جستاف لوبون [1] لما لاحظ هذا قال فى كتابه المرسوم بالآراء والمعتقدات « إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر » لانه — على ما زعم — قد وقف بالحضارة عن التقدم والسير الى الامام ، قال « ولم تستطع الحضارة البشرية أن تخطو خطواتها الصحيحة القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الاصنام [2] » انتهى . هكذا ساق هذا الملحد

(١) غوستاف أو جستاف لوبون هذا من أخبث الملاحدة المعروفين بالمجاهرة بالالحاد وسب الأديان بل صرح بسب النبي ﷺ فسماه متهوسا حيث قال فى كتابه (حضارة العرب) : « حقا إن من عجائب التاريخ أن يلبى نداء ذلك المتهوس الشهير (يعنى النبي ﷺ) شعب جامح شديد الشكيمة الخ » فالحد يصل به إلحاده وخبثه الى هذا الحد كيف يجوز لمن يدعى الاسلام أن يصفه بالعظمة ويحتج بكلامه ويصفه بالذكاء والفطنة ونحو ذلك كما فى مقدمته ، ولكن شبيه الشيء منجذب اليه

(٢) علق هنا بأنه يبرأ من الالحاد . ومثل هذا سهل يسير على كل من فعل فعلا شنيعا وادعى أنه يبرأ منه فيقول مثل هذا القول ، فلا يعجز الزانى أن يزنى ويقول حال زناه أو بعده أنا أبرأ من الزنا ، ويسرق السارق ويقول حال سرقته أو بعدها أنا أبرأ من السرقة وهكذا ، فهل يروج مثل هذا على من له عقل أو فكر صحيح . ولكن العقل الذى يرى أن عبادة الأوثان والأصنام أولى من عبادة الله قد بلغ الغاية فى السقوط والعمى والضلال ، ومثل هذا لا يعد عقلا بمعناه الحقيق أى مطلقا

هـــذه الشهادة مستدلا بها على دعايته فى هذا الكتاب ﴿ ستكتب شهادتهم ويسألون ﴾ وهذا هو اللائق بأغلاله الخبيثة فانه لا يجد لها دليلا إلا مثل هذا الخبث المناسب لها ، وأغلاله كلها تدور على هذه النقطة الخبيثة فانه كالشرح لما ذكره جستاف لعنهما الله جميعا وحشره الله تحت قدمه . ولو أن له ادنى مسكة من عقل وحياء ودين لم يستدل عـــلى المسلمين بهذا الكفر الفظيع الساقط ، ولكن كاب جاع فانصاع الى جيفة . ومع هذا فلا حجة له فيه فان متبوعه صرح فى زيغه بأن البشرية لم تخط خطواتها القوية إلا فى عهود الوثنية وعبادة الأصنام وهذا مع كونه باطلا بالضرورة يناقض ما ادعاه فى الهند والصين وعباداتهم فانها عبادة للاصنام ووثنية ظاهرة ، ولكن الذى أعجبه هو قوله إن الايمان بالله وحده كان نكبة على البشر ولهذا ينسبه الى العظمة ، وأما سهل بن عبد الله التسترى فانه لما ذكره قال عنه « وهو أحد أصنامهم » وكذلك قدح فى السيوطى والغزالى وغيرهما وجعل جميع كتب الفقهاء ليس لها قيمة علمية ولا عقلية ولا دينية ، فهم لا عقول لهم ولا دين ولا علم . أما هذا الملحد المجاهر بالكفر فيستدل بكلامه على المسلمين ، وليس هذا بغريب فى فروخ الملاحدة ومناحيسهم فشبيه الشيء منجذب اليه ، فان هذا الزنديق لما مسخه الله باطنا خنزيرا خبيثا صار لا يعجبه ولا يغذى روحه إلا هذه الخبائث المنتنة ، فأخذ يتتبعها ويسقط عليها ، وقوله « لانه ـ على ما زعم ـ قد وقف بالحضارة » فيقال : وعلى ما زعمت أيضا فانك ادعيت كدعواه بل أخبث ، لأنه جاهر بها ولم يخلطها بزندقة ، واما أنت فزدت عليه بالنفاق وقلب أصول الدين إلى أصول الالحاد ، وإلا فهو مقر بان القرآن لا يتفق مع دعايته أبدا . ثم ما هو الداعى للاستدلال بقوله وعدم الرد عليه ، وقد قلت فى صراعك ص ٢٧ « والسكوت على الخطأ ليس مما يعذر عليه وليس مما يهون أمره عند الله وعند المتقين » الى قولك « والمسلم والعاقل لا يقولان أقوالا تضطرهما الى التأويل والتمحل » فأين العقل ودين الاسلام إذن ، وكون الانسان يستدل بالكفر ويقرره ويدعو اليه ويدعى

البراءة منه من المضحكات والتلاعب الواضح ، فهذا الذى ادعاه متبوعك هذا الذى تنصره ، ولهذا قلت فى الخطب انها إحدى النكبات لأنها مظهر من مظاهر الايمان بالله وحده . وكذلك قد زعم المشركون بأن الايمان بالله وحده يقف بالحضارة كما أسلفنا تقريره فى قوله تعالى عنهم ﴿ان نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا ﴾ ومعلوم أنه دعاهم الى الايمان بالله وحده كما قال تعالى ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ وقال تعالى حاكيا عن المشركين ﴿ أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب ﴾ فهذه طريقة الملاحدة والمشركين فى الايمان بالله وحده ، وقد كان معلوما أن الله سبحانه نصر عليهم المؤمنين به وحده ، ولأنه لا يمكن بحال أن يستولى الملاحدة على المؤمنين المخلصين له . ولما كان قول هذا الملحد جستاف فى عبادة الأصنام فيه ما فيه عند هذا الملحد ، لأن أهم عبادة الأصنام عنده هى مظاهر الطبيعة ، أخذ يحرف كلام إمامه وسيده ويحمله مالا يحتمله بأن المراد من عبادة الأصنام هى عبادة الطبيعة ، وهذا كذب ظاهر يكذبه التاريخ والدلائل التى لا تحصى ، فانهم كانوا يعبدون الكواكب والأرواح وكثيراً من الاوثان والأصنام المتعددة ، وماكان ينبغى له أن يجترىء على إمامه فيتصرف فى كلامه بخلاف نصه وظاهره ، فلن هذا خيانة وتمرد ولكنه مبتلى بالخيانه فى كل شيء ومع كل أحد ، فقال : « وهو طبعا يريد بعهود الوثنية تلك العهود التى سادت فيها عبادة الطبيعة ومجاليها الجميلة كالذى كان يصنعه اليونان والرومان والهنود والمصريون ، ويعنى بعهود التوحيد والايمان ـ التى زعم أنها وقفت بالانسانية ـ تلك العهود التى أعلن فيها بالدعوة الى عبادة الله وحده والى العمل للآخرة وحدها والتأميل فيها دون الدنيا كعهود بنى اسرائيل وأسباطهم وعهود الكنيسة فى القرون الوسطى بالنسبة للمسيحيين

وعهود الغزالى والشعرانى وغيرهما وعهود شيوخ الطريق بالنسبة للمسلمين [1] فان هذه العهود ـ على حسب ما رأى وقال ـ كانت نكبة على البشر أجمع لانها لم تستطع أن تصنع لهم شيئا سوى التأميل فى الآخرة ، أما تلك العهود الوثنية فانها كما يرى ويقول ناهضة على حب ما فى هذا الوجود الى حد العبادة فاستطاعت ـ يدفعها هذا الحب وهذه العبادة ـ أن تصنع اساس هذه الحياة [2] التى يتمتع بها انسان هذا العصر السعيد فكأنها قضية مفروغ منها ، تلك هى أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها »

قلت : فلينظر الانسان العاقل الى ما فى هذا الكلام من الفجور والكفر والمكابرة الظاهرة والغش والخلط الفاحش ، وانظر كيف جعل العهود التى أعلن فيها الدعوة الى عبادة الله وحده هى عهود الغزالى والشعرانى وشيوخ الطريق ، وأبسط انسان من المسلمين فضلا عن غيره يعلم أن إعلان الدعوة الى عبادة الله وحده هى بالنسبة الى المسلمين من ظهر وفجر النبوة على يد نبينا محمد ﷺ وأصحابه ، وقد سادوا ونشروا عناصر الحضارة كلها وقطعوا دابر الذين وقفوا بالانسانيه عن التقدم ، أما فى وقت الغزالى فقد سادت عبادة الطبيعة ومظاهرها وتدهور المسلمون بسبب ذلك الى اليوم ، وهكذا عهود بنى

---

(١) ان الذى يقرن بين وثنية الاغريق والرومان والمصريين القدماء وبين تقدمهم ويقرن بين الاسلام وتأخر المسلمين الآن انما هو كذلك الطفل الذى رأى بقرة بيضاء تحلب فظن أن بياض لبنها من بياض جلدها (غ) . اه حاشية من الشواهد

(٢) لاحظ قوله فى ما مضى انهم لا يبعدون عن طور الحيوان وأنهم كالأطفال ، وهنا يدعى أنهم هم الذين وضعوا أساس هذه الحياة ، أما بنو إسرائيل والمسيحيون وأهل الاسلام فانهم كانوا نكبة على البشر لأنهم من المتدينين الذين لم يهبوا الحياة شيئا جديدا

إسرائيل فان موسى وغيره من أنبياء بنى إسرائيل أعلنوا الدعوة الى عبادة الله وحده وسادوا بذلك أهل زمانهم واستولوا على من عبد الأوثان والأصنام ، فلما ضعف فيهم الإيمان بالله وحده وعبدوا الأوثان والأصنام تدهوروا حتى دخل كثير منهم فى الديانة الاسلامية واقتبسوا من نورها فتقدموا وانشأوا روح هذه الحضارة على هذا النور السماوى ، وهذا أمر ظاهر جلى ، وقد تقدم كلامه بأن الإغريق والرومان ونحوهم من الدول المنكمشة التى ذهبت فى غيرها فكيف يحتج بأفعالها القديمة التى ذهبت فى طوفان الأديان السماوية . ومن أعجب العجب أنه يقرر كلام هذا الخبيث تقريرا صريحا لا شك فيه حتى ختمه بقوله « تلك هى أن الأمم المتدينة عاجزة عن الصعود بالحياة وبنفسها » هكذا قال ثم يخالجه الرعب والخوف فى تقريره فيقول « على حسب ما رأى وقال » وهذا عين التلاعب ، ولكنه علم أنه يوجد من قد ختم على قلوبهم يقنعهم مثل هذا الخداع البسيط فلا مانع من الاتيان به ليكون عذرا له عندهم ان احتاج الى ذلك

* * *

ثم قال « ومن الملاحظات الفردية فى هذه القضية أن الآحاد الذين نراهم ينجحون فى التجارة أو الصناعة أو العلوم أو غيرها من الجوانب الانسانية هم دائما من غير الأتقياء الورعين[1] وأنه لا يقدر على المنافسة القاصمة إلا أولئك الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم »

فيقال : هذا ليس بصحيح على هذا الاطلاق ، بل يوجد فى الاتقياء والمتدينين من هم أعظم فى المنافسة القاصمة الصحيحة من أولئك ، وهؤلاء

---

(١) كان المناسب أن يقول « من غير المتدينين » لأن الكلام فيهم ، فانهم هم الذين تركوا الأوامر الدينية وراء ظهورهم

أكثر من أن يحصى عددهم فى كل زمان ومكان ، بل لا يوجد فى هذه الامور من له ذكـــر حسن وأثر كبير عظيم إلا وهو من المتدينين الذين لم يتركوا الأوامر الدينية وراء ظهورهم . ثم لو فرض وجود هـذا فليس من الحجة فى شيء ، فان هـذه حجة فرعون بعينها فى قوله تعـالى عنه ﴿ ونادى فرعون فى قومه فقال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى أفـــلا تبصرون ، أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ، فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملئكة مقترنين (١) فاستخف قومه فأطاعوه انهم كانوا قوما فاسقين ، فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين ، فجعلناهم سلفا ومثلا للآخرين ﴾ وهى حجة جميع الـكفار المعادين للرسل كما قال تعـــالى ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنو أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ﴾ وقال تعالى فى قصة نوح ﴿ قال المـلأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذ لنا بادى الرأى — الى قوله — ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين ﴾ وقال عن كفار قريش ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجـلا مسحورا ﴾ الى أمثـال ذلك من النصوص الـكثيرة الدالة عـلى أن الـكفار دائما يحتجون

---

(١) احتج عليه بعدم وجود المال والجاه ، فالاسورة تدل على الثراء والتجارة ، والملئكة على الجاه ، وهذه هى أكبر حجة عند هذا الملحد القصيمى فانه دائما يحتج بقلة المال والجاه ، فاذا كانت هى بعينها حجة فرعون ، وانه استخف قومه بها فأى قيمة لهذا الاحتجاج القديم الباطل الذى لا ينخدع به غير الأطفال والأغبياء وأهل القلوب المظلمة

بالمظاهر الدنيوية على أن الحق فيها ، ولا ينظرون الى الحقيقة ، فيردون الحق بقلة أهله أو ضعفهم ويقبلون الباطل لكثرة أهله وقوتهم ، هذا مع أن الله سبحانه قد أعطى كثيرا منهم من سعة الملك والتقدم فى الحياة والعلم كما أعطى سليمان وابنه وذا القرنين وطالوت وغيرهم ، وكثير من هذه الامة قد أعطى من الملك والتجارة وسعة الرزق مالا يحصى مع تقواهم وتمسكهم بالدين ، فهؤلاء الخلفاء الاربعة ومعاوية وعمر بن عبدالعزيز وهرون الرشيد والمتوكل والسلطان محمود بن سبكتكين ونور الدين الشهيد وصلاح الدين الأيوبى وملوك آل سعود وأمثال هؤلاء كلهم من الأتقياء وقد أعطاهم الله الملك والتقدم الباهر وقد قدروا على منافسة الكفرة فى زمانهم ، بل ليس فى ملوك المسلمين أو خلفائهم البارزين الذين نفعوا الاسلام ملحد معروف قد ترك الأوامر الدينية وراءه [1] غاية مافى ذلك أن يكون فيهم من هو عاص والعاصى لا يخرج عن ان يكون متدينا . ثم ان أكثر الحكومات الساذجة الوحشية التى لا حظ لها غير الشقاء والفقر والبؤس إنما تكون ملحدة لا تكون متدينة ، فهذه الأمم الموجودة فى بعض أنحاء افريقيا وغيرها من الأمم الوحشية كلها لا تعرف الأديان ، وإلا فلو عرفتها لكانت كغيرها من الأمم الراقية الحية ، فمن المحال أن تجتمع الهمجية الوحشية والجهل وضعف العقل مع تعاليم الاديان السماوية ، وهذا أمر ظاهر لا يستريب فيه إلا جاهل أو معاند أو مغرور

* * *

ثم قال « حتى إننا إذا حاولنا أن نلتمس فى تاريخنا نفسه مكان أولئك الأفذاذ القلائل الذين لمعوا فى سماء الشعر والأدب الخالد ، أو قاموا بنظريات

---

(١) وقد علم أن العبيديين من أخبث الملوك وأهل السلطة وهم أشد الناس تأخرا وما نفعوا الاسلام بشىء كبنى بويه وأمثالهم

علمية لها بقاء وخلود ، أو جاءوا بفلسفة ذات شأن معترف به بين الفلاسفة لم نجدهم إلا بين أولئك الذين وصفوا بالتمرد والانحلال الدينى أمثال المتنبي وأبي العلاء وابن الرومى والجاحظ وابن سينا والرازى والفارابى وابن رشد وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم وسواهم »

قلت : هذا مقدار عقل هذا البجباج النفاج ، بعد أن كان يمدح الخلفاء الراشدين والصحابة والأئمة وأهل القرون المفضلة ويثنى على مثل ابن تيمية وابن القيم وغيرهما ذلك اثناء العظيم حتى قال فى نبذته (الثورة الوهابية) ص ٧١ : وابن تيمية وابن القيم لو ادعى مدع بأنه لم يأت فى القرون الوسطى كلها من يشبههما فى الذكاء وغزارة العلم والصلاح والغيرة على الدين والفضيلة - لما وجد من يقول له ظلمت الحقيقة وافتريت الكذب ، إلا أن يكون ذا ضغن على الرجلين أو جهل بهما » انتهى ، ثم بعد هذا وأمثاله كثير ارتد على عقبه فأخذ يثنى على مثل الفارابى وابن الرومى والحسن بن الهيثم وأضرابهم ثم يمدحهم بأنهم كانوا متمردين موصوفين بالانحلال الدينى ، وهذا لو ثبت لكان من أعظم الخزى عليه ، فإن هؤلاء ليس لهم ذكريات حسنة فى نصر الملة والقيام فى الأمور الاسلامية العظام أبدا ، بل غاية ما فى بعض هؤلاء شيء من الشعر الذى فيه ما فيه وقد شاركهم من هو أفضل منهم فى ذلك ويوجد لهم أيضا بعض اشياء من الفلسفة المنسوخة الممسوخة القديمة ، فأى فضيلة لهؤلاء ، هذا لو قدر أن ما ادعاه صحيح . وإلا فكثير من هؤلاء لم يكونوا معروفين بالانحلال من الدين كالجاحظ والحسن بن الهيثم والرازى وابن رشد ، ثم هم مع هـــذا فى أكثر كلامهم معظمون للسلف مقرّون لهم بالسبق فى كل فضيلة ، وهذه كتب الجاحظ مملوءة بمدح الخلفاء ثم أهل البيت والثناء عليهم بالتقوى والورع وكانوا من أشد الناس فى الحط على الانسان الذى يكون متطرفا فى دينه ولا يوجد لهم كلام فى الثناء على رفض الدين بالكلية ، وأكثر المحامين عن

هؤلاء لا يرضون بنسبتهم الى الالحاد بل يدافعون عنهم لأن ذلك من أعظم العيوب التى سقط بها الانسان سقوطا كايسا ، ولم نعلم أحدا مدح الإلحاد قبل هذا الزنديق ، ولعله إنمـــا ارتد واعتنق النفاق والإلحاد ليكون مثل هؤلاء وأمثالهم ليكون قرا لامعا فى سماء الادب الخالد وكالشمس التى فى غير برجها كما يقول فاقتدى بهؤلاء فى هذه العملية التى ادعاها . ويحكى أن قردا رأى رجلا يشق خشبة فأعجبه ذلك جدا ، فذهب الرجل وترك الخشبة بحالها وجعل مكان المنشار عودا ليعود اليها فيكمـل عمله فلما ذهب جاء القرد ليفعل فعـله فركب فوق الخشبة وادخل المنشار فيها ونزع ذلك العود الذى كان فى الشق وكان ذنب القرد قد سقط فى الشق فأطبقت عليه الخشبة وعصرته حـــتى ذهب شعوره. واشتغل بنفسه عن العمل فجـاءه صاحب الخشبة فجعـل يضربه بالسوط وهو مشدود ذنبه بالخشبة حتى غشى عليه فلم يسلم ولم يحصل على ما أعجبه وعشقه (١) وهكذا كان حال هذا المغرور

ثم ذكر أن بعض هذه الدول الاسلامية المتأخرة تولى الوزارة والسفارة ونحوها غير المتدينين ، وهذا مجاهرة بالفجور وقدح ظاهر فيهم ، بل هى تختار من فيه صلاحية وكفاءة للمهمة التى تقصدها ولا يلزم من ذلك أن تختار الأتقى بل تختار من له عقل ودين ومعرفة وهو متدين ، ولا نعلم أمـة لا ترسل إلا ملحدا وهى مسلمة أو تختار الملحد على غيره ، اللهم إلا أن تكون تلك الأمة تنسب نفسها الى الاسلام وليس لها حظ منه . ثم لو قدر أنهـا قد تختار من فيه نوع انحراف للحاجـــة اليه فماذا حصلت عليه وماذا وصلت اليه وماذا كانت عاقبتها فليس فى مثل هذا حجة أصلا بل هو قدح صريح فى المسلمين

ثم ذكر أن عمر قال : لو ددت أنى وجدت رجلا تقيا قويا مسلما أستعمله .

---

(١) راجع كتاب كليلة دمنة

وقال مرة أخرى حينما حار بين الأتقياء والأقوياء : اشكو إلى الله جلد الفاجر وعجز الورع

فيقال : هذا إن سلم فهو حجة عليك ، فانه يدل على فضيلة التقوى والورع وأن أهلها أولى بالولاية عند القدرة عليه ، وهذا شان كل نفيس فانه يندر وجوده ، واذا وجد فانه هو الذى ينفع ، وإلا فبحسب ما يوجد ممن فيه مزية من هذه الخصال ، وقد وجد عمر رضى الله عنه كثيرين اتقياء أقوياء مسلمين فولاهم فحصل النجاح الكامل ، فانه ولى سعد بن أبى وقاص . وكان أحد العشرة المشهود لهم بالجنة فولاه قيادة الجيش الذى اكتسح الفرس ، ولهذا نجح هذا الجيش نجاحا يعد معجزة ، فانه هدّ صرح هذه الدولة الكبيرة فى أيام معدودات ، لأنه هو وقادته كانوا أتقياء ورئيسهم سعد بن أبى وقاص هذا التقى الولى والخليفة عمر ، فلما كانت التقوى منتظمة فى هذا الجيش حصل النصر الباهر الذى لم يسبق له نظير وهو من اظهر الدلائل على أن الولاة الأتقياء الأقوياء هم الذين ينفعون وهم الذين تحصل بهم المطالب غالبا ، بخلاف الملاحدة والمنحرفين فانهم على خلاف ذلك ، ولهذا أثبت التاريخ العام بأن القواد الذين خانوا أمتهم وقومهم ودمروا أنفسهم وأوطانهم كلهم من أولئك المنحرفين ، لأنهم لضعف الدين فى قلوبهم واعتمادهم على الأسباب المادية وحبهم للحياة الدنيا يقبلون الرشوة ويحصل بهم من الفساد أضعاف أضعاف ما يحصل بهم من الصلاح ، وأكثر ما ينفع هؤلاء اذا كانوا فى أمم مثلهم يدفعون الى أعمالهم دفعا اضطراريا عالمين ان وراءهم عقوبات قاسية صارمة لا هوادة فيها ، ومن هذه حاله فليس هو كمن تدفعه حرارة الإيمان وما فيه من حب الله ودينه وخوفه ورجائه

وكذلك قول عمر « أشكو الى الله جلد الفاجر وعجز الورع » فانه يدل على أن ذلك مصيبة ، فان جلد الفاجر لا خير فيه إلا القليل فى بعض الظروف

النادرة وإلا فهو ضرر ، وان عجز الورع اذا وقع فلا ينبغى بل المطلوب الورع مع القوة ، وهذا لا يوجد إلا فى التمسك بالكتاب العزيز والأخذ بالأخلاق السلفية ، وليس الكلام فى قلته وكثرته إنما الكلام فى أنه هو النافع كما يدل عليه كلام عمر رضى الله عنه

ثم قال « وحتى لو أردنا أن نطبع هذا الكتاب لم نجد بدا من الذهاب إلى غير الأتقياء ليقوموا لنا بهذه الأمور »

فيقال : هذه أصدق كلمة قلتها فى أغلالك كلها ، فانك إذا أردت أن تطبع هذا الكفر والنفاق والزندقة والالحاد لا تجد ذلك إلا عند غير الأتقياء المتدينين ، إذ من غير الممكن أن يتفق الإيمان فى قلب إنسان والإعانة على إظهار الكفر وسب الله تعالى وأديانه وأهلها ، فلا يطبع هذا الكتاب إلا من طبع الله على قلبه فكان من الغافلين ، وإلا فالمؤمن يأبى طبعه أن يطبعه ، ولهذا لما عرضته على الاستاذ محب الدين الخطيب أبى أن يطبعه على هذه الصورة ، ثم ندمت ندامة الكسعى وأكلت أناملك حسرة أن لو قبلت نصيحته . فما ادعيته هنا شهادة منك على أن هذا الكتاب لا يوافق عليه إلا من ترك أوامر الدين وراءه وأن الذى طبعه غير تقى بل منحرف عن الدين(١) وهذا شأنك فى كل من كان له أى علاقة بك لا بد أن تذمه وتقدح فيه فى نفس الأمر ، ولهذا فانك مدحت هؤلاء الذين طبعوا كتابك بكونهم منحرفين عن الدين تاركين أوامره وراءهم ، أما لو كان كتابا دينيا فما أسرع طبعه وإخراجه على أكمل الوجوه كما طبعت الكتب الدينية التى لا يحصيها إلا الله وكما طبعت نبذك السابقة على ما فيها من سذاجة وهذيان بدون أدنى تكلف منك لها

---

(١) لأنه ذكر فى الجملة السابقة فى مقابلة الاتقياء : الذين تركوا الأوامر الدينية وراءهم

ثم قال « ثم إنه قد علم بالتجربة أن المتدينين يفقدون الميزان الفكرى الذى توزن به الأمور فى الغالب ، ويصبحون من الناحية النفسية أناسا طيبين خيرين ، فاقدين لكل مناعة عقلية ، مستعدين استعدادا غريبا للوقوع فى حبائل المشعوذين والدعاة المضللين ، عمين عن كل الحقائق التى يراها ويستفيد منها الآخرون ، ويرتفع لديهم سعر التهريج والدجل ارتفاعا عجيبا ، وتنفق بينهم سوقه ، وتنبت أرضهم الدعاة الكثيرين دينيين وغير دينيين ، ويصبحون لكل ناعق ، ويهبون بسخاء نادر جيوبهم وقلوبهم وعقائدهم لكل سائل ، لأنهم بعد أن عزلوا العقل وتنازلوا عن تحكيمه عجزوا عن أن يعرفوا الحق من الباطل ، والصادق من الكاذب ، والقائد من الصائد ، فصدقوا المستحيلات والمناقضات ، وآمنوا بأشنع الترهات ، لأن العاصم من ذلك وهو العقل قد أبعد وعزل »

فيقال فى جوابه : وهذه أيضا دعوى عدو على عدوه بدون حجة فتقابل بالمنع والرد ، لأن حقيقتها هراء نشأ عن عداوة ومقت وحقد وحسد كامن

تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

ولا شك أن هذا الزنديق ما ألف هذه الأغلال المملوءة بالخبائث والجنون والخبال إلا لأنه تصور المسلمين فى ضعف العقل بهذه المنزلة التى ادعاها ، فلهذا طلب منهم التقديم فى كل أمر ، وأن يفردوه بالرغبة والرهبة ، وأنهم لا يبصرون طريق العقل إلا بكتابه ، وأنه لا يستغنى عنه أحد منهم ، ولكن .. ولكن المنافقين لا يعلمون . فلقد عرف نتيجة ما يتمعاه فى رسالة السراب فليقرأها وما احسن ما قيل فى مثله :

رأى خيار الورى طرا فجانبهم	كذا يجانب أرباب العلى السفل
وصار يرميهمُ منه بكل هجا	وما على البدر لو أزرى به طفل
وما على العنبر الفواح من حرج	إن مات من شمه الزبال والجعل
أو هل على الأسد الكرار من ضرر	أن ينهق العير مربوطا أو البغل

أوهل على الأنجم الخضراء منقصة   أن عابها من حصى الغبراء منجدل
فلا وربك لا يزرى بشمس ضحى   أعابها الجدى أم قد عابها الحمل
وقد يعيب الفتى ما ليس يدركه   إذ كل ضد بذم الضد مشتغل
كما تعيب فتاة راق منظرها   قبيحة ، ويعيب الصائب الخطل
والزنج يحسد لؤما حرص سمهره   كذاك يهجو الشجاع الباسل الفشل
فلا يضر أولى الفضل الألى سبقوا   من كل أهل العلى ، ان ذمهم سفل
مثل الأسنة والاسياف ما برحت   بطعن أعدائها والضرب تنصقل

فدعواه عليهم أنهم عزلوا العقل يقال : نعم هم عزلوا عقلك وعقل كل زنديق (١) لأنها عقول خبيثة قد حكم الله على أهلها بأنهم لا يعقلون ، وأنهم لا يعلمون ، وأنهم كالانعام ، فكيف يتابعونهم على هذه العقول المعكوسة ، ولكنهم لم يعزلوا العقل الصحيح المطابق للفطرة والدين القيم فهم أعظم الخلق عقولا ، لأن عقولهم نفعتهم فى الحياة الدنيا وأسعدتهم فى الآخرة بخلاف العقول التى قصاراها أن تنفع صاحبها نفعا معيشيا منكدا كما تنتفع البهائم بمعرفتها فى طرق معيشتها ، فكم من بهيمة عاشت طوال حياتها فى رغد العيش والسمن والراحة كما قال تعالى ﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾ فالعقل الذى غايته أن يوصل صاحبه الى رتبة البهائم فأى فائدة فيه ، فكيف اذا أوصل صاحبه الى الخسارة السرمدية

وأما دعواه بأن ارضهم تنبت الكثيرين من متدينين وغير متدينين الى

---

(١) فى محاربة الأديان ومضادة الشرع ، أما ما يتعلق بالدنيا فهم يرون أن الحق فيه مقبول من كل من جاء به ، كما فى الحديث « الحق ضالة المؤمن اينما وجده أخذه » وقال بعض السلف « اقبل الحق ولو من كافر » قيل وكيف نعرف أنه حق ، قال « ان للحق نورا يعرف به » أو كما قال

آخره ، يقال : هذا لا يوجد غالبا إلا فى البدع المخرجة عن الملة ممن أصيب أهلها بمرض الالحاد أو النفاق أو الزندقة كالجهمية والرافضة ، أما المتدينون الصادقون فلا يوجد هذا فيهم ، فاذا كان هذا لا يوجد الا عند بعض المبتدعة المنافقين فلا شك أن أرض الملاحدة تنبت الدعاة الخبثاء كالزنادقة والمنافقين وأهل الغش والخبث والقيادة والديانة والزنا واللواط وجميع الفواحش المنكرة كما تنبت السراق واللصوص وأهل الخيانات كلها على اختلاف ضروبها ، لان العاصم من ذلك هو الدين ، وقد رفض وترك ، فوقع ما يناقض تعاليمه من أخلاق الخبث ، ولا سيما وهذا الملحد نفسه قد اعترف فيما سبق بأن الانسان مطبوع على الخبث والشر والظلم والعدوان ، وان المجرد من كل دين ينشأ على هذه الأمور ، فصار الملحد منسلخا من الدين والعقل جميعا ، لأن الدين هو مادة كل الأخلاق الطيبة الصحيحة التى هى مادة تقوية العقل وصحته وثباته ، فمتى صح صحت نتائجه . ودعواه بأنهم صدقوا بالمستحيلات والمتناقضات ، يقال : ما هى هذه المستحيلات والمتناقضات . لابد من بيانها . بل الحق الذى لا شك فيه أن هذا الوصف إنما ينطبق على الملاحدة والمنافقين ، وعلى من اغتر بكلامك وصدق بمخادعاتك وأفكارك هذه وما تضمنته من المستحيلات حيث ادعيت أنه من الحقائق الازلية لا تأخذ به أمة إلا نهضت ولا تتركه أمة إلا هوت ولا يوجد مسلم واحد يستغنى عنه ، وأن البروق والرعود والقواصف تراض كما تراض الوحوش العاتية ، وأنك تعرف رجلا على غاية من الجهل والغباء والسفه والقحه كانت تتركز فيه قوة سحرية لا يستطيع أن ينجو منها إنسان يبتلى بالجلوس بين يديه ، وأنه يتصرف فيمن حوله من البشر كأنهم القطعان أو كأنهم مخلوقات خلقهم هو وصاغهم فى القالب الذى يريد وفى المعنى الذى يبلغ منه بلا عسر كل ما يريد كل ذلك بنظراته وأسراره الى آخر تلك الترهات والهذيان الذى لا يتكلم به إلا من انسلخ من الدين والعقل ، لا شك أن الذى يصدق بهذيانك هذا وغيره مما تضمنته أغلالك هو الذى يصدق

بالمستحيلات والمتناقضات ، وكل ما تتصوره من المستحيلات فى الأمور الدينية التى صحت فى النصوص يكفى المتدين أن يقول لك ليس كل ما استحال وقوعه فى عقل بعض الناس يكون مستحيل الوقوع فى نفس الأمر ، فان ثبوت صدق الرسول يوجب ثبوت وجود كل ما أخبر به عن الله تعالى وأمر باعتقاده . ونحن نعلم أن كثيرا من هذه الأمور الصناعية المشاهدة الآن لو أن انسانا أخبر بوقوعها على هذا الصفة الواقعة لكذبه أكثر الناس ولعدوا وقوع ما أخبر به مستحيلا إن لم يعدّوا قوله نوعا من الجنون الذى يستهزأ به ويسخر منه مهما بلغ ذلك الرجل فى الصدق والأمانه ما بلغ ، فاذا كان حكم العقل فى استحالة وجود هذه الأمور خطأ لو أخبر به من علم بالصدق والأمانه من غير أن يكون نبيا فكيف بالأمور التى أخبر بها أصدق الخلق على الإطلاق بل أخبر بها عن الله وهى ليس فيها شىء يخالف صريح العقل البتة ، بل أكثرها مما دل العقل على صدقه وصحته ، ويكفينا أن كثيرا من علماء الكلام ونحوهم ممن بلغوا الغاية فى المعقولات بزعمهم وزعم أتباعهم قد أخبروا بأشياء وادعوا أن صريح العقل يقطع بعدم وقوعها ، مثل ما ذكروه فى كثير من آيات الصفات ونحوها ، وقد علم أن صريح العقل يقطع بخطأ ما ذكروه فيها ، وكما ذكر علماء الهيئة الاولون فى علمهم أشياء وادعوا أن العقل يقطع بوجودها على الصفة التى ذكروها وقد كشف المتأخرون خطأ ما قطعوا بعقولهم بالقول فيه وقطع هؤلاء ببطلان ما ذكره أولئك ، وهذا الملحد نفسه قد ذكر ما ذكر فى كتبه السابقة وادعى أن ما ذكره هو مقتضى العقل الذى لا ريب فيه ، ويكفيك شاهدا على هذا ما نقلناه عنه فى التطور فى إنكاره أولا انكارا باتا ثم إقراره به أخيرا وإنكار إنكاره إنكارا باتا . ثم إنا نجد هؤلاء الزنادقة من أشد الناس تسرعا الى التصديق بكل ما يقال ويسمع عن متبوعيهم ورؤسائهم وإن كان ذلك فى غاية الاستحالة ويعدون من اعترض عليهم بليدا غبيا ، ولكنهم من الجهة الأخرى يعدون الذى يصدق بكل ما يقوله الرسول تصديقا مطلقا رجعيا وان لم يفهموا معناه ، بل يتصورون شيئا فى معنى النص ثم يجزمون به

ثم يكذبون من يصدق به ويستضعفون رأية لظلمة قلوبهم وفســـاد أذهانهم لأنهم لم يفرحوا به ويصدقوا به ويطلبوا الهدى منه ، ولا يمكن للانسان أن ينتفع بالنصوص الدينية انتفاعا صحيحا حتى يصدق بها تصديقا كاملا لا يخالجه أدنى شك ، ثم يستعمل جهده فى معرفة المعنى ويسأل الله بجهد واجتهاد أن يعينه وأن ينفعه به فمتى فعل ذلك فلا بد أنه يستنير ذهنه ويعلم حقيقة العلم أن النصوص هى على ظاهرها وأن معانيها فى غاية المطابقة للحقيقة ، وأنه لا يمكن أن يرد عليها شيء أبدا ، بل كل ما ورد عليها فهى شبه فاســـدة بلا ريب . ولـكن هؤلاء انما يستفيدون من النصوص عند الضرورات وعند الحاجة اليها لمقتضى تنفيذ أغراضهم ، لا إلى ابتغاء الحق والعمل به فى نفس الأمر ، فلهـذا كان النص الشرعى عليهم عمى وفى آذانهم عنه وقر أولئك ينادون من مكان بعيد

وليس هذا الملحد ببدع فى إخوانه الزنادقة والمنافقين فى كراهية المتدينين والسخرية والاستهزاء بهم ، فان هذه الأخلاق الخبيثة ملازمة لهم فى كل زمان ومكان ، وفى القرآن من الأدلة ما فيه كـفاية كما أسلفناه ، ويكفى فى ذلك قوله تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفـكون ﴾ ولقد أصبح من المعتـاد الجارى على ألسنة هؤلاء المنافقين المارقين أنهم يرون ويعتقدون أن المتدين وبخاصة من يميل الى الصلاح والتقوى ناقص الفـكر ضعيف العقـــل قريب الرأى ، ليس له معرفة بالدهاء والسياسة والحيلة وبعـــد الرأى ، بل انهم هم المنفردون بذلك ، هكذا حكموا لأنفسهم بهذه القسمة الضيزى ، ولهـذا نجدهم ولا سيما إذا خلا بعضهم الى بعض دائما يبغون الفتنة فيهم ، ويحاولون بـكل ما لديهم من بغى وغواية أن لو قضى عليهم قضاء تاما واستراحوا من رؤيتهم أمامهم وبين أعينهم ، وتجدهم متى خـــلا بعضهم الى بعض شرعوا فى أكل لحومهم والتنقيب عن عيوبهم ، فاذا ما حضر المتخلق بالدين عندهم ينظرون

اليه نظر المغشى عليه من الموت وضاقوا به ذرعا حتى يفارقهم أو يفارقوه

وأرحم أقواما من الغى والغبا وأعذر فى بغضى لأنهم ضد

ولما كانت هذه حالة المنافقين وأنها هى أسفل سافل فى كل غى وسقوط حكم الله عليهم بالذل فى كل مكان وزمان ، كما قال تعالى ﴿ ملعونين أينما ثقفوا ﴾ ولهذا كان من الجائز أن يتقدم الكافر الصريح برهة وزمنا ، بخلاف المنافق فانه لا يمكن بحال أن يتقدم ، بل لا بد أن يضرب بالذل والمسكنة ، ولا ندرى من أين وجد هؤلاء الخبثاء أن حملة الشريعة المطهرة وورثة الأنبياء هم فاقدو الميزان الفكرى وأنهم عزلوا العقل وأنهم كانوا عمين عن كل الحقائق ، وأنهم بالتمرد عن الدين هم الدهاة العقلاء العارفون ، قبح الله تلك الوجوه ولطمها وضرب عليها الذل والشقاء والبلاء لأنها أهل لذلك

* * *

ثم قال « وقد دلتنا هذه الحرب الماضية والإشاعات التى كانت تروج وتنفق فيها على مبلغ انهيار هؤلاء من الناحية العقلية ومبلغ استعدادهم لتصديق مالا يجوز على العاقلين ، بدون مقاومة أو إباء ، وقد كنا نعجب من الإذاعات الأجنبية التى توجه اليهم ، ونتعجب من السخف والكذب الذى يجىء فيها ، ونقول : كيف يرجو هؤلاء العقلاء — إذ هم عقلاء بدون ريب (١) — أن يؤمن لهم قومنا بكل هذا أو بشىء منه ! ولكن هؤلاء المذيعين كانوا أعلم منا بأنفس قومنا وبضعف المناعة العقلية لديهم ، فان هذه الدعايات والإذاعات كانت تسمع وتصدق أيضا وكانت تنفع »

---

(١) ما هى الأسباب فى كون الأجانب عقلاء بلا ريب وأن المتدينين قد عزلوا العقل وأنهم عمون عن كل الحقائق . ما أسرعك فى إصدار الحكم لسادتك على أعدائك من أتباع الرسل

فيقال : هذا كالذى قبله هراء ليس من التحقيق فى شىء ، فهو مطالب ببيان الإشاعات التى تروج ما هى ومن هو الذى راجت عليه ، وبيان الاذاعات التى يسمعها ويصدق بها ومن هو الذى صدق بها حتى تعرف حقيقتها وحقيقة من صدق بها ، والا فالمعروف أن الإذاعات والخداع الباطل لا يصدق به إلا من ابتلوا بالنفاق وضعف الدين فى قلوبهم ، فالذين صدقوا بها فيما نعلم هم الذين صدقوك واغتروا بخداعك فى هذه الاغلال ، والذى حملك على تأليفها هو أنك رأيت هؤلاء الذين أصيبوا بفساد الذهن والعقل من الملاحدة والمنافقين ورأيت كثيرا منهم يصدقون ببعض الخداع والنفاق ، فسولت لك نفسك وشيطانك أن الناس كلهم مثل هؤلاء ، فنسجت لهم هذه الشبكة الخبيثة للوقوع فيها لما عرفت فيهم من فساد الأخلاق والخروج عن العقل والدين ، ولهذا كان أكثر من اغتر بكلامك هم أولئك النوكى والحمقى ممن عرفوا بالخبث والفواحش والغى وسقوط الأخلاق ، أما عقلاء المتدينين فلا يصدقون إلا بما قام الدليل على صدقه ، فلا يغترون بخداع ونفاق ودجل ومداجاة . ثم لو سلم ما ادعيته فلم نسبت نفسك الى المتدينين والتجأت اليهم وتضرعت اليهم وهم على هذه الحالة التى ادعيتها ، فاذن أنت منافق مذبذب بمقتضى تقريرك الساقط فيكون حجة عليك بكل حال

ثم قال « ومن أجل هذا الضعف فى المقاومة الفكرية لدينا نبغ بيننا الدعاة الكثيرون وأسرفوا من العدوان على صميم الانسانية وعلى أفضل صفات البشر ، فانك لن تلقى فى حياتك ما عشت منظرا أبشع من أن ترى الجموع من حملة الشهادات العالية فى سائر العلوم التى قاومت الجهل والسخف عند غيرنا وطاردتهما يحشدون بكل شكل يزرى بالانسان تحت ركاب رجل هو أقل منهم فى كل شىء مما يتصل بالقيم الانسانية ليسوقهم بدون وعى ولا معارضة منهم ويوجههم حيث تشاء رغباته ومطامعه ، ثم ليملى عليهم ما يشاء وما تشاء

له أنانيته وكبرياؤه وسغبه القاتل الى المجد الذى حرم آباؤه وأجداده من الفروض والواجبات والقداسات التى يفرضها لشخصه الكريم باعتباره الانسان المقدس الطاهر المعصوم الذى يجب أن يطاع طاعة عمياء ، والذى يجب أن لا يخطر على البال بالنسبة لذاته الكريمة توجيه عبارة من عبارات الاستفهام دع الاعتراض وما هو أشد منه ، فترتفع من المعاملة القائمة بين هذا الداعى الخير وبين اتباعه الخيرين كلمات « لمَ » ، « كيف » ، « من اين » ، « الى اين » . وليس لهذا الصنم الأرضى الذى ظفر من عبيده الصالحين الطيبين بكل هذه العبادة المطلقة من قوة خفية أو سحرية سوى كلمات جوفاء فوارغ مبهمة يتمتم بها ويطلقها على ضحاياه وعباده كما يفعل مخاطبو العفاريت وضاربو الرمل ومطلقو البخور »

فيقال : وهذا كالذى قبله طنين ذباب ، بل هو أشبه شيء بنبح الكلاب . وهذا الذى تدعيه هو كل ما تتمنى أن تستحصل عليه ، فما طلبت من الناس التقديم فى الأمر وأن تطلب منك الرغبة وحدك ولا يذكر فى الذكاء غيرك وأن الناس لا يبصرون طريق العقل ولا ينجون الا باتباع أفكارك الا من أجل الحصول على ذلك وهيهات

وأتعب خلق الله من زاد همه وقصر عما تشتهى النفس وجده

لقد عرف العقلاء أن اغلالك هذه هى حل اللغز الذى أشرت اليه فى قولك :

ولولا رجائى والرجاء مخادعى لعذت بشر لا يضيق به صدر

فلقد بحت بهذا الشر الذى أكل صدرك لما لم يحصل لك ما ترجوه وتتمناه كما مهدت له كتبك السابقة والله لا تخفى عليه خافية . وكان كثير من المطلعين على أحوالك العارفين باقوالك يتوقعون خروج هذا الشر الذى أشرت اليه وقد انكشف ما وراء الستار وظهر الشر المكنون ظهور النار ، وفى الحديث

« ما أسر عبد سريرة إلا أظهر الله عليه رداءها علانية » ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

ثم أى فائدة فى هذا الهراء الذى ادعيته هنا ، فمن هو هذا الانسان ومن هم أتباعه وما هى دعايته وكلماته التى ذكرت أنها جوفاء فوارغ ، وحيث انك لم تذكر شيئا من ذلك فلا حاجة الى تطويل الجواب عنه بل نكتفى بما أشرنا اليه فى رده وبالمطالبة ببيان هذه الامور المبهمة ، وكل عاقل يعرف أن أكثر ما يوجد هذا الذى ادعاه على هذه الصفة التى ذكرها فى الملاحدة وأشباههم من الزنادقة الاتحادية ونحوهم ، فان هؤلاء إن كانوا ملاحدة فهم يسوقون عمالهم وأكثر أتباعهم سوقا عنيفا الى رغباتهم وتنفيذ أغراضهم ، وان كانوا زنادقة فكثير منهم إنما يفعل ذلك لأنه يرى أن طاعة متبوعه أمر محتوم عليه كما يوجد ذلك فى أصناف الاتحادية بل وكثير من الشعوب الملحدة وهذا الملحد نفسه إنما يدعو الى تقليد هؤلاء وأتباعهم واقتفاء آثارهم ، فما ذكره فهو حجة عليه

* * *

ثم قال « وليست روح التسليم العقلى عند المتدينين بجديدة ، بل هى ملازمة لهم منذ وجدوا وكيف وجدوا ، حتى لقد وجد الأدباء والشعراء والمتهكمون فى ذلك مجالا لا بأس به للسخرية ، فأرسلوها عليهم لاذعة قاسية [1] ! وقد طار فى كل المحافل قول شيخ هؤلاء المتهمكين الساخرين ـ وهو ابو العلاء ، وقد قسا كثيرا ـ :

اثنان أهل الأرض ذو عقل بلا دين وآخر دين لا عقل له

* * *

(١) لكن نسبت نفسك اليهم اضطرارا على رغم أنفك ، فكيف تنعتهم وتنسى أنك منهم . مسكين والله مسكين

مالى أرى كل الأنام لجهلهم بالدين أشباه النعام أو النعم
ولو قال ذئب غضا بعثت بملة من عند ربى قال بعضهم نعم »

فيقال لهذا الزنديق : لو زدت على استشهادك بقول المعرى هـذا أقوال المنافقين الذين كانوا يسخرون من الذين آمنوا من الصحابة وأفعال الكافرين أعداء الرسل كلهم من أولهم الى آخرهم لكان أكمل من اقتصارك عـلى قول المعرى لانه متناقض ومنتسب الى المتدينين ومدحه لهم أكثر من ذمه ، ومن استدل بقول أبي العلاء هذا على نقص عقول المتدينين فالأولى له أن يعالج عقله ، فان استشهاده برهان على فساد عقله ، ويجب عليه أيضا أن يحرم اللحم ولا يأكله ولا يذبح حيوانا لأن عقل المعرى الذى جعله برهانا له هو العقـل الذى به حرم ذبح الحيوان وأكله ، بل اتباعه على هذا أولى لانه لم يتناقض فى هذا الرأى بخلاف ذلك ، فالله تعالى ورسوله والمؤمنون هم أعداء الملاحـدة والمنافقين منذ وجـدوا وكيف وجدوا ، قال تعالى ﴿ يا أيهـا الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أوليـــاء تلقون اليهم بالمودة ـ الى قوله ـ إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون ﴾ وقال تعالى ﴿ هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ وقال تعالى ﴿ ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون ﴾ وقال تعالى ﴿ زين للذين كفروا الحيـاة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا ﴾ وقال تعالى ﴿ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنـون وتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ وقال تعالى ﴿ ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون ﴾ الى غير ذلك من الآيات . وهكذا كان أتباع الرسل مع أعدائهم تارة يسخرون منهم وتارة ينسبونهم الى ضعف العقل والى عدم الرأى ، فانهم لما عميت بصائرهم فلم يفهموا الدين ولم يعرفوا حقيقته ولم يدخل نوره قلوبهم ظنوا أن أهله ليسوا على شيء وأنه ليس بشيء كبير معتبر

لان همتهم صارت مصروفة الى الأسباب الطبيعية المشاهدة فاعتمدوها وتعلقوا عليها وكفروا بما وراءها وحكموا على من خالفهم بضعف العقل مـــع أنهم يعبدون أوثانا وأصناما وكفارا منافقين من البشر وينقادون لهم انقيادا أعمى فانهم استكبروا عن عبـادة الله وطاعته فابتلوا بعبادة الخبثاء وطاعتهم وذلهم تحت أقدامهم

ويقال أيضا لهذا الملحد : اذا كانت هذه حالة المتدينين على ما وصف أبو العلاء المعرى فلـمَ انتسبتَ اليهم وخادعت وراوغت وتنصلت مما ادعيته فيهم (عار عليك إذا فعلت عظيم) وممـــا يعزى الى المعرى هذا أنه لما مرض أتى بفروج [1] فى مرضه فقيل له ان شفاءك فى أكل هـذا ، فلسه بيده فاذا هو ينتفض ويرتعد ، فقال « استضعفوك فوصفوك ، فهلا وصفوا شبل الأسد » فان صح هذا فيقال لأبى العلاء أما لو أن هذا الفروج لا يعتدى على غيره ولا يستضعف شيئا فربما يكون لك فى ذلك شبهة ، ولـكن نلزمك على وجه الجدل مع قطع النظر عن الإباحة الشرعية بأن هذا الفروج قد استضعف حيوانات أخرى كثيرة دونه من خشاش الأرض واعتدى عليها وقتل نفوسا كثيرة منها شر قتلة على أشنع الوجوه ، بل ربما يأكل منها أشياء وهى حية ، فهلا عمد هذا الفروج الى ابن الصقر أو الشاهين فأكله أو اكتفى بالحب ونحوه دون القتل ، فنحن نعامله بما عامل به غيره ، بل ربمـا تكون معاملتنا له فى القتل أحسن من معاملته هو لغيره . ولا يصح أن يقال إنه لا يعلم بالاضرار التى تصيب غيره ، بل يعلم ذلك ، فانه يميز بين النفع والضر ، ولهـــذا فانه يفعل بجنسه إذا أراد طرده كما يفعل بهذه الحشرات ، لانه يعلم أن ذلك يضره ، ومن تسلط سلط عليه . فاذا كان هذا مقدار عقل أبى العلاء فكيف يجعل رأيه حجة على الدين

---

(١) الفروج هو الديك الصغير

وأهله . فان قيل هذا التعليل ينتقض فى الحيوانات التى لا تقتل شيئا كبهيمة الأنعام ، قلنا : ليس تعليلنا هذا هو كل وجوه جواز القتل ، بل انه وجه واحد من وجوه كثيرة منها ما ذكرناه ، ومنها أن هذه الحيوانات المباحة ليس فيها شىء لا يكون فيه اعتداء على آخر ، وهى وإن كان فيها أنواع لا تقتل من أجل الأكل لكنها قد يقتل بعضها بعضا كما فى النطيحة ، وقد يضرب بعضها بعضا ويطرد بعضها بعضا كما هو معروف مشاهد ، ومنها أن ما يحصل لها من اللذة والراحة والطمأنينة ورغد العيش بسبب خدمة الانسان لها ومدافعته ومحاماته عنها بل ربما يقتل دونها أو يهلك فى سبيل منفعتها وقيامه بشئونها كلها وما يلزم لها — أضعاف أضعاف ما يحصل لها من ألم القتل والموت الذى لا بد لها منه ولو لم تذبح ، بل ربما كان قتلها على هذا الوجه الشرعى أسهل علينا ، فان وجودها متوقف على ثلاث حالات : إما توجد وهى على هذا الضعف ويحرم قتلها والانتفاع بها على هذا الوجه ، وهذا يوجب تركها وإهمالها ، فان الانسان مجبول على الشح فلن يؤدى لها نفعا مجانا بدون معاوضة تكون أكثر مما أداه فاذا كان لا يرجو منها أكثر مما يؤديه لها تركها فلا يمكن بقاء نوعها وهى على هذا الضعف وعلى هذه الحالة ، لأنها تكون عرضة لشهوات الحيوانات العادية الشريرة ، اللهم إلا أن يكون بقاؤها نادرا . والحالة الثانية أن يكون حراما قتلها لكن يكون فيها قوة تمتنع بها من غيرها من أنواع السباع مطلقا وحينئذ إما أن تكون كالسباع أو كالظباء ، فان كانت كالسباع صارت زيادة نوع من أنواع السباع [1] ولا يخفى ما فى ذلك من الضرر على كلا التقديرين مع فوات النعمة الممنون بها المرتبة على وجودها . والحالة الثالثة أن توجد على هـــذه

---

(١) وان كانت كالظباء كانت زيادة نوع ظباء فقط ولم يحصل وجودها الذى لا بد منه لما فيه من الحكم على هذا الوجه

الصفة التى هى عليها الآن ، وهذه الحالة هى أكملها وأحسنها ، فكانت موجودة على أكمل الحالات وأحسنها بالنسبة اليها والى الانسان . فكان ما ينالها من ألم الذبح — مع أنه لا بد لها من الموت — سببا لما ينالها من الحياة على هذه الصورة ، لأن المقصود الأكبر هو الأكل منها والمنافع الأخرى تابعة لها وزيادة رحمة لها . فاذا عرضت منفعة أهم من الذبح قدمت غالبا ، وكان ما تناله من الانتفاع فى مقابل ما ينال منها من تلك المنفعة ، هذا مع ملاحظة أنه لا يجوز ذبحها إلا على وجه خاص فى أحوال خاصة ، فلا يجوز ذبحها إلا على الوجه الشرعى للامور المباحة والمشروعة لا اللعب والعبث ولا للاعانة على المعاصى والكفر ووسائل ذلك فان هذا كله محرم ولا يجوز بحال

*

ومن العجب أن هذا الملحد لم يجد ما يستدل به على نقص عقول المتدينين إلا بقول المعرى ، وقد نسى هذا الملحد أن الله سبحانه هو الذى حكم على الملاحدة ومن شابههم بأنهم هم الذين لا يعقلون ، بل حكم عليهم بأنهم أضل من الأنعام كما قال تعالى ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الناصة على كل من خالف الدين أنه شر من البهائم العجم كما قال تعالى فيهم ﴿ أولئك هم شر البرية ﴾ فأين من استدل بقول الله تعالى ممن لم يجد ما يستدل به إلا بقول المعرى ، مع أنه متناقض فى ذلك ، ولكن المضطر يأكل الجيف ، لأنه لا يجد غيرها وهى خبيثة لا تلائم إلا النفوس الخبيثة المنحطة

* * *

ثم قال « ومن الواجب أن تعرف سبب هذا الاستسلام والضعف الفكرى لدى هؤلاء المتدينين . والذى يظهر لنا كثيرا أن من أسبابه أنهم ينكرون أن يكون بين أحداث هذا الوجود ترابط وتعليل ثابت ، بل يرونه

أن الوجود كله بما فيه من حوادث وأحـــداث محكوم بقوة مجنونـة أو هى كالمجنونة فى أفعالها وتصرفاتها ، فلذا فلا قوانين ولا ضوابط للمعجـــزات والخوارق ، فكل شىء جائز وكل شىء مستحيل ، فيصابون بالفساد الفكرى العام ، واذا اختلفت الوسيلة فكذلك النتيجة ،

فيقال : اذا كنت ترى أن مستند هذا الضعف الذى تدعيـه هو انـكار الترابط بين أحداث هذا الوجود فقد بينا بالبراهين الصحيحة أنهم لا ينكرون الترابط المعقول بينها كما أوضحه شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم ونقلاه عن أئمة المسلمين ، لكن هم ينكرون ما تدعيه من نفى المشيئة والارادة العليا وأنها غير مسيطرة على هذا العالم ، والكفر بكونها تغير فيه شيئا . نعم هم ينكرون هذا ، فاذا كان هذا مستندك فقد زال الأساس ، فلا بد من سقوط ما بنى عليه فبطلت الوسيلة فكذلك النتيجة ، لأن جميع المتدينين ليس فيهم من يرى أن هذا العالم محكوم بهذه القوة التى ذكرها ، بل أدنى عامى يكفر من زعم ذلك فكيف يكون هذا رأيهم واعتقادهم ، ولكن نحن إذا بحثنا ودققنا عن أسباب هذا الانهيار الخلقى وهذه البلادة المنكرة وهذه الغباوة الظـــاهرة فى هؤلاء الملاحدة والزنادقة بحيث أن أكبر مفكر منهم لا يمكن بحال أن يكون بينه وبين الحيوان الأعجم أدنى فرق إلا بالصورة الظاهرة والنطق ، بل هو أضل فى الحقيقة كما قال تعالى فيهم ﴿أولئك كالانعام بل هم أضل﴾ أليس من البداهة التى لا ريب فيها أن الحيوان الاعجم غاية ما يسعى اليه الحصول على المتاع الدنيوى فى إشباع نهمته وشهوته ، وكذلك الملحد . وقد بينا فيما مضى عدم وجود أدنى فرق بين الملحد أو الزنديق والطفل أو الحيوان ، وإذا وجد فى أحد منهم نوع سيطرة فكذلك يوجد فى بعض البهائم سيطرة على جنسها وهذا بخلاف المتدينين فانهم امتازوا بانسانيتهم بالدين الذى به يعرف العدل والاحسان والرحمة والعلم والحكمة والكرامة وغير ذلك من الخصال الحميدة

نحن لو بحثنا عن أسباب هذا الفساد الفكرى الذى قذف بالملاحدة والزنادقة فى هذه الهاوية السحيقة لوجدنا أن السبب الأول فى ذلك أنهم اعتقدوا أن هذا العالم محكوم بالفوضى ، فقد تقدم تصريح هذا الملحد أن هذا العالم محكوم بنواميس الطبيعة ، وبين أن الحاكم له هو الانسان الذى يستخدم النواميس . وهذا صريح واضح فى أنه يرى أنه محكوم بالفوضى لأن الطبيعة ليست شيئا عاقلا عالما حكيما رحيما ، وإنما هى مصادفات التفاعل فى أفراد أسبابها ، وقد علم أن الانسان متفاوت فى العلم والمعرفة والقوة والضعف تفاوتا لا يمكن ضبطه ، فاذا كان هو المستخدم لها وهى تتفاعل باستخدام نفسها وباستخدام بعضها بعضا فلا شك أن النتيجة ستكون فى غاية الاضطراب والفساد لأنها نتيجة وسائل مختلفة متباينة متضادة غير منتظمة ، ولا فرق بين هذا الحكم وبين حكم المجنون ، فان المجنون إنما يعمل بمقتضى طبعه ، وبمقتضى استخدام من يستخدمه . وكذلك نواميس الطبيعة إنما تجرى وتحكم بمقتضى طبعها وبمقتضى استخدام من يستخدمها ، فالملاحدة بلا ريب يرون أن هذا العالم محكوم بقوة كالمجنونة ، ولهذا فانهم لما كانوا كافرين بالله وبنظامه وعدله وإحسانه وحكمته فلم تسع قلوبهم معرفة ذلك وظنوا به ظن السوء حيث أنهم رأوا حكمه تعالى مخالفا لآرائهم الخبيثة فكفروا به وبنظامه ووقعوا بالايمان بالطبيعة ونواميسها على الوجه الذى ذكرنا ، فكانوا أضل من الأنعام . ولهذا لما انكشف فى بعض الامم مضرة الالحاد وعظم تأثيره فى الشباب وأنه مرض قاتل تراجعت عنه كما فعلت تركيا وغيرها ، بالرغم من أن بعض هذه لم تعرف الدين الصحيح ، وإلا فلو عرفته حقيقة المعرفة لكانت شناعة الالحاد لديها أعظم لمعرفة حسن ضده ، والدين الصحيح هو ما كان عليه السلف الصالح فى الأخلاق الدينية ، تلك الأخلاق العالية السهلة القوية ، وقد تقدم الكلام فى الأسباب وبيان الترابط الذى بينها فلا حاجة الى إعادته

* * *

ثم قال « وهذا التعليل صحيح على وجه الإجمال كما يبدو لنا ، كما علل بعض علماء النفس والاجتماع القسوة التى يتصف بها المتدينون غالبـــا اذا قدروا ، وأخذهم خصومهم أخذا خاليا من الشفقة والانسانية لكثرة ممارستهم صناعة التخويف والتهويل للعصاة والكافرين وكثرة قراءتهم النصوص التى تصف الأهوال المعدة لأهل الآثام والشهوات ، فقد صاغوا طباعهم وأنفسهم بطابع الغضبية والقسوة والعنف فارتاضوا على ذلك كثيرا حتى أصبحوا وحوشا تنطق باسم الدين وتفترس على حسابه ، ومن ثم فاننا نعتقد أن هذه الجماعات المنسوبة الى الدين الناطقة باسمه لو أنها استطاعت الوثوب على الحكم ووضعت السلاح فى يدها [1] لحكم البشر عهد من الإرهاب يتضاءل إزاءه كل إرهاب يستنكره العالم اليوم ، وهذا أمر يجب أن يعرفه أولو الرأى والمقدرة وأن يحسبوا له الحساب قبل فوات الأوان ، ولن تجد أقسى قلبا ولا أفتك يدا من إنسان يثب على عنقك ومالك يقتلك ويسلبك معتقدا أنه يتقرب الى الله بذلك ويجاهد فى سبيله وينفذ أوامره وشرائعه ، والسوء لمن ناموا على فوهة البركان قائلين : لعله لا ينطلق » .

فيقال : الله أكبر ، ياما تضمن هذا الكلام من الخبث والضلال والتحريض عـــلى أهل الدين والدعاية الى بقاء المستعمرين فى أمكنتهم والتشديد عليهم وإضعافهم والضغط عليهم بكل شدة ، وان الانسان ليحار عند نقل هذه الجمل الملعونة ويتعجب كيف صبر المتدينون من المسلمين والمسيحيين وغيرهم من المنتسبين الى الاديان المؤمنين بالله تعالى واليوم الآخر على كثرتهم وعلى ما فيهم من شهامة وشجاعة وانتصار للحق ـ عن رجمه ولعنه فى كل حال وزمان ،

---

(١) إذن فالمتدينون لم يلوا الحكم يوما من الأيام ، وانما الحكم فى يد الملاحدة ، وقد مر لك أنه عد الهند والصين ودول الشرق كلها من المتدينين ، فانظر الى هذه المضحكات والمهازل المتسلسلة

وكيف بقى هذا الزنديق فى بلد تدعى أنها تدين بدين الاسلام . وأيم الله لقد عاد الاسلام غريبا كما بدأ . ولقد جاء الزمن الذى وصف النبى ﷺ المسلمين فيه بأنهم « غثاء كغثاء السيل » أى على كثرتهم ليس فيهم حياة إلا ضعيفة

نحن لا نشك كما لا يشك مسلم عارف أن هذا الزنديق لو وجه هذا الخطاب الى شخص واحد من المتدينين أو الى أهل مذهب أو شيعة لكان من المستيقن أن يحاكم على ذلك ولكن لما هجم على الأمم الاسلامية كلها بل على كل الديانات السماوية وشتمها وارتكب أكبر ذنب صار ذنبه أخف ، وهـــذا من أعجب العجب ، انه لما عظم ذنبه صغر حكمه فى أعين البعض ، وإلا فحقيقة هذا الكلام وروحه هو الطعن فى أديان الله تعالى والدائن بها ، وهو دعاية صريحـــة فى تحريض المستعمرين على الضغن على هذه الامم المتدينة وإضعافهم والمراقبـة الشديدة عليهم ؛ والا فهو يعلم حقيقة العلم أنه قد قرر فيما مضى أن الانسان مطبوع على الشر والخبث والظلم وأن المجرد من كل دين يبقى على الظلم والعدوان المطلق ، وهذا صريح فى أن الملاحدة هم أولى بالقسوة وأبعد عن العدل والرحمة ، لأنهم لم يمارسوا نصوص الحث على الرحمة والإحسان والعدل والنهى الأكيد عن تحدى هذه الأمور فى مواضعها ، فانه من المعلوم أن جميع الأمم المتوحشة بل الآكلين لحوم البشر هم من أولئك الموصوفين بالالحاد والبعد عن الأديان ، ولهذا كان معروفا لدى الخاص والعام أن أبعد الناس عن الدين أخبثهم خلقا وأنهم لا يرقبون فى إنسان إلا ولا ذمة لانهم لا يرجون ولا يخافون عقوبة ولا إثابة على ذلك ، بخلاف المتدينين فانهم قد علموا أن الله يحب المحسنين ويأمر بالعدل والاحسان وأنه من لا يرحم لا يرحم .

وانظر كيف أثر الدين فى العرب ذلك التاثير العظيم لما دخلوا فيه بعد أن كانوا على تلك الحالة الهمجية الوحشية ، فصار يضرب باحسانهم ورحمتهم المثل ، كما قرر غير واحد من العارفين بأحوالهم أنه لم يوجد فاتح أرحم من العرب ،

ويكفيك حديث بريدة أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أمر جيشا أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا وقال : اغزوا باسم الله الى آخر الحديث . وقد اشتمل على وصايا نافعة فى العدل والاحسان ، فان الدين كله دائر على العدل وعلى الاحسان بخلاف الإلحاد فانه دائر على الظلم والاستعباد، وقد دلت جميع الحوادث القديمة والاخيرة على الفرق الواضح بين المتدينين والملاحدة ، فأين سيرة المسلمين فى القرون المفضلة من سيرة عدوهم ، وأين سيرتهم فى القرون الوسطى من سيرة التتار والباطنية ونحوهم ، وكذلك ما جرى فى هذه الأزمان الأخيرة من الفظائع والشراسة والفوضى والهمجية التى ينكرها الدين والعقل ، فليوازن العاقل بين ما فعلته أمم الملاحدة حين ظفروا بغيرهم كايطاليا وأشباهها بغيرها فى شمال افريقية وبين فتوحات المسلمين ليعرف الفروق العظيمة بين المسلمين وغيرهم فى الرفق والإحسان والرحمة ، وهذا أمر واضح يعرفه كل من له مسكة من عقل ، وأما من طبع الله على قلبه فلن ينفع فيه شيء ، إنما يستجيب الذى يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ثم اليه يرجعون

٭ ٭ ٭

ولما فرغ هذا الملحد من شتم الاديان وأهلها وأفرغ جميع ما فى صدره من غل وخبث فى بغضها ومقتها ومقت أهلها وظن أنه قد انكشف أمره لف ودار ولجأ الى الخداع والنفاق على عادته فى الخداع والمنافقة والمكر السيء لأنه علم أن هناك قلوبا مقفلة يروج عليها هذا الهذيان ، وهذه هى طريقة سلفه من المنافقين الذين اتخذوا أيمانهم ـ أى بالتعلق على الدين ـ جنة ، فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، فقال :

« ولكن ما معنى هذا ؟ هل معناه أن الدين نفسه مفسد للبشر ، حائل بينهم وبين الكمال ، وأنه بطبعه مناف للروح العملية الانسانية المبدعة »

فيقال : نعم على صريح كلامك هو هذا معناه ، فهل أبين من تصريحك بهذا

في كل أغلالك ، ولو لم يكن من ذلك إلا دعواك بأن المتحللين من الأديان هم الذين صنعوا الحياة وصنعوا لها العلوم المبتكرة ، وأن المتدينين على اختلاف أجناسهم [١] وديارهم وأنبيائهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، ولا كانوا فيها مخلوقات متألقة ، فهل هناك بيان أظهر من هذا ، ومن يخفى عليه هذا فهو أجهل من حمار أهله

* * *

ثم قال « كلا ، ليس هذا هو المراد ، ولا هو الصحيح ، بل الدين بطبعه وروحه لا يعدو أن يكون وثوبا بالعاطفة وبالخلق والعقل والعمل ، وانه لكذلك اذا أخذ وفهم على وجهه »

فيقال : لكن لم تبين وجهه النافع المفيد ، بل صرّحت بان جميع المتدينين على اختلاف أجناسهم لم يهبوا الحياة شيئا جديدا ، فأين هذا الدين الذى أخطأه جميع أجناس المتدينين وأنبياؤهم ؟ كل هذا خداع ونفاق ومراوغة لا تنطلى إلا على أشباه الأنعام ، وإلا فكل من له عقل ودين يفهم ما فهمه السيد قطب من كلامك فى قوله : هذا رجل يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين خاصة ، ثم يتوارى ويتحصن فى الدين وينكر ما قد يفهمه القارىء من بعض النصوص ومن روح الكتاب كله وراء النصوص . ثم هذا رجل يسفسط ولا يأتى بشىء (دون كيشوت) جديد يطعن فى الهواء ويحارب أفكارا لم يعد لها وجود منذ خمسين عاما على الأقل . ثم هذا رجل يسرق أفكار غيره بالنص وينكر أن يكون قد قرأ شيئا من هذه الافكار ، الى قوله : هذا رجل تنقصه الجرأة على أن يقول ما يريد أن يقول ، واذن فلا حرية فكر ، ولا خطر على حرية

---

(١) ليس هناك عبارة أشمل وأصرح من دعواه هذه ، فان هذا يشمل جميع أجناس المتدينين

الفكر ، انما هى دعوة خبيثة ملتوية ضد التدين وبخاصة الاسلام ، وضد الروح الخلقية فى النفس والضمير إلخ .

ويقال أيضا : اذا كان الحال كما تذكر فى الدين فلم لم تقرره وتبينه وتدعو اليه وتنهى غاية النهى عن ضده والبعد عنه ، وتجعل كل موضوع كتابك معرفته والبحث عنه وعن أهله الآخذين به وبيانهم والثناء عليهم ، وما رأيناك فعلت شيئا من هذا ، بل كل كتابك فى عكس هذا الموضوع ، فانك لم تثن عليه ولم تذكر أن أحدا من الناس على هذا الدين ولم تحث على خلق دينى قط ، بل غاية ما ادعيت فى كتابك هو فهم الدين الذى هو توفيق لروح الدين والعمل ، فاذا كان فهمك للدين هو ما اشتمل عليه هذا الكتاب من هذه المخازى التى منها مسبة وزارة التموين المصرية والثناء على تشرشل ذلك الثناء الضخم وأمثال ذلك ، فهذا هو اللائق بعقلك المعكوس وفؤادك الخبيث

* * *

ثم قال ، ولكن ههنا شيئان : أحدهما أنه اذا أخذ على غير وجهه وقصده جاء ضارا مفسدا لأخلاق الانسان وكل معانيه الطيبه أو التى يجب أن تكون طيبة كما سبق البيان ،

فيقال : أخذ الدين على غير وجهه يشمل أمورا كثيرة كان من الواجب عليك أن تبينها لتجتنب ، أو تبين وجهه الصحيح ليؤخذ به ويترك ما عداه ، وأنت لم تفعل إلا الحث على رفضه وأخذ مضاده ، بل كل كلامك فى قلبه والأخذ به مقلوبا ، فان عبادة الطبيعة وأسبابها ضد عبادة الله وحده ، والاعتماد على الأسباب ضد الاعتماد على الله ، والتوجه اليها وتعليق الآمال عليها ضد الوثوق بالله والتوكل عليه وتعليق الامل عليه ، بل لا بد من الاعتماد عليه والأخذ بذلك كما أمر كما تقدم الحديث : احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن . الحديث

ثم قال « وثانيهما أن البشر عاجزون - فيما يبدو لنا حتى اليوم - عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه النافع المفيد ، بل هم إما أن يبقوا غير متدينين أو متدينين تدينا باطلا كما أثبت هذا جملة تاريخ الانسان ، ولا بد من استثناء فترات وومضات قليلة خافتة »

فيقال : نعم لا بد من أن تستثنى ذلك ليكون هذا عذرا لك ، وفاتك أن هذا لا ينفعك إلا ببيان الفترات والومضات ما هى ، ومن أهلها ، بايضاح وتفصيل ، وكيف يكون البشر عاجزين حتى اليوم غير هذه الفترات ، ولم لم يكن أهلها أيضا عاجزين ، ومن أين اطلعت عليهم وعرفتهم ، وما كيفية عجز أولئك وفهم هؤلاء ، وليس مثل هذه الدعوى العريضة بالأمر الهين الذى يكفى فيه الخداع بالأمور الغامضة المموهة ، فان دعوى كون البشر عاجزين عن فهم الدين كفر صريح لا يشك فيه إلا كافر أو زنديق ، فان هذا يتضمن أن الله سبحانه لم يقم على البشر حجة [1] ولا أنزل ما فيه هدى وشفاء ونور وبصائر ، وأنه عليه السلام ما تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعده إلا هالك ، وقال تعالى ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ كرر ذلك مرارا ايضاحا لكون الدين ميسر لمن أراد الاهتداء به ، وليس فى الدنيا أظهر ولا أيسر من فهم الدين على وجهه لمن طلب ذلك وأراده ، وأما من أعرض عنه واستكبر عن الاهتداء به فانه لن يبصر ما فيه من الهداية والبصائر والرحمة .

---

(١) ان الدعوى بكون البشر عاجزين عن فهم الدين تصريح بأن الله لم يقم عليهم حجته لأنه نسب المصيبة الى الدين لا إلى البشر ، فان هذا يقتضى أنهم لا يمكنهم أن يفهموه لعجزهم ، ومعلوم أن العاجز عن الشىء لا يكلف به ، بل هو تكليف بما لا يطاق ، فهو لم يدع أنه واضح ولكن الناس لا يريدونه أو أن البشرية قد فسد أكثرها فلا يقبلونه ، بل نسب القصور الى الدين لا الي البشر ، وهذا يصادم حقيقة قيام حجة الله على الناس

ولو أن إنسانا أغمض عينيه عن نور الشمس لم يرها ولم ينتفع بالاستضاءة بها فى طريقه ولا غيره ، ومن أين لهذا الملحد أن يحكم على البشر أنهم عاجزون عن أخذه وفهمه وتصوره على وجهه وهو قد ادعى فى كتبه السابقة كلها أن السلف الصالح وأتباعهم مثل ابن تيمية وابن القيم وأمثالهم كانوا على الدين الصحيح ، بل ادعى فى هذا الكتاب نفسه ص ١٥ أن الناس غير عاجزين عنه حيث قال فيما تقدم « إن أمريكا لم تتفوق علينا بسبب إيمانها بالله أو بسبب أخلاقها الدينية أو الروحية » الى قوله « وإننا إنما عجزنا عن اللحاق بها لعجزنا عن اللحاق بأخلاقها هذه ، لا لعجز فى روحانيتنا أو فى إيماننا بالله أو فى فضائلنا الدينية » انتهى ، وقد سبق هذا النقل وسبق الكلام عليه ، فانظر كيف تمرغ هـــذا الملحد كما تتمرغ الدابة ظهرا لبطن ، هناك يدعى أن إيماننا بالله وفضائلنا الدينية غير عاجزة وليس فى ذلك عجز ، وهنا يقول إن البشر حتى اليوم عاجزون عن فهم الدين وأخذه وتصوره على وجهه ، وسيأتى انقلابه أيضا مدعيا أن ديننا هـذا محرف ، وهكذا هو دائما تراه مستصحبا هـــذه المراوغات الثعلبية وقصده من ذلك أنه ليس ثم دين بالكلية ، لأن الدين الذى قد ثبت عجز البشر عنه وجوده كعدمه ، ولا ينفع استثناء الفترات التى لم تبين ويبين عملها وما هى عليه ، لأن الاستثناء المجهول لا فائدة فيه ، وجل الله أن ينزل دينا لا يعرف أو لا يعرفه إلا النادر ، فان النادر لا حكم له ، وقال تعالى ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ فأمر بتدبر القرآن وبين أن من لم يتدبره فهو مقفل على قلبه ، ففيه بيان أنه مفهوم ميسر فهمه والأخذ به وتصوره ، فان الغامض المعقد لا يستفاد منه ، فأخبرنا أن طريق الاستفادة منه هو تدبره وتذكره ، وأن من لم يفعل ذلك فلا يمكن أن يفهمه ، وذلك لا لأجل غموضه بل لأجل مافى قلب المعرض عنه من الطبع والاقفال ، فالفساد العارض هو من ناحية الانسان ، والا فهو نور وبصائر وحق على حقيقته ، وكيف ينزل الله علينا دينا ويجعله ختام الأديان مع علمه أن الناس عاجزون

عن فهمه ، فهو إذن لم يقم عليهم الحجة ، وقد قال تعالى ﴿ رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾ ومجرد كون بعض الأمم والشعوب والأفراد لم تعرفه لا يدل على خفائه لأن منشأ ذلك من الفساد العارض فى من لم يفهمه أو يعرفه لأنه إما معرض أو لم يجتهد فى التقصى والبحث عن ما به يعرفه ويفهمه من مظانه ، وإلا فمن طلب الحق بجد واجتهاد وصدق وإخلاص وجده بلا شك ، ولذلك لما اجتهد سلمان الفارسى فى طلب الحق وجده وقصته فى ذلك مشهورة ، وها نحن نرى كثيرا من الناس يصبر على المشاق العظيمة ويخاطر بنفسه فى أموره التى يحرص عليها فى مصالح نفسه أو أمته أو وطنه ، وأما دينه فانه أعجز الناس وأكسلهم فى معرفته وفهمه ، ومع ذلك يحمل عهدته على الدين ، والله سبحانه قد أوضح السبيل وأقام الحجة على خلقه بما أنزله من النور والكتاب المبين ، وأيد ذلك فى كل زمان بعلماء يبينون للناس وجه الحق وإزالة الباطل بيانا واضحا جليا ، كما قال الامام أحمد فى خطبته المشهورة « الحمد لله الذى جعل فى كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى ، ويصبرون منهم على الأذى ، يحيون بكتاب الله الموتى ويبصرون بنور الله أهل العمى ، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه ، وكم من تائه ضال قد هدوه ، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم ، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين الذين عقدوا ألوية البدعة ، وأطلقوا عنان الفتنة ، فهم مختلفون فى الكتاب ، مخالفون للكتاب ، متفقون على مفارقة الكتاب ، يقولون على الله وفى الله وفى كتاب الله بغير علم ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام ويخدعون جهال الناس بما يلبسون عليهم ، فنعوذ بالله من فتن المضلين » انتهى ويروى نحو هذه الخطبة عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه كما ذكر ذلك ابن وضاح . وهذه كتب السلف الصالح كلها واضحة الدلالة فى بيان الهدى وفهم الدين على وجهه ، وهذه كتب الإمام شيخ الاسلام ابن تيمية كالذهب

المصنى ، وهى مشتملة على بيان الدين بيانا واضحـا كالشمس بحيث لا يبق للعاقل المنصف الذى قصده الحق أدنى شبهة فى أصل هذا الدين ، فان كتب هذا الامام فتح كبير لهذه الأمة الاسلامية ، ومن أعظم النعم التى رحم الله بها هذه الأمة ولا سيما فى أصول الدين ، فهذه عقيدته (الواسطيـة) المختصرة والعقيدة (الحموية) كافيتان للمبتدىء . ولقـد كان من أعظم المصـائب التى حلت بأهل الاسلام بدعة الجهمية ، وأصلها كان مستمدا من الملحدين المنكرين للبارىء فلهذا توسل أهلها بانكار الصفات ، وإنكار كونه تعالى مباينا للمخلوقات ليس فوقها تذرعا الى نفيه ، فان وجود موجود لا داخل العالم ولا خارجه مما لا تقبله فطرة ولا تأتى به شريعة ولا يمكن أن يقر برب هذا شأنه ، بل هو سبحانه فوق العرش وما تحته فقير اليه ، وهو غنى عن العرش وعمـا تحته ، ولا يلزم من كونه فوقه احتياجه اليه ، فان استواءه عليه استواء يليق به ليس كاستواء المخلوقـين ، وكما أنه خلق الخلق كلهم وأمرهم ونهـاهم وهو غـير محتاج اليهم بل هو غنى عن ذلك كله فـكذلك علوه المختص به فوق عرشه كما أخبر به عن نفسه وهو أعلم بنفسه وبغيره ، وكل ما وصف الله به نفسه فهو على ظاهره على الوجه اللائق به تعالى ، ولا يسوغ تحريفه ذلك التحريف الذى يسمى تأويلا ، فلو فتح هذا الباب لتطرق التأويل الى نصوص المعاد ونصوص العبادات كلها ، وهذا عين إفساد الدين ، فان الجرأة على تأويل صفات الله تعالى أعظم من الجرأة على تأويل العبادات ، وما أفسد الملة غير هـذه التـأويلات الباطلة التى صنعها الملحدون باسم التنزيه حـتى نزهوا الله بزعمهم عن كل معـانى الربوبية ، فعمدوا إلى صفات الأفعال فسموها حوادث وقالوا منزه عن الحوادث ، وعمدوا إلى الحـكمة والغايات المطلوبة فسموها أغراضا فقالوا منزه عن الأغراض ، وعمدوا إلى صفاته تعالى كاليد والوجـه ونحو ذلك فسموها أبعاضا وقالوا منزه عن الأبعاض ، بل عمدوا إلى كل ما لم يوافق عقولهم فاخترعوا له عبارة قبيحة وتوسلوا بنفيها لنفى تلك الصفة ، فصار حقيقة قولهم

أنه منزه عن كل معانى الربوبية غير صفات قليلة مضطربون فيها اضطرابا لا ينضبط . والمقصود أن شيخ الاسلام عمد الى هذه الأصول فهدمها كلها كما عمد الى البدع الأخرى المسماة توسلاوهى عبادة القبوردعاء أهلها والاستغاثة بهم فى الشدائد والملمات وانزال الفاقات بأعتاب أهلها ، فلقد انتصب هذا الامام للرد على هذه الدسائس الالحادية وفروعها ردا أزاح عن الملة البيضاء كل حجاب وقتام ، حتى أسفرت وظهرت واضحة كالشمس فى نحر الظهيرة ، فكان إماما لأهل التوحيد ، ونقمة وعدوا لكل زنديق عنيد ، فانه رضى الله عنه صبر فى ذات الله وجاهد فى سبيله بيده ولسانه وقلمه جهادا لم يسبق له نظير بعد القرون المفضلة ، ومن طالع كتابه العجيب الفذ الخالد كتاب (بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول) وقد يسمى كتاب(العقل والنقل) وهو مطبوع بعضه على هامش كتاب (منهاج السنة) عرف مقدار هذا الإمام وعرف كيف ناضل عن سلامة هذه الشريعة الغراء نضالا خليقا بان يعد أكبر نضال سجل فى الدفاع عن الشريعة الاسلامية بعد أن أحاطت بها مكايد الأعداء من كل جانب ، وقد بين فى هذا الكتاب مقدار هذه الشريعة العظيمة وأنها غير محتاجة الى فلسفة المتفلسفين وتأويلات المشككين الظالمين الضالين ، بل الاسلام دين الفطرة الواضح السهل القوى ، وقد جمع هذا الكتاب العظيم جميع الشبه الواردة على الصفات مما لفقه جهلة المتكلمين ومن حذا حذوهم ممن لا بصيرة له ، وأجاب عن تلك الشبه بما يثلج الصدر بالعقل والنقل ، وسد طرق البدع سدا محكما ، فهو الكتاب الذى جمع فيه بين العقل والنقل ، وبين فيه أن ما جاءت به الرسل هو المطابق للعقول السليمة ، وأنه ليس بين العقل الصريح والنقل الصحيح أدنى مخالفة ، ويكفيك شهادة على عظمة هذا الكتاب ما قاله الامام ابن القيم فيه :

واقرأ كتاب العقل والنقل الذى   ما فى الوجود له نظير ثانى

ومما يؤسف له أن هذا الكنز النفيس المجهول القدر لما طبع لم يطبع كله ، بل ترك منه نحو مجلد ، ومع ذلك طبع على نسخة كثيرة الغلط ، ولعل الله أن ييسر له من أهل الدين والمجد والشهامة من يعيد طبعه فيطبعه كله ، فانه كتاب الاسلام فيما يختص بابطال كلام الدجالين والمبشرين والمشككين من أهل الكلام ونحوهم من الزنادقة الملحدين والجهمية والاتحادية وأمثالهم ، وهكذا كتب هذا الإمام كلها من تتبعها وجدها دينا خالصا (١)

وكذلك كانت كتب تلميذه البار العلامة ابن القيم فإن أكثرها مقتبس من نورها . وقد كنت أعرف شخصا جاء من اليمن الى الرياض وقد قرأ فى مذهب الزيدية ، وكان في الأصول معتزليا لا يثبت العلو ولا الكلام ويؤول أكثر الصفات وكان يجادل فى ذلك ويناظر عليه ، فلما ظفر بمختصر كتاب (الصواعق

---

(١) من أظهر الأكاذيب الهزلية الخرافية ما وقع فى رحلة ابن بطوطة فيما نسبه الى ابن تيمية فى النزول ، وقد رده العلماء ببراهين كثيرة فان كتب ابن تيمية كلها صريحة فى رد هذه الدسيسة . وقد أثبت التاريخ ان الوقت الذى دخل فيه ابن بطوطة دمشق لم يكن ابن تيمية فيها . ويكفيك أن كتاب شرح النزول للشيخ من أوله إلى آخره فى هذه المسألة ، وقد صنفه الشيخ ابن تيمية وقرر النزول بأنه لا كنزول المخلوقين بل من جنس سائر الصفات اللائقة بالله تعالى . وقال فى رسالته التدمرية ص ٢٧ « وكذلك اذا قيل كيف ينزل ربنا الى سماء الدنيا ، قيل له : كيف هو ، فاذا قال لا أعلم كيفيته ، قيل له : ونحن لا نعلم كيفية نزوله ، اذ العلم بكيفية الصفة يستلزم العلم بكيفية الموصوف ، وهو فرع له وتابع له ، فكيف تطالبنى بالعلم بكيفية سمعه وبصره وتكليمه واستوائه ونزوله وأنت لا تعلم كيفية ذاته » انتهى كلامه بحروفه . وأمثال هذا كثير . وقال فى (منهاج السنة) ص ٢٦٢ ج ١ عن أهل السنة : « وهم متفقون على أن الله ليس كمثله شيء ، وأنه لا يعلم كيف ينزل ولا تمثل صفاته بصفات خلقه » . انتهى كلامه بحروفه

المرسلة على الجهمية والمعطلة) لابن القيم أخذ يطالعه ويتدبره فلم يقرأ نحو نصفه حتى رجع عن مذهبه وقد رأيته مرة وهو يبكى ويقول : لقد كنت قبل أن أطلع على هذا الكتاب على ضلال ويؤسفنى والله أنى أعرف كثيرا من الناس على ما كنت عليه من قبل وأعرف أنهم لو اطلعوا على هذا الكتاب لعرفوا الحق الذى لا شك فيه . هذا كلامه ، وقد صدق ، فان من طالع هذا الكتاب النفيس عرف الحق معرفة كالشمس ، وهذا الكتاب مطبوع وموجود بكثرة وأكثره مستمد من كتاب العقل والنقل الذى تقدم ذكره وهكذا سائر كتب هذين الامامين وأمثالها كالحافظ الذهبي وابن رجب وشارح الطحاوية وأمثال هؤلاء فى القرون الوسطى ، ثم أظهر الله شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب فقرر هذه الأصول التى ذكرها الشيخ ، وبذل جهده فى تطهير هذه الاراضى الاسلامية من الشرك وعبادة الأوثان ، وكتبه وكتب أتباعه فى ذلك كثيرة شهيرة . وبالجملة فمن طلب الدين الصحيح بنية خالصة وعزيمة صادقة فلا بد أنّ يوفق حتى يفهمه ويعرفه على وجهه ، وأما من أعرض عنه فلا يمكن أن يفهمه ولا يعرفه أبدا ، فان المنافقين الذين كانوا بين الصحابة والنبي ﷺ حاضر عندهم لم يفقهوه بل كان عليهم عمى وفى آذانهم عنه وقر لأنهم لا يريدونه ولا يستطيعون سماعه لبغضه وكراهيته عندهم كما قال تعالى ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز ﴾ فهؤلاء الكفرة لم يفقهوا ما يقول لهم هذا الرسول الكريم شعيب عليه السلام مع عظم فصاحته وهو منهم ، وقد كرر عليهم النذر عشرات السنين ، ولكنهم يفقهون ما يقوله رهط شعيب من المحاماة عنه لانهم اعتمدوا على الأسباب المادية ورهبوها بخلاف الأسباب الدينية التى جاءهم بها شعيب فانها ليست عندهم بشيء ، فأعرضوا عنها ولم يستمعوا لها فلم يفقهوها ، وقال تعالى ﴿ والله يدعو الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ ،

ومعلوم أن من أجاب دعوة الله فلا بد أن يهديه الى صراطه المستقيم ومن اعرض واستكبر وتمرد فان الله لا يهدى القوم الظالمين

وينبغى أن يعلم أن دعواه هذه هى بعينها دعوى كثير من الملاحدة والكفار الذين كذبوا الرسل من أولهم الى آخرهم ، ولا سيما كفرة هذه الازمنة فانهم لم ينكروا إمكان وجود الدين الحق ومن نازع منهم الأنبياء فانما نازع فى صدق رسالة ذلك النبي الذى يدعوهم الى الإيمان برسالتــه ، كما قال المشركون للنبي ﷺ لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ، ولكن اكتب من محمد بن عبد الله ، فهم لا ينكرون وجود الأديان ، فانهم يقرون برسالة ابراهيم عليه السلام ويعلمون أنه نبي ، ولم يكونوا معذورين فى ذلك ، بل قد قامت عليهم الحجة . وكذلك الذين كفروا بعيسى عليه السلام لم ينكروا الاديان كلها ، وهكذا كل من عاند الرسل ولم يعترف برسالة الرسول لم يقولوا له لا نتبعك ولو كنت رسول الله ، ولا أن ما جئت به حق ولكن لا نتبعه ، بل غالب ما حكى الله عنهم أنهم يكذبونهم فى دعوى الرسالة ويجحدون بآيات الله ، وان كانوا يقرون باطنا ، كفرعون مع عظم كفره وتمرده فانه معترف بالرسالة باطنا كما قال موسى عليه السلام ﴿ لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والارض بصائر وانى لأظنك يا فرعون مثبورا ﴾ فأقسم موسى عليه السلام بأن فرعون قد علم أن الله مرسله وأنه رسول الله ، ولكن جحد ذلك استكبارا وإبقاء عــلى مكانته ، وراوغ فى تكذيب موسى تاره بدعوى أنه ساحر ، وتارة بانه تواطأ مع السحرة ، وتارة بانه فقير ولم يكن عظيما معه أسورة من ذهب أو معه ملئكة مقترنين ، ولم يعترف بالرسالة ظاهرا ويقول لا نتبعك ، قال تعالى عن فرعون وقومه ﴿ وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ﴾ فهذا ظاهر فى أنهم كانوا مقرين بوجوده تعالى وبوجود أديانه باطنا جاحدين ذلك ظاهرا ، فبهذا يعرف أن الملاحدة والزنادقة شر منهم

لانهم ملاحدة باطنا وظاهرا ، ثم هم مع كونهم شرا من فرعون فهم أهون أمرا من الزنديق الذى هو ملحد باطنا ويلحد أحيانا ظاهرا وأحيانا يتظاهر بالتدين لقصد قلب الدين وإفساده وإضلال عباد الله والصد عن سبيله ، كل هذه حقائق لا شك فيها لمن تأمل وأنصف ، وأكثر هذه الأمم التى يذكر عنها محاربة الأديان لا يقولون كلهم انه لا يوجد دين صحيح بالمرة ، بل كثير منهم يقولون هذه خرافات وأديان فاسدة أضرت باهلها فيجب إزالتها ، والدين صحيح قد وجد ولكن لا نعرفه وقد عجزنا عن معرفته ، ولا يمكن أن نبقى على دين فاسد كما يدعى هذا الملحد سواء بسواء ، فدعواه هى عين دعواهم ، فلا ينفعه هذا الاعتذار البسيط المموّه ، كما أنه لم ينفع جميع الكفار الذى ادعوه واعتذروا به ، وسيأتى لهذا البحث بقية

ودعواه بأنه لا بد من استثناء ومضات خافتة . يقال : هذا مع كونه خداعا لا يغنى شيئا ، فهو عين ما يدعيه الكفار أيضا ، فانهم لم يقولوا انه لم يوجد ، بل يقول أكثرهم إنه لا يعرف ، فدعوى وجوده غير دعوى معرفته ، فهذا الملحد قد ادعى أنه يوجد فى النادر ، لكن صرح بعدم إمكان معرفته ، لانه صرح بالعجز فلا حاجة إذن الى وجود النادر الذى تستحيل معرفته ، فان الشىء الموجود الذى لا طاقة للبشر بمعرفته وأخذه على وجهه لا حاجة الى وجوده ، بل هو ضرر محض ، فانه تكليف بما لا يطاق ، وكيف يكون برهانا ونورا مبينا ورحمة وبصائر وهدى وبينات والبشر عاجزون عن معرفته وأخذه على وجهه ، فأين الرحمة وأين الهدى وأين البرهان والنور ، قاتلك الله ما أشد جرأتك على الله ودينه وعباده المؤمنين

* * *

ثم قال « ويظهر أن المبادىء الانسانية العظيمة تأتى دائما سابقة لاستعداد الجماهير من البشر ، فاذا دعوا اليها أو فرضت عليهم - قبل تمام هذا الاستعداد -

أخذوها أخذا سيئا ضارا بهم وبالمبادىء نفسها ، وذهبوا يعملون بها على غير وجهها وصوابها ، ومن هنا تأتى النكبة ، وكلما تقدم نضج الانسان قرب من الإحسان ومن الفهم الصحيح والتصور الصحيح لهذه المبادىء الجيلة التى تسبق استعداده (١) ولا شك أن الناس اليوم يتصورون الدمقراطية والعدالة الاجتماعية والنظام العام للسلام ، وكيف يجب أن يكون الحكم والحكومات ، ولغير ذلك من مسائل الانسان العظمى ، تصورا هو أرقى جدا من تصورهم لها منذ ألف سنة أو بضعة آلاف من السنين ، كما أن تصورهم لهذا الوجود نفسه وفهمهم له يتقدم ويرقى ويصح ويصدق دائما ، وهم أبدا يقومون بعملية تخل مستمرة عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى القديمة لأمور هذا الوجود ، ليحلوا مكانها تصورات وأفهاما أرقى وأفضل (٢) ، والدين هو أحد هذه الأمور الجيلة التى عجز الناس عن تصورها تصورا صحيحا لأنها جاءت قبل استيفاء استعدادهم الموقوت (٣) فراحوا ضحايا هذا التصور الباطل ، وكان من

---

(١) نسى دعواه أن المجرد من كل دين ينشأ على الظلم والخبث والعدوان المطلق.

(٢) قد تبين نتيجة ذلك فى هذه الأمم التى تدعى أنها قد بلغت أقصى الحد فى فرض السلام وبث العدالة والنظام فيما فعلته مع اليهود إزاء العرب ، وما فعلته مع أندونوسيا إزاء هولاندة ، فهذا عدلهم وذاك فيهم ورحمتهم بالبشرية والانسانية، وبهذا المقياس يعرف ما وصل اليه الغربيون الراشدون عند هذا المغرور من النظام وحب العدالة ، وهذا ظاهر لا خفاء به ، ولا نحتاج أن نذكر أنهم حكموا على ليبيا بأنها لم تبلغ رشدها الآن ، وإنما تبلغ رشدها بعد عشر سنين اذا هذبوها هم وارتمت فى أحضانهم ؛ وهكذا طرابلس انما تبلغ رشدها اذا أعيدت لايطاليا أو غيرها وكفلوها كفالة الوصى الرحيم لليتيم ، واما سائر دول الغرب ولو كانت أصغر شىء فهى رشيدة كاملة بالغة بلا أدنى شك . هذه تصوراتهم وأفهامهم عند (الدو الذى فى لجج البحر).

(٣) اى ان الله استعجل بانزال هذا الدين قبل استعداد اهله لفهمه فانزله على اناس عاجزين عن فهمه وتصوره على وجهه

نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها لأنها فيما بدا لهم واقفة متحجرة تسد الطريق »

قلت : اذا كان الدين من هذه المبادىء التى جاءت قبل استعداد الناس لقبولها فلا شك إذن أن الله قد أخطأ فى إنزاله فى ذلك الوقت ، بل كان ينبغى أن لا يجيء إلا فى الوقت المناسب لقبول الناس له ، لئلا يكون ضارا . وهذا صريح كلام هذا الزنديق كما ترى ، فهو اعتراض صريح على الله تعالى فى إنزاله هذا الدين فى ذلك الوقت الذى يدعى أن الناس لا يبعدون فيه جدا عن طور الحيوان ، ولهذا صرح بانه جاء ضارا ، لأن الناس عجزوا عن فهمه لعدم استعدادهم لمعرفته ، فلم يكن نورا ولا شفاء ولا هدى ولا بيانا ولا رحمة ، ولم يبعث الله فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، بل أرسل اليهم ما لم يعرفوه فأخذوه أخذا سيئا ، فكان ضارا بهم فلم يخرجهم من الظلمات الى النور ، ولم ينشروا به العدل والحق على وجه البسيطة ، بل ردهم الى الفوضى والوحشية والهمجية ، لأنه جاء ضارا بهم كما يقول ، فأى كفر أصرح من هذا ، فقبح الله من يخفى عليه ما فى كلامه من الكفر الفظيع ، ولهذا ركب على هذا الرأى الخبيث أنه حيث جاء بهذه السرعة صار ضررا ونكبة عليهم ، لأنهم كلفوا بما يعجزون عنه ، فكلفهم الله مالا يطيقونه ، ولهذا وقعوا فى النكبات فى تلك القرون المفضلة ، وهذه هى عادته فى المباهتة والمكابرة ، وقد صرح بدون جمجمة ولا حياء بأن الناس اليوم أحسن تصورا فى هذه المبادىء ممن كانوا قبل ألف سنة ، وأنهم أبدا يقومون بعملية تخلٍّ مستمر عن تصوراتهم وأفهامهم الأولى ، وهذا كله بهت ظاهر وهذيان ساقط ، بل التصورات منها مالا يتغير أبدا ، ومنها ما يتحول ، ومنها ما يتطور ، فالأخلاق الفاسدة والكفر والالحاد والفواحش والكذب والنفاق والخيانة والغش والفجور والظلم والاستعباد

والبغى والقتل والسرقة والمكر والعدوان وأمثال ذلك كله يتطور كما فى الحديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » والواقع يشهد لذلك ، ولم تتخل الانسانيه عن شىء من ذلك ، وكلها نتائج لضعف التصور وفساد الفهم وعدم الثبات ، وهى كلها أخلاق ، والأمم كما يقال هى الاخلاق ، فاذا كانت هذه كلها تزيد فما الفائدة العائدة من تطور التصورات الاخرى كالأمور الصناعية التى لا تعادل الاضرار الناشئة عنها ، لان النكبات دائما إنما تأتى من حيث الاخلاق ، فاذا فسدت أخلاق أمة حلت بها النكبات ولا بد . ثم لو قدر أنها تعلم قبح الظلم والبغى والعدوان ولم تعمل بذلك فلا فائدة فى علمها ، فالعلم اذا لم يصحبه العمل فقد يكون ضررا على صاحبه . أما كونها قد عرفت شيئا من أمور هذا الكون لم تعرفه الانسانية الاولى فقد بينا السبب فى ذلك وهو تكرار آيات الله وتقلب عبره لقيام الحجة على خلقه كما قال تعالى ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم ، حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾ ومن الحكمة فى ذلك بيان أن هذه العلوم لا يعتمد عليها وعلى أهلها ، فان الأولين الذين كانوا يرون هذه العلوم التى تبين عدم صحتها قد ادعوا أنها حقائق وبراهين قطعية قد دلت عليها العقول ، وأن ما خالفها لا يلتفت اليه ، ولهذا شمخوا بأنوفهم عن العلوم السماوية والاهتداء بها وتمسكوا بتلك العقليات بزعمهم فظهر بطلان تلك النظريات ، وتبين أن تلك المعقولات شبهات انخدع بها أهلها ، وأن الحق كان فى ما جاء به الانبياء ، فانه على ما هو عليه وانه هو الحق الذى لا ريب فيه ، ولهذا كان كل نظرية خالفت القرآن قد تبين بطلانها ولم يأت قط ما يبطل أقل شىء مما أشار اليه القرآن ، فكان ذلك من أظهر المعجزات ومن أبلغ الحجج على كل من خالفه

* * *

وقوله « وكان من نتائج ذلك أن نهض فى الأمم كلها أقوام يحاربون الأديان ويعملون على إبطالها وتدميرها » الخ

فيقال : أنت من هؤلاء بلا شك ، بل من أعظمهم ، بل لم نعلم ملحدا او زنديقا وصل الى ما وصلت اليه من محاولة قلب الدين وتدميره وإفساده ، وكل هذه المجادلات الطويلة والمحاولات الملتوية التى نشرتها فى اغلالك هذه كلها مستعارة منهم ، شىء منها بالنص وشىء بالمعنى ، وقد استخدموك فى تبليغ هذه الرسالة الخبيثة التى حملت بها نفسك وحملت وزرها على ظهرك فبئسما قدمت لنفسك وجنيت عليها ، فما أخلقك بالدخول فيمن قال الله فيهم ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ﴾

* * *

ثم قال « ولا ريب عندنا فى مجىء ذلك اليوم الذى يقدر البشر فيه أن يدركوا من حقائق الأديان ما لم يدركوا ، وأن يفهموها ويفهموا مراميها السامية كما أريد منها وبها ، وحينئذ — حينئذ فقط تبلغ بهم السمو المقدر لها »

فيقال : متى هذا اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان اذا كانت كل هذه العصور الطويلة قد مرت بهم وهم غير مستعدين لها فلم يدركوا من حقائقها شيئا ، ومعلوم أنها إنما نزلت عليهم ليدركوها ويعملوا بها لا لينقلوها الى غيرهم ممن بعدهم آلاف السنين ، فان هذا ليس فيه رحمة ولا هدى ولا بيان لهم ، بل هو ضرر وعناء وشقاء عليهم فقط ، وقد ذم الله اليهود لما كانوا يحملون التوارة بدون أن ينتفعوا بها بقوله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ﴾ وقد تواترت الأحاديث بأنه لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه وان الاسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، الى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة الكثيرة المتقدمة الدالة بالنص على ضعف الاسلام وغربته آخر الزمان . فهذه الدعوى معاكسة لمدلولاتها معاكسة صريحة . نعم نحن نقول

انه سيأتى اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ومنافعها وضرر مخالفتها ونبذها ، نعم سيأتى ذلك اليوم ، يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيرا ، وقال تعالى ﴿ هل ينظرون إلا تأويله ﴾ يعنى هذا القرآن الذى هو أصل الدين ﴿يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ نعم هو هـــذا اليوم الذى يدركون فيه حقائق الأديان ، وحينئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا . ولكن هذا اليوم لا تسمو فيه الأديان إلا بمن أحبها وعمل بها ودعا اليها ، وأما من رفضها وعاداها ونافق فى الطعن فيها فانها تقذف بهم فى الدركات الجهنمية ولن يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا

* * *

قال « والانسانية — كما تحصل من مجموع تاريخها المعروف — لها ثلاث حالات : إحداها أن تكون بلا دين ، لا باطل ولا صحيح . وثانيها أن تكون على دين باطل ، أى على دين تتصوره علـى الصورة التى شرحناها فى هـــذا الكتاب . وثالثها — وهو خير بلا شك عندنا — أن تكون على دين صحيح تدركه إدراكا صحيحا . وهذه الحالات الثلاث هى على ثلاث درجات . ولا شك أن الحالة الثانية هى شر الحالات ، وأن الأمة التى تكون متدينة بهذا الدين تأتى عاجزة عن مقارعة الأمتين الأخريين »

قلت : قد رأيت أن هذا الملحد صرح بأن المسلمين اليوم شر من الملاحدة ، فانه قرر أنهم على دين محرف واهم ، وأنهم ليسوا عـلى دين صحيح ، وإلا لم ينكر عليهم وهم ليسوا ملاحدة ، بل يدعى أنهم على دين باطل ، وهـذه الحالة صرح كما ترى بأنها شر الحالات فجعلها شرا من حالة الالحاد . فالمسلمون اليوم

شر من الملاحدة بنص كلامه [١] ، ولكن من يسمع ومن يرى

(لقد اسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى)

وهذا التقسيم الذى ادعاه باطل من أصله ، والتفريع عليه ساقط بالضرورة والتاريخ والمشاهدة ، أما فساد التقسيم فانه لا يشك عاقل أن الناس يتفاوتون فى الإتيان بهذا الدين ، فمنهم من يكون متمسكا به تمسكا صحيحا جدا كتمسك الصحابة فى القرن الاول فى وقت الخلفاء ، ثم ضعف التمسك به شيئا فشيئا ، ومع ذلك فأهله على دين صحيح لا سيما فى القرن الأول والثانى ، ثم فى الثالث ظهرت بعض البدع المنحرفة ، ثم بعده افترقت الأمة طوائف ، وأكثر الطوائف معها حق وباطل وبعضها أقرب الى الحق من بعض ، ولا يقول ذو عقل إن الامة من وقت الصحابة الى هذا الوقت على دين باطل ، ومن ادعى هذا فقد كفر الأمة . وعلى هذا الذى ذكرناه تكون الأمة على درجات فكل من كان أقرب الى التمسك كان أقرب الى الدين ، فيكون أقرب الى الحياة والى القوة ، ومن كان عنه أبعد كان ابعد عن الحياة والقوة ، وهذا فى الفرق التى لا يطلق عليها اسم الكفر ، وأما الأديان المنحرفة أو الباطلة فهى أيضا درجات : فان الديانة المسيحية أقرب الى الحق من اليهودية وأقرب الى الحياة والقوة ، واليهودية أولى من الوثنية ، وقد قال تعالى ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين

---

(١) انه لمن العجب أن يخفى كفر هذا الزنديق على من نظر فى كلامه كما قال الشيخ العلامة المحقق عمر بن حسن آل الشيخ عندما اطلع على كلامه فى الذين مرقوا وجعلوا الصناعة والتجارة آلهة موحدة لا يشركون بها فتقدموا فى الحياة الصحيحة : « ما كان يخطر على البال أن يصرح إنسان بمثل هذا الكلام ثم يشك فى كفره ، فكفره واضح لا يستريب فيه من له ادنى مسكة من دين » وكذا قال الشيخ الفاضل قاضى القصيم عبد الله بن حميد وأمثاله من علماء المسلمين كما تقدم .

آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ففرق تعالى بين هذه الفرق وأباح الكتابية دون غيرها كما أباح لنا أكل ذبيحة الكتابي دون المجوسي والوثني ، فهذا القسم كما قلنا درجات أيضا وكل درجة فيها من الحياة والقوة والبصيرة بقدر ما بقي معها من آثار الدين السماوي ، ولهذا كانت الحياة في النصراني أكثر منها في اليهودي ، وفي اليهودي أكثر منها في الوثني كالملاحدة فان الملاحدة داخلون في الوثنيين لانهم يعبدون مظاهر الطبيعة ومظاهر الأسباب وان لم يتخذوها عبادة ولم يقصدوا بها العبادة فهي عبادة بنفس الفعل ، كما أن عباد القبور يكونون عابدين لها بنفس أفعالهم الشركية التي يؤدونها لها وان لم يقصدوا بها العبادة كما تقدم في حديث أبي واقد الليثي قال خرجنا مع رسول الله ﷺ الى حنين وكنا حدثاء عهد بكفر وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم فقلنا : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال « الله أكبر ، انها السنن ، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون . لتتبعن سنن من كان قبلكم » رواه الترمذي وصححه .

وفي حديث عدي بن حاتم أنه لما سمع النبي ﷺ يقرأ ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ قال : انهم لم يعبدوهم ، فقال ﷺ « أليس انهم يحلون لهم الحرام ويحرمون لهم الحلال » قال : بلى ، قال « تلك عبادتهم » ومعلوم أنهم لم يقصدوا بذلك العبادة فبين أن فعلهم هذا عبادة لان هذا ضرب من التعبد ، فان تقديمهم لآرائهم وطاعتهم لهم فيها مع كونها مخالفة للاديان عبادة صريحة . وهؤلاء الملحدون أعظم الناس خضوعا لأوامر رؤسائهم وطواغيتهم وأسرعهم انقيادا لهم واستسلاما لكل ما يأمرونهم به ولو كان مصادما أعظم المصادمة للشرائع ، أما أوامر الله تعالى فانهم يتعنتون في اتباعها وتصديقها ويحتقرونها بل وكثير منهم يرونها ضررا محضا ، فهل وراء هذه الوثنية وثنية ، ولهذا كان الملاحدة أعظم الخلق رسوخا في الوثنية لأنهم يعبدون مطلق

الأسباب الطبيعية التي يحملهم عليها رؤساؤهم كما يعبدون أشياء يعلمون قبحها وخبثها ، فالوثنيون والملاحدة قسم واحد ، وهو دركات متفاوتة . وهناك قسم آخر وهم الزنادقة والمنافقون ونعنى بالنفاق والزندقة اذا اطلقناهما معناهما الشرعى وهو ابطان الكفر واظهار الإيمان أحيانا خداعا ومكرا ، وهذا القسم هو أخبث الأقسام على الاطلاق ، وهو أسفلها فى الدنيا كما أن أهله فى الدرك الأسفل من النار وقد حكم الله على أهل هذا القسم باللعنة والطرد وعدم النصر مطلقا كما قال تعالى فيهم ﴿ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا﴾ وهؤلاء هم المذكورون فى الآيات من أول البقرة فى قوله تعالى ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ الى قوله ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ان الله على كل شىء قدير﴾ وهم المذكورون فى قوله ﴿واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله والى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا احسانا وتوفيقا﴾ وهم من أولئك المذكورين فى قوله ﴿ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنو سبيلا ، أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ فتأمل بدقة قوله ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا﴾ تجد السر العظيم فى أن كل من ادعى أن الكافرين أو الملحدين أهدى من الذين آمنوا سبيلا فقدم أقوالهم وآراءهم أو رآها بعقله وبفكره خيرا من طريق المؤمنين انه ملعون وانه لا ينصر ولا يمكن أن يجد من ينصره أو يعينه ، ولا سيما إذا كان ممن أوتى نصيبا من الكتاب ، أى عرف شيئا من الدين لان عقوبته تكون أغلظ لأنه اختار الخبائث على الطيبات ، فكان خليقا بالطرد والابعاد ، ولن ينفعه قوله ﴿إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا﴾ أى بأنى مـا أردت إلا أمرا حسنا وهو السياسة والتوفيق بين الدين والحضارة ونحو ذلك ، لأن

حقيقة كلامه أن الدين ليس فيه كفاية ، وحقيقة هذا أنه لم يعرف الدين وهو عبادة الله وحده وتحكيم ما أمر به صريحا مطلقا

والمقصود أن تقسيمه الذى ادعاه باطل بطلانا ظاهرا ، وأن الالحاد الذى ادعى أنه خير من الدين الباطل ليس بصحيح ، بل شر منه ، فان أكثر الدول المتقدمة قامت على أديان باطلة كدولة كسرى وقيصر وغيرها مئات السنين ، بخلاف الالحاد فانه لا يعرف أن أمة قامت عليه ما يقارب ستين سنة أى مقدار ما يعيش فيها الانسان غالبا ، بل قد يقوم بعضها سنوات تتخللها الكوارث والنكبات والمحن والمصائب ، ثم يحل بها الغضب الماحق ولا بدّ ، فالأديان الصحيحة والباطلة مثلها كمثل الأمراض والصحة ، فالدين الصحيح كالصحة والأديان الباطلة كالأمراض ، فمنها ما قد يبقى معه حياة ونوع من الصحة ، ومنها ما يقتل صاحبه ولا بد كالجذام ، ومنها ما هو دون ذلك ، ولكن الأمراض لا تحل بالجسم إلا إذا ضعفت صحته واختل مزاجه وفقد العوامل التى تكون فيها قوة على مقاومة الأمراض وازالتها ، وهذا هو التقسيم المعقول الذى تقوم عليه البراهين التاريخية والاستقراء التام والاعتبار الصحيح

اذا تبين هذا فاعلم أن الكتاب مقصود به رفض الدين والدعوة الى الالحاد وذلك أنه قرر صريحا فى هذه الجملة أن التقدم لا يمكن إلا فى حالتين إما فى الدين الصحيح أو فى الالحاد الصريح فأما الدين الباطل فقرر أنه عائق عن التقدم . ومعلوم أنه إنما وضع كتابه على ما يزعم فى الحث على التقدم ، وقد ادعى أن الحالة الأولى التى هى العمل بالدين غير معروفة ، وأن الناس غير مستعدين لفهمها فيما سبق ، بل عاجزون عن تصورها إلا فى النادر . وكل ذى مسكة من عقل يعرف أن كتابه ليس فى الحث على الدين وعبادة الله وطاعته ، حتى عند المرتابين فى أمره فانهم معترفون بان كتابه ليس حثا على الدين ، وغاية من يعتذر عنه أنه حث على العمل فقط ، فاذا كان موضوع كتابه

ليس حثا على الدين بالبداهة وبالاتفاق ، تعين أن يكون حثا على الإلحاد لأنه لا يمكن أن يكون حثا على الدين الباطل ، فانه قرر أن الدين الباطل عائق عن الرقى فتعين ـ بلا شك ـ أن كتابه دعاية الى الالحاد بضرورة التقسيم ، وهذا أمر لا يستريب فيه من له مسكة من عقل نابذ للعصبية والهوى ، قاصد وجه الحقيقة والصواب

وقوله « ولا شك ان الحالة الثانية هى شر الحالات » الخ يقال : بل لا شك فى بطلان ما ذكرته ، بل شر الحالات هى الثالثة أى حالة الالحاد المحض ، فان هذا هو الموت والدمار والهلاك المحتوم والمصيبة العظمى نسأل الله العافية ، وقد سبق بيان كونها شر الحالات قريبا

ثم الدين الباطل لم تبينه تبيينا مفصلا غير ما ادعيته من أنه الإقرار بمشيئة الله العامة ، وكونه تعالى يغير الأسباب فيجعلها إن شاء أسبابا وان شاء غير أسباب ، وان له الهيمنة عليها والوقوف بينها وبين مسبباتها والتحكم فى نتائجها وان رضى الله وغضبه له دخل فى الأسباب وأمثال ذلك ، فهذا هو الذى شرحته وادعيت أنه دين باطل وأنه فكرة دينية وهى أصل المزالق ، فيكون أهل هذا الدين عندك شرا من أهل الالحاد ، ويكون أهل توحيد الربوبية الذى أقر به كل من آمن بالله شرا من أهل الالحاد ، وأهل التوحيد الحق المخلصين فيه شرا من الملحدين بطريق الأولى ، فانهم أعظم فى المحافظة على توحيد الربوبية ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات على دعواك هم شر البرية

ثم أنت قررت أن التأخر إنما يعود الى سبب واحد وهو الجهل بقوى الطبيعة ونواميسها ، فيكون الدين الصحيح الذى يوجب النجاح هو معرفة قوى الطبيعة ونواميسها لديك ، والجهل بذلك هو الدين الباطل ، فيكون كل من لم يعرف هذا فهو شر ممن عرفه سواء أكان ذلك دينا صحيحا أو الحادا صريحا ، فالعرب الذين قررت أنهم أجهل من غيرهم فى هذه الأمور شر من الملاحدة ،

بل المسلمون شر من الملاحدة عندك لانك قررت أنهم عاجزون من كل ناحية من نواحي الأمور الاقتصادية والمادية والتجارية ، وان سبب ذلك هو عدم معرفة قوى الطبيعة ونواميسها فهم شر من الملاحدة [1]

هذا حقيقة كلامك بل صريحه ، وانما طولت الخداع والنفاق والجـــدال خوفا من أن تقع فيما وقعت فيه آخرا

* * *

ثم قال « وهنا يجب أن يعلم الغافلون من إخواننا فى سائر بقاع الأرض أن سادتنا الغربيين ومنافسينا من الشرقيين لا يؤذيهم أبدا أن نكون متدينين بهـذا الدين المحرف ، بل ان ذلك ليعجبهم ويرضيهم ، وانهم لعلى استعداد تام لأن يشيدوا لنا المساجد والمعابد ، وأن يطبعوا لنا الكتب الدينية ، وأن يصنعوا لهذا الغرض كل شيء ، وأن يعينونا على أداء كل فريضة من هذه الفرائض ، اذ أى ضير يصيبهم من ذلك »

والجواب ان يقال : نعم يجب أن يعلم هذا إخوانك الغافلون من الزنادقة والمنافقين فى سائر بقاع الأرض ، أما المسلمون فانك برىء منهم وهم براء منك ، وهم يعلمون ان العز كل العز والمجد كل المجد والسعادة كل السعادة فى القيام بما أمر الله به والاعتصام بحبله المتين ، وان ذلك هو الوسيلة الوحيدة الى عزهم واستعادة مجدهم ، وأنهم ما فقدوا هذا العز وهذا المجد إلا لمـــا تلوثوا بآراء الملاحـدة والزنادقة وتساهـلوا بالاعتصام بالدين ، وهم يعلمون أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، فمن كان مؤمنا فلا بد أن ينال العز والمجد والسعادة ، ومن

---

(١) بل ذكرت حديث تأبير النخل وهو يتضمن أن الرسول وأصحابه الذين تركوا التأبير على دين باطل ، لأنهم ظنوا أن النتيجة غير لازمة لوسيلتها ، وان المسبب غير لازم لسببه لزوما حتميا

خرج من الايمان أو تطرف فيه فلا بد أن يصيبه نصيبه من تطرفه ونصيبه من خسرانه فى الخروج . وهم يعلمون أن هنالك بلاداً تدعى الاسلام وقد عشقت هذه المبادئ الغربية الالحادية ورأت أن العز فيها وفى الاحتذاء بأهلها ، وقد أسرفت فى ذلك فما نالت إلا عكس ما أرادته ، وسلط عليها عدوها وسامها سوء العذاب ، وكلما ازدادت فى البعد ازدادت فى البلاء والشقاء والشر ، وهم يعلمون أيضا حقيقة العلم أنه لا أضر على هؤلاء الغربيين ولا أشد إيذاء لهم من القيام بالأخلاق الدينية والاعتصام بها ، لما يعلمون من قوة أهلها وشدة جلادهم وقوتهم على العمل والجهاد والكفاح والنضال المتواصل ، ولهذا فانهم يدسون لهم الدسائس الخبيثة فى إفساد أخلاقهم ، ويسعون فى طبع المقالات المخدرة فى الفسوق والالحاد وحب الجديد وأمثال ذلك ، وقد علم الناس أنهم قد اتخذوا جمعيات سرية لافساد الاخلاق واستعملوا الوسائل المتنوعة لاماتة روحهم المعنوية الدينية ، وبذلوا الأموال الطائلة فى ذلك لانهم يعلمون أن أقرب وسيلة لتخدير الناس عنهم هو انغماسهم فى الفجور والملاهى والغى والغرام ، وهذا بخلاف الاخلاق الدينية التى تبعث على حب الرجولة والكرامة والمجد والعز والاستقلال ، ولذا يقفون دائما فى وجه كل ذى خلق دينى ، ويضعون العراقيل أمامه ، وقد استفاض ما فعلوه من بث الدعايات فى التشكيك فى الدين وافساد العقائد ، ولا سيما العقائد السلفية ، والطعن فى الروايات الصحيحة الواردة فى فضل القرون المفضلة ، كما طعنوا فى حديث « لا يأتى زمان إلا والذى بعده شر منه » وهذا أمر قد عرفه كل الدهاة فيهم وحسبوا له الحساب ، وقد كان هذا الملحد من قبل خروج هذا الكتاب مقرا بذلك ، فانه ادعى على بعض خصومه ممن يعادونه فى سيرته الأولى فى تفضيل السلف بأن الملاحدة يستخدمونهم فى ذلك ، فدعواه الآن أن هذه الأخلاق الدينية لا تؤذى سادته الغربيين انقلاب الى ضد ما كان يدعيه سابقا . ثم لو فرض هذا فهل يسوغ فى العقل والدين أن نترك ما أمرنا الله به عنادا وحسدا لهم كمن يغضب على

صاحب سفينة فى البحر فيغرقها وهو وماله فيها فيهلك نفسه حسدا لصاحب السفينة ، فالعناد والهوى والأغراض لادخل لها فى الدين ، ولعل مقصودك من هذا ابعاد التهمة بانك فى دعايتك هذه غير مستخدم لهم فيها

(ثكلتك أمك ما ظننت غرور)

وادعاؤه بأن الناس على دين محرف صريح فى أنه يرى الناس على دين باطل ، فيكونون شرا من الملاحدة لما تقدم فى دعواه أن حال أهل الدين الباطل شر من حال أهل الالحاد ، وقصده فى هذا ايجاب رفضه ، فانه قرر أنهم على دين محرف وأنه يجب رفضه واعتناق الالحاد الصريح ، لأن الدين الصحيح قد ثبت أن البشر عاجزون عن فهمه وأخذه عن وجهه ، فيكون بأخذه على غير وجهه دينا محرفا وهو مضر مفسد للاخلاق ، فيكون شرا من الإلحاد ، وهذا هو هدفه الذى يرمى اليه ، ولم يستثن أحدا من المسلمين بأنهم على دين صحيح فيدعو اليه ، بل عمم الدعوى كما ترى . وهذا كما أنه فجور ظاهر وكفر صريح فهو يناقض دعواه السابقة فى صحيفة ١٥ وتصريحه بانه ليس فى إيماننا بالله وفضائلنا الدينية عجز كما تقدمت عبارته

كريشة فى مهب الريح ساقطة   لا تستقر على حال من القلق

ثم قال « ولكنهم من جانب آخر مستعدون أتم استعداد — اذا لم يمنع من ذلك مانع — أن يهدموا كل مصنع نشيده وكل حياة صحيحة قوية حرة نحياها ، وانهم يخشون ويحترمون فى وقت واحد أمثال مصطفى كمال موجد تركيا الحديثة ويقرون عينا — مع الاحتقار الشديد والفرح البالغ — بأمثال ذلك الرجل الجامد ، ذلك الرجل الذى قتل شعبه بالجهل والفقر والمرض ، والذى أمر رعاياه فى العام الماضى بقراءة القرآن والبخارى لرفع الوباء الذى اجتاح بلاده التى ليس فيها وسيلة واحدة من وسائل مقاومة المرض الصحيحة ، هذا الرجل الذى عرضت عليه المساعدات الطبية دولة مجاورة ، لانقاذ بلاده

البائسة الشقية من طاعون وفد اليها منذ سنتين فقط بشدة مزعجة ، فرد هذه المساعدات قائلا : ان الطاعون رحمة يخص الله بها بعض عباده فكيف نعمل على رفع الرحمة ؟ ! هذا الرجل الذى يمضى فى بناء السجون فى بلاده ، بينما تمضى كل الأمم في بناء المدارس والمصانع والمصحات ! »

يقال : كل هذا احتجاج بآراء المستعمرين بأنهم يرون هذه الأمور ، ولو ثبت ما ذكره عنهم لم يكن من الحجة الصحيحة فى شىء ، فانه إذا كان يحتج بآرائهم فهم يرون أيضا الكفر بالله وملئكته وكتبه واليوم الآخر وينكرون رسالة النبي ﷺ ، وملاحدتهم ينكرون الرسالة مطلقا ، فليحتج بذلك أيضا ، وإلا فكل عاقل يعلم أن الحقائق إنما تعرف بدلائلها وبراهينها ، لا تعرف بآراء قوم كافرين مختلفين أعظم اختلاف على وجه الارض فى آرائهم ونظرياتهم ، وهل يدعى مثل هذه الدعاوى الساقطة من له مسكة من عقل أو دين ، ومن العجب أنه مدح مصطفى كمال وادعى أنه موجد تركيا بمجرد إلحاده وقلبه لنظام تركيا وجعلها حكومة لا دينية بعد أن كان دينها الرسمى الاسلام ، فمدحه على هذه الردة الخبيثة وادعى أنه موجدها ، وهو يعلم انها كانت قبله من مئات السنين أكبر وأعظم وأرقى ، وقد عرفت تركيا نفسها هذا الخطأ الذى فعله هذا الرجل وتحققت ضرره فى شبابها الذى نشأ فى هذه المدة القصيرة فنادت بهذا الخطأ ورجعت تلتمس الدين وتعلمه فى مدارسها ، وهذا برهان منهم ظاهر على خطأه الذى مدحه هذا الملحد عليه ، ثم إنه لم يكتف بذلك حتى ذم الرجل الآخر الذى لم يسمه باسمه ، وبماذا ذمه ، ذمه لأنه أمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى واحتج بالحديث النبوى ، وهذه عنده ذنوب لا تغفر ، فكانت ردة مصطفى كمال وكفره بالله ورسله واليوم الآخر أحسن وأشرف وأجل وأعظم من الأمر بقراءة القرآن وصحيح البخارى والاحتجاج بالحديث ، وهذا هو اللائق بمن لعنه الله وجعله كالذى يحب الخبائث ويسقط عليها ، ويكره الطيبات

وينفر منها ، فهذه هى قاعدة هـذا الملحد ، فهو دائما يقول للذين كفروا ﴿ هؤلاء اهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾ فما أخلق به أن يكون من الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا

وهـذا الرجل الذى لم يصرح باسمه لعله يريد به ملك اليمن السابق يحي ، لـكن لم يبين من الذى عرض عليه هذه المساعـدات حتى يعرف كيفية ردهـا ولعلها حكومة عدن ، ومعلوم أن قبول الانسان للمساعدات مطلقا من دون ملاحظة أمر آخر غلط كبير لا ترضاه أكبر دولة على نفسها فهى لا تقبل إلا اذا كانت النتيجة أولى من الخسارة ، وأيضا فانه لا يعرف وقوع هذا الطاعون الذى جاءها فى هذه السنين التى أشار اليها على الصفة التى ذكرها ، بل يوجـد هناك أمراض متنوعة قد تكثر بعض الأحيان فى الأودية العميقة فى المناطق الحارة . ثم انتقاده الاحتجاج بالحديث هو انتقاد للحديث نفسه ، والحديث ليس فيه نهى عن التداوى وانما فيه إخبار بأن مثل هـذه المصائب التى منها الطاعون قد يقع رحمة ، فان جميع المصائب التى يصاب بها المؤمن اذا صبر واحتسب فتكون له اجرا ، ومع ذلك فهو مأمور بالتداوى ، كما ان النبى ﷺ قال فى الجهاد « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافيـة ، فاذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف » وكما أن العمى والخرس وموت الأولاد كل ذلك من المصائب التى يؤجر عليها الانسان ، وليس مأمورا بالوقوع فيها والجناية على نفسه بها ، بل هو مأمور بتجنبها ومداواتها ما استطاع ، ولعل هذا الرجل إنما احتج بالحديث لبيان أن أخذ المساعـدة بكل حال ليس بواجب ، لأن هذا رحمة فلا يكون ترك مثل هذا معصية اذا كان قد يجـر الى ضرر أكبر ، ومعلوم أن مثل حكومة عدن لا تسدى اليه نفعا رخيصا باردا بدون معاوضة أعظم وأكثر ، وقد عرف ما بينه وبينها من سوء التفاهم ، ولـكن يجب أن يعرف أن هناك ما هو أعظم من هذا الطاعون وما هو شر

منه ، وهو طاعون النفوس ووباؤها المميت القاتل ، ولم نجد أحـــدا مد يده المساعدة اليه فى انقاذ شعبه منـه ، وقدكان من الواجب عليه السعى فى تحصيل دوائه وقبول ما يأتيه من المساعدة على إزالته ، وهذا الطاعون والوباء القاتل الذى لا يمكن لشعب أن يحيى وأن يظفر بالعافية وهو فيه هو اعتقاد المعتزلة وكثير من أصول الجهمية فى الدين ، وذلك أن كثيرا من أهل تلك البلاد على هذه العقائد الباطلة ، وقد سمعنا من أناس منهم بدعوى أن القرآن مخـــلوق ، وأن الله لا يتكلم ، كما سمعنا منهم من ينكر أن يكون الله تعالى عـلى العرش ، وينكرون كثيرا من الصفات ، وفيهم أيضا بعض عقائد أخرى . فهذه هى العلل القاتلة ولهذا كانوا على هذه الحالة ، فان أصل مذهب الجهمية والمعتزلة فى إنكار العلو والكلام والصفات مأخوذ من الالحاد المحض ، فان الذين أصلوا هـذه الدعايات التى هى ضد ظواهر النصوص هم جمعيات سرية خبيثة مـن الفرس واليهود وغـيرهم قصدوا بذلك قلب أصول الإسلام وإفساده حسداً للعرب ، واستعملوا فى هذه الدعاية من أضله الله من ذوى السلطة وغيرهم لبثها ونشرها ، وقد قدمنا أن مـذهب السلف الصالح فى نصوص الصفات هى إجراؤها عـلى ظاهرها على المعنى اللائق بالله تعالى ، وذلك كالاستواء ، فان استواء الله سبحانه فوق العرش ليس كاستواء المخلوق بل استواؤه كسائر صفاته استواء يليق به ويختص به ، فهو سبحانه خلق العرش كما خلق غيره من سائر المخلوقات ، وهو غنى عنها كلها ، فهو مستو عليه ، وهو غنى عنه ، والعرش وما تحته فقير اليه ، ولا يلزم من استوائه عليه افتقاره اليه ، كما لا يلزم من خلقه له افتقـــاره الى خلقه ، وليس فوق العرش شىء مخلوق وجودى حتى يكون الله محتاجا اليه ، بل الذى فوقه عدم خالص والعدم ليس بشىء ، فاذا كان الله فوقه فليس هو فى شىء مخلوق موجود ، بل المخلوقات كلها بائنة منه وهو بائن عنها ، ومن أول وحرف الاستواء بأن معنى ذلك « استولى » فقد وقع فيما فر منه ، إذ أنه شبهه باستيلاء المخلوقين كبشر بن مروان الذى استولى على العراق ، واذا قال ان استيلاء بشر

لا يماثل استيلاء الله قلنا فهلا اعتقدت فى الاستواء مثل ذلك فقلت : واستواء الله ليس كاستواء المخلوق ، بل هو استواء يليق به ويختص به ، وبذلك تسلم من تحريف كلام الله ، والا فكيف تفهم من الاستواء مالا تفهم من الاستيلاء وكلاهما يتصف به المخلوق على ما يليق به من النقص ويتصف به الخالق على ما يليق به من الكمال ، فكما أن ذاته كاملة من كل وجه فصفاته كذلك ، ومعلوم بالبداهة أن كل صفة تختص بموصوفها وتليق به من كمال ونقص ، فالعبد لا بد من وجود النقص فيه طبعا ، فانه مكون من عناصر كلها ناقصة ومفتقر بعضها الى بعض ، وأما البارى تعالى فله الكمال المطلق من كل وجـــه وصفاته من الاستواء والكلام والرضا والغضب والرحمة والحكمة والعلم وغير ذلك كلها كاملة. وليس غرضنا الإفاضة فى بسط هذه المسائل فقد أوفينا البحث فيهـا فى كتابنا (كشف البهتان) وفى كتاب (الرد على الحصنى) فما ذكره من الانتقاد على هذا الرجل ومدحه لمصطفى كمال هراء مرذول كعادته

* * *

ثم قال « وان هؤلاء الدعاة الدينيين أقرب الى قلوبهم والى رضاهـا من أولئك الذين يوسمون بالإلحـاد والزيغ ، ممن يعملون عـــلى إيقاظ الشعور القومى ، وعلى بث الكرامة الوطنية السجينة فى النفوس تحت هذه الأنقاض المحطمة »

فيقال : بل الأمر المعروف هو عكس هذا ، فانه من المعلوم أنهم يبثون الدعايات فى تشكيك النـــاس فى أديانهم ، ويؤيدون بكل الوسائل أولئك الموصوفين بالالحـاد والزيغ ، لأنهم يعلمون أن هؤلاء هم الذين يميتون فيهم الروح الحية ويصدونهم عن العلم والعمل ، وقد علموا بالتجربة أن أكثر من يصمد فى مكافحتهم ونزاعهم هم الدعاة الدينيون أى المتمسكون بالكتاب والسنة ، وهذا الرجل نفسه قد اعترف بهذا فى كل كتبه السابقة ، ولكنه لما

نكص على عقبه وصار من المداهنين أخذ لا يألو المسلمين خبالا فى إفساد الأخلاق الدينية والقاء العداوة بين أهلها ، وغرضه من هذه الأكاذيب إبعاد التهمة الموجهة اليه بكونه داعية لهم ، وهيهات ذلك

ثم قال « وقد حدثنى أحد الرجال المشهورين أنه حاول مرات أن يسافر الى بلاده التى يقبض عليها الاستعمار بقسوة وإحكام ، فلم يستطع أن ينال التصريح الذى يبيح له السفر فالجأ إلى حيلة لطيفة هى أنه تزيى بزى رجال الدين الذين يقومون بوظيفة الوعظ والارشاد ، واضعاً على رأسه عمامة تزرى بالهرم ، وعلى كتفيه جبة تتسع لايواء كل الشياطين ، وتحت إبطيه من كتب التفسير والحديث والفقه والعقائد ما ينوء بحمله أحد حمر الحى ، قال ونجحت هذه الحيلة أعظم نجاح ، فأعطيت جواز السفر والدخول مع الاحترام والتوقير والسرور »

فيقال : قد مرّ أن هذا الرجل طعن فى روايات فى صحيح البخارى ، بل فى الصحيحين وغيرهما ، وهو هنا يحتج برواية هذا المجهول الذى أقر على نفسه بالنفاق ، ثم يريد منا أن نصدقه ونصدق هذا المجهول ونجعل ذلك برهانا على حسن الالحاد ، مع كون الرواية نفسها رواية منكرة ساقطة مشتملة على نفاق ومجازفة واستهزاء بأمر الدين . ثم هى لو صحت لكانت حجة عليه لأن غاية ما فيها أن هذا المجهول الحال سمح له لكونهم يرون أن ليس فى مثل هذا ضرر ، وفات هذا الزائغ أنهم يكونون بهذا مخدوعين لان حيلته انطلت عليهم فخدعهم بها ، فكان معه مكر وخبث ودهاء ، وقد تقدم أن هذا المغرور ادعى أن المكر والخبث والدهاء من الأمور العلمية العظيمة ، فاذا كانوا مخدوعين بهذه الحيلة البسيطة فقد يكونون ضالين فى هذا الرأى الذى رأوه ، وهو يناقض زعمه أن المتدينين هم الذين يخدعون دائما وأن الملاحدة يخدعونهم ، فصار الأمر هنا بالعكس . ثم هى طعن فيه ، فان هذه القصة مما يدل على أنه كان يخلو بأمثال

هذا المنافق المستهزئ ويتحدث معه بهذه السخريات فى أكل أعراض أهل الدين ، ثم ماذا يضر المسلمين لو كانت هذه المسألة وقعت مهما كانت حالتها ، ولكن هذا شان المضطر يحتاج الى الموقوذة والمتردية والنطيحة وما أشبهها

* * *

ثم قال « وقريب من هذا ما حدث قبيل هذه الحرب فى البرلمان الفرنسى ، إذ قام أحد الأعضاء — على أثر حملات تبشيرية مسيحية قام بها رجال الدين الفرنسيون فى المغرب العربى — قائلا : إن فرنسا دولة علمية إلحادية ، فما لها وللتبشير ؟ ! فنحن نستنكر ما يقوم به رجال الدين هناك . فقام الرئيس فرد عليه ردا ما أعجبه [1] اذ قال : ان هذه — يعنى العلمانية الالحادية — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج . وقصده من هذا أن الدعوة الى الأديان [2] يجب أن تبقى مستمرة نشيطة فى المستعمرات ، وإن حرمت فى فرنسا نفسها ، ويجب أن لا يخفى على أحد أنهم — أى الفرنسيين — لن يصدروا الخير الى الخارج مجانا ويحرموا بلادهم منه »

فيقال : وهذا من نمط ما قبله فى الاستدلال الساقط ، فان حاصله استدلال برأى رجل من فرنسا ، وهوان صح فهو حجة عليه ، لأن هذا الرئيس رد على هذا العضو ردا مسكتا لم يستطع الجواب عنه ، فبين فساد رأيه فى عدم الدعوة الى الاديان فقال ان هذه — يعنى نظرية الالحاد التى ذكرها العضو — بضاعة محلية لا تصدر الى الخارج ، ومقصوده من هذا أن الالحاد فى نفس فرنسا أو فى عاصمتها قد استحكم فبث التبشير فيه لا يفيد ، لأنه قد غلب على أكثرهم

---

(١) من أخبرك أن هذا الرد ما أعجبه ، وهو قد أسكته به ، فهو رد جيد ولو لم يعجبك

(٢) هذا تلبيس ، لأن المبشرين لم يدعوا الى الأديان ، بل الى المسيحية فقط

الالحاد وغالبهم يعرف الديانة المسيحية فلا معنى للتبشير هنا ، وأما المستعمرات فليست كذلك ، فانه لم يفش فيها الالحاد كغيرها ، وقبول الاديان هنالك ممكن فان الفطر تقبل الدين ولا تقبل الالحاد ، فلا مانع إذن من بث التبشير هناك لأن الحكومة اذ ذاك مسيحية أى دينها الرسمى ، وهذا يبين فساد دعواه بأنها لن تصدر الخير الى الخارج وتحرم بلادها منه ، فانهم لو كانوا يرون أن الأديان ضرر محض لم يخصوا الدين المسيحى بالتبشير بل لعلموهم الاسلام ، لأنهم ويرونه أضر إذا كانوا يريدون تصدير الشر الى مستعمراتهم . ثم لو فرض أنها ترى ما ادعاه فهل يكون رأيها هذا حجة ، فهذا المسكين تارة يحتج بحكاية مجهول منافق وتارة برأى رجل من فرنسا قد رده رأى رجل منهم أكبر منه ، وكل هذا الهذيان مكرر مما قبله ، وقد تقدم الجواب عنه ، فان الغرض المقصود منه إثارة الشنآن بين الرؤساء والمتدينين ، ومحاولة محـــاربة من ينسب الى الدين وطرده واحتقاره وأنه ليس على شىء من العقل والمعرفة

* * *

ثم قال « هذه قضايا قد آن الأوان لأن تكون معلومة . ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ أقول ان التدين المحرف الواهم نكبة على الجماعات وعلى الأفراد »

فيقال : هذا الذى تريد أن تقوله من كون هذا الدين الذى عليه المسلمون محرف واهم ، قد بينا لك أنه قول غير صحيح بل باطل بلا ريب ، فالدين الذى عليه كثير من المسلمين اليوم خصوصا أهل السنة وأصحاب الحديث ، وهو ما قرره الامام ابن تيمية وابن القيم وأمثالهما من أكابر المسلمين ، وهو ما ذكره أئمة السلف الصالح فى كتبهم المشهورة ، فهذا الدين ليس بدين محرف ولا واهم ، بل هو دين صحيح لاغبار عليه ولله الحمد ، فاذا كان الله قد أعماك عن فهمه ومعرفته وتصوره على وجهه فليس لك أن تحكم على المسلمين بالضلال ، وعلى دينهم بأنه محرف واهم ، فتنكر ما لم تحط به علما ، مع أنك متناقض فانك فى

كتبك السابقة ادعيته ودعوت اليه وقررت أنه دين صحيح لا ريب فيـــه ، وذكرت البراهين المتعددة عـلى ذلك . ثم لما انقلبت أخـيرا ذهبت تدعى أن البشر عاجزون عن فهم الدين الصحيح ، وتدعى فيما سبق وفى هذا أن ديننـا محرف واهم ، وتدعى مرة أخرى أن إيماننا بالله وأخلاقنا الدينية ليس فيهما عجز ، وهذا عين التلاعب . وأيضا اذا كنت فى شك من هذا الدين الذى نحن عليه فعليك أن تذكر هذا الدين المحرف وتبين وجه تحريفه وفساده ، فتذكر عقيدة أو عقائد من التى نعتمدها كالواسطية أو غيرها من كتب ابن تيمية أو ابن القيم أو محمد بن عبد الوهاب ونحوهم ثم تجيب عليها وتبين عدم فهمك لهـا ووجه فسادها ، أما الهجوم على دين الاسلام الذى عليه المسلمون بأنه دين محرف هكذا كيلا بمجازفة ، فقول لا يجرؤ عليه إلا من انسلخ من الدين والعقل جميعا ، ونحن ولله الحمد على بصيرة من ديننا ونعلم أنه صحيح غـير محرف ولا واهم ، وليس بنكبة على أحد لا على جماعات ولا على أفراد ، بل دين الاسلام الحنيف هو دين الفطرة ، ونحن مستعدون لمباهلتك عـــلى ذلك ، فلو قام المسلمون كلهم جميعا بهذا الدين وعملوا به وأخلصوا فى العمل به لخلصوا أنفسهم وشعوبهم كلهـا من عدوهم ، ولتقدموا به كما تقدم من عمـل به من أسلافهم وكانوا على غاية من العز والسيادة وضخامة الشأن

* * *

ثم قال « ولـكن هل يصح أن يفهم أحد من هذا أنى أريد الاستغناء عن الدين . كلا . فالدين حاجة من حاجات الانسان التى لا يمكن أن يستغنى عنهـا[1] . ولـكن ثبت أن البشرية عاجزة — إلا فيما ندر — عن فهمه عـلى

---

(١) هكذا صنيعه : لف ودار وتقهقر . مسكين والله مسكين من هذا الرعب والقلق والخوف الشديد

وجه الصحيح . هذه هى المشكلة التى لم يستطع حلها بعد »

فيقال : نعم ، قد فهم كل من له عقل أنك تريد رفض الدين بلا شك ، فمن تدبر كتابك هذا وأحاط علما بمغزاه ومرماه لم يتوقف فى هذا أبدا ، اللهم إلا أن يكون ممن طبع الله على قلبه وجعل على بصره غشاوة ، أما ما ذكرته من عجز البشرية عن فهم الدين فقد سبق الكلام عليه ، وكان من الواجب أن تبين لنا بأى وجه ثبت عجزها ، وما وجه الثبوت ، مع كونك قد ادعيت فى كتبك السابقة أن ما تدعو اليه دين صحيح كما سبق ، وكذلك ما ذكرته من كون هذه المسألة الكبرى هى المشكلة التى لم تحل ، فقد تقدم الجواب عنها أيضا ، وهى برهان على أنك لم تفهم الدين على وجهه ، وأنك تكلمت فيما لم تحط به علما ، وأنك لم تصل الى غاية محققة ، وأنك حكمت على المسلمين بان دينهم واهم بمجرد رأيك ، وضربت بجميع براهينهم عرض الحائط ، لأنك لم تذكرها ثم تجيب عنها وتبين ما يبطلها ، بل حكمت عليها بالبطلان بالدعوى المجردة ، فصار الكتاب الذى مدحته ذلك المدح غير موصل الى حقيقة ويقين بل الى شك وريب ، وقد بينا أنها اذا كانت هذه المسألة الكبرى مشكلة عليك فمن الواجب أن تستفتى فيها وتسأل عنها . أما نحن فهى لم تشكل علينا ، بل هى عندنا أوضح من الشمس فى نصف النهار ليس دونها غيم ولا قتر ولا شيء من الأشياء التى تحول بيننا وبينها أبدا . وأما أنت فانك لما كنت على عكس ما كنا عليه كانت نظرتك اليه عكس نظرتنا ، فانه خفى عليك هذا الواضح الجلى ، لأنك فى ظلمات بعضها فوق بعض ، مع عمى البصيرة والصمم والبكم والأغلال والختم والطبع والأقفال . وأيضا اذا كان قد ثبت هذا عندك فمن أين فهمت هذا الدين الصحيح الذى تمدحه لو أخذ على وجهه ، وما هو ، وما حقيقته ، وكيف كان مشكلا عليك ولم يحل . وأنت ذكرت أنه لو وجد لكان نافعا وكان أولى من الدين الفاسد والالحاد المحض ، وأيضا نقول : إما أن تكون قد فهمته أو لم تفهمه ،

فان كنت فهمته فكيف تدعى أنه مشكلة لم تحل ، بل عليك أن تبينه وتشرحه شرحا واضحا مفصلا ، ولا سيما إذا كنت تعلم أن الناس فى أشد حاجة اليه ، وكيف اختصصت بفهمه دون العالمين والنادر لا حكم له ، وان كنت لم تفهمه فكيف تدعى إنكار شىء لم تفهمه وعدم العلم بالشىء ليس علما بالعدم ، وكيف تحكم على غيرك أنه لم يفهمه مع اعترافك بأنه مشكل عليك ، وأنت لم تنقل عن أحد أنه أشكل عليه مثلك ، فهل هذا إلا عين التلاعب والخداع الظاهر ، وجل الله وتقدس أن يكلف الله الناس بما لا يطيقون فهمه أو لا يفهمه الا النادر منهم ، مع دعوة الخلق جميعا الى تدبره وفهمه ، كما قال تعالى ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴾ فكيف ييسره للذكر ويكون الناس عاجزين عن فهمه ، وقال تعالى ﴿ ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفورا ﴾ فبين أن الضرر إنما جاء من الناس لنفورهم لا من حيث غموض فى دلالة القرآن ، وقال تعالى ﴿ ولقد صرفناه بينهم ليذكروا ﴾ وقال تعالى ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف الذين أوتوه إلا من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه باذنه والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ﴾ فبين أن سبب الاختلاف هو البغى لا من أجل غموض أو قصور فى الدلالة على الحق ، بل بما قام بأكثر الناس من اختيار الباطل على الحق بالبغى ، وهذا المغرور جعل النقص من حيث الدين فانه جعلهم عاجزين عن فهمه ، ومعلوم أنهم لا يكونون عاجزين إلا من أجل غموض دلالته وقصورها ، وأنهم لو بذلوا طاقتهم عجزوا — ومعلوم أن هذا طعن صريح فيه وفى من أنزله — بل هم الذين أعرضوا عنه ونفروا منه واختارو العمى على الهدى ، وإلا فهو أوضح شىء وأظهره ، وليس هذا خاصا بالدين بل كل من أعرض عن شىء فلم يتأمله ويتدبره لم يفهمه ولم يتصوره على وجهه ، وإلا فمن ابتغاه بصدق وإخلاص هداه الله اليه

كما قال ﴿ يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ﴾ وقال تعالى ﴿ ويهدى اليه من ينيب ﴾ فقد بين تعالى طريق فهمه والهداية به بأسهل شيء وهو الإنابة اليه تعالى والافتقار والتضرع اليه والاخلاص والصدق فى معاملته، فانه أكرم الأكرمين، وقد بين صريحا أنه يهدي اليه من ينيب، وأما من لم يرد الهداية فقد بين الله له طريقا آخر، فاذا سلكه الانسان فان الله لا يهديه، وهو طريق الظلم والتمرد والفسوق والاعراض، وحقيقة هذا هو عدم الانابة اليه، فقال تعالى ﴿ إن الله لا يهدى القوم الظالمين ﴾، ﴿ والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾، ﴿ إن الله لا يهدى من يضل ﴾، ﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾، ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾، ﴿ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون ﴾، ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾ فكل من كان فى صدره حزازة أو ريب وشك فيما أخبر به الرسول ﷺ أو قدم عليه رأى أحد كائنا من كان أو استصغره أو احتقره أو رأى انه لا يفيد فى الدنيا أو أنه آلة ضعف أو أنه لا يفهم جدا فقد ضل وتعرض للخيبة وانخساف القلب وانطماس البصيرة والهلاك المحتوم. وهؤلاء المساكين ـ الذين تساهلوا فى أمر هذه الأغلال ـ إنما أتوا من حيث ظنوا أن أمر الدين ليس بالامر الكبير الذى يجب احترامه جدا والبعيد كل البعد عما يقدح فيه ويشوه سمعته، فانهم لما كانوا ضعفاء الدين محترمين لأمور الدنيا رأوا أن إطلاق هذه الأمور ليس فيه ضرر كبير لأنهم لا يرون احترام الدين وتعظيمه أكبر شيء فى الوجود، وهل أعظم من احترام نظام الله الذى به أنزل الكتب وأرسل الرسل وأعز من أطاعه واذل من عصاه بسببه

* * *

اذا عرفت هذا فقد بينا لك فيما سبق أن من أعظم قواعد هذا المغرور فى كتابه الذى يدور عليها فى كل فصل من فصوله ما نقلناه عن السيد قطب من

لكونه يريد أن يطعن الطعنة فى صميم الدين ثم يتوارى هنيهة فيذكر ما تنطق به النصوص ويتحصن فى الدين . فهو هنا لما قال ما قال وسجل ما سجل على الأديان السماوية وأهلها وآنس من نفسه أنه قد يكون قد انكشف أمره توارى ثم رجع يذكر ما فهمه القارىء من نصوص أغلاله ولجأ الى حصن الدين لانه خاتمة الكتاب فأراد أن ينسى القارىء جميع ما تقدم ، وهيهات

أسأت ومن يسىء يوما يساء　　رويدك فالجزاء بها وراء

فقال « وإلا فكم استطاع الدين أن يهب الانسانية الأمل الحار والوقود لتسير فى سبيلها الطويل الشاق ، لتبلغ هذه الغاية التى بلغتها ، وكم أضاء لها طريقها يوم أن كان يتعثر فى الظلام ، وكم حبب اليها الألم والعذاب فى تحويمها حول أهدافها الكبرى ، وان كل ما نحن فيه ما هو إلا إحدى نتائج هذا التحويم »

فيقال : هذا مع كونه منافقة وخداعا لا يخفى على عاقل ، فانك لم تبين من أخذ بهذا الدين من علماء الامة ، ومن هو الذى سار عليه على كثرتهم ، بل ادعيت فيما سبق أن هذه الفرق كلها غالطة ، ولم تستثن أحدا منهم ، فأين هذا الدين ، فان كان موجودا فهو لا يعرف ، وأنت لم تبين غير ما ذكرت أنه ما تضمنه كتابك ، مع دعواك أنه رأى رأيته وحدك ، وأنه مشكلة لم تحل ، فما الفائدة إذن من هذا الدين الغامض المجهول . واذا كانت كل هذه القرون الطويلة لم يعرف فيها الدين والناس يحومون حوله ولم يقعوا فيه ، فمتى يقعون ومتى يعرفون هذا الدين ويعملون به

ثم قال « ومن المحقق أنه لولا هذه الهبة السماوية التى هى الدين لتقرر مصير الانسان على نحو آخر من هذه النهايات »

فيقال : ما هو تقرر مصير الانسانية الذى تعنيه ، أهو الدمار والهلاك ، فهذا تناقض صريح منك ، أم هو السعادة والتقدم المستمر ، فما بالك إذن لم تبين

هذه الهبة وتشرحها وتفصلها وتدعو اليها ، وكيف ساغ لك أن تعاديها . ثم من هو الذى قد ظفر بالأخذ بهذه الهبة وتقرر مصيره على ما تعنيه وتريده ؟ كل هذا خداع مكشوف

° ° °

ثم قال « وما كان مستطاعا أن يستغنى البشر عن الدين إلا إذا كان من المستطاع أن يستغنوا عن الأمل فى حياتهم ، أو يصنعوا لهم أملا آخر ، إذ لا حياة بدون أمل »

فيقال : هذا مكرر قد تقدم الجواب عن مثله مرارا ، وهو خداع متناقض

ثم قال : واذن فهل معنى عجز الانسان عن أن يفهم التدين والدين فهما صحيحا أن الواجب عليه ، أو المستحسن له ، أن يتركه وينأى عنه . كلا ، وإنما الواجب أن ننفق القوى والأوقات على محاولة فهمه وإفهامه ، وهذا عين ما فعلناه فى كتابنا هذا . وقد كانت أعظم رسالات الأنبياء موجهة الى تصحيح التدين وتصحيح الاديان ، وهذا التصحيح هو إحدى رسالات الانسان الكبرى » هذا آخر كتابه

فنقول : ما فعلته فى كتابك هذا معلوم مشهور مقطوع بمعرفته ، ونحن نباهلك على أنه كفر وضلال ، فلقد عرفناه وعرفه كل مسلم تدبره (وهل يخفى النهار) لا ريب أن كتابك دعاية واضحة الى رفض الأديان ومحاربتها والقدح فيها وأهلها ، وهذا لا يتفق أبدا أن يكون محاولة لفهم الدين ، فمحاولة فهم الدين شىء وكتابك هذا شىء آخر ، فأى مسألة واحدة من مسائل الدين كبيرة كانت أو صغيرة ذكرتها ورغبت فيها ودعوت اليها حتى يسوغ لك أن تدعى هذه الدعوى ، اللهم إلا أن يكون مرادك بالدين هو التوجه الى الطبيعة ونواميسها والاعتماد الكلى عليها ومحاربة دعاء الله وعبادته وذكره والتوجه اليه ، فهذا صحيح على مقتضى موضوع كتابك ، فهو عين ما فعلته فى هذا الكتاب مع أنك أيضا معترف بأن نهاية أمرك فيه إشكال لم يوجد له حل ، فهذه المحاولة

التي ادعيتها لم توصلك الى شيء بكل حال ، ثم اذا كانت أعظم رسالات الانبياء موجهة الى تصحيح الدين وتصحيح الأديان ولم تكن موجهة الى رفض الاديان ومعاداتها وأهلها فما الذى حملك على معاكستهم ومعاندتهم بالشدة الحسادة والمضادة الظاهرة ، فاين تصحيح التدين وأين تصحيح الأديان ، فان تصحيح التدين بيان الدين الصحيح ببراهينه وبيان أهله ومن قام به بدلائل واضحة مفصلة ، ثم بيان فساد ما يعارضه ويخالفه بأدلة وبراهين صحيحة جلية ، هذا هو المعقول فى بيان تصحيح التدين ، أما الهجوم على الأديان وعلى مظاهرها وسبها وشتمها والتهكم بأهلها والاستهزاء بهم مجازفة وقحة فليس هذا من التدين فى شيء ، بل هو محاربة لها ولأهلها ، ومن ادعى أن طريقة هذا الكتاب هو تصحيح الاديان أو التدين فليعالج عقله وليبك على نفسه وليعلم أنه لم يعرف الدين ، والله سبحانه قد أوضح غاية الايضاح ما دعا اليه الأنبياء فى كتابه العزيز من التوحيد والايمان والعمل الصالح والتقوى والدعاء والانابة اليه والتوكل عليه كما قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ وقال تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول الا ليطاع باذن الله ﴾ الى قوله ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ وبالجملة فكل أصول الدين ومظاهر عبادته حاربتها وعاندتها أشد المعاندة ، فأين تصحيح الدين ، هذا مع إقرارك بان هذا الذى تدعيه شيء انفردت بمعرفته ولم تذكر أن أحدا من علماء المسلمين وافقك عليه ، ومعلوم أن الله سبحانه جعل للدين سبيلا وأهلا وأتباعا وأنصارا ﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾

هذا آخر ما أردنا جمعه ، ونسأل الله أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، إنه سميع مجيب . ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

لقد ضل من أغراك بالسب والهجا . .

ألا أيها الغمر الذى غرّه الكبر ترديت من عال وناسبك القعر
تمنيت يا مغرور ما ليس حاصلا فساءت لك العقبى وصادمك الدهر
أماني مغـرور تزايد عجبـه فليس له إلا الإهانة والدحر
فأصبح مدحورا لدى كل عاقل له الطرد والابعاد والذم والهجر
تفكر طويلا يا جهولا ترادفت عليه المخازى فهى فى متنه أسر
خسرت بهذا البيع أخسر صفقة فما أنتج المسعى ولا أربح الوفر
نبذت نفيس الدر واخترت ضده ومن يكره الياقوت يعجبه البعر
تحـيرت عن سبل الرشاد غواية وصدك عن طرق الهدى الكبر والأشر
فأصبحت مصبوبا عليك شتائم كما كان مشبوبا على قلبك الجمر
ظننت خداع الله فى الدين هينا ولن يخرج الله الذى كنه الصدر
فجئت بأقوال النفاق مخادعا فقد بان ما تخفيه وانهتك الستر
أبى الله إلا أن يعاقب من بغى وأضمر سوءا قصده الكيد والشر
فما نلت عمـا كنت تبغيه ضلة سوى عكس ما ترجو وحل بك الضر

* * *

لقد جاء فى (الغل) الذى قد عملته لنفسك قول ليس يخفى به الكفر
تحـارب دين الله يا شر ملحد وتلصق آراء بـه مالهـا قدر
وتعرض عما فيه من ساطع الضيا ومن مُثُل عليا ينال بها الفخر
فكم من شعوب مسها الويل والعنا فجاء لها من نوره المجد والنصر
وكم من شعوب ذاقت الذل والشقا به اعتصمت يوما فطار لها ذكر
فسل من درى التاريخ من كل عارف اذا كنت لا تدرى كأمثال من غروا
وسل من له علم صحيح وفكرة لكى تعرف الغرّا فانك مغتر
والا فعز الدين — ويحك — بين كما بان وجه الشمس والضح الظهر

دعوت إلى الإلحاد جهدك معلنا بأن فساد الناس ليس له إثر
سوى أنها الأسباب تجرى بطبعها وليس لرب العرش فى سيرها أمر
وهذا هو الإلحاد لا شك واضح فكيف يروج المين أو ينفع العذر
وتزعم أن الغرب ما سار وارتقى ولا ساد إلا حينما حله الكفر
وأن نظام الدين أخر أهله وليس لأهل الدين عقل ولا فكر
تجاهلت عن كل الشعوب التى هوت وسيرتها الإلحاد والكفر والنكر
فكل ذوى الجهل الشنيع وشبههم من الأمم السذجى وليس لها حصر
همو عندك الراقون فى العلم والحجى لأن ما لهم فى الدين فهم ولا خبر
فانك عللت التأخر عندنا بأسباب هذا الدين لا سيما الذكر
وإقرارنا التدبير لله كله بقدرته من شأنه الحكم والقهر

* * *

أطلت لحاك الله فى القدح فى الدعا وتسفيه من يدعو إذا مسه الضر
نفيت صريحا أن يكون وسيلة وليس له نفع سوى أنه الشر
وكررت هذا الكفر فى كل موضع لعلمك أن الدين أشرفه الذكر
فهل قال هذا القول قبلك مشرك سوى الملحد الأشقى ومن قاده الخمر
وفسرت عدل الله فى الحكم والقضا بقرمطة شنعاء بل إنها جبر
بتفويضه الأسباب تحكم ذا الورى بطبع قديم عندها العسر واليسر
فكل أسير للطبيعة موثق وليس يعين الله من ضده عسر
فعطلت هذا الكون عن أمر ربه وصيرته طبعا له الوصل والبتر
فلا فرق بين المحسنين وضدهم فلا تنفع الحسنى ولا يوبق الوزر
وهذا هو الكفر الصريح مؤكدا ومن شك فى هذا فليس له حجر

* * *

وتسلك فى أمر النسا شر مسلك إباحية صلعاء ليس لها ستر

فتزعم أن المسلمين يرونها كبعض متاع البيت ان صانها خدر
فلا العلم أعطوها ولا شيء غيره سوى القيد والأصفادقد شدها الأسر
خلقت فجورا ثم جئت مدافعا لتوهم أغمارا إلى الغى قد جروا
بأنك تدعوها الى العلم والنهى وتدفع ما أبق لها الجهل والقسر
فأسميت ما تنوى من الخبث والخنا كذا الرقص والفحشاء والخمر والسكر
هو العلم والتحرير والعدل والضيا وأما سوى هذا فليس به خير
فمن أعجب الاشياء أنك تفترى وتحسب أن الناس بالزور لن يدروا
فتصنع من دعواك فى البهت حجة ومن ردّ ما تملى هو الجاهل الغرّ

* * *

مدحت بنى صهيون عظمت شأنهم وذا المدح والتعظيم حتما له سر
(دسائس لا تدرى اليهود بعشرها) حداك اليها السوء والخبث والتبر
وإلا فما هذى المحاماة دونهم وتحريف آى الذكر ما ردك الزجر
أضفت لهم كل المعارف والقوى ونحن جميعا حظنا الجهل والفقر
وجردتنا من كل علم وقوة ومن كل آيات يفيض بها العصر
وقلت جهارا دون أى تكتم بأن ضلالا أن يتم لنا أمر
سوى أن تمسكنا بإبقا حليفنا ليدفع عنا إن أريد بنا الغدر
فصرحت بالعدوان والخبث ظاهرا ولكن أعمى القلب أقنعه الهذر
جننت بأمر (النشء) فيما سمعته فأسرعت فى تصديق من قوله هجر
فأعماك ما أبصرت فى البر والفضا ومن سفن شتى يموج بها البحر
فصدقت ما يروى على كل حالة وقد طار منك العقل وانتفخ السحر
وأما علوم الدين والنور والهدى جميعا ففى أذنيك عن سمعها وقر

* * *

ألا يا نصير الكفر ويلك فاتئد ولا تنطح الصفوان يدمغك الصخر

لقد ضل من أغراك بالسب والهجا كما زل من أغواك نيته المكر
أتحسب أن الدين سهلا أساسه ستنزله أقوالك الزور والفجر
أتحسب أن الدين تخفى ضياءه عجاجتك الهوجا وآثارها الكدر
أتحسب أن الناس قد غاب عنهم مقاصدك السوءى وأفعالك المر
أتحسب أن الدين يدرك بالريا بلا فعل إخلاص يصاحبه البر
فما أنت فى دعواك إلا منافق كأصحابك النوكى وهم فى الورى كثر
فأنتم فساد الناس فى كل أمة وجرثومة يضنى بها الجسم والفكر

* * *

لقد فات ما ترجو وأخفقت دونه فشب على أحشائك (الغل) والحر
فدعنا من التلبيس فالحق واضح وإن ظلام الليل يفضحه الفجر
وإن خداع المرء يعرف ظاهرا وكل رياء سوف يجرى له نشر
فمن عجب دعواك أنك مصلح وأنك ترجو أن يزاد لك الوفر
فأمليت ما أمليت بالطيش والهوى مقالة مأفون تمادى به السخر
فتقدح فى الأديان جهرا وترتجى بأسباب هذا القدح يوعى لك الذخر
(كمطعمة الأيتام من كد فرجها) وتزعم فى ذا الفعل أن لها أجر
لحى الله قوما صانعوك غباوة لأهواء نفس نالها الخوف والذعر
أمثلك يا مأفون يخشى ويتقى لقد هزلت نفس يهولنها الصر
فما أنت إلا ضفدع مترنم ينق على بعد إذا بله القطر
فلا تجعل العدوان للدين راحة فبعدا وسحقا عاقك العسر والخسر
فانك لن تشفى من الغيظ والبلا بلى ان هذا الوحر يلهبه الوحر
فمهلا قليلا انك اليوم غافل ستندم فى الدنيا ومن بعدها القبر
ومن بعد ذا يوم عسير حسابه به يعلم الانسان ما أثمر العمر
وكل بذى الأيام يلق جزاءه فليس بها هضم لحق ولا جور

ابراهيم بن عبد العزيز السويح

فهرس

الجزء الثانى من (بيان الهدى من الضلال)

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تم بحمد الله

المطبعة السلفية - ومكتبتها
٢١ شارع الفتح ٭ بجزيرة الروضة (القاهرة)